



الهيئة العامة السنورية للكتاب

برلين
ساحة ألكسندر



تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد
الهيئة العامة
السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

برلين

ساحة ألكسندر

تأليف: ألفريد دوبلين
ترجمة: صلاح حاتم

الهيئة العامة
السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م



الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراء المؤلف ومواقفه ولا تعبر
(بالضرورة) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

مُقَدِّمَةٌ

هذا الكتاب يروي عن عامل نقل وإسمنت سابق فرانس بيير كوبف في برلين. أفرج عنه من السجن؛ إذ سجن بسبب وقائع مضى عليها بعض الوقت وصار الآن في برلين ثانية، ويريد أن يكون مستقيماً.

ويتأتى له هذا أيضاً في البداية. لكن من بعد ذلك، ومع أن حاله من الناحية الاقتصادية بين بين، فإنه يتورط في معركة مرتبة مع شيء مصدره الخارج لا يمكن تكهنه ويبدو مثل مصير مقدر.

ثلاث مرات يصطدم هذا بالرجل ويضايقه فيما يختطه لحياته. يجري فيصدمه بالغش والخداع. في مقدوره أن يستجمع قواه ثانية، ما زال يقف في ثبات.

يدفعه ويضربه بنذالة وحقارة. يصعب عليه أن ينهض، يكاد يحكم عليه بالانهزام بعد ضربة قاضية.

أخيراً يجبطه بأشد ما يكون من القسوة الرهيبة.

وبهذا فإن صاحبنا فرانس الطيب الذي ظلّ حتى النهاية مشدود القامة ينهزم. يعلن خسارته للمباراة، ولا يدري كيف يستمر ويبدو مقضياً عليه.

لكن قبل أن يضع نهاية جذرية لنفسه يتنبّه إلى الحقيقة بطريقة لا أعينها أنا هنا. سيستين له في أوضح صورة على أي شيء توقف هذا كله. وعلى وجه التحديد عليه هو نفسه، ويرى المرء هذا، على ما يختطه في حياته بدا

كأنه لا شيء، لكنه يبدو الآن فجأة شيئاً آخر، ليس بسيط وأقرب إلى أن يكون بديهياً، بل هو متكبر وعلى غير دراية، وقح، وفي أثناء ذلك جبان وضعيف كلّ الضعف.

الشيء المخيف الذي كان هو حياته يصبح له معنى. فقد جرى القيام بمعالجة جذرية مع فرانس بيركوبف. ونرى الرجل في النهاية واقفاً من جديد على ساحة ألكسندر، وقد تغير كثيراً، تضرّر، إلا أنّ الأقدار قوّمت اعوجاجه وأعادته إلى رشده.

ولمشاهدة هذا وسامعه فإنه لمجدٍ بالنسبة لكثيرين يسكنون في جلد بشري مثل فرانس بيركوبف وحدث لهم مثلما حدث لفرانس بيركوبف هذا، أي أن يطلبوا من الحياة أكثر من شريحة بالزبدة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الكتاب الأول

هنا في برلين يغادر فرانس بيبركوبف سجن تيجل الذي ساقه إليه ما سلف من حياة خاوية. ويصعب عليه أن يعيد بناء كيان في برلين، لكنه يفلح في هذا ويُسرُّ به، ثمَّ يقسم إنَّه سيكون حسن السيرة والسلوك.

في الحافلة الكهربائية رقم ٤١ إلى المدينة

وقف أمام بوابة سجن تيجل وقد أطلقوا سراحه. أمس كان لا يزال يجرف البطاطا في الخلف على الحقول في لباس السجن، والآن مشى في معطف صيفي أصفر، هم كانوا يجرفون، وهو مطلق السراح. ترك الحافلات الكهربائية تمر الواحدة تلو الأخرى وضغط بظهره على السور الأحمر ولم يذهب. المراقب عند البوابة تمسَّى عدة مرات ماراً به ودلّه على حافلته، لم يذهب.

كانت اللحظة الرهيبة قد جاءت [رهيبة يا فرانس، لماذا رهيبة؟]، كانت السنوات الأربع قد انتهت. مصراعا البوابة الحديدية السودان اللذان كان نظر إليهما منذ سنوات بكراهية متزايدة، [لماذا بكراهية، لماذا بكراهية]، انغلقا وراءه. وتركوه من جديد. في الداخل سجن الآخرون، وكانوا ينجرون ويلمّعون ويفرزون ويلصقون، وقد كان بقي لهم ستان، خمس سنوات. وقف عند موقف الحافلة.

بدأت العقوبة.

انتفض وازدرد ريقه. وداس على قدمه. ثم تحفّز وجلس في الحافلة الكهربائية. وسط الناس. بدا له في بادئ الأمر وكأنها كان يجلس عند طبيب أسنان أمسك جذر سن بالكماشة ويخلع، ويتزايد الألم، والرأس يريد أن ينفجر. أدار رأسه إلى الورا صوب السور الأحمر، لكن الحافلة الكهربائية طارت به مسرعة على القضبان، ولم يبق إلا رأسه باتجاه السجن. وانعطفت العربة، وحال بينهما أشجار وبيوت. تكشفت شوارع تدبّ فيها الحياة، شارع البحيرة، ناس كانوا يصعدون وينزلون. في داخله ضجّ شيء مرتاعاً: انتباه، انتباه، بدأ الجدد. تجمدت أرنبه أنفه، شيء أزر فوق خده. «الساعة الثانية عشرة صحيفة الظهر»، «صحيفة الصورة (بيلد تسايونغ)»، «أحدث المجلات المصورة»، «الساعة اللاسلكية جديدة»، «هل من شخص آخر صعد إلى الحافلة؟» عند الشرطة الآن بزّات زرقاء. ونزل ثانية بلا مبالاة من الحافلة وكان وسط الناس. ماذا كان هناك؟ لا شيء. ضبط النفس، أيها الخنزير الجائع، تجلّد وتماسك، وإلا ناولتك لكمة على أنفك. حشد من الناس، وأيّ حشد. وكيف كان هذا يتحرك. مخّي لم يعد له شحم، وكأني به قد جفّ. ماذا كان هذا كله. محلات أحذية، محلات قبعات، مصابيح كهربائية وبارات. لا بدّ للناس من أن يكون عندهم أحذية إذا ما كانوا سيتجولون كثيراً، وكان عندنا نحن أيضاً محلّ لصنع الأحذية، ولا نريد أن ننسى هذا. مئات الألواح اللامعة، دعها تلمع، فهي لن تخيفك، تستطيع أن تحطمها، وماذا عن تلك، إنها منظفة تنظيفاً تاماً. لقد قلعوا بلاط ساحة روزيتال وسار بين الآخرين على ألواح خشبية سميكة، واختلط الناس بالناس، وهنا يمضي كل شيء، ثم لا تلحظ أي شيء، يا رجل. أشكال انتصبت في واجهات الحوانيت في بزّات ومعاطف، لابسة سترات وجوارب وأحذية. وفي الخارج كان كل شيء يتحرك، لكن، وراء ذلك - لم يكن هنالك أي شيء! لم تكن -

حياة-! كانت هناك وجوه فرحة مرحة، وكان هناك ضحكٌ وانتظارٌ على الرصيف وسط الشارع مقابل جزيرة آيشينغر أشخاص مثني وثلاث، وتدخين سجائر وتصحف جرائد. وهكذا انتصب هذا هنا مثل المصابيح - و- ازداد تحجراً. تبع بعضهم بعضاً مع البيوت، كل شيء أبيض، كل شيء من الخشب.

اعتراه فزع حين هبط شارع روزينتال وفي حانة صغيرة كان يجلس رجل وامرأة لصق النافذة: كانا يجترعان الجعة من نصف لتر، أجل، وأي ضرر كان في ذلك؟ كانا يشربان لتوهما، وكان معها شوكتان وبهما كانا يدسان قطع اللحم في الفم، ثم كانا يعودان فيخرجان الشوكتين من الفم دون أن يدميا. آه، جسده تشنج، لا أفهم هذا. إلى أين ينبغي أن اذهب؟ وجاء الجواب: العقوبة.

لم يستطع العودة إلى الورا، كان قد قطع بالحافلة الكهربائية مسافةً طويلة إلى هنا، وكان قد أفرج عنه من السجن، وكان عليه أن يدخل إلى هنا، ويوغل أكثر في المكان.

أعرف هذا، تنهد في أعماقه، أعرف أنه يجب أن أكون هنا في الداخل، وأنه أطلق سراحي من السجن. كان عليهم أن يفرجوا عني، فالعقوبة انتهت، كان له نظامه، والبيروقراطي يؤدي واجبه. أنا داخل إلى هنا، لكنني لا أرغب، يا إلهي، لا أستطيع.

تجوّل في شارع روزينتال ماراً بمتجر تيتس، وانعطف إلى اليمين إلى شارع صوفيا الضيق. وقال في نفسه، هذا الشارع أكثر ظلمة، حيثما يكون الظلام سيكون أحسن. فالمساجين يوضعون في الحبس الانفرادي في حبس الزنانات وفي الحبس الجماعي. في الحبس الانفرادي يُعزل السجين ليل نهار بلا توقف عن سجناء آخرين. وفي حبس الزنانات يوضع السجين في زنانه، إلا أنهم يجمعونه مع الآخرين في صخب أثناء التحرك في العراء وأثناء الدرس

والقداس. وتتابع صخب العربات ورنينها، وجرت واجهة بيوت تلو الأخرى مسرعة دونها توقف. والسطوح كانت في البيوت وطارت هذه من على البيوت، وهام نظره إلى فوق: ليت السطوح لا تنزلق، لكن البيوت انتصبت واقفة. إلى أين ينبغي أن أمضي، أنا البائس التعيس. وجر جر خطاه على طول حائط البيوت، وامتد به السير إلى ما لا نهاية. إنني غمي كبير، وسيكون في إمكان المرء أن يتلوى ويتثنى هنا في مروره، خمس دقائق، عشر دقائق، ثم يحتسي كأس كونياك ويجلس. وعلى إشارة النواقيس المتعلقة بالموضوع يجب البدء بالعمل على الفور. ولا يجوز التوقف عنه إلا في الفترة المخصصة للأكل والتنزه والدرس. وعند التنزه ينبغي للسجناء أن تظلّ أذرعهم ممدودة، وأن يركبها إلى الأمام وإلى الوراء.

هنا كان منزل، أبعد النظر عن البلاط، ودفع باباً وخرجت من صدره تأوهات حزينة تتم عن ضجر وكدر؛ لفّ ذراعاً حول ذراع، إذن يا بني هنا لن تحسّ بالبرد. انفتح باب الفناء، شخص مرّ به جاراً رجليه ووقف وراءه. تأوّه الآن، وكان للتأوّه أثره الطيب، وكان قد تأوّه على الدوام في الحبس الانفرادي الأول تأوهاً شديداً، وسرّه أنه كان يسمع صوته، هنا كان للمرء شيء ما، ولم يمض شيء بعد ولم ينته. كثيرون كانوا يقومون بذلك في الزنانات، البعض في بداية الأمر، والآخرين فيما بعد، حين كانوا يشعرون بالوحدة. ثم بدؤوا بذلك، كان هذا في النهاية شيئاً إنسانياً، وكان يواسيهم. وهكذا وقف الرجل في بهو المنزل ولم يسمع الصخب الرهيب من الشارع، والبيوت المخصصة للمجانين لم تعد موجودة. وبشفتين ممطوطتين نعر وجمع كفيه في الجيب. كتفاه كانتا محشوتين في المعطف الصيفي الأصفر احتشدتا للدفاع.

كان قد وقف شخص غريب بجانب السجين الذي جرى الإفراج عنه. سأل: «هل بك شيء، أأست على ما يرام؟ هل تتوجع؟» إلى أن انتبه إليه وتوقف عن النعير. «هل أنت في حالة سيئة؟ أأسكن هنا في البيت؟».

كان يهودياً له لحية حمراء، رجلاً قصيراً يلبس معطفاً ويعتمر قبعة مخملية سوداء ويده عصا.

«لا، لا أسكن هنا» كان عليه أن يغادر الدهليز، وكان الدهليز المكان المناسب. ومن جديد بدأ الشارع، وواجهات البيوت وواجهات الحوانيت والأشكال المسرعة بالسراويل أو الجوارب الفاتحة اللون، الجميع بهذه السرعة، وبهذه الحركة الخفيفة، كل لحظة شكل آخر. وبما أنه كان حازماً دخل من جديد في دهليز، لكن هنا كانت البوابات مفتوحة لكي يسمح لعربة ما بالمرور. ثم سارع إلى بيت مجاور إلى دهليز ضيق قرب مطلع السلم. هنا كان صعباً أن تأتي سيارة. أمسك عمود الدرازين. وبينما كان يمسكه عرف أنه كان يرغب في أن يتملص من العقوبة [أف لك يا فرانس، ماذا تريد أن تفعل؟ لن تستطيع ذلك] ولسوف يفعل هذا لا محالة، لقد عرف أين كان المخرج. وعاد من جديد إلى موسيقاه بصوت منخفض، إلى النعير وإلى المهمة. لن أسير أبداً في الشارع. ودخل اليهودي الأحمر مرة أخرى إلى المنزل، ولم يكتشف في أول الأمر الآخر عند الصعود. سمعه يدندن. «هيا قل ماذا تفعل هنا؟ أأست في حالة جيدة؟» وانتزع نفسه من العمود، واتجه صوب الفناء. وما إن أمسك بدرفة البوابة حتى رأى أن اليهودي كان من المنزل الآخر:

«بالله عليك هلاً انصرفت! ماذا تريد من أحدهم؟» «لا، لا شيء. تتأوه وتتوجع مثل هذا التوجع، وستسألن عن صحتك» ومن خلال فرجة

الباب في الجانب الآخر البيوت البغيضة والناس الذين يدبون كالنمل والسطوح المنزلة. فتح المفرج عنه باب الفناء واليهودي خلفه: «الآن، الآن، مهما يكن من أمر، لن تسوء الحال إلى هذا الحد. ولن ينحط المرء ويصبح مجرماً. برلين مدينة. وحيث يعيش الآلاف سيعيش آخر».

كان هناك فناء عالٍ مظلم. وكان هو يقف بجانب صندوق الزبالة، وفجأة اندفع يغني غناءً مدوياً، وغنى للجدران. نزع القبعة من على الرأس مثل عازف الأوغن المتوسل. ومن الجدران ارتدّ الصوت. كان هذا جميلاً. وملاً صوته أذنيه. غنى بصوت عالٍ جداً على نحوٍ لم يكن مسموحاً له أن يغني به قطّ في السجن. وماذا غنى حتى تردد صدها على الجدران؟ «ويرعد نداء مثل دوي الرعد» ثابت حربي وقوي. وبعد ذلك: «يا ليلي يا ليلي،» من قلب أغنية. ما من أحد راقبه. استقبله اليهودي عند البوابة: «غنيت غناءً جميلاً. الحق أنك غنيت غناءً جميلاً. وفي وسعك أن تكسب ذهباً بصوت مثل هذا الصوت الذي هو عندك» لحق به اليهودي إلى الشارع، وأمسك بذراعه، وتابع معه الطواف وسط حديث لا متناه إلى أن انعطفا إلى شارع غورمان، اليهودي والرجل الطويل القوي البنية في المعطف الصيفي الذي أطبق شفثيه كأنها كان عليه أن يبصق مرارة.

ليس من حضور بعد

قاده إلى حجرة كانت فيها مدفأة حديدية موقدة، وأجلسه على أريكة: «ها أنت الآن هنا. خذ راحتك. وفي وسعك أن تبقي القبعة على رأسك أو أن تنزعها، كما تحبّ. أريد أن أتيك فقط بشخص سيعجبك. والحق أنني أنا نفسي لا أسكن هنا. لست إلاً ضيفاً هنا مثلك. وكما هي الحال، فالضيف يجلب ضيفاً آخر حين لا يكون في الغرفة إلاً الدفء».

جلس المفرج عنه وحيداً. ويرعد نداء مثل دوي الرعد، مثل صلصلة
السيف وهدير الموج. ركب الحافلة الكهربائية، ونظر إلى الخارج نظرة جانبية،
الأسوار الحمراء كانت مرئية من بين الأشجار، وكانت تمطر ورقاً ملوناً.
انتصبت الأسوار أمام ناظريه، وراقبها على الأريكة، وحدق بها دون توقف. إنه
لحظٌ كبير أن تسكن في هذه الأسوار، ويعرف الناس كيف يبدأ النهار وكيف
يستمر. [أنت يا فرانس، تأبى أن تحتبئ، فقد اختبأت أربع سنوات، تشجع،
وانظر حواليك، فالاختباء له نهاية] كل شيء غناء وصفير، والصخب ممنوع.
على السجناء أن ينهضوا كل صباح على إشارة النهوض ويرتبوا المهجع
ويغتسلوا ويتمشطوا وينظفوا الثياب ويرتدوا الملابس. ويجب مناولة الصابون
بكمية كافية. دقة جرس - نهوض، دقة، الساعة الخامسة والنصف، بوم الساعة
تدق السادسة والنصف، توضيح، بوم بوم، خروج، استلام طعام الصباح،
وقت العمل، ساعة فراغ، بوم بوم بوم، الظهر، يا ولد، لا تلوِّ شفيتك، لن تسمن
هنا، على المغنين أن يبلغوا عن حضورهم، اصطفاغ المغنين، الساعة الخامسة
والأربعين، وأبلغ عن حضوري بصوت مبحوح، إغلاق الأبواب، مساء الخير،
انتهينا. حظ كبير أن تسكن في هذه الأسوار، لقد مرَّ غوني في الوحل. أوشكت أن
أقتل، لكنه كان مجرد قتل العمدة، ضرب وجرح أوديا بالحياة، لم يكن الأمر بمثل
هذا السوء، صرت وغداً كبيراً، سافلاً، وأوشك أن أكون مشرداً.

يهودي طويل مسنّ طويل الشعر، على مؤخر الرأس قبعة سوداء أطلال
الجلوس قبالتة. في مدينة سوسان عاش في يوم من الأيام رجل اسمه
موردخاي، وربّي هذا ابنة عمه إستر، أما الفتاة فكانت ذات قوام جميل
وظلعة بهية. وأشاح الشيخ نظره عن الرجل، وأدار رأسه صوب الرجل

الأحمر: «من أين لك هذا؟» كان يتنقل من بيت إلى بيت. ووقف في أحد الأفنية وغنى «غنى؟» «أغاني حربية». «سيرد».

«ربما» نظر إليه الشيخ. في يوم الصوم الأول ليس على اليهود أن يهتموا بجثة، وفي يوم الصوم الثاني الإسرائيليون أيضاً، بل إنَّ هذا ينطبق على كلا يومي السنة الجديدة. ومن كان مؤلف التعاليم التالية للربانيين (الفقهاء المعلمين)؛ إذا أكل أحدهم من جيفة طائر نظيف فهو طاهر، لكن إذا أكل من الأمعاء أو الرأس فهو نجس! بيده الطويلة الصفراء تحسس يد المفرج عنه التي استقرت على المعطف: «أنت، أتريد أن تحلع المعطف؟ الجو حار هنا. نحن شيخان ونبرد طوال السنة، ولن تحتمل هذا».

جلس على الأريكة، ونظر من فوق إلى تحت بطرف عينه إلى يده، كان قد سار من فناء إلى فناء عبر الشوارع، وكان لا بدّ أن يرى أين يوجد شيءٌ ما في هذا العالم. أراد أن ينهض ويمضي صوب الباب، وبحث عيناه في المكان المظلم عن الباب. عندها شدّه الشيخ إلى الأريكة: «بالله عليك ابق، ماذا تريد؟» أراد الخروج. على أن الشيخ أمسكه بمعصم اليد وضغط وضغط: «نريد أن نعرف من منا الأقوى، أنت أم أنا. فلتجلس حين أقول» صرخ الشيخ: «والآن، ستظل جالساً وستسمع ما أقوله أيها الشاب. تمالك نفسك أيها الوغد» والتفت إلى الأحمر الذي كان يمسك الرجل من كتفيه قائلاً: «اذهب، هيا انصرف. ناديتك. سأقوى عليه».

ماذا أراد هؤلاء الناس منه. أراد الخروج فنهض، إلا أن الشيخ ضغط عليه. عندها صاح: «ما الذي تفعلونه بي؟» «ما عليكم إلا أن تسبوا وتشتموا، ولسوف تستزيدون من السباب والشتائم» «عليكم أن تتركوني وشأني. يجب أن أخرج». «ربما إلى الشارع، ولربما إلى الأفنية؟».

عندئذ نهض الشيخ من على الكرسي وراح يتمشى في الحجرة جيئةً وذهاباً.
«دعه يصرخ بقدر ما يشاء. دعه يعمل ويصنع. لكن ليس عندي. افتح له الباب»
«ما الأمر، أيوجد في ظروف أخرى صراخ وضجيج عندكم» «لا تجلبوا إلى منزلي
أناساً يحدثون ضوضاء. أولاد الابنة مرضى طريحو الفراش في الخلف، عندي
من الضوضاء ما يكفي» «إذن، إذن، يا للمصيبة، لم أكن أعلم أنه سيكون
عليكم أن تسامحوني» أمسك الأحمر الرجل بيديه: «تعال معي. فالمعلم عنده
البيت زاخر عامر. الأحفاد مرضى. سنتابع السير» على أن هذا لم يرغب في
النهوض» تعال كان عليه أن ينهض. عندئذ همس: «لا سير. دعني هنا» «البيت
عند هذا زاخر عامر، أنت سمعت» «بالله عليك دعني هنا».

بعينين متوهجتين تطلع الشيخ إلى الرجل الغريب الذي كان يتوسل. هل
تكلم إرميا، نريد أن نشفي بابل، إلا أنه لم يكن في الإمكان شفاؤها. غادروها،
كل واحد منا يريد أن ينتقل إلى بلده. السيف ينزل بالكلدانيين، بسكان بابل»
«حين يهدأ، قد يبقى معكم. وإذا لم يهدأ فعليه أن يذهب!» «حسن، حسن، لن
نصيح ونصخب. أنا أجلس معه، وفي وسعكم أن تعتمدوا علي» خرج الشيخ
متبختراً دون أن ينبس بكلمة.

التعليم من خلال مثال تسانوفيتش

ها قد جلس المفرج عنه اللابس المعطف الصيفي الأصفر ثانية على
الأريكة. ومشى الأحمر عبر الغرفة في لهفة واستنكار: «إذن، لا تستأ أن الشيخ
كان هكذا عنيماً. هل أنت مسافر من مكان ما؟» «أجل، أنا مسافر، كنت...»
الأسوار الحمراء، الأسوار الجميلة والزرنانات، كان عليه أن ينظر إليها في لهفة
وشوق، لزق ظهره بالسور الأحمر، رجل حكيم بناه، لم يذهب. انزلق الرجل

مثل دمية من على الأريكة إلى السجادة، ودفع الطاولة جانباً عند الهبوط. «ما الأمر؟» صاح الرجل الأحمر. وتلوى المفرج عنه فوق السجادة، وتدحرجت القبعة على مقربة من يديه وأطرق رأسه وتنهد: «في داخل التراب، في داخل الأرض حيث يعمّ ظلام» وشد الأحمر عليه: «أعوذ بالله. أنت عند أناس غرباء. إذا جاء الشيخ. انهض» على أنه لم يكن في الإمكان جذب هذا من يده فيستوي واقفاً، تشبث بالسجادة وواصل التأوه. «فلتهداً، إكراماً لله، حين يأتي الشيخ. سنسوي المسألة معاً» «ما من أحد يبعدي من هنا» مثل خلد.

ولما لم يستطع الأحمر أن يرفعه دعك جدائل الفودين، أغلق الباب وجلس بحزم وعزم بجانب الرجل على الأرض. رفع ركبتيه، ونظر أمامه إلى قوائم المنضدة: «حسناً إذن. ابق هادئاً. وأنا سأجلس أيضاً. صحيح أنه ليس مريحاً، لكن لم لا. أنت لا تريد أن تحكي عما بك، وسأروي لك شيئاً ما» تنهد المفرج عنه والرأس على السجادة. [ولكن لماذا يصعد الزفرات ويتن؟ إنه يعني التصميم، ولا بدّ من سلوك طريق ما - وأنت يا فرانس، لا علم لك بأي طريق. العمل المعيب القديم لا تحبه، وفي الزنزانة صعّدت أنت الزفرات أيضاً ليس إلا، واختبأت ولم تفكر، لم تفكر يا فرانس] وتكلم الأحمر ساخطاً:

«ينبغي ألا يبالغ المرء في الزهو بنفسه. على المرء أن يصغي إلى الآخرين. من قال لك إنه مرّ عليك الكثير الكثير. فالله لا يتخلى عن أحد. لكن ما زال هناك ناس آخرون. ألم تقرأ ما صنع نوح في السفينة، في سفينته حين جاء الطوفان؟ من كل صنف زوجان. لم ينس الله الجميع. حتى القمل في الرأس لم ينسها الله. كانوا جميعاً يعزّون عليه، وأن هذا تحت. [الأنين مجّان. وتستطيع فأرة مريضة أن تتن أيضاً].»

تركه الأحمر يئن ودعك الوجنتين: «يوجد على الأرض أشياء كثيرة، وفي إمكان المرء أن يحكي عن أشياء كثيرة، سواء أكان شاباً أم شيخاً. سأحكي لك إذن قصة تسانوفيتش، شتيفان تسانوفيتش. قصة لم تسمع بها بعد. إذا ما تحسنت حالك فاقعد قليلاً. فالدم يتصاعد إلى الرأس. وليس هذا بصحّي. حدثنا أبي المغفور له كثيراً وقد تجول هنا وهناك كثيراً مثل الناس من شعبنا، عمر سبعين سنة، ومات بعد الأم رحمة الله عليه، عرف كثيراً، رجل حكيم. كنا سبعة أفواه جائعة، وإذا لم يكن هناك شيء ما لنأكله حكي لنا حكايات. ما كان أحدنا ليشبع من ذلك، إلا أنه ينسى» وتواصل الأئين الخافت تحت. [إن جملاً مريضاً يستطيع أن يئن أيضاً] «إذن نحن نعرف أنه ليس كل شيء في الدنيا بذهب وإبل وسلام. إذن من كان تسانوفيتش؟ ومن كان أبوه؟ وأين كان أبواه؟ كان متسولاً مثل الكثيرين منا، كان بقالاً تاجراً، مبرم صفقات. من ألبانيا جاء تسانوفيتش الشيخ ورحل إلى البندقية. وعرف لماذا قصد البندقية. البعض يخرج من المدينة إلى الريف والبعض الآخر يخرج من الريف إلى المدينة. وفي الريف مزيد من الهدوء، والناس يقبلون كل شيء، تستطيع أن تتحدث ساعات طويلة، وإذا ما حالفك الحظ تكون قد كسبت بضعة قروش. أما في المدينة فإنه لصعب أيضاً، والناس يقفون لصق بعضهم بعضاً أكثر وأكثر وليس عندهم وقت. فإذا لم يكن هذا كان ذلك. والناس ليس عندهم ثيران، بل عندهم خيول سريعة، على عربات. ناس يخسرون وناس يربحون، وتسانوفيتش الشيخ عرف هذا. باع أولاً ما كان يملكه ثم لجأ إلى الورق ولعب مع الناس. لم يكن رجلاً مستقيماً. عمل تجارة من أن الناس في المدينة لم يكن عندهم وقت ولم يرغبوا في أن يتسلوا. فهو سلاهم وكلفهم هذا مالا كثيراً. مخادع وغشاش في لعب الورق تسانوفيتش الشيخ، لكنه كان ذكياً. فالفلاحون عقدوا الأمور عليه، هنا عاش حياة على نحو أكثر يسراً،

وسارت أموره سيراً حسناً. إلى أن ظنّ أحدهم فجأة أن ضرراً أصابه. على أية حال، ما كان تسانوفيتش الشيخ قد فكر بهذا. كانت هناك ضربات وصدّات، الشرطة، وفي آخر الأمر كان على تسانوفيتش أن يهرب مع أولاده. طارده محكمة البندقية، وخطر ببال الرجل الشيخ، أنه كان أحبّ إليه أن يتحاشى الأخذ والعطاء مع المحكمة، فهم لا يفهمونه كما أنهم لم يستطيعوا الإمساك به أيضاً. كان عنده حيول ومال، واستقر ثانية في ألبانيا واشترى ضيعة، قرية بكاملها، وأرسل أولاده إلى مدارس عالية. وما إن تقدم في السن حتى عاش في دعةٍ ومات محترماً. تلك كانت حياة تسانوفيتش. بكاه الفلاحون، أما هو فقد استثقل ظلمهم لأنه كان يتذكر دائماً أيام كان يقف أمامهم بلعبه وخاتمه وأساوره وشعباه المرجانية، وكانوا يدورونها جيئةً وذهاباً ويتحسسونها، وفي النهاية كانوا ينصرفون ويتركونه حيث هو.

هل تعلم أنّ الأب إذا ما كان نبتة صغيرة ودّ أن يكون الابن شجرة، وإذا كان الأب حجراً ودّ أن يكون الابن جبلاً. قال الشيخ تسانوفيتش لأبنائه: «لم أكن هنا في ألبانيا شيئاً طوال تجوالي بائعاً مدة عشرين عاماً، ولم لا؟ ذلك لأنني لم أحمل رأسي إلى حيث كان مكانه. وأرسلتكم إلى مدرسة كبيرة، إلى بادوا، خذوا حيولاً وعربة، وإذا ما أتمتمت الدراسة فتذكروني فأنا الذي شارككم الهم والغم وأنا الذي كان ينام معكم ليلاً في الغابة مثل ذكر خنزير. أنا نفسي كنت الملووم، لقد جفّفتني الفلاحون مثل سنة عصبية، وكنت سأفسد، وخالطت الناس، وها أنا ذا لم أهلك».

ضحك الأحمر بينه وبين نفسه وهزّ رأسه مفكراً، وهزّ الجذع. جلس على الأرض على السجادة: «إذا دخل أحد ما علينا ظنّ أن كلينا مجنون، عند المرء أريكة

ويجلس أمامها على الأرض. إذن كما يشاء المرء، ولم لا، إذا ما أعجب هذا أحداً. الشاب شتيفان تسانوفيتش كان متكلماً كبيراً وهو شاب في العشرين من عمره. وكان في وسعه أن يلف ويدور وأن يحب الناس به، وكان في وسعه أن يلاطف نساءً ويتصرف تصرف الوجهاء مع الرجال. وفي مدينة بادوا يتعلم النبلاء الأشراف من الأساتذة، وتعلم شتيفان من النبلاء الأشراف. وأحسن الجميع إليه. وحين جاء إلى الوطن، إلى ألبانيا، كان أبوه لا يزال على قيد الحياة، وسرّ هذا به فكان يحبه وقال: «انظروا إلى هذا، إنه رجل في نظر الدنيا، لن يبلغ العشرين حتى يتعامل مثلي مع الفلاحين. لقد سبق أباه بعشرين سنة». وهذا الصبي الصغير مسح على كفيه الحريبين ورفع الخصلات الجميلة عن جبينه وقبّل أباه الشيخ السعيد: «لكن حضرتك يا أبي، وفرت علي سنوات الشدة العشرين» «لتكن أفضل سني حياتك» قال الشيخ ودلل الصغير بالمسح ولاطفه.

ثم سارت الأمور مع تسانوفيتش الشاب مثل معجزة، الحق أنها لم تكن معجزة، فقد تهافت عليه الناس من كل حدب وصوب. وكان لديه مفتاح القلوب كلها. ذهب إلى مونتينغرو في رحلة بصفة رجل شريف ومعه عربات وخيول وخدم، وسرّ والده أن يرى ابنه عظيماً - الأب نبتة صغيرة والابن شجرة، - وفي مونتينغرو خاطبوه على أنه أمير أو كونت. وما كانوا سيصدقونه لو قال إن أباه يدعى تسانوفيتش، ويستوطن في باستروفيتش في قرية يعتزل بها أبوه! وما كانوا ليصدقوه وقد تصرف نبيل من بادوا وبدا مثل نبيل وعرف الجميع أيضاً. وإذا كان شتيفان قال وضحك: «اعرفوا ما تريدون. وإذا كان تظاهر أمام الناس أنه بولوني غني فقد اعتبروه غنياً وعدّوه باروناً، وعندها سروا هم وسرّ هو».

كان المفرج عنه قد قعد بحركة مفاجئة وجلس القرفصاء على ركبته واختلس النظر من فوق إلى الآخر. وقال الآن بنظرة باردة: «قرد» وردّ الأحمر بازدياء: «إذن سأكون أنا قرداً. إذن القرد يعرف أكثر مما يعرفه بعض الناس» اضطر الآخر إلى أن يعاود النزول إلى تحت. [يجب أن تندم؛ أن تدرك ما حدث؛ أن تعرف ما هو الضروري!].

«هكذا إذن يمكن الاسترسال في الحديث. ما زال هناك الكثير لتتعلمه من الناس الآخرين. كان تسانوفيتش الشاب على هذا الطريق، وتتابعت الأمور على هذه الحال. لم نعرفه، وأبي لم يعرفه. لكن يمكن تصوّره. حين أسألك، أنت الذي تسميني قرداً، ينبغي ألاّ يحتقر المرء أيّ حيوان على أرض الله، فهي تمنحنا لحمها، ولها علينا أيضاً أياد بيضاء كثيرة، لا تنس الحصان، لا تنس الكلب، ولا تنس طائراً غريداً، والقروء لا أعرفها إلا من السوق السنوية، ولا يسعها إلا أن تتعفرت وهي مقيدة في السلسلة، مصير قاسٍ، ما من إنسان له مثل هذا المصير القاسي، وها أنا أسألك، ولا أستطيع أن أسميك باسمك لأنك لم تقل لي ما اسمك: بمّ تقدم تسانوفيتش، الشاب والشيخ على حد سواء؟ أنت تعتقد أنه كان لهما مخ وكانا فطينين. كان هناك أناس آخرون فطناء ولم يبلغ بهم الأمر وهم في الثمانين إلى الحد الذي بلغ الأمر بشتيفان وهو في العشرين. على أنّ الشيء الأساسي في الإنسان عيناه وقدماه. فعلى الشخص أن يتمكن من رؤية العالم وأن يذهب إليه.

واسمع ما فعل شتيفان تسانوفيتش الذي رأى الناس وعرف كم هو ضروري إلاّ يخشى المرء الناس كثيراً. أبصر كيف يمهدون الطريق لشخص ما وكيف يدلّون شبه الأعمى على الطريق. أرادوا منه: أنت الكونت فارتا. قال، حسن، أنا البارون فارتا، ولم يكفه هذا فيما بعد، أو لم يكفهم هم. وإذا كان باروناً،

فلماذا لا يكون أكثر من ذلك. يوجد في ألبانيا شخص مشهور مات منذ زمن طويل، لكن الناس يحتفلون به احتفال الشعب بالأبطال؛ كان اسمه سكاندريغ. لو استطاع تسانوفيتش لقال: «إنه نفسه سكاندريغ». ولما كان سكاندريغ ميتاً قال إني سليل سكاندريغ وتباهى ودعي الأمير كاستريوتا الألباني، وسعيد العظمة لألبانيا. ويتنظره أتباعه. فقد أعطوه مالا لكي يستطيع أن يعيش مثلما يعيش أحد أخلاف سكاندريغ. فقد أثلج صدور الناس. فهم يؤمنون المسرح ويستمعون إلى أشياء متخيلة توافق هواهم. ويدفعون لقاء ذلك. وفي وسعهم أن يدفعوا لقاء ذلك إذا حصلت لهم الأشياء الممتعة عصراً أو قبل الظهر، وإذا استطاعوا أن يشاركواهم أنفسهم في أثناء ذلك في التمثيل».

من جديد يعتدل الرجل اللابس المعطف الصيفي الأصفر، وكان له وجه متغضن متكدر ونظر من فوق إلى الأحمر وتنحج، كان قد تغير صوته: «قل أنت أيها الرجل الصغير، هل أنت مجنون؟ فأنت غريب الأطوار» «مجنون، ربما، تارة أنا قرد، وتارة أخرى مجنون» «قل أنت يا هذا، لماذا تجلس هنا وتثرثر عليّ؟» «ومن يجلس على الأرض ولا يريد النهوض؟ أنا؟ وخلفي أريكة؟ إذا ما أزعجك هذا أمسكت عن الكلام».

عندئذ جذب الآخر الذي كان قد أجال النظر في آنٍ واحد في الغرفة، ساقيه وجلس وظهره قبالة الأريكة وأسند اليدين إلى السجادة. «هكذا تنفسح في جلستك على نحو أكثر» «ويمكنك أن تكفّ في رفق وهدوء عن اللغو والثرثرة» «إذا ما شئت. وكثيراً ما حكيت القصة، ولا يهمني أي شيء فيها إن لم يهّمك أي شيء فيها» ولكن بعد وقفة ولّاه الآخر الرأس ثانية. «تابع سرد الحكاية أيها الرجل» «أنت ترى. الناس يحكون ويكلّم بعضهم بعضاً، ويمضي الوقت على

نحو أسرع. ما كان في نيتي إلا أن افتح عينيك. شتيفان تسانوفيتش الذي سمعت عنه حصل على مال كثير جداً بحيث إنه استطاع أن يسافر إلى ألمانيا. لم ينفصح أمره في مونتينيغرو. وللتعلم من تسانوفيتش فإنه كان يعرف نفسه ويعرف الناس. هنا كان بريئاً مثل طائر يغرد. انظر، إذ قلما خاف من العالم: فأعظم الناس الذين كانوا موجودين وأشدهم عنفاً وسطوة وأرهبهم كانوا أصدقاءه: الأمير السكسوني وولي عهد بروسيا الذي صار فيما بعد بطلاً عسكرياً عظيماً والذي ارتعدت أمامه أوصال الإمبراطورة النمساوية تيريزي على عرشها. وأمامه لم يرتعد تسانوفيتش. وحين قدم ذات مرة إلى فيينا ووقع على ناس كانوا يتجسسون عليه، عندها رفعت الإمبراطورة نفسها اليد وقالت: «أطلقوا سراح هذا الفتى!».

اكتمال الحكاية بطريقة غير متوقعة وبذلك تحققت تقوية المفرج عنه

ضحك الآخر، وضحّ في الضحك على الأريكة: «أنت تحفة. يمكنك أن تدخل مهرجاً في سيرك.» وشارك الأحمر في الضحك: «إذن انظر. لكن بهدوء، إلى أحفاد الشيخ. لا بأس أن نجلس على الأريكة. ما رأيك» ضحك الآخر، وطلع على الأريكة زحفاً وجلس في زاوية الأريكة، والأحمر في الزاوية الأخرى.

«هنا يجلس المرء في مقعد وثير ولا يتكسر المعطف بهذه الطريقة» الرجل اللابس المعطف الصيفي شخص بصره من الزاوية إلى الأحمر: «واحد غريب الأطوار من أمثالك ما مرّ عليّ من زمن طويل» الأحمر في رباطة جأش: «ربما لم تر أنه ما زال هناك شيء. فقد وسخت معطفك، وهنا ليس مكاناً لتنظيف الحذاء.» المفرج عنه، رجل في مطلع الثلاثين، كانت له عينان نابضتان بالحيوية وكان وجهه أكثر نضارة: «أنت يا هذا، بالله قل لي أنت، بماذا تتاجر تماماً؟ أنت تعيش على القمر؟» «إذن، هذا حسن، سنتكلم الآن عن القمر.»

على الباب كان قد وقف نحو خمس دقائق رجل له لحية مجمدة بنية. توجه هذا إلى المنضدة وجلس على كرسي. كان شاباً اعتمر قبعة مخملية سوداء مثل الآخر. تخلل الهواء بيده في قوس وأطلق صوته المدوي: «من هو هذا؟ وماذا تفعل أنت مع هذا؟» «وماذا تفعل أنت هنا يا أليزر؟ أنا لا أعرفه وهو لا يسمي اسمه» «هل حكيت له حكايات» «إذن، ما يهمك هذا» ويخاطب الأسمر السجين: «هل حكى لك قصصاً، هذا؟» «هو لا يتكلم. يتجول ويغني في الأبنية». «دعه إذن يذهب». «لا يشغلن بالك الشيء الذي أفعله». «أنصت على الباب إلى ما كان. فأنت حكيت له عن تسانوفيتش. أي شيء ستفعله غير سرد الحكايات وقص القصص» دمدم الغريب الذي كان قد شخص ببصره إلى الأسمر: «بالله من أنت ومن أين جئت إلى هنا؟ وما دخلك في شؤونه؟» «هل حكى لك عن تسانوفيتش أم لا؟ حكى لك. أخوز زوجتي ناحوم يتنقل هنا وهناك ويحكي ثم يحكي وهو نفسه أعيته الحيلة». «لم أشغلك بعد بي. ألا ترى أنه ليس على ما يرام، أنت أيها الخسيس» «وإن كانت حالته سيئة. فالله لم يكلفك، واعجباً، انتظر الله إلى أن يجيء. الله وحده شقّ عليه أن يساعده» «خسيس، إنسان طالح» «ابتعد عن هذا، يا أنت. سيكون قد قال لك كيف نجح تسانوفيتش ومن لفّ لفيفه في الحياة» «هلاً انصرفت على فورك؟» «فليستمع الناس إلى الكذاب، فاعل الخير. يريد أن يحدثني. هل هذا منزله؟ هل عاودت الحديث عن صاحبك تسانوفيتش وكيف يمكن أن يتعلم الناس منه؟ كان يجب أن تصبح حبراً عندنا. وكنا سنغذّيك ونقويك بالغذاء أيضاً» «لا حاجة بي إلى جمالكم» عاد الأسمر إلى الصراخ: ونحن لسنا في حاجة إلى طفيليين يتعلقون بأذيال شخص ما. هل حكى لك أيضاً كيف كانت حال صاحبه تسانوفيتش في آخر الأمر، في النهاية؟» «وغد. أنت أيها الخسيس» هل حكى لك عن ذلك؟» التفت السجين طارفاً بعينه طرفاً متعباً إلى الأحمر الذي

هَزَّ قبضته واتجه صوب الباب ودمدم وراء الأحمر: «أنت، يا أنت، بالله عليك لا تخرج، هَوِّنْ عليك، دع هذا يهدِّد بالسخافات».

عندئذٍ حاول الأسمر إقناعه محتدماً، بيدَيْن مضطربتين وتململ وفرقة وهزة رأس، كل لحظة تعبير آخر من تعابير الوجه، تارة صوب الغريب وتارة إلى الأحمر: «إنه يثير جنون الناس. يجب أن يحكي لك عما انتهت إليه الأمور مع صاحبه تسانوفيتش شتيفان. هو لا يحكي هذا، ولماذا لا يحكي هو هذا، لماذا، أنا أسأل» «لأنك خسيس يا أليزر» «واحد أفضل منك. الناس (ورفع الأسمر باشمئزاز كلتا يديه وجحظت عيناه جحوظاً مخيفاً) طردوا صاحبه تسانوفيتش من فلورنسا مثل لص. لماذا؟ لأنهم عرفوه». وقف الأحمر أمامه بجرأة، وأشار الأسمر بالنفي: «الآن أتكلم. كتب إلى أمراء رسائل، ويستلم أحد الأمراء رسائل كثيرة، ولا يستطيع المرء أن يتبين من خط اليد هوية هذا الشخص. ثم اغترب بنفسه، وذهب إلى بروكسل بصفة أمير ألبانيا، وزجَّ نفسه في السياسة العليا. كان هذا ملاكه الشرير الذي وسوس له بهذا. يذهب إلى الحكومة، يضعكم أمام تسانوفيتش شتيفان، الفتى، ويمنيها بحرب، أعرف مع من، مئة ألف من الناس أو مئتين، ليس هذا هو المهم، وتكتب الحكومة رسالة صغيرة، شكراً جزيلاً، فهي لن تقحم نفسها في صفقات غير مضمونة. عندها قال الملك الشرير (الشیطان) لشتيفان أيضاً: خذ الرسالة، واقترض مالاً على ذلك. واستلم رسالة من الوزير عنوانها: إلى السيد أمير ألبانيا، حضرته، سموه. هم أقرضوه مالاً، ثم قضي على المحتال. كم بلغ من العمر؟ ثلاثين سنة، لم ينل أكثر من ذلك عقوبة على إساءاته. لم يستطع أن يسدد، فأبلغوا عنه في بروكسل، ثم انكشف كل شيء في أثناء ذلك. بطلك يا ناحوم! هل حكيت عن نهايته السوداء في السجن حيث قطع وريده؟ وكيف مات، حياة حلوة، نهاية طيبة،

ينبغي رواية هذا - ومن بعد ذلك جاء الجلاذ، المعذب بعربة من أجل كلاب مينة وخيول وقطط، حملته، حمل شتيفان تساونفيتش، وألقاه عند المشنقة في الخارج، وأفرغ فوقه القمامة من المدينة».

كان الرجل في المعطف الصيفي فاغر الفم: «أصحيح هذا؟ [التأوه والأنين فأر مريض قادر على ذلك أيضاً] أحصى الأحمر كل كلمة جأر بها أخو زوجته. انتظر بسبابة مرفوعة أمام وجه الأسمر انتظاره كلمة تذكير ولمس صدره لمساً خفيفاً، وبصق أمامه على الأرض، تف، تف: «هذا لك أنك من هؤلاء. يا أخا زوجتي» تحرك الأسمر صوب النافذة: «هكذا، تكلم الآن وقل إن هذا ليس بصحيح».

لم تعد الأسوار في مكانها. حجرة صغيرة تدلى فيها مصباح، يهوديان كانا يتجولان، أحدهما أسمر والآخر أحمر، وكانا يعتمران قبعتين مخمليتين سوداوين وكانا يتشاجران. لاحق هو الصديق، الأحمر:

«أنت، اسمع، يا أنت، أصحيح ما حكاه عن الرجل، كيف أودعوه السجن وكيف قتلوه؟» صرخ الأسمر:

«قتلوه، هل قلت أنا قتلوه؟ هو وحده قتل نفسه». الأحمر: «قد يكون قتل نفسه». المفرج عنه: «وماذا فعل هؤلاء، هناك، الناس الآخرون؟» الأحمر: «من، من؟» «إذن، سيكون هناك أيضاً ناس آخرون مثله، من مثل شتيفان. وما كانوا سيكونون كلهم وزراء ومعديين ومصرفيين». تبادل الأحمر والأسمر النظرات. الأحمر: «الآن، ماذا عليهم أن يفعلوا؟ وقفوا موقف المفرج».

المفرج عنه في المعطف الأصفر، الرجل الطويل، تقدّم من وراء الأريكة ورفع قبعته ومسحها ووضعها على المنضدة، ثم أزاح معطفه عن الصدر، كل شيء في صمت وفتح أزرار صدريته. انظر إلى هنا، سراويلي. كنت سميناً غاية

السمانة، وها هي قد صارت واسعة عليّ، قبضتان قويتان بعضهما فوق بعضٍ، من الجوع. كل شيءٍ راح. البطن السمين كله إلى الشيطان. هكذا يحلّ الدمار بالمرء لأنه لم يكن دائماً كما كان ينبغي أن يكون. ولا أظن أن حال الآخرين بأفضل. لا، لا أعتقد ذلك. يريدون أن يجنوا الناس».

همس الأسمر للأحمر: «أنت الملوم». «وماذا جاعني» «ولو، سجين»
«وأنا ما شأني». المفرج عنه:

«إذن هذا يعني أنه أفرج عنك ثم عودة إلى ذلك، ربما إلى القذارة، إنها القذارة نفسها كما كان في السابق. ليس هناك ما يضحك» زرر صدريته من جديد: «يتبيّن لك من هذا ما فعلوه. إذ إنهم يخرجون الميت هناك من المبنى، ويأتي ابن الستين خنزيراً ومعه عربة للكلاب ويلقي عليها بميت قتل نفسه، يا لهم من ناس قدرين وضعاء ملعونين، إنهم لم يقتلوا إنساناً على الفور، وإنهم يجنون هكذا على إنسان، ومن الممكن أن يكون من يريد هذا» الأحمر في أسى: «ما الذي ينبغي قوله» «أجل، ألسنا لا شيء لأننا فعلنا في وقت من الأوقات شيئاً ما؟ قد ينهض على الأقدام من جديد كل من كان نزيل السجون، ومن الممكن أن يكونوا فعلوا ما يريدون» [وانداماه! لا بدّ من التنفس! الضرب على غير هدى! عندها سيخلف شخص ما كل شيء وراءه، ثم يكون كل شيء قد مضى وانتهى، الخوف وكل شيء] «أردت أن أبيّن لك فقط: عليك ألا تستمع لكل ما يحكيه لك أخو زوجتي. أحياناً لا يتأتى للمرء كل ما يريد، وأحياناً تمضي الأمور أيضاً على نحو آخر» «إنه ليس بعدالة أن ترمي بإنسان على الزبالة مثل البراز وتفرغ القمامة فوقه، وهذه هي العدالة مع رجل ميت. العياذ بالله. لكن أريد الآن أن أستودعك الله. مدّ يدك، هم على حسن نيتهم، وأنت أيضاً

حسن النية (يشدّ على يد الأحمر). اسمي بيير كوفف، فرانس. كان جميلاً منك أنك استقبلتني. طائري الصغير غرّد في الفناء. حسن. بارك الله بك يا نويهان، وتمضي الأمور» وشدّ كلا اليهوديين على يديه وابتسما.

أمسك الأحمر يده طويلاً وتهللت أساريره: «إذن، هل أنت فعلاً بخير؟ ولسوف يسرّني إن كان عندك وقت أن تمرّ!» «شكراً جزيلاً، سأهتم بذلك على أتم وجه، سيكون هناك وقت، لكن لا مال. وسلّم لي أيضاً على السيد الشيخ من البداية. فهذا أمّدك بالقوة في اليد، قل لي، ألم يكن هو جزاراً؟ آه، بقي أن نسوي السجادة، فقد ترحزحت من مكانها. لكن لا، لنقم نحن أنفسنا بهذا، والطاولة، هكذا» هو عمل على الأرض، وابتسم للأحمر من الخلف: «جلسنا تحت وحدّ بعضنا بعضاً شيئاً ما. كانت جلسة حلوة، اعذرني».

رافقه إلى الباب، بقي الأحمر قلقاً: «هل ستستطيع السير وحدك؟» دفعه الأسمر جانباً: «لا تتكلم عليه بالسوء» المفرج عنه، تاركاً المكان والقامة منتصبه، هزّ الرأس ودفع الهواء أمامه بكلتا يديه (يجب أن يهوي المرء عن نفسه، الهواء، الهواء، وليس شيئاً آخر). «لا تقلق، في إمكانك أن تتركني أمضي في حال سيّلي. فأنت تحدثت عن الأقدام والعيون. ما زالت هذه عندي. وما من أحد قطعها. عمّتها صباحاً، أيها السيدان».

وعلى الفناء الضيق المسدود مشى هو، وكلاهما تتبعه بالنظر من على السلم. أنزل القبة الصلبة على الوجه، تتم قائلاً وهو يتخطى نقرة فيها بنزين: «كل شيء مادة سامة. تارة كونيالك. من يصل يحصل على شربة. لنرّ أين يوجد كونيالك».

ميل بلا رغبة، فيما بعد هبوط شديد في الأسعار، هامبورغ مستاءة،
لندن أضعف

أمطرت السماء. وعلى اليسار في شارع مونتس كانت تتلأل لافتات لدور
سينما. وعند ناصية الشارع لم يشق طريقه، كان الناس يقفون عند السياج، هنا
كان الطريق شديد الانحدار، قضبان الحافلة الكهربائية كانت معلقة في الهواء
على ألواح سميكة. في هذه اللحظة بالذات سارت حافلة ببطء فوقها. انظر، ها
إنهم بينون مترو، من المحقق أنه يوجد عمل في برلين. وكانت هناك سينما
أيضاً. الدخول ممنوع لمن هو دون السابعة عشرة. وعلى اللافتة الضخمة كان
يقف على السلم سيد بلون أحمر فاقع، وكانت تضم ساقيه فتاة شابة رقيقة،
كانت منطرحة على السلم، وكان له فوق وجه لطيف. وتحت ذلك كان
مكتوباً: يتيمة، مصير طفلة يتيمة في الفصل السادس. أجل، سأشاهد هذا.
و ضرب المعزف الآلي على الطبل. الدخول بـ ٦٠ بفينيكاً.

رجل يخاطب محصلة النقود وقاطعة التذاكر: «يا آنسة، أليس الدخول
أرخص لمن هو في الدفاع المدني مسن وبلا بطن؟» «لا، للأطفال فقط دون
الخمسة أشهر بسدادة مصاصة». «موافق، نحن في مثل هذه السن. حديثو
الولادة على أقساط». «إذن، قلت لتوي خمسون بفينيكاً للدخول» تلوى
خلفه شاب ممشوق القد وقد لفّ شالاً حول عنقه: «يا آنسة، أريد الدخول،
لكن من دون دفع» «كيف يكون هذا. دع أمك تجلسك على القصرية» «إذن،
هل لي أن أدخل؟» «إلى أين؟» «إلى السينما» «ليست هنا سينما» «ما هذا،
ليس هنا سينما» ونادت من خلال كوة الصندوق إلى المراقب عند الباب:
«ماكس، تعال إلى هنا. ها إنَّ وغداً يريد أن يعرف ما إذا كانت هنا سينما.
وليس معه نقود. أره ما هنا» «ما هنا أيها الشاب؟ ألم تلاحظ بعد؟ هنا

صندوق الفقراء، قسم شارع مونتنس» ودفع الرفيع القوام من عند كوة الصندوق ولوّح له بقبضته: «إن شئت دفعت لك على الفور».

دلف فرانس إلى الداخل. كان الوقت عندئذ وقت استراحة. كان المكان الطويل محشواً حشواً، ٩٠% رجال بقبعات، وهؤلاء لا يرفعونها. ثلاثة مصابيح تدلّت حمراء من السقف. وفي الأمام معزف أصفر عليه طرود. ولا يكفّ المعزف عن إحداث ضجة وضوضاء. ثم يظلم المكان ويبدأ الفيلم. فتاة ترعى الإوز والمقرر تعليمها، لماذا، هذا ما لا يتضح في سياق الموضوع. كانت تمسح أنفها بيدها وتحكّ استها على السلم، وضحك كل من كان في السينما. وتأثر فرانس تأثراً يستحق الإعجاب حين انفجر الجميع حوله في ضحك مخنوق. مجرد بشر، ناس أحرار كانوا يتسلّون، وما من أحد لديه شيء ليقوله، مثيرٌ للعجب، وأنا بين ظهرانيهم! ثم يستمر العرض. فكان للبارون المحترم عشيقة استلقت في أرجوحة شبكية ومدت ساقها في أثناء ذلك إلى فوق رأسياً. كانت تلبس سروالاً. هذا رائع. أي شيء يتصوره الناس في راعية الإوز هذه الوسخة أنها كانت تلحس الصحون. ومن جديد تتبرّج ذات الساقين الرفيعتين. فالبارون كان قد تركها وحدها، ونزلت الآن من الأرجوحة الشبكية وطارت مسرعة إلى العشب وارتمت هناك إلى وقت طويل. حملت فرانس في الجدار، كانت هناك صورة أخرى، ورأى أنها ما زالت تقلب من الأرجوحة وتستلقي هناك لوقت طويل. وعصّ على لسانه. يا للمصيبة. ماذا كان هذا. ثم حين ضمّ من كان عشيق راعية الإوز هذه المرأة الظريفة سرت نار في بدنه لكانها هو نفسه كان يضمها. انتقل هذا إليه وأضعفه.

امرأة خبيثة فاجرة متهتكة. (هناك أكثر من الغضب والخوف. ما هذا الكلام الفارغ؟ هواء، يا رجل، امرأة!) ترى ألا يكون فكر هو بذلك. فالمرء

يقف إلى نافذة الزنزانة ويرسل النظر من خلال القضبان إلى الفناء. وفي بعض الأحيان تمر نساء، زائرون أو أطفال أو تنظيف البيت على الشيخ. وكيف يقفون في كل مكان على النوافذ، السجناء، وينظرون، كل النوافذ محجوزة، يسلطون عيونهم على كل امرأة. رقيب في الشرطة كان عنده ذات مرة ١٤ يوماً زيارة من قبل زوجته من إيرزفالدي، وفيما مضى لم يسافر إليها إلا كل ١٤ يوماً، والآن استغلّت هي الوقت كما ينبغي، وفي أثناء العمل لا يستطيع أن يرفع رأسه من التعب ويكاد لا يقوى على السير.

كان فرانس قد صار في الشارع تحت المطر. ما العمل؟ أنا حرّ طليق. يجب أن تكون عندي امرأة. يجب أن تكون لي امرأة. لذة حلوة، حلوة هي الحياة في الخارج. ليس إلا الثبات والقدرة على السير. تأرجحت ساقاه، لم تكن هناك أرضية تحت قدميه. ثم كانت عند ناصية شارع قيصر فيلهيلم خلف سيارات السوق واحدة وقف بجانبها لتوه، سيان أية واحدة هي. يا لها من مصيبة، من أين لنا أن نأتي بساقين حديديتين. سار معها سيراً حثيثاً، وعصّ على شفته السفلى، فقد أحسّ برجفة، إن كنت تسكنين بعيداً فلن أرافقك. كان هذا عبر ساحة بولوف مروراً بالأسيجة وعبر ردهة، إلى الفناء، ست درجات إلى تحت. التفتت وضحكت: «يا رجل، لا تكن هكذا شهوانياً. أنت تثقل عليّ. وحين أغلقت الباب وراءها امسك بها» يا رجل، دعني أضع المظلة أولاً» شدّها إليه والتصق بها وقرصها وفرك يديه فوق معطفها، كان لا يزال يلبس القبعة، فتركت المظلة تسقط بامتعاض: «هلاً تركتني يا رجل»، تأوّه وابتسم ابتسامة زائفة ماكرة: «ما الحكاية؟» «أنت تخزق لي الثوب. أنت ستدفع لي ثمنه. قلت هذا لتوي. فما من أحد يهبنا شيئاً» وحين لم يتركها: «إني

لأختنق، يا غبي، أنت جنت». كانت بدينة وبطيئة وقصيرة، كان عليه أن يعطيها قبل ذلك الماركات الثلاثة، وقد وضعت هي هذه في الكومودينة في عناية وأخفت المفتاح في جيبتها. وهو لا يكفّ عن تتبعها بعينيه: «لأنني أفنيت بضع سنوات في الخارج، أيتها البدينة، في تيجل، يمكنك أن تتصوري هذا». «أين؟» «تيجل. في إمكانك أن تتصوري هذا».

ضحكت الفتاة المترهلة ملء فيها. فتحت أزرار بلوزتها فوق. كانا ولدي ملك، وكانا يجبان بعضهما حباً وأي حبّ. حين يقفز الكلب بالنفانق فوق البالوعة. أمسكت به وضمته إليها. قاقا، قاقا، قاقا يا كتكوتي، قاقا، قاقا، قاقا يا ديكي.

بعيد ذلك نفصّد جبينه قطرات عرق، تنهّد. «ما بالك، أنت تنهّد» «أي ابن كلب يتمشى هنا بالجوار؟» «ليس بابن كلب، إنها مؤجرتي صاحبة البيت» «وماذا تفعل هي هنا؟» «وماذا ينبغي لها أن تفعل. مطبخها هناك» «فليكن هذا. إنها ينبغي لها أن تتوقف عن المشي. ما الذي يدفعها إلى المشي. لا أستطيع أن أتحمل هذا. ومع ذلك، سأذهب إلى هناك وأقول لها» إنّ هذا لرجل كثير العرق، وسيكون المرء مبسوطاً جداً حين يتخلص منه، هذا النوام الكريه، قريباً سأترك هذا. تدقّ على الباب المجاور: «يا سيدة بريزي، هلاً هداأت لبضع دقائق. لي حديث هنا مع سيد، شيء مهم» إذن، انتهينا من هذا، يا وطني العزيز، في إمكانك أن تطمئن، تعال إلى صدري، لكن عمّا قريب ستطير خارجاً.

خطر ببالها والرأس على الوسادة: الحذاء الأصفر القصير العنق ما زال في الإمكان تركيب نعل جيد له، خطيب كيتي الجديد يعمل هذا لقاء ماركين اثنين إذا لم يكن لديها مانع، فأنا لن أخطفه منها، وفي إمكانه أن يصبغه باللون البني

ليناسب البلوزة البنية، فقد صارت خرقة عتيقة، وهي أنسب بصفة غطاء لإبقاء القهوة ساخنة، فالأشرطة يجب كيّها، سأقول للسيدة بريزي على الفور، سيكون عندها نار، ترى ماذا ستطهو اليوم. وشمشمت. سمك رنكة أخضر.

دارت في رأسه أبيات شعرية، في دائرة، غير مفهومة: هل تطبخين يا آنسة شتاين، ناوليني المعكرونة يا آنسة شتاين. هل أسقط أنا أرضاً، هل أسقط من تحت إلى فوق. وزفر من الأعماق زفرة مسموعة:
«أنت كارهة لي؟» «لم لا، تعال، دائماً من أجل مليم حب». ارتمتي في الفراش، نخر وزفر.

فركت عنقها: «أضحك من نفسي ضحكة استرابة وظن. فليبق أحدنا مستلقياً. فهذا لا يزعجني» ضحكت ورفعت ذراعيها المكتنزين، وأخرجت قدميها المجوريين من السرير: «ليس الذنب ذنبي».

خروجاً إلى الشارع! هواء! لا تزال السماء تمطر. ما الأمر؟ يجب أن اتخذني واحدة أخرى. أول شيء أشبع من النوم. فرانس، ماذا دهاك؟

القدرة الجنسية على الجماع تتحقق من خلال تضافر ١ - جهاز الإفراز الباطني، ٢ - الجهاز العصبي، و٣ - جهاز التناسل. والغدد المشاركة في القدرة الجنسية على الجماع هي: النخامية المخية، الغدة الدرقية، الكظر، الموثة والحويصلة المنوية والبربخ. وفي هذا الجهاز ترجح كفة الغدة التناسلية. وبالمادة التي حُضرت من قبلها يتم شحن جهاز التناسل بأكمله بدءاً من قشرة المخ حتى الأعضاء التناسلية. فالانطباع الجنسي يثير التوتر الجنسي لقشرة المخ، والتيار يتقل بصفة إثارة جنسية من قشرة المخ إلى مركز التوصيل (التوزيع) في

الدماغ البيني المتوسط. ومن ثمّ تمتد الإثارة إلى النخاع الشوكي. ليس بدون روادع، إذ إنها قبل أن تغادر المخ يجب عليها أن تجتاز نوابض كبح الروادع، تلك الروادع التي معظمها روادع نفسية والتي لها دور أكبر بصفتها هاجساً أخلاقياً وعدم ثقة بالنفس وخوفاً من الفضيحة وخشية من العدوى والتحويل وما إلى ذلك.

وفي المساء ينزلق إلى شارع الإلزاس. بلا تردد، يا ولد، لا تتعلل بالتعب. «كم يكلف الترفيه يا آنسة؟» السوداء حلوة، لها وركان، كعك مقمّر. حين يكون لفتاة زبون تحبه ويروق لها. «أنت مغتبط، يا حلو. هل ورثت شيئاً ما؟» «وأكثر من ذلك. وستحصلين على تالر آخر» «ولم لا» ومع هذا فهو خائف.

وبعد ذلك في الحجرة، زهور خلف الستارة، غرفة صغيرة نظيفة، حجرة صغيرة حلوة، حتى إنّ البنت عندها حاكٍ وتغني أمامه، وهي في جوربين من الحرير الصناعي البيمبرغي، وبدون بلوزة، عينان فاحمتا السوداء: «أنا مغنية منعشة تلتطف الأجواء. هل تعلم أين؟ حيثما يحلولي. في الواقع ليس لديّ حالياً أي عمل، لست مرتبطة. أرتاد الحانات حيث يكون الجو حلواً وأسأل. ومن ثمّ: طقطوقتي. عندي طقطوقة. أنت، يا هذا، لا تدغدغني» «ما عليك من ذلك، يا امرأة» «لا، أبعد يديك، هذا يفسد عليّ شغلي. طقطوقتي، كن مؤدباً، يا حلو، أنا أقوم بالمزاد العلني في الحانة، لا بجمع الأطباق: من عنده علاوة على ذلك يستطيع أن يقبلني. بشكل غير معقول، أليس كذلك. في الحانة المكشوفة. لا أحد دون الخمسين بفينيكاً. ألا أتلقى، يا أنت، شيئاً ما. هنا على الكتف. هنا، تستطيع أيضاً، لمرّة» وتضع على رأسها قبعة أسطوانية رجالية، صاحت في وجهه، هزّت رديفها، والذراعان على الخاصرة: «تيدودور، أي شيء

خطر ببالك في أثناء ذلك حين ضحكت لي أمس؟ تيودور، ماذا قصدت حين دعوتني إلى أكلة ساق الخنزير المطهية المملحة مع شمبانيا؟».

وما إن تجلس في حضنه حتى تضع في فمها سيجارة أخرجتها من الصدرية وتنظر في عينيه نظرات ولاء، وتمسح في رفق محارتي أذنيه بمحارتي أذنيها وتصفر: «هل تدري ما معنى هذا، الحنين إلى الوطن؟ كيف يمزق الحنين القلب؟ كل شيء من حولنا غاية في البرودة والخواء» وتدندن بالغناء، وتتمدد على الأريكة. تدخن وتمسح على شعره، تدندن بالغناء، وتضحك.

العرق على جبينه! الخوف، من جديد! وفجأة يفلت منه رأسه. بوم (صوت اصطدام ينطوي على خطر)، نداء ناقوس، نهوض، الساعة الخامسة والنصف، الساعة السادسة توضيح وشرح، بوم بوم، هياً بسرعة نظفوا السترة بالفرشاة، حين يعيد الشيخ النظر، فاليوم لن يأتي. سيفرجون عني عما قريب. صه، يا هذا، هذه الليلة هرب أحدهم، كلوزي، والحبل مازال معلقاً في الخارج فوق السور، هم يسرون والكلاب البوليسية معهم. يتنهّد، ويرتفع رأسه، إنه يرى الفتاة، ذقنها، عنقها. كيف لي أن اخرج من السجن، فلن يفرجوا عني. لم أخرج بعد. وتنفخ صوبه من الجهة حلقات زرقاء من دخان السيجارة وتضحك ضحكة مخنوقة: «أنت لطيف، تعال، سأصّب لك كأس عرق عطري أخضر من العرق العشبي، ثلاثين بفينيكاً» وهنا يظّل مستلقياً وقتاً طويلاً كما هو: «وما فائدة العرق العطري الأخضر العشبي لي؟ لقد أفسدوا لي مستقبلي. كنت نزيل سجن تيجل، ولم؟ في بداية الأمر عند البروسيين في الخنادق ثم في تيجل. لم أعد إنساناً» ما هذا. لن تذرف دموعك عندي. توم، افتح فاك. على رجل ظمان أن يشرب. عندنا فكاهاة، عندنا يلهو المرء ويطرب، هنا مكان للضحك من المساء حتى آخر الليل» ومقابل ذلك قذارتك. وفي

هذه الحال كان يمكن أن يقطعوا عنق أحدهم هنا على الفور، الكلاب. وكان يمكنهم أن يرموا بي على المذبة» «توم، أيها الرجل الظمآن، كأس عرق عطري أخضر آخر. إنها العيون، اذهب إلى المامي وصب لك كأساً على الصباح».

«أن تجري البنات وراء شخص مثل الخراف، حتى إن المرء لم ييصق عليهن ثم يرتمي مريضاً وهو مبهوت» وتلتقط لنفسها سيجارة من سجائره التي تدرجت منه على الأرض: «أجل، عليك أن تذهب إلى الشرطي وتقول له» «أنا ذاهب» ويحث عن حمالة بنطاله. لم يعد يتفوه بكلمة ولم ينظر إلى الفتاة الثرثرة التي تدخن وتبتسم وتتبعه بنظرها، وتسارع إلى دفع سجائر بقدمها تحت الأريكة. ويمسك قبعته ويهبط السلم، وبالخافلة رقم ٦٨ إلى ساحة ألكسندر، ويمعن التفكير في كأس بيرة بيضاء.

عقار تيستيفورتان، علامة تجارية محمية رقم ٣٦٥٦٩٥، دواء جنسي بحسب الطبيب الاستشاري د. ماغنوس هيرشفيلد ود. بيرنارد شابيرو، معهد العلوم الجنسية، برلين. والأسباب الرئيسية للعجز الجنسي هي: أ. شحنة غير كافية نتيجة اضطراب وظيفي لغدد الإفراز الباطني. ب. مقاومة ووهن مركز الانتصاب. ومتى كان على العين الضعيف جنسياً أن يستأنف المحاولات فإنه لا يستطيع إلا شخصياً أن يجدد من سير الحال. وإن استراحة ما تكون في كثير من الأحيان ذات قيمة.

ويشبع من الطعام ويشبع نوماً، وفي اليوم التالي في الشارع يفكر: هذه أريدها، وتلك أرغب فيها، إلا أنه لا يقرب من أية واحدة. والتي في واجهة العرض، يا لها من امرأة لحيمة جسيمة، هذه يمكن أن تناسبنا، إلا أنني لن أقرب من أية واحدة. ويواصل جلوسه في الحانة ولا ينظر في وجه أي إنسان،

ثم يتابع الأكل حتى يشبع ويواصل الشرب حتى يرتوي. الآن لا عمل لي أبداً إلا الأكل والشرب والنوم، فالحياة في نظري انتهت، انتهت، انتهت.

انتصار على طول الخط! فرانس بيبركوبف يشتري شريحة لحم عجل

وحين يأتي الأربعاء، اليوم الثالث، يرتدي السترة. من المذنب في هذا كله؟ دائماً إيدا. ومن غيرها. هذا الحيوان المزعج. هذا الحيوان المزعج حطمت له أضلاعه آنذاك، ولهذا كان لا بد من أن يرموا بي في السجن. والآن كان لها ما أرادت، هذا الحيوان مات، وها أنذا أقف هنا. أولول من أجل نفسي وأجري في البرد على طول الشارع. إلى أين؟ إلى حيث كانت تسكن معه عند أختها.

عبر شارع ذوي العاهات (إنفاليدين شتراسي) إلى شارع أكر، وكما أن لا شيء يدخل إلى البيت، الفناء التالي. لم يكن سجنًا، لا حديث مع اليهود في شارع دراجون. أين العاهرة التي كانت السبب. لا شيء مرئي في الشارع، إنما وجد طريقه إلى هناك. شيء من ارتعاشة الوجه وشيء من ارتعاشة الأصابع، ها نحن ذاهبون إلى هناك، واحد اثنان، ثلاثة.

رنين جرس. «من هنا؟» «أنا» «من؟» «هيا افتحي يا امرأة» «يا إلهي، أنت، فرانس» «افتحي» واحد اثنان، ثلاثة. خيط على اللسان، ابصقه. هو يقف في الممشى، وتغلق الباب وراءه. «ماذا تريد عندنا. إلا أن يكون أحدهم رآك على السلم» «هل في هذا ضرر. عليهم بي غداً» يمشي وحيداً يجيد يساراً إلى الحجرة. واحد اثنان. خيط عتيق على اللسان، لا ينزل إلى تحت. ويضغط بإصبعه على ذلك. لكن لا شيء، إلا أنه ليس إلا إحساساً سخيفاً على طرف اللسان. هذه إذن الحجرة، والأريكة المبطنه بالخشب، القيصر معلق على الجدار، أحد الفرنسيين في

سروال أحمر يناوله السيف، لقد استسلمت. «ماذا تريد هنا، يا فرانس؟ أنت مجنون» «سأجلس» استسلمت، القيصر يقدم السيف، على القيصر أن يعيد إليه السيف، هذه هي الدنيا. «يا رجل، إن لم تذهب سأصرخ مستنجدة وأنادي بالاعتداء» «ولم؟» واحد، اثنان، مشيت هذه المسافة الطويلة، وها أنذا هنا وأجلس هنا «هل أفرجوا عنك؟» «أجل، مضى وانتهى».

وينظر إليها نظرة ريبة وفضول وينهض: «ولأنهم أطلقوا سراحي فأنا هنا. ها قد أفرجوا عني، وكيف. «كيف، يريد أن يقول، لكنه يعص على خيطه، البوق مكسور. مضى الأمر وانتهى، ويرتجف ولا يستطيع أن يبكي ويتفقد يدها. «ماذا تريد، يا رجل، هل من خطب؟».

ها إن هناك جبالاً تنتصب من آلاف السنين، وانتصبت، وجيوش معها مدافع سارت عليها، وهناك جزر عليها بشر، مكتظة، كل شيء قوي، أعمال وصفقات متقنة، مصارف ومؤسسات، رقص وملاهي ملذات، استيراد وتصدير وقضية اجتماعية، وذات يوم يأتي صوت رررر رررر، ليس من السفينة الحربية، هذه تنطّ نطاً، - من تحت. الأرض تقفز قفزاً، يا عندليب، يا عندليب، كم كان غناؤك جميلاً، السفن تطير إلى السماء، الطيور تهوي إلى الأرض. «فرانس، أنا أصرخ، ماذا، دعني. كارل آت على الفور، يجب أن يأتي كارل في كل لحظة. مع أيدي بدأت أنت أيضاً هكذا».

ما قيمة امرأة وسط أصدقاء؟ محكمة الطلاق اللندنية طلقت بناء على طلب القبطان ليكون بسبب خيانة زوجته مع زميله القبطان فوربر ومنحته تعويضاً قدره ٧٥٠ جنيهًا. يبدو أن القبطان لم يقدر زوجته الخائنة التي ستزوج عشيقها التقدير العالي.

يا إلهي، هناك جبال استقرت منذ آلاف السنين وجيوش معها مدافع مرت فوقها، ما العمل حين يبدوون فجأة بالنطّ والفظّ لأنّ الأمور تحت تسير على هذا النحو: رررر روم. ليس في ودنا أن نعلّق على ذلك، وما علينا إلا أن نترك هذا. مينا لا تستطيع أن تحلّ يدها من ذلك، وعيناه أمام عينيها. يا لوجه رجل مزروع بالقضبان، والآن يمرّ عليها قطار، هلاًّ رأيت كيف يدخن هذا الذي يسير، قطار سريع، برلين/هامبورغ - ألتونا، الساعة ١٨, ٥ حتى ٢١, ٣٥، ثلاث ساعات و٣٠ دقيقة، في هذا الحال ليس هناك من حيلة، مثل هؤلاء الفقراء من الرجال هم من حديد، حديد. أنا أصرخ طالباً النجدة. هي صرخت. كانت هي ممدّة على السجادة، وجتاه النابتا الشعر على وجتيها، وفمه يرشف فاهها. وتحول اتجاهها وتبتعد» فرانس، يا إلهي، ارحم يا فرانس» وهي رأت على الوجه الصحيح.

الآن تعرف هي، هي أخت إيذا، هكذا رأى هو إيذا في بعض الأحيان. إنه يحتضن إيذا، إنها هي، ولهذا أطبق عينيه هكذا وبدا سعيداً، ولم يعد هناك الضرب الرهيب وهذا الانغماس في الشهوات هنا وهناك، ولم يعد هناك السجن! هذه هي تريبتوف، حديقة الجنائن بالألعاب النارية الرائعة حيث التقاها وأوصلها إلى البيت، آنسة الخياطة الصغيرة. وكانت ربحت زهرية في رمي الزهر، في الردهة بمفتاحها باليد قبلها أول ما قبلها ووقفت على رؤوس أصابعها. كانت تلبس حذاء كتانياً، ووقع المفتاح منه على الأرض، ولم يعد يستطيع فكاكاً منها. هذا هو فرانس بيبركوبف الطيب القديم.

والآن يعاود شمّها، شمّ عنقها، إنها البشرة نفسها، البخار، وهذا يسبب دواراً، أنّي يكون المضي والتوجه. وهي، الأخت، كم هي غريبة أحوالها. ويمكن استشعار هذا من وجهه، من سكونه إليها - عليها أن تستسلم، وتقاوم، على أنّ هذا جاوزها مثل تحوّل، وجهها يفقد التوتر، لم تعد ذراعها بقادرتين على أنّ

تدفعاه جانباً، ويصبح فمها عاجزاً. ولا يقول الرجل أي شيء، وتترك تترك تترك له فمها، وتلين وترتخي كما في الحمام، اصنع بي ما تريد، وتذوب مثل الماء، شيء جميل، ما عليك إلا أن تأتي، أعرف كل شيء، كما أنني أروق لك أيضاً.

سحر، ارتعاش. السمكة الذهبية اللون في الحوض تلمع. الغرفة تسطع، إنه ليس شارع أكر، ليس بيت، ليست بقوة جاذبية، قوة طرد مركزية. اختفى، غرق وانظماً انحراف الأحمر للإشعاعات في مجال القوة للشمس، نظرية الغازات الحركية، تحول الحرارة إلى عمل، الاهتزازات الكهربائية، ظواهر الحث والتحريض، كثافة المعادن، السوائل، الجسم الصلب اللافلزي.

كانت مستلقية على الأرض، وكانت ترمي ذات اليمين وذات الشمال. ضحك هو وتمدد: «هيا اخنقيني، لن أحرك ساكناً. هذا إذا ما قدرت على ذلك» «استحقت أنت هذا» قام زاحفاً، ضحك واستدار من السعادة، من اللذة، من الغبطة. لماذا تدوي الأبواق، هيا اخرجوا أيها الفرسان، هاليلويا! فرانس بيبركوبف هنا من جديد! فرانس بيبركوبف أفرج عنه! فرانس بيبركوبف حرّ طليق! كان قد رفع سرواله، عرج على ساقيه، من واحدة إلى أخرى. جلست هي على كرسي وكان في ودّها أن تبكي: «سأقول هذا لزوجي، سأقول لكارل، كان يجب أن يبقوك في السجن أربع سنوات أخرى» «قولي له، يا ميناً، قولي دائماً».

«سأفعل هذا أيضاً، سأحضر على فوري كأس عرق» «ميناً، ميناً الصغيرة، أعطي نفسك. أنا في غاية السعادة، عدت إنساناً يا مينأي الصغيرة» «يا رجل، أنت مجنون، الحق أنهم قلبوا لك رأسك في تيجل».

«أليس عندك شيء للشرب، إبريق قهوة أو ما شابه ذلك» «من سيدفع لي ثمن المتزر، انظر، إنه خرقة» وحيد هو فرانس، وحيد هو فرانس! فرانس استرد

حيويته، فرانس هنا من جديد! «خذ قبعتك وانصرف. حين يلقاك وعيني مزرقّة. لا تدعنا نرى وجهك ثانية» «وداعاً يا مينّا».

لكن في اليوم التالي عاد ومعه صرّة صغيرة. أمتنعت عن فتح الباب له، فوضع قدمه في الباب. همست من خلال الفرجة: «عليك أن تذهب في حال سبيلك يا هذا، قلت هذا والله.» «مينّا، إنها ليست إلا المآزر» «وماذا عن المآزر؟» «عليك أن تختاري واحداً» «في إمكانك الاحتفاظ بأشياءك المسروقة».

«إنها ليست مسروقة. لكن افتحي» «يا رجل، سيراك الجيران. هيا انصرف من هنا» «افتحي يا مينّا».

ها هي تفتح الباب، وألقى بالصرة في الحجرة، وحين امتنعت عن الدخول إلى الحجرة، ويدها عصا المكنسة، نظّ هو وحده في الحجرة. «أنا منشرح الصدر يا مينّا، أنا منشرح الصدر طوال اليوم. حلمت بك في الليل».

عندئذٍ فتح الصرّة على الطاولة، اقتربت هي منه، لمست قطعة القماش بيدها، اختارت ثلاثة مآزر، لكنها بقيت ثابتة حين أمسكها بيدها. حزم متاعه، وهي وقفت من جديد حيث هي ويدها المكنسة، أحتّ:

«والآن، بسرعة، هيا اخرج» «لوح من عند الباب: «إلى اللقاء يا مينّا»
وبعضا المكنسة دفعت الباب.

بعد أسبوع وقف من جديد عند الباب: «ما أريده ليس إلا الاستفسار عن عينك» «كل شيء على ما يرام. لا شيء لك عندي هنا» كان أقوى وكان يرتدي معطفاً شتوياً أزرق وقبعة صلبة بنية اللون: «أردت فقط أن أريك كيف أقف هنا وكيف أبدو» «هذا لا يهمني» «اتركيني أشرب الآن عندك فنجان قهوة فقط» كانت هناك خطوات تهبط السلم، كرة طفل تدحرجت على الدرجات، وفتحت المرأة

الباب مذعورة وجذبتة إلى الداخل. «قف هنا، إنهم آل لومكيس، إذن، الآن يمكنك الذهاب من جديد» احتساء فنجان قهوة لا غير» سيكون لي عندك إبريق صغير» «ومن أجل هذا لن تحتاج إليّ بالتأكد. ومؤكد أنه سيكون لك فنجان واحد، كما تبدو» «فنجان قهوة واحد، لا غير» «أنت تسبب التعاسة لإنسان ما».

وحين وقفت عند حامل المشجب في الردهة ونظر هو عند مدخل المطبخ باستعطاف رفعت المتزر الجديد الجميل وهزّت الرأس وبكت: «أنت تجعلني تعيسة يا رجل» «ماذا هناك» «كارل لم يصدّق أيضاً ما قلته عن عيني المزرقّة حين اصطدمت هكذا بالصوان. يجب أن أريه كيف يتمّ هذا. على أنّ العين قد تزرّق من الاصطدام بالصوان حين يكون الباب مفتوحاً. في إمكانه أن يجرب. لكنني لا أعرف لماذا لا يصدّق هو هذا» «لا أفهم هذا يا مينا» «وبما أنه مازال عندي هنا آثار ضرب، على العنق. لم أنتبه إلى هذه على الإطلاق. ما الذي ينبغي لي أن أقوله إذا ما أراها هو لأحد ما، وينظر المرء في المرأة ولا يعرف من أين جاءته» «هيه. في إمكان المرء أن يحك جلده، ويمكن أن يحدّثنا شيء ما. لا تتركي كارل يعاملك معاملة حقيرة. كنت سأقول له رأيي بحدّة» «وما زلت تقف أنت دائماً على ذلك المرة تلو المرة. وسيكون آل لومكيس قد رأوك» «يا لطيف، لا يصحّ لهؤلاء أن يتعاضموا» «هيا انصرف يا فرانس ولا تعد ثانية. أنت تسبب لي التعاسة» «هل سأل أيضاً عن المآزر؟» «تمنيت دائماً أن اشتري لنفسني مآزر».

«إذن، أنا ذاهب يا مينا».

أحاط عنقها بيده واحتملت هي هذا بلا اعتراض. بعد هنيهة ولما لم يكفّ عن أن يضمها إليه لاحظت أنه داعبها بالمسح، تطلعت مدهوشة: «والآن اذهب يا فرانس» جذبها في هواده إلى الحجرّة، ومانعت، إلّا أنها استجابت خطوة

خطوة: «فرانس، أينبغي الابتداء الآن من جديد؟» «ولماذا، لا أريد إلا الجلوس معك في الحجر».

جلسا هنيهة في دعة وسلام جنباً إلى جنب على الأريكة وتكلما. ثم ذهب وحده. رافقته إلى الباب «لا تعد مرة أخرى يا فرانس» بكت وألقت رأسها عند ذلك إلى كتفه.

«أعوذ بالله من الشيطان مرة أخرى، يا مينّا. أي شيء يمكنك أن تفعله بشخص ما. لماذا ينبغي ألا آتي إلى هنا ثانية. حسناً، لن آتي إذاً إلى هنا ثانية.» أمسكت يده: «لا يا فرانس، لا تعد ثانية» عندئذ فتح الباب، كانت لا تزال تمسك يده وشدّت عليها بقوة. كانت لا تزال تمسك يده حين وقف هو في الخارج. ثم أفلتتها وأغلقت الباب بهدوء وسرعة. أرسل إليها من الشارع شريحتين كبيرتين من لحم العجل.

والآن يعاهد فرانس العالم كله ونفسه أن يبقى مستقيماً في برلين،
بمال وبلا مال

وقف صامداً كل الصومود في برلين - أثاث غرفته العتيق كان قد باعه، ومن تيجل كان معه بعض القروش، مؤجرته وصديقه ميك استسلف منها شيئاً ما - وإذا به يتلقى ضربة عنيفة أخرى. لكنّ هذه لم تكن فيما بعد بشيء جميل. وفي صباح يوم لم يكن في ظروف أخرى بصباح كرية كانت هناك على المنضدة ورقة صفراء، رسمية مطبوعة على الآلة الكاتبة:

قائد الشرطة، قسم رقم ٥، رقم الملف، المرجو أن يذكر رقم الملف أعلاه في حال عرائض محتملة في هذه القضية. وكما تثبت الملفات التي هي

أمامي فقد عوقبتم بسبب التهديد والإهانة بالضرب وبالضرب والجرح المؤدي إلى الموت، إذن اعتبارك شخصاً خطيراً على الأمن العام والآداب العامة. وبناءً على ذلك واستناداً إلى السلطة التي تخولها المادة ٢ من القانون الصادر بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٨٤٢ والمادة ٣ من قانون حرية اختيار مكان الإقامة تاريخ الأول من تشرين الثاني سنة ١٨٦٧ وبموجب القانون أيضاً تاريخ ١٢ حزيران سنة ١٩٨٩ والقانون تاريخ ١٣ حزيران سنة ١٩٠٠ قررت إبعادكم من برلين، شارلوتينبورغ، نويكولن، برلين-شونيبيرغ، فيلمرزدورف، ليشتينبيرغ، شترالاو وكذلك من المناطق برلين-فريديناو، شمارغيندورف، تيمبيلهوف، راينيكيندورف، فايسن زي، بانكوف وبرلين-تيجل، وأطلب منكم أن تغادروا منطقة الإبعاد في غضون ١٤ يوماً، مع الإبلاغ أنه إذا ما وقعت العين عليكم في المنطقة التي تم إبعادكم منها بعد انتهاء الفترة التي تم تبليغكم بها أو عدتم إلى هناك سيتم تحديد غرامة ضدكم قدرها ١٠٠ مارك وفي بادئ الأمر واستناداً إلى المادة ١٣ رقم ٢ من قانون إدارة الإقليم العامة تاريخ ٣٠ تموز سنة ١٨٨٣ أو في حال العجز عن الدفع عقوبة سجن مدتها عشرة أيام مع تنفيذ العقوبة. وفي الوقت نفسه سيتم لفت نظركم إلى أنه إذا كنتم ستتخذون إقامة لكم في البلدات والقرى المذكورة فيما يلي والواقعة حول برلين بوتسدام، شبانداو، فريدريشسفيلدي، كارلسهورست، فريدريشسهاجين، أوبرشونيفايدي وفولهايدي، فيشتيناو، بانسدورف، كاروف، بوخ، فروناو، كويتيك، لانكفيتس، شتيجليتس، تسيليندورف، تياتوف، داليم، فانزي، كلاين-غلينيكي، نوفافيس، نويندورف، آيشي، بورنيم وبورنشيتت فعليكم أن تتوقعوا الطرد والإبعاد. تكليفاً استمارة رقم ١٩٦٨.

ارتعب رعباً شديداً. كان هناك بيت جميل عند المترو في شارع جرونر رقم ١، على ساحة أليكس، رعاية السجناء. وهؤلاء يشاهدون فرانس ويسألونه السؤال تلو السؤال، يوقعون: السيد فرانس بيركوبف وضع نفسه تحت رقابتنا، وستحرقى عما كنتم تعملون. وعليكم أن تمثلوا أمامنا كل شهر. اتفقنا، ختام، كل شيء، كل شيء على ما يرام.

منسيّ الخوف، منسيّ سجن تيجل والسور الأحمر والتأوه والأين وما إلى ذلك، - على الضرر السلام، حياة جديدة نبدأ، فما فات مات، فرانس بيركوبف عاد والبروسيون يفرحون ويمرحون ويهللون فرحاً.

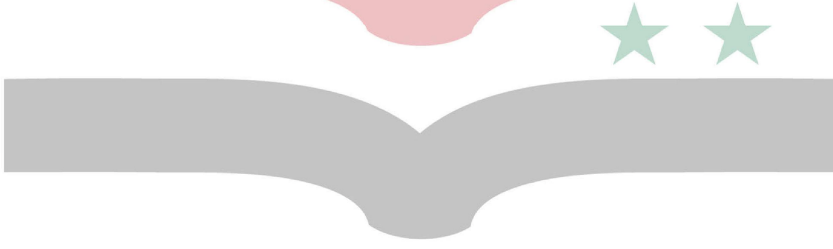
بعد ذلك حشا كرشه على مدى أربعة أسابيع باللحم والبطاطا والبيرة، وذهب مرة أخرى إلى اليهوديين في شارع دراجون لكي يشكرهما. كان ناحوم واليعازر يتخاصمان من جديد. لم يعرفاه حين دخل وقد تدثر بجديد الثياب، بديناً تفوح منه رائحة الكونياك، همس والقبعة أمام الفم باحترام ما إذا كان لا يزال أحفاد السيد الشيخ مرضى. سألاه في الخمارة عند ناصية الشارع أين استضافهما وأية أشغال يقوم بها. «أنا والأشغال. أنا لا أشتغل أية أشغال. عندنا يجري كل شيء على هذا النحو» «ومن أين لك بالمال؟» «من أيام زمان، من الاحتياطي. تمّ توفير شيء ما» وكز ناحوم في الخاصرة وملاً أنفه بالهواء وخالسه النظر بنظرات ماكرة: «أما زلتم على دراية بقصة تسانوفيتش، شخص مدهش. رائعاً كان هذا. وفيما بعد قتلوه. يا لكل الأشياء التي تعرفونها. وأودّ أن اذهب هكذا أميراً وأدرس. لا، الدراسة لن نقوم بها. ربما الزواج».

«حظاً سعيداً» «ثم تأتون إلى هناك، ويوجد شيء للأكل والشرب» تطلع ناحوم فيه وذلك ذقنه: «قد تسمعون قصة أخرى. رجل كانت له ذات مرة كرة،

ولا يغيب عن بالكم، كرة من مثل ما للأطفال، لكنها ليست مطاطية، كانت من السليولويد، شفافة، ولا يوجد في داخلها كرات رصاصية. في هذه الحال يستطيع الأطفال أن يخششوا بذلك وأن يرموها أيضاً. عندئذ أخذ الرجل الكرة ورمها وخطر بباله: لو كانت الكرات الرصاصية داخلها لما استطاع أن يرميها وما كانت الكرة ستظل تتدحرج، ويقف تماماً في المكان الذي أراده. لكن حين يرمي الكرة فإنها لا تطير بالشكل الذي أراده، ونطت نطة أخرى، ومن ثم تدحرجت أيضاً بعض الشيء، بمقدار شبرين إلى جانب ذلك. «لا تثقل عليه بقصصك، يا ناحوم، فالرجل في حاجة إليك» البدين: «ماذا كان من أمر الكرة، ولماذا تعودان إلى الشجار؟ انظر إليهما كليهما، أيها السيد المضيف، منذ أن عرفت هذين فهما يتشاجران. الشجار مفيد للكبد» الأحمر: «أود أن أقول لك، إني رأيتك في الشارع، في الفناء. وسمعتك تغني. أنت رجل طيب. لكن حذار أن يجن جنونك. كن هادئاً. كن صبوراً في الدنيا. أعرف كيف هي الحال في دخيلة نفسك وما يريدك الله بك. فالكرة، انظر، الكرة التي لا تطير كما ترميها أنت وكما يريدونها شخص ما، إنها تطير على هذا الوجه تقريباً، لكنها تظل تطير قيد أنملة أخرى وربما إلى مسافة كبيرة، من يدري، وجانباً بعض الشيء».

ألقى البدين برأسه إلى الوراء، ضحك وبسط ذراعيه وعانق الأحمر: «في وسعك أن تقص قصصاً، وفي وسع الرجل أن يقص. فرانس عنده تجارب. فرانس يعرف الحياة. فرانس يعرف من هو» «هيني قلت لك فقط إنك غنيت ذات مرة غناءً حزيناً.» «ذات مرة، ذات مرة. ما كان كان. الآن حشونا صدريتنا من جديد. كرتي تطير جيداً يا هذا! ما من أحد هو نذ لي. وداعاً، وحين أتزوج ستكون أنت حاضرًا!».

هكذا عاد إلى برلين وإلى الشارع عامل الإسمنت، وفيما بعد عامل نقل
الموبيليا فرانس بيبركوبف، رجل فظّ غليظ ذو مظهر منفرّ، رجل كانت
تعلقت به بنت حلوة من أسرة تتمهن صناعة الأقفال التي جعل منها فيما بعد
عاهرة، وأصاب منها أخيراً مقتلاً عندما راح ينهال عليها ضرباً. وقد عاهد
الناس كلهم وعاهد نفسه أن يبقى مستقيماً. وقد ظلّ مستقيماً طوال توافر
المال لديه. ثم نفذ المال. وكانت هي اللحظة التي انتظرها لكي يظهر للملأ
أيّ رجل هو.



الهيئة العامة السورية للكتاب

الكتاب الثاني

بهذا أتينا بأخينا سعيداً إلى برلين. وأقسم قسمه، وإنه السؤال عما إذا لم يكن ينبغي لنا أن نتوقف. فالخاتمة تبدو طيبة ودون تعقيد، والأمر كله له منزلة الإيجاز الكبرى.

إلا أنه ليس هو بأي رجل هذا الذي يدعى فرانس بيركوف. وأنا لم أطلبه للمجيء من أجل لعبة، بل لكي يشهد وجوده الصعب الحقيقي الذي يزداد سطوعاً وإشراقاً.

فرانس بيركوف ملسوع لسعاً شديداً، فهو يقف الآن مبتهجاً وقد فتح وباعد ما بين رجليه في إقليم برلين، وحين يقول إنه ينوي أن يكون مستقيماً نستطيع أن نصدقه أنه سيكون هكذا. وسترون كيف يكون مستقيماً طوال أسابيع. على أن هذا ليس إلا إمهالاً قضائياً إذا جاز التعبير.

عاش فيما مضى في الجنة إنسيان، آدم وحواء. وكان الله قد أسكنهما في هذا المكان، وهو الذي كان قد خلق أيضاً الحيوان والنبات والسماء والأرض. وكانت الجنة جنة عدن الرائعة. ونمت هنا أزهار وأشجار، ولعبت حيوانات هنا وهناك، وما من أحد عذب الآخر. كانت الشمس تشرق وتغرب، والقمر قام بالشيء نفسه، كان هذا مسرة وحيدة طوال النهار في الجنة.

هكذا ينبغي أن نبدأ بداية سارة. نريد أن نغني ونتحرك: بالأيدي الصغيرة نصفق ونصفق، وبالأقدام الصغيرة نخط ونخط، تارة هنا وتارة هناك وفي دائرة، وإنه ليس صعباً.

فرانس بيبيركوف يدخل برلين



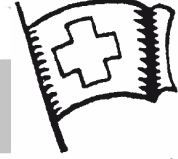
تجارة ومهن حرة



مصلحة تنظيف المدينة والنقل



الصحة



أعمال الإنشاء تحت الأرض



بيئة العمامة

الفن والثقافة



تورية للكتاب

المواصلات





الكشف عن خطة للعقار على جسر شبانداو رقم ١٠.

الخطة من أجل ملك عقاري يقع في دائرة اختصاص البلدية مركز برلين الذي يجب حصره بصورة دائمة بغية وضع وردة جدارية على جدار شارع البيت جسر شبانداو رقم ١٠ جرى عرضها إلى جانب المرفقات ليطلع عليها كل إنسان. وفي أثناء تلك الفترة يستطيع كل مشترك أن يعترض في مجال اهتمامه على الخطة. كما أن رئيس منطقة اختصاص البلدية له الحق أيضاً في أن يعترض. ومثل هذه الاعتراضات يجب تقديمها كتابياً لدى مديرية المنطقة وسط المدينة في برلين سي ٢، شارع كلوستر رقم ٦٨، غرفة رقم ٧٦، أو التصريح بها شفويّاً في محضر.

- منحت أنا مستأجر الصيد، السيد بوتيش، بموافقة السيد قائد الشرطة الإذن الذي يمكن إبطاله في كل وقت بإطلاق النار على أرانب برية ووحوش

ضارية أخرى على أرض حديقة البحيرة الكسلى في الأيام التالية في سنة ١٩٢٨: الصيد والقنص يجب أن يكونا منتهيين في الصيف، من الأول من نيسان إلى الثلاثين من أيلول حتى الساعة السابعة، وفي الشتاء من الأول من تشرين الأول إلى الثلاثين من آذار حتى الساعة الثامنة. ويتم الإخطار العلني بهذا طوال الوقت. وقبل دخول الأرض السالفة الذكر سيتم الإنذار في أثناء فترة الصيد والقنص المشار إليها. المحافظ بصفته مدير الصيد.

- معلّم الفرائين ألبيرت بانغل الذي يستطيع أن يذكر بصفة موظف شرف أعمالاً مدتها ثلاثون سنة تقريباً تحلّى نتيجة تقدمه في السن وتأخر عن منصبه الشرفي من دائرة اختصاص اللجان. وفي أثناء هذه الفترة الطويلة عمل بدون انقطاع بصفة رئيس لجنة الرعاية الاجتماعية. وقد عبّرت مديرية المنطقة عن الخدمات في رسالة شكر إلى السيد بانغل.

ساحة روزيتال تأخذ بأسباب الحديث.

طقس متقلّب أكثر صحواً، درجة تحت الصفر. وبالنسبة لألمانيا تمتد منطقة منخفض جوي تضع في كامل مجالها حدّاً للطقس حتى الآن. وتغيرات الضغط الضئيلة الجارية تشير إلى امتداد بطيء لضغط جوي منخفض نحو الجنوب بحيث إن الطقس سيظل دون تأثيره. وفي أثناء النهار يحتمل أن تكون درجة الحرارة أدنى مما كانت عليه حتى الآن. توقعات الطقس لبرلين وما جاورها من ضواحيها الأخرى.

الحافلة الكهربائية رقم ٦٨ تخترق ساحة روزيتال، فيتيناو، نوردبانهوف (محطة القطار الشمالية)، والمصح وساحة فيدينغ ومحطة قطارات شتيتين، وساحة روزيتال وساحة ألكسندر وساحة شتراوسبيرغ ومحطة شارع فرنكفورت،

ليشتينبيرغ ومستشفى المجاذيب هيرتسيبرغي. ومؤسسات النقل العام البرلينية الثلاث، الحافلات الكهربائية والمترو والباصات تشكل جمعية أجور واحدة. فتذكرة الركوب للبالغين تكلف ٢٠ بفينيكاً، وتذكرة السفر للطلاب ١٠ بفينيكات، ويتلقى الأطفال حتى سن الرابعة عشرة تخفيضاً في أجرة الركوب، والصبيان في أثناء فترة التدريب والتلامذة وطلاب معدمون ومشوهو حرب وأشخاص معوقون إعاقه شديدة في المشي على هوية مكاتب المحافظة للرعاية الاجتماعية. فلتطلع أنت على شبكة خطوط السير. في أثناء أشهر الشتاء لا يسمح بفتح الباب الأمامي للصعود والنزول، ٣٩ مقعداً، ٥٩١٨، من يريد النزول فعليه أن يجبر بذلك في حينه، الحديث مع الركاب ممنوع على سائق الحافلة، الصعود والنزول في أثناء سير الحافلة مقرون بخطر الموت.

في وسط ساحة روزينثال يقفز رجل معه طردان أصفران من العربة رقم ٤١، سيارة أجرة فارغة تنزلق عنه في لحظتها، ويتبعه الشرطي نظره. ويظهر مفتش حافلات كهربائية، ويتصافح الشرطي والمفتش: هذه المرة حالفه الحظ مع طرديه.

مختلف أنواع كونيكا الفاكهة بسعر الجملة، د. بيرغيل، محام وكاتب عدل، اللوكوتاتي، العقار الهندي لاسترجاع الشباب الخاص بالفيلة، تصوير فروم للجسم العريان، أفضل إسفنجة مطاطية. ما الحاجة إلى الإسفنجات المطاطية الكثيرة.

من الساحة يتفرع شارع بروين الكبير الذي يؤدي إلى الشمال، وتقع الشركة العامة للكهرباء على الجهة اليسرى أمام غابة هومبولدت الصغيرة. والشركة العامة للكهرباء هي مؤسسة ضخمة تشمل وفقاً لدليل الهاتف لعام

١٩٢٨: محطة توليد الإنارة والقوى، الإدارة المركزية، نورد فيست (شمال غرب) ٤٠، فريدريش - كارل - أوفر ٢-٤، مواصلات محلية، مواصلات خارجية دائرة شمال ٤٤٨٨، الإدارة، البوابون، مصرف قيم كهربائية شركة مساهمة، قسم المصايح، قسم روسيا، قسم المصانع المعدنية أوبرشبريه (شبريه الأعلى)، مصانع الأجهزة تريبتوف، مصانع شارع بروين، مصانع هينينغزورف، مصنع المواد العازلة، مصنع راين شتراسي، مصنع الكابلات أوبرشبريه (شبريه الأعلى)، مصنع محولات فيلهيلمينيهوف شتراسي، تشوسي روملزبورغ، مصنع العنفات نوردفيست ٨٧ وهوتينشتراسي ١٢-١٦.

يمتد شارع الإنفاليدين (ذوي العاهات) إلى اليسار. ويكون الاتجاه صوب محطة شتيتين حيث تكون القطارات قد وصلت من بحر الشرق: فهي ملوثة غاية التلوث بالهباب - أجل هنا المكان مغبر ومغفر بالتراب. - نهارك سعيد، إلى اللقاء. - هل مع السيد شيء للحمل. ٥٠ بفينيكاً. - أم أنك استرحت جيداً. - اللون البني سرعان ما يزول. - من أين للناس بالمال الكثير لكي يسافروا. - في فندق صغير هنا في شارع مظلم انتحر عاشقان أمس في ساعة مبكرة رماً بالرصاص، نادل من درسدن وامرأة متزوجة، لكنها سجلا أنفسهما على غير ذلك.

من الجنوب يؤدي شارع روزيتال إلى الساحة. في الجانب الآخر يقدم آيشينغر للناس شيئاً للأكل وبيرة للشرب وحفلة موسيقية ومعجنات. السمك مغدٌ. والبعض تطيب نفوسهم حين يقدم لهم السمك. وآخرون لا يستطيعون في بعض الأحيان أن يأكلوا السمك؛ إذا ما أكلتم السمك ظلتم على رشاقتكم، أصحاب ونشطاء. جوارب نسائية. حرير صناعي أصلي، عندكم هنا قلم حبر بريشة ذهبية ممتازة.

في شارع الإلزاس سوّروا طريق السير إلا مجرى واحد. وخلف سياج البناء تفرقع قاطرة جر. بيكر - فيبيش، متعهد بناء شركة مساهمة، برلين غرب ٣٥. وتعمّ جلبة، عربات قلابة موضوعة حتى ناصية الشارع حيث يكون المصرف التجاري الخاص، صندوق الودائع ل.، حفظ الأوراق المالية ودفع حسابات مصرفية، دفع حسابات توفير مصرفية. خمسة رجال يركعون أمام المصرف، عمال، يدقون حجارة صغيرة في الأرض.

في موقف شارع لوترينغ صعد للتو في الحافلة رقم ٤ أربعة أشخاص، امرأتان أقرب إلى الشيخوخة، ورجل بسيط مغموم وصبي يضع قبعة وغطاء أذن. المرأتان كلتاهما، كل منهما مع الأخرى، إنها السيدة بلوك والسيدة هوبي. تريدان أن تستجلبا للسيدة هوبي، المرأة الأكبر سناً، حزاماً طيباً لأن لديها الاستعداد إلى الفتق السري. كانتا قد ذهبتا إلى بائع الأحزمة في شارع بروين، وبعد ذلك تريدان كلتاهما أن تذهبا وتأتيا بالطعام لزوجيهما. الزوج هو الحوذي هازيبروك الذي له متاعبه مع مكواة كهربائية اشتراها رخيصة وعتيقة لرئيسه. وقد باعوه مكواة رديئة. وجربها الرئيس بعد عدة أيام، وبعد ذلك لم تعد تشعل وعليه أن يستبدلها، والناس يرفضون ذلك، فقد ذهب للمرة الثالثة إلى هناك، وعليه أن يدفع اليوم مبلغاً إضافياً. الصبي ماكس روست سيصبح فيما بعد سمكياً، أب له ٧ آخرون اسمهم روست، سيشارك في شركة هاليس وشركائه، إنشاءات وأعمال أسطحة عند جروناو، وفي الثانية والخمسين سيربح ورقة يانصيب ربعية في اليانصيب البروسي ذي الدرجات، وسيقعد إثر ذلك وسيموت في الخامسة والخمسين في أثناء عملية تعويض مع شركة هاليس وشركائه. وسيكون نص ورقة نعيه: في الخامس والعشرين من أيلول قضى فجأة بسكتة قلبية زوجي العزيز الحبيب، أبونا الغالي، الابن والأخ وزوج الأخت والعم ماكس روست في الخامسة والخمسين

من عمر لم يتم بعد. وهذا يظهر بمظهر الأسي العميق على ماريا روست باسم أهل المتوفى. وتقديم الشكر بعد الدفن سيكون نصه على الشكل التالي: شكر! بما أنه يتعذر علينا أن نشكر كل واحد على الدلالات إلخ. فإننا بهذا نسدي فائق الشكر لكل الأقرباء والأصدقاء ومستأجري البيت أيضاً في شارع كلايست رقم ٤ وكل المعارف. ونشكر بصورة خاصة السيد داينين على عبارات الموااساة الحارة. - والآن فإن عمر ماكس روست هذا ١٤ سنة، وغادر المدرسة الابتدائية، وعليه أن يقصد الطريق إلى الهدف مكتب الاستشارات لمرضى النطق و ثقيلي السمع وكلي البصر وضعاف الموهبة والذين تصعب تربيتهم، وحيث يتكرر وجوده لأنه يتلثم، إلا أن الحال تحسنت.

حانة صغيرة في ساحة روزيتال.

في صدر المكان يلعبون البليارد. وفي الخلف يدخن رجلان ويشربان الشاي. الأول له وجه ذابل وشعر أشقر ويجلس في عباءة واسعة بلا كمين. «هيا أطلق النار الآن. لكن اجلس هادئاً. لا تحبّط هكذا».

«لن تأخذني اليوم إلى مائدة البليارد. ليس عندي يد ثابتة».

ويقرض بطرف أسنانه خبزة جافة، لا يلمس الشاي.

«لست مجبراً على الإطلاق. الحق أن المكان مريح هنا».

«إنها القصة نفسها دائماً. الآن انتهى الأمر بسلام».

«من أفلح؟»

الآخر، شاب أشقر، له وجه أملس، مشدود القامة: «أنا أيضاً، بطبيعة

الحال. هل ظننت هؤلاء فقط؟ الآن تفاهمنا».

«بمعنى آخر، أنت خرجت».

«تكلّمت الألمانية مع المدير. وإثر ذلك أغلظ لي القول. وفي المساء جاءني الإخطار بترك العمل في أول الشهر».

«ينبغي ألا يتكلم المرء الألمانية أبداً في مواقف معينة. فلو أنك تكلّمت الفرنسية مع الرجل لما فهمك ولبقيت في الداخل».

«لا أزال في الداخل، ماذا تظن، أنا قادم لتوي من هناك. أتظن أنني سأهون عليهم الحياة. كل يوم، في الساعة الثانية ظهراً أكون هناك وأنغص عليهم حياتهم؛ تستطيع أن تعتمد عليّ، أنا أخو ثقة، يا رجل، يا رجل. أظن أنك متزوج».

يثبت هذا الرأس: «هذه هي السفالة، لم أقل لها هذا بعد، لا أستطيع أن أقول لها هذا».

«ربما تهدأ الأمور».

«إنها حامل».

«الثاني؟»

«أجل».

الرجل اللابس العباءة الواسعة بلا كمين يشدّ المعطف على جسده على نحو أوثق، ويبتسم للآخرين في سخرية ثمّ يجني رأسه: «هون عليك. شيء جميل. الأطفال يشجعون. وما أحوجك الآن إلى ذلك».

يتقدّم هذا: «لن أكون في حاجة إلى ذلك. ولماذا. فأنا غارق في الديون. والأقساط الدائمة التي لا نهاية لها. ولا أقدر أن أقول لها هذا. لن تخيف من بعد

ذلك إنساناً. اعتدت على النظام، وهذا قدر من فوق إلى تحت. والمدير عنده مصنع أثاث خاص به، والحق إنه لسيان عنده ما إذا كنت سأجلب طلبيات لقسم الأحذية. فالمرء هو العجلة الخامسة في السيارة. والناس يقفون في المكتب هنا وهناك ويسألون ويسألون: هل صدرت أخيراً العروض؟ قلت هذا لهم للمرة السادسة لماذا أذهب أنا إلى الزبائن. فالمرء يجعل من نفسه أضحوكة. إما أن يترك القسم يتوقف وإما لا.»

«هيا اشرب قليلاً من الشاي. وإلى حين سيتركك هو تموت.»
سيد بكمين يأتي من مائدة البليارد وينقر على كتف الصبي: «هل نلعب دوراً؟»

يجيب الأكبر سناً عنه: «تلقي لكمة في الذقن.»

«لعبة البليارد صحيحة للكلمات في الذقن.» ثم ينسحب. والذي يلبس العباءة الواسعة بلا كمين يجرع الشاي الساخن؛ إنه لمفيد شرب الشاي الساخن مع السكر ومشروب الروم وأن تسمع آخر يتجاذب أطراف الحديث. الجو لطيف مريح في الحجرة. «أنت لن تذهب اليوم إلى البيت يا جورج؟»

«ليست عندي الشجاعة، ليست عندي الشجاعة. أي شيء سأقوله لها. لا أستطيع أن أنظر في وجهها.»

«امش، امش دائماً، بهدوء واطمئنان أنظر في الوجه.»

«وما أدراك بهذا.»

مدّ هذا نفسه على الطاولة ونهايات العباءة بين أصابعه: «اشرب يا جورج، كل ولا تتكلم، أنا على دراية بذلك. وأعرف السحر إلى هذا الحين. وحين كنت أنت بعد صغيراً مررت أنا بالتجربة.»

«ليضع المرء نفسه ذات مرة في مكاني وليشعر بشعوري. مركز جيد، ثم يفسدون كل شيء على شخص ما».

«كنت معلماً. قبل الحرب. حين اندلعت الحرب كنت كما أنا عليه الآن، وكانت الحانة كما هي اليوم. لم يستدعوني إلى الجيش، ظننت أن الضربة تصيبي. وطبعي أنهم أخذوا مني الحقنة والمورفين أيضاً. ثم إلى داخل المصنع. تحملت الوضع يومين، ما دام لدي احتياطي، نقط، ثم وداعاً، يا بروسيا، وأنا في مصح المجانين. وبعدها أطلقوا سراحي. يا الله، ماذا أردت أن أقول، ومن بعد ذلك طردتني المدرسة، مورفين، فالمرء يكون في بعض الأحيان سكران، في البداية، والآن لم يعد يحدث هذا، للأسف. أجل، والزوجة؟ والطفل؟ إلى اللقاء، يا بلدي الحبيب. يا أنت، يا جورج، سيكون في مقدوري أن أحكي لك حكايات رومانسية». الرجل الأشيب يشرب، كلتا يديه على الكأس، ويشرب ببطء، من قلبه، وينظر في الشاي: «امرأة وطفل: يبدو كأن هذا هو العالم. لم أندم، لا أحس بالذنب. يجب على المرء أن يواجه الوقائع ويقبل بها، ونفسه أيضاً. على المرء إلا يتباهى بمصيره. فأنا ضد القضاء المحتوم. لست يونانياً، أنا برليني. لماذا تترك الشاي الرائعة تبرد؟ أضف إليها مشروب الروم» صحيح أن الصبي يمد يده بالكأس، إلا أن الآخر يدفعها جانباً ويصب له قطرات من زجاجة صفيح صغيرة يسحبها من الجيب. «يجب أن اذهب. شكراً جزيلاً. يجب علي أن أضع نهاية لغضبي».

«ابق هنا هادئاً، يا جورج، واشرب قليلاً ثم العب البليارد. إلا الفوضى لا تتركها تنتشر. هذه هي بداية النهاية. حين لم أجد لا الزوجة ولا الطفل في البيت، لم يكن هناك إلا رسالة، ذهبت إلى الأم إلى بروسيا الغربية وهلمّ جرّاً،

وجود ضائع، زوج كهذا والفضيحة وما إلى ذلك، وأحدثت أنا هنا شقاً، هنا في ذراعي اليسرى، ويبدو هذا محاولة انتحار. على المرء إلا يألو جهداً بأن يتعلم يا جورج؛ لا بل إنني كنت أعرف البروفيسالية، أمّا التشريح -، فقد ظننت الوتر نبضاً. لست اليوم مطلعاً بعد على نحو أفضل، ياله من عيب. باختصار: الألم والندم كانا سخافة، بقيت على قيد الحياة، والزوجة بقيت على قيد الحياة، والطفل أيضاً، لا بل حضر عندها مزيد من الأطفال، في بروسيا الغربية، نحو أثني عشر، فقد أثرت في البعد؛ نحن كلنا نحيا. ساحة روزيتال تسرّني، الشرطي عند ناصية الشارع يفرحني، البليارد تفرحني. وليأت شخص ما وليقل إن حياته أفضل وأنا لست خبيراً في النساء».

راقبه الأشقر بنفس كارهة: «إنك والحق يقال إنسان مضعضع الجسد كلياً، يا كراوزي. أنت نفسك تعرف هذا. يالك من أنموذج. أنت تعرفني بنفسك في سوء طالعك، يا كراوزي. وحكيت لي بالذات كيف يجب عليك أن تجوع في ساعاتك الخصوصية. أنا لا أريد أن أعيش بأية حال مثل هذه العيشة.» أفرغ الأثيب كأسه، ويستلقي إلى الورا بعباطه الواسعة في الكرسي الحديدية ويومئ بعينه إلى الصبي للحظة إيحاءة عدائية ثم ينفخ ويضحك ضحكاً متكلفاً: «لا، لا أنموذج، معك حق في هذا. لم أدع قط. وأنا في نظرك لست أنموذجاً. الذبابة، تبصر، وجهات نظر. الذبابة تضع نفسها تحت المجهر وتخال نفسها حصاناً. على الذبابة أن تجيء إلى قدام تلسكوبي. من أنت، أيها السيد، السيد جورج؟ قدّم لي نفسك مرة: السيد ممثل البلدية لشركة فلان، قسم صناعة الأحذية. لا، كفّ عن المزاح. أن تحكي لي عن كربك، كرب (Kummer)، هجّ: الكاف (= K) مثل رأس العجل Kalbskopf، U مثل سوء تصرف (Unfug)، سوء تصرف فظّ وأكثر

فظاظة، أجل، M مثل كلام فارغ (Mumpitz). أنت متصل هاتفياً بالرقم الخطأ، الرقم خطأ، يا سيدي، الرقم خطأ كلياً.

فتاة شابة تنزل من الحافلة الكهربائية رقم ٩٩، ماريندورف، طريق عام ليشتينراد، تيمبل هوف، بوابة هاللي، كنيسة هيدفيك، ساحة روزينتال، شارع باد، شارع البحيرة، زاوية شارع توغو، في الليلتين من ليلة السبت إلى ليلة الأحد حركة مرور متواصلة بين شارع أوفر وتيمبل هوف وشارع فريديش كارل بفاصل زمني قدره ١٥ دقيقة. إنها الساعة الثامنة مساءً، معها تحت الإبط محفظة أوراق النوتة الموسيقية، وأحاطت وجهها بالياقة الجلدية، وتتمشى جيئةً وذهاباً عند ناصية شارع بروتر - فاينبير جزفيغ. رجل في فراء يبادرها بالكلام وتتفرض مذعورة وتذهب بسرعة إلى الجهة الأخرى من ناصية الشارع. تقف تحت المصباح العالي وتراقب الناحية الأخرى من ناصية الشارع. رجل قصير جاوز مرحلة الشباب يلبس نظارة عاج يظهر في الجانب الآخر، وسرعان ما تكون عنده. وتمشي بجانبه وهي تكرر، ويطلعان إلى شارع بروتر.

«ليس مسموحاً لي أن أعود متأخرة إلى البيت، فعلاً، كلاً. الحق أنه ما كان ينبغي أن آتي. لكن لا يصح لي أن أرنّ الجرس» «لا، بصورة استثنائية فقط إذا لزم الأمر. يصيح المرء السمع في المكتب. من أجلك، يا صغيرتي» «أجل، أنا خائفة، لن يفتضح الأمر. ومؤكد أنك لن تقول هذا لأحد» «بالتأكيد».

«أبي، إذا ما سمع شيئاً ما، وأمي، يا إلهي» الرجل الذي جاوز مرحلة الشباب يمسكها بذراعها فرحاً منشراح الصدر. «لن يفتضح أي شيء. لن أتفوه بكلمة واحدة لأي إنسان. هل تعلمت كثيراً في الحصّة؟».

«شوبان. إني أعزف المقطوعة الحاملة. هل أنت موهوب موسيقياً وعندك استعداد موسيقي؟» «أجل، إذا لزم الأمر» «أود أن أعزف أمامك

ذات مرة إذا ما تأتّى لي ذلك. لكنني أخاف منك» «ما هذا» «أجل، عندي دائماً خوف منك، بعض الخوف، ليس كثيراً. لا، ليس كثيراً. لكن ليس من داع للخوف منك» «ولا مثقال ذرة. لكن يا خبر. أنت تعرفيني منذ ثلاثة أشهر» «الحق يقال إني لا أخاف إلا من أبي. إذا افتضح الأمر» «يا بنت، سيكون لك أن تسيري وحدك ذات مرة مساءً بضع خطوات. لم تعودي طفلة» «قلت لأمي دائماً وأبداً. وأخرج أيضاً» «نحن نذهب إلى حيث نشاء ونهوى، يا صغيرتي الشكّاءة القليلة الحيلة» «لا تقل لي شكّاءة قليلة الحيلة. لم أقل هذا إلا في معرض كلامي. إلى أين نسير اليوم، يجب أن أكون الساعة التاسعة في البيت» «هنا فوق. وصلنا. حيث يسكن صديق لي. نستطيع الصعود بغير ما كلفة».

«أنا خائفة. ألن يرانا أحد أيضاً؟ اسبقني، وأنا ألحق بك وحدي».

فوق يتسم كل منهما للآخر. وتقف هي في ركن الغرفة. وخلع هو المعطف والقبعة، وتركه يأخذ منها محفظة النوتة الموسيقية ويرفع قبعته. ومن ثمّ تُهرع هي إلى الباب وتطفئ النور: «أما اليوم فليس لوقت طويل، عندي قليل من الوقت، يجب أن أذهب إلى البيت، لن اخلع ثيابي، أنت لن توجعني».

فرانس بيبركوبف يبدأ بحثه، على المرء أن يكسب مالاً، ومن دون مال

لا يستطيع الإنسان أن يعيش. من سوق الفخار الفرانكفورت

جلس فرانس بيبركوبف مع صديقه ميك إلى منضدة كان يجلس إليها عدة رجال صاحبين، وكان ينتظر بدء الاجتماع. أوضح ميك: «لن تذهب للتوقيع يا فرانس، ولن تذهب أيضاً إلى الشركة، وفيما يتعلق بأعمال الحفر فالطقس بارد جداً. التجارة هي الأفضل. في برلين أو في الريف. تستطيع

الاختيار. لكنها تطعم صاحبها الذي يعمل بها» صاح النادل: «احترسوا، أبعثوا الرؤوس» شربا بيرتهما. وفي لحظة دوت فوقهم خطأ السيد فوتشيل، الناظر في الطابق الأول، أسرع إلى مركز الإسعاف، فزوجته أغمى عليها. هنا شرح ميك مرة أخرى: «ما دمت أدعى غوتليب، هلاً نظرت إلى الناس هنا، كيف يبدو. ترى هل هم ميتون من الجوع. ترى هل هم ناس شرفاء» «أنت يا غوتليب، أنت تعرف أنني لا أسمح لأحد أن يمزح معي في موضوع الأدب وحسن السلوك. يدي على قلبك، هل هي مهنة شريفة أم لا؟».

«انظر إلى الناس، لن أقول أي شيء، تمام، بالله انظر إليهم» «بشر شرفاء مستقيمون، وبحسب الظروف. ناس شرفاء» «إنهم الأشرف أينما كانوا. حملات سراويل، جوارب وجوارب قصيرة وصدريات وربما مناديل للرأس. والربح يكمن في المشتريات».

على المنصة تكلم رجل أحذب عن معرض فرنكفورت. ليس في الإمكان التحذير تحذيراً ملحاً بما فيه الكفاية من الاشتراك الخارجي في المعرض. فالمعرض يقع في ساحة رديئة. وبصورة خاصة سوق الفخاريات. «سيداتي، سادتي، أيها الزملاء المحترمون، من شارك يوم الأحد الماضي في معرض فرنكفورت للفخاريات سيكون قادراً على أن يؤيدني أنه لا يمكن أن يطلب هذا من الجمهور بطريقة جائزة» قرع غوتليب كأس فرانس: «إنه يتكلم عن سوق فرنكفورت للفخاريات. وطبعاً لن تذهب أنت إلى هناك» «لا ضير في ذلك. إنه رجل طيب ويعرف ما يريد» «من يعرف ساحة ماجاتسين في فرنكفورت لن يذهب مرة أخرى إلى هناك. إن هذا مثله مثل أمين في الكنيسة. كان قذارة، كان وحلاً. أريد أن أواصل التأييد أن إدارة بلدية فرنكفورت أعطت لنفسها وقتاً حتى ثلاثة أيام قبل الموعد. ثم قالت: ساحة ماجاتسين لنا،

لا ساحة السوق كما كان دائماً. لماذا، هذا ما أودّ أن أترك الزملاء يتشتمونه: لأنّ سوق الأسبوع سيقام على ساحة السوق. وحين نصل إلى هناك سيحدث ازدحام في حركة المرور. هذا أمرٌ إذ من بلدية فرنكفورت. هذه صفقة في الوجه أن تسمي مثل هذا سبباً. أربعة أسابيع ونصف للسوق الأسبوعية، ومن بعد ذلك ينبغي لنا أن نذهب؟ لماذا نحن بالذات؟ لماذا لا يذهب الخضري وبائعة الزبدة؟ لماذا لا تبني فرنكفورت صالة سوق؟ فتجار الفاكهة والخضار والبقالون تعاملهم إدارة البلدية معاملة سيئة أيضاً مثلنا. يجب أن نعاني جميعاً أخطاء البلدية. أما الآن فيجب إنهاء الموضوع. فالواردات في ساحة السوق كانت ضئيلة، لم يكن شيئاً، لم يكن من وراء الأمر مغنم. وما من أحد جاء في الوحل وفي المطر. والزملاء الذين كانوا هناك لم يكسب معظمهم كثيراً من المال لكي يتنقلوا بسياراتهم من ساحة إلى ساحة. مصاريف القطارات وأموال الأكشاك ومرتبات مؤقتة لمتقاعدين، إحضار العربات، ونقل بالعربات. جائز أيضاً، وهذا ما أودّ أن أؤيده وأن أعرضه على المملأ كلاً بأوضح وأجلى صورة، في فرنكفورت لا يمكن وصف أوضاع المراحيض. من كان هناك يستطيع أن يغني أغنية عن ذلك. مثل هذه الظروف الصحية لا تليق بمدينة كبيرة، وعلى المملأ أن يسم هذا حينما استطاع ذلك. مثل هذه الأوضاع لا يمكن أن تغري أيّ زائر إلى فرنكفورت وتضرّ الباعة والتجار. ثمّ الأكشاك الضيقة، مثل السمك، الواحد لصق الآخر.

بعد النقاش الذي هوجم فيه مجلس الإدارة أيضاً بسبب تعطله حتى الآن تمّ اتخاذ القرار التالي بالإجماع:

«شعر تجار المعرض بنقل المعرض إلى ساحة ماجاتسين مثل صفقة على الوجه. النتيجة التجارية للتجار هي القصور جداً عن المعارض السابقة.

وساحة ماجاتسين غير مناسبة على الإطلاق بأن تكون ساحة معرض ذلك لأتمها تضيق جداً بعدد زوار المعرض، ومن الناحية الصحية هي أقرب إلى أن تكون مخرجة لمدينة فرنكفورت على نهر الأودر، بغض النظر عن أنه في حال خطر الحريق سيذهب التجار مع ممتلكاتهم هباءً منثوراً. وتوقع المجتمعون من إدارة بلدية المدينة إعادة نقل المعرض إلى ساحة السوق، ذلك لأنه بذلك منح ضمان للإبقاء على المعرض. وفي الوقت نفسه ناشد المجتمعون بأن تخفض ضريبة السوق ذلك لأتمهم ليسوا بقادرين على أن يفوا بالتزاماتهم في ظل الظروف الراهنة ولو على وجه التقريب أيضاً، وسوف تفرض رعاية الصالح العام للمدينة نفسها فرضاً».

انشد بيير كوفي إلى الخطيب على نحو لا تجدي معه المقاومة: «ميك، إنه لخطيب، رجل كأنه أعدد للنديا» «أجرح مشاعره مرة واحدة فلربما تنال نصيبك منه» «ليس في إمكانك أن تعرف هذا يا غوتليب. أنت تعرف حق المعرفة أن اليهود انتشلوني وطرقت الأفنية وغنيت للحرس على الراين، كان رأسي مشوشاً للغاية، وانتشلني كلا اليهوديين ورويا لي قصصاً. الكلام له طيبه أيضاً، يا غوتليب، وما يقوله شخص ما» «قصة بولاك. قصة شتيفان. أنت يا فرانس، أنت مخبول» رفع هذا كتفيه: «غوتليب، لوثة هنا ولوثة هناك، ضع نفسك في مكاني ومن ثم تكلم. الرجل فوق، القصير ذو الحذبة، طيب، أقول لك، إنه رائع وممتاز» «ليكن، أنا موافق! الأولى بك أنت أن تهتم بالشغل يا فرانس» «سيكون ذلك. كل شيء في أوانه، الواحد بعد الآخر. أنا لا أعترض على الشغل».

شق طريقه إلى الأحذب برشاقة. وفي تواضع واستسلام طلب منه معلومات. «ماذا تريد؟» «أود أن أستعلم» «لم تعد هناك مناقشات. انتهينا،

الختام الآن، كان لدينا الكفاية أيضاً ذات مرة، حتى هذا الوقت» كان الأحدث
لاذعاً. «ماذا تريد بحق الله؟» «أنا- يقال الكثير هنا عن معرض فرنكفورت.
وأنت أجدت في موضوعك إجابة ممتازة، على نحو رائع، يا سيدي. أردت أن
أقول لك هذا شخصياً. وأنا أتفق معك تماماً». «يسرني هذا أيها الزميل. ما الاسم
الكريم؟» «فرانس بيركوبف. رأيت بسرور كيف كنت تعرض موضوعك
وكيف أوصلته إلى أبناء فرنكفورت» «رئيس البلدية» «رائع. فهذا كويته أنت
على الفور كياً. وهؤلاء لن يتفوهوا ببنت شفة في هذا الشأن. وعلى الكرسي لن
يجلسوا مرة أخرى».

لملم القصير أوراقه ونزل من على المنضدة إلى الصالة التي ملاً الدخان
فضاءها. «أيتها الزميل، حسن» تهللت أسارير فرانس، وانحنى وراءه.
«أما زلت تريد الاستعلام؟ هل أنت عضو في النقابة؟» «لا، للأسف الشديد»
«في إمكانك أن تصبح عضواً عندي على الفور. انضم إلى طاولتنا» جلس
فرانس إلى طاولة مجلس الإدارة تحت، بجانب رؤوس حمراء، شرب وحيًا
واستلم شهادة. والمبلغ وعد بتسديده في أول الشهر القادم. وكانت المصافحة.

لوح من بعيد إلى ميك بالبطاقة: «أنا الآن عضو، أجل. أنا عضو الوحدة
المحلية البرلينية. تستطيع أن تقرأ هنا، كتب هنا: «وحدة برلين المحلية، نقابة
الرايخ، وما هو هذا: صاحب حرفة جوال في ألمانيا. شيء حلو، أليس كذلك؟»
«وما مهنتك، تاجر منسوجات؟ هنا مكتوب منسوجات. منذ متى يا فرانس؟
ما هي منسوجاتك؟» «لم أقل قط منسوجات على الإطلاق. قلت جوارب
ومازر. وبقي على رأيه، منسوجات لا ضير في ذلك. لن أدفع إلا في أول
الشهر» «يا بن آدم، عندما تذهب ومعك صحون الخزف أو تتاجر بسطول

المطبخ أو ربما بالمواشي، مثل السادة هنا: سادتي، أليس هذا سخفاً أنّ الرجل يستلم شهادة عضوية بالمنسوجات وقد يتاجر بالبقر؟» «أنصحك بالعدول عن البقر. الأبقار كاسدة. تاجر بالأرانب والدواجن والغنم والخنازير».

«لكنه لا يتاجر بعد بأي شيء. حقيقة واقعة. يا سادتي، إنّ هذا يكتفي بأن يجلس هنا بلا عمل ويريد. وفي وسعك أن تقول له، نعم يا فرانس، تاجر بمصائد الفئران أو بناس سدّج وناقصي عقل»: إذا لزم الأمر، يا غوتليب، وإذا ما غدّى هذا الشخص الذي هو كفاء له. مصايد فئران، ليست هذه بالذات، هنا تنافس محلات المستحضرات الكيماوية وأدوات التنظيف بالأدوات السميّة منافسة شديدة جداً، أما ناقصو العقل والسدّج: ولماذا لا ينبغي الإتيان بناقصي عقول وسدّج إلى المدن الصغيرة؟» «حسن، انظر: في مثل هذه الحال يستلم هو شهادة بالمآزر ويتاجر بناقصي العقول والسدّج».

«لا يا غوتليب، سادتي، الحقّ معكم، أما أنت فعليك إلا تحرّف الموضوع. على المرء أن يقلّب الأمر على وجوهه ويسلّط الضوء عليه كما فعل القصير الأحذب بموضوع فرنكفورت الذي لم تنصت أنت إليه» «لأنه لا شأن لي بفرنكفورت، ولا بالسادة أيضاً» «حسن، يا غوتليب، حسن يا سادة، ليس الغرض من ذلك أيضاً التأنيب، إنّما بالنسبة لي أنا وحدي، أنا الفقير لله، فقد أصغيت، وكان جميلاً كيف ألقى الضوء على كلّ شيء بهدوء، إنّما بقوة، بالرغم من صوته الضعيف، ومن المحقق أنّ الرجل يعاني مرضاً رئوياً، وكيف كان كلّ شيء على خير ما يرام وكيف جاء القرار، كل فقرة مضبوطة لا تشوبها شائبة، شيء جميل، فطحل، إلا دورات المياه التي لم تعجبهم. كانت لي حكاية مع اليهود وأنت تعرف. فقد ساعدني ذات مرة، يا سادتي، كما أنا وحين كان وضعي سيئاً، يهوديان، بسرد الحكايات. تحدثا إليّ، ناس كرام طيبون لم

يعرفوني، حكيا لي عن شخص بولوني أو شيء من هذا القبيل. ولم تكن إلا حكاية، لكنها كانت جميلة جداً، ومفيدة جداً لي في هذه الحال التي كنت أنا فيها. وظننت: الكونياك كان سيفعل فعله أيضاً. لكن من يدري. وفيما بعد استعدت قواي ونهضت نشيطاً على قدمي. «أحد تجار الماشية بعث دخان سيجارته وابتسم ابتسامة عريضة: «هل سبق أن نزلت بك بصورة خاصة نازلة شديدة؟» «بلا مزاح، يا سادتي. وفضلاً عن ذلك معكم حق. كانت نازلة مرتبة. وقد يحدث هذا لكل إنسان في الحياة بأن تنهال الحجارة على رؤوسكم وتنحل سيقانكم. كل إنسان عرضة لمثل هذه الورطة وسوء الحظ المغيظ. وما العمل فيما بعد بسيقان رخوة. وتتجولون في الشارع، في شارع برونين وبوابة روزيتال وأليكس. وقد يحصل لكم أن تتجولوا هنا وهناك ولا تستطيعون أن تقرأوا اللافتات. هنا ساعدني ناس عقلاء، روالا وحكوا، ناس ذوو عقول. ومن هنا تعرف: على المرء ألا يؤمن إيماناً مطلقاً بقيمة المال أو الكونياك أو القروش التافهة رسماً للاشتراك. المهم هو أن يتمتع المرء في هذه الحال بعقل، وأن يستخدمه وأن يعرف ما طراً على شخص ما، بحيث إن المرء لا يطرح أرضاً على فوره. لا بأس في هذه الحال. هكذا هي الأمور، أيها السادة، وهذه هي ملاحظتي».

«لنشرب كأساً نخب الرشاد والحكمة، يا سيد، إذن يا زميل. نخب نقابتنا» «نخب النقابة، كاسكم يا سادة. كاسك يا غوتليب» وضحك هذا ثم ضحك: «يا رجل، من أين ستسد مبلغ اشتراكك، في أول الشهر القادم؟» «ومن ثم سترى أيضاً، أيها الزميل، وبما أنه صار لديك وثيقة عضوية وصرت عضواً في نقابتنا أن النقابة ستساعدك في الحصول على أجر محترم» وشارك تجار الماشية غوتليب في الضحك على الرهان. وقال أحد تجار الماشية: «اذهب يوماً

ما إلى ماينينغين ومعك الشهادة، في الأسبوع القادم ستكون السوق. سأقف على الجهة اليمنى، وأنت على الجهة اليسرى وأنا أراقب كيف تسير الأمور عندك. تصوّر يا ألبيرت، لديه الشهادة وهو عضو في النقابة ويجلس في كشكه. وهنا عندي يصيحون: «نقائق من فيينا وخبز حنطة من ماينينغين، ويصرخ عالياً إلى الجانب الآخر: «لَوْح لَوْح، لم يحضر بعد، عضو من النقابة، الخبر المثير الكبير عن سوق العجالات التوائم بمدينة ماينينغين. عندها يأتي الناس زرافات. يعقوب، يا يعقوب، يا لك من جاهل» وضربوا على المنضدة ومعهم بيبركوبف. دسّ الشهادة بحذر في جيب السترة العلوي: «إذا ما أراد المرء أن يسير على قدميه اشترى زوجين من الأحذية. لم أقل بعد شيئاً إنني سأنجز أعمالاً ضخمة. لكنني لست بغبي أيضاً» ونهضوا واقفين.

في الشارع زجّ ميك نفسه في نقاش حاد مع كلا تاجري الماشية. وكلا التاجرين دافع عن وجهة نظره في قضية تقدم بها أحدهما. فقد كان يتاجر بالماشية في منطقة الحدود، إلا أنه لم يكن يحق له أن يتاجر إلا في المدينة. أحد المنافسين كان التقاه من بعد ذلك في قرية من القرى فبلغ الشرطة عنه. على أن كلا تاجري الماشية اللذين كانا يسافران معاً دبرا الموضوع بحذق ومهارة: فالمتهم يصرّح أمام المحكمة أنه لم يكن إلا مرافقاً للآخر وأنه لم ينجز كل شيء إلا بتكليف من الآخر وصرّح تاجرا الماشية: «نحن لا ندفع. نحن نقسم. أمام المحكمة أدّى الأمر الآن إلى اليمين. ويحلف يميناً أنه لم يكن إلا مرافقاً له، وكان هو مرافقاً له غير مرّة، وسيحلف على ذلك، وبذلك تنفّض المسألة».

عندئذٍ يفقد ميك أعصابه ويمسك تاجري الماشية كليهما بمعطفيهما: «ها أنتما في ورطة، أنتما مجنونان، أنتما تنتميان إلى عالم الأغبياء، وستحلفان

أيضاً في قضية غبية كهذه. مجاملة أن المحكمة تؤازر شيئاً كهذا، ليس هذا بوضع سليم، السادة ذوو النظارة الأحادية الزجاجية. أما الآن فنحن نحكم حكماً قضائياً».

تاجر الماشية الثاني يظل على موقفه: «أنا أقسم، أليس الأمر هكذا؟ دفع وتأدية حساب على سبيل المثال، ثلاث جهات قضائية، والصعلوك السافل سيتسلى؟ شخص حسود دائماً. عندي مدخنة، وجهاز تصريف حرّ».

ضرب ميك بقبضته على جبينه: «أيها الألماني الساذج غير المعني بالسياسة، أنت مكانك في القذارة حيث أنت موجود».

افترقا عن تاجري الماشية، تأبط فرانس ذراع ميك، وراحا يتنقلان وحيدين في شارع بروين جيئةً وذهاباً. هدّد ميك وتوعّد وراء تاجري الماشية: «مثل هذين الأخوين. هم سبب مصائبنا وبلائنا، الشعب كله، هؤلاء هم مسؤولون عن بلاء هذا الشعب» «ماذا تقول يا غوتليب؟» «ناس جنباء خرعون، وبدلاً من القضاء يجب التلويح لهم بالقبضات، هؤلاء الرعايد المخشون، الشعب برمته، التجار، العمال، من خلال المصرف».

فجأة توقف ميك عن السير ووقف أمام فرانس: «فرانس، يجب أن نتكلم معاً. وإلا لن أستصحبك. ولا بحال من الأحوال» «أبدأ إذن» «يجب أن أعرف، يا فرانس، من أنت. انظر في وجهي. قل لي بصراحة وعلى الفور، هل طاب لك هنا في تيجل، أنت تعرف ما الحق وما العدالة. ومن ثمّ يجب أن يبقى الحق أيضاً حقاً» «هذا صحيح، يا غوتليب» «إذن يا فرانس، أصدقني القول: أي شيء يحوكونه لك في الخارج؟» «يمكنك أن تطمئن. وفي إمكانك أن تصدقني: إذا كان لك قرنان فاتركهما خارجاً. وعندنا قرؤوا

كتباً وتعلموا الاختزال، ومن ثم لعبوا الشطرنج، وأنا أيضاً» «أتحيد لعبة الشطرنج أيضاً؟» «حسن، لنواصل لعبة الورق «السكات»، يا غوتليب. إذن، أنت تجلس عاطلاً عن العمل، وليس لديك الكثير من المخ للتفكير، وعندنا نحن عمال النقل، مكمّن قوتنا أكثر ما يكون في عضلاتنا وعظامنا، ثم تقول أنت ذات يوم: اللعنة، لا تخالط الناس وامضِ إلى حال سبيلك، ياغوتليب. انفض يدك من الناس. غوتليب، ما لنا ولأمثالنا بالمحكمة والشرطة والسياسة؟ كان عندنا شيوعي في الخارج، كان أكثر بدانة مني. وقد كان تسعة عشر عاماً في برلين. لم يقبضوا عليه، إلا أن هذا صار فيما بعد عاقلاً وتعرّف إلى امرأة أرمل وانخرط معها في التجارة. شاب شاطر، أنت ترى» «وكيف وصل إليكم؟» «ربما تمّ القيام بمحاولة تهريب. تضامننا نحن دائماً في الخارج، ومن صنع مصابيح استطاع أن يشهد ضربه. لكن الأفضل إلا تكون هناك علاقة بالآخرين. هذا انتحار. دائماً إطلاق سراح. البقاء مستقيماً والبقاء وحيداً. هذا وعدي».

«هكذا»، قال ميك ونظر إليه نظرة متوترة: «إذن سيكون عليهم كلهم السلام ولن يتوصلوا إلى أي شيء على الإطلاق، هذا في الحقيقة جبن منك وضعف، لن أتركهم يتزعجون مني هذا الشيء. سيكون لهذا نتائج سيئة يا فرانس».

إلى شارع الإنفاليدين ينحدر فرانس بييركوبف ماشياً وصديقه الجديدة، لينا البولونية، تتمشى معه، وعلى ناصية شارع تشاوسي يوجد كشك جرائد في الدهليز. وهناك يقف بعضهم ويثرثرون.

«انتباه، ممنوع الوقوف هنا» «سيكون في الإمكان رؤية صور» «فلتشتروا. لا تسدّوا الممر» «غبي».

ملحق سفر. حين يقترب في شمالنا البارد الوقت المقيت الذي يقع بين الأيام الشتائية التي تتألق بسنا الثلج الأبيض وبيادر خضرة أيار يجذبنا نحن - دافع عمره آلاف السنين - إلى الجنوب المشمس ما وراء الألب، إلى إيطاليا. من كان سعيداً مثل هذه السعادة لكي يستطيع أن يستجيب لهذا الدافع، دافع التجوال بدون انفعال من الناس. ما عليك إلا أن تنظر كيف يستوحش الناس الآن. فإذا ما اعتدى شخص ما على فتاة في المترو برحته ضرباً بحيث لا يقوى على الحركة بسبب خمسين ماركاً مبلغ كبير بالنسبة لأمثالنا، مبلغ كبير، يا أنت. قلت هذا لتوي، إذا ما أردت أن تعرف ما معنى خمسين ماركاً عندها سأتابع الحديث معك».

خطبة قدرية لمستشار ألمانيا ماركس: ما هو مقدرٌ هو بحسب عقيدتي ونظرتي إلى الحياة رهن العناية الربانية، الله الذي له نواياه المحددة تجاه كل شعب. وبالمقابل فإن عمل الإنسان لن يبقى إلا عملاً ناقصاً. ولا سبيل لنا إلا أن نعمل بكل ما نملك من قوة، ولا نكف عن العمل طبقاً لقناعاتنا، وهكذا سأملاً بصدق وإخلاص مكاني الذي سأسغله الآن. وأختم، يا سادتي المحترمين، بأطيب التمنيات لعمل موفق في شغلكم الشاق المستعد للتضحية لما فيه خير لبافاريا الجميلة. التوفيق والفلاح في مسعاكم في المستقبل. عش، كما أنت، حين تموت، بالهناء والشفاء لك.

«والآن هل انتقيت أيها السيد؟» «كيف؟» «أينبغي لي أن أعطيك الجريدة من مشبك الورق؟ كان هناك في يوم من الأيام سيد طلب مني أن أعطيه كرسيّاً كي يستطيع أن يقرأ براحة» «أنت تعلق صورك لا شيء إلا لكي --» «ما أريده من صوري هو شأني أنا. أنت لا تدفع لي عن كشكي. أما الذين ليسوا إلا طفيليين فلا حاجة لي بهم في كشكي، ولا ينفرون إلا الزبائن».

ينسحب، الأولى به أن يتركهم ينظفون له حذائه، ينام في مأوى المشردين في شارع فروبل، يصعد إلى الحافلة الكهربائية. ومن المؤكد أنه يركب بتذكرة ركوب مزورة أو أنه احتفظ بواحدة يجربها. وإذا ما ضبطوه أضاع التذكرة الصحيحة. دائماً هؤلاء الطفيليون، ومن جديد اثنان آخران. في القريب العاجل سأضع شبكاً في الواجهة. يجب الإفطار.

فرانس بيبركوبف وقد اعتمر القبعة الصلبة يأتي بخطوات ثابتة منتظمة، ولينا البولونية اللحيمة الجسيمة ممسكة بذراعه. «لينا، العينان إلى اليمين، ادخلي إلى الردهة. الطقس ليس للعاطلين عن العمل. سنرى صوراً. صور جميلة، لكن المكان هنا فيه تيار هوائي. أيها الزميل، بالله قل كيف تسير أمور المحل. هنا يبرد المرء برداً شديداً. «ليست صالة مكيفة» «لينا، هل ترغين في أن تقفي في مكان مثل هذا؟».

«بالله عليك تعال، فالرجل يضحك في شماتة وخبث» «يا آنسة، أعني فقط أن هذا قد يعجب شخصاً ما إذا ما وقفت هكذا في الردهة وبعث جرائد. خدمة من يد رقيقة».

هبات ريح، الصحف ترتفع تحت المشابك. «أيها الزميل، عليك أن تركب مظلة هنا في الخارج».

«لكيلا يرى أي واحد شيئاً ما» «ومن ثمّ تعمل لوحاً زجاجياً» «تعال يا فرانس» «انتظر لحظة، لحظة واحدة. الرجل يقف هنا ساعات وساعات ولا يسقط أرضاً. لا داعي لأن يكون المرء شكّاءً شديد الحساسية، يا لينا» «لا، لأنه يضحك في خبث وشماتة» «هكذا هي تعابير وجهي، أسارير وجهي، يا آنسة. في هذه الحال ليس الذنب ذنبي» «هذا يضحك دائماً في خبث وشماتة، إنك لتسمعين يا لينا، الرجل المسكين».

دفع فرانس قبعته إلى الوراء، نظر في وجه بائع الجرائد، انفجر صائحاً
وضحك، ويد لنا في يده.

«ليس هذا بيده، يا لنا. رضع هذا من ثدي أمه. أنت تعرف، أيها
الزميل، أي محيّا يكون لك حين تضحك في شمّاة وخبث؟ لا، ليس على
نحو ما ضحكت قبل ذلك في شمّاة وخبث؟ أتعرفين يا لنا، حين كان على
صدر أمه وصار اللبن رائباً متخثراً» «والشيء عندي لا سبيل إليه. وهم
أرضعوني بالزجاجة».

«عبث صبياني بغيض غير مقبول» «يا زميل، قل بالله عليك، كم يكسب
الشخص من هذا العمل؟».

«راية حمراء، شكراً. دع الرجل يمرّ يا زميل. ابعء الرأس، صندوق»
«إنك تقف هنا في الزحام وقوفاً وأي وقوف».

سحبته لنا وسارا على مهل في شارع تشاوسي نزولاً إلى بوابة أورانيان
بورغ. «هذا شيء يناسبني. لن أصاب بالبرد بمثل هذه السهولة. اللهم إلا
الانتظار الكريه في الدهليز».

بعد يومين صار الجو أكثر دفئاً، باع فرانس معطفه، ولبس ثياباً داخلية
سميكة أتت بها لنا من مكان ما ويقف في ساحة روزينتال أمام ملابس فابيش
الجاهزة، فابيش وشركاؤه، خياطة ممتازة للرجال تفصيل، صناعة متقنة وأسعار
مخفضة هي علامات لمنتجاتنا. وقيس فرانس مشبك ربطات عنق.

«لماذا يلبس ابن الذوات في الغرب ربطة عنق ولا يلبس الكادح والفرد
العامل أية ربطة عنق؟ يا سادة، ليس لكم أن تقتربوا، يا آنسة، أنت أيضاً، مع

السيد الزوج، ومسموح للنشء الدخول، وبالنسبة للنشء لم يعد يكلف هذا شيئاً. لماذا لا يلبس البروليتاري ربطة عنق؟ لأنه لا يستطيع أن يربطها، وفي هذه الحال لا بدّ له من أن يقتني مشبك ربطات عنق، إذا ما كان اشتراه فهو رديء ولا يستطيع أن يربط به ربطة العنق. هذا غشٌّ واحتيال، وهذا ما يجعل الشعب برماً متأففاً ويدفع بألمانيا إلى وهدة الشقاء والبؤس على نحو أعمق مما هي فيه. ولماذا على سبيل المثال لا يلبس المرء مشابك ربطات العنق الكبيرة هذه؟ لأن المرء لا يريد أن يربط حول العنق رفش زباله. لا الرجل ولا المرأة يريدان ذلك، حتى الرضيع كان سيأبى ذلك لو أنه استطاع الجواب. فلا يسخرن أحد من ذلك، أيها السادة، لا تضحكوا، ونحن لا نعرف ما يجري في دماغ الطفل الصغير اللطيف. يا إلهي، هذا الرأس اللطيف، رأس صغير كهذا وشعيرات، لا، شيء جميل، لكن ادفع نفقات، ليس هناك موجب للضحك، هذا يدفع إلى ضيق ذات اليد. اشترُوا ربطات عنق كهذه من عند تيتس أو فيرتهايم، أو إذا رفضتم أن تشتروا من عند اليهود، في مكان غير هذا المكان. أنا رجل آري» ويرفع القبعة عالياً، شعر أشقر، وأذنان حمراوان واقفتان وعينان مكورتان ضحوكتان.

«ليس لدى المتاجر الكبيرة ما يدعوها إلى أن تتركني أقوم لها بدعاية، ففي إمكانها أن تستمر أيضاً من دوني، فإذا ما اشتريت ربطة عنق مثل هذه التي هي معي، ثم فكّر صديق من بعد ذلك كيف ينبغي أن تربطها غداً.

أيها السادة، من ذا الذي لديه في هذه الأيام وقت لكي يربط في الصباح ربطة عنق ولا يفضّل أن ينعم بدقيقة نوم زيادة. نحن كلنا في حاجة إلى النوم الكثير لأنّ علينا أن نعمل كثيراً ونكسب القليل. وإنّ مشبك ربطة عنق كهذا

يسهّل عليكم النوم. فهو ينافس الصيادلة، إذ إنّ الذي يشتري مشبك ربطة عنق مثل هذا كما هو معي هنا لن يحتاج إلى سَمّ النوم ولا إلى نبيذ ساخن للنعاس ولا لشيء. فهو ينام من دون ههددة مثل الطفل على صدر أمه لأنه يعرف: في الصباح لن يكون هناك زحام؛ فما يحتاج إليه هو مُعدُّ على الكومودينة، ولم يبقَ إلا أن يُدسَّ في الياقة. أنت تنفق مالك على الكثير من القذارات والتفاهات. وها أنت شاهدت في العام الماضي الغشاشين الخداعين في الحانة البرلينية الكروكوديل، وكان هناك في الأمام نقانق تيس ساخنة، وفي الخلف استلقى فنان الجوع جولي في الصندوق الزجاجي وترك الكرنب المخلل ينمو حول فمه. وهذا ما رآه كلّ واحد منكم - ما عليكم إلا أن تحتشدوا على نحو أكثف لكي أستطيع أن أحافظ على صوتي، فلم أوَمِّن على صوتي، وما زال ينقصني القسط الأول - كيف استلقى جولي في الصندوق الزجاجي، هذا ما رأيتموه. أمّا كيف دسّوا الشوكولاته في يده، فهذا لم تروه. هنا تشترون البضاعة الحقّة، إنها ليست سيليلويد، مضغوطة ضغط المطاط، القطعة بعشرين بفينيكاً وثلاث قطع بخمسين بفينيكاً.

ابتعد عن الدام (جسر السكة الحديدية)، أيها الشاب، وإلا دهستك سيارة، ومن ذا الذي سيجمع زباله الشوارع من بعد ذلك؟ سأوضّح لك كيف يتمّ ربط ربطة العنق، لا داعي للضرب على الرأس بالمطرقة. وأنت تفهم هذا على الفور. أنت تأخذ من جهة ثلاثين إلى خمسة وثلاثين سنتيمتراً ثم تطوي ربطة العنق، لكن ليس بهذه الطريقة. هذا يبدو كما لو أنّ بقّة معموسة على الجدار، شيء كهذا لا يلبسه الرجل الأثيق ابن الذوات. ومن ثمّ تأخذ جهاززي. يجب توفير الوقت. فالوقت من ذهب. الرومانتيكية راحت وولّت ولن تعود أبداً،

وعلينا كلنا أن نحسب في هذه الأيام حساباً لذلك. ليس في وسعك أن تشدّ خرطوم الغاز حول العنق، أنت في حاجة إلى هذه المادة الجاهزة الخالصة. انظر، هذه هي هديتك في عيد الميلاد، هذه على ذوقك، أيها السادة، هذا لصالحكم. إذا تركت لكم خطة داوس شيئاً ما فهو الرأس تحت الغطاء، ويجب على هذا أن يقول لك، هذا شيء لك، هذا ما تشتريه وتحمله إلى البيت، هذا سيعزّبك.

أيها السادة، نحن في حاجة إلى العزاء، كلنا كما نحن هنا، وإن كنا أغبياء فلنبحث عنه في الحانة. ومن كان عاقلاً فلا يقدم على مثل هذا، بسبب محفظة النقود، إذ إن ما يصبه الخمر اليوم من عرق رديء من البرميل هو أمر إدّ، والجيد غالٍ. ولهذا خذوا هذا الجهاز، أدخلوا هنا شريطاً قليل العرض، وفي إمكانكم أن تأخذوا أيضاً أشرطة عريضة كما يرتديها الصبيان اللواطيون على أحذيتهم حين يذهبون في رحلة. هنا تمرّون والآن أمسكوا أحد الطرفين. إن رجلاً ألمانيا لا يشتري إلا البضاعة الموثوق بها، وتلك هي هنا عندكم».

لينا تقول رأيا بصراحة للصبيان اللواطيين

لكنّ فرانس بيبركوبف لا يقنع بهذا. ويجرّك مقلتي عينيه. ويراقب مع لينا الرقيقة القلب المهملّة حياة الشوارع بين أليكس وساحة روزيتال ويقرر بأن يتاجر بالجرائد. لماذا؟ حكوا له أنّ لينا تستطيع أن تساعد، وهذا شيء يناسبه. تارة هنا وتارة هناك، ومن حولها، ليس هذا بصعب؟

«لينا، لا أستطيع الكلام، لست بخطيب جماهير، حين أنادي يفهمونني، لكن هذا ليس الشيء الصحيح. هل تعرفين ما الروح؟» «لا»، وحملت لينا فيه بتشوّق. «انظري إلى الفتیان في ساحة أليكس وهنا، هؤلاء كلّهم لا روح لهم

ولا عقل. وهؤلاء أصحاب الأكشاك أيضاً والذين يجرون العربات، كل شيء لا شيء. شطّار، إخوة حاذقون دهاة، فتیان أقوياء، بقي أن تقولي لي هذا. لكن تصوّري، خطيب مثل هذا في المجلس النيابي للرايخ، بسمارك أو ببيل، هذان ليسا الآن بشيء، هذان يتمتعان بروح وعقل، عقل، هذا قائد، ليس مجرد واحد مثل ديتس، هؤلاء كلهم معاً ليس في مقدورهم أن يرثوا شيئاً عندي بعقولهم المختلفة. الخطيب هو أن يكون خطيباً» «إنك لو اُحد، يا فرانس» بقي أن تقولي لي، أنا والخطباء. تعرفين من كان خطيباً؟ إنك لن تصدّقي، مؤجرتك «شفينك هذه؟» «لا، المؤجرة السابقة، إلى حيث رحّت أنا لجلب الأشياء من شارع كارل.» «تلك عند السيرك. عليك إلا تقول لي عن هذه.»

ينحني فرانس إلى الأمام على نحو غامض: «هذه كانت خطيبة، يا لينا، كما هو مكتوب في الكتاب.»

«مستحيل. تدخل غرفتي، وأنا لا أزال في السرير وتريد أن تخرج بالحقيبة بسبب أجرة شهر» «جميل، يا لينا، اصغ إليّ، لم يكن هذا جميلاً منها. لكن حين كنت فوق وسألت عن مصير الحقيبة بدأت هي.»

«الثرثرة هذه أعرفها. لكنني لم أصغِ باديء ذي بدء. أنت يا فرانس، لا تدع واحدة كهذه تمكر بك وتخدعك» «بدأت أقول لك! يا لينا، عن المواد، القانون المدني، وكيف استحصلت على معاش لزوجها الشيخ الميت حيث إنّ المجهد المسن أصيب بالسكتة. وهذا أمر لا علاقة له على الإطلاق بالحرب. تقول هي بالذات. على أنها نجحت في مسعاها. بفضل عقلها. إنّ لها عقلاً، هذه البدينة. ما تريده تظفر به، هذا أكثر من بضعة بفينيكات تكسبها. في هذه الحال تظهرين ما أنت عليه. عندئذٍ تتسمين أنسام الترفيه

والراحة. وما زال العجب يأخذ مني مأخذه» «أما زلت تصعد إلى هذه؟»
ويشير فرانس بالنفي بكلتا يديه.

«اصعدي إلى فوق يا لينا، إذا ما أردت أن تجلبي حقيبة ما، في الحادية عشرة
تماماً تكونين هناك، في الثانية عشرة ستكونين مرتبطة بموعد ما، وفي الواحدة إلا
ربع ستظلين حيث أنت. هي تتكلم، تتكلم إليك، والحقيبة لم تحصيلي عليها بعد،
وقد تخرجين فيما بعد من دون الحقيبة. فتلك تحسن الكلام».

يتأمل فوق قرص المنضدة ويرسم بالإصبع في نقرة بيرة: «سأتقدم
بطلب في مكان ما وأتاجر بالجرائد. هذا شيء مرتّب».

تبقى هي معقودة اللسان وحساسة. ويفعل فرانس ما يريد. وفي ظهر
يوم من الأيام يقف في ساحة روزيتال. وتجلب له سندويشات، وإذا به يروح
في الساعة الثانية عشرة ويدس لها تحت ذراعها الصندوق مع الحمل وعلبة
الكارتون ويذهب مستفسراً عن الجرائد.

بادئ ذي بدء ينصحه رجل جاوز مرحلة الشباب في سوق الهاكيش
قبل شارع أورانينبورغ بأن يهتم بالتوعية الجنسية. فاليوم تتم ممارستها على
نطاق واسع وهي رائجة. «ما هي التوعية الجنسية؟» يسأل فرانس وقد لا
يكون على صواب. ويشير ذو الشعر الأشيب إلى إعلانه: «انظر، يا هذا،
ومن ثم لا تسأل» «إنهن فتيات عاريات مرسومات رسماً» «غير ذلك ليس
عندي» يدخنان في صمت جنباً إلى جنب. يقف فرانس ويحدّق النظر في
الصور من فوق إلى تحت، ويدخن في الهواء، وينظر الرجل إليه نظرة عابرة.
فرانس يركّز عينيه على الرجل: «قل، أيها الزميل، هل يروك ذلك، الفتيات
هنا، ومثل هذه الصور؟ حياة ضاحكة. وهاهم يرسمون فتيات عاريات مع

قطة صغيرة. ما المقصود بالقطعة الصغيرة على السلم. شخص مشبوه. هل يزعجك هذا أيها الزميل؟» ويتنفس هذا على كرسيه الذي يطوى مستسلماً ويتهاوى: هناك حمير، وهي عالية علو الجمل الحقيقية، وتسير هذه في وضوح النهار في سوق الهاكيش، وتقف أيضاً أمام شخص ما إذا ما خاب حظه ويهذي بالسخافات. حين يصمت الأثيب يتناول فرانس بعض الأعداد من مشابك الورق: «اسمح لنفسي بهذا، أيها الزميل. ما اسم هذا، فيغارو. وهذا، الزواج. إنه زواج مثالي. ومن جديد فإن هذا هو الآن مغاير للزواج. عشق النساء. أن تحظى بكل شيء على حده. في هذه الحال يمكن الاستعلام أيما استعلام. إذا ما توافر المال. إننا غلاء فاحش. إن في الأمر شيئاً ما» «أود أن أعرف أية عيوب خفية في هذا. كل شيء مسموح به. وفي هذه الحال لا شيء ممنوع. ما أبيعه لدي موافقة به وفي هذه الحال لا مثلبة فيه. وأنا أنفض يدي من شيء مثل هذا» «في وسعي أن أقول لك، لا أريد إلا أن أقول لكأن رؤية الصور ليست بشيء. وفي وسعي أن أحكي لك الكثير عن ذلك. هذا يفسد الرجل، أجل هذا يفسدك. المسألة تبدأ برؤية الصور، وبعدها، إن شئت، تقف هناك. والأمور لن تعود تسير على النحو الطبيعي» «لا أفهم، ما معنى هذا. ولا تبصق على أعدادي، إنها تكلف مالاً كثيراً، وكف عن العبث هكذا بالغلاف. فلتقرأ هنا: العُزاب. يوجد كل شيء، مجلة دورية خاصة بذلك» «العُزاب، ما هذا، ألا ينبغي أن يكون هؤلاء موجودين؟ وأنا أيضاً لست متزوجاً بالبولونية لينا» «قلت هذا لتوي، هنا: ما هو موجود هنا، وإن لم يكن سليماً فليس هو إلا مثلاً: فالحياة الجنسية لكلا الزوجين إذا ما أريد تنظيمها بعقد، بأن تحدد الواجبات الزوجية بهذا الخصوص بمرسوم كما يملي القانون فإنه يعني أفضح أنواع العبودية التي يمكن أن تخطر بالبال

وأعظمها مهانة. صحيح؟» «ولماذا؟» «ما بك، أ صحيح أم غير صحيح؟»
«لم يمرّ هذا عليّ. إنّ امرأة تطلب هذا من شخص ما، لا، ليس شيئاً كهذا،
هل شيء كهذا ممكن؟ أ يوجد هذا؟» «إنك لتقرؤه» «يا لطيف، هذا أمر فظيع
لا يصدّق. وقدّري أن أشهد هذا».

يقرأ فرانس الجملة مرة ثانية وهو مدهوش، ثمّ يستشيط غضباً ويرى
الأشيب: «يا لطيف، وهنا أيضاً: أريد أن أعطي مثلاً على ذلك من أعمال
دانونزيو، اللذة، انتبه، دانونزيو يعني كبير الخنازير، إسباني أو إيطالي أو من
أمريكا. هنا تكون الحبيبة البعيدة عن الرجل تشغل أفكاره كثيراً جداً بحيث
إنّ اسم الحبيبة الحقيقية يغيب عنه على مزرعته في ليلة حمراء مع امرأة تقوم
عنده مقام البديل. ثمّ تدق الساعة الثالثة عشرة. لا، أنت، أيها الزميل، بمثل
هذا، لن أشارك بشيء من هذا القبيل» «أولاً، أين يكون هذا، إرني».

«هنا. تقوم مقام البديل. الكاوتشوك بصفة مطاط. اللفت بدلاً من طعام
حقيقي. هل سمعت ذات مرة أن تُتخذ امرأة، فتاة بديلاً، يتخذ لنفسه واحدة
أخرى لأنّ زوجته ليست عنده، وتلاحظ الجديدة هذا، ويكون كل شيء من
بعد ذلك تمام التمام، وقد لا يكون على هذه أن تحدث أي صوت؟ ويترك
الإسباني هذا ينطبع. وأنا بصفتي منضّداً ما كنت لأطبع هذا» «لا تبالح
يا رجل. إياك أن تظنّ أنك بعقلك الصغير تستطيع أن تفهم ما يقصد شخص
مثل هذا، كاتب حقيقي وفوق ذلك إسباني أو إيطالي، ماذا يقصد هذا، هكذا
هنا في الزحام، في ساحة الهاكيش».

يتابع فرانس القراءة: «فراغ كبير وصمت ملاً إثر هذا روحها. هذا
مدعاة لليأس. يجب أن يجعلني أحدهم أصدّق ما ليس صحيحاً. في وسع هذا
أن يأتي من حيث يشاء. منذ متى فراغ وصمت. هنا يمكنني أن أشارك في

الحديث، مثلي مثل هذا، والفتيات لن يكنّ هنا أيضاً على غير ما هنّ عليه في مكان آخر. كانت عندي واحدة ذات يوم ولاحظت هذه شيئاً، عنواناً في مفكرتي، هل يخطر ببالك أنّ هذه ترى شيئاً ثم تسكت؟ هكذا تبدو أنت، هنا تعرف أنت النساء، يا صغيري. كان يجب أن تسمع هذه. وتعالى الصراخ في أرجاء البيت ودوى البيت بالصراخ. وبهذه الطريقة زجرت هي وزعقت. لم أقدر أن أقول لها حقيقة الأمر. وواصلت هذه بلا انقطاع مائة الدنيا صياحاً. وكأنها كانت يائسة. ووصل الناس. وكنت سعيداً حين صرت في الخارج» «يا رجل، إنك لا تلاحظ شيئاً على الإطلاق، أمرين» «وهما؟» «حين يستلم أحدهم الجريدة مني، حين يشتريها يحتفظ بها. وحين يكون فيها سخافات، لا يضيق هو بذلك، فما يهمّ هذا ليس إلا الصور» عين فرانس اليسرى تستنكر هذا: «ثمّ إنّ لدينا هنا عشق النساء والصدّاقة، وهؤلاء لا يثرثرن، هؤلاء يناضلن. أجل، من أجل حقوق الإنسان» «ماذا بهنّ وماذا ينقصهنّ؟» «المادة ١٧٥، إن لم تكن أنت تعرف هذا بعد.» هناك اليوم محاضرة في شارع لاندزبيرغ، في قصر ألكسندر، هنا سيكون في وسع فرانس أن يسمع شيئاً ما عن الظلم الذي يحيق بمليون ألماني يومياً في ألمانيا. وشعر الرأس يمكن أن يقف لهذا. دسته من الصحف القديمة ما زال الرجل يدسها تحت إبطه. تنهد فرانس، نظر إلى الرزمة في ذراعه، أجل، سيأتي. ما شأنني أنا هنا، سأروح وأرى ما إذا كان هناك محل لمثل هذه الجرائد. الصبيان اللواطيون؛ إنه يحمّلي هذا، وسأحملها معي إلى البيت وأقرأها. يمكن أن يرثي المرء لحال هؤلاء الفتيان، لكن في الواقع لا أعبأ بهم.

انسحب في ورطة كبيرة، وارتاب في الأمر بعض الشيء. لم يقل كلمة لدينا وتركها تنتظر مساء من غير طائل. بائع الجرائد المسن حشره في الصالة الصغيرة

التي لم يكن يجلس فيها إلا الرجال تقريباً، ومعظمهم شباب، وبعض النسوة، إنما هن أيضاً بصفة حبيبين. لم ينس فرانس طوال ساعة من الزمن بنت شفة، ومن خلف قبعته ابتسم كثيراً في خبث ابتسامة عريضة. بعد العاشرة لم يعد يستطيع أن يضبط نفسه، كان عليه أن ينسل، كان الموضوع والناس بهذا القدر من السخافة، لواطيون كثير متجمعون، وهو وسط ذلك، وكان عليه أن يخرج بسرعة، وكان يضحك حتى ساحة ألكسندر. وفي النهاية سمع الخطيب يتحدث في الساحة عن كيمنيتس حيث كان هناك أمر من الشرطة تاريخه السابع والعشرون من تشرين الثاني، وبموجه ليس مسموحاً للمثليين النزول إلى الشارع ولا دخول المراحض، وإذا ما ضبطوا كلّفهم هذا ٣٠ ماركاً. بحث فرانس عن لينا، لكنها كانت قد خرجت مع مؤجرة البيت. فنام. وفي المنام ضحك وسب كثيراً، وظل يضرب هنا وهناك مع الحوذني الغبي الذي راح يدور به في دائرة حول نافورة رولاند في شارع النصر. وشرطي المرور كان يلاحق أيضاً العربة. وأخيراً قفز فرانس من العربة التي راحت تدور في دائرة مثل مجنون حول النافورة وحوله، وراحت تسير من دون أن تتوقف، وكان فرانس لا يزال واقفاً مع الشرطي، وتشاورا: ماذا نفعل بهذا المجنون.

بعد ذلك قبل الظهر ينتظر لينا في الحانة كعهده، والمجلات معه. يريد أن يقول لها ما يعانیه مثل هؤلاء الشباب، كيمنيتس والفقرة التي تنص على ٣٠ ماركاً، هذا لا يهّمه شيء، وعليهم أن يتفقوا مع أنفسهم على فقراتهم، هنا سيكون في وسع ميك أيضاً أن يجيء، وعليه أن يفعل شيئاً لتجار الماشية. لا، هو يريد السلام، ولا أريد أن أعرف عنهم شيئاً.

ترى لنا على فورها أنه نام نوماً رديئاً. ثم يدفع إليها بالجرائد في تريث وحذر، وفوقها الصور. وضعت لنا يدها على فمها مذعورة. ويبدأ الحديث من جديد عن العقل. ويبحث عن نقرة البيرة من أمس على المنضدة، لكن لم يكن لها وجود. وتزورّ عنه؛ ترى هل وقع له مثل هذا، من النوع الذي هو في المجالات هنا. لا تفهم، حتى الآن لم يكن هو على هذه الشاكلة. ويشغل نفسه من غير طائل ويرسم بالإصبع الجافة خطوطاً على الخشب الأبيض، عندها تتناول هي رزمة المجالات بأكملها من على المنضدة وتلقي بها إلى تحت على الدكّة. وتقف أوّل ما تقف في مكانها مثل امرأة تتمييز غيظاً، ويشخص كل منهما بصره إلى الآخر، هو من تحت إلى فوق مثل صبي صغير، ثم تروح. ويجلس هو حيث هو ومعه جرائده، ويستطيع أن يمعن التفكير في اللوطيين. رجل أصلع يتمشى ذات مساء، ويدخل إلى حديقة الحيوانات صبي جميل وسرعان ما يتأبط يمناه ويتمشيان ساعة لذة، ثم تراود الرغبة الأصلع، لا بل الدافع، بل الشهوة، على نحو طاع، في هذه اللحظة بأن يلاطف الصبي. إنه متزوج، ولاحظ هو هذا في بعض الأحيان، أما الآن فلا بدّ من ذلك، إنّه لرائع «أنت ضوء شمسي، أنت ذهبي».

وهذا وديع غاية الوداعة. ومثل هذا له وجوده. «تعال، سنذهب إلى فندق صغير. أنت تهبني خمسة ماركات أو عشرة، فأنا مفلس كلياً» «ما تريده يا شمسي» ويهبه محفظته كلها. وفضلاً عن ذلك يوجد شيء مثل هذا. هذا هو أجمل الأشياء كلها.

لكن في الغرفة توجد عيون سحرية عبر الباب. صاحب الفندق يرى شيئاً، ما وينادي صاحبة الفندق، وترى هذه شيئاً ما أيضاً. وبعد ذلك يقولان إنها لا احتمالان هذا في فندقها، ورأيا هذا، ولا يستطيع هو نكران

ذلك. وهما لن يمتلأ هذا، وعليه أن ينجل من أنه يغمر بالصبيان، وسيبلغان عنه. ويأتي خادم وخادمة أيضاً ويتسلمان ابتسامة عريضة. وفي اليوم التالي يشتري الأصلع زجاجتي خمر آسباخ معتق، ويقوم بسفرة عمل، ويريد أن يسافر إلى هيلغولاند لكي يغرق في السكر ويسافر بالسفينة. لكن صحيح أنه يسكر ويسافر بالسفينة، إلا أنه يأتي بعد يومين مرة أخرى إلى البيت حيث لم يحدث أي شيء.

لا يحدث شيء على الإطلاق طوال الشهر وطوال العام. شيء واحد فقط يحدث: إنه يرث من عمّ أمريكي ٣٠٠٠ دولار، ويستطيع أن يوجد على نفسه بشيء ما. ذات يوم وحين ذهب إلى المسبح كان على البيت أن يوقع له تكليفاً بالحضور. تفضّ هي هذه، وإذا بكلّ شيء موجود في داخله من العيون السحرية والمحفظة والصبي المليح. وحين يعود الأصلع من الاستحمام، يبكي عليه الجميع، الأم، كلتا الابنتين الكبيرتين. يقرأ التكليف بالحضور، الحق لم يعد هذا بصحيح، إنه الروتين وتعقيد الإجراءات الرسمية الذي أطلقه شارلمان الكبير، والآن وصل إليه، إلا أنه صحيح. «أيها السيد القاضي أيّ شيء أقدمت عليه؟ الحق أنني لم أثر أية فضيحة. توجهت إلى غرفة وأغلقت على نفسي. ما عساي أن أفعل إن كان هؤلاء قد عملوا عيوناً سحرية. لم يحدث ما يعاقب عليه القانون» وأكد الصبي هذا.

«إذن أيّ شيء فعلت؟» الأصلع اللابس الفراء يبكي: «هل سرقت؟ هل قمت باقتحام بيت؟ لم أقتحم إلا قلب إنسان لطيف. قلت له، يا ضياء شمسي. وكان هو هذا».

يتم الحكم ببراءته. وفي البيت ما زالوا يكونون.

«القيثارة السحرية»، مبنى الرقص الفاخر، مع مبنى الرقص الأمريكي الفاخر في الطابق الأرضي. الكازينو الشرقي كان شاغراً من أجل الاحتفالات المغلقة. ماذا أهدي صديقتي في عيد الميلاد؟ مرتدو ملابس الجنس الآخر، بعد تجارب طالت أعواماً وجدت أنا أخيراً علاجاً جذرياً للذقن النابتة ذات الجذور. كل جزء من الجسم يمكن نزع الشعر عنه. وفي الوقت نفسه اكتشفت أنا الطريق إلى التوصل في وقت قصير للغاية إلى صدر أنثوي حقيقي. لا أدوية، علاج غير ضار ومضمون تماماً. الدليل: أنا بالذات. حرية من أجل الحب على الجبهة كلها.

سواء صافية أطلت على الأماكن المظلمة للبشرية. قصر كيركاوين غمره هدوء ليلي عميق. على أن امرأة ذات شعر أشقر مجمّد كانت تقلّب الرأس في الوسادات من جهة إلى أخرى ولم تذق عينها طعم النوم. وفي الصباح، في الصباح الباكر أراد أحد محبيها، الأحبّ إلى نفسها أن يتركها. وسرى همس عبر الليل القاتم المبهم [المظلم]: جيزا، ابق معي، ابق معي [لا تذهب، لا ترحل، لا تسقط أرضاً، رجاء، اجلس]. لا تتركني. لكن الهدوء المقبض لم يكن له أذن ولم يكن له قلب [لا قدم ولا أنف]. وفي الجانب الآخر، لا تفصله إلا أسوار قليلة، كانت هناك امرأة رفيعة القوام متمتعة الوجه بعينين مفتوحتين. شعرها الأسود الكث استقرّ على حرير السرير [قصر كيركاوين مشهور بأسرته الحريرية]. رعشات البرودة سرت في جسدها. أسنانها اصطكت في صقيع عميق، نقطة. على أنها لم تحرك ساكناً، فاصلة، لم تجذب الغطاء فوقها بإحكام أكثر، نقطة. على الغطاء استقرت يداها النحيلتان الباردتان برودة الثلج [كما في صقيع شديد، رعشة البرد، امرأة نحيلة بعينين مفتوحتين، أسرة حريرية مشهورة]، نقطة. عيناها اللامعتان زاغتا متوهجتين في الظلمة، وشفتها ارتجفتا، نقطتان إحداهما فوق الأخرى، علامة تنصيب، يا لوري، خط أفقي صغير (شُرطة)، علامات تنصيب، ساق الوزرة، كبد الوزرة مع البصل.

«لا، لا، معك لن اذهب يا فرانس. لا مكان لك عندي. في إمكانك أن تغرب عن وجهي» «على رسلك، يا لينا، سأعيد إليه قذاراته» وحين رفع فرانس القبعة ووضعها على الكومودينة - كان هذا في حجرتها - ومدّ يده إليها عدة مرات ليمسكها بطريقة مقنعة فخدشت أول ما خدشت يده، ثم خرجت مع فرانس. أخذ كلّ منهما مناصفة المجلات التي يشكّ فيها واقتربا من الجبهة على خط شارع روزيتتال وشارع شوبنهاور الجديد وسوق الهاكيش.

في منطقة الحرب قامت لينا اللطيفة المهملة، القصيرة الوسخة التي قرّح البكاء جفنيها، قامت بهجوم مستقل على طريقة أمير هومبورغ: عمي النبيل فريدريش فون دير مارك. ناتالي! كفيّ، كفيّ! يا إله العالمين، إنه الآن هالك، سيّان، سيّان! واندفعت راكضة على فورها، رأساً نحو كشك الأصلع. وحمل فرانس بيركوبف، الإنسان الصبور النبيل، نفسه على ما تكره بأن يبقى بعيداً عن الأنظار. وقف بعيداً عن الأنظار أمام حانوت السجائر الغليظة شرودر للاستيراد والتصدير وراقب من هناك من خلال الضباب الخفيف، وقد أعاقته الحافلات الكهربائية والمارة، مجرى المناوشة البحرية التي دارت رحاها. كان البطلان قد تماسكا، مجازياً. فقد تحسسا ضعفهما ومواطن ضعفهما. لينا برتسوبالا من تشيرنوفيتش، الابنة الشرعية الوحيدة للمزارع ستانيسلاوس برتسوبالا - بعد خديجين لم ينموا إلا نصف نمو، وكان يجب أن يحمل كلاهما أيضاً اسم لينا، فالآنسة برتسوبالا معها حزمة المجلات. وما عدا ذلك ضاع في ضوضاء حركة المرور. «الغريب الأطوار، الغريب الأطوار»، هكذا تأوّه فرانس الصابر المعوّق بسرور آهة الإعجاب والاستحسان. واقترب بصفة جيش احتياطي من مركز المناوشة الحربية. عندئذ ضحكت له قبل حانة إرنست كوميرليش البطلة والمتصرة، الآنسة لينا برتسوبالا، بطريقة مستهترة، إنّها مفرحة ومبهجة وصرخت: «فرانس، نال هذا حساب!».

عرف فرانس هذا. وفي الحانة ارتمت على فورها على منطقة جسده التي ظنتها قلبه، إلا أنه كان على نحو أدق تحت قميصه الصوفي عظم قصه والفص العلوي للرثة اليسرى. وتهللت حين صبّت أول كأس من عرق الكراويا جيلاً: «وبعد، فإنّ عليه أن يلملم زبالتة من على الشارع».

الآن، أيها الخلود، أنت لي، يا عزيزي، يا للبهاء الذي يعمّ الدنيا، السلام، السلام على أمير هومبورغ، المنتصر في معركة فيريلين، السلام! ويظهر على مقدمة القصر وصيفات وضباط ومشاعل.

«كأس أخرى من عرق الكراويا جيلاً».

صالة الرقص هازينفايدي، عالم جديد، فإن لم يكن هذا، سيكون ذلك، وعلى المرء إلا يعقد الحياة أكثر مما هي عليه

ويجلس فرانس إلى الأنسة لينا برتسوبالا في الحجرة ويضحك لها: «تعرفين يا لينا ماهي عاملة في مخزن؟» يلكرها. وتحملق هذه: «بديهي، فالسيدة فولش، إنها عاملة في مخزن، وعلى هذه أن تنتقي الأسطوانات من عند تاجر الموسيقى» «لا أقصد هذا. حين أدفعك وأنت مستلقية على الأريكة وأنا إلى جانبك، عندها تكونين أنت عاملة في مخزن وأنا عامل في مخزن» «أجل، أهكذا تبدو الأمور» صاحت هي.

هكذا نريد مرة أخرى أن نفرح ونمرح، نريد مرة أخرى أن نفرح ونمرح، يا الله، يا الله، هوّلاً هوّلاً، ترالالي. وهكذا نريد أن نفرح ونمرح مرة أخرى، نريد أن نفرح ونمرح مرة أخرى، أن نفرح ونمرح.

وينهضان من على الأريكة - أنت لست مريضاً، أيها السيد، وإلا كان عليك أن تراجع العم الطبيب - ويتمشيان مغتبتين إلى صالة الرقص

هازينفايدي، إلى العالم الجديد، وعلى أكثر تقدير إلى حيث تتقد نيران السعادة، منح جائزة لأنحف بطنة ساق. الموسيقا اتخذت مكانها في الزي التيرولي على المنصة. وسارت الأمور في رفق وهدوء: «اشرب، اشرب، يا أخيها، اشرب، اترك الهموم في البيت، تجنّب الغم وتجنّب الألم، عندئذ تكون الحياة فكاهة، تجنّب الغم وتجنّب الألم، عندئذ تكون الحياة فكاهة».

وسرى هذا في الأوصال مع كل إيقاع، وبين أباريق البيرة ابتسموا ابتسامة الرضا وشاركوا في الدندنة وحركوا الأذرع على الإيقاع: «اشرب، اشرب، يا أخيها، اشرب، اترك الهموم في البيت، اترك الهموم في البيت، اشرب، اشرب، اشرب، اشرب، يا أخيها، اشرب، اترك الهموم في البيت، تجنّب الغم وتجنّب الألم، عندئذ تكون الحياة فكاهة».

كان شارلي شابلن بشحمه ولحمه حاضراً، همس بالألمانية بلهجة شمالية شرقية، مشى كالبطة في سروال واسع بالحذاء الضخم فوق على الدرايزين، وأمسك سيدة لم تعد صبية كل الصبا من ساقها وتزحلق معها مسرعاً على المزلفة. أسر بأعداد كبيرة لوّثت ملابسها حول المائدة. تستطيع أنت أن تشتري عصا طويلة وعليها شراريف ورقية مقابل ٥٠ بفينيكاً وتقيم بذلك أية علاقة تشاء، العنق حساس، وباطن الركبة أيضاً، وبعدها يرفع المرء الساق ويدور. من هو الذي هنا كلّ شيء؟ مدينيو كلا الجنسين، فضلاً عن ذلك حفنة من جيش الرايخ مع وسيلة نقل. اشرب، اشرب، يا أخيها، اشرب، اترك الهموم في البيت.

يتم التدخين، سحب من الغلايين واللفافات الغليظة والسجائر في الهواء بحيث إنّ الصالة الضخمة كلها يلفها الضباب. ويحاول الدخان حين يصبح معبأً بالدخان إلى حدّ كبير أن يتسرّب بحكم خفّته إلى فوق ويجد

أيضاً بالفعل شقوقاً وثقوباً ومراوح تهوية هي على استعداد أن تطرده. لكن في الخارج، في الخارج الليل الحالك والبرد وهنا يندم الدخان على خفته ويمانع في بنيته، لكن لا سبيل إلى التراجع عن أي شيء نتيجة دورة منفردة لمروحة التهوية. فات الأوان. ويرى نفسه محوطاً بقوانين فيزيائية. ولا يعرف الدخان كيف هي حاله، ويشدّ على جبينه، لكن ليس له وجود، يريد أن يفكر، فلا يستطيع. الريح، البرد، الليل، هو في قبضته، ولم يعد مرئياً.

إلى إحدى الطاولات يجلس زوجان وينظران إلى المارة. السيد أرقط يميل بوجهه ذي الشارين على نهدين موجودين لامرأة بدينة سوداء. قلباهما الحلوان يرتعشان، وأنفاهما يتشممان، هو فوق نهديها وهي فوق قفا رأسه المدهون.

في الجوار تضحك امرأة تلبس ثوباً ذا مربعات صفراء. صاحبها المعجب بها يمدّ ذراعه حول كرسيها. لها أسنان بارزة، نظارة أحادية الزجاج، العين اليسرى المكشوفة كأنها قد ماتت، تبسم وتدخن وتهزّ الرأس: «ما تسأله أنت أيضاً» فتاة ذات تمويج مائي أشقر تجلس إلى الطاولة المجاورة، أو أنها تغطي بمؤخرتها البارزة بروزاً شديداً، إنما مستورة، اللوح الحديدي لكرسي حديقة واطيء. هي تحنّ وتدندن في غبطة مع الموسيقى تحت تأثير شريحة من لحم البقر وثلاث كؤوس من البيرة. تثرثر وتثرثر، وتلقي برأسها إلى عنقه، إلى عنق الشخص الثاني، الذي هو فنيّ في تعديل الآلات بشركة نويكولنر، وهذه المرأة هي علاقته الرابعة في هذه السنة، بينما يشكّل هو على عكس ذلك علاقتها العاشرة أو الحادية عشرة إذا ما أضيف إلى ذلك ابن عمها الكبير الذي كان خطيبها الدائم. وتفتح عينيها، إذ إنه يمكن أن يسقط شابن من فوق في كل لحظة، ويمسك الفنيّ في تعديل الآلات بكلتا يديه المزلقة حيث يحصل شيء ما أيضاً. ويطلبان كعكاً مملحاً.

سيد في السادسة والثلاثين من العمر، شريك في ملكية محلّ للبقالة، يشتري ستة بالونات كبيرة كل واحد بخمسين بفينيكاً ويترك واحداً تلو الآخر يرتفع أمام الجوقة، وبهذا ولانعدام إثارات أخرى ينجح في أن يلفت إليه انتباه فتيات وحيدات أو متجولات أزواجاً ونساء وعذراوات أباكراً وأراملاً ومطلقات وخائئات لأزواجهن ويجدن اتصالاً بشكل مريح. ويدفع المرء عشرين بفينيكاً في سير الاتصال لرفع الأثقال. نظرة إلى المستقبل: فليمسح المرء برفق بالإصبع المبللة جيداً على المستحضر الكيميائي في الدائرة بين كلا القلبين، وليمسح بذلك عدة مرات فوق الورقة العلوية الفارغة، وتظهر صورة المستقبل. إنكم منذ عهد الطفولة على الطريق المستقيم. قلبكم لا يعرف الزيف، ومع ذلك يخامركم شعور رقيق بكل شرك يريد أن ينصبه لكم أصدقاؤكم الحاسدون الغيورون. استمروا في الثقة أيضاً بفن حياتكم إذ إنّ نجمكم الذي على ضوئه دخلتم هذا العالم سيكون دليلكم الدائم وسيساعدكم أيضاً في الحصول على رفيق الحياة الذي ينبغي أن يجعل سعادتكم كاملة. والرفيق الذي يمكنكم الوثوق به له نفس طبعكم. وتودده لن يأتي باندفاع وعنف، على أنّ الحظ الهادئ سيبقى إلى جانبه لزمن أطول.

بالقرب من غرفة الملابس في الصالة الجانبية كانت جوقة تنفخ بالبوق من على البلكون إلى تحت. وهذه الجوقة كانت تلبس صدريات حمراء وكانت تصرخ بصورة دائمة، وما كان سيكون عندها شيء للشرب. تحت وقف رجل بدين في سترة طويلة على خلق مستقيم. اعتمر قبعة ورقية مقلّمة غريبة وأراد وهو يغني أن يشكّ قرنفة من ورق في العروة، إلاّ أنّه لم يوفّق إلى ذلك من جراء ثنائي كؤوس بيرة وكأسين من النبيذ الساخن وأربع كؤوس كونيّاك. كان يغني صوب الجوقة في وسط جموع الصاخيين الضاجين، ثمّ رقص الفالس مع مخلوقة

مستة تشنت شملها أعظم التشتت ورسم معها حول نفسه دوائر واسعة على شاكلة دوامة الخيل. وفي الرقص تميّعت المخلوقة أكثر وأكثر، على أنها كانت تتمتع بما يكفي من الغريزة لكي تجلس قبل انفجارها على ثلاثة كراسي.

فرانس بيركوبف وهذا الرجل الذي يرتدي السترة الطويلة وجدا أنفسهما في استراحة تحت البلكون الذي كانت الموسيقى تصرخ عليه طالبة البيرة. وحملت عين تشع زرقة في فرانس، قمر جميل، أنت تمشي مشياً في غاية الهدوء، العين الأخرى كانت عمياء، رفعا إيريقيهما، إيريقي البيرة، ونعق ذو العاهة:

«أنت أيضاً مثل هؤلاء الخونة، الآخرون لديهم مناصب تعود عليهم بالريح»
جرع: «أتنعم النظر في عيني، انظر إليّ، أين خدمت؟».

شربوا أنخاب بعضهم بعضاً، سلام الجوقة المربّع، ليس عندنا شيء للشرب، ليس عندنا شيء للشرب. أنتم، دعوا هذا، يا أولاد، دائماً في هدوء، صحة وعافية، نخب الجو الهادئ. «هل أنت رجل ألماني، هل أنت ألماني قح؟ ما اسمك؟» «فرانس بيركوبف. أيتها المدينة، هذا لا يعرفني» همس ذو العاهة، اليد أمام الفم، وتجشأ: «أنت ألماني، اصدقني القول. أنت لا تساير ولا تصاحب الحمر، وإلا فأنت خائن. ومن كان خائناً فليس صديقاً لي» عانق فرانس: «البولونيون، الفرنسيون، الوطن الذي سالت دماؤنا من أجله، هذا هو شكر الأمة» ثم استجمع قواه وتابع الرقص مع المخلوقة الطويلة النفس التي استعادت تركيزها، ودائماً الفالس القديم مع كل موسيقى. ترنح من السكر وطلب. صرخ فرانس عالياً: «هنا» جاءت به لينا، عندئذٍ رقص أول ما رقص مع لينا، ذراعاً بذراع مثلاً أمام فرانس عند البار: «المعذرة، مع من لي السرور والشرف. اسمك الكريم، من فضلك» اشرب، اشرب،

يا أحيّاه، اشرب، اترك الهموم في البيت، تجنب الغم وتجنب الألم، عندئذٍ تكون الحياة فكاهة.

كراعا خنزير، واحد مملّح مقدّد، السيدة كان عندها فجل، غرفة الملابس، أجل أين سلّمنا المعطف، يوجد هنا غرفنا ملابس، أيسمح لموقوفين رهن التحقيق أن يلبسوا خواتم زواج؟ أقول، لا. وفي نادي التجديف استمرت الحال حتى الساعة الرابعة. الطرق هنا للسيارات، في الحق أنه عملٌ مزرٍ، فأنت تظل تقفز حتى غطاء السيارة، عندئذٍ تستطيع أن تأخذ حمامات غطس.

الرجل ذو العاهة وفرانس يجلسان على البار وقد طوّق كلّ منهما الآخر: «في وسعي أن أقول لك، يا أنت، إنهم أنقصوا لي معاشي التقاعدي، سأذهب إلى الحمر. من يطردنا من الجنة بسيف اللهب هو كبير الملائكة، وبناء على ذلك لن نعود إلى هناك. نجلس فوق على هارتمانز فايلركوبف، أقول لتقيبي الذي ينحدر من مدينة شتاغارد مثلي أنا» «شتوركوف؟» «لا، شتاغارد. الآن ضاعت مني قرنفتي، لا، ها هي معلقة هنا» من قبّل ذات مرة على الشاطئ، والأمواج الراقصة تسترق السمع إليه، هو الذي يعرف أجمل الأشياء على الأرض، هو الذي تجاذب أطراف الحديث مع الحب. فرانس يعمل الآن في بيع الصحف القومية. ليس عنده أيّ شيء ضد اليهود، إلّا أنه يؤيد النظام. إذ إنّ النظام يجب أن يكون في الجنة، وهذا ما يدركه كل إنسان. والخوذة الحديدية، والأولاد رآهم، وقادتهم أيضاً، إنّ هذا لشيء. إنه يقف عند مخرج المترو ساحة بوتسدام، في شارع فريدريش عند الممر تحت محطة قطار ساحة ألكسندر. رأيه مثل رأي الرجل ذي العاهة من العالم الجديد، صالة الرقص، ورأي الأعور، الرجل المصاحب للسيدة البدينة.

الشعب الألماني بمناسبة عيد البشارة: حطموا أخيراً أوهاكمم وعاقبوا الذين يهددونكم في الشعوذات! ثم يأتي اليوم الذي فيه تطلع الحقيقة من ساح القتال مع سيف حقها والمجن اللامع لتنتصر على الأعداء.

«بينما تتم كتابة هذه الأسطر تنعقد جلسة المحكمة ضد الفرسان من لواء الرايخ الذين سمح لهم تفوقهم بـ ١٥-٢٠ مرة بمثل هذه المظاهر، سواء مظاهر مسالمتهم وفق برنامج أو جرأتهم المطابقة لطبعهم وروحهم بأن يهاجموا حفنة من الاشتراكيين الوطنيين (النازيين)، ويصرعوه أرضاً، ويقتلوا في أثناء ذلك صاحبنا الرفيق الحزبي هيرشمان بأشنع أنواع الوحشية. وحتى من أقوال المتهمين الذين لديهم الإذن إيثراً للحق ولديهم الأمر على الأرجح من ناحية الحزب بأن يكذبوا يتبين بأية وحشية متعمدة تم التصرف هنا والتي تفضح النظام الأساسي».

«الفيدرالية الحققة هي معاداة السامية، محاربة اليهودية هي أيضاً نضال من أجل استقلال بافاريا. وقبل البدء بزمن طويل كانت صالة الاحتفالات الماتيزية مكتظة، وكان يتوافد إليها دائماً زائرون جدد. وحتى موعد افتتاح الاجتماع فإن جوقتنا المتينة البنيان شرحت الصدر بالتقديم الجريء لمارشات عسكرية مرحة وأنغام لطيفة. وفي الساعة الثامنة والنصف افتتح الرفيق الحزبي كبير المعلمين الاجتماع بترحيب حار وأعطى الكلمة من بعد ذلك للرفيق الحزبي فالتر أمير».

في شارع الإلزاس يضحك الإخوة ضحكاً شديداً حين يأخذ مكانه ظهراً في الحانة، العصابة في الجيب (عصابة الصليب المعقوف) على سبيل الاحتياط والحذر، ويستخرجونها منه، ويقطعها فرانس بمقص.

يقول لصانع الأقفال الشاب، وهذا يحطّ كأس بيرته من الدهشة: «إذن، أنت تضحك مني، يا ريشارد، لماذا؟ لأنك متزوج؟ أنت في الواحدة والعشرين وزوجتك في الثامنة عشرة، وماذا شهدت من الحياة؟ لا أقلّ من ثلاث. أقول لك، يا ريشارد، حين نتحدث ذات مرة عن الفتيات، بينما صار عندك طفل أيضاً، في هذه الحال معك حق من جهة الطفل الكثير البكاء. ولكن ماذا بعد؟ أمممكن هذا».

المجلّح جورج دريسكي، في التاسعة والثلاثين من العمر، الآن ممنوع من استئناف العمل، يلوّح بعصابة فرانس، أنت يا أورجي، انظر إليها الآن ملياً، لا شيء مكتوباً عليها لا يمكن أن يتحمل المرء مسؤوليته. الحق أني هربت أيضاً في الخارج، يا رجل، مثلك تماماً، فعلت أنا أيضاً، لكن ماذا كان بعد ذلك. سواء أكان عند أحدهم حزام للبطن أحمر أم ذهبي أم رمادي أحمر، من هذا لن يكون للسيجار طعام أفضل. الأمر يتعلق بالتبغ، يا عمي، ورقة عليا، ورقة سفلى وملفوفة لفاً جيّداً ومجفّفة ومن أين. أقول أنا. أي شيء فعلناه، يا أورجي، هلاً قلت».

يضع هذا العصابة (عصابة الصليب المعقوف) أمامه بهدوء على البوفيه ويجرع بيرته، ويتكلم متردداً جداً، تارة يتلعثم ومرات مرات يبلى شفثيه: «أنظرُ إليك يا فرانس مجرد نظر وأقول لك مجرد قول وأعرفك من زمن طويل من أراس وكوفنو، وهم خدعوك ومكروا بك» «بسبب العصابة (عصابة الصليب المعقوف)، قصدك؟» «بسبب كل شيء. دعنا من هذا يا رجل. أنت في غنى عن أن تتجول وسط هؤلاء البشر».

الآن ينهض فرانس واقفاً، وينحّي جانباً صانع الأقفال الشاب ريشارد فيرنر بياقة القميص الخضراء المفتوحة فوق ياقة الجاكييت وقد أراد

أن يسأله شيئاً ما: «لا، لا، يا ريشارد، أنت إنسان طيب، أما هذا هنا فهي أمور تخص الرجال. وبما أن لك حق الانتخاب فلن يكون في مقدورك أبداً أن تشاركنا الكلام أنا وأورغي» ثم يقف متفكراً بجانب صانع الأقفال عند البوفيه، صاحب الحانة في الصدرية الزرقاء الكبيرة يقف قبالتها في الداخل منتبهاً مصغياً أمام منصة الكونياك واليدان الغليظتان في حوض الغسيل. «إذن يا أورغي، وماذا عن أرّاس؟» «وماذا عنها؟ أنت وحدك تعرف. ولماذا أنت فررت. ومن ثمّ العصابة. يا رجل، أنت يا فرانس، إني لأفضل أن أعلّق نفسي على هذه. الحق أنهم خدعوك ومكروا بك».

فرانس عنده نظرة ملؤها الثقة الشديدة، يثبت النظر في صانع الأقفال الذي يتلعثم ويطأطئ الرأس:

«الشيء الذي له علاقة بأرّاس ما زلت أريد أن أعرفه. ما زلنا نريد أن نتلمس باليد ونجسّ. حين كنت أنت عند أرّاس!» «أنت تهذي بالسخافات يا فرانس. المرء ينكر أن يكون قال هذا، أنت مخمور» فرانس يتتظر، يفكر، سأعمل فيه عملة، ويتصرف هذا كأنها لا يفهم شيئاً ويقوم بدور أدهى الدهاة. «إذن طبعي، يا أورغي، كنا بطبيعة الحال عند أرّاس، مع آرتور بوزي وبلوم والملازم الثاني القصير، ماذا كان اسمه، كان اسمه مضحكاً للغاية» «نسيت» دع هذا يتحدث، هذا مخمور، الآخرون يلاحظون هذا أيضاً. «على رسلك، ماذا كان اسمه، بيستا أو بيسكرا أو شيء من هذا القبيل، ذاك القصير» دعه يتحدث، لن أتفوه بكلمة، فهذا تتعثر الكلمات على شفثيه، ثم يمسك عن الكلام. «أجل، هؤلاء نعرفهم كلهم. اللهم إلا هذا الذي أعنيه. أين كنا فيما بعد، عند أرّاس، كيف انتهى الأمر، بعد ثماني عشرة، وكيف انفجرت المسألة الأخرى، هنا في برلين وفي هالي وفي كيل و...».

رفض جورج دريسكي رفضاً قاطعاً، هذا في نظري غاية في الغباء، ومن أجل مثل هذا الهراء لا أقف هنا في هذه الحانة: «لا، كفّ، وها أنا أنسحب على الفور. احك هذا لريشارد القصير. تعال، يا ريشارد» «أمامي يتصرف تصرفاً رائعاً، السيد البارون. فلا يخالط الآن إلا البارونات. والسيد العالي المقام ما زال يأتي إلينا إلى الحانة. «عينان صافيتان في عيني دريسكي القلقتين: «إذن هذا ما أعنيه، بالضبط هذا يا أورغي حيث وقفنا عند أراس، بعد ثماني عشرة، مدفعية الميدان أو المدفعية المضادة للطائرات أو عمال اللاسلكي أو جند السخرة أو ما شئت. وأين وقفنا فيما بعد في السلم والسلام؟» انجلت معالم الأمور أمامي، انتظر، يا بني، في الحقيقة ينبغي إلا تذكر هذا. «بادئ ذي بدء سأشرب إبريق بيرتي بهدوء، وأنت يا عزيزي فرانس، حيثما كنت فأنت فيما بعد في كل مكان، وحيثما سرت ولم تسر، ووقفت وجلست، وراجع هذا في أوراقك إن كانت هي لديك الآن. والتاجر يجب أن تكون أوراقه دائماً معه. «ها قد فهمتني أنت حق الفهم، رقم مؤكد، فلا يغب هذا عن بالك. عينان هادئتان في عيني دريسكي الماكرتين: «أربع سنوات بعد ثماني عشرة كنت في برلين. قبل ذلك لم تدم الحرب زمناً أطول، إنه لصحيح أنني جلت هنا وهناك وأنت جلت هنا وهناك، وهنا كان ريشارد يجلس عند الأمهات على المريلة. أجل، ولاحظنا هنا شيئاً ما على أراس، أنت على سبيل المثال؟ وكان عندهم تضخم، أوراق نقدية، ملايين، ملايين، لا لحم ولا زبدة، أسوأ مما كانت عليه الحال قبل ذلك، كلنا رأينا هذا، أنت أيضاً يا أورغي، وأين كانت أراس، تستطيع أن تحسب هذا على أصابعك. لا شيء كان موجوداً، أين إذن؟ كنا نتسكع هنا وهناك ونسرق البطاطا من عند الفلاحين».

ثورة؟ هيا حلّ براغي عمود العلم وضع قماش العلم في غلاف مشمّع مائدة وضع هذا الشيء في صندوق الثياب ودع الأمهات يجلبن لك القفازات وأعد ربطة العنق الحمراء حمرة النار. أنتم تصنعون الثورة دائماً بأفواهكم - وجمهوريتكم - إصابة عمل!.

دريسكي يفكر: سيكون هذا أخاً خطيراً. ريشارد فيرنر، هذا الغبي الشاب، يفتح فمه ثانية على آخره:

«ها أنت تؤثر هذا وتفضل هذا يا فرانس، نحن نصنع حرباً جديدة، هذا ما تودون أن تلقوا به على كواهلنا. ونريد أن نهزم فرنسا ونحن مغتبطون. وإذا بينطلونك فيه خرق كبير» ويفكر فرانس: قرد هذا، خلاسي فردوس الزوج، وهذا لا يعرف الحرب إلا من الأفلام، ضربة على الرأس وقلبه رأساً على عقب.

يشّف صاحب الحانة يديه بإزاره الأزرق. كاتالوج أخضر أمام الكؤوس النظيفة، ويتنفس صاحب الحانة تنفساً عميقاً وهو يقرأ: قهوة محمصة منتقاة باليد فريدة! قهوة مستخدمين وأيدي عاملة [بن ذو مظهر ناقص وقهوة محمّصة] بن غير مطحون لا تشوبه شائبة ٢,٢٩، بن برازيلي (سانتوس) مكفول خالص، بن برازيلي (سانتوس) ممتاز خليط للتدير المنزلي قوي اقتصادي في الاستعمال، خليط للتقوية فان كامبينا خالص في المذاق، خليط ميكسيكو ممتاز، قهوة مزرعة بثمان معتدل ٣,٧٥، إرسال بالقطار على الأقل ٣٦ نصف كيلو بضاعة مختلفة. نحلة، دبور، ذبابة كبيرة طنانة تدور فوق عند السقف بجانب أنبوب المدفأة، آية كاملة من آيات الطبيعة في الشتاء. رفاقه من السلالة، رفاقه من جنسه وفصيلته وأنصاره، ماتوا، إما أنهم أموات، وإما أنهم لم يولدوا بعد،

هذا هو عصر الجليد الذي تحتمله الذبابة الكبيرة الطنانة الوحيدة، إنه لخافٍ من أين جاءت هذه ولماذا هي بالذات. أما نور الشمس الذي يغطي بهدوء الطاولات الأمامية والأرضية فقد انقسم من اللافتة إلى كتلتين مضيئتين: «لوفين بروي باتسينهوفر»، هذا عريق في القدم، في الحقيقة يظهر كل شيء بمظهر الزائل التافه حين يراه المرء. يأتي من كذا ميل ويمرق ماراً بنجم مجهول (y)، وتشرق الشمس منذ ملايين السنين، قبل نبوخذ نصر بزمن طويل وقبل آدم وحواء، وقبل الإكصور، (الزحافة البحرية السمكية الشكل)، والآن تشعّ في حانة صغيرة عبر زجاج النافذة، وتنشطر من لافتة صفيحية: «لوفين بروي باتسينهوفر»، إلى كتلتين، تستقر على الطاولات والأرضية، وتتحرك على نحو غير ملحوظ. يستقرّ فوقها، وهم يعرفون هذا. إنه فرح مرح، رقيق غاية الرقة، رقيق رقة الضوء، من السماء من عليّ أنا آتٍ.

حيوانان كبيران كاملا النمو يغطيها قماش، إنسانان، رجلان، فرانس بيركوبف وجورج دريسكي، بائع جرائد ومجّخ موقوف عن العمل، إنهما يقفان عند البوفيه ويتصببان قائمين في سرواليهما على ساقيهما ويتكئان على الخشب بالذراعين اللتين ينحشران في كمّي معطف سميكين. كل منهما يفكر ويراقب ويشعر، كلّ منهما شيء مختلف.

«من بعد ذلك تستطيع أن تعرف بهدوء وتستطيع أن تلاحظ أنه لم يكن هناك أراس على الإطلاق يا أورغي. نحن لم نوجدتها، ليس نحن، نريد أن نقول هذا باطمئنان ومن غير حرج. أم أنتم، أم الذين كانوا حاضرين وشهدوا ذلك. لم يكن انضباطاً ونظاماً، وما من أحد أمر، دائماً الواحد ضد الآخر. فررت أنا من الخندق وأنت معي ومن ثمّ أوزي أيضاً. حسن، وهنا في الوطن، كيف ابتدأت

الأمر، من ذا الذي قرّ؟ الجميع، كلهم دون استثناء. ما من أحد بقي هنا على الإطلاق، وأنت رأيت هذا، ربما عدد ضئيل، ألف، أهبك إياها» من هنا ينفخ أحدهم في البوق ويكون مثل تلك الحيوانات ذوات القرون، ويقع في حبال المكيدة» لأنهم خانونا، يا فرانس، سنة ١٨، سنة ١٩، مستغلو المناصب، وقتلوا روزا وكارل لبيكنيشت. هنا ينبغي أن يتضامن الناس، وأن يقوموا بشيء ما. انظر إلى الروس، إلى لينين، في هذه الحال هم ثابتون متماسكون، إنها رابطة متينة. لكن صبراً» يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء، أنهارا. «لا يهمني. فعلى الانتظار يتحطّم العالم وأنت معه. أنا لا يهمني ولن أجارهم في هذا، ولن أقحم نفسي في ذلك ثانية. ففي نظري هو الإثبات: هم لم يستطيعوا فعل هذا. وهذا يكفيني. لا أتفه الأشياء حصلت، مثل قمة هارتمانز فايلركوبف، الذي طالما نهني إليها أحدهم واعظاً، صاحب العاهة الذي جلس فوق والذي لا تعرفه أنت، حتى ولا هذا. وماذا في ذلك».

يعتدل فرانس ويتناول العصا (عصا الصليب المعقوف) من على المنضدة ويدسها في السترة المشمعة ويمسح بالذراع الأيسر عمودياً جيئةً وذهاباً حين يعود ببطء إلى طاولته: «في هذه الحال أقول ما أقوله، وأنت تعرف يا كراوزي وتستطيع أن تعي ذلك أيضاً ياريشارد: لا فائدة ترجى من أموركم وقضاياكم. ليس بهذه الطريقة. لا أدري ما إذا كانت هناك فائدة ترجى عند آخرين بهذه العصا (عصا الصليب المعقوف) هنا. كما أني لم أقل أيضاً. إلا أنه لأمر آخر. سلام على الأرض، كما قيل، ذلك هو الصحيح، ومن يريد العمل فعليه أن يعمل، وهذه المقالب السخيفة فنحن نضمنها».

ويجلس على بسطة النافذة ويمسح الوجنة ويرمش بعينه في الغرفة المضاءة وينتف شعرة من أذنه. الحافلة الكهربائية تحدث صريراً وطققة عند ناصية الشارع، رقم ٩، أوسترينغ، ساحة هيرمان، ساحة فيلدين بروخ، محطة تريبتوف، جسر وارصو، ميدان بالتن، شارع كنيبرودي، جادة شونهاوز، محطة شتيتين، كنيسة هيلديك، بوابة هالي، ميدان هيرمان. صاحب الحانة يرتكز على صنوبر البيرة من النحاس الأصفر، يمص، يحرك لسانه على حشوة جديدة في الفك الأسفل، لها طعم الصيدلية، وإميلي الصغيرة عليها أن ترجع في الصيف إلى الريف أو إلى تسينوفيتش مع معسكر الشباب الصيفي، وتعاود الصغيرة النّق، وتستقر عيناها ثانية على الكاتالوج الأخضر الذي كان موضوعاً بشكل مائل، ويضعه على النحو الذي يتم استعماله فيه، شيء من الانزعاج في أثناء ذلك، إنه لا يستطيع أن يرى شيئاً موضوعاً بشكل مائل. سمك الرنجة الخالي من الحسك والمملح في صلصة توابل لذيذة جداً، لحم طري بدون حسك، سمك رنجة ملفوف في صلصة توابل لذيذة جداً، سمك طري مع إضافات الخيار، سمك رنجة في مادة الجل الهلامية، قطع كبيرة، لحوم طرية، سمك رنجة مشوي.

العبارات، موجات رنانة، موجات مزججة مليئة بالمضمون، تتأرجح هنا وهناك عبر الحجرة من حنجرة دريسكي، المتلعثم، الذي يتسم في وجه الأرض: «إذن حظاً سعيداً يا فرانس كما يقول رجل الدين، في طريق حياتك الجديدة، فإذا سرنا في كانون الثاني إلى فريدريشفيلدي إلى كارل وروزا فلن تشترك هذه المرة كما هي العادة» دع هذا يتلعثم، أنا أبيع جرائدي.

يتسم صاحب الحانة لفرانس حين يخلوان إلى أنفسهما. يمدّ هذا ساقيه تحت الطاولة في ارتياح:

«لماذا، في رأيك، ياهينشكي، لماذا يفرّ هؤلاء؟ العصابة (عصابة الصليب المعقوف)؟ هؤلاء يأتون بتعزيزات!» هذا لا ينتهي عن ذلك. سيعدون هذا من بعد بالضرب. يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء بما فيه الكفاية.

صاحب الحانة يتفحص حشوته بلسانه، على المرء أن يقرب طائر الحسون من النافذة أكثر، فهذا الطائر الصغير يريد أيضاً قليلاً من النور. ويساعده فرانس ويدق خلف الطاولة مسماراً، ويعرض صاحب الحانة من الجدار الآخر القفص مع الطائر المرفرف: «الجو اليوم مكفهرٌ جداً. بيوت عالية جداً» يقف فرانس على الكرسي، ويعلّق القفص، وينزل من فوق إلى تحت، ويصفرّ، ويرفع السبابة، ويهمس: «ما من أحد هنا الآن في القرب. شيء معتاد. إنه طائر حسون، كائن أنثوي».

يصمت كلاهما صمتاً تاماً ويوميء كل منهما للآخر ويرفعان نظرها ويتسلمان.

فرانس رجل ذو شهامة إنه يعرف أي شيء هو مطالب به

في المساء سيرمي بفرانس فعلاً في الخارج عند هينشكي. يتمشى وحيداً في التاسعة، يلقي نظرة على الطائر الذي وضع رأسه تحت الجناح، ويحطّ في الزاوية على القضيبي بحيث إنّ طائراً كهذا لا يسقط في النوم. ويتهمس فرانس مع صاحب الحانة: «ماذا تقول لهذا الطائر الذي هو عندك في الصخب والضجيج، ماذا تقول، هذا الطائر رائع، لا بدّ أنه متعب، ترى هل يستمتع بهذا الدخان الكثير هنا، بالنسبة لمثل هذه الرئة الصغيرة؟» «هذا لا يعرف أي شيء آخر عندي على الإطلاق، هنا دائماً دخان، في الحانة، اليوم الدخان غير كثيف».

بعد ذلك يجلس فرانس: «إذن، لن أدخن اليوم هنا، وإلا تلبّد الجو بالدخان، ثم نفتح النوافذ قليلاً، ولن يكون هناك تيار هواء» جورج دريسكي ورشارد الشاب وثلاثة آخرون يجلسون على انفراد إلى طاولة بعضهم قبالة بعضٍ. اثنان يجلسان إليهم، وهذان لا يعرفهما فرانس. وأكثر من ذلك لم يكونا في الحانة. حين دخل فرانس كان هناك ضوضاء كبيرة وكلام وسباب. وعلى الفور وحين يفتح هو الباب ويصبحان أكثر هدوءاً، كلا الجديدين يكثران من النظر إلى فرانس في الناحية الأخرى، وينحنيان فوق الطاولة ثم يتكئان بالظهر على المقعد بلا حياء ويشرب كلّ منهما نخب الآخر. حين تغمز العيون الجميلة، حين تلمع الكؤوس الممتلئة سيكون هناك عندئذٍ ما يستوجب الشرب ثانية ومن جديد. هينشكي، صاحب الحانة الأصلع، يشرع في العمل على صنوبر البيرة وحوض المطبخ، فهو لا يخرج كالمعتاد، فلهذا هنا دائماً شيء ما ليعمله بطريقة غير مرتبة.

ثم فجأة يصبح الحديث إلى الطاولة المجاورة عالياً، إذ إنّ أحد الجديدين كان يسيطر على المناقشة. يريد هذا أن يغني، فالجو بالنسبة إليه هادئ جداً، كما أنّ عازف بيانو غير موجود أيضاً، وينادي هينشكي إلى هذا الجانب: «لأجل من إذن، لن يدرّ هذا العمل بشيء». ما يريدون غناءه يعرفه فرانس، إمّا «النشيد الأممي»، وإمّا «أيها الإخوة هيا إلى الضياء، هيا إلى الحرية» في حال أنه ليس لديهم شيء جديد. ويبدوون الذين هم في الجانب الآخر يغنون النشيد الأممي.

يمضغ فرانس ويفكر: «هؤلاء يقصدونني. سيكون لهم ذلك لولم يدخنوا كثيراً. حين يغنون لا يدخنون، فهذا يضّر بالطائر الصغير. أن يجالس

جورج دريسكي القديم مثل هؤلاء الناس الأغرار، حتى إنه لا يأتي إليه إلى الناحية الأخرى، ما كان يمكن أن يصدّق هو هذا أيضاً. مثل هذه الصرماية العتيقة متزوج، إنه مستقيم ويجالس الشباب ويستمع إلى ثرثرتهم. أحد الجديدين يهتف إلى الناحية الأخرى:

«وبعد، كيف أعجبك النشيد، أيها الزميل؟» «أعجبني جداً. أتم عندكم طبقات صوتية وصوت غنائي».

«في إمكانك أن تشاركنا الغناء» «أفضل أن أكل. حين أفرغ من الأكل أشارك في الغناء أو أعني شيئاً ما» «اتفقنا».

يتابعون الحديث، فرانس يأكل ويشرب في تودة وراحة بال ويفكر في لنا، وأن هذا العصفور الصغير لا يسقط وهو نائم وينظر إلى الناحية الأخرى، من ذا الذي يدخن الغليون هناك. اليوم مرض وقبض إعانة المرض تماماً، لكن الطقس كان بارداً. ومن الناحية الأخرى كان منهم دائماً من يتبعه بنظره كيف يأكل. عند هؤلاء خوف من أنني سأتشردق. كان هناك ذات مرة شخص أكل سندويشة نقانق، وحين استقرت في الجوف فكرت وصعدت مرة ثانية إلى الحلق وقالت: لم يكن بها خردل! ثم نزلت نزولاً سليماً. وتفعل هذا سندويشة النقانق الصحيحة التي كان مصدرها الآباء الطيبون. وحين ينتهي فرانس ويفرغ بيرته بعد ذلك ينادي ذلك الذي من الجانب الآخر على الوجه الصحيح: «والآن، أيها الزميل، أتريد أن تغني لنا الآن شيئاً ما؟» هؤلاء يشكلون جمعية غناء، نستطيع أن ندخل فيها، حين يغنون لا يدخنون. لست في عجلة من أمري. ما أعد به سأفي به. ويفكر فرانس ملياً وهو يمسح أنفه الذي يسيل، حين يدخل المرء في الجو الدافئ لا يجدي تيار الهواء نفعاً،

ويفكر أين بقيت لي، وينبغي أن أسمح لنفسي ببعض التفائق، إلا أن وزني يزداد كثيراً، أي شيء ينبغي أن أعنيه لهؤلاء الذين لا يفهمون شيئاً من الحياة، لكنّ الوعد وعد. وفجأة تدور في رأسه عبارة، سطر، إنها قصيدة تعلّمها في السجن، وكثيراً ما غنوها وسرت في كل الزنانات. إنه مشدوه في هذه اللحظة، رأسه ساخن من الحرارة وأحمر ويتطأطأ، إنه جاد وفي تفكير عميق. يقول، واليد على إبريق البيرة: «قصيدة أعرّفها من السجن، كتبها سجين كان اسمه، مهلاً، ماذا كان اسمه، كان اسمه دومس».

كان هو هذا. وأطلق سراحه، إلا أنها كانت قصيدة جميلة. ويجلس وحيداً إلى المنضدة، هينشكي وراء حوض الغسيل والآخرين ينصتون. ما من أحد يدخل، المدفأة الحديدية الأسطوانية الشكل تطلق. فرانس، مشدود الرأس، ينشد قصيدة كتبها دومس، والزنزانة موجودة وساحة التنزه، ويستطيع أن يتحملها بهدوء واطمئنان. ترى أيّ شباب هم الذين أودعوا السجن الآن؛ هو يسير الآن في ساحة التنزه، إنها أكثر مما يستطيعه الموجودون هنا. ماذا يعرف هؤلاء من الحياة.

يقول: «إن أردت، أيها الإنسان، أن تصير على هذه الأرض رجلاً فعليك في هذه الحال أن تفكر ملياً قبل أن تترك امرأة عاقلة ترمي بك خارجاً! الأرض هي موطن بؤس وشقاء! صدّقوا شاعر هذه المقاطع الشعرية الذي كثيراً ما لأك هذه الأكلة السخيفة، الأكلة القاسية! اقتباس مسروق من فاوست لغوته: لا يسعد الإنسان عادة في حياته إلا وهو جنين!... ها هو ذا الأب الطيب الدولة، إنها تقودك من طلوع الفجر حتى هبوط الليل. تقرصك وتهزك هزاً وفق مواد ونواه! وأول أوامرها هو: أيها الإنسان ادفع، وثاني أوامرها: أغلق فمك! وهكذا

تعيش في الغسق، حالة من الغش والخداع. وتحاول بين الحين والحين أن تنسى متاعبك الشديدة بالشرب في الحانة، في شرب البيرة، أو في الخمر، ثم سرعان ما يحصل صداع الخمر. وفي أثناء ذلك تعلن السنون عن مقدمها، والضرر الذي يلحقه العث يتلف الشعور، وتكون هناك على نحو مريب طقطقة في الخشبات، وترتخي المفاصل وتذوي؛ والمخ يحمّض في الدماغ، والخيط يزداد رفاعاً، وباختصار، أنت تلاحظ، الآن يقبل الخريف، وأنت تحطّ الملعقة وتموت. وها أنا أسألك، أيها الصديق، مرتجفاً، ما الإنسان، ما الحياة؟ شاعرنا الكبير شيللر يقول: «إنها ليست أسمى أنواع الممتلكات» أما أنا فأقول: «نما أشبهه بسلم حلزوني ضيق، من فوق إلى تحت، وهلمّ جراً».

هدأ الجميع. بعد فاصل صمت قصير يقول فرانس: «أجل، هذا ما قام به ذاك وكان من هانوفر، أما أنا فقد حفظت هذا. جميل، أليس كذلك، إنه مناسب للحياة، إنما فيه مرارة».

ومن الجانب الآخر يتناهى: «إذن، يجب أن تعي ذاكرتك وتحفظ ماله علاقة بالدولة، الأب الطيب الدولة، ومن ذا الذي يقوم بدور الوصي عليك، الدولة. احفظ على ظهر قلب أيها الزميل، وبهذا لم يتم بلوغ الغاية» فرانس ما زال مسنداً الرأس، والقصيدة لا تزال حاضرة: «أجل، ليس عندهم محار ولا كافيّار، ونحن أيضاً. على المرء أن يكسب خبزه، يجب أن يكون هذا صعباً على بائس فقير. على المرء أن ينسبط ويفرح أنّ له ساقين وأنه في الخارج» هؤلاء يتابعون إطلاق النار من الجانب الآخر، والرجل سيصحو: «في إمكان المرء أن يكسب خبزه بطريقة مختلفة. في روسيا كان يوجد فيما مضى مخبرون، وهؤلاء شاركوا في كسب المال الكثير» الحديد الآخر ينفخ في بوقه: «ما زال عندنا ناس

مختلفون كل الاختلاف، فهناك من يتقلدون مناصب تعود عليهم بالريح ويحققون بها مكاسب كبيرة، وهؤلاء باعوا اليد العاملة إلى الرأسماليين، ودفعوا لهم مقابل ذلك «ليسوا بأفضل من البغايا العاهرات» «بل أسوأ».

يفكر فرانس بقصيدته وما يقوم به الشباب الطيب هناك في الخارج، سيكون هناك الكثير من الجدد، ففي كل يوم يوجد نقل، وإذا بهؤلاء يصيحون: هيا بنا الآن! ماذا عن أغنيتنا؟ ليس عندنا موسيقا، وعد بلا وفاء» ستكون لكم أغنية: أنا أعد، وأنا أفى بالوعد. بادئ ذي بدء ترطيب الحلق.

ويتناول فرانس إبريق بيرته الحديد، إبريق النصف لتر، ويجرع جرعة، ماذا أغني؟ وفي لحظتها يرى نفسه واقفاً في ساحة الدار ويصيح بصوت عالٍ في وجه جدران ساحة الدار، وما يخطر اليوم ببال أحدهم أي شيء كان هذا؟ في دعة وسلام ينساب الكلم من فمه: «كان لي رفيق، أحسن منه لا يوجد. دق طبل المعركة، سار بجانبني بنفس الحركات والسكنات، بنفس الحركات ونفس السكنات» وقفة. ويغني المقطع الثاني: «رصاصه طارت صوبنا، إما أن تنطلق عليّ، وإما أن تنطلق عليك؛ أطاحت به، هو ملقى عند قدمي لكانها هو قطعة مني. لكانها هو قطعة مني» وبصوت عالٍ البيت الأخير: «يريد أن يمدّ يده إليّ، بينما كنت أنا ألقم. لا يمكنني أن أمدّ يدي إليك، فلتبق أنت في الحياة الأبدية رفيقي الطيب، رفيقي الطيب».

بلحن عالٍ ورهيب، وهو متكئ على المقعد، غنيّ أخيراً، بشجاعة ورضاً نفسي يغني. وأخيراً يتغلبون في الناحية الأخرى على دهشتهم ويشاركون في الصباح والغناء العالي القبيح ويضربون على الطاولات ويزعقون ويقيمون الدنيا ويقعدونها: «يا رفيقي الطيب» أما فرانس وبينما كان يغني فقد خطر بباله

ما أراد أن يغنيه. وها قد وقف في وسط الحانة، الآن هو سعيد أنه وجدها، وسيان عنده أين يكون هو، إنه الآن يغني، لا بدّ من قول هذا، والأغنية يجب أن يغنيها، اليهوديان حاضران، إنهما يتخاضعان، ماذا كان اسم البولوني والسيد الشيخ المحترم؛ رقة وامتنان؛ صوته يلعلع في الحانة مبتهجاً: «نداء ينطلق مدوياً مثل هزيم الرعد، مثل صلصلة السيوف وارتظام الأمواج: إلى الراين، إلى الراين، إلى الراين الألماني، نريد كلنا أن نكون حراساً! أيها الوطن الغالي، لك أن تطمئن، أيها الوطن الغالي، لك أن تطمئن، فالحراسة محكمة وأمينة، الحراسة على الراين، محكمة وأمينة هي الحراسة، الحراسة على الراين!» مررنا بهذا كله، وهذا ما نعرفه، والآن نجلس هنا، والحياة جميلة، جميلة، كل شيء جميل.

بعد ذلك خيم على هؤلاء صمت، أحد الجديدين يهدّتهم بأن يتركوا الأمور تمضي في حال سبيلها؛ ويجلس دريسكي منحنيّاً ويحكّ رأسه، ويتقدم صاحب الحانة من وراء البوفيه ويشمشم ويجلس إلى الطاولة بجانب فرانس. فرانس يجي في ختام أغنيته الحياة كلها ويلوّح بإبريق بيرته: «في صحتكم» ويضرب على الطاولة ويتألق، فكل شيء على ما يرام، إنه شعبان، إلّا لنا أين هي، ويتحسس وجهه المملوء، إنه رجل قوي، صحيح الجسم مع استعداد للسمنة. ما من أحد يجيب. صمت.

أحدهم يلوّح من الجانب الآخر بساقه من فوق الكرسي، ويزرر بإحكام الجاكيت، ويشدّ الخصر، منتصب القامة طويل، واحد جديد، ها نحن أولاء في ورطة ويا للمفاجأة غير السارة، وفي مارش استعراض عسكري في الناحية الأخرى صوب فرانس، سيتلقى هذا ضربة على أمّ رأسه، هذا يعني إن طالته يد الشخص الجديد. وينطّ هذا نطّة ويجلس جلسة الركوب على طاولة فرانس. يشاهد فرانس هذا وينتظر:

«إيه يا رجل، ما زال هنا في الحانة كراسٍ أخرى. ويشير هذا من فوق إلى تحت: «ماذا أكلت هنا؟»

«أقول إنه ما زال هنا في الحانة كراسٍ، إن كانت لك عينان. بالله قل، حمموك وأنت طفل بهاء ساخن جدًّا، قل بالله عليك» «نحن لا نتكلم على ذلك. أريد أن أعرف ماذا أكلت» «سندويشة جبنة، أيها الفدان. ها إن البقرة ما زالت موجودة من أجلك، أيها الجحش. والآن فلتنزل من على الطاولة إن لم تكن تتمتع بآداب اللياقة» «لتكن سندويشات جبنة، أنا وحدي أشم. إلا أنه من أين».

أما فرانس بأذنين محمرتين فقد نهض واقفًا، والذين من الطاولة الأخرى وقفوا أيضًا، مسك فرانس طاولته وقلبها، والشخص الجديد مع الصحن وإبريق النصف لتر ووعاء الخردل، هذا كله سقط محدثًا صوتًا. تحطّم الصحن. وقد توقّع هينشكي هذا، ويدوس على القطع المكسورة: «لا أبدًا، الضرب والخبط ليس عندي، الضرب في حانتي غير وارد، من لا يحافظ على السلم يطرد خارجًا» ويقف الطويل على رجليه ثانية، ويدفع بصاحب الحانة جانبًا: «ابتعد يا هينشكي. لا مكان هنا للضرب. سنحاسب. حين يحطم شخص ما شيئًا ما فعليه أن يدفع ثمنه» استسلمت، يخطر ببال فرانس، وحصر نفسه في النافذة أمام حصيرة النافذة، هنا سأنقّص على هذا إذا لم يمسكوني، أنا كفاء لهم؛ إلا أنه سيكون هناك أمر مزعج في حال أنّ هذا لن يكون في مثل هذا الغباء بحيث إنه يلمسني ويمسكني.

يرفع الطويل سرواله على شاكلة من سيبدأ. ويرى فرانس شيئًا قادمًا، ما الذي سيفعله دريسكي الآن، فهذا يقف هنا، ويرى هذا أمام عينيه» أورجي، ما

بال هؤلاء الفتيان من ذوي الثمانية قروش، من أين لك هذا الصبي الغر الوقح القذر الذي جررته إلى هنا؟» يدعك الطويل على سرواله الذي ينزلق من مكانه، وما عليه إلا أن يتركهم يخطون له أزراراً جديدة. يتهكّم الطويل على صاحب الحانة: «تركهم دائماً يتكلمون. الفاشيون قادرون على التحدث. فما يقوله هؤلاء، إنهم يستمتعون عندنا بحرية الكلام» ويلوّح دريسكي بالذراع اليسرى من الخلف: «لا يا فرانس، لم أتدخّل، انظر أية ورطة أقحمت نفسك فيها بقضاياك وأغانيك، لا، لن أتدخّل، مثل هذا لم يوجد بعد هنا».

نداء ينطلق مدوّياً مثل هزيم الرعد، أجل الآن أفهم، الأغنية في صحن الدار، يريدون أن يثيروا الموضوع، يريدون أن يشاركوا في الحديث.

«فاشي، سفك دماء!» يصرخ الطويل بصوت عالٍ في وجه فرانس: «هات العصابة (عصابة الصليب المعقوف)! ما بك، أسيكون هذا في القريب العاجل؟».

الآن ابتدأت الأمور، هؤلاء ينوون الانقضاض عليّ أربعة أربعة، سأحمي ظهري بالنافذة، بادئ ذي بدء الإتيان بكرسي. «هات العصابة! سأخرجها من جيبي. سأطلب العصابة (عصابة الصليب المعقوف) من الرجل.» صار الآخرون عنده، وفرانس صارت الكرسي في متناول يده. أمسكوا هذا أولاً. الإمساك به أولاً. ومن ثمّ أنهال عليه ضرباً.

صاحب الحانة يمسك بالطويل من الخلف، يتوسل: «اذهب الآن! وأنت يا بيبركوبف، على الفور، هيّا تحرك» هذا خائف وقلق على حانته، لم يؤمّن على الزجاج، لا مانع عندي. «يا هينشكي، طبعي، هناك حانات كثيرة في برلين، انتظرت لينا فقط، لكن هل توّازر هؤلاء؟ لماذا يتدافع البعض إلى الخارج حيث

أجلس أنا هنا كل يوم والجديدان هما هذا المساء موجودان لأول مرة.» دفع صاحب الحانة بالطويل إلى الوراء، الجديد الآخر ييصق: «لأنك فاشي، ومعك العصابة (عصابة الصليب المعقوف) في الجيب، من أتباع النازية أنت.»

«أنا هو. أوضحت لأورغي دريسكي. ولماذا. هذا لا تفهمونه، ولماذا تصرخون عالياً» «لا، أنت صرخت عالياً. الحراسة على الراين» «إذا ما أحدثتم ضجيجاً، كما هي الحال الآن، وإذا ما جلس شخص على طاولتي بهذه الطريقة فلن يكون هناك هدوء وسلام في العالم على الإطلاق. ليس بهذه الطريقة. وينبغي أن يجلّ هدوء وسلام لكي يستطيع المرء أن يعمل ويحيا. عمال المعامل والتجار والجميع، وبذلك يكون نظام، وإلاّ صعب على الناس أن يعملوا. ومم ستعتاشون أنتم أيها المشدقون؟ ها أنتم تسكرون بالأقوال المأثورة! وليس في مقدوركم إلاّ الصخب والضجيج، والآخرون تجعلون منهم خونة غدارين، إلى أن يصبخوا هم أيضاً خونة غدارين ويضربوكم. هل سيترك أحدكم مجالاً لكي تمسّ كرامته؟».

فجأة يصرخ هو أيضاً بعالي الصوت، أي شيء ينبثق في داخله ولا يتدفق إلاّ على هذه الشاكلة، شجّعه على الهجوم، سيل من الدم يترقق من خلال عينيه: «أيها المجرمون، أنتم أيها الصبيان، أنتم لا تعرفون ماذا تفعلون، يجب تحريركم من أوهامكم، أنتم تدمرون العالم كلّ، حاذروا إلاّ تمروا بشيء ما، يا سفاكي الدماء، أيها الأوغاد».

في أعماقه تتدفق مشاعر، كان نزيل سجن تيجل، الحياة رهيبية، أية حياة هي هذه، والذي في الأغنية يعرف كيف كانت حالي، إيذاء، لا تفكر بذلك.

ويواصل الصراخ عالياً في دعر وارتياح، أي شيء ينشأ هنا، إنه يدفع الشيء عنه، يدوسه، لا بدّ من الصراخ العالي ومن التهويش. الحانة تدوي فيها

الضوضاء، هينشكي يقف أمامه عند الطاولة، ولا يجروء على الاقتراب منه، ويقف هو في مكانه، ويصيح هذا هكذا بأعلى صوته، على غير انتظام ويرغي ويزيد: «ليس لأحد من سلطان عليّ هنا، ما من أحد يستطيع أن يأتي ويقول لي شيئاً، ولا واحد، كلنا يعرف أحسن، ومن أجل ذلك لم يكن في الخارج، وانظر حنا في الخنادق، وأنكم تحرضون، أنتم أيها المحرضون ومثيرو الفتن، يجب أن يعمّ الأمن والهدوء، هدوء أقول لكم، وعليكم أن تتذكروا هذا جيّداً، الأمن والهدوء، وليس غير الأمن والهدوء [أجل، هذا هو المطلوب، وبهذا نكون قد وصلنا، وهذا صحيح بالتمام والكمال]، ومن يأتي الآن ويصنع ثورة ويهب سلاماً، ويستحق أولئك أن يعلقوا على أعواد المشانق على طول الجادة [أعواد سوداء، أعمدة التلغراف، صفّ كامل على بحيرة تشاوسي تيجل]، أنا على معرفة، ومن ثمّ سيؤمنون هؤلاء بذلك حين يتدلون ويتأرجحون، عندها عندها يمكن أن تعي ذاكرتكم هذا وتحفظه وما تنجزونه، أنتم أيها القتلة. [أجل، هكذا يعمّ الأمن والهدوء، وبعدها يسكتون، هذا هو الصواب، وسنرى].

غضب جنوني، تيبس هو فرانس بيبركوبف. فهو يصيح بأعلى صوته على عماء، نظرتة زجاجية، وجهه أزرق، مترهّل، يبصق، يدها تضطربان انفعالاً، الرجل فقد وعيه. في أثناء ذلك تنغرس أصابعه بالكرسي، إلاّ أنّه الآن سيتناول الكرسي على الفور وينهال ضرباً.

انتباه، الخطر يتأخر، الشارع خالٍ، الحانوت، نار، نار، نار. في أثناء ذلك يسمع الرجل الذي يقف حيث هو ويصرخ في حدة وبصوت عالٍ، يسمع نفسه، من بعيد، يرى نفسه. البيوت، البيوت تنوي أن تنهار من جديد، السقوف تريد أن تهوي فوقه، هذا غير موجود، وبهذا لا ينبغي لهؤلاء أن ينالوا مني، لن يفلح المجرمون في ذلك، نحن في حاجة إلى أمن وهدوء.

الأمر في داخله تخرج عن جادة الصواب: ستبدأ بعد قليل، سأفعل شيئاً ما، إمساك بخناق، لا، لا ألبث أن أنقلب، أن اضرب، لحظة أخرى، لحظة. عندئذٍ خطر بيالي، العالم في أمن وهدوء، وهانٍ هنا نظاماً. في حالته، حالة شبه الوعي، يخاف ويفزع: شيء ما ليس على ما يرام في العالم، فهؤلاء يقفون هناك على نحوٍ مريب للغاية، وهو يرى هذا رؤية العرافين.

لكن قديماً عاش شخصان في الجنة، آدم وحواء. وكانت الجنة جنة عدن الرائعة. طيور وحيوانات كانت تلعب هنا وهناك بأشياء لم تكن للعب.

وبعد، وإن لم يكن هذا مجنوناً. فهؤلاء لا يجركون ساكناً، كما أن الطويل أيضاً لا يتنفس إلا من خلال الأنف تنفساً شديداً، ويغمز بعينه دريسكي؛ الأفضل أن نجلس إلى الطاولة، عندها يحكي بعضنا لبعض أشياء وأشياء. ويتلثم دريسكي في الهدوء والسكينة: «إذن، تذهب أنت يا فرانس، وفي إمكانك أن تترك الكرسي، فقد تكلمت الآن بما فيه الكفاية» وهذا في داخله صار أهدأ، الغيمة تنقشع. تنقشع. حمداً لله. تنقشع. وجهه يشحب، يتقلص.

هؤلاء يقفون عند طاولتهم، يجلس الطويل ويشرب. أرباب مصانع الخشب يتباهون بورقتهم النقدية، كروب يترك متقاعدیه يموتون جوعاً، مليون ونصف عاطل عن العمل، في ١٥ يوماً زيادة قدرها ٢٢٦٠٠٠.

الكرسي سقطت من يد فرانس، لانت يده، في صوته الرنة المألوفة، وما زال مطأطئ الرأس، لم يعودوا يستفزونه ويغيظونه. «أنا ذاهب. من جهتي أتمنى لكم وقتاً ممتعاً. فما يدور في رؤوسكم لا يهمني».

يسمعون ولا يجيبون. دعوا أوغاد الردّة والمروق المحترقين يطعنون ويشهرون بالدستور الشيوعي. إنه يسرع ويعمق قطيعة العمال الثوريين في أوروبا مع الحكام وإلى ما هنالك. جماهير الطبقات المسحوقة تقف موقف التأييد لنا.

يتناول فرانس قبعته: «يؤسفني يا أورغي أننا نفرق وتباعد هذه الطريقة، بسبب شيء مثل هذا» يمدّ يده إليه، إلا أن دريسكي لا يمسكها ويجلس على كرسيه، يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء، يجب أن تسيل دماء، أنهاراً.

«إذن أنا ذاهب. أي شيء يترتب عليّ دفعه يا هينشكي، بما فيه الكأس والصحن أيضاً».

هذا هو نظامه. فنجان خزفيّ لأربعة عشر طفلاً. مرسوم الرعاية الاجتماعية لوزير الوسط هيرتزيغر: يجب العدول عن إصدار هذا المرسوم. مراعاة لتفاهة الوسائل الموضوعة تحت تصرّفه فإنه لا يدخل في الحساب إلا مثل تلك الحالات التي لا يصل فيها عدد الأطفال إلى رقم عالٍ بصورة خاصة، مثلاً إلى رقم ١٢ فحسب، بل تمثّل فيها أيضاً تربية الأطفال المتقنة ضحية خاصة نظراً إلى الأوضاع الاقتصادية ومع ذلك تحدث بطريقة مثالية.

أحدهم يرفع الصوت عالياً خلف فرانس: «سلام عليك في إكليل الفائز، البطاطا مع ذيل سمكة الرنجة» فليمسح هذا الشخص الخردل من على الإست. خسارة أنه لم يقع بين يدي. فرانس لبس القبعة. سوق الفؤوس والمعاول يخطر بباله، الصبيان اللواطيون، كشك الكرنب الأبيض مع المجلات، ولم يرغب، يتردد، يذهب.

إنه في العراء في البرد. أمام الحانوت مباشرة تقف لينا التي جاءت لتوها. يمشي الهويني. يفضل أن يعود أدراجه، ويوضّح للآخرين كم هم مجانيين، مجانيين هم، وسيسكرونهم، فهم كلهم ليسوا هكذا، حتى الطويل، الوقح الطويل اللسان الذي سقط بقوة، ليس هكذا. إلا أنهم لا يعرفون إلى أين بكثير من الدماء، أجل،

هؤلاء يفيضون حيوية وأية حيوية، لو أنّ هؤلاء كانوا في الخارج في تيجل أو ما سيكون مروا به، هؤلاء كان سيتضح لهم الأمر، لكن من غير طائل.

لينا تمسك بذراعه، ويقلب هو بصره في الشارع المظلم. كان يمكن الإنارة أيضاً بعدة مصابيح. أي شيء يريده الناس من شخص ما، أولاً اللواطيون الذين لا يهتمون أحداً، والآن الشيوعيون، ما شأننا أنا وهذا كله، عليهم وحدهم أن ينقلوا قاذوراتهم. عليهم أن يتركوا الناس في حالهم، حتى ولا البيرة يستطيع المرء أن يشربها في أمان وسلام. ليس أحبّ لديّ من أن أعود وأحطّم الحانوت على هينشكي كاملاً. وتتوهج عينا فرانس من جديد، وترتعش النظرات، ويتفخ جيئنه وأنفه. على أنّ هذا يخفّ ويفتر، ويستند إلى لينا ويخدشها في معصمها، فتبتسم: «في إمكانك القيام بهذا بلا حرج، يا فرانس، أن يصدر عنك خدش كهذا حلورقيق».

«الآن نذهب إلى الرقص، يا لينا، لن نذهب إلى مثل هذه الحانة القذرة، مللت منها، فالناس يدخنون ويدخنون، وإلى هذا يحطّ حسون صغير وقد يلقي هذا حتفه، لكنّ هذا لا يهتمهم» ويوضّح لها كم كان هو على صواب، وتجد هي هذا أيضاً. يصعدان إلى الحافلة الكهربائية وتهبط بهما الحافلة صوب جسر يانوفيتش إلى مطعم فالتر. هكذا، كيف هو يمشي ويقف، يذهب هو إلى هناك، بل إنّ لينا ليس لها أن تغير ثيابها، فهي هكذا جميلة أيضاً. والبدنية تُخرج في الحافلة، عندما يسيران، صحيفة صغيرة أيضاً من حقيبتها، وهذه كثيرة الطيات. فهذه جلبتها له معها، إنها صحيفة أحد، مجلة ساعي السلام. يلاحظ فرانس، هذه الصحيفة لا يبيعها هو، يضغط على يدها، يسره الاسم الجميل والعنوان على الصفحة الأولى: «مروراً بسوء الحظ إلى الحظ».

باليدين الصغيرتين طرُق، طرُق، بالقدمين الصغيرتين خبطة، أسماك،
طيور، طوال النهار، فردوس.

الحافلة الكهربائية تسير وهي ترتج كأنها على طريق وعرة، إنهم يقرؤون
في الضوء الخافت، الرؤوس معاً، القصيدة على الصفحة الأولى التي وضعتها
لينا ضمن إطار بعنوان «الحال أحسن مثنى مثنى» بقلم إ. فيشر: «أن تسير
وحدك لبس السير، كثيراً ما تتعثر القدم، والقلب ينقبض غاية الانقباض:
الحال أحسن مثنى مثنى. وإن وقعت فمن يثبت الخطوة؟ وإن تعبت فمن
يسحبك معه: الحال أحسن مثنى مثنى. أنت أيها الجوال الهادئ عبر العالم
والزمن اصطحب معك عيسى المسيح: الحال أحسن مثنى مثنى. إنه يعرف
الطرق، إنه يعرف الدروب، ويصلح من شأنك قولاً وفعلاً؛ الحال أحسن
مثنى مثنى».

لكني ما زلت عطشان، ويفكر فرانس فيما بين هذا وذاك في أثناء
القراءة، كأسان كانا شيئاً قليلاً جداً، والكلام الكثير جفف الحلق. ثم يخطر
بباله نشيد، ويحس بأنه في بيته ويشدّ على ذراع لينا.

تتشتم فرصة. وفي الطريق عبر شارع ألكسندر إلى شارع هولتس
مارك تلتصق به في حرارة: ترى ألن يخطب أحدهما الآخر في أقرب وقت
على الوجه الصحيح؟

مقاسات فرانس بيبركوبف هذا. في إمكانه أن يكون نداءً لأبطال قدماء

فرانس بيبركوبف هذا، فيما مضى عامل إسمنت، ومن ثمّ عامل نقل
مفروشات وما إلى ذلك، والآن بائع جرائد، يزن ١٠٠ كغ تقريباً. إنه قوي

قوة أفعى كوبرا ومن جديد عضو في نادي لاعبين رياضيين. يلبس قلشيناً أخضر ملتفاً حول الساق وسترة مشمعة. والمال لا يمكنكم أن تجدوا الكثير منه، فهو يصل إليه دائماً، ودائماً في كميات قليلة، لكن مع هذا فإنه ليحسن بأحدهم أن يحاول أن يستأنس إليه.

أيجرضونه، من أيام زمان، إيذا وما إلى ذلك، تأنيب ضمير، كوايس، نوم مضطرب، آلام. آهات الثأر من عهد أم جداتنا؟ ما في اليد حيلة، وليعتبر الناس الموقف المتغير. مجرم، في زمنه رجل ملعون.

[من أين تعرف، يا ولدي؟] على المذبح، أوريس، قتل كلوتيمسترا، الاسم الصعب النطق به، وعلى كل حال هي أمه. [على أي مذبح تقصد؟ تستطيع أن تبحث عندنا عن كنيسة مفتوحة ليلاً] أقول، أزمان متغيرة. أغاميمنون آتٍ، أيها الناس المتوحشون المرعبون، نساء منفوشات الشعر تغطيه أفاعٍ، وفضلاً عن ذلك كلاب بدون غمامة، معرض وحوش كامل مخيف تندغر عليه لتنهشه، لكنها لا تصل إليه لأنه يقف عند المذبح، وهذا تصوّر قديم، ومن ثم يرقص الرعاع كلهم حوله مغتاضين، الكلاب دائماً في وسطهم. وبدون كنارة، كما جاء في الأغنية، رقص آهات الثأر، يلتفن حول الضحية، اضطراب جنوني، فتنة الحواس، تحضير لمستشفى المجانين.

فرانس بييركوبف لا يجرضونه. فلنجهر بهذا، هنيئاً مريئاً، إنه يشرب عند هينشكي أو في مكان آخر، العصابة (عصابة الصليب المعقوف) في الجيب، كأس بيرة، الواحد تلو الآخر ويتخلل ذلك كأس من العرق بحيث ينشرح صدره. وهذا ما يميز عامل نقل الموبيليا وما إلى ذلك، بائع الصحف فرانس بييركوبف من برلين شمال شرق نهاية ١٩٢٧ من أوريسست القديم المشهور.

قتل فرانس خطيبته، إيذا، الكنية لا تمم الموضوع، قتلها ضرباً وهي في مقتبل العمر. حدث هذا في أثناء جدل بين فرانس وإيذا، في منزل أختها مينا، وأول ما تضررت في أثناء ذلك أعضاء المرأة التالية ضرراً خفيفاً: الجلد فوق الأنف في الجزء المدبب وفي الوسط، والعظم الواقع تحت هذا مع الغضروف، أما الشيء الذي لوحظ في المستشفى أولاً ثم كان له دور في ملفات القضاء هو بجانب ذلك الكتف الأيمن والأيسر الذي أصيب بكدمات خفيفة مع خروج دم. ثم صار الحديث حيويًا. التعبير «تيس البغايا» و«صياد العاهرات» حرّك للغاية فرانس ببيركوبف الحساس لشرفه وإن كان على جانب كبير من الفساد، والذي ثار فوق ذلك وانفعل لأسباب أخرى. ولم يرتعش إلا هكذا في عضلاته. لم يتناول باليد أي شيء إلا مخفقة قشدة خشبية صغيرة، إذ إنه تمرّن حينذاك وكان قد شدّ على يده في أثناء ذلك. ومخفقة القشدة هذه ذات اللولب السلكي جمعها بدفعة قوية جداً لمرتين مع قفص إيذا الصدري، إيذا المشاركة في الحديث. وقفص إيذا الصدري كان حتى ذلك اليوم سليماً تماماً، هذه المخلوقة الصغيرة الشاطرة التي كان يجلو النظر إليها كثيراً - طبعاً ليس - بل إلى جانب ذلك: فالرجل الذي تقوم بأوده لم يَحْمَن خطأً وبغير حق أنها أرادت أن تهجره لصالح شخص جديد من بريسلاو ظهر من جديد. على أية حال فإنّ القفص الصدري للفتاة اللطيفة الظريفة لم يردّ إلى موضعه السوي نتيجة تماس بمخفقة القشدة. وحتى من الضربة الأولى صرخت من الألم ولم تعد تصرخ: قواد قدر، بل يا أنت، يا بن الذين. اللقاء الثاني بمخفقة القشدة حدث في ظل موقف فرانس الثابت بعد ربع دورة إلى اليمين من ناحية إيذا. وإثر هذا لم تقل إيذا أي شيء، بل فغرت فاهما كالمشمز على نحو غريب، وهاجت بكلتا ذراعيها.

ما حدث قبل ذلك بثانية للقفص الصدري للمرأة له صلة بقوانين التيسر والمرونة والصدمة والمقاومة. وبدون معرفة هذه القوانين فإنه غير مفهوم على الإطلاق. ويستعان بالصيغ التالية:

قانون نيوتن الأول الذي مفاده: كل جسم يبقى في حالة سكون ما دام لا يدفعه تأثير قوة إلى أن يغير وضعه [لهذا علاقة بأضلاع إيدا]. وقانون نيوتن الثاني: تغير الحركة متناسب طردياً مع القوة المؤثرة ولهما معاً الاتجاه نفسه [القوة المؤثرة هي فرانس، أو ذراعه وقبضته مع المحتوى]. وقيمة القوة يعبر عنها بالصيغة التالية:

$$f = c.w = c. \lim \frac{\Delta v}{\Delta t}$$

فالتسارع الذي أحدثته القوة، إذن درجة اضطراب السكون الذي تم

إحداثه تعبر عنه الصيغة:

$$\overline{\Delta v} = \frac{1}{c} f . \Delta t$$

وبعدها فإنه لمتوقع ويحدث فعلاً: فنباض مخفقة القشدة ينضغط، والخشب نفسه يظهر. وفي الجهة الأخرى، جهة العطالة والمقاومة: كسر أضلاع، الضلع السابعة والثامنة، خط الكتف الخلفي الأيسر.

عند مثل هذه النظرة الملائمة للعصر يُستغنى كلياً عن آلهات الثأر. شيئاً فشيئاً يمكن متابعة ما أقدم عليه فرانس وما نزل بإيدا. فليس هناك شيء مجهول في المعادلة. ولم يبق إلا ذكر سير العملية الذي تمّ التقديم له بهذه الطريقة: إذن فقدان الخط أو الوضع العمودي عند إيدا، انتقال إلى الخط أو الوضع الأفقي، هذا إذن الأثر العنيف للصدمة، وفي الوقت نفسه مضايقة تنفس، ألم شديد،

ذعر واختلال فيزيولوجي في التوازن. والمخلوقة التي كانت تعرف فرانس حق المعرفة كان سيقتلها رغم ذلك ضرباً لو لم تنطّ أختها من الغرفة المجاورة. وأمام شتائم هذه المرأة انسحب، وفي المساء ألفت دورية شرطة القبض عليه بالقرب من مسكنه. أغاميمون آتٍ، تصرخ آلهات الثأر المسنات. يا للفعلة الشنعاء أن ترى الفظاعة والويلات!! رجلاً ملعوناً من الرب أمام المذبح، ويده ملطختان بالدم. كم يشخرون: أنت نائم؟ اطرّدوا الكرى عن عيونكم. انهضوا، انهضوا. أغاميمون، أبوه، كان قد رحل قبل سنين طويلة من طروادة، وكانت طروادة قد سقطت، ثمّ كان هناك نار ترسل إشارة من هناك، من إيذا عن طريق آتوس، مشاعل صنوبر دائمة التأجج حتى غابة كيتارون.

ما أروع، على فكرة، إرسال الإشارة المتوهج من طروادة إلى اليونان. إنها لعظيمة، حركة النار هذه فوق البحر، هذا نور، قلب، روح، سعادة، صرخة! النار الحمراء الداكنة، أحمر متوهج فوق بحيرة جورجويس، ومن ثم يراها حارس، ويصرخ هذا وينشرح صدره، وهذه هي حياة، وتشعل النار ويتم الإبلاغ، الخبر، السرور، كل شيء معاً، وفي القفز فوق خليج، في جري سريع إلى مرتفع أراخنيون، ودائماً ليس إلا الصرخة والجنون الذي تراه، أحمر متوهج: أغاميمون آتٍ! أين نحن من هذا الظهور. هنا نتخلّف نحن من جديد.

نحن نستخدم أنفسنا للتبليغ والإخبار عن بعض النتائج من تجارب هاينريش هيرتس الذي عاش في كارلسروه وعاجله الأجل و، ربّي لحيّة، ولو أنّ هذا كان على صورة مجموعة فن الرسم والنحت في ميونيخ. نحن نبرق لاسلكياً، نحن نوّلد من خلال جهاز إرسال في محطات كبيرة تيارات متناوبة عالية التردد. ونوّلد موجات كهربائية من خلال ذبذبات دائرة ذبذبية. وتنتشر

الذبذبات على شاكلة أغلفة كروية. ومن ثمّ يكون هناك أيضاً أنبوب إلكترونيات من زجاج ومذيع يزداد تذبذب قرصه تارة ويتناقص تارة أخرى، وهكذا يخرج الصوت، تماماً كما دخل قبل ذلك في الآلة، وهذا شيء مدهش ابتدع بمهارة، بخبث وسوء نية. ولا يستطيع المرء أن يتحمس لذلك إلا بصعوبة: إنه يعمل، وبهذا ينتهي الأمر.

شيء آخر كلياً هي شعلة الصنوبر الباعثة إشارة عند عودة أغاميمون! إنها تحترق وتتأجج، في كلّ لحظة، في كلّ مكان تقول وتحسّ، وكلّ شيء يهلل فرحاً تحت ذلك: أغاميمون آت! ألف نسمة راحوا يتحمسون في كل مكان، أغاميمون آت، والآن هم عشرة آلاف، وفوق الخليج مئة ألف.

ومن ثمّ، ولكي ندخل في الموضوع، فإنه في البيت. ستتغير الحال، ستتغير تغيراً كلياً. القرص يدور. وحين تجده المرأة في البيت تضعه في الحمام. تثبت في لحظتها أنها امرأة مستهترّة عديمة الضمير لا مثيل لها. وترمي في الماء شبكة صيد سمك فوقه بحيث إنه لا يستطيع القيام بأيّ شيء، ومن ثمّ أحضرت معها فأساً كما من أجل قطع الخشب. يتنهد: «الويل لي، مصاب!» وفي الخارج يسألون: «من ذا الذي يصيح هناك صارخاً على نفسه؟» «الويل لي ومن جديد!» الحيوان المتوحش القديم يقتله، لا يرفّ له جفن ولا تتحرك له جارحة، في الخارج أيضاً يفغر فاه: «أنهيت الموضوع، رميت حوله شبكة صيد سمك وضربت ضربتين، وبتنهدتين تمدد، ومن ثمّ أرسلته بضربة ثالثة إلى الجحيم» لئن كان الشيوخ مغمومين، إلا إنهم يجدون مع ذلك الملاحظة الصائبة: «إننا معجبون بجرأة حديثك إعجاباً شديداً. هذه المرأة كانت هي إذن، هذا الحيوان المتوحش القديم، التي صارت بمناسبة تسليّة زوجية مع

أغاميمنون أماً لصبي حمل عند ولادته اسم أوريست والتي قتلت فيما بعد على يد وليد مسراتها هذا، ثم تعذّبه آلهات الثأر.

وها إنَّ صاحبنا فرانس بيبركوبف يقف على وجه آخر هنا. بعد خمسة أسابيع ماتت أيضاً صاحبتة إيدا، في مستشفى فريدريشس هاين، كسر متبدل في الأضلاع وتمزّق في الغشاء البللوري، تمزق رئوي بسيط وتقيح ذات جنب والتهاب رئوي، يارجل، الحمى لا تنخفض، كيف تبدو أنت، خذ مرآة، يارجل، أنت منهوك القوى، أنت ميت، عليك السلام. لقد شرّحوها وواروها التراب في شارع لانديسيرغ، على عمق ثلاثة أمتار تحت الأرض. ماتت وهي تكره فرانس، حنقه الشديد عليها لم يحمد حتى بعد موتها أيضاً، صديقها الجديد، البريسلاوي، زارها أيضاً. ها هي مسجاة تحت، منذ خمس سنوات، أفقياً على الظهر، الألواح الخشبية تتعفن، إنها تتميع إلى بول، هي التي رقصت ذات مرة في تريتوف في حديقة الفردوس مع فرانس بحذاءين شراعيين والتي أحبّت وتسكّعت، إنها في سكون تام ولم تعد موجودة.

أما هو فقد أنهى سنواته الأربع. هو الذي قتلها، يدور ويلف هنا وهناك، يعيش ويزهو ويشرب ويأكل، يريق منيه ويواصل نشر الحياة. حتى أخت إيدا لم تفلت منه. ذات مرة سيصاب أيضاً. ومن مات أيضاً لست أدري. إلا أنه سيكون أمامه متسع من الوقت. وهذا يعرفه. في أثناء ذلك سيواصل تناول إفطاره في الحانات وسيصب بطريقته الخاصة مديحه على السماء فوق ساحة ألكسندر: منذ متى تنفخ جدتك في البوق، و: ببغائي لا يلتهم بيضاً مسلوقاً.

وحيث هو الآن سور السجن الأحمر، سجن تيجل، الذي أخافه شديد الخوف لم يتخلّص بإدارة الظهر له، البواب يقف في الباب الحديدي

الأسود الكبير الذي استثار في فرانس ذات مرة مثل هذا الاشمزاز وهذه الكراهية، والباب الكبير لا يزال معلقاً في مفصلته، إنه لا يزعج أحداً، إنه يحسن تجديد الهواء على الدوام، وفي المساء يغلقونه مثلما يحدث لكل باب كبير جيد. الآن وقبل الظهر يقف البواب أمامه ويدخن غليونه. الشمس تشرق، أنها دائماً الشمس نفسها التي يمكن التنبؤ منها تماماً متى ستتصب في مكان ما في كبد السماء. وما إذا كانت تشرق فإن هذا وقف على الغيوم. من الحافلة الكهربائية ٤١ ينزل لتوهم بعض الأشخاص الذين يحملون زهوراً وطروداً صغيرة، أغلب الظن أنهم يريدون الذهاب قدماً إلى المصح نزولاً إلى اليسار من بحيرة تشاوزي، يحسون كلهم ببرد شديد.

الأشجار تتصب في صف أسود. في الداخل ما زال السجناء يقبعون في زناياتهم ويشغلون في أماكن العمل ويسرون واحداً في إثر الآخر فوق فناء التزّه. أمر صارم للظهور في ساعة الفراغ بالأحذية والقبعة والشال. زيارة الزنانات من قبل القائد: «وكيف كان حساء المساء أمس؟» كان يمكن أن يكون أفضل وأكثر بعض الشيء» لا يريد أن يسمع ويتظاهر بالصمم: «وكم مرة يحصلون على بيّاضات سرير؟» لكأنه لا يعرف.

أحدهم في الحبس الانفرادي يكتب: «دعوا الشمس تدخل! هذا هو النداء الذي يدوي اليوم في كل أرجاء الكون. هنا فقط، خلف أسوار السجن لم يجد صدى بعد. ألا نستحق بأن تسطع الشمس علينا؟ طراز بناء السجن كان من شأنه إلا تسطع أشعة الشمس طوال السنة على جوانب بعض الأجنحة، جهة الجناح الشمالية الشرقية. وما من شعاع شمس يضع في هذه الزنانات ويحمل تحيات إلى النازلين بها. المرة تلو المرة يجب على

الناس أن يكّدوا ويذبلوا بعيداً عن ضياء الشمس الذي ينعش ويجيي»
وتريد لجنة أن تتفقد المبنى، ويهرع المراقبون من زنزانة إلى زنزانة.

يكتب آخر: «إلى النيابة العامة في المحكمة البدائية. في أثناء الجلسات القضائية بحقي أمام دائرة الجنايات بالمحكمة البدائية أعلمني الرئيس السيد مدير المحكمة البدائية الثانية د. فلان أنّ مجهولاً أخذ من منزلي في شارع إليزابيت ٧٦ غرضاً بعد اعتقالي. وهذه الواقعة تمّ إثباتها في الملفات. وبما أنّ هذا تمّ إثباته في الملفات فلا بدّ أن تكون الشرطة أو النيابة العامة قد اتخذت إجراء للقيام بتحريات. ولم يتمّ إعلامي من أية جهة بأي شيء عن سرقة أغراضي بعد اعتقالي حتى علمت هذا في تلك الجلسة. وأرجو من النيابة العامة أن تعلمني بنتيجة التحري أو أن توافيني بصورة عن التقرير الموجود في الملفات بحيث إنني أتقدم بشكوى تعويض أضرار إذا اقتضى الأمر، وكان هناك تهاون من جانب ربة المنزل».

وفيا يتعلّق بالسيدة مينا، أخت إيذا، فإنّ صحتها جيدة ، شكراً، إنك لطيف جداً. الساعة الآن الحادية عشرة والثلاث، ها هي آتية من السوق المسقوفة، شارع أكر، مبنى بلدي أصفر له أيضاً مخرج يؤدي إلى شارع الإنفاليدين (ذي العاهات). إلا أنها تختار المخرج شارع أكر لأنه أقرب في نظرها. فقد ابتاعت قرنيطاً ورأس خنزير، وإلى ذلك شيئاً من الكرفس. ومن أمام السوق المسقوفة اشترت أيضاً من العربة سمكة مفلطحة دسمة كبيرة وكيساً من شاي الكاميليا؛ وما أدرانا فقد يحتاج المرء إلى هذا دائماً.

الكتاب الثالث

هنا يتلقى فرانس بييركوبف، المستقيم الحسن النية، الضربة الأولى. إنهم يمدونهم. وتصيب الضربة في الصميم.

أقسم بييركوبف أن يكون مستقيماً، وأنتم رأيتم كيف كان مستقيماً طوال أسابيع، على أن هذا لم يكن، إن صح التعبير، إلا إمهالاً قضائياً. فالحياة تجد هذا على مر الأيام غاية في الروعة والرقّة وتكيد له كيداً. أمّا هو، فرانس بييركوبف، فلا يبدو له هذا من الحياة رائعاً بصورة خاصة، وقد ضاق ذرعاً لزمّن لا بأس به بمثل هذا الوجود الحقيّر الخبيث المتناقض مع كلّ نية حسنة.

لماذا تتصرف الحياة مثل هذا التصرف، إنه لا يفهم. عليه أن يسير في طريق طويل إلى أن يرى هذا.

في الأمس القريب مازالوا على أفراس شاحخة الرأس

بما أن عيد الميلاد قد اقترب يغيّر فرانس فيبيع سلع أوكازيون من كلّ الأصناف والألوان، يستلقي بضع ساعات قبل الظهر أو بعد الظهر على رباط حذاء، بادئ ذي بدء وحده، ثمّ مع أوتو لودرز. وهذا صار عاطلاً عن العمل طوال سنتين، زوجته تغسل. لينا، البدينة، جاءت به، إنه بالنسبة للبدينة عمها. في الصيف كان هو لبضعة أسابيع رجل النعناع من رودردورف صاحب الشرّابة والبزّة الرسمية. فرانس وهو ينزلان معا إلى الشوارع ويذهبان إلى البيوت، يرنان الجرس ويلتقيان فيما بعد.

ذات مرّة يأتي فرانس ببيركوبف إلى الحانة. المدينة موجودة أيضاً هناك. إنه على مزاج طيب بصورة خاصة. يلتهم سندويشات المدينة، يطلب لاحقاً وهو لا يزال يلوك أذني خنزير مع البازلاء للثلاثة معاً. والمدينة يضمها بحيث إنها تلتف أذني الخنزير وهي محمّرة متوردة» إنه لجميل أنّ هذه، أي المدينة، تنسحب، يا أوتو» «إنّ لها مسكنها. تجرر خطاها وراءك دائماً».

فرانس يستلقي على الطاولة، ينظر إلى لودرز من تحت: «ماذا تظنّ، يا أوتو، ما الخطب؟» «ماذا؟».

«إذن، فليتكلم الناس بصراحة» «ما هذا، كلا».

كأسان من البيرة، وقطعة عصير ليمون. ضيف جديد ينخر وسط الحانة، يمسح بظهر يده الأنف ويسعل: «فجان قهوة» «بالسكر؟» صاحبة الحانة تغسل الكؤوس لا، لكن بسرعة.

شاب يلبس قبعة رياضية بنية يمشي باحثاً عبر الحانة. يتدفأ على المدفأة الحديدية الأسطوانية الشكل، يبحث عند طاولة فرانس ثمّ بالقرب منها: «أرأيتم شخصاً يلبس معطفاً أسود وربطة عنق بنية وياقة فراء؟» «أيتكرر وجوده هنا؟» «أجل» الأكبر سنّاً عند الطاولة يدير الرأس صوب الممتقع الوجه بجانبه: «فراء بني؟» يقول هذا متضجراً برماً: «كثيراً ما يأتي بعضهم إلى هنا يلبسون فراءً بنيّاً» الأثيب: «ترى من أين أنت آتٍ؟ من أرسلك؟» «هذا لا يهمّ إن كنت لم تره» «يوجد هنا كثيرون يلبسون فراءً بنيّاً. يجب أن يعرف المرء من أرسلك» لست مضطراً إلى أن أحكي لك عن شؤوني» وينفعل الممتقع الوجه: «إذا ما سألته أنت عما إذا كان أحدهم هنا ففي إمكانه أن يسألك هو أيضاً عما أرسلك أنت إلى هنا».

يقف الضيف عند الطاولة التالية: «حين أسأله فلا شأن لك من أكون أنا» «أجل، إذا ما سألته أنت ففي وسعه أن يعاود السؤال أيضاً. في هذه الحالة ليس من داعٍ إلى أن تسأله.» وليس من داعٍ إلى أن أقول له أية أعمال هي أعمالي» «في هذه الحال ليس هناك ما يدعوه إلى أن يقول لك ما إذا كان شخص ما هنا».

يسير الضيف صوب الباب ويستدير: «إن كنت حاذقاً شاطرأً فلتبقِ إذن على مثل هذه الشطارة والمهارة» يستدير، يفتح الباب بعنف ويمضي في حال سبيله.

الاثنتان كلاهما إلى الطاولة: «أتعرفه؟ الحق أي لا أعرفه» «لم يكن هنا قط. من يعرف ماذا يريد».

«إنه بافاري» «هذا، إنه من منطقة الراين».

يلتفت فرانس إلى لودرز البائس البردان مبتسماً بشماتة ابتساماة عريضة: «لم يعرض لك الأمر إذن ما إذا كان عندي مال؟» «بالفعل، هل عندك بعض المال؟».

يضع فرانس قبضته على الطاولة ويفتحها ويبتسم في خيلاء ابتساماة عريضة: «كم إذن؟» لودرز، الرُّجِيل البائس، أمال جسده إلى الأمام وصرَّ على سنِّ جوفاء: «عشرتان، رهان» «أيها العفريت» فرانس يرمي بالخرقة على الطاولة: «كيف نقف نحن هنا. انتهينا، في خمس عشرة، في عشرين دقيقة، ليس بأطول من ذلك، رهان» «يا ابن آدم» «لا، ليس ما تظنه أنت، من تحت الطاولة. خفية. صدقاً، يا أوتو، واستقامةً، على نحو موثوق به، أنت فاهم».

راحا يتها مسان. يقترب أوتو لودرز منه. فرانس دقّ الجرس عند سيدة، عندنا أربطة أحذية، هل تحتاجين إلى شيء ما، لك، للسيد زوجك، للأطفال الصغار، تفرّجت عليها، ثم نظرت إلي أيضاً، إنها أرمل، ولا تزال محافظة على نفسها، تكلمنا في المشى، ثم سألت ما إذا كان في الإمكان تناول فنجان قهوة، برد رهيب هذه السنة. شربت القهوة وشربت هي معي. ومن بعد ذلك شيء أكثر من هذا. ينفخ فرانس من خلال يده، ويضحك من خلال أنفه، يحكّ وجتته ويلكز ركبة أوتو بركبته: «تركت كل بضاعتي القديمة عندها. هل لاحظت هي شيئاً ما؟» «من؟» «كيف، من، المدينة، لأنه ليس لدي أي شيء» «دع هذه تلاحظ أنت بعث كل شيء، أين كان هذا؟».

يصفرّ فرانس: «سأذهب إلى هناك مرة أخرى لكن ليس في القريب العاجل، في الخلف شارع الإلزاس، أرملة، يا رجل، عشرون من منطقة الحدود البراندينبورغية، إنها لصفقة» يأكلان ويشربان حتى الساعة الثالثة، وحصل أوتو على كأسه الخامسة، على أنه لا يزداد يقظة ونشاطاً.

من ذا الذي يعبر متسللاً في اليوم التالي قبل الظهر بوابة روزينثال ومعه أربطة الأحذية؟ أوتو لودرز. ينتظر بالقرب من فابيش عند الناصية إلى أن يرى أنّ فرانس يهرول في شارع بروّين نازلاً إلى شارع الإلزاس. صحيح، هذا هو الرقم. قد يكون فرانس فوق. يا للناس الذين يسيرون في اطمئنان على طول الشارع. سأقف بعض الوقت في الدهليز. حين يأتي أقول، ماذا أقول. قلبي يخفق خفقاناً عنيفاً. إنهم يضايقون شخصاً طوال اليوم، ولا فضل له، الطبيب لا يجد شيئاً، أما أنا فعندي شيء ما. على أنّ المرء ينحطّ في ثيابه الممزقة، ما زال الصدع من زمن الحرب. يطلع الدرج.

يرنّ الجرس: «أربطة أحذية، يا سيدة؟ لا، أردت أن أسأل فقط. قولي، اسمعي أولاً» تريد أن تغلق الباب بالضغط، يعترض الباب بقدمه. «الحق أني لم آتٍ وحدي، صديقي، أنت تعرفين، كان هنا أمس، وقد ترك أغراضه» «يا إلهي» تفتح الباب، يدخل لودرز، يغلق الباب وراءه بسرعة. «ما الخطب، يا إلهي» «لا شيء، يا سيدتي. أنت ترتعشين» هو نفسه يرتعش، فجأة هو في الداخل، يتتابع الأمر، فليحدث ما يحدث، سيكون هذا ممكناً. سيكون عليه أن يكون لطيفاً، لا يسعفه صوته، أمام الفم، تحت الأنف عنده شبكة أسلاك، تمتد إلى الجبين من فوق الوجنتين، حين تتصلب الوجتان أكون قد متّ. «ما كان عليّ إلا أن آتي وأخذ البضاعة» تدخل المرأة اللطيفة الرشيقة إلى الغرفة، تريد أن تحضر الطرد، وإذا به نفسه يقف عند عتبة الحجر. تمضغ وتنظر: «ها هو الطرد. يا إلهي» «شكراً، شكراً جزيلاً. ها أنت ترتعشين، يا امرأة. والجو إنّه هنا لدافئ جداً. الجو دافئ نعم الدفء. ألا يمكنك أن تقدمي لي فنجان قهوة؟» لزوم المكان ليس إلا، الكلام بصورة دائمة، إياك والخروج، قوية مثل بلوطة.

المرأة، نحيفة، لطيفة، تقف أمامه، وقد دسّت يداً فوق يد أمام بطنها: «هل قال لك شيئاً آخر؟ ماذا قال لك؟» «من، صديقي؟» الكلام دون توقف، الإكثار من الكلام، بقدر ما يتكلم المرء يزداد حرارة، الآن لا تدغدغه الشبكة إلا من تحت الأنف. «أوه لا شيء غير هذا، لا، وماذا عدا ذلك. وأي شيء سيقوله هذا عن القهوة. والبضاعة صارت معي» هذه خائفة، ما أرّجيه من قهوتها سأطهوه بنفسني على نحو أفضل، ونحصل عليه في الحانة على نحو أسهل، يريد أن ينسلّ، ينتظر، نحن ما زلنا هنا أيضاً. إلا أنه لجميل أنني في الداخل، وسارت الأمور بسرعة. لكنّ لودرز خائف حقاً، ينصت إلى الباب، إلى السلم، إلى فوق. يرتد إلى داخل الغرفة. اليوم

نوم رديء جداً، الولد العفريت يسعل دائماً، طوال اليوم، لنجلس. ويجلس على الأريكة المخملية الحمراء.

هنا فعلت هي فعلتها مع فرانس، والآن تهبيء لي القهوة، سأرفع القبعة، أصابع باردة برودة الثلج.

«هاك فنجان قهوة» خائفة هي دون شك، امرأة صغيرة حلوة، الرغبة تراود شخصاً ما ليحاول شيئاً ما.

«ألا تشاركينني أيضاً الشرب؟ بغية المجالسة؟» «لا لا، المستأجر الذي يشغل الغرفة على وشك أن يأتي» تريد أن تخيفني، وأين عندها هنا مستأجر، المفروض أن يكون هناك سرير. «لا شيء غير هذا؟ دعي الرجل. إنَّ مستأجرًا لن يأتي قبل الظهر، من المحقق أن يكون عنده عمل. أجل، لم يحك لي صديقي شيئاً آخر. ما عليّ إلا أن آتي وأخذ البضاعة. يرشف القهوة بارتياح مستسلماً للخوف -، «ساخنة جداً، اليوم برد، أي شيء يحكيه لي. صحيح أنك أرملة، أأست؟» «أجل» «ماذا عن زوجك، ميت؟ هل سقط في الحرب؟» «لديّ شغل. يجب أن أطبخ» «اعملي لي فنجاناً آخر. لكن لماذا العجلة. لن نرى أنفسنا في غاية الشباب. هل عندك أطفال صغار؟» «بالله عليك اذهب، صارت أشياءك معك، لا وقت عندي» «يا سلام، لا تصيري فظة، ستقومين باعتداء من بعد، بالنسبة إليّ فأنت لست في حاجة إلى ذلك، امضي هكذا، وسيكون في وسعي أن أفرغ من شرب الفنجان. فجأة لم يعد لديك وقت. قبل ذلك كان عندك وقت كثير، أنت تعرفين كيف. حسن، ها هي ذي المفاجأة غير السارة، لست أنا هكذا، أنا ذاهب».

يعتمر القبعة بعنف، ينهض، يضع الطرد الصغير تحت إبطه ويسير ببطء صوب الباب ويمرّ بها، وإذا به يلتفت وراءه التفاتة عجي: «إذن، هاتي ما معك

من عملة صغيرة (فراطة) « اليد اليسرى ممتدة والسبابة تغري. تغطي فمها بيدها، لودرز القصير لصقها: «إن صرخت. هاتي فقط إن كان عندك أحد. إذن، أنت ترين، نحن نعرف كل شيء. لا سر بين الأصدقاء» خنزيرة لعينة، ما أنت إلا خنزيرة قبيحة، ترتدي ثوباً أسود، ليس من شيء أحب من صفعها، ليست أفضل من زوجتي. المرأة صار وجهها متوهجاً، إنها الجانب الأيمن فقط، أما الجانب الأيسر فناصر البياض. في يدها كيس النقود، وتبش في داخله بأصابعها، لكنها تنظر بعينين واسعتين إلى لودرز الصغير. يدها اليمنى تناوله قطع النقود. في وجهها تعبير غير طبيعي. سبابتها تواصل الإغراء، فتفرغ له كيس نقودها كله في يده. الآن يرتد إلى داخل الحجرة صوب الطاولة ويختطف الغطاء الأحمر المطرز، تنعق، ولا يند عنها صوت، فلا تستطيع أن تفتح فمها، فتقف بلا حراك عند الباب. يخطف مخدتي أريكة، ثم يتوجه صوب المطبخ، أدراج الطاولة مفتوحة، فينكش فيها. عدة صفيح قديمة، يجب أن أندفع راکضاً، وإلا انفجرت هذه بالصراخ. وإذا بها تسقط أرضاً، ما عليك إلا الخروج.

على الدهليز، الباب ينغلق ببطء، ينزل الدرج، إلى بيت الجيران.

اليوم طلق ناري اخترق الصدر

كانت هي اللجنة الرائعة. المياه امتلأت بالأسماك، ومن التربة انبثقت أشجار، والحيوانات كانت تلعب، حيوانات برية وحيوانات بحرية وطيور. وفجأة كانت هناك خشخشة في شجرة من الأشجار. أفعى، أفعى، أفعى مدت رأسها إلى الأمام، أفعى كانت تعيش في اللجنة، وكانت هذه أكثر دهاء من كل حيوانات الحقل، وراحت تتكلم، تتكلم إلى آدم وحواء.

حين يصعد فرانس السلم في تؤدة بعد أسبوع ومعه باقة زهر في ورق
حريري يفكر بصاحبته البدينة ويؤتب نفسه، لكنه لم يكن جاداً كل الجد،
ويبقى واقفاً، إنها فتاة وفيه كل الوفاء، ما هذه الشمطاوات يا فرانس، تباً،
شغل، والشغل شغل. ويرن الجرس، ويتسم في إحساس داخلي، ويتسم
ابتسامة الرضا، قهوة ساخنة، فتاة صغيرة. أحدهم يمشي في الداخل، إنها
هي. يتباهى، يقدم أمام الباب الخشبي الباقية، توضع السلسلة لإحكام
الإغلاق، قلبه يدق، ربطة عنقي متناسبة، صوتها يسأل: «من هنا؟» ويكركر
(ويضحك ضحكة صبيانية): «ساعي البريد».

فرجة باب صغيرة سوداء، عيناها، ويجني الظهر، يتسم ، يحرك باقة
الزهر جيئة وذهاباً. طقطقة وفرقة. الباب مغلق، ينغلق الباب بعنف. يتم دفع
المزلاج. يا للمصيبة. الباب مغلق. يا بنت الحرام. ها أنت تقفين هنا. لاشك
أنك جنت. ترى هل عرفنتي. الباب البني اللون، ضلفة الباب، وأقف على
السلم، ربطة عنقي متناسبة. شيء لا يصدق. أينبغي أن أرن الجرس مرة
أخرى، أم لا. وينظر إلى يديه، باقة ورد اشتريتها منذ قليل عند ناصية الشارع
بمبارك واحد، وبورق حريري. ويرن الجرس مرة أخرى، ومرتين، ولوقت
طويل جداً. لا بدّ أنها ما زالت واقفة عند الباب، تقفل هنا حتماً ولا تتحرك،
وتحبس أنفاسها وتتركني واقفاً، وفوق ذلك ما زالت أربطة الأحذية الخاصة بي
عندها، البضاعة كلها، ربما كان ثمنها ثلاثة ماركات، لكن ينبغي أن آتي
وأخذها. ها إن أحدهم يمشي الآن في الداخل، ها قد راحت، إنها في المطبخ.
الحق إن هذا لـ.

فلأنزل السلم مرة واحدة ثم أرتقيه ثانية: وسأرن الجرس مرة أخرى،
لا بد أن أرى، ربما لم ترني، ربما خالطني شخصاً آخر، متسولاً، ويأتي متسولون

كثير. ولكن حين يقف أمام الباب لا يرنّ الجرس. ليس عنده إحساس على الإطلاق. إنه ينتظر، ليس إلّا، ويقف حيث هو. هكذا إذن، إنها لا تفتح لي الباب، كان في ودّي أن أعرف. هنا في هذا البيت لن أبيع بعد الآن، ماذا أفعل بباقة الورد فقد كلفتني ماركاً بلا زيادة ولا نقصان، سأرمي بهذه في البالوعة إلى جانب الطريق. وفجأة يرنّ الجرس مرة أخرى، كأنها كان ينقذ أمراً، وينتظر في هدوء واطمئنان، بل إنها لم تأت حتى إلى الباب، هي تعرف أنني أنا هو. ثمّ إنني سأترك لها قصاصة عند الجيران بأنّ عليّ أن أسترّد بضاعتي.

يرنّ الجرس بالجوار، ما من أحد هنا. حسناً، فلنكتب القصاصة. ويذهب فرانس إلى نافذة الردهة، ويمزّق الزاوية البيضاء من جريدة، ويكتب بقلم صغير: «بما أنك لا تفتحين الباب أريد أن أسترّد بضاعتي، يمكن تسليمها عند كلاوسين زاوية شارع الإلزاس».

يا أنت، يا لئيمة، لو عرفت من أنا وما لمستته أنت مني ذات يوم لما فعلت ذلك. حسناً، سنفعل. كان المفروض أخذ بلطة وكسر الباب. ويدفع بالقصاصة في هدوء من تحت الباب.

يلفّ فرانس ويدور نهراً وهو متضجر متبرم. وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يلتقي لودرز يناوله صاحب المحل رسالة. هذه هي. «ولم يتم تسليم أي شيء آخر؟» «لا، ماذا؟» «طرّد مع بضاعة» «لا، صبي أحضره، ليلة أمس» «ماذا، ربما كان عليّ أن أذهب أنا وآتي بالبضاعة».

- بعد دقيقتين يذهب فرانس إلى النافذة بجانب شبابيك العرض، ويرتمي على مقعد خشبي والرسالة في يده اليسرى المترخية، ويزرّ فمه ويحملك من فوق قرص المنضدة، لودرز، التعيس، يدخل لتوه من الباب، يرى فرانس، يراه جالساً، شيء ما حدث له، وإذا به في الخارج.

يتقدم صاحب الحانة من الطاولة: «لماذا يجري لودرز مسرعاً، حتى إنه لم يجلب بعد بضاعته» فرانس قاعد وقاعد. مثل هذا موجود في العالم كله. ساقاي مقطوعتان. شيء كهذا ليس موجوداً في الدنيا كلها. هذا لم يكن موجوداً بعد. لا يستطيع النهوض. ما على لودرز إلا أن يجري، له ساقان، إذن فهو قادر على السير. إنه ذكي، لا يتصوره العقل.

«أترغب في كأس كونياك يا بييركوبف؟ أهي وفاة ومصائب جمل؟» «لا، لا» أي شيء يقوله هذا، أنا لا أسمع جيداً، أنا أصمّ. ولا ينصرف صاحب الحانة: «لماذا يويّ لودرز مسرعاً؟ ما من أحد آذاه. لكأنها أحد ما يطلق النار خلفه» «هذا الرجل لودرز؟ أجل، سيكون عنده شغل. أجل، كأساً من الكونياك» ويفرغ الكأس في جوفه، وتدوب الأفكار عنده وتدوب، يا لها من مصيبة، ما قصة الرسالة هنا. «هذا الغلاف وقع منك. ربما تأخذ جريدة الصباح» «شكراً». ويواصل الإنعام في التفكير: أريد أن أعرف فقط ما حكاية الرسالة هذه، هي تكتب لي مثل هذه الأشياء. لودرز هذا رجل ذو مفهومية، عنده أطفال. ويدير فرانس الأمر في ذهنه كيف حدث هذا، ويضيق رأسه بذلك ويثقل عليه كما في النوم، ويظن صاحب الحانة أنه متعب، إلا أنه الاصفار والشحوب، المدى والفراغ، وفي ذلك تتزحلق ساقاه، وإذا به يقع فيها محدثاً صوتاً ويلتفت إلى اليسار، والآن إلى تحت، إلى تحت بشكل كامل.

يستلقي فرانس بصدره ورأسه على قرص الطاولة، وينفخ من فوق الخشب ويمسك رأسه: «هل البدينة هنا، لينا؟» «لا، لن تأتي إلا في الساعة الثانية عشرة» هكذا، أجل، الساعة الآن التاسعة، ولم أقم بأي شيء، ولودرز قد راح أيضاً.

أي شيء يجب القيام به؟ ها هي الدنيا تنسكب عليه، ويعصّ على لسانه بشدة: هذه هي العقوبة، فقد أطلقوا سراحي، والآخرين ما زالوا يحفرون عن البطاطا خلف السجن عند جبل القمامة الكبير، وعليّ أن أركب الحافلة الكهربائية، اللعنة، لقد كانت الحياة هناك جميلة كل الجمال. وينهض، الذهاب تارة إلى الشارع وتارة تنحية هذا جانباً، ولكن حذار الخوف من جديد، فأنا أنتصب قائماً على ساقبي، وما من أحد هو ندّ لنا، ما من أحد ندّ: «حين تأتي المدينة قل لها عندي وفاة. نبأ وفاة، عم أو خال وما إلى ذلك. لن آتي اليوم ظهراً، لا، ليس هناك من داع إلى أن تنتظر. إذن، كم ينبغي على أن ادفع؟» «كأس بيرة كالعادة» «حسناً.» «والطرد أتركه هنا؟» «أي طرد؟» «يا سلام، أعتقد أن هذا نال منك يا بيركوبف، ابق منتصباً. سأحتفظ بالطرد» «أي طرد؟» «هيا اذهب إلى الهواء الطلق».

بيركوبف في الخارج. يتبعه صاحب الحانة نظره من خلال اللوح الزجاجي: «تري ألن يعيدوا هذا على الفور؟ أمور هي هذه. يا له من رجل قوي. ستهش المدينة».

رجل قصير القامة شاحب الوجه يقف أمام الباب، الذراع اليمنى يحمله في رباط، اليد في قفاز جلدي أسود. مضت ساعة على وقوفه هنا في الشمس ولا يصعد إلى فوق. جاء لتوّه من المستشفى. عنده ابتتان كبيرتان ولحق بهما صبي صغير، كان عمره أربع سنوات، ومات هذا مساء أمس في المستشفى. بادئ ذي بدء لم يكن هناك إلا التهاب بلعوم. قال الطبيب إنه سيعود على الفور، إلا أنه لم يأت إلا في المساء ويقول عقب ذلك: مستشفى، اشتباه خناق دفتريائي. ويرقد الصبي هنا أربعة أسابيع، كان على خير ما يرام، ثم أصيب إلى ذلك بالحمى القرمزية. بعد يومين، في الأمس، مات هو، ضعف قلب، قال كبير الأطباء.

يقف الرجل أمام باب البيت، الزوجة فوق ستصرخ وتبكي كما في الأمس وطوال الليل، وستأخذ عليه أنه لم يخرج بالطفل قبل ثلاثة أيام، كان في حال حسنة. على أن الممرضات قلن كان لا يزال عنده جراثيم في البلعوم، وحيثما كان الأطفال بين آلهم وذويهم يكون شيء كهذا خطيراً. أبت الزوجة أن تصدق هذا على فورها، إلا أنه لمن الممكن أن يحدث هذا عند الأطفال الآخرين. يقف. أمام البيت المجاور يصرخون. فجأة يخطر بباله أنهم حين جلب لهم الطفل قالوا له في المستشفى ما إذا كانوا أعطوه إبرة مع المصل. لا، ما كانوا سيعطونه بعد أية إبرة. كان قد انتظر طوال اليوم أن يأتي الطبيب، لم يأت إلا في المساء، ثم قالوا: لقد انتهى.

سرعان ما يتحرك الرجل المشلول نتيجة الحرب، ويمتاز جسر السكة الحديدية، ويصعد الشارع حتى الزاوية إلى عند الطبيب الذي يظهر أنه ليس في البيت. على أنه يصرخ عالياً، الوقت قبل الظهر، وعلى الطبيب أن يكون في البيت. باب حجرة الكشف يفتح. السيد الأصلع البدين ينظر إليه ويدخله إليه. يقف الرجل ويحكي عن المستشفى، وأن الطفل مات ويشد الطبيب على يده.

«لكنك تركتنا ننتظر، طوال يوم الأربعاء، من الصباح حتى الساعة السادسة مساء. أرسلنا في طلبك مرتين» «لكنني جئت» أخذ الرجل يصرخ عالياً من جديد: «أنا ذو عاهة، ونزفنا في ميدان القتال، ويتركونا ننتظر، ويستطيعون أن يفعلوا بنا» «اجلس الآن وهدئ من روعك. الطفل لم يمض من الخناق الدفترائي. في المستشفى تحدث مثل هذه الحالات من العدوى» «وتروح مصيبة وتجيء أخرى»، ويواصل الصراخ بصوت عال. «يتركونا ننتظر، نحن رجال السخرة، وأطفالنا يمكن أن يفطسوا، كما فطسنا نحن».

بعد نصف ساعة ينزل السلم ببطء ويستدير تحت في الشمس ويصعد إلى فوق. الزوجة تشتغل في المطبخ. «أي باولي؟» «أي يا أم الأولاد» ويسلم على بعضهما على بعض ويخفضان رأسيهما» لم تأكل بعد يا باولي. سأهيئ لك الطعام على الفور» «كنت هناك عند الطبيب، قلت له إنه لم يأت يوم الأربعاء. احتددت عليه» «الحق أن صغيرنا باول لم يمت بالحناق» «لا عليك. قلت له هذا أيضاً. لكن لو أنه أخذ إبرة على الفور لما احتاج إلى مستشفى. لما احتاج إلى الذهاب إلى هناك على الإطلاق. لكنه لم يأت. واحتددت عليه. يجب التفكير بالناس الآخرين حين يحدث شيء من هذا القبيل. مثل هذا يحدث كل يوم، من يدري» «ما هذا، كل شيئاً ما. وماذا قال الطبيب؟» «إنه لرجل طيب. والرجل ليس أيضاً الأصغر سناً وهو مشغول كثيراً، وعليه أن يكد ويكدح. أعرف أنا وحدي. لكن حين يحدث هذا سيحدث. وقد ناولني كأس كونياك، وعليّ أن أهدئ من روعي. وزوجة الطبيب دخلت أيضاً». «رفعت صوتك عالياً جداً يا باولي؟» «لا، على الإطلاق، فقط في أول الأمر، وبعد ذلك سار كل شيء في دعة وسلام. هو نفسه اعترف: يجب قول هذا له. ليس بشخص رديء، لكن يجب أن يقال له هذا».

ويرتعش بشدة بينما هو يأكل. الزوجة تبكي في الغرفة المجاورة، ثم يشربان القهوة معاً عند الموقد.

«قهوة بن، يا باولي» يتشمم من فوق فنجانها: «المرء يشمها».

غداً إلى القبر البارد، لا، سنعرف كيف نتمالك أنفسنا

اختفى فرانس بييركوبف. لينا تذهب إلى غرفته عصر اليوم الذي استلم فيه الرسالة. تريد أن تترك له خفية صدرية صوفية بنية اللون هي

عملتها. أجلس الرجل أمامك في البيت بينما يذهب في غير هذا الوقت لبيع، وبالخصوص الآن بمناسبة عيد الميلاد، يقعد على سرير، ويسحب الطاولة، ويعمل بطريقة خرقاء على منبهه الذي فككه. وتفزع أول الأمر أنه هو هنا وربما رأى الصدرية، لكنه لم يرسل النظر إلى حيث هي، ولم ينظر إلا إلى الطاولة وساعته. إنها تستحسن هذا، وتستطيع أن تثبت الصدرية أيضاً على الباب. ثم إنه لا يكثر من الكلام، ماذا به، هذا يعاني خماراً، أية أسارير ارتسمت على وجهه، وبذلك لا أعرف هذا أبداً، ويعمل بغير إتقان على المنبه العتيق، ويعمل هذا وهو مخمور. «كان المنبه سليماً يا فرانس» «لا، لا، لم يكن سليماً، لا تكلفي نفسك، إنه يوش دائماً، ولا يرن رنيناً سليماً، سأكتشف الأمر.» ويعمل بغير إتقان ويتركه ملقى من جديد ويجربش على أسنانه؛ لكنه لا ينظر إليها. وإذا بها تنسل خفية، إنها متخوفة وقلقة بعض الشيء، عليه أن يشبع من النوم. وحين تعود في المساء تجد الرجل قد رحل. لقد دفع وحزم متاعه وأخذ كل شيء معه وراح. صاحبة البيت تعرف فقط أنه دفع، وأن عليها أن تكتب على استمارة التسجيل: مسافر. هل ينبغي له أن يتوارى عن الأنظار، هذا، ماذا؟

ثم استمر الأمر ٢٤ ساعة رهيبة إلى أن عثرت لينا في النهاية على غوتليب ميك الذي يقدر على المساعدة. والرجل كان قد غير السكن أيضاً، فكانت تجري عصر اليوم كله من حانة إلى حانة، وأخيراً وجدته، إنه لا يعرف شيئاً، ما بال فرانس، أي شيء سيحدث له، هذا الرجل ذو عضلات، وشاطر هو أيضاً، ويمكن أن يشرد من العقل والقلب أيضاً. ترى هل أكل شيئاً ما؟ هذا غير وارد عند فرانس. ربما تشاجرا، لينا وفرانس. لا على الإطلاق، وأين. ها قد جئته بالصدرية. ولا يذهب ميك إلى صاحبة البيت إلا في ظهر اليوم التالي، وما ونيت

لينا ولم تستسلم. أجل، انتقل فرانس على جناح السرعة، وكان هناك شيء غير طبيعي، كان الرجل دائماً صاحب طرب ومزاج، حتى في الصباح، لا بد أن يكون في الأمر شيء، إنها تصرّ على ذلك، حتى إنه لم يترك شعرة خيط من أغراضه، تعالوا انظروا. عندئذ قال ميك لينا، على لينا أن يطمئن قلبها، وهو سيبحث الموضوع. ويعمل ذهنه، وفي الحال كان عنده أنف بصفته تاجر قديم ويذهب إلى لودرز. ويجلس هذا في بيته مع أولاد عفاريت: وأين فرانس؟ أجل، تقصد هذا متعنت، تخلى هذا عنه، لا بل إنه ما زال مديناً له بشيء ما، نسي فرانس أن يحاسبه. ميك لا يصدق هذا على الإطلاق، ويطول حديثهما أكثر من ساعة، وليس في الإمكان استدراج هذا الرجل للروح بما عنده. وفي المساء يضبطانه من بعد ذلك، ميك ولينا، في الحانة عنده هناك. وهنا انتهى الأمر بسلام.

تبكي لينا وتبدي شيئاً ما. يجب ويجب أن يعرف أين هو فرانس، فقد كانا معاً قبل الظهر، لا بد أن يكون فرانس قال شيئاً ما، كلمة واحدة. «لا، لم يقل كلمة واحدة»: لا بد أن يكون حدث له شيء ما».

«ألهذا يحدث شيء ما؟ فهو أدهى من الأرنب، أجل» لا، لم يأكل شيئاً، لينا تصرّ على ذلك، لم يفعل شيئاً، إنها تذود عنه، يجب الذهاب إلى الشرطة والسؤال «أنت تقصدين أنه ضلّ سبيله وعلى الشرطة أن تنفخه» ويضحك لودرز. ولولة هذه المخلوقة الصغيرة البدينة. «ما العمل؟ ما حيلتنا؟» وطفح الكيل عند ميك الذي جلس هنا طوال الوقت مجرد جلوس وفكر بنصيبه من التفكير، فلم يعد يحتمل، فأعطى لودرز إشارة بالرأس. يجب أن ينفرد بالحديث مع لودرز في الخارج، ولا فائدة لهذا كله. وعلى هذا يخرج لودرز. ويسيران في حديث قوامه المراءة صعوداً في شارع راملر حتى شارع جرينتس.

وهناك وحيثما كانت الظلمة حالكة كان ميك من حيث لا يدري متمكناً من لودرز القصير. فقد ضربه ضرباً مبرحاً. وحين كان لودرز ينعر وكان مطروحاً على الأرض أخذ ميك منديل الجيب من السترة ودسه في فمه. ثم جعله ينهض واقفاً وأراه سكينه المفتوحة. كان كلاهما بلا نفس. ثم إنَّ ميك الذي لم يكن بعد في وعيه فقد نصح الآخر بأن ينسل خلسة، وأن يبحث غداً عن فرانس. «كيف تعثر عليه، يا ابن الكلب، هذا لا يهمني. إن لم تجده اجتمعنا ثلاثتنا. وسنجدك يا ولد. ولو كان هذا عند زوجتك».

في مساء اليوم التالي وبناء على إشارة من ميك خرج لودرز القصير من الحانة ممتع اللون وفي هدوء، وذهبا إلى صالة المطعم. استغرق وقتاً إلى أن أشعل لهما صاحب الحانة الغاز. ثم وقفا هناك.

سأل ميك: «إذن، كنت أنت وراء ذلك؟» وأوماً هذا بالإيجاب. «أرأيت. إذن وماذا بعد؟» «لا يوجد بعد» ماذا قال، وكيف يمكنك أن تثبت أنك كنت هناك» «هل تظن أن هذا كان يجب أن يحفر لي في الرأس ثقباً مثلك. لا، كنت مستعداً لذلك» «إذن، وماذا بعد؟».

اقترب لودرز بهدوء: «انتبه يا ميك واسمع. إذا ما أنصت أنت إليّ: أريد أن أقول لك إذا كان فرانس صديقك، فبسبب هذا ما كان هناك ما يدعو إلى الكلام معي بهذه الطريقة. كان يوشك أن يقع قتل. على حين لم يكن بيننا أي شيء. ليس بسبب هذا».

حدّق ميك بهذا، سيصفعه الآن صفعه أخرى، عندها يستطيعان الدخول، بقدر ما يريدان» لا، إنَّ هذا لمجنون! ألم تلاحظ يا ميك؟ عنده شيء ما هنا في عقله» «لا، كفّ عن ذلك. هذا صديقي، يا أنت، اتق الله، ساقاي تترنحان» ثم يحكي لودرز، ميك يجلس.

كان قد قابل فرانس بين الخامسة والسادسة؛ كان يسكن بالقرب من بيته القديم، بعده بثلاثة بيوت، وقد رآه الناس يدخل ومعه علبة الكارتون وبعض الأحذية في اليد، عندها آووه فعلاً في حجرة فوق في المبنى الأفقي في إحدى الحجرات. وعندما يدقّ لودرز الباب ويدخل يكون فرانس مستلقياً على السرير، وقد دلى القدمين لابساً فردتي الحذاء. لودرز وقد عرف هو هذا، فوق يضيء مصباح كهربائي، وهذا هو لودرز، ها قد جاء هذا الصعلوك الأفاق، لكن ما به. كان مع لودرز سكين مفتوحة في الجيب الأيسر حيث كانت يده. وفي اليد الأخرى كانت معه نقود. بضعة ماركات، يضع هو هذه على الطاولة، يتكلم كثيراً إلى حدّ ما، يدور هنا وهناك، وعنده صوت مبسوح ويرى التورمات في رأسه التي سببها له ميك بالضرب، وأذنيه المتورمتين وكان على وشك أن يولول من الغيظ والغضب.

اعتدل بيبركوبف في جلسته، وجهه أحياناً قاسي، وأحياناً ترتعش حزيبات صغيرة في وجهه. ويشير إلى الباب ويقول بصوت خفيض: «اخرج!» حطّ لودرز ماركاته المعدودات وفكّر بميك، وأنّ هؤلاء يتربصون له ويطلب قصاصة ورق أنه كان موجوداً أو ما إذا كان يمكن أن يجيء ميك نفسه أو لينا. عندئذ ينهض بيبركوبف واقفاً، وفي لحظة ينزلق لودرز إلى الباب ويضع يده على الأكرة. أما بيبركوبف فينحرف إلى الخلف صوب حامل الغسيل، يتناول حوض الغسيل و - ماذا تقول - يسكب الماء دفعة واحدة عبر الحجرة أمام قدمي لودرز. من تراب جئت، وإلى تراب تصير. لودرز يفتح عينيه، يتراجع جانباً، يضغط على الأكرة. بيبركوبف يتناول إبريق الغسيل، كان لا يزال فيه مزيد من الماء، ما زال لدينا الكثير، إننا نصفّي الأمور، من التراب جئت. يصب

الماء صوب الذي عند الباب ويتناثر على عنقه ووجهه، ماء بارد برودة الثلج. لودرز يفلت خارجاً، لقد راح، الباب ينغلق.

في غرفة الضيوف همس في خبث: «إن هذا لمجنون، ها أنت ترى، أنت السبب، أنت المعلوم» سأل ميك: «ماذا كان الرقم؟ وعند من؟».

بعد ذلك ألقى بييركوبف الحمولة تلو الحمولة في الحجرة. رش بيده عبر الهواء: يجب تنظيف كل شيء، يجب إزالة كل شيء؛ والآن فتح النوافذ أيضاً والنفخ. لا شأن لنا بذلك. [لا انهيار بيوت، لا انزلاق أسطح، صار هذا وراءنا، وراءنا إلى الأبد] حدّق في الأرض كيف صار برد على النافذة. فإذا كان لا بدّ من المسح سيسقط هذا على رأس هؤلاء تحت ويحدث بقعاً. أغلق النافذة واستلقى استلقاءً أفقياً على السرير. [ميت. من التراب جئت، وإلى تراب ستصير ثانية].

باليدين طرق، طرق، طرق، بالقدمين خبط، خبط، خبط.

في المساء لم يعد بييركوبف هذا يسكن في الحجرة. إلى أين انتقل، هذا ما لم يستطع ميك أن يتبينه. اصطحب لودرز الصغير الذي كان مصمماً عن سوء نية أن يذهب إلى خاتته إلى تجار المواشي. كان على هؤلاء أن يستجوبوا لودرز عما كان سيصير وعن موضوع الرسالة التي استلمها صاحب الحانة.

بقي لودرز قاسي القلب. وبدا خبيثاً مخادعاً جداً بحيث إنهما تركا الشيطان التعيس يوّلي الأدبار. ميك نفسه قال: «ذا نفسه تمّ شتمه وتقريعه» ميك فكّر ملياً: فرانس هذا، إما أن تكون لينا خاتته، وإما أنه اغتاز من لودرز أو شيء آخر. قال تجار المواشي: «لودرز أفاق، ما رواه ليس فيه كلمة صدق واحدة. ربما كان مجنوناً أيضاً، بييركوبف هذا. خواطر كانت له آنذاك

بخصوص الوثيقة المهنية وحتى البضاعة لم تكن عنده بعد. شيء من هذا القبيل يصدر بعد ذلك دفعة واحدة مع الغضب» بقي ميك على رأيه: «قد يضرب هذا المرارة، لكن لا الرأس. الرأس مستثنى كلياً. فهذا أيضاً رجل قوي الجسم، عامل يؤدي عملاً شاقاً، كان عامل نقل موبيليا من الدرجة الأولى، معازف وما إلى ذلك، وعند هذا بالذات لا تنزل الضربة على الرأس» «عند هذا بالذات تنزل الضربة على الرأس. فهذا حساس. في هذه الحال يشتغل الرأس قليلاً جداً، وإن اشتغل فالصبر لا يلبث أن ينفد» «حسن، وكيف هي الحال عندهم أنتم تجار المشية وفي قضاياكم؟ أنتم كلكم في صحة وعافية» «إن لتاجر المشية سحايا سميكة. ما هذا. فلو أنهم نوا أن يبدؤوا يغضبون لكان من الممكن أن يكونوا كلهم في مستشفى المجاذيب هيرتسيرجي. نحن لا نغضب على الإطلاق. نطلب البضاعة ونتخلى عن شخص أو نمتنع عن الدفع، وهذا يحدث لأمثالنا كل الأيام. فالناس ليس عندهم مال» «أو أنه ليس عندهم سيولة في لحظتها» «هذا أيضاً».

نظر أحد تجار المواشي إلى صدرته المتسخة: «الحق أي أشرب القهوة في البيت من صحن الفنجان، أطيّب طعاماً، إلا أنها تلوث الثياب. «عليك أن تلبس مريلة أطفال» «لكي تضحك زوجتي. لا، اليدان ترتعشان، انظر».

ميك ولينا لا يعثران على فرانس بيبركوبف. يعدوان عبر نصف مدينة برلين، ولا يجدان هذا المخلوق.



الهيئة العامة السنورية للكتاب

الكتاب الرابع

الحق أنّ فرانس بيبركوبف لم تنزل به مصيبة. وسيكون القارئ العادي مندهشاً وسيسأل: أيّ ضرر كان في ذلك؟ لكن فرانس بيبركوبف ليس قارئاً عادياً. فهو يلاحظ أنّ مبدأه بقدر ما هو بسيط لا بدّ أن يكون فيه عيب في مكان ما. لكنه لا يعرف أين، أما أنّ الحال هي على هذا النحو فإنّ هذا ليغرقه في أشدّ الهموم والأحزان.

ستجدون الرجل هنا يشرب ويكاد يستسلم للهزيمة. على أنّ الحال ليست بمثل هذه الشدة، فرانس بيبركوبف تمّ الاحتفاظ به لأمر أشدّ وبالأحرى.

حفنة من البشر حول أليكس

في ميدان ألكسندر يحفرون الدام (جسر السكة الحديدية) من أجل المترو. ويمشي الناس على ألواح خشبية. وتسير الحافلات الكهربائية فوق الساحة صعوداً إلى شارع ألكسندر عبر شارع مونتس صوب بوابة روزيتال. شوارع ذات اليمين وذات الشمال. وفي الشوارع يتصب بيت لصق بيت. وتلك مليئة بالبشر من القبو إلى العلية. وتحت توجد الخوانيت.

خمرات ومطاعم ودكاكين فاكهة وخضار ودكاكين بقالة ومحلات المشهيات، مؤسسة النقل، وزخرفة النقوش وصنع حلويات خاصة بالنساء، دقيق ومنتجات مطاحن، كراجات سيارات وجمعية ضد الحريق: مزية مطفأة المحرك الصغير هي تصميم بسيط، استخدام سهل، وزن ضئيل، حجم بسيط. -

يا أبناء الوطن الألمان، ما من أمة خدعت على نحو أشنع وأظلم من الشعب الألماني. أما زلتم تعرفون كيف وعد شايديمان في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩١٨ من درابزين نافذة الرايخستاج (مجلس نواب الرايخ) بالسلام والحرية والخبز؟ وما عسى أن يقال في هذا الوعد! - سلع المجاري، شركة تنظيف النوافذ، النوم والدواء، سرير اللجنة لشتاينر. - حانوت بيع الكتب، مكتبة الإنسان الحديث، مؤلفاتنا الكاملة لفظاحل الشعراء والمفكرين تتجمع معاً في مكتبة الإنسان الحديث. إنهم الممثلون الكبار للحياة الفكرية الأوروبية. - قانون حماية المستأجر هو جذاذات من ورق. والإيجارات ترتفع بصورة دائمة. والطبقة الوسطى الحرفية الصناعية سيجلسونها على بلاط الشارع ويخنقونها بهذه الطريقة، ومحضر المحكمة لديه غلة وفيرة. ونحن نطلب قروضاً رسمية حتى ١٥٠٠٠ ماركاً لصناعات صغيرة، منع فوري وعدم جواز لكل الحجوزات عند أرباب المهن الصغار. - لمواجهة الساعة العصبية، ساعة الشدة، بكامل الاستعداد، فهذه رغبة كل امرأة وواجبها. فكل تفكير وإحساس أم حامل يدور حول الذي لم يولد. في هذه الحال يكون اختيار الشراب المناسب له أهمية خاصة للأم الحامل. وبيرة الكرامله - إنغلهارت الأصلية تتمتع بخصائص طيب المذاق لا يكاد يتمتع بها مشروب آخر، مثل لذة الطعم والقوة الغذائية والفائدة والتأثير المنشط. - اكفل طفلك وعائلتك من خلال عقد تأمين على الحياة لشركة تأمين سويسرية، مؤسسة المعاشات زيورخ. - قلبكم يضحك! قلبكم يضحك سروراً حين يكون عندكم منزل مفروش بأثاث هوفر المشهور. إن كل ما تحلمون به من أسباب الراحة السكنية الممتعة يتجاوزه واقع لا عهد لكم به. وإن تولى السنون يبقى هذا المشهد مشهد إعجاب، فمتانتها وطبيعتها صلاحيتها للاستعمال العملي تجددان السرور على الدوام. -

شركات حراسة المنازل والمحلات تحمي كل شيء، فهي تدور حول ذلك وتمرّ، ترسل النظر إلى الداخل وتضع ساعات وجهاز إنذار ودوريات حراسة لبرلين الكبرى وقسم الحراسة السابق وفي الخارج، خدمة طوارئ ألمانيا، دوريات حراسة برلين الكبرى وقسم الحراسة السابق التابع لجمعيات أصحاب المطاعم لملايين برلينيين، مؤسسة موحّدة، مركز حراسة الغرب، جمعية حراسة جمعية شرلوك، مؤلفات شرلوك هولمز الكاملة لكونان دويل، جمعية حراسة لبرلين والأماكن المجاورة، الرجل الشمعي مريباً، رجل الكتان مريباً، مغسلة، إعاره ملابس أبول، مغسلة أدلر تتولى كلّ الثياب الداخلية والمناشف، خاصة ثياب داخلية رجالية نسائية ممتازة.

لكن فوق الدكاكين وخلف الدكاكين مساكن، في الخلف تأتي أيضاً أفنية وملحقات وأبنية أفقية ومنازل خلفية وأكشاك حديقة. شارع خطّي، ذاك هو المنزل الذي انجحر فيه فرانس بيبركوبف بعد الورطة مع لودرز.

في صدر المكان محلّ أحذية جميل، له أربع واجهات لامعة، وتخدم ست فتيات، هذا يعني أنّ هناك ما يستوجب الخدمة، فلكلّ شخص ٨٠ ماركاً في الشهر، وحين يرتقي المحل ويشبن هنّ يحصلن على ١٠٠ مارك. محلّ الأحذية الجميل الضخم هذا تملكه امرأة تزوجت مدير أعمالها، ومنذ ذلك الحين تنام هي في الخلف، وصحتها ليست بجيدة. إنه رجل طيب، وقد زاد كفاية المحل وسمعته، ولما يبلغ هو الأربعين وتلك هي المصيبة، وحين يأتي إلى البيت متأخراً تستلقي الزوجة المسنة صاحبة يقظي ولا تستطيع أن تخلد إلى النوم من الغضب والانزعاج. - في الطابق الأول السيد المحامي. هل الأرنب البري في دوقية ساكسونيا- ألتينبورغ يدخل في عداد الحيوانات التي يسمح بصيدها؟ محامي

الدفاع يعارض بغير حق فرض المحكمة الإقليمية أن الأرنب البري في دوقية ساكسونيا-التينبورغ يجب أن يدخل في عداد الحيوانات التي صيدها مسموح به. أية حيوانات صيدها مسموح به وأية حيوانات تخضع للصيد الحر، فهذا تطوّر في ألمانيا في مختلف الولايات تطوراً شديداً الاختلاف. وفي نقص أحكام تشريعية خاصة يتحكّم العرف في ذلك. وفي مشروع قانون شرطة الصيد تاريخ ١٩٥٤/٤/٢٤ لم يرد بعد ذكر الأرنب البري ضمن الحيوانات الأخرى. - في المساء في الساعة السادسة تبدأ خادمة العمل في المكتب وتكنس وتمسح مشمّع الأرضية في غرفة الانتظار. ولم تصل الحال بعد عند السيد المحامي إلى مكينة كهربائية، تقتير قديم لم يتزوج عنده حتى الرجل نفسه والسيدة تسيسكي، ما ترمي وصيفة نفسها به، هذا ما ينبغي أن تعرفه. الخادمة تدعك وتنظف تنظيفاً شديداً، فهي نحيفة جداً، لكنها مرنة، ومن أجل ولديها تكدّ وتكدح. وأهمية الشحوم للغذاء، فالشحم يكسو التواءات العظمية، ويحمي النسيج الكامن تحتها من الضغط والصدمة، والنحفاء إلى حدّ بعيد يشكون لهذا السبب من الإيلام من باطن القدم عند المشي. أما هذا فلا ينطبق على هذه الخادمة.

إلى مكتبه يجلس في الساعة السابعة مساء السيد المحامي لوفينهوند ويعمل أمام مصباحي مائدة مضامين. والهاتف لا يعمل عن طريق المصادفة. في القضية الجنائية جروس أ ٨ ٧٨٠-٢٧ قدّمت أنا طياً وكالة على اسمي للسيدة جروس المتهمة. استأذن بمنحي الإذن العام بالكلام. - إلى السيدة أويغيني جروس، برلين. السيدة المحترمة جروس، كان في نيتي منذ زمن طويل أن أزورك مرة أخرى. وبسبب ضغط العمل والوعكة الصحية كان هذا بالنسبة إليّ محالاً. ومهما يكن فإنّي لأمل أن أتمكن من زيارتك يوم الأربعاء القادم، وأرجوك أن تتحلّي بالصبر حتى ذلك الحين. مع فائق الاحترام.

رسائل، حوالات مالية وعناوين طرود يجب أن يوضع عليه العنوان الشخصي مرفقاً به رقم السجين. ويجب ذكر برلين شمال غرب ٥٢، موبيت ١٢ أ.

- إلى السيد تولمان. بشأن ابتك يجب أن أطلب أتعاباً أخرى، وذلك ٢٠٠ ماركاً. وأترك الدفع على أقساط. ثانياً إعادة تقديم. - السيد المحامي المحترم، بما أني أودّ أن أزور ابنتي البائسة في موبيت، إلّا أنني لا أعرف إلى من ينبغي أن ألتجأ فإنني أتوسل إليكم أن تحسبوا حسابكم متى أستطيع أن آتي إلى هناك. وفي الوقت نفسه تقديم طلب أنني أستطيع أن أرسل لها نفسها طرداً كل ١٤ يوماً. أنتظر خبراً في غير إرجاء ولا إبطاء، وكم أودّ أن يكون هذا في نهاية هذا الأسبوع أو في مطلع الأسبوع القادم. السيدة تولمان [أم أويغيني جروس]. - ينهض المحامي لوفينهوند واللفافة الغليظة في فمه وينظر من خلال فتحة الستارة إلى الشارع الخطي المضاء ويفكر، هل ينبغي لي أن أتصل بها هاتفياً أم لا. أمراض جنسية هي السبب في المصيبة، المحكمة الإقليمية العليا فرنكفورت ١، ج ٥. قد يكون للمرء رأي أقل صرامة في إباحة الاتصال الجنسي لدى رجال غير متزوجين، وعليه أن يعترف أنّ هناك ذنباً في علاقة شرعية بأنّ الاتصال الجنسي غير الشرعي (الزنا)، كما يقول شتاوب، هو شطط وشدوذ مرتبط بأخطار، وأنّ هذه الأخطار يجب أن يتحملها ذلك الذي يستطيع القيام بهذا الشطط والشدوذ. كما يرى أيضاً بلانك بمفهوم هذا الحكم مرضاً سببه عدم تبصّر جسيم. - يرفع الساعة، من فضلك دائرة نويكوان، الرقم هو الآن بيرفالد.

طابق ثانٍ: القيم وزوجان بدينان، الأخ مع زوجته، الأخت مع زوجها وعندها ابنة مريضة أيضاً.

طابق ثالث رجل في الرابعة والستين، رئيس عمال موبيليا له صلعة. ابنته امرأة مطلقة تعنى ببيتها. يقطع هذا كل صباح نازلاً السَّلم، قلبه ضعيف، وعمها قريب سيعطى إجازة مرضية [تصلب تاجي، حؤول عضلة قلب]. وكان فيما مضى يجذّف، فماذا يستطيع اليوم؟ في المساء قراءة الصحف وإشعال غليونه، وبطبيعة الحال فإنّ الابنة يجب أن تضرب في أثناء ذلك كفاً بكف على الدهليز. الزوجة غير موجودة، فقد ماتت في الخامسة والأربعين، كانت نشيطة وسريعة الغضب، وما شبت قطّ، وأنت تعرف، صحتها تدهورت ذات يوم، لكنها لم تقل شيئاً، وفي السنة التالية ربما كانت ستمرّ في سن اليأس، عندئذٍ تذهب إلى امرأة كهذه ومن ثمّ إلى المستشفى ولم تخرج منه ثانية.

وفي الجوار خرّاط، في نحو الثلاثين من العمر، عنده صبي صغير وحجرة ومطبخ، الزوجة ماتت أيضاً، بمرض السل، وهو يسعل أيضاً، الصبي في النهار في دار الحضانة وفي المساء يأتي به الرجل. وإذا ما ذهب الطفل إلى النوم يعدّ الرجل لنفسه شايه الطبيعي ويعمل هوايته على الراديو إلى ساعة متأخرة من الليل، وهو الرئيس في النادي اللاسلكي، ولا يستطيع أن يخلد إلى النوم إن لم تصبح الدارة جاهزة.

ثم نادلٌ مع زوجة، حجرة ومطبخ، أحسن تأثيثهما، مصباح غازي مع شراشيب زجاجية. النادل موجود قبل الظهر حتى الساعة الثانية في البيت، ينام طوال الوقت ويعزف قيثارة، في الوقت نفسه، حين ينطلق المحامي لوفينهوند في المحكمة الإقليمية ١-٢-٣ لابساً الثوب الرسمي، في الدهاليز، من غرفة محامين إلى غرفة محامين، إلى صالة القضاء، إننا نستعمل، أنا أتقدم بطلب ضد المدعى عليه، حكم غيابي. عروس النادل هي مراقبة في مستودع. تقول هي. هذا النادل،

وما إن تزوّج، حتى صارت زوجته تخونه بشكل رهيب، لكنها استطاعت أن تواسيه المرة تلو المرة إلى أن هجر البيت. كان له وجوده بصفة من كان يستأجر سريراً للنوم، وكان يجري إلى الزوجة المرة تلو المرة، وأخيراً اعترف في القضية أنه مذنب، لأنه لم يستطع أيّ شيء وهجر زوجته بطريقة خبيثة. ثم تعرّف في هويغارتن المرأة الحالية بينما كانت هي تتصيد الرجال. هذا النوع من النساء هو بطبيعة الحال مثل الزوجة الأولى، إلا أنه أدهى بقليل. هذا لا يشعر بشيء حين تسافر زوجته كل بضعة أيام من أجل شغلها. ومنذ متى تسافر أمينة مستودع. وليكن، إنه منصب يستوجب الثقة. أما الآن فهو يجلس على الأريكة، وقد لفّ رأسه بمنديل وبيكي، وعليها أن تقوم على خدمته. لقد انزلق في الشارع طويلاً ولازم الفراش. يقول هو. فالرجل قال له أحدهم شيئاً ما بعنف. هي لا تذهب إلى العمل المزعوم. ترى هل لاحظ هو شيئاً ما، كان سيكون خسارة، إنما هو في الحقيقة مغفل لطيف. وهذا سنقوم ما اعوجّ عنده من شؤون.

فوق في الأعلى تاجر مصارين، حيث تأتي رائحة كريهة بطبيعة الحال وحيث يكثر صخب الأطفال وضجيجهم وتوجد المشروبات. وفي الجوار أخيراً مساعد خباز مع زوجته، العاملة في مطبعة تقوم بتلقيم الطباعة بالورق، وتعاني التهاب مبيض. أيّ شيء جناه كلاهما من الحياة؟ طيب أولاً أحدهما يوم الأحد الآخر ومن ثمّ يوم الأحد الأخير عرض مسرحي وفيلم سينمائي، وتارة اجتماع النادي هذا وتارة ذلك الاجتماع وزيارة الوالدين. وما من شيء آخر؟ حاذر، أيها السيد، لا تدسّ على بزة السهرة الرسمية! يضاف إلى هذا أيضاً طقس جميل وطقس رديء، جولة في الريف، والوقوف عند المدفأة، والإفطار، ولا شيء آخر. ما بك أيها السيد النقيب، أيها السيد العميد، أيها السيد الجوكي، فارس السباق؟ لا تخادعوا أنفسكم.

بيركوبف في غيبوبة المخدر، فرانس ينزوي، فرانس لا يريد
أن يرى شيئاً

فرانس بيركوبف، احترس، أيّ شيء سيتمخض عن الانغماس في
الشهوات. دائماً الارتقاء في الحجرة، ولا شيء إلا الشرب وشروذ الدهن
والحلم وأنت يقظان!.

من يهّمه هذا الشيء الذي أقوم به. حين أريد أن أحلم وأنا يقظان فيني
أحلم وأنا يقظان إلى ما بعد غدٍ في الموضوع الواحد - ويقضم أظافره ويتنهد
ويقلب الرأس على الوسادة المعروقة وينفخ عبر الأنف. - أنا أستلقي على
هذا النحو إلى ما بعد غدٍ إذا ما راقني ذلك. المهم أنّ المرأة تشعل المدفأة. هذه
كسولة ولا تفكر إلا بنفسها.

يستدير رأسه مبتعداً عن الحائط، وعلى الأرضية يوجد مهروس البطاطا،
نقرة ماء. تقيؤ. يجب أن أكون أنا من فعل ذلك. يا للأشياء التي يحملها
الإنسان في معدته. يا لطيف. خيوط عنكبوت في الزاوية الرمادية، تلك لا
تستطيع أن تصطاد أية فئران. أودّ أن أشرب ماءً. لا أحد يهّمه هذا بشيء.
والسلسلة الظهرية تؤلمني أيضاً. تفضلي بالدخول يا سيدة شميدت بين خيوط
العنكبوت فوق [ثوب أسود، أسنان طويلة] هذه ساحرة [تأتي من السقف].
يا لطيف، أبله غبي قال لي لماذا أمكث أنا في البيت. أولاً أقول أنا. أنت يا أبله،
ما الذي يدفعك إلى سؤال، ثانياً إذا ما مكثت أنا من ٨-١٢ هنا. ومن ثم في
الغرفة التنتة الخانقة. هو يقول إنه كان يمزح. لا يا هذا، ليس هذا بمزاح. كما أنّ
تاجراً قال أيضاً، فيلجأ من ثم إلى هذا. وقد أنهج أنا هذا النهج بحيث إني
أراجع في شباط، في شباط أو في آذار، آذار مناسب.

- هل فقدت قلبك في الطبيعة؟ أنا لم أفقد قلبي هناك. صحيح أنه خيّل إليّ وكأنّ روح العقل الأول أراد أن يجتريني معه حين وقفت أمام عملاق الألب أو تمددت على شاطئ البحر الهادر. هناك كان في جسدي أيضاً غليان وموجان. كان قلبي تضعضع وتزعزع، على أنني لم أفقده هناك حيث يعيش النسر ولا حيث ينقب عامل المنجم في أعماق عروق المعادن. - أين إذن؟

- هل فقدت قلبك في الرياضة؟ في تيار حركة الشبيبة الهادر؟ في خضم الصراع السياسي؟

- لم أفقده هناك.

- ألم تفقده في أي مكان؟

هل أنت ممن لم يفقدوا قلبهم في أي مكان، بل احتفظوا به لأنفسهم وحافظوا عليه جيداً وحنطوه؟

الطريق إلى العالم ما فوق الطبيعة، محاضرات وأحاديث ثقافية عامة. عيد الموتى والترحم على الموتى: هل كل شيء إلى زوال بالموت؟ الاثنين، الأول من كانون الأول، الساعة الثامنة مساءً: أما زال في إمكان الناس أن يؤمنوا في يومنا هذا؟ الثلاثاء في الواحد والعشرين من كانون الأول: أفي إمكان الإنسان أن يتغير؟ الأربعاء، في الثالث والعشرين من كانون الأول: من هو العادل أمام الله؟ وبصورة خاصة ننبه إلى معالجة فنية الخطابة «بولوس».

يوم الأحد، الساعة الثامنة إلا ربعاً.

عمت مساء أيها السيد القسيس. إني أنا العامل فرانس بيبركوبف، عامل بصورة متقطعة. كنت فيما مضى ناقل موبيليا، وأنا الآن عاطل عن

العمل. الحق أني أردت أن أسألك شيئاً ما. أي شيء يجدي مع آلام المعدة. ويتقيأ المرء بمرارة. آه، الآن عاودني التقيؤ. ما أكرهه! المرارة الحبيثة. وهذا يأتي من الشرب الكثير. هل تسمح، أعذرني أنني أخاطبك هنا في الشارع أمام الرائح والغادي. إنه إعاقة خدمة. لكن أي شيء يجب أن أفعله حيال المرارة الحبيثة. وعلى إنسان مسيحي أن يساعد مسيحياً آخر. أنت إنسان طيب. لن أدخل الجنة. لماذا؟ أسأل فقط السيدة شميدت التي تأتي دائماً فوق من السقف. تأتي وتذهب، وعليّ أن انهض دائماً. لكن ليس لأحد من سلطان عليّ. لكن حين يكون هناك مجرمون سأكون أنا من يستطيع الكلام على ذلك. مخلص بشرف. عاهدنا كارل ليبكنيشت أن نفعل ومددنا اليد لروزا لوكسمبورغ. سأدخل الجنة حين أموت، وهم سينحنون أمامي ويقولون: هذا هو فرانس بيركوبف، مخلص بشرف، رجل ألماني، عامل بصورة متقطعة، مخلص بشرف، ويرفرف العلم عالياً أسود-أبيض-أحمر، إلا أنه احتفظ بهذا لنفسه، لم يصبح مجرماً مثل رجال آخرين أرادوا أن يكونوا الألمانين ويخدعوا أبناء وطنهم. لو كانت معي سكين لغرزتها في جسد هذا. أجل، سأفعل هذا. فرانس يتقلب في الفراش ويتخبط الآن جاء دورك لتذهب إلى القس يا ولد. يا ولد يا ولد! إن كان هذا يسرّك، إن كنت لا تزال تستطيع أن تنعب، أنت. بشرفي سأنفض يدي من هذا، أيها القس، هذا يناسبني كثيراً، بل إن الأوغاد الأندال ليس مكانهم الطبيعي هو السجن؛ كنت أنا في السجن، أعرف هذا من الصفحات التالية، مسألة ممتازة، بضاعة من الدرجة الأولى، ولا يمكن دحض هذا، ولا مكان لأي أوغاد أندال هنا، ولا سيما مثل ذلك الذي لا ينجل حتى أمام زوجته مما كان عليه أن يفعله، وكذلك أيضاً أمام العالم كله.

٢×٢ = ٤، هذا صحيح تماماً.

أنت ترى هنا رجلاً، عذراً على سير الخدمة، أنا أتألم وعندي مثل هذه الآلام. سأعرف كيف أنغلب على ذلك. كأس ماء، ياسيدة شميدت. هذه اللئيمة يجب أن تدس أنفها في كل مكان.

فرانس يتراجع، فرانس يعزف لليهود مارش الوداع بالبوق

فرانس بيبركوبف، قوي قوة أفعى الكوبرا، لكنه يترنح، فرانس بيبركوبف، قوي قوة أفعى الكوبرا، لكنه يترنح، نهض وذهب إلى شارع مونتنس إلى اليهود. لم يتوجه مباشرة إلى هناك، سار في طريق أطول. فالرجل يريد أن يقطع دابر كل شيء. يريد الرجل أن يصفي الأمور. ها نحن عدنا إلى السير، يا فرانس بيبركوبف. طقس جاف، بارد لكنه منعش، من ذا الذي يرغب في أن يقف الآن في ردهة البيت، وأن يكون تاجر شوارع ويجمد أصابع قدميه. وفيّ بشرف. من حسن الحظ أن يغادر المرء الحجرة ولا يسمع صياح النسوة الشديد. هنا فرانس بيبركوبف الذي ينزل إلى الشارع. الحانات كلها خالية. لماذا؟ النائمون ما زالوا نياماً. وأصحاب الحانات يمكنهم أن يشربوا بولهم وحدهم. بول الأسهم، لا رغبة بنا إلى ذلك. نحن نشرب العرق.

رفع فرانس بيبركوبف بهدوء جسده في المعطف العسكري الأخضر الغامق وسط الناس، نساء قصيرات اشترين عند العربدة خضراوات وجبنة وسمك الرنجة. ونادى منادٍ على البصل.

يعمل الناس ما يستطيعون عمله. لديهم أطفال في البيت، أفواه جائعة. افتح، أغلق، افتح، أغلق، افتح، أغلق، افتح، أغلق، افتح، أغلق، افتح، أغلق، افتح، أغلق.

أغذّ فرانس بيبركوف في السير، كان يخطب الأرض بقدميه خبطاً عند ناصية الشارع. أخيراً، هواء طلق. مرّ بهدوء أكثر بواجهات الحوانيت الكبيرة. كم يكلف حذاء شتوي؟ حذاء ملمّع، حذاء لحفلات الرقص، يجب أن يكون مرتّباً وعلى ما يرام، هكذا في القدم، ومثل هذه الصغيرة في حذاء لحفلات الرقص. ليزاريك المغتر بنفسه، من بوهيميا، الرجل المسنّ ذو فتحتي الأنف الكبيرتين في الخارج في تيجل، الذي ترك امرأته، أو ما بذل من جهد من أجل ذلك، تجلب له بضعة جرابات حريرية جديدة كلّ أسبوع، بضعة جرابات جديدة أو بضعة جرابات عتيقة. أمر مضحك. حتى لو أنه كان عليها أن تسرقها كان لا بدّ له من أن يحصل عليها. ذات مرة ضبطوه وهو يلبس الجوربين في ساقيه القدرتين، يا له من شخص غبي تافه، وينظر إلى ساقيه ويتحمس لذلك، الرجل، له أذنان حمراوان، أمر مضحك. أثاث بالتقسيط، أثاث مطبخ على اثني عشر قسطاً شهرياً.

بانسراح وارتياح تابع بيبركوف تجواله. لم يكن مضطراً إلا بين الحين والآخر إلى أن يتطلّع إلى الرصيف. وفحص خطواته وبلاط الشارع الثابت المتين الجميل. لكن بعد ذلك جرى بصره على واجهات البيوت وتفحص واجهات البيوت وتأكد من أنها واقفة ولم تتحرك رغم أنّ بيتاً من مثل هذه البيوت له نوافذ كثيرة ويمكنه أن يميل بسهولة إلى الأمام، ويمكن أن ينتقل هذا إلى السطوح ويجذب معه السطوح؛ ويمكن أن تتأرجح وتميد. ويمكنها أن تبدأ بالتأرجح والاهتزاز والارتجاج. ويمكن أن تنزلق السطوح، مثل الرمل بالميل إلى أسفل، مثل قبة من على الرأس. هي كلها، أجل كلها انتصبت مائلة فوق خشب السقف، على طول الصنف كله، لكنها مسمّرة بالمسامير وتحتها عوارض قوية،

ومن ثمّ ورق السقف المطلي بالقار، القار. ثابتة وأمينة هي الحراسة، الحراسة على الراين. صباح الخير، أيها السيد بيبركوبف، نحن نمشي هنا منتصبي القامة، الصدر بارز والظهر مشدود، يا عم، على طول شارع برونين. ليرحم الله الناس كلهم، نحن مواطنون ألمانيون، كما قال مدير السجن.

أحدهم يلبس قبعة جلدية، وجهه شاحب ذابل، حكّ بالإصبع الصغيرة دمثاً صغيراً في الذقن، وفي أثناء ذلك تدلّت شفته السفلى. شخص له ظهر كبير وقاعدة بنطال معلقة وقف مائلاً بجانبه، لقد سدّ الطريق. دار فرانس حولهما. والشخص ذو القبعة الجلدية أدخل إصبعه في إذنه اليمنى.

لاحظ في رضا وسرور أنّ الناس كلّهم كانوا يسيرون على طول الشارع في هدوء، سائقو المركبات كانوا ينزلون، أولو الأمر اهتموا بالبيوت، ويهدر نداء مثل هزيم الرعد، من بعد نستطيع نحن أيضاً أن نمشي هنا. عمود إعلانات عند ناصية الشارع، وعلى ورق أصفر كتب بحروف لاتينية سوداء: «هل عشت على الراين الجميل». «ملك قلب المهجوم». خمسة رجال وقفوا في حلقة على الإسفلت، كانوا يلوّحون بمطارق، وكانوا يشقّون الإسفلت، وهذا الذي يلبس السترة الصوفية الخضراء نعرفه، بالتأكيد، هذا عنده عمل، ونستطيع نحن أيضاً القيام بهذا، فيما بعد، شخص ما يمسك باليد اليمنى ويرفع، يشمّر عن ساعد الجذّ ثمّ يهوي بالضربة. هؤلاء هم نحن عمال هذه الأيام، البروليتاريا. إلى اليمين ارفع، إلى اليسار شمّر عن ساعد الجذ، اضرب. إلى اليمين ارفع، إلى اليسار شمّر عن ساعد الجذ، اضرب. انتبه موقع بناء، شركة إسفلت شتراواو.

مشى الهوينى في أرجاء المكان على طول الحافلة الكهربائية، احذروا القفز في أثناء السير! انتظروا! إلى أن تقف الحافلة. الشرطي ينظم حركة

المروء، ساعي يريد يريد الذهاب أيضاً بسرعة إلى الجهة الأخرى. إنني على عجلة من أمري، وما أريده هو الذهاب إلى اليهود. هؤلاء موجودون أيضاً فيما بعد. وسخ مثل هذا يعلق بالأحذية، على أنه لم يتم مسحها أيضاً فيما بعد. مثل هذا الوسخ يعلق بالأحذية، من ذا الذي سيمسحها، السيدة شميدت على سبيل المثال، فهذه لا تعمل شيئاً نسيج عنكبوت على السقف، تقيؤ حامض، ومصّ سبابته، وأدار الرأس صوب زجاج النافذة: مؤسسة كارجويل للفلكنة (لتقسية المطاط بالكبريت) موبيل أويل. العناية بالشعر المقصوص مثل الغلمان، موجة الماء فوق القاع الأزرق، بيكسافون، مستحضر قار محسّن. ترى هل كانت لنا البدينة ستقدر على مسح الأحذية؟ هنا كان قد سارع في خطاه.

المخادع لودرز، رسالة المرأة، سأطعنك بسكين في البطن. يا إلهي، يا رجل، دع هذا، ستمالك أنفسنا، يا حثالة القوم، نحن لا نتعدى على أحد بالضرب، كنا ذات مرة نزلاء سجن تيجل. إذن: صنع على المقاس، ملابس رجالية جاهزة، هذا في المقام الأول، وثانياً مصفّح بهيكل، لوازم سيارات، مهم أيضاً، سير سريع، لكن ليس سريعاً جداً.

ساق يمني، ساق يسرى، ساق يمني، ساق يسرى، رويداً، على مهلك، المزاحمة شيء لا وجود له يا آنسة. عندي أنا. شرطي في أثناء التجمّع. ما هذا؟ سرعة مع ضرب. كيكي، كيكي. الديكة تصيح. كان فرانس سعيداً، الوجوه كلّها بدت أكثر وسامة.

تعمّق في الشارع بسرور. هبّت ريح باردة، ممزوجة بحسب البيوت ببخار الأقبية الساخن والفاكهة وثمار الجنوب وبنزين. الإسفلت في الشتاء لا رائحة له.

عند اليهوديين جلس فرانس ساعة كاملة على الأريكة. تكلمًا، تكلم هو، تعجّب هو، وهما تعجبا طوال ساعة كاملة. ومما تعجّب هو بينما كان يجلس على الأريكة وكانا يتكلمان وكان هو يتكلم؟ جلس هو هنا وتكلم، وتكلمًا، وبصورة خاصة عجب هو من نفسه، لماذا عجب هو من نفسه؟ عرف هو ولاحظ هو نفسه، وأثبت هو الشيء مثل مسجّل اكتشف خطأً حسائياً. لقد أثبت شيئاً ما.

كان قد بتّ في الأمر؛ وعجب من القرار الذي وجدته في قرارة نفسه. ونصّ القرار بينما كان ينظر في وجهيهما، ابتسم، سأل، أجب: يا فرانس بيبركوبف، في إمكانهما أن يتكلمتا ما يشاءان، إنهما يلبسان رداءين رسميين، لكنهما ليسا بقسمين، إنه قفطان، وهما من غاليسيا، عند ليمبيرج يقولان هما أنفسهما، هما داهيتان شاطران، أما أنا فلا تنظلي عليّ حيلهما. بل أجلس هنا على الأريكة ولن أتعامل معهما. عملت ما أستطيع أن أعمله.

في المرة الأخيرة التي كان هو فيها هنا قد كان جلس هو مع هذا تحت على السجادة. هزّة، وينزلق المرء إلى تحت، أودّ أن أجرب هذا، لكن ليس اليوم. إنها أزمان منصرمة. مسمرين نجلس على أحرفنا الأربعة، وننظر إلى اليهوديين الثقيلين.

لم يعد في مقدور الإنسان أن يعطي، ليس الإنسان بألة. جاء في الوصية الحادية عشرة: لا تجعلهم يذهلونك. منزل جميل عند الأخوين، بسيط، مبتذل وخالٍ من كلّ فخامة وأبهة. بهذا لن يوضحا شيئاً لفرانس. يستطيع فرانس أن يضبط نفسه. وبذلك يكون الأمر قد انتهى. إلى النوم، إلى النوم، من عنده واحدة ومن ليس عنده واحدة، عليه أن يذهب إلى الفراش، إلى الفراش. لم يعد هناك عمل. لم يعد يعطي الإنسان. حين تكون المضخة مغروسة في الرمل

يمكنك العمل على الشيء كما تريد. فرانس يقبض معاشاً تقاعدياً بدون تقاعد. كيف تمّ هذا، فُكر هو بسوء طوية وتطلّع طويلاً إلى حافة الأريكة، معاش تقاعدي بدون تقاعد.

«حين يتمتع المرء مثلكم بمثل هذا العنف، إنسان بمثل هذه القوة، فعليه أن يشكر خالقه. ماذا يمكن أن يحدث له. أيجتاج إلى الشرب؟ أيفعل هو ذلك، أيفعل هو هذا، أيزهدب هو إلى السوق المسقوفة، أيقف أمام الحوانيت، أيقف عند محطة القطار: ما رأيكم أنتم، ما انتزعه مني حديثاً إنسان كهذا حين عدت من لانديسيرغ الأسبوع الماضي، غبت يوماً واحداً، ما رأيكم، هذا ينقص وزنه، احزر أنت، يا ناخوم، إنَّ إنساناً ضخماً ضخامة الباب، واحد مثل جوليات، فليحمني الله. خمسون بفينيكاً. يا الله، خمسون بفينيكاً. هل سمعتم، خمسون بفينيكاً. من أجل حقيقة صغيرة من هنا حتى ناصية الشارع. ما كان في نيتي أن أعتل، كان يوم السبت اليهودي. يأخذ مني الآدمي خمسين بفينيكاً. إذن، خمسون بفينيكاً. إلا أنني أنظر إليه. والآن، في وسعكم أنتم أيضاً- تعلمون، أنا أعرف شيئاً من أجلكم. أليس هناك عند فايتل، عند تاجر الحبوب، هيا قل، أنت تعرف فايتل» «فايتل لا، إخوته» «إذن، عنده حبوب. من هو أخوه؟» «أخو فايتل. قلت لك» «هل أعرف كل الناس في برلين؟» «أخو فايتل. رجل له دخل مثل...» وحرّك الرأس في إعجاب يائس. رفع الأحمر الذراع وغاص رأسه في جسده: «يا للشيء الذي تقوله. لكن من تشيرنوفيتش» كانا قد نسيا فرانس. أعمل كلاهما الذهن بغنى فايتل وثروته. دار الأحمر منفعلاً هنا وهناك، وأرسل حشرة من خلال الأنف، قرقر الآخر، وتدقق بهجة وابتسم وراءه ابتسامة صفراء وفرقع: «ما العمل».

«رائع ما تقوله» «ما يتمخض عن الأسرة هو ذهب. الذهب ليس كلمة. ذهب.» تجوّل الأحمر هنا وهنا وجلس مزعزماً إلى النافذة. ما كان يجري في الخارج ملاًه بالاحتقار، رجلاً كانا يغسلان في كمّي قميص سيارة، سيارة عتيقة. أحدهما تدلّت حمالتا بنطاله، جرّتا سطلين فيهما ماء، سال الماء في الفناء. بالنظرة المفكّرة الحاملة بالذهب نظر إلى فرانس: «وما رأيك في هذا؟» ماذا في وسعه أن يقول هذا، شخص مسكين، نصف مجنون، وأي شيء يفهمه صعلوك معدم عن ذهب فايتل من تشيرنوفيتش؛ فهو لا يترك هذا يسمح له الخداء. ردّ فرانس نظرتة. صباح الخير، أيها السيد القسيس، دائماً تظنّ الحافلات الكهربائية، لكننا نعرف ما دقته الأجراس، ما من إنسان يعطي أكثر مما يملك. لم يعد يعمل أحد، وحين يحترق الثلج كله لا نمديداً للعمل، نتجمّد.

الحية كانت قد حفت وخشخت من الشجرة. ملعونة أنت من جميع البهائم، على البطن تسعين زحفاً، وتراباً تأكلين طوال الحياة. ولتوضع عداوة بينك وبين المرأة. ولتلدي بالوجع يا حواء. ويا آدم، فلتكن الأرض ملعونة بسببك، ولينبت لك شوك وحسك فوقها، ولتأكل أنت عشب الحقل.

لم نعد نعمل، لا مغنم من ذلك، وحين يحترق الثلج لن نمديداً للعمل. كانت هذه العتلة الحديدية التي كان فرانس بييركوبف يمسكها بيديه وكان يجلس وهي معه وبعدها خرج من الباب. فمه نطق بشيء. متردداً كان قد تسلل، ومن سجن تيجل كان قد أفرج عنه قبل أشهر، وكان قد ركب الحافلة الكهربائية، وبسرعة على طول الشوارع، وعلى طول البيوت، السطوح انزلقت، وعند اليهوديين كان قد جلس. نهض، فلتابع السير، كنت أنا قد ذهبت آنذاك إلى ميناء، لندقق النظر في كل شيء وكيف كان الأمر.

راح. أمام بيت مينا تسكع، ماريا الصغيرة جلست على الحجر، على ساق واحدة، وحيدة. وماذا تهمني هذه. وشمشم حول البيت. وماذا تهمني هذه. فلتسعد هذه مع زوجها. كرنب مخلل مع لفت، هذا ما شردني، لو أنّ أمي طبخت لحمًا لكنت بقيت عندها. هنا لا تختلف رائحة القطط التنتة أيضاً عما هي في مكان آخر. يا بنية، هياّ تواري عن الأنظار مثل النفاق في الخزانة. سأقف هنا مضطرباً مشوشاً وأنظر إلى البيت. والسرية كلها تصيح كيكي كيكي.

كيكي كيكي. هكذا تكلم مينيلاوس. وعن غير قصد جعل قلب تيلياك حزيناً جداً بحيث إنّ الدموع انحدرت على وجنتيه وكان عليه أن يحكم الضغط على المعطف الأرجواني بكلتا يديه أمام العينين.

في أثناء ذلك خرجت الأميرة هيلينا من خدرها تمشي، أشبه بإلهة في الجمال.

كيكي كيكي. هناك أنواع كثيرة من الدجاج. لكن إذا ما سألني أحدهم بحقّ وحقيق أيّ منها أحبّ إليّ لأجبت بحرية وفي صراحة صريحة: الدجاج المشوي. ويدخل في رتبة الدجاجيات أيضاً التدرجيات، وفي حياة الحيوان لبريمز يدوّن: يتميز الفروج المستنقعي القزم عن الفروج المطمّش بغض النظر عن حجمه أن الجنسين كليهما يكتسيان في الربيع بثوب متشابه تقريباً. كما أنّ باحثين آسيويين يعرفون أيضاً أنّ المونيال أو المونال سمّاه العلماء الديك البري البراق (التدّرج البراق). ومن الصعب إعطاء وصف لبهاء ألوانه. نداؤه، صفير يطول رنينه، يسمعه المرء في الغابة في كل ساعات النهار، لكنّ هذا يكون أكثر ما يكون قبل طلوع الفجر وعند المساء.

على أنّ هذا كله يحدث على مسافات بعيدة جداً بين سيكام وبهوتان في الهند، إنه بالنسبة لبرلين حكمة مكتيبة أقرب إلى أن تكون عقيمة.

إذ إنَّ ما يحدث للإنسان يحدث للبهيمة أيضاً، فكما تنفق هذه يموت هو أيضاً

المسلخ في برلين. في شمال شرقي المدينة بين شارع إدين عبر شارع تاير مروراً بشارع لانديسبيرغ حتى شارع كوتينيوس على طول سكة حديد دائر الناحية تمتد البيوت وصلات المسلخ وإصطبلاته ومزرعة المواشي.

إنه يغطي مساحة قدرها ٤٧,٨٨ هكتاراً، ما يساوي ١٨٧,٥٠ مورغان، من غير الأبنية خلف شارع لانديسبيرغ ابتلع هذا ٢٧٠٨٣٤٩٢ ماركاً، كان نصيب مزرعة المواشي (البهائم) منها ٧ ملايين و٦٨٢٨٤٤ ماركاً ونصيب المسلخ ١٩ مليوناً و٤١٠٦٤٨ ماركاً.

مزرعة المواشي والمسلخ وسوق اللحوم الكبيرة تشكّل كلاً اقتصادياً لا يتجزأ. الجهاز الإداري هو اللجنة لمزرعة المواشي والمسلخ، يتألف من عضوين من إدارة البلدية عضو من دائرة المحافظة و١١ عضواً من أعضاء المجلس البلدي و٣ مندوبين عن السكان. وفي المؤسسة يعمل ٢٥٨ موظفاً، منهم أطباء بيطريون ومفتشون ومن يضع الدمغة ومساعدو أطباء بيطريين ومساعدو مفتشين وموظفون ثابتون وعمال. قانون المرور تاريخ الرابع من تشرين الأول سنة ١٩٠٠، قواعد عامة، تنظيم عرض البقر للبيع، توريد العلف. تعرفه الرسوم: رسوم السوق، رسوم التقاعس، رسوم الذبح ورسوم إزالة المعالف من سوق الخنازير المسقوفة.

على طول شارع إديناو تمتد الأسوار الرمادية بلون الوسخ، وفي أعلاها أسلاك شائكة. الأشجار في الخارج جرداء، إنه الشتاء. والأشجار أرسلت ماءها إلى الجذور وراحت تنتظر الربيع. عربات القضايين تسير بطريقة غير معقولة في

سرعة رشيقة، مجالات صفراء وحمراء، أفراس خفيفة في المقدمة. خلف إحدى العربات يجري حصان هزيل، ومن على الرصيف ينادي أحدهم من ورائه إميل، إنهم يساومون على الفرس، ٥٠ ماركاً وبيرة لكل واحد نحن الثمانية، الحصان يدور ويرتجف ويقضم على شجرة، يسحبه الحوذي، ٥٠ ماركاً وبيرة لكل واحد، يا أوتو، وإلا تحرك. الرجل تحت يصفق للفرس: اتفقنا.

أبنية إدارية صفراء، مسلّة لقتلى وشهداء الحرب. وعلى اليمين واليسار صالات ممتدة على طول ولها سقوف زجاجية، إنها الإصطبلات وقاعات الانتظار. وفي الخارج لوحات سوداء: ملكٌ لنادي الاهتمامات والمصالح التابع للمسالخ الكبيرة في برلين، نادٍ مسجل. لا يسمح بلصق الإعلانات على هذه اللوحة إلا بموافقة، رئيس مجلس الإدارة.

على الصالات الطويلة أبواب، فتحات سوداء من أجل سوق الحيوانات إلى الحظائر والإصطبلات، وعليها الأرقام ٢٦، ٢٧، ٢٨. صالة الأبقار، صالة الخنازير، أماكن الذبح: أطعمة الموت للحيوانات، سواطير تهتز، لن تخرج من عندي حياً. شوارع آمنة تتاخم، شارع شتراسمان، شارع ليبغ، بروسكاور، حدائق عامة يتنزّه فيها ناس. إنهم يسكنون جنباً إلى جنب، وحين يمرض أحدهم، ويكون عنده آلام في الحلق يأتي الطبيب مهرولاً.

أما على الجانب الآخر فتمتد قضبان سكة حديد دائر الناحية ١٥ كيلومتر. ومن الأرياف تصل الماشية، نماذج الجنس غنم وخنزير وبقر، من بروسيا الشرقية وبومرن وبراندينبورغ وبروسيا الغربية. ومن فوق رصيف شحن الماشية تسمى وتثغو وتجار. والخنزير تقبع وتنخر وتتشمم الأرض، ولا ترى أين الزمن يدور دورته، وسائقو المواشي ومعهم عصيهم يجرون وراءها. وفي الإصطبلات حيث

تضجع تستلقي بعضها بجانب بعضٍ بيضاء، مكتنزة، تشخر وتنام. فقد طال سوقها، ثم ترجرت في العربات، والآن لا شيء يهتز تحتها، إلا برودة البلاط، وتصحو وتلتصق بحيوانات أخرى. إنها تضجع وقد ركب بعضها فوق بعض. وها إن اثنين يتقاتلان، في الزريبة متسع، يتناطحان ويتلقف كل منهما الآخر في الرقبة والأذنين ويدوران، يخنق صوتهما، وأحياناً يهدآن كلياً ويكتفیان بالعض. وفي وجل يتسلق أحدها على أجساد الحيوانات الأخرى ويتسلق آخر بعده ويلهث، والحيوانات تحت تهتاج، وكلاهما ينخبط أرضاً ويبحث كل منهما عن الآخر.

رجل في المعطف الكتان يتجول في المشى، وتفتح الزريبة، وبعصا يدخل فيما بينها، الباب مفتوح، وتتدافع إلى الخارج وتصرصر، ويبدأ قباع ثم صوات ونعير. الآن صار الكل في الممرات. وفوق الأفنية، بين الصالات تساق الحيوانات البيضاء المضحكة، الأفخاذ السمينة المضحكة، الأذنان المتكورة المضحكة، وخطوط خضراء حمراء على الظهر. هذا نور، يا أعزائي الخنازير، هذه أرض، ليس لك إلا أن تنخري وتحفري، ابحثي، وإلى كم دقيقة بعد. لا إن الحق معك، فلا يجوز الشغل بالساعة، نخير وحفر ونكش بلا انقطاع وكفى. ستذبحين. أنت هنا، انظري إلى المسلخ، مسلخ الخنازير. هناك بيوتات قديمة، إلا أنك ستأتين إلى نموذج جديد. إنه مضاء وبني بأحجار حمراء، قد يخاله المرء من الخارج ورش أقفال، ورشة أو مكتباً أو صالة تصميم. أريد أن اذهب في اتجاه معاكس، يا أعزائي الخنازير، إذ إنني أنا إنسان، سأذهب من هذا الباب هنا، ونلتقي فيه من جديد.

دفعة تجاه الباب، إنه مرن، يتأرجح جيئةً وذهاباً. يا سلام، على البخار! ما الذي يبعث البخار. ها أنت في البخار كما في حمام، ربما استحمت الخنازير بحمام روماني روسي. يذهب الإنسان إلى مكان ما، وأنت لا ترى

أين، النظارة مكتسية عند شخص ما بالبخار، قد يسير المرء عارياً وينضح الروماتيزم، بالكونياك وحده غير ممكن، ويطلق الإنسان بالخف المنزلي. لا شيء بادٍ للعيان، البخار كثيف. لكن هذا الصرير، واختناق الصوت والفرقة ونداءات الرجال وسقوط الأدوات وارتطام الأغطية. هنا في مكان ما يجب أن تكون الخنازير، جاؤوا بها من الجهة الأخرى وأدخلوها من الجانب الطولاني. هذا البخار الأبيض السميك. ها هي الخنازير، ها إن بعضها معلق، هي ميتة، وقد قطعوها، وتكاد تكون جاهزة للأكل. ها إن شخصاً ما يقف ومعه خرطوم ويرش به شطور الخنازير البيضاء. إنها معلقة على حوامل حديدية، الرأس إلى تحت، بعض الخنازير كاملة، القوائم فوق مسدودة بخشبة أفقية، إن حيواناً ميتاً لا حيلة له، كما أنه لا يستطيع أن يجري. أرجل الخنازير ملقاة مقطعة في مستودع. رجلان يحملان من داخل الضباب شيئاً ما على عارضة حديدية، حيواناً مفتوحاً استخرجت أمعاؤه. يرفعان العارضة إلى حلقة انزلاق. ها إن زملاء كثيرين يتبخثرون إلى تحت وينظرون إلى البلاط نظرات متبلدة.

في الضباب تمشي أنت عبر الصالة. لوحات الحجارة مزودة بأخاديد، إنها مبللة، وهي أيضاً ملطخة بالدم. بين الحوامل صفوف الحيوانات البيضاء التي أخرجت أمعاؤها. وفي الخلف يجب أن تكون زرائب القتل العمدة، هنا يحدث تصفيق، مشي، خفخة، صراخ، اختناق صوت وقباع. هنا تنتصب أرجل ينبعث منها بخار، وبراميل وأحواض. ومن هنا يأتي البخار. رجال يدلون في الماء الذي يغلي ويفور الحيوانات الميتة ويسلقونها ويخرجونها بيضاء غاية البياض، رجل يحك الأدمة بسكين فيصبح الحيوان أكثر بياضاً، ناعماً كل النعومة. رقيقة كل الرقة، وبيضاء، راضية جداً كما بعد حمام مجهد وبعد عملية تكللت بالنجاح

أو بعد تدليك انطرحت الخنازير في صفوف على مناخذ وألواح خشبية، فهي لا تتحرك في سكونها المشبع وفي قمصانها البيضاء الجديدة. فهي منطرحة على الجانب، وعند بعضها يرى المرء صف حلقات الثدي المزدوج ، كم ثدياً عند الخنزير، لا بدّ أنها حيوانات رهيبة، لكنها كلّها لها في العنق فتحة حمراء مستقيمة، تماماً في خط الوسط، وهذا نفسه مدعاة للشكوك.

من جديد يحدث صفق، باب يفتح في الخلف، البخار ينسحب، إنهم يسوقون سرباً جديداً من الخنازير إلى الداخل، أنت تسيرين هنا، أيتها الأفعاذ المضحكة، أيتها الأذنان المتكورة المضحكة، والظهر ذو خطوط ملوّنة، وهي تشمشم في الزريبة الجديدة. هذه باردة برودة الزريبة القديمة، لكن ما زال هناك شيء من الليل على الأرضية غير معروف، شيء زلق أحمر، تنظف فناطسها بالفرك والحك عليه.

شاب بلون شاحب وشعر أشقر ملصق يضع لفافة غليظة في الفم. أبصر، إنه آخر الذين يشغلون أنفسهم بك، لا تسيئي الظن به، إنه لا يفعل إلا ما تمليه عليه وظيفته. عليه أن يصرف معك أمراً إدارياً. لا يلبس إلا حذاء له رقبة وسروالاً وقميصاً وحمالة بنطال، والحذاء يصل حتى الركبة. هذه ملابسه الرسمية. إنه يخرج لفافته الغليظة من الفم، يضعها في رف على الجدار ويتناول من الركن بلطة طويلة. إنها علامة منزلته الوظيفية ومرتبته عليك. مثل هذا مثل علامة الصفيح عند الجنائية. سيريك إياها على الفور. إنها عصا خشبية طويلة يرفعها الشاب حتى مستوى الكتف فوق الخنازير الصغيرة المصرصرة تحت والتي تحفر هناك في هدوء وتشمشم وتنخر. يمشي الرجل من حولها، النظرة إلى الأسفل، يبحث ويبحث. المسألة هي مسألة تحقيق بحق شخص ما في موضوع فلان من الناس ضد فلان من الناس.

هوب، وإذا بخنزير يجري قدّامه وأمام قدميه، هوب! واحد آخر. الرجل سريع، أثبت شخصيته، وهوت البلطة كعصف الريح، غاصت في الزحمة بالجانب الثلم على أحد الرؤوس، وعلى رأس آخر. كان هذا لحظة. ويتقلب هذا ويخبّط تحت. يتقلب ويخبّط. يرتمي على جنبه. لم يعد يعرف شيئاً. ها إنه منطرح. ماذا تفعل القوائم، والرأس. لكن هذا لا يصنع الخنزير، هذا ما تصنعه القوائم بصفة شخص غير رسمي. نظر رجلان من مكان التنظيف بالماء الغالي إلى الناحية الأخرى، قد حان الحين، رفعا باباً منزلقاً عند زريبة القتل العمد، يخرجان الحيوان. السكين الطويلة شحذاها على قضيب لتصبح حادة قاطعة وركعا وشكّاهما في العنق، صار شقّ طويل، شقّ طويل في العنق، يتمّ فتح الحيوان مثل كيس، شقوق عميقة غائصة، ويرتعش الحيوان، يحكّ قوائمه بسرعة وعنف، ويخبّط. إنه فاقد الوعي، الآن فاقد الوعي ليس إلا، بعد قليل أكثر وأكثر. إنه ينخر ويشخر، ها قد فتحت الأوداج. إنه الآن في غيبوبة عميقة، دخلنا الآن في الميتافيزيقيا (فلسفة ما وراء الطبيعة)، في علم اللاهوت، يا صغيري، لن تمشي بعد الآن على الأرض، نحن نتجول الآن على الغيوم. وبسرعة يوضع الحوض العريض، فيتدفق فيه الدم الحار الأسود، يرغى، يشكل فقاعات في الحوض، تحريك بسرعة. في الجسم يتخثر الدم، يقال إنه يصنع خثرات، فلترتق الجروح. الآن خرج من الجسم، وما زال يريد أن يتخثر. مثل طفل لا يزال يريد ماما، ماما تصرخ حين يمدد على طاولة العمليات وحين لا يجري ذكر الأم، وماما لا تريد أن تأتي، على أنّ هذا كان خانقاً جداً تحت القناع مع المخدّر، وما زال يصرخ حتى خارت قواه: ماما. خزق، خزق، الأوردة على اليمين، الأوردة على الشمال. تحريك بسرعة. هكذا. الآن يخفّ الارتعاش. أنت الآن لا تحرك

ساكناً. نحن في نهاية الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم اللاهوت،
الفيزياء تبدأ.

الرجل الذي ركع أرضاً، ينهض واقفاً. تؤلمه الركبة. يجب تنظيف الخنزير
بالماء الغالي وإخراج أمعائه وتقطيعه. ويجري هذا على التوالي بشكل متواصل.
المدير، بدين أحسنت تغذيته، يمشي بالغلجون جيئةً وذهاباً عبر البخار، ينظر
أحياناً إلى داخل جوف مفتوح. وعلى الجدار بجانب الباب الهزاز إعلان معلق:
حفلة رقص لأول وكلاء شحن الماشية بناء صالات، فريدريش هاينز، جوقه
كيرمباخ. في الخارج أُعلنت عن مباريات ملاكمة صالات جرمانيا، شارع
تساويزي ١١٠، رسم الدخول ١,٥٠ مارك حتى ١٠ مارك. ٤ تصفيات.

سوق المواشي عرض المواشي للبيع: ١٣٩٩ رأس بقر، ٢٧٠٠ عجل،
٤٦٥٤ شاة، ١٨٨٦٤ خنزير. سير السوق: الأبقار في سلعة جيدة بدون
اعتراض، وما عدا ذلك في سهولة ويسر. العجول بلا مناقشة، الشياه في سهولة
ويسر، الخنازير في البداية مؤكدة، فيما بعد ضعيف، أهملت إهمالاً شديداً.

في طرق الماشية تهب الريح وتمطر السماء. بقر يخور، رجال يسوقون
قطيعاً كبيراً، يجأرون وله قرون. الحيوانات تحصر بعضها بعضاً، تبقى واقفة،
تركض في الاتجاه غير الصحيح، سائقو المواشي يجرون من حولها ومعهم
عصي. ثور ينط في وسط المجموع أيضاً على بقرة، وتجري البقرة نحو اليمين
ونحو الشمال، والثور وراءها، ويمتطيها من جديد مرة بعد الأخرى.

ثور كبير أبيض يساق إلى صالة المسلخ. هنا لا يوجد بخار ولا توجد
زريبة للخنازير التي غصّ بها المكان. بمفرده يدخل الحيوان الكبير القوي،
الثور، بين سائقيه عبر البوابة. الصالة الملوخة بالدم مفتوحة أمامه بالسطور

المعلقة والأرباع والعظام المقطّعة. الثور الكبير له جبهة عريضة. يساق بالعصي والدفع قدام الجزار. ويسدد له هذا كي يحسّن وقوفه ضربة خفيفة بالبلطة العريضة على القائمة الخلفية. الآن يمسك أحد سائقي الثور برقبة الثور من تحت. يقف الثور ويستسلم، سيتسلم بسهولة عجيبة لكأنه موافق وراضٍ الآن بعد أن رأى كلّ شيء ويعرف: هذا مصيره ولا حيلة له. وربما اعتبر حركة سائق المواشي مداعبة، إذ إنها تبدو على جانب من الرقة واللطافة. إنه يستجيب لذراعي سائق الماشية اللتين يشدان، ينجني الرأس جانباً، الفم إلى فوق.

أمّا هذا، الجزار، فإنه يقف عند ذاك وراءه، معه المطرقة المرفوعة. لا تدِرْ نظرك فيما حولك. المطرقة، وقد رفعها الرجل القوي بكلتا القبضتين، هي خلفه، فوقه، ثمّ: تهوي إلى تحت. قوة العضلات لرجل قوي مثل إسفين حديدية في القفا. وفي اللحظة، والمطرقة لم ترفع بعد، تنتفض قوائم الحيوان الأربع قائمة، الجسم الثقيل كله يبدو كأنه ينتفض. ومن ثمّ. وكأنها هو بلا قوائم ينطح الجسم الثقيل، على الأرض، على القوائم المتشنجة، وينطرح هكذا لحظة من الزمن وينقلب على الجنب. يمنة ويسرة يتمشى الجلاد من حوله ويصعقه بشحنات تخديرية جديدة رحيمة ناحية الرأس والصدغين، نم، لن تستيقظ أبداً. ثم يخرج الرجل الآخر لفافته الغليظة من الفم، يتمخبط ويسحب سكينه، إنها طويلة طول نصف سيف، ويرتمي على ركبتيه خلف رأس الحيوان الذي غادر التشنج قوائمه. دفعات تشنجية خفيفة تصدر عنه، والمؤخرة يطوّح بها يمنة ويسرة. الجزار يتلمس الأرض، إنه لا يستعمل السكين. يطلب الطبق من أجل الدم. ويدور الدم فيه دوراناً، في هدوء وانفعال قليل تحت دفعات قلب قوي. صحيح أنّ النخاع الشوكي انهرس، إلا أنّ الدم ما زال يجري هادئاً في الأوردة والشرايين، الرتّان تتنفسان والأمعاء تتحرك. الآن ستستعمل السكين، سيتدفق الدم، في وسعي أن

أتصور ذلك، سميك سماكة الذراع في الخيط الدافق، دم أسود جميل مهلّل. ومن ثمّ يغادر التهليل الاحتفالي البهيج كله المنزل، والضيوف يخرجون راقصين، هرج ومرج، راحت المراعي البهيجة وراح الإصطبل الدافئ والعلف الفوّاح، كل شيء راح، طار. حفرة فارغة، ظلمة، الآن تأتي فكرة جديدة عن الدنيا. واه، فجأة ظهر سيد اشترى هذا المنزل، فتحة شارع، وضع اقتصادي أفضل، هو سيقوّض ويهدم. ويأتي المرء بالطبق الكبير، يدفع به، الحيوان الكبير يرفع قائمته الخلفيتين. السكين تحزّ عنقه بجانب البلعوم، ويتم البحث باحتراس عن الشرايين، مثل هذا الشريان له أغشية قوية، فله موقع مؤمن عليه جيّداً. وإذا به ينفتح، واحد آخر، اندفاق، سواد حار يتصاعد البخار منه، الدم يتدفق بلون أحمر غامق على السكين، على ذراع الجزّار، الدم المغتبط المهلّل، الدم الحار، الضيوف يأتون، حالة التحوّل موجودة، من الشمس انبعث دمك، الشمس اختفت في جسدك، والآن ظهرت من جديد. الحيوان يتنفس الصعداء فوق العادة، مثل هذا مثل اختناق، إثارة شديدة، تصدر حشجة وخشخشة. أجل، الخشبات تطلق. وما إن تعلو الخاصر تان علواً شديداً إلى هذا الحدّ حتى يساعد رجل الحيوان. إذا ما أراد حجر أن يسقط فادفعه دفعةً.

يقفز رجلٌ فوق الحيوان، فوق الجسد، بكلتا ساقيه، ويقف فوق، يتأرجح ويدوس على الأحشاء ويتأرجح جيئةً وذهاباً. يجب أن يخرج الدم على نحوٍ أسرع، يخرج بكلّيته، الحشجة تشتدّ أكثر، إنّها حشجة ممتدة جدّاً، إنّها حشجة الموت مع ضربات خفيفة صادة مانعة للقائمتين الخلفيتين.

القوائم تلوّح في هدوء. الحياة تشرج الآن والأنفاس تخفت. بصعوبة تدور المؤخرة وتقلب. هذه هي الأرض، قوة الجاذبية. يقفز الرجل إلى فوق متأرجحاً. والآخر تحت يعيد تشريح الجلد على الرقبة.

مراعٍ هبيجة، إصطبل دافئ خائق.

حانوت الجزائر المضاء إضاءة جيدة. إنارة الحانوت وإنارة الواجهة يجب أن يتوافق بعضهما مع بعضٍ توافقاً منسجماً. ويدخل بصورة خاصة في الحسبان ضوء مباشر أو شبه غير مباشر. وبصورة عامة تكون الأجسام المضيئة مناسبة وعملية بالنسبة إلى ضوء هو في المقام الأول ضوء مباشر لأنّ منضدة المحلّ قبل كل شيء والوضم يجب أن يكونا مضاءين إضاءة جيدة. وضوء النهار الصناعي الذي تولّد عن استعمال مرشحات زرقاء، لا يمكن أن يدخل في حسبان حانوت الجزائر لأنّ اللحوم تتطلب دائماً إضاءة لا يتأثر بها لون اللحم الطبيعي.

قوائم مديبة ممتلئة. بعد أن يتم تنظيف الأرجل يتم شقها بالطول بحيث تظلّ الطبقة السميكة من الشحم متماسكة، تطبّق وتلفّ بالخيط.

- فرانس، مضى عليك الآن أسبوعان وأنت تقبع في حجرتك التعيسة. ربة المنزل ستلقي بك عما قريب خارجاً. لن تستطيع أن تدفع لها، والمرأة لا تؤجر من باب المزاح. في حال أنك لن تتمالك نفسك عما قريب فلن يكون أمامك إلا الذهاب إلى الملجأ. وماذا بعد ذلك، ماذا بعدئذ. فأنت لا تهوي حجرتك، ولا تذهب إلى الحلاق، لحية بنية اللون تنبت عندك، والخمسة عشر بفينيكاً ستحصل عليها.

حديث مع أيوب، الأمر وقفٌ عليك، يا أيوب، أنت لا تريد

حين فقد أيوب كل شيء، كل ما يمكن أن يفقده البشر، لا أكثر ولا أقل، عندها اضطجع في حديقة الملفوف.

«يا أيوب، أنت تضطجع في حديقة الملفوف، عند وجار الكلب، بعيداً جداً بحيث إنّ كلب الحراسة لا يستطيع عضك. فأنت تسمع صرير أسنانه. والكلب ينبح حين لا تقترب منه إلا خطوة واحدة. وحين تستدير وتريد أن تتصبب يهراً وينطلق ويشدّ على سلسلته، يقفز عالياً، يسيل لعابه وينهش.

يا أيوب، هذا هو القصر، وهذه هي الحدائق والحقول التي ملكتها أنت ذات مرّة. كلب الحراسة هذا لم تعرفه، حتى ولا حديقة الملفوف التي رماك المرء فيها، تعرفها، ولا العنزات أيضاً التي سيقت أمامك في الصباح فتقطف العشب وهي تمرّ لصقك وتطحنه وتحشو به أشداقها. هي كانت ملكاً لك.

يا أيوب، الآن فقدت كلّ شيء. إلى داخل الحجرة الخشبية يجوز لك أن تتسلل في المساء. الناس يخافون من جذامك، وأنت طفت ركباً تطلق المحيا على أملاكك والناس تراحموا من حولك، الآن أمامك مباشرة السياج الخشبي الذي تزحف عليه الحلزونات الصغيرة. يمكنك أن تدرس أيضاً الديدان. إنها الكائنات الوحيدة التي لا تخاف منك.

عينك المقشّرتان، أنت يا كومة من تعاسة، أنت يا أرضاً سبخة تحيا، لا تفتحها إلا بين الحين والآخر.

ما أكثر ما يؤلمك يا أيوب؟ أنك فقدت أبناءك وبناتك، وأنت لا تملك أيّ شيء وأنت تحسّ بالبرد في الليل، قروحك في البلعوم، على الأنف؟ ماذا، يا أيوب؟»

«من يسأل؟»

«لست إلا صوتاً».

«صوت آتٍ من حنجرة».

«أنت تقصد أن عليّ أن أكون إنساناً».

«أجل، ولهذا لا أريد أن أراك».

«هياً انصرف».

«لست إلا صوتاً يا أيوب، افتح عينيك بقدر ما تستطيع، فأنت لن تراني».

«آه، أنا أتخيّل. رأسي، دماغي، والآن سيجعلونني أجنّ، الآن يسلبونني

أفكاري».

«وإن فعلوا هذا، هل في هذا ضير؟»

«أنا لا أحب هذا؟»

«مع أنك تعاني هكذا وتعاني على هذا النحو بسبب أفكارك، ألا تريد أن

تفقدوها؟»

«لا تسأل، انصرف».

«لكنني لا أسلبك إياها. أريد أن أعرف فقط أيّ شيء أشدّ إيلاماً لك؟»

«هذا لا يهم أحداً».

«لا أحد إلا أنت؟»

«أجل، أجل! ولا أنت».

الكلب ينبح، يهرّ ويعض من حوله. الصوت يرتد بعد وقت.

«أهم أبنائك الذين تتحسّر عليهم؟».

«لأجلى ليس من داع لأحد أن يصلي حين أموت. فأنا سمُّ لهذه الأرض.
ورائي يجب أن يتقياً المرء. أيوب يجب أن يتتسى؟».

«بناتك؟»

«بناتك، إذن. هنّ أيضاً ميّتات. هنّ بخير. كنّ صوراً للنساء. كنّ سينجبن لي
أحفاداً، وكان عليهن أن يمتن. سقطت الواحدة تلو الأخرى، لكأنّ الله يأخذهنّ
بشعورهنّ ويرفعهنّ عالياً ويرمي بهنّ بحيث يتكسرن».

«أنت يا أيوب، لا تستطيع أن تفتح عينيك، إنهما ملزقتان، وأنت تتحسّر
لأنك تضطجع في حديقة الملفوف، وزريبة الكلاب هي آخر ما تبقى لك،
ومرضك».

«الصوت، الصوت، صوت مَنْ أنت وأين تختبئ أنت».

«لا أعرف علام أنت تنوح وتتحسّر»

«أواه، أواه».

«أنت تتنهد ولا تعرف هذا يا أيوب».

«لا، عندي».

«عندي؟»

«لا حيل ولا قوة عندي. هذه هي المسألة».

«هذا ما تحبّ أن يكون لك».

«لم تعد ثمة قوة للأمل، لا رغبة. لا أسنان لي. أنا رقيق لئن الجانب، أنا

أستحي».

«هذا ما قلته أنت».

«إنّها الحقيقة».

«أجل، أنت تعرف هذا. هذا هو الأفظع».

«ها إنه مكتوب على جيني. خرقة كهذه أنا».

«هذه هو الأمر يا أيوب الذي تعاني منه أكثر ما تعاني. لا تحب أن تكون ضعيفاً، تودّ لو أنك تستطيع المقاومة، أم أن تكون ممزقاً كلّ ممزق، راح دماغك، راحت أفكارك، ومن ثم الماشية بالتهام والكمال، تمنّ شيئاً لنفسك».

«سألتنى الكثير الكثير، أيها الصوت، الآن أعتقد أنه يجوز لك أن تسألني. اشفني! إن استطعت. سيان إن كنت شيطاناً أو إلهاً أو ملاكاً أو إنساناً، اشفني».

«هل ستقبل الشفاء من أي شخص كان؟»

«أشفني».

«فكّر جيّداً، يا أيوب، أنت لن تستطيع أن تراني. فإذا ما فتحت عينيك، فلربما ارتعت مني. ولربما تركتهم يدفعون لي مالاً كثيراً لقاء أداء خدمة».

«سنرى كلّ شيء، فأنت تتكلم مثل من يأخذ الأمور مأخذ الجدّ».

«لكن إن كنت أنا إبليس أو الشيطان الرجيم؟»

«اشفني».

«أنا إبليس».

«اشفني».

وإذا بالصوت يتراجع ويضعف ويصبح أكثر ضعفاً. نبح الكلب. أصاخ
أيوب السمع متخوفاً: راح وولّى، يجب أن أشفى، أو يجب أن أمضي إلى الموت.
صرخ. ليل رهيب حلّ. جاء الصوت مرة أخرى:

«وإن كنت أنا الشيطان، فكيف ستقوى عليّ؟»

صرخ أيوب: «أنت لا تريد أن تشفيني. لا أحد يريد أن يساعدني، لا الإله
ولا الشيطان، لا ملاك ولا إنسان».

«وأنت نفسك؟»

«وماذا عني؟»

«أنت لا تريد!»

«ماذا».

«من يستطيع مساعدتك بينما أنت نفسك لا تريد!»

«لا، لا»، غمغم أيوب.

الصوت إزاءه: «الرب والشيطان، الملائكة والبشر، كلهم يريدون أن
يساعدوك، أما أنت فلا تريد - الرب بدافع المحبة، الشيطان لكي يأخذك إليه فيما
بعد، والملائكة والبشر لأنهم أعوان الله والشيطان، أما أنت فلا تريد».

«لا، لا» غمغم، صرخ أيوب وارتمى.

صرخ طوال الليل. ونادى الصوت بلا انقطاع: «الرب والشيطان، الملائكة
والبشر يريدون أن يساعدوك، وأنت لا تريد» أيوب دون انقطاع: «لا، لا» حاول
أن يخنق الصوت، ازداد ارتفاعاً وظل يزداد ارتفاعاً أكثر وأكثر. كان يسبقه درجة
واحدة على الدوام. طوال الليل. وعند الصباح خرّ أيوب على وجهه.

عاجزاً عن الكلام استلقى أيوب.

في هذا اليوم شفيت قروحه الأولى.

وإنّ للجميع نفساً واحداً، والإنسان لم يعد له شيء اللهم إلا المواشي

سوق المواشي إخراج المواشي إلى المراعي على الجبل: خنازير ١١٣٤٥،

بقر ٢٠١٦، عجول ١٩٢٠، خراف ٤٤٥٠.

لكن ماذا يصنع هذا الرجل بهذا العجل الصغير الظريف؟ إنه يقوده منفرداً إلى الداخل بحبل، هذه هي الصالة الكبيرة التي يخور فيها الثيران، والآنئ، الآن يقود هو الحيوان الصغير إلى دكة. هناك دكك كثيرة بعضها بجانب بعض، وبجانب كل دكة هراوة من خشب. يرفع العجل الصغير بكلتا ذراعيه ويضعه على الدكة، إنه يتركهم يضعونه بهدوء. من تحت مازال ممسكاً بالحيوان، وباليسرى يقبض على قائمة خلفية لكي لا يقدر الحيوان على أن يتقلب ويتخط. بعد ذلك أمسك الحبل الذي قاد به الحيوان إلى الداخل ويربطه بإحكام إلى الحائط. الحيوان يلزم الهدوء، إنه الآن مطروح هنا، لا يعرف ماذا يجري، ليس الحيوان مرتاحاً في استلقائه على الخشب. إنه ينطح برأسه قضيياً ولا يعرف ما هو: أما هذا فهو رأس الهراوة الموجودة على الأرض والتي سيتلقى بها عما قريب ضربة على الرأس. سيكون هذا آخر لقاء له مع هذا العالم. والحق أن الرجل، الرجل العجوز البسيط الذي يقف هنا وحيداً هو رجل رقيق له صوت ناعم - يواسي الحيوان مهدئاً خاطره -، يمسك المكبس ويرفعه قليلاً، لا يتطلب هذا قوة كبيرة لمثل هذا الحيوان الصغير الوديع ويسدد الضربة على نقرة الحيوان الرقيق. بهدوء تام كما قاد هو هذا الحيوان إلى هنا وقال: الآن الزم الهدوء ولا تتحرك، يسدد له الضربة في القفا، دون غضب

ودون انفعال شديد، وبدون أسف وحسرة أيضاً، لا هكذا هي الحال، أنت حيوان طيب لطيف، وأنت تعرف أنّ هذا لا بدّ أن يحدث بهذه الطريقة.

والعجل الصغير: أسلم الروح، جامد بكليته، متخشب، القوائم الصغيرة ممتددة، عينا العجل الصغير السوداوان المخمليتان تتسعان فجأة اتساعاً كبيراً، تهمدان، أحاطت بهما هالة من البياض، الآن تستديران جانباً. الرجل يعرف هذا، أجل، هكذا تنظر الحيوانات، أما اليوم فلدينا الكثير لكي نعمله، ويبحث تحت العجل الصغير على الدكة، ها هي سكينه، بالقدم يدفع الطبق تحت على النحو الذي سيستخدم به من أجل الدم. ومن ثمّ يحرّ العنق بالسكين ويذبحه ذبحاً من النحر إلى النحر قاطعاً الغضاريف كلها، الهواء يتسرب، جاوز العضلات جانباً، والرأس لم يعد له ما يسنده، يرتطم الرأس بالدكة محدثاً صوتاً حاداً. الدم يتدفق، سائل سميك أحمر داكن بفقاعات هوائية. هكذا، وبذلك سيكون كل شيء قد حصل. إلا أنه يقطع بهدوء وبسياء وادعة هادئة لا تتغير يتعمق بالقطع، يبحث ويتحسس بالسكين في العمق، ويخرق فقرتين، إنه نسيج رقيق فتي جداً ثمّ يرفع يده عن الحيوان، تطلق السكين على الدكة. يغسل يديه في حوض ويمضي في حال سبيله.

الآن يتمدد الحيوان وحيداً وبحالة يرثى لها على الجانب كما ربطه هو وشده. وفي الصالة صخب في كل مكان تتخلله غبطة، الناس يعملون ويعتلون وينادون بعضهم بعضاً. الرأس يتدلى بشكل خفيف وهو مطويّ عند الجلد بين كلتا قائمتي الطاولة، وقد طفح بالدم واللعاب. اللسان التصق بين الأسنان بلون أزرق غامق. وعلى نحو رهيب، رهيب ما زال الحيوان يشخسح ويحشرج على الدكة. الرأس يرتعش عند الجلد، والجسد على الدكة يتلوى. القوائم

ترتعش، تخبط، قوائم رقيقة رقة الأطفال، قوائم كثيرة العقد. أما العينان فباهتتان متحجرتان وعمياوان. إنها عينان ميتتان. هذا هو حيوان ميت.

الرجل الكهل المسالم يقف عند عمود ومعه مفكرة ويرسل نظره إلى جهة الدكة ويحسب. الأوقات غالية، وليس في الإمكان تقديرها التقدير الجيد.

نافذة فرانس مفتوحة، كما أنّ أموراً مضحكة تحدث أيضاً في الدنيا
الشمس تشرق وتغرب، وتأتي أيام مشرقة، عربات الأطفال تسير في
الشارع، ونكتب شباط ١٩٢٨.

على مدار شهر شباط يشرب فرانس كيفما اتفق في غمرة كراهيته للعالم
وفي استيائه. إنه ينفق على الخمر ما في حوزته، وسيان عنده ما سيكون. أراد أن
يكون مستقيماً وعلى خلق حسن، على أنّ هناك أوغاداً وأفاقين وسفلةً أنذالاً،
ولهذا لم يعد فرانس بيبركوبف براغب في أن يرى أو يسمع أيّ شيء عن العالم،
وإذا ما صار نواماً فإنه راح ينفق آخر قرش من ماله على الخمر.

حين يظهر فرانس بيبركوبف هكذا في شباط بمظهر المغتاض الغضبان
سيوقظه ذات يوم ليلاً صوت على الفناء. في الخلف شركة لتجارة الجملة. وينظر
إلى تحت في سكره، يفتح النافذة، يصبح من فوق الفناء: «هيا افرنقوا من على
الفناء، أيها الثيران، أنتم، أيها المخرفون» ثمّ يستلقي، ولا يواصل التفكير في أيّ
شيء، فالناس انصرفوا حالياً.

بعد أسبوع تسير الأمور على هذه الشاكلة. يهّم فرانس بأن يفتح النافذة
ويرمي بقطعة الخشب أرضاً، ويخطر بباله عندئذ: الساعة الآن الواحدة ليلاً،
سيشاهد الصبيان. ماذا يفعل الإخوة هنا بحق الله في الساعة الواحدة. ماذا جاء
بهم إلى هنا، هل هم من سكان البيت، يجب جسّ النبض.

وصحيح، إنه لتصنّع حذر، إنهم ينزلقون على طول الجدار، ويميل فرانس فوق برأسه، أحدهم يقف عند باب الفناء، الولد يقوم بالحراسة، إنهم يدورون شيئاً ما، شيء له علاقة بباب القبو الكبير. إنهم ثلاثتهم يعملون بطريقة خرقاء. ترى أليسوا بخائفين أن يراهم شخص ما. الآن تصدر طقطقة، الباب يفتح، لقد نجحوا، أحدهم يبقى في الفناء في ركن من الأركان، والآخرون ينزلون إلى القبو، مظلم جداً، وعلى هذا يعولان.

فرانس يغلق نافذته بخفة. فقد برّد الهواء رأسه. شيء من هذا القبيل يعمله الناس لتوّهم، طوال النهار وفي الليل أيضاً، هكذا وبهذه الطريقة ترتكب الخدائع، المفروض تناول أصيص زهر ورميه بشدة على أرض الفناء. ما إذا جاء بهم إلى هنا، إلى البيت الذي أسكن أنا فيه. لا شيء على الإطلاق.

الهدوء يعمّ المكان، ويجلس في الظلام على سريره، يجب أن يعود ثانية إلى النافذة وينظر إلى تحت: أي شيء أضاعه الإخوة عندي في البيت. ثم يشعل شمعة ويبحث عن زجاجة العرق، وحين يجدها لا يصبّ. رصاصة طارت في اتجاهه، كانت تقصدي أم كانت تقصدك أنت.

لكن حين يحلّ الظهر ينزل فرانس إلى الفناء. جماعة من الناس يقفون معاً هناك، والنجار غيرنر كان أيضاً حاضراً موجوداً. فرانس يعرف هذا، إنهم يتكلمون: «ها قد سرقوا من جديد» فرانس يكز هذا بكوعه: «رأيت أنا سفلة الناس. لن أشي بهم، لكن حين يأتي هؤلاء مرة أخرى إلى الفناء عندي حيث أسكن أنا وحيث أنام وحيث لا مطلب لهم هنا، عندها سأنزل. والله وأنا إسمي بيبركوبف، عندها سيكون في وسعهم أن يبحثوا عن عظامهم وإن كانوا ثلاثة» يمسك النجار بفرانس: «إن كنت تعرف شيئاً ما، فها هم جنائيون، اذهب إليهم ويمكنك أن تكسب شيئاً».

«أرحني من هؤلاء. لم أحن أحداً قط. يستطيعون العمل وحدهم، فهم يتلقون مالاً لقاء ذلك».

يمضي فرانس في حال سبيله. وإذا برجلين من الجنائية يقبلان نحوه بينما كان غيرنر لا يزال واقفاً هناك ويريدان أن يعرفا منه ببساطة أين يسكن غيرنر، إذن هو بالذات. أنا فزع. وشحب وجه الرجل أيما شحوب. ومن ثم يقول هو: «أروني، غيرنر، هذا هو النجار، أستطيع أن أريك» لم ينبس ببنت شفة، يرن عنده، الزوجة تفتح، والجماعة كلهم يدخلون وراءه، وأخيراً يدلف غيرنر ويلكز زوجته في الأضلاع، والإصبع أمام الشفتين، إنها لا تعرف ماذا يجري، ويندس بين الناس، اليدان في جيبي السروال، وهناك بين الحاضرين اثنان آخران أيضاً، سيدان من إحدى شركات التأمين، وكلهم يقلّبون بصرهم فيما حولهم في بيته. هؤلاء يريدون معرفة مدى سماكة الجدران هنا وكيف هي الأرضية، وينقرون على الجدران وقيسون ويكتبون. إذ إنّ أمور السطو على شركة بيع بالجملة لا تعرف نهاية، فالشباب هم على جانب من الوقاحة، فقد حاولوا الاقتحام عبر الجدار لأنّ هناك على الباب والسلم جرس إنذار، وهم يعرفون هذا أيضاً. أجل، فالجدران رقيقة للغاية، والمبنى كله غير متين، على شاكلة بيض عيد الفصح الملون المكبّر.

يخرجون من جديد إلى الفناء، وغيرنر بصفة مهرج معهم دائماً. الآن يفحصون كلا البابين الحديديين الجديدين في القبو، غيرنر لصقهم. وتشاء الصدف، يتراجع خطوة واحدة، يريد أن ينتحى جانباً، وتشاء الصدف، يدوس على شيء ما، وإذا بشيء ما يسقط، وحين يمدّ يده بسرعة، فإذا هي زجاجة سقطت لتوها على ورقة، ولهذا لم يسمعوا شيئاً. فإذا ما كانت زجاجة هنا على الفناء فإنّ هؤلاء تركوها حيث هي، فلنأخذها معنا، ولم لا. فالسادة

العظام لا يخسرون شيئاً بذلك. وينحني لكأنها يريد أن يحكم رباط حذائه ويقبض على الزجاجة مع الأوراق. وهكذا أعطت حواء آدم التفاحة، ولو لم تسقط التفاحة من الشجرة لما توصلت حواء إلى ذلك ولما وصلت التفاحة إلى عنوان آدم. فيما بعد دسّ غيرنر الزجاجة تحت سترته ومضى بها عبر الفناء، إلى الأم في الحجرة.

ماذا تقول الأم الآن؟ تلك تشع أساريرها ضياءً: «من أين لك هذه يا أوغست؟».

«اشتريتها حين لم يكن أحد هناك».

«لا!» «زجاجة عرق حلو دانتسيغية ماركة غولدفاسر، ما رأيك!»

تلك تشع أساريرها، تشع أساريرها لكأنها من شترالاو. وتقبل الستائر: «يا رجل، مازال هنا ناس يقفون، جئت بها من هناك. أليس كذلك؟» «كانت على السور، كانوا سيأخذونها لأنفسهم.» «يا رجل، عليك أن تسلّمها.» متى كان ينبغي تسليم زجاجة عرق حلو ماركة غولد فاسر إن وجدها المرء؟ متى جدنا على أنفسنا بزجاجة كونياك، يا أمي، في هذه الأوقات العصيبة؟ سيكون هذا موضعاً للعار والسخرية، يا أمي «وإذا ما رأته هي في النهاية هكذا، فإنها ليست هي على هذا النحو، المرأة، إنها زجاجة، زجاجة صغيرة، وماذا ستؤثر هذه على شركة ضخمة هذه الضخامة، وفضلاً عن ذلك يا أمي، إذا ما فكّر المرء في الأمر تفكيراً صحيحاً فإنها لم تعد تخص الشركة، إنها تخص اللصوص، وهؤلاء يجب أن ترمى وراءهم. هل أعرض نفسي للعقوبة مباشرة. ويحتسيان الخمر ويجترعان جرعة، ثم جرعة أخرى، أجل على المرء أن يفتح عينيه في الدنيا، لا داع لأن يكون كل شيء ذهباً، حتى الفضة لها قيمتها.

في يوم السبت يأتي اللصوص ويتطور الأمر إلى قضية مغربلة. ويلاحظ هؤلاء أنّ غربياً يتسلل إلى الفناء، أو هذا الذي يقف عند السور ينتبه إلى هذا، والآخرين الذين معهم مصايح مبهرة مثل الأقرام خارج الحفرة بكلّ قوة إلى باب الفناء. أمّا غيرنر فيها هو يقف هناك، وهؤلاء هم الآن يخبّون مثل الكلاب السلوقية إلى ما وراء السور على العقار المجاور. غيرنر يجري خلفهم ويولون عنه راكضين: «لا تهنأوا بالسخافات، أنا لا أوذيكم، يا إلهي، أنتم ثيران» يريد أن يتفرج كيف يتسلقون السور، ويكاد يتصدع صدره حين اندفع اثنان راكضين، انتما أيها الشابان، لا تكونا مجنونين. الأخير فقط، إنه ما زال يمتطي فوق لتوه سور البيت، ويصوّب ضوء مصباحه المبهر إلى وجهه: «ماذا بك؟» ربما كان زميلاً أفسد علينا النزهة. «سأشارك»، يقول غيرنر. ماذا دهى هذا طبعي سأشارك، لماذا تفرّان هارين».

ينزل هذا في الحقيقة بعد هنيهة زحفاً من على السور، وحده، وينظر إلى النجار، وهذا يبقى أيضاً ثملاً. أما البدين فعنده الجرأة لأنّ النجار سكران وتفوح منه رائحة العرق أيضاً. يمدّ غيرنر اليد له للمصافحة. «يدك، يا زميل، هل سترافقنا؟» «أهو فحّ، ماذا» «لماذا؟» «أتظن أن الحيلة ستنتلي عليّ؟» غيرنر يستاء، هو حزين، الآخر يستهين به إن لم يهرب، الحق أنّ العرق الحلو كان رائعاً جدّاً، وزوجته أيضاً كانت ستلحّ عليه، يا إلهي، هذه كانت ستلحّ عليه لو أنه وصل خائباً. غيرنر يستجدي: «لا، لماذا، في إمكانك أن تدخل وحدك، هنا أسكن أنا» «من ذا» «أنا ناظر العمارة، يا رجل، قد ينالني ذات مرة نصيب من هذا الشيء» عندئذٍ ينعم اللص التفكير؛ ويستبين له أنه سيكون شيئاً رائعاً إذا ما شارك هذا في التهريب، المهم إلّا يكون هذا فخاً؛ تمام، معنا مسدس.

ويترك سلّمه على الجدار، ويطوف مع غيرنر على أرض الفناء، الآخرون ابتعدوا، ويعتقدون بالتأكيد أنني ضعت. عندها يرن غيرنر الجرس في الطابق الأرضي «يا رجل، أين ترنّ الجرس، من يسكن هنا؟» غيرنر بفخار: «كأننا أنا! انتبه» ويسحب السقّاطة، ويفتح الباب بصوت عالٍ: «والآن، أنا هو أم لست أنا هو؟».

ويضغط على زر الإضاءة، ها إن زوجته تقف عند باب المطبخ، ترتعش. يعرف غيرنر في ظرافة وخفة دم: هذه زوجتي، وهذا زميل لي، غوستي» ترتعش، ولا تخرج. وفجأة تحني رأسها في حفاوة بالتحية وتبتسم، إنه رجل لطيف، في الحق أنه لشاب جميل الصورة، تخرج، وها هي ذا: «لكن يا باول، لا يمكنك أن تترك السيد يقف هكذا في البهو، تقدم أيها السيد، اخلع قبعتك».

يريد الآخر أن ينسلّ، لكنهما كليهما لا يتنازلان، ويندهش هذا، تلك هي الإمكانية، إنهم والحق يقال ناس غاية في الاستقامة، ولئن كانت أحوالهم سيئة، الطبقة المتوسطة الصغيرة أحوالها سيئة، التضخم المالي وما شابه ذلك. المرأة الصغيرة تنظر إليه دائماً نظرات ولهي، يتدفأ بالنيذ الساخن ثم ينصرف، فالموضوع ليس واضحاً كلّ الوضوح في نظره حتى النهاية.

على كلّ حال يأتي هذا الشاب، والظاهر أنّ عصابته أرسلته في ضحى اليوم التالي بعد الإفطار الثاني إلى غيرنر ويستفسر على نحو جدّ شكلي عما إذا كان ترك شيئاً ما. لم يكن غيرنر موجوداً، الزوجة فقط التي تستقبله استقبالاً رقيقاً، لا بل على نحو أقرب إلى الخضوع والخشوع، وتقدّم له كأساً من العرق رضي أن يقبلهما.

ولأسف النجارين كليهما غاب اللصوص طوال الأسبوع. آلاف المرات يناقش باول وغوستي الموقف بالتفصيل ما إذا كانا قد جفّلا الصبيان. «ربما

كنت فظاً غليظاً معهم يا باول. عندك أحياناً مثل هذه النبرة» «لا يا غوستي، السبب لا يرجع إليّ أنا، إنما إليك، إذ إنه كان لك مثل هذا الوجه لكأنما كنت القس، وهذا ما نفّر ذلك، فهو لاء لا يجدون طريقهم معنا ولا ينجحون في تحقيق غايتهم، إنه لمرعب، فما العمل».

غوستي تبكي؛ ليت أحداً يأتي؛ وتراها تسمع دائماً التأنيب والملامة، إلا أن السبب لا يرجع إليها.

وصحيح، يوم الجمعة هو اللحظة الكبيرة. ها إن الباب يدق. أظن أن الباب يدق. وحين تفتح هي ولا ترى شيئاً بعد لأنها نسيت أن تضغط على زر الإضاءة، عنها تعرف هي على الفور من يكون. إنه الطويل الذي يتصرف دائماً تصرفاً في غاية النبل. وهذا يسأل عن زوجها، وهو جاد جداً وبارد جداً. إنها مذعورة: ترى هل حدث شيء ما. ويطمئنها: «لا، المسألة هي مسألة حديث بسبب العمل، لا شيء آخر»، ثم يتحدث عن شيء من الأمكنة وعن لا شيء يمكن أن يتمخض عن لا شيء وهكذا. يجلسان في الصالون، إنها سعيدة ومغتبطة أنه عندها في الداخل، والآن لا يستطيع باول أن يقول إنها طردته، وتقول هي، وهذا ما قالته هي دائماً، والعكس هو الصحيح، لا شيء يمكن أن يتمخض عن لا شيء. ويتطور جدال طويل بين الاثنين حول ذلك، ويظهر أنّهما كليهما لديهما أقوال مصدرها الآباء والأجداد والفروع الذين يقولون الشيء نفسه: لا شيء يمكن أن يأتي من لا شيء، لا أبداً، يكاد المرء يقسم، الأمر مؤكد ومحقق إلى تلك الدرجة، وأجمعاً على رأي واحد. ضرب كل منهما للآخر مثلاً تلو المثل، من ماضيه، ومن الجوار، وكانا في شدة التوافق حين رنّ الجرس ودخل رجلان أثبتا شخصيتهما أنّهما موظفان في الأمن الجنائي ومعهما ثلاثة موظفي

شركة تأمين. أحد موظفي الأمن الجنائي بادر الضيف بالكلام بدون تردد: «هل أنت السيد غيرنر، عليك أن تساعدنا، إنه بسبب حالات السطو الكثيرة هناك في الخلف. أودّ أن تشارك في الحراسة الخاصة. والسادة من الشركة سيتكفلون بطبيعة الحال بالمصاريف» ويتكلمون تسع دقائق، وتستمع المرأة إلى كل شيء، وفي الساعة الثانية عشرة ينسحبون. وبعد ذلك كان كل من بقي غاية في الفرح والمرح بحيث إنّ شيئاً لا يمكن التعبير عنه، والذي يجلب عن الوصف قد حدث بينهما وقد خجل كل منهما أيضاً خجلاً شديداً. إذ إنّ المرأة كانت في الخامسة والثلاثين وربما كان هو في العشرين، في الواحدة والعشرين. على أنّ المسألة لم تكن مسألة الفارق في السن وحده - هو ١,٨٥ سم، هي ١,٥٠ سم -، بل إنّ هذا حدث، إلّا أنّ الأمر حصل هكذا في أثناء الكلام والاضطراب والهزء من الشرطيين، وبصورة عامة لم يكن هذا أيضاً أمراً منكراً، إنما فيما بعد مخجل، على الأقل بالنسبة إليها، أو هذا يتوقف من جديد. على أية حال وجد السيد غيرنر في الساعة الثانية موقفاً في انتظاره، جواً هادئاً، يفوق كلّ وصف، كما لم يكن يتمنى هو لنفسه أجمل من ذلك. هو نفسه كان يجلس على بعد يسير.

ظلوا جالسين معاً حتى الساعة السادسة مساءً، وأصغى هو بسرور بالغ مثل الزوجة إلى كل ما رواه الطويل. حتى لو أنه لم يكن صحيحاً إلّا في بعض الأمور، كانوا شباباً من الطراز الأول، ودهش هو مما كان لشباب معاصر مثل هذا من آراء سديدة عن الدنيا. كان شاباً واهناً انقشعت عن عينيه غشاوة الجهل مسافة كيلومترات. أجل، وحين انصرف الشاب وذهب إلى الفراش في التاسعة قال غيرنر إنه لا يعرف كيف أنّ مثل هؤلاء الشباب المستنيري الذهن ما زالوا يخالطونه - شيء يجب أن يعترف به لغوستي، شيء يجب أن يكون فيه، شيء كان يجب أن يقدمه هو أيضاً. غوستي شاطره الرأي، وتمطى الصبي العزيز.

وفي الصباح الباكر وقبل أن ينهض قال لها: «غوستي، أريد أن يكون اسمي باولي بين ديكل إذا ما ذهبت مرة أخرى إلى رئيس عمال البناء والنجارة إلى كشك بناء وعملت شيئاً ما. فكان لي عملي الخاص وهذا انتهى وليس هذا بعمل لرجل كان مستقلاً، وأحبّ إليّ أن يرموا بي أيضاً خارجاً لأنني متقدم في السن. ولماذا لا ينبغي أن أكسب من الآخر، من الشركة. انظري كيف أنّ الشباب أذكيا متيقظون. فمن ليس متيقظاً حذراً دارت عليه الدوائر. أقول هذا. وأنت؟» «أقول هذا من زمن طويل» «أنت ترين، أودّ أن أتعم في مأكلي وأعيش من جديد في رخاء ولا أريد أن تتجمد أصابع قدمي من البرد» عانقته في سرور وامتنان لكل شيء قدمه لها وسيقدمه لها أيضاً. «هل تدرين ما ينبغي لنا أن نفعله، يا زوجتي، أنت وأنا؟» وقرصها في الساق بحيث إنها صرخت من الألم. «أنت تشاركينني، يا زوجت» «لا» «أقول بلى. أنت تظنين، يا زوجتي، أنّ الأمر ممكن أيضاً من دونك» «حين تكونون أنتم خمسة، ورجال أقوىاء ليس غير» يا للقوة. «قوموا بالحراسة، تابعت ثرثرتها من غير ما كلفة، لا أستطيع. عندي دوالٍ. وأساعد، وكيف لي أن أساعدكم؟» «هل أنت خائفة، يا صغيرتي غوستي» «خوف، ولماذا أخاف. ليكن عندك ذات يوم دوالٍ وتابع السير. عندها سيجري كلب قصير القوائم على نحو أسرع. وإن نالوا مني ستجد نفسك في موقف لا تحسد عليه، عندها سأكون أنا منك الزوجة» «ذنبني أنك زوجتي» ويقرصها في ساقها، بإحساس. «عليك أن تكف يا باول. هذا يحرك المشاعر» «يا زوجتي، أنت ترين، ستصبحين إنساناً آخر إذا ما خرجت هنا من هذا المكان المقيت» «أجل، أرغب في هذا أيضاً، ألحس شفتي على أثر ذلك» «أولاً يأتي، يا زوجتي، من القليل، هذا لم يكن بعد على الإطلاق، افتحي أذنيك واسمعي جيداً. أنا أجسّ الموضوع وحدي» «ما هذا! والآخرون؟» يا للهول.

«هذه هي الحال بالضبط، يا غوستي. وعن هؤلاء نستغني. أنت تعرفين، أعمال تعاونية غير ممكنة، إنها نعمة مملّة. ماذا، يصحّ أو لا يصحّ. سأستقل بتجارتني. سيأتي علينا الدور حيث إننا نسكن في الطابق الأرضي والفناء المؤدي إلى منزلي. صحيح أم غير صحيح، يا غوستي؟» «لا أستطيع أن أساعدك في ذلك، يا باول، فأنا أعاني من الدوالي» فيما عدا ذلك كان في هذا خسارة كبيرة إلى حدّ ما. ووافقت الزوجة، على مضض بلسانها، لكن في الباطن وحيث تكمن المشاعر تقول: كلاً، وتقول: لا.

وفي المساء وحين غادرت الشركة كلّها في الساعة الثانية القبو وحين انجس غيرنر مع زوجته عند ذاك في الغرفة والساعة هي التاسعة وفي البيت لا شيء يحرّك ساكناً ويريد أن يبدأ بالعمل لتوّه، والحارس عليه أن يقوم الآن بالطواف، وماذا يحدث عندئذٍ؟ باب القبو يدق، يطرق. أظن أن الباب يطرق. من ذا الذي يمكن أن يدق الباب هنا. لا أدري، إلّا أنه كان هناك طرق على الباب. ليس من داع الآن لأحد أن يدقّ هنا. المحل التجاري مغلق. وطرق الباب. ويتكرر الطرق، هما كلاهما هادئان هدوءاً تاماً، لا يحرّكان ساكناً ولا ينسان بنت شفة. يتكرر الطرق على الباب. غيرنر يكزها بمرفقه: «طرق الباب» «أجل» «أي شيء هو هذا» الغريب أنها غير خائفة وتكتفي بالقول: «لن يكون أي شيء، لن يقتلونا» «لا، لن يقتلنا هذا الذي هو آتٍ هناك والذي أعرفه أنا، لن يقتلني. له ساقان طويلتان وشاربان قصيران، وإذا ما جاء فأنا سأسرّ. وإذا بالباب يطرق على نحوٍ فيه استعجال، إنها في خفة. يا سلام، إنها علامة. إنه شخص يعرفنا. إنه أحد جماعتنا. فكرت طويلاً، يا زوجتي» «لماذا لم تقل هذا».

قفزة واحدة، وإذا بغيرنر على السلم، من أين هؤلاء أن يعرفوا أننا هنا، لقد فاجؤونا، الشخص الموجود في الخارج يهمس: «غيرنر، افتح».

سواء شاء أم لم يشأ، فعليه أن يفتح. إنها قذارة بقذارة، عمل قذر بغيض، في ودّ المرء أن يدمر العالم كله. عليه أن يفتح، إنه الطويل، وهو وحده، فارسها، غيرنر لا يلاحظ أي شيء، لقد خانته، وتودّ أن تكون ممتنة لفارسها وتعترف له بالجميل. تتهلل أساريرها حين صار تحت، لا تستطيع أن تكتم شيئاً، زوجها يبدو مثل كلب قوي ضخم الرأس، إنه يسبّ ويشتم: «لماذا تتسمين ابتسامة عريضة، أنت؟» «والله، لقد خفت خوفاً وأي خوف، قد يكون شخص من البيت أو الحارس» يجب العمل والقسمة، وعن السب واللعن لا يتمخض أيضاً شيء آخر، يا للخزرة.

حين حاول غيرنر من بعد ذلك أيضاً للمرة الثانية وترك الزوجة في الخارج، إذ إنه يسب ويلعن، فهذه تعدّ شؤماً عليه - ها إنهم يدقون على الباب من جديد، إلا أنهم الآن ثلاثة، ويتصرفون كما لو أنه دعاهم هو، ولا حيلة له في هذه الحال، فالمرء ليس بصاحب الحول والطول في منزله، والمرء ليس ندّاً لمحتال كهذا. عندها يصرّح غيرنر بهزيمته ساخطاً حانقاً: اليوم سأشترك مع هؤلاء، مثلي مثلهم، وما يصيبني يصيبهم، لكن غداً ينتهي الأمر؛ فإذا جاءني الكلاب مرة أخرى إلى منزلي حيث أنا قيّم وتدخّلوا في شؤوني عندها سيرون كيف يكون الأغرار هنا. إنهم لمستغلون، إنهم مبتزون.

ويعملون ويعملون ساعتين كاملتين في القبو، إلى منزل غيرنر يحملون معظم الأشياء إلى الناحية الأخرى، دائماً أكياساً من القهوة والزبيب والسكر؛ هؤلاء يعزّلون تعزياً تاماً، ومن ثمّ صناديق فيها الكحول، شتى أنواع العرق والبيذ، نصف المخزن سحبه وحملوه. غيرنر يستشيط غضباً أن عليه أن يتقاسم مع هؤلاء كل شيء. الزوجة في الجانب الآخر تهدئ من روعه: «ما كنت لأستطيع أن أحمل الكثير من هذه الأشياء، وأنا عندي أوردة دواليه» ويغضب، وما زالوا منهمكين في الحمل والعتل:

«أوردتك الدوائية، كان عليك أن تشتري منذ زمن طويل جوارب مطاطية، هذا مردّه إلى التوفير القديم، التوفير دائماً، حيث إنّ هذا خطأ.» أما غوستي فلا تتبع بنظراتها إلا صاحبها الطويل، وهذا فخور جداً بها أمام الشباب الآخرين، هذا هو شغله هنا، إنه يحقن بانتظام مواد مخدّرة.

في اللحظة التي انصرفوا فيها، وقد عملوا مثل حيوانات، يغلق غيرنر باب منزله بإحكام، يجلس نفسه ويبدأ بالشرب مع غوستي، لا أقل من أن يكون له هذا. عليه أن يجرب كل الأنواع، وأفضل الأنواع. وفي الصباح الباكر سيبع هذه بأبخس الأثمان إلى بعض التجار، ويسرّ كلاهما بذلك، غوستي أيضاً، إنه زوجها الطيب، وهو في نهاية المطاف زوجها وستساعده. ومن الساعة الثانية ليلاً حتى الخامسة يجلسان كلاهما ويجربان كل الأنواع، لكن بشكل جيد، بنخطة، بحساب. وفي أعماق أعماق السرور والانبساط غاص كلاهما في هذه الليلة، ففقد شرباً حتى الثمالة، ومثل كيسين سقطا على وجهيهما.

نحو الظهر عليهما أن يفتحا الباب. الجرس يدقّ، الجرس يرنّ، يرنّ. لكن من لا يفتح، هم آل غيرنر. وأتى لهم أن يفتحوا وهم مخدّرون. أما هؤلاء فلا يستسلمون، إنهم يطرقون على الباب، عندئذٍ تتبّه غوستي إلى شيء ما وتنهض فجأة وتضرب باول: «أنت، يا باول، هناك من يدق الباب، عليك أن تفتح» عندها يقول أول ما يقول: «أين»، ثمّ تدفعه من الداخل إلى الخارج لأنهم سيحطمون الباب، لعلّه ساعي البريد. ينهض باول ولا يلبس إلا السروال، يفتح الباب. ها هم يمرون به، بعدد ثلاثة رجال، عصابة بكاملها، ماذا يريد هؤلاء، أيريد الشباب أن يمروا ويأخذوا الأشياء؟ لا، إنّ هؤلاء لمختلفون، إنهم شرطة، موظفو جنائية، السيد الناظر القيم، كلّ شيء ملقى على الأرض بدون نقصان، في الدهليز، في الحجرة، الأكياس والصناديق

والزجاجات والقش، في فوضى، بعضها فوق بعض، ويقول المأمور الجنائي:
«مثل هذه الخنزرة والقذارة لم أشهدها طوال حياتي».

وماذا يقول غيرنر؟ وماذا سيقول هذا؟ لا ينبس هذا بنت شفة. إنه ينظر إلى رجال الشرطة فقط، هو ليس بخير، نفسه غثت أيضاً، هؤلاء السفاحون، لو كان معي مسدس لما أخرجوني حياً، هؤلاء السفاحون. في هذه الحال على المرء أن يلزم كشك عمال البناء، والمحترمون أودعوا نقودي جيوبهم. لو أنهم تركوني أجترع جرعة أخرى. لكن ما من حيلة، عليه أن يرتدي ثيابه» سيكون في مقدوري أيضاً أن أزرر حمالة البنطال».

الزوجة تبربر وترتعش. «أنا لا أعرف، أيها السيد المفتش، نحن ناس شرفاء مستقيمون، لا بد أن يكون شخص ما خدعنا، الصناديق، نمنا نوماً عميقاً، لاحظتم أنتم هذا، لا بد أن يكون شخص ما من خارج البيت عمل لنا مقلباً، هلاً قلت شيئاً، أيها المفتش. باول، ماذا بنا؟» «تستطيعين أن تحكي هذا كله في المخفر» باول يزج نفسه فجأة في الحديث: «الآن اقتحم علينا هؤلاء أيضاً البيت ليلاً، يا زوجتي، إنهم هم أنفسهم كما من الخلف، ولهذا يجب أن علينا الذهاب إلى المخفر» «يمكنكم أن تحكوا كل شيء في المخفر أو في المديرية العامة للشرطة» «لن اذهب إلى المديرية العامة للشرطة» «سنذهب بالسيارة» «يا إلهي، يا غوستي، لم أسمع أي صوت وهم يقتحمون علينا البيت هنا. نمت مثل جرد» «وأنا لم أسمع أيضاً، يا باول».

غوستي تريد أن تجلب رسالتين من الكومودينة، إنهما من الطويل، إلا أن موظفاً رأى هذا. «هاتي أرني. أو أنك تحدعين. تفتيش البيت يأتي بعد ذلك».

تقول معاندة: «تستطيع أنت، اخجلوا من أنفسكم بأن تدخلوا إلى بيت غريب» «هيا إلى الأمام».

تبكي ولا تنظر إلى زوجها، تصرخ وتقيم الدنيا وتقعدها وترتمي على الأرض، يجب إنهاضها من على الأرض. يسب الزوج ويشتم ويمسكون به: «ها إنكم ستغتصبون الزوجة من بعد ذلك» المجرمون، الأرذال، المتزون، هؤلاء راحوا، وقد مرّ غوني في القذارة.

بسرعة بسرعة بسرعة، الجواد الصغير يعدو من جديد

في الأحاديث في الدهليز وفي الفناء لم يشارك فرانس بيبركوبف، اليدان في الجيبين، الياقة مرفوعة على الأذنين، الرأس والقبعة بين الكتفين. سمع دائماً من عند الجماعة واستخبر عند الجماعة. فيما بعد راقب، وقد شكّلوا صفين حيث قيد النجار وزوجته البدينة وهما يتخطيان الفناء إلى الشارع. ها إنهم الآن يسرون سيراً حثيثاً. ذات مرة ركضت. أما الدنيا فكانت آنذاك مظلمة. وينظر أحدهم كيف يحملق هؤلاء إلى الأمام. اخجلوا. أجل، أجل، يمكنكم أن تتكلموا بسخرية. أنتم تعرفون كيف تبدو الحال عند إنسان ما. هؤلاء هم الناس الضيقو الأفق الحقيقيون، يقبعون خلف الموقد، لكن لا يطال المرء هؤلاء. فخدائع الإخوة لا يمكن فهمها. الآن يفتحون سيارة الشرطة. أجل، والآن إلى الداخل، دائماً إلى الداخل، أيها الصغار، المرأة الصغيرة أيضاً، فقد عكروا صفوها، ومعها حق، معها الحق كل الحق، دع هؤلاء يضحكون، وعليهم أن يعرفوا كيف هي الأمور. التقيد بموعده، خلاص.

ما زال الناس يتهامسون، وها قد وقف فرانس بيبركوبف أمام الباب، والجو كان بارداً جداً. رأى باب البيت من الخارج، وشمل الدام (جسر السكة الحديدية) بنظره، أي شيء سيفعله الإنسان الآن، ما العمل. ويقدم ساقاً ويؤخر أخرى بفروغ صبر. الجو بارد، والعياذ بالله، بارد للغاية. لن اذهب إلى فوق. ماذا أفعل.

وقف حيث هو واستدار - ولم يلحظ أنه كان متيقظاً ذكياً على هذا النحو. والعصاة التي كانت تقف هناك وتتكلم على الناس بسخرية واستهزاء لم يكن له شأن بها. سأستطلع في مكان آخر، هؤلاء، إنهم يبعدونني من هنا. وينطلق مهرولاً نزولاً إلى شارع الإلزاس على طول سور بناء المترو باتجاه ساحة روزيتال، إلى أي مكان.

كان قد حدث أن فرانس بيبركوبف تسلل من بيته. الرجل الذي ساقوه عبر الصفيين والمرأة الممتلئة البدنية المتعكرة المزاج، السطو وسيارة الشرطة كانوا يسرون معه. لكن حين جاءت حانة، حتى قبل ناصية الشارع باتجاه الساحة قامت الدنيا وقعدت. عندها اندست يدها تلقائياً في الجيب، ما من زجاجة للتعبئة. لا شيء. ما من زجاجة. يتصبب عرقاً. تم تركها فوق. بسبب الوساخة. وحين كان اللغظ والضجيج، إلى الداخل فقط، داخل المعطف، إلى تحت دونها تفكير بالزجاجة. اللعنة. هل يتلصق راجعاً؟ ثم نشب صراع في داخله: لا نعم، نعم لا. كثير من الارتعاش، من شدّ وجذب وسب وشتم ومساهمة وتضحية، دفع، ما المسألة، دعني وشأني، إني لا أريد الدخول، مثل هذا لم يحدث لفرانس منذ زمن طويل، أأدخل أم لا أدخل، أنا ظمآن، وظمي شديد، يا إلهي، إني راغب في الشرب، الأخرى بك أن تبقى هنا، لا تدخل إلى الكشك وإلا مرضت من جديد، أنت، ثم تقبّع أنت من جديد فوق عند العجوز. ثم من جديد يعود الشرطي وكلا النجارين، انعطاف إلى اليمين، لا. لن نبقى هنا، ربما في مكان آخر، تمت متابعة السير، واصل، سر، امش دائماً.

هكذا سار فرانس وفي الجيب ١,٥٥ ماركاً حتى ساحة ألكسندر، واستنشق الهواء، وليس غير الهواء واندفع راكضاً. ثم أجبر نفسه، ومع أنه يتمتع بنفس كارهة فقد أكل في مطعم، أكل على الوجه الصحيح، ومنذ أسابيع ولأول

مرة على الوجه الصحيح، لحم عجل مطبوخ بالخضار والبهارات مع بطاطا. بعد ذلك خفّ العطش، وبقي معه ٧٥ بفينيكاً فركها باليد. أذهب إلى لينا، ما شأن لينا بي، أنا لا أطيقها. بات لسانه عديم الإحساس وبه طعم الحموضة، وحلقه به حرقه. يجب أن أسكب فيه أيضاً كأساً أخرى من المياه المعدنية.

ومن بعد ذلك!- بالاجتراع وبالإفراغ البارد برودة لطيفة للكأس في الجوف وفي دغدغة فقاعات حامض الكربونيك عرف إلى أين أراد هو الذهاب. إلى ميناء، وشريحة اللحم أرسلها إليها، والمآزر لم تقبلها. أجل، هذا هو عين الصواب.

فلننهض. أمام المرأة أخذ فرانس بييركوبف زيتته. أمّا من لم يرتح له حين رأى وجنتيه الصفراوين المترهلتين الممتلئتين بالبثور فقد كان بييركوبف. الرجل له وجه. علائم ضرب على الجبين، منها علائم حمراء ليس إلا، من القبعة، والخيارة، يا رجل، أنف أحمر غليظ كهذا، لكن لا مبرر لأن يكون من العرق، الطقس بارد اليوم؛ العينان الجاحظتان الكرهمتان البشعتان ليس إلا، مثل بقرة، من أين لي مثل هاتين العينين، عيني عجل، وأحلق هكذا كأني لا أستطيع أن أهتر بهما. لكأنها صبّ أحدهم عليّ عصيراً. لكن في حضرة ميناء لا يؤثر هذا شيئاً. تمسيد الشعر وتسويته كما يرام. سننزل إليها. وستعطيني هذه بعض البفينيكات ليوم الخميس، ولنتر بعد ذلك ما سيكون.

هياً اخرج من الجحر إلى الشارع البارد. ناس كثيرون. ناس كثر للغاية موجودون في ساحة ألكسندر، الكل عندهم ما يشغلهم. وكم هم في حاجة إلى هذا. فرانس أدبر عنهم، حرّك هذا عينيه يمناً ويسرة لكأنّ فرساً انزلق على الإسفلت المبلل وتلقّى رفسة بالحذاء في البطن ويزحف قائماً. ثم ينطلق في

سيره ويسير مثل مجنون. كان لفرانس عضلات، كان ذات مرة في نادٍ لألعاب القوى؛ والآن جرجر نفسه في شارع ألكسندر ولاحظ أية خطوة كان يخطوها، ثابتة، ثابتة مثل شخص من الحرس. إننا نسير على أقدامنا سيراً منتظماً ودقيقاً مثل الآخرين.

النشرة الجوية لهذا اليوم ظهراً: تبدو التنبؤات الجوية على قدر يسير من الصحو. صحيح أنه ما زال يسود برد قارس، إلا أن ميزان الحرارة في تصاعد. الشمس لا تجرؤ على الظهور إلا على استحياء. وللفترة القادمة فإنه لمن المتظر أن ترتفع درجات الحرارة.

ومن يقود بنفسه الأسطوانة من عيار ن س أو ٦- (6- NSU)، هو متحمس. إلى هناك، إلى هناك دعني أنتقل معك، أنت يا محبوبي.

وحين يكون فرانس في منزلها ويقف أمام بابها، يكون هناك جرس. ويخلع القبعة من على الرأس بدفعة واحدة ويسحب الجرس، ومن يفتح، من سيكون، في هذه الحال تقوم بانحناءة للتحية، حين يكون لفتاة ما سيد، ومن سيكون، دغدغة، دغدغة، ضربة خفيفة. رجل - ما! رجلها! إنه كارل! السيد صانع الأقفال. لكن لا ضير في ذلك. هيا اعبس مرة أخرى.

«ماذا يا أنت؟ ماذا في الأمر؟» «لا ضير في أن تتركني أدخل، يا كارل، لن أعص أحداً. وإذا به يدخل. ها نحن إذن، يا سلام على هذه النمرة، شيء من هذا القبيل حدث لشخص ما.

«أيها السيد كارل المحترم، فإن كنت أيضاً صانع أقفال مدرباً وأنا لست إلا عامل فرص، فلا تتبجح هكذا. في وسعك أن تحينني تحية الصباح حين أحبيك أنا تحية الصباح» «ما الذي تريده يا رجل؟ هل سمحت لك

بالدخول؟ ما الذي دفع بك عبر الباب؟» «هل زوجتك هنا؟ ربما استطعت أن أقول لها صباح الخير» «لا، ليست هنا. من أجلك ليست هي هنا على الإطلاق. ولأجلك ما من أحد هنا» «هكذا» «أجل. لا أحد هنا» «حسن - ها إنك أنت هنا، يا كارل؟» «لا، أنا أيضاً لست هنا. جئت لأخذ كنزة وعليّ أن أنزل على الفور إلى المحل» «إنه يزدهر للغاية، المحل» «أجل» «إذن أنا مطرود من قبلك» «لم أترك تدخل على الإطلاق. ماذا فقدته هنا يا رجل؟ ألا تحجل أن تصعد إلى هنا وأن تسود وجهي حيث إن كل من في البيت يعرفك» «دع هؤلاء يتدمرون، يا كارل. وليكن هذا أصغر هومونا. إلى داخل حجرتها لا أرغب في أن ألقى نظرة واحدة. هل تعلم، يا كارل، بسبب هؤلاء ليس من داع لتشغل بالك، اليوم قادوا واحداً من عندي إلى السجن، رجال الشرطة هؤلاء، نجاراً مدرباً، وكان هذا قيم البيت. تصوّر. معه الزوجة. وسرقوا مثل الغربان. هل سرقت أنا؟ لا؟» «يا رجل، سأنزل أنا. هيا اخرج. ولماذا أقف معك. إذا قابلت مينا على حدة فليكن حاضراً في ذهنك أنها ستتناول مكنسة وتهوي بها عليك إلى أن تتحطم» أي شيء يعرفه هذا عن مينا. زوج كهذا له قرنان في الرأس ويريد أن يقول لي شيئاً ما. فلتمتني ضحكاً. حين يكون لفتاة سيد فإنها تحب هي هذا وتودّه. ويقترّب كارل من فرانس: «أما زلت هنا؟ لا قرابة تربطنا بك يا فرانس، لا، لا، وإذا ما خرجت الآن من السجن فعليك أن ترى وحدك ماذا تفعل» «لم أطلب منك صدقة بعد» «لا، مينا لم تنس إيدا، الأخت أخت، وأنت ما زلت في نظرنا ذلك الذي كنته، أنت صرت في عداد الأموات» «أنا لم أقتل إيدا ضرباً. قد يحدث هذا لكل إنسان بأن تزلّ يده حين يكون مهتاجاً» «إيدا ماتت. فامضي الآن في حال سييلك، نحن ناس كرام طيبون».

الكلب هذا الذي له قرنان، أي كيس سموم، الأخرى بي أن أقول له أنني سأنتزع منه بجسد حي زوجته من السرير وأمام عينيه. «أمضيت سنواتي الأربع حتى آخر دقيقة، ثم إنك لا تملك بأن تتفاخر أكثر مثل المحكمة» «لا تهمني محكمتك» أمض الآن في حال سيالك. هذه المرة من غير تكرار. لم يعد خليقاً بك هذا البيت هنا. هذه المرة من غير تكرار» أي شخص هو هذا، السيد صانع الأقفال. سيتعدى عليّ بالضرب.

«وإذا ما قلت لك الآن، يا كارل، أنني أريد أن أعقد معك صلحاً وأنني أتمت عقوبتي وأنا أمدّ يدي لك» «عندها لن أمدّ أنا يدي لك» «هذا ما أردت أن أعرفه» تارة ممسكاً بالرجل على وجه السرعة، وتارة قابضاً على الساقين، وتارة مطوّحاً صوب الجدار الآن أعرف كأنها هو مكتوب. وخبط القبعة على الرأس، وبنفس الاندفاع كما هو منذ لحظات: «إذن عمت صباحاً يا كارل، أيها السيد كارل، معلم صنعة الأقفال. سلّم لي على ميناً أيضاً وقل لها إنني كنت هنا لا لشيء إلا لأرى كيف هي الحال. وأنت أيها الحقير القدر، أنت أغيب الأغباء على وجه البسيطة. تذكّر جيداً وانظر إلى قبضتي، إذا ما أردت شيئاً فلا تقترب. يا لك من قطعة قذارة ويؤسفني أن ميناً معك».

وينصرف. ينصرف بهدوء، بهدوء وبيطء ينزل السلم. المفروض الجري وراءه، سيأخذ حذره. وأمام كأس واحدة من العرق، مقو للقلب ساخن، سيفرغها في جوفه. ولربما جاء إلى الناحية الأخرى. أنا أنتظر. تابع فرانس سيره مسروراً جداً. سأحصل على المال في مكان آخر. وتلمّس عضلاته المكتنزة. سأملاً جوفي أيضاً من جديد.

«تريد أن تستوقفني في طريقي وتطرحني أرضاً. لكن عندي يد تستطيع أن تحنق، ولن تقدر عليّ. أنت تهاجمني بالسخرية، تريد أن تطمرني بالاحتقار -

ليس أنا، ليس أنا - فأنا قوي جداً. في وسعي ألا ألقى بالأعلى على تهكمك واحتقارك. وأسنانك لن تخترق درعي، فأنا محصن ضد الأفاعي. لست أدري ممن تستمد هذه القوة لكي تندفع صوبي. لكنني قادر على أن أقاومك. فالرب واجهني بأعدائي في القفا».

«ليس لك إلا أن تتكلم. كم تحسن الطيور الغناء حين تفلت من الطربان. لكن الطرايين كثيرة وما على الطائر الصغير إلا أن يغني! ما زلت بلا عينين في نظري. وما زلت مستغنياً عن أن تنظر إليّ، أنت تسمع ثرثرة الناس وصخب الشارع وطين الحافلات. ما عليك إلا أن تتنفس، وأن تسمع. وبين هذا كله ستسمعني أيضاً ذات مرة».

«ومن؟ من يتكلم؟»

«لن أقول. سترى هذا. ستحس به. قو قلبك للمقاومة. ومن بعد ذلك أتحدث إليك. وبعدها ستراني. عينك لن تجودا بشيء إلا بالدموع».

«في إمكانك أن تتكلم هكذا مئة عام أخرى. ليس لي إلا أن أسخر من ذلك».

«لا تضحك. لا تضحك».

«لأنك لا تعرفني. لأنك لا تعرف من أنا. من هو فرانس بيركوف. فهذا لا يخشى شيئاً. لدي قبضتان. هيا انظر أية عضلات عندي أنا».



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

الكتاب الخامس

استجمام سريع. من جديد يقف الرجل في الحياة، لم يتعلم أي درس ولم يدرك أي شيء. الآن تصيبه أول ضربة قاسية. ويتورط في جريمة، فهو لا يريد ذلك، يدافع عن نفسه، غير أنه يتحتم عليه. ويدافع عن نفسه بشجاعة وشراسة باليدين والقدمين، لكن بلا جدوى، فالشيء فوق طاقته، ويتحتم عليه، إذ لا بد مما ليس منه بد.

لقاء على ساحة أليكس، برد قارس. في السنة التالية، سنة ١٩٢٩،

سيكون الطقس أشد برودة

أمام آيشينغر على ساحة أليكس يدق ويطلق هنا وهناك مدق ركاتز بخاري، علوه علو طابق، ويغرز القضبان في الأرض مثل لا شيء.

هواء بارد برودة الجليد. شباط. الناس يسرون في معاطف. ومن لديه فراء ارتداه، ومن ليس لديه فراء لم يلبس أي فراء. والنسوة لبسن جوارب رقيقة وكان عليهن أن يحسسن بالبرد، لكن المشهد جميل. والمتسكعون الكسالى انجحروا من البرد. فما إن يصبح الجو دافئاً حتى يبرزوا أنوفهم من جديد. وفي أثناء ذلك يشربون ضعف الحصة من العرق، لكن ياله من عرق، فلا يتمنى المرء إلا أن تسبح فيه جثة.

طق طق يضرب مدق الركاتز على ساحة ألكسندر. ناس كثيرون لديهم الوقت ويشاهدون المدق وهو يضرب. رجل فوق يشد دائماً سلسلة، ثم يدخن

فوق، فجأة يتلقى العمود ضربة على الرأس. وهاهم الرجال والنساء وبصورة خاصة الصبيان يقفون ويسرهم كيف أن الأمور تسير على خير ما يرام: فجأة يتلقى العمود ضربة على الرأس. وبعد ذلك يصير صغيراً مثل أنملة، إلا أنه يتلقى بعد ذلك دائماً ضربة أخرى، وله أن يفعل عندئذ ما يشاء. وأخيراً يختفي، يا إلهي، لقد حفظوه حفظاً دقيقاً. وينسحب الناس وهم راضون.

كل شيء مغطى بألواح الخشب. البرولينا، التمثال البروزي، انتصب أمام متجر تيتس، إحدى اليدين ممدودة، كانت امرأة ضخمة جبارة، وقد سحبوها من مكانها. ربما ذوبوها وصنعوا منها ميداليات.

مثل النمل كانوا يدبون على الأرض. إنهم يعملون هواياتهم ويعملون بالمئات بغير إتقان وبطريقة خرقاء هنا وهناك طوال النهار وطوال الليل.

الحافلات الكهربائية تسير محدثة ضجيجاً، حافلات صفراء وبها مقطورات، فوق ساحة ألكسندر المغطاة بألواح الخشب. النط من الحافلة محفوف بالخطر. والمحطة مكشوفة هنا وهناك، شارع ذو اتجاه واحد صوب شارع الملك ماراً بفيرتهيم. ومن يريد الذهاب إلى الشرق يجب أن يمر في الخلف بمجلس الرياسة عبر شارع كلوستر. القطارات تضحج من المحطة صوب جسر يانوفيتش، والقاطرة تنفخ البخار فوق، وتتوقف مباشرة فوق مطعم بريلاتين، معمل بيرة القصر (شلوس بريو)، المدخل على بعد ناصية أخرى.

فوق الدام (جسر السكة الحديدية)، يحطون كل شيء، البيوت كلها على جانب المترو يقيمونها، من أين لهم المال، مدينة برلين غنية، ونحن ندفع الضرائب.

محل لوزر وفولف للتبغ والدخان باللافتة الفسيفسائية هدموه، وعلى بعد عشرين متراً انتصب من جديد، وفي الجانب الآخر أمام المحطة ينتصب

مرة ثانية. لوزر وفولف، برلين - إلبينغ، نوعيات من الطراز الأول بكل مدارس الذوق، البرازيل، هافانا، المكسيك، المعزبة الصغيرة، ليليبوت، سيجار رقم ٨، القطعة بـ ٢٥ بفينيكاً، فينتربالادي، العلبة فيها ٢٥ قطعة، بـ ٢٠ بفينيكاً، لفافات صغيرة رقم ١٠، غير مصنفة، غطاء سومطري، إنجاز خاص في هذا السعر التقريبي، في صناديق سعتها مئة قطعة، كل قطعة بـ ١٠ بفينيكات. أنا أضرب كل شيء. وأنت تضرب كل شيء وهو يضرب كل شيء بصناديق سعتها ٥٠ قطعة وبعلمة كارتونية سعتها عشر قطع، الإرسال إلى كل بلدان المعمورة، بوييرو بـ ٢٥ بفينيكاً. هذا الخبر الجديد جلب لنا الكثير من الأصدقاء، أنا اضرب كل شيء وأنت تسقط على طول.

بجانب مطعم الحبر (البريلات) يوجد ساحة، هناك تقف سيارات فيها موز. اطعموا أطفالكم موزاً. الموزة أنظف الثمار لأنها بقشرتها محمية من الحشرات والديدان والجراثيم. اللهم إلا إذا كانت أمثال هذه الحشرات والديدان والجراثيم تخترق القشرة. الاستشاري تشيرني أشار بقوة إلى أن الأطفال أنفسهم في أولى سنوات العمر. أنا أحطم كل شيء وأنت تحطم كل شيء وهو يحطم كل شيء.

هناك رياح كثيرة في ساحة أليكس، على ناصية تيتس يوجد تيار هوائي شديد. هناك ريح تنفخ داخل البيوت وعلى حفر البناء. ويود الناس أن يختبئوا في الحانات، لكن من يقدر على ذلك، فهذا يعصف عبر جيوب البنطلون، وها أنت تلاحظ أن شيئاً ما يجري، لن يكون هناك تردد، ويريد الناس أن يفرحوا ويمرحوا في هذا الطقس. وفي الصباح الباكر يأتي العمال على متن قارب، من راينكيكندورف ونويكولن وفايسينزي (بحيرة فايسين). سواء أكان الطقس بارداً أم غير بارد.

أكانت هناك ريح أم لم تكن. هاتِ إبريق القهوة، لفّ السندويشات، يجب علينا أن نكدّ ونكدح، فوق يجلس التناولة، هؤلاء ينامون في الحفة من ريش ويمتصوننا فيأخذون لحمنا ويتركون عظامنا.

آيشينغر فيه مقهى كبير ومطعم. من لم يكن له بطن قد يصبح له بطن، من كان له بطن استطاع أن يكبره على هواه. فالطبيعة لا سبيل إلى خداعها! من يظن أنه في الإمكان تحسين خبز وكعك مصنّع من دقيق أبيض ساقط القيمة بمواد إضافية اصطناعية، فإنها ينخدع ويخدع المستهلكين. فالطبيعة لها قوانينها الحيوية وتثأر لكل سوء استعمال. والحالة الصحية المزعزة للشعوب المتمدنة المعاصرة كلها تقريباً لها سببها في التمتع بطعام ساقط القيمة ومحسّن صناعياً. النقائق الممتازة حتى من خارج البيت، ونقائق الكبد ونقائق الدم رخيصة.

صحيفة «المجلة» الممتعة جداً عوض عن مارك واحد بـ ٢٠ بفينيكاً، ومجلة «الزواج» ممتعة جداً وظريفة بـ ٢٠ بفينيكاً. المنادي يدخن سجائر ويعتمر قبة بحارة، أنا اضرب كل شيء.

من جهة الشرق، فايسينزي (بحيرة فايسن)، ليشتينيرغ، فريدشسهالين، شارع فرنكفورت، تتكوم الحافلات الكهربائية الخضراء في الساحة عبر شارع لانديسبيرغ. وتأتي الحافلة رقم ٦٥ من فناء المشية المركزي، دائر الناحية الكبير، ساحة فيدينغ، ساحة لويزي، والحافلة ٧٦ حلقوم كلب فوق شارع هوبيرتوس. وعلى ناصية شارع لانديسبيرغ صفّوا فريدريش هان الذي كان من قبل متجراً وأفرغوه وسيقضون عليه. هنا تقف الحافلات الكهربائية والباص رقم ١٩ شارع تورم. وحيث كان يورجينز، حانوت لوازم الكتابة، فإنهم هدموا البيت، وأقاموا بدلاً منه سياج بناء. هنا يجلس رجل مسنّ ومعه ميزان طبي: راقب وزنك، بـ ٥

بفينيكات. يا إخوتي الأعزاء ويا أخواتي العزيزات الذين يدبّون كالنمل على ساحة أليكس لا تبخلوا على أنفسكم بهذه النظرة، انظروا عبر الشجرة بجانب الميزان الطبي إلى مكان الردم حيث راج وازدهر محل يورجينز، وما زال يتصب هنا متجرهان، وقد تمّ إفراغه وأخلي من كل شيء وأخرجت منه محتوياته، والخرق الحمراء وحدها لا تزال ملصقة على واجهات العرض. كومة من القمامة موضوعة أمامنا. من التراب جئت وإلى التراب تعود ثانية، أشدنا منزلاً فخماً، وما من بشر يدخل إلى هذا المكان ويخرج منه. وهكذا حلّ الدمار بروما وبابل ونيوى وهانيعل وقيصر، كل شيء خراب، يا إلهي، تذكروا هذا. أولاً عليّ أن أقول في ذلك أنّ المرء ينقّب الآن من جديد عن هذه المدن كما تبيّن الرسوم في العدد الخاص الأخير، وثانياً حققت هذه المدن غرضها، وفي الإمكان الآن إعادة بناء مدن جديدة. أنت لا تشكو أبداً من سراويلك القديمة عندما تهترىء وتصبح خلقة، فتشتري أنت سراويل جديدة، وبهذا يحيا الوجود.

الشرطة تسيطر سيطرة شديدة على الساحة، إنها تقف في نسخ متعددة على الساحة. وكل نسخة تلقي نظرات فاحصة إلى جهتين وتعرف قوانين السير على ظهر قلب. وتلبس لفافة الساق، وتتلى على جانبها الأيمن عصا مطاطية، وتلوح بالذراعين أفقياً من الغرب نحو الشرق، وهنا أعيت الحيلة الشمال والجنوب، ويتدفق الشرق صوب الغرب والغرب صوب الشرق. ثم تحوّل النسخة من تلقاء نفسها: فيتدفق الشمال صوب الجنوب والجنوب صوب الشمال. فالشرطة مفصلة تفصيلاً محبوباً. وبهزة أتت عنها يمشي على الساحة باتجاه شارع الملك نحو ٢٠ شخصاً غير رسمي، بعضهم يتوقف على الرصيف وسط الشارع، والبعض يصل بسهولة ويسر إلى الجانب الآخر، ويواصل تجواله على الخشب. كما أنّ كثيرين اتخذوا طريقهم إلى الشرق وواجهوا الآخرين، وكذلك كانت حالهم، لكن لم يحدث أي

شيء لأيّ منهم. إنهم رجال ونساء وأطفال، وآخرهم، أي الأطفال، غالبيتهم بأيدي النساء. وإنه لمن الصعوبة أن تحصيهم كلهم وأن تصف مصيرهم، وقد لا يتأتى هذا إلا عند البعض. الريح ترمي بالتساوي تبناً فوق الجميع. وجه الجواله نحو الشرق لا يتميز بشيء عن وجه الجواله نحو الغرب والجنوب والشمال، فهم يتبادلون أدوارهم، والذين يمشون الآن على ساحة آيشينغر يمكن أن يجدهم المرء بعد ساعة من الزمن أمام المتجر الفارغ. ويختلط أيضاً الذين يأتون من شارع بروّنين (النافورة) ويريدون الذهاب إلى جسر يانوفيتش، مع المتوجهين اتجهاً معاكساً. أجل، كثيرون ينعطفون أيضاً جانباً، من الجنوب إلى الشرق، ومن الجنوب إلى الغرب، ومن الشمال إلى الشرق. مثلهم مثل أولئك الذين يجلسون في الباص وفي الحافلات الكهربائية. فهؤلاء كلهم يجلسون في جلسات مختلفة ويجعلون بذلك وزن العربة المكتوب خارجاً أثقل. ماذا يعتمل في داخلهم، من يستطيع أن يكشف عن ذلك، موضوع هائل. ولو تمّ القيام بذلك، فمن يخدم هذا؟ كتب جديدة؟ حتى الكتب القديمة لم تعد سوقها رائجة، ففي عام ٢٧ تراجع بيع الكتب عن عام ٢٦ بكذا نسبة. فليعتبر المرء الناس ببساطة أشخاصاً غير رسميين دفعوا ٢٠ بفينيكاً، باستثناء من عنده بطاقات شهرية والطلاب الذين لا يدفعون إلا ١٠ بفينيكات، وهؤلاء يسيرون على ساحة ألكسندر بوزنهم الذي يتراوح من ٥٠ كيلو غراماً إلى مئة كيلو غرام، بشياهم وحقائبهم وطرودهم وصحافهم وقبعاتهم وأطقم أسنانهم الاصطناعية، وأحزمة الفتق ويحتفظون بالقصاصات الطويلة المنطوية على الأسرار المكتوب عليها: خط رقم ١٢ شارع سيمنز دأ، شارع غوتسكوفيسكي، ب، بوابة أورانيبورغ ج، ج، بوابة كوتبوس أ، علامات سرية، من يستطيع أن يحزر، من يستطيع أن يسمي هذا وأن يعترف، ثلاث عبارات أذكرها لك كثيرة المعنى، والقصاصات مثقوبة أربع مرات في مواضع محددة، وعلى القصاصات كتب باللغة

الألمانية نفسها التي كتب بها الإنجيل والقانون المدني: صلاحية الوصول الى وجهة السفر على أقصر الطرق، ولا ضمان لقطار الوصل. إنهم يقرؤون صحفاً متعددة الاتجاهات، يحافظون بواسطة تيههم (أذنهم الباطنة) على التوازن ويمتصون الأوكسجين ويحلمون وهم يقظي، ويتألمون ويفكرون ولا يفكرون، وهم سعداء وهم تعساء، وهم لا سعداء ولا بؤساء.

طق طق يدق مدق الركائز في الأرض، أنا اضرب كل شيء، قضيب آخر. وتتر فوق الساحة من ناحية مجلس المحافظة، ها إنهم يبرشمون، ها إن آلة إسمنت تقلب حملها. السيد أدولف كراون، خادم، يتفرج، قلب السيارات يستأثر بلبه بشكل هائل، أنت تضرب كل شيء، هو يضرب كل شيء. إنه يترصد دائماً باهتمام شديد كيف تصعد شاحنة بها رمل إلى إحدى الجهات، ها قد جاءت القمة، أخ، ثم تلف. لا رغبة لأحد أن يرمى به هكذا خارج السرير، الساقان إلى فوق، والرأس إلى الأسفل، ها أنت مطروح هنا، ويمكن أن يحدث هذا لأي كان، لكنهم يزيلون هذا دائماً.

يحمل فرانس بيركوبف كيس الظهر من جديد ويبيع صحفاً. ويغير مسكنه. ويغادر بوابة روزيتال ويقف عند ساحة ألكسندر. إنه الآن فوق الدام (جسر السكة الحديدية) تماماً، طوله ١٨٠، ووزنه نزل، لكن هذا يسهل حمله أكثر. وعلى الرأس يلبس قبعة جرائد.

إشارة خطر أزمة في الرايخستاج، والناس يتكلمون عن انتخابات آذار. وأغلب الظن انتخابات نيسان، إلى أين، يا يوسف فيرت؟ ويستمر الصراع في أواسط ألمانيا، ينبغي تشكيل مجلس تحكيم، غارة سلب ونهب في شارع تيمبلهيرين. كان لها مراقبها عند مخرج المترو نحو شارع ألكسندر مقابل سينما أوفاء، وفي هذه

الجهة بنى النظاراتي فروم متجره. وينظر فرانس ببيركوبف إلى شارع مينس من فوق إلى تحت حين وقف في الزحام وفكر: ترى كم يبعد اليهوديان من هنا، إنهما لا يسكنان بعيداً من هنا، كان هذا في أول الأمر مزعجاً لي، ربما أقوم بزيارة خاطفة لهما، وفي إمكانهما أن يتاعا مني جريدة «المراقب القومي». ولم لا، ترى هل يجبانها، سيان عندي، المهم أن يشتريا الجريدة. يتسم ابتسامة عريضة ساخرة وهو يفكر بذلك، واليهودي المسن نوعاً ما في لاتشين كان والحق يقال مضحكاً جداً. ويقلب بصره فيما حوله، الأصابع متجمدة من البرد، وبالجوار شخص ذو عاهة له أنف مقوَّس، ربما كان مكسوراً. إنذار أزمة في الرايخستاج، المنزل شارع هيبيل ١٧، أخلي بسبب خطر الانهيار، قتل على باخرة أسماك، متمرد أو مجنون.

فرانس ببيركوبف والشخص ذو العاهة ينفخان كلاهما في اليدين. شغل الضحى خامل، رجل نحيف جاوز مرحلة الشباب، يبدو رث اللباس، ويقترّب من فرانس. يعتمر قبعة خضراء من لباد ويسأل فرانس كيف هي الحال مع الجرائد. سأل فرانس هذا ذات مرة. ترى هل هذا خليك بك يازميل، من يستطيع أن يعرف «أجل، أنا في الخامسة والعشرين من العمر» لهذا السبب بالذات، في الخمسين يبدأ نقرس إبهام القدم. كان لنا عند البروسيين نقيب مسن للاحتياط، كان في الأربعين من العمر، وكان من ساربروكين، وكان من ساحبي اليانصيب - هذا يعني، يقول هو، ربما كان تاجر سجائر - وأصيب هذا بالنقرس في الأربعين من عمره، في سلسلة الظهر. لكنه جعل من هذا عندئذٍ وقفة جندي. فقد كان يمشي هذا مستقيماً مثل عصا على عجالات. وكان يتركهم يدهنونه دائماً بالزبدة. وحين لم يعد هناك زبدة، وكان ذلك في عام ١٩١٧، كان هناك فقط بالمين، زيت نباتي ممتاز من جوز الهند، وكان هذا أيضاً زنخاً، عندها تركهم يرمونّه بالرصاص».

«ما الحيلة، في الشركة لم يعودوا يأخذون أحداً. وفي العام السابق أجروالي عملية جراحية، في ليشتينبيرغ، في مستشفى هوبيرتوس. استئصلت بيضة، يقال إنه كان سرطاناً، أقول لك، ما زالت عندي آلام» «حاذر، وفيما بعد لا تقم بالشيء الآخر. الأفضل الجلوس هنا، وخير لك في هذه الحال أن تصبح حوذاً» الصراع في أواسط ألمانيا يستمر، والمباحثات دون نجاح، اعتداء على قانون حماية المستأجر، استيقظ، أيها المستأجر، إنهم يسلبونك السقف فوق الرأس» «أجل، أيها الزميل، تستطيع أن تبيع الصحف، وعليك أن تتمكن من الجري، وكان ينبغي أن يكون لك صوت، وماذا عن الحنجرة، يا أبا الحناء هل تستطيع الغناء؟ ألا ترى أن هذا هو المهم عندنا، على المرء أن يقدر على الغناء عندنا، وأن يقدر على المشي. نحن في حاجة إلى جعجاعين. مكبرات الصوت تؤدي العمل الأفضل. مجتمع أريب محنك، أقول لك. أبصر، كم قرشاً هو هذا؟» «في نظري أربعة» «صحيح. في نظرك أربعة. هذا هو المهم. بالنسبة إليك. لكن إذا كان شخص ما في عجلة من أمره ثم راح يبحث في الجيب وكان معه بفينيك واحد ثم مارك واحد أو عشرة ماركات، عليك أن تسأل إخوة لنا، فهؤلاء كلهم يستطيعون أن يبدلوا ويحولوا. والذين هم محتالون فأولئك هم المصرفيون الحقيقيون، فهؤلاء يتقنون التحويل ويخضمون نسبهم، لكنك لا تفتن إلى أي شيء، فالأمر تجري بمتتهى السرعة».

يتنهد الشيخ: «أجل، سنواتك الخمسون ثم مرض النقرس أيضاً. أيها الزميل، إذا كانت لديك الشجاعة، فلن تسير وحدك، خذ معك شاين، وطبيعي أنك ستدفع لهما، وربما حصلا على نصف المبلغ، لكن عليك أن تؤمن الشغل وتحافظ على ساقيك وصوتك. ويجب أن تكون عندك علاقات وموقع جيد. فإذا أمطرت السماء ابتل كل شيء. والمباريات الرياضية جزء لا يتجزأ من

الشغل الجيد، تغيير حكومي. عند موت إيبرت، يقولون، حجبوا عنهم الصحف. يا رجل، لا تكشّر وجهك هكذا، فلا بأس في هذا كله. انظر إلى مدق الركائز في الجانب الآخر وتصور أنّ هذا نزل على رأسك، فما الداعي إلى أن تهوّل الأمور؟» اعتداء على قانون حماية المستأجر. إيصال لتسورجيل. سأنسحب من حزب خيانة المبادئ. رقابة على أمان الله، ولا يجوز أن تعرف الهند أي شيء.

مقابل كشك راديو فيب - وحتى إشعار آخر نشحن مدخرة مجاناً - تقف فتاة شاحبة اللون بطاقيّة أغرقت بها الوجه وتبدو أنها تعمل ذهنها. سائق سيارة الأجرة إلى جانبها يفكر: ترى هل تفكر هذه بأنها تريد الركوب أم أنه ليس لديها ما يكفي، أم أنها تنتظر شخصاً ما. إلا أنها تحني الجسد قليلاً في معطفها المخملي لكأنه انخلع عنها، ثم تعاود العمل، كل ما في الأمر أنها ليست على ما يرام ثم كان لها في كل مرة مثل هذا القرص في الجسد. إنها تقدم امتحانها، امتحان معلمة، واليوم تريد أن تبقى في البيت، وهذا يعني أن تعمل كمادات، وفي المساء ستتحسن الحال على أية حال.

فترة من الزمن لا شيء، استراحة، الناس يجنون ربحاً كثيراً في مساء التاسع من شباط سنة ١٩٣٨، اليوم الذي أسقطت فيه حكومة العمال في أوسلو، وآخر ليلة من سباق الستة أيام الشتوتغارتي بـ ٧٢٦ نقطة، ٢٢٤٠ كيلومتراً - الوضع في منطقة السار يبدو متفاقماً، وفي عشية التاسع من شباط سنة ١٩٢٨، يوم ثلاثاء [لحظة واحدة من فضلكم، أنتم تشاهدون الآن الوجه الغامض للمرأة الغريبة، وسؤال هذه الحسناء الجميلة موجه إلى كل شخص، حتى أنت: هل تدخن جارباتي كليف؟]، في هذا المساء وقف فرانس

بيركوبف في ساحة ألكسندر عند عمود إعلانات ودرس دعوة الحداثيين الصغار في تريتوف - نويكولن وبريتس لاجتماع احتجاج إلى صالة الاحتفالات إيرميس، جدول الأعمال: الإنذارات الكيفية التعسفية. ومن بينها كان الإعلان: آلام الربو ومنح الأفتعة، اختيار كبير متنوع للنساء والرجال. ثم يقف فجأة ميك القصير إلى جانبه. ميك، إننا لنعرفه. أنت ترى، ها هو آت، يوسّع خطوه.

«يا سلام، فرانس، فرانس»، كان ميك سعيداً، سعيداً كان هو، «فرانس، يا رجل، ما كنت أحسب هذا ممكناً، ويراك المرء ثانية، كأنك من هذا العالم. كنت سأقسم - «إذن ما الأمر؟ أستطيع أن أتصور أنني أقدمت على أمر ما. لا، لا، يا ولد» وهزّ اليدين، وهزّ الذراعين إلى حد الكتف، وهزّ الكتفين إلى حد الأضلاع، ونقرا آباط بعضهما بعضاً، واهتزّ الإنسان بأجمعه وتحرك.

«هكذا هي الدنيا يا غوتليب أن أحدنا لا يرى الآخر. أنا أبيع هنا وهناك» «هنا في ساحة أليكس يا فرانس، ماذا تقول، كان ينبغي أن ألتقيك. ويمرّ المرء بأحدهم وليس له عينان» «أجل هكذا يا غوتليب أحدنا لا يرى الآخر. إني أبيع هنا في هذه الأرجاء» «هنا في ساحة أليكس يا فرانس، ماذا تقول، كان ينبغي أن أراك هنا في وقت من الأوقات. فالناس يمرون ببعضهم بعضاً وليس لهم عيون» «أجل، هكذا هي الحال يا غوتليب».

«وتأبط كل منهما ذراع الآخر وهبطا شارع برينتسلاو» أردت أن تتاجر ذات مرة بالأغبياء يا فرانس» «لا دراية لي بالأغبياء. فالأغبياء يتطلبون ثقافة، وأنا أفتقد هذه. عدت إلى بيع الصحف، فهذا يغذي الشخص الذي هو كفوء لذلك. وأنت، يا غوتليب،؟» «أنا أقف هناك عند شونهاوزر ومعني ثياب رجالية،

سترات مشمعة وسراويل» «ومن أين لك هذه الأشياء؟» «ما زلت على ما كنت عليه الشخص نفسه الذي يسأل دائماً عن المصدر» لا يسأل هذا إلا الفتيات حين يطلبن نفقة» سار فرانس صامتاً بجانب ميك، وانقبضت أساريره» أنتم تمارسون غشكم إلى أن تقفوا في المتاعب» «ماذا يعني هنا الوقوع، ماذا يعني الغش يا فرانس، يجب أن يكون المرء تاجراً، ويجب أن يتقن الشراء».

لم يكن فرانس براغبٍ في أن يتابع معه، لم يكن يريد ذلك، كان صعب المراس. على أن ميك لم يترأخ، اهتز وترجرج ولم يترأخ: «ستصحبني إلى الحانة يا فرانس، وربما تأتي لك أن تشاهد هناك أيضاً تجار المواشي، أنت ما زلت تعرف، هؤلاء أصحاب القضية الذين جلسوا معنا إلى الطاولة في أثناء الاجتماع، حين جئت بالوثيقة. هؤلاء خدعوا أنفسهم أيما خداع بقضيتهم. وها قد وصل الأمر بهم إلى القسم، وهذا يعني الآن جلب شهود ليمين. يا رجل، سيدخرجون من فوق الحصان، لكن قبل كل شيء بالرأس.» «لا يا غوتليب، الأولى بي ألا آتي معك.»

على أن ميك لم يستسلم، كان صديقه الحميم الطيب، بل إنه كان أفضل أصدقائه، وبطبيعة الحال باستثناء هيربيرت فيشوف، لكن هذا كان قواداً، ولم يجب أن يعرف عنه شيئاً، لا، لن يعود إلى هذا أبداً. هبطا شارع بريبتسلاو وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، شركة العرق الحلو، ورشات غزل ونسيج، أنواع المرّبي، حرير، حرير، أنا أنصح بالحرير، شيء عصري جداً للسيدة الجليلة!

وما إن صار الوقت الساعة الثامنة حتى كان فرانس يجلس مع ميك وشخص آخر كان أخرس ولم يقم إلا بإشارات، إلى طاولة في الزاوية في الحانة. كنت حفلة أنس. دهش ميك والأخرس كيف انفتح فرانس في الكلام وأكل

وشرب في لذة، قطعتي قدم خنزير مطهي، ثم فاصولياء وحساء فاصولياء وكبة وبيرة إنغيلهارد الكأس الواحدة بعد الأخرى وتبرّع لهما. وأسند ثلاثتهم الأذرع الواحد إلى الآخر بحيث ما من أحد كان سيقترّب من الطاولة الصغيرة فيزعجهم؛ إلا صاحبة الحانة النحيلة كان لها أن تقترب وترتّب وترفع المائدة وتملأ الكؤوس. وإلى المنضدة المجاورة جلس ثلاثة رجال جاوزوا مرحلة الشباب، وبين الحين والآخر كان كل منهم يمسح على صلعة الآخر. كان فرانس ممتلئ الوجه، ابتسم وتوجهت فتحتا عينيه الضيقتين صوبهم. «ماذا يفعل هؤلاء هنا؟» دفعت صاحبة الحانة الخردل، القدر الثانية: «حسن، سيحب هؤلاء بعضهم بعضاً» «أظن هذا» وزجروا ثلاثتهم وتلمظوا وبلعوا. وأعلن فرانس المرة تلو المرة: «يجب أن يحشو المرء جوفه. إنّ إنساناً ما عنده القوة يجب أن يأكل. إذا لم يكن بطنك ممتلئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً».

المواشي تحركت مندفعة من الأقاليم، من بروسيا الشرقية، من بومرن ومن بروسيا الغربية وبراندينبورغ. وفوق رصيف شحن وتفريغ المواشي تأمم وتثغو. الخنازير تنخر وتشمشم على الأرض، في الضباب تسير أنت. شاب شاحب الوجه يتناول بلطة، هوب، كانت لحظة، وكانت النهاية.

في الساعة التاسعة دخل شاب الحانة وعلق قبعته ومعطفه على الحائط وعزف على البيانو.

امتلات الحانة. وعند البار كان يقف بعضهم وكان يتحدث. وبجانب فرانس جلس بعضهم إلى الطاولة المجاورة، رجال جاوزوا مرحلة الشباب يلبسون قبعات، ورجل أصغر سنّاً يعتمر قبعة صلبة، كان ميك يعرف هؤلاء، ودار الحديث هنا وهناك. والرجل الأصغر سنّاً بعينه السوداوين الغمازتين، شاب مكار من هويغارتن روى:

«ما رأيه هؤلاء في بادئ الأمر وكيف جاؤوا إلى أستراليا؟ في أول الأمر رمل وأرض خلنجية ومرج ولا شجر ولا حشيش ولا شيء. صحراء رملية ولا شيء غير ذلك. ثم ملايين وملايين من الشياه الصفراء. وهذه موجودة هنا وجوداً برياً. وكانت هي التي عاش منها الإنكليز بادئ ذي بدء. وهذه هي التي صدروها أيضاً. إلى أمريكا» «هنا يحتاجون إلى شياه بالذات من أستراليا» «أمريكا الجنوبية، اطمئن إلى ذلك» «فهؤلاء عندهم هناك الكثير الكثير من الثيران. ولا يعرفون ماذا يفعلون بالثيران الكثيرة» «أما الشياه فالصوف. وحيث يوجد في البلد الكثير الكثير من الزوج الذين يريدون. ما هذا، فالإنكليز لا يعرفون إلى أين ينبغي عليهم أن يأخذوا الشياه. الإنكليز، عليك أن تتكفل بهم. ماذا حل بالشياه بعد ذلك؟ في إمكانك الآن أن تسافر إلى أستراليا، حكى لي أحدهم، على مدى البصر لا ترى أية شاة، كل شيء خواء. ولماذا؟ وأين هي الشياه؟» «حيوانات كاسرة» ميك أشار بالنفي: «ماذا حيوانات كاسرة! طاعون بقر. هذا هو دائماً الطامة الكبرى للبلد. هنا تنفق هي، وتقف أنت بعد ذلك مكتوف الأيدي» الشاب ذو القبعة الصلبة لم يوافق في أن طاعون البقر كان الشيء الحاسم. «طاعون المواشي كان سيكون السبب أيضاً. وحيثما يكون الكثير من الماشية ينفق بعضها أيضاً، ثم تنفسخ، ويوجد بعد ذلك أمراض. لكن ليس هذا هو السبب. لا، لقد ولت كلها مسرعة في خيب إلى البحر ما إن جاء الإنكليز. كان هذا خوفاً وسط الشياه في البلد ما إن جاء الإنكليز، وكانوا يقبضون عليها دائماً وكانوا يلقون بها دائماً في العربات، عندها جاءت الحيوانات المزعجة تعدو بالآلاف ودائماً إلى البحر» ميك: «حسناً وهناك. إنه لجميل. دعها تركض. فهناك تقف السفن بطبيعة الحال. وها إن الإنكليز يوفرون مصاريف السكة الحديدية» «أجل ومصاريف السكة الحديدية. هل عندك مرفاع. وقد استمر هذا طويلاً إلى

أن لاحظ الانكليز هذا. وطبيعي أن هؤلاء كانوا دائماً في داخل البلاد ومسكوا وساقوا إلى العربات وبلد ضخم مثل هذا ولا منظمة كما كان في البداية. وفيما بعد كان الوقت متأخراً جداً، متأخراً جداً. المواشي بطبيعة الحال إلى البحر وشربت قذارة مالحة» «وماذا في ذلك؟» «وما بالك؟ هل كنت عطشان وليس عندك شيء لتأكله وتشرب كيفما كان ما هو قذارة مالحة» «الموت غرقاً والنفوق» «بالتأكيد. يقال إنها كانت مطروحة هناك عند البحر آلافاً مؤلفة وأنتت ودائماً عليها السلام» وأكد فرانس: «المواشي حساسة. ويا له من موضوع دقيق مع المواشي. وهنا لا بد من أن يكون المرء قادراً على التعامل مع الماشية. فمن ليست عنده دراية بذلك فعليه أن ينفذ يديه من ذلك».

شرب الجميع في دهشة وتبادلوا التعليقات على رأس المال المبعثر وكل ما يحدث أنهم حتى في أمريكا يتركون القمح يتعفن، الغلة كلها، هذا كله يحدث. «لا»، أوضح ذو العينين السوداوين من هويغارتن، «ما زال هناك المزيد من أستراليا. ولا علم لأحد بذلك، ولا شيء موجود في الصحف، وهذه لا تكتب أي شيء، من يدري لماذا، بسبب الهجرة، وإلا ما من أحد يجيء إليهم. في هذه الحال يجب أن يكون هناك نوع من السحليات، وهذا هو مباشرة نوع ما قبل الطوفان، طوله متر، بل إنهم لا يعرضون هذا في حديقة الحيوان، فالإنكليز لا يسمحون بذلك، ووقعوا على واحدة من إحدى السفن واستعرضوها في أنحاء هامبورغ. لكن ما لبثوا أن منعوا كل شيء. ما باليد حيلة. فهذه تسكن في برك هكذا، في ماء كثيف، وما من أحد يعرف مما تعيش. ذات مرة غرقت قافلة سيارات بكاملها، وهؤلاء لم يبحثوا عنها في المكان الذي انتهت إليه. لا شيء. لا أحد يجروء على ذلك. نعم» هائل، قال ميك، «ومع غاز؟» تروى الشاب: «المفروض أن يحاول المرء. فلا ضرر من المحاولة» صار مفهوماً.

رجل جاوز مرحلة الشباب جلس خلف ميك، والمرفقان على كرسي ميك، رجل قصير ممتلئ العود، وجه شديد الحمرة مكتنز الوجنتين بعينين كبيرتين جاحظتين كانتا تتحركان بسرعة جيئة وذهاباً. تزحزح الرجال بالنسبة إليه. وسرعان ما كان بينه وبين ميك همس. كان الرجل يلبس حذاء طويلاً لامعاً وكان يحمل معطفاً من الكتان على الذراع، وبدا أنه تاجر مواشٍ. وعبر الطاولة تحدث فرانس مع الشاب من هويغارتن الذي أعجبه. وإذا بميك يضرب على كتفه ويومئ بالرأس، نهضاً، ونهض معها تاجر المواشي القصير الذي كان يضحك بهدوء وارتياح. وقف ثلاثتهم جانباً عند المدفأة الحديدية. وخطر ببال فرانس أن المسألة هي مسألة كلا تاجري المواشي مع قضيتهما. عندها أراد أن يشير على فوره بالنفي. لكنه كان تلكؤاً لا قيمة له البتة. أراد القصير أن يهزّ يده وأية أعمال يقوم بها. وضرب يده على حقييته، حقيبة الجرائد. ربما أراد أن يشتري بين الحين والآخر فاكهة أيضاً؛ فهو، هو اسمه بومز ويتاجر بالفاكهة، وأحياناً قد يحتاج هو إلى تاجر سيارات أيضاً. فكان من فرانس أن يجيب بهزة كتفين: «هذا يتوقف على الأجر» وعلى هذا جلسوا ثانية. وخطر ببال فرانس كيف يتكلم القصير بحزم وعزم؛ يحذر من أجل الاستخدام، وللهز بعد الاستخدام.

استمر الحديث، ومن جديد صارت هويغارتن في المقدمة: كانوا عند أمريكا. والشخص من هويغارتن وضع القبعة بين الساقين: «يتزوج هذا إذن امرأة من أمريكا ولا يخطر بباله أي شيء. هل هي زنجية. «ماذا»، يقول هو، «أأنت زنجية؟» أوه، وتطرد خارجاً. كان على الزوجة أن تخلع ثيابها أمام المحكمة. وليس عليها إلا لباس الاستحمام. طبعي أنها ترفض في بادئ الأمر، ولا ضرورة إلى القيل والقال. وكانت البشرة بيضاء تماماً. لأنها كانت هجينة. يقول الزوج، لكنها مع ذلك زنجية. ولماذا؟ لأن أظافر الأصابع تلونت باللون

الأسمر عوضاً من اللون الأبيض. كانت هذه هجينة. «وماذا أرادت هذه؟ الطلاق؟» «لا، أرادت تعويضاً. فقد تزوجها، وربما خسرت مركزها. وامرأة مطلقة ما من أحد يرغب بها. كانت امرأة جميلة الصورة ناصعة البياض. تنحدر من زوج، وربما من القرن السابع عشر. تعويض.»

عند البار كانت ضوضاء ومشاحنة. كانت صاحبة الحانة تتكلم إلى السائق بصوت عالٍ. وهذا عارضها: «لن أسمح لنفسي بأن أعبت بمواد غذائية» وصرخ تاجر الفاكهة: «الزموا الهدوء هناك!» وعلى هذا استدار السائق في عداة ونظر إلى البدين الذي أماته من الابتسام، ثم ساد هدوء ينطوي على خباثة عند البار.

همس ميك لفرانس: «لن يأتي تجار المواشي اليوم. كل شيء عندهم في أمان. والموعد التالي مؤكد عندهم. انظر إلى الأصفر، إنه هنا مدبّر أساسي.» هذا الأصفر الذي أطلق عليه ميك هذه التسمية، راقبه فرانس طوال المساء. أحس فرانس بأنه منجذب إليه بشدة. كان ممشوق القد وكان يلبس معطفاً عسكرياً باهتاً - ترى هل هو شيوعي؟ - وكان له وجه أصفر واسع مرتفع الجبين، والملفت للنظر فيه كانت التجاعيد الأفقية الشديدة على الجبين. ومن المؤكد أنّ الرجل كان في مطلع الثلاثينات، لكن من الأنف إلى الفم امتدت على كلا الجانبين مثل هذه الأخاديد العميقة. والأنف، وكثيراً ما راقبه فرانس بدقة، كان الأنف قصيراً أفتس، مقطّب من حيث الموضوع. والرأس دلّاه إلى الأسفل صوب اليد اليسرى التي أمسكت بالغليون المشتعل. وكان له شعر أسود منتصب.

حين عاد بعد ذلك إلى البوفيه - جرّ ساقيه ورائه، وبدا هذا كأن قدميه قد بقيتا عالقتين دائماً في مكان ما -، عندها رأى فرانس أنّه كان يلبس حذاءً أصفر

يرثى له، والجوربان الرماديان السميكان تمّ طرحهما جانباً. هل الرجل مصاب بالسل؟ يجب إدخاله إلى مصح، مصح بيليتس أو في مكان ما ويتركونه يتجول هنا وهناك. ما الذي يدفع هذا؟ جاء الرجل مجروحاً والغليون في الفم، وفي إحدى اليدين فنجان قهوة، وفي اليد الأخرى عصير ليمون مع ملعقة قصديرية كبيرة. وبهذا جلس من جديد إلى الطاولة، فكان تارة يرشف رشفة من القهوة وتارة رشفة من عصير الليمون. وثبتّ فرانس نظره عليه. يا لعيني هذا الرجل الحزيتين. سيكون قد قعد في السجن أيضاً؛ هيا تعالوا إلى هنا وانتبهوا، يخطر ببال هذا أيضاً، فأنا سجت. صحيح، يا بني، عندنا، تيجل، أربع سنوات، أنت تعرف هذا الآن، وبعد، ما الأمر؟

لم يحدث أيّ شيء آخر هذا المساء. لكنّ فرانس كثيراً ما كان يذهب إلى شارع برينتسلاو ويطرح بنفسه بطريقة فضولية على هذا الرجل في المعطف العسكري العتيق. كان شاباً رقيقاً، إلا أنه كان يتأتمنّى تأتأة شديدة، وكان يستغرق وقتاً طويلاً حتى يقول ما عنده، ولهذا كان يبخل أيضاً مندهشاً متوسلاً. وظهر أنه لم يكن نزيل السجن، مرة واحدة فقط كان سياسياً، مؤسسة غاز كانت على وشك أن تنسف، كانوا قد وشوا بهم، لكنهم لم يقبضوا عليه» وماذا تعمل الآن؟» «أتاجر بالفاكهة وما شابه ذلك. المساعدة. فإن كان هذا غير ممكن فإعانة البطالة» في رفقة غير واضحة كان فرانس قد وقع، فمن عجب أنّ معظم الموجودين هنا كانوا يتاجرون «بالفاكهة»، وكانوا يكسبون من ذلك مالاً وفيراً، والقصير ذو الوجه الشديد الحمرة كان يؤمّنّها، كان تاجر الجملة الخاص بهم. ابتعد فرانس عنهم، كما ابتعدوا هم عنه. لكنه ما فهم الأمر. قال: الأفضل بيع الصحف.

نخاسة مريحة

ذات مساء يدخل ذو المعطف العسكري، الذي كان اسمه راينهولد، في مزيد من الكلام أو التأتأة، وسارت الأمور بذلك على نحو أحسن وأسرع، وشم وسبّ النساء. وأغرب فرانس في الضحك، فالولد يولي النساء في الحقيقة أهمية. وما كان سيستظر هذا منه؛ فهذا كان عنده أيضاً مسّ من الجنون، الجميع هنا كان عندهم مسّ من الجنون، أحدهم هنا والآخر هناك، وما من أحد كان على ما يرام. هذا الولد كان مغرماً بزوجة حوذي، مرافق لأحد معامل البيرة، وبسببه كانت هي قد تركت الزوج، والحقّ أنه كان عبئاً، فهي لم تعد ترغب في راينهولد على الإطلاق. واختنق صوت فرانس من الفرح عبر الأنف، فالولد كان مضحكاً للغاية: «دع هذه تذهب في حال سبيلها» وتلثم هذا ونظر نظرات خيفة: «الحق أنّ هذا غاية في الصعوبة. النساء لا يفهمن، ولا يمكن إعطاؤهن أي شيء مكتوباً» «إذن، هل دونت لها شيئاً ما يا راينهولد؟» تلثم هذا وبصق ولفّ ودار: «قلتها مئة مرة. وتقول هي إنها لا تفهم هذا. شيء من هذا القبيل لا تفهمه هي. لا بدّ أن أجنّ. شيء كهذا لا تفهمه. في هذه الحال يجب أن أستبقّيها إلى أن أنفق».

«ربها» «هي تقول أيضاً» وضحك فرانس ضحكاً شديداً، وتضايق راينهولد: «يا رجل، لا تكن بطيء الفهم إلى هذا الحد» لا، فرانس لا يفهم هذا، ولد جسور هذه الجسارة، يضع متفجرات في معمل الغاز، والآن يجلس هنا ويعزف اللحن الجنائزي. «خذها عني»، تأتأ راينهولد. وضرب فرانس بدافع التسلية والعبث على الطاولة: «وماذا أفعل بهذه؟» «حسن، تستطيع أن تشغلها» هنا ابتهج فرانس: «سأسدي لك هذا المعروف، تستطيع أن تعتمد علي

يا راينهولد، لكن - ستظل عندهن ملفوفاً بالأقمطة» «انظر إليها أولاً وقل بعد ذلك» كان كلاهما سعيداً.

جاءت فرينسي هذه في ظهر اليوم التالي إلى فرانس بيركوبف. وعندما سمع أن اسمها فرينسي فرح على فوره؛ فقد وافق شنّ طبقا، أي إن اسمه هو فرانس. وكان عليها أن تجلب لفرانس من عند راينهولد حذاء غليظاً، هذا هو مكافأته، مكافأة يهودا، وضحك فرانس في أعماقه، عشرة شيلينغات. ها هي تجلب لي بنفسها هذا أيضاً! الحق أن راينهولد هذا لرجل وقح. وإن مكافأة لذات قيمة للآخرين، خطر بباله، واصطحبها في المساء للبحث عن راينهولد، وبحسب التعليمات لم يكن في الإمكان العثور على هذا، وعلى هذا كان عند فرانسي فورة غضب وأغنية تهدئة إلى أبعد حد في غرفته. وفي صباح اليوم التالي ظهرت زوجة الحوذي عند راينهولد الذي لم يتأتى قط: لا، لن يكلف نفسه عناء، ليست في حاجة إليه، عندها رجل آخر، ولم تقل له هذا أبداً. وما إن كانت في الخارج حتى كان فرانس عند راينهولد لابساً حذاءه الجديد الذي لم يعد واسعاً جداً لأنه كان يلبس زوجين من الجوارب الصوفية، ويتعانقان ويضربان على الكتف. «سأسدي لك معروفاً»، رفض فرانس كل التحيات الرسمية.

زوجة الحوذي هذه وقعت في هوى فرانس في أسرع ما يمكن، كان لها قلب مرن لم تكن بعد على علم به حتى تاريخه. سرّ هو أنها أحست أنها تمتلك هذه القوة الجديدة، إذ إنه كان محباً للبشر وعلياً بالقلوب. راقب بمتعة كيف استقرت عنده. المنهج بالذات عرفه هو؛ فالنساء لهن دائماً علاقة في البداية بالسرراويل الداخلية والجرابات الممزقة. لكن أن تنظف هي له دائماً في الصباح أيضاً وبالذات حذاء راينهولد انجلي عنده كل صباح عن حفلة ضحك. قال

حين سألته لماذا يضحك: «لأنّ الحذاء واسع جداً، واسع جداً على واحد. فهذا على قدنا كلينا» حاولاً أيضاً مرة أن يدخلها معاً في حذاء واحد، على أنّ هذا كان مبالغة، وكان هذا مستحيلاً.

الآن كان للتأتاء راينهولد، صديق حقيقي لفرانس، صديقة من جديد كان اسمها سيللي أو أنها ادعت على أية حال أنّها كانت تدعى هكذا. لم يكن هذا ليهم فرانس ببيركوبف على الإطلاق، كما أنه كان يرى سيللي بين الحين والآخر في شارع برييتسلاو. إلا أنّ شكاً غامضاً خطر بباله حين استفسر التأتاء بعد نحو أربعة أسابيع عن فرينسي أو أنّ فرانس تخلص منها. وذهب فرانس إلى أنه كان شخصاً غريب الأطوار مضحكاً، ولم يفهم في أول الأمر. ثم زعم راينهولد: فرانس كان وعد أنه سرعان ما سينفّر هذه. أما ما نفاه فرانس هو أنّ الوقت مبكر جداً على ذلك. فما كان في نيته أن يحصل على صديقة جديدة إلا في الربيع. ثياب صيفية خفيفة، كان سيرى هذا لولم تكن عنده فرينسي، وما كان ليقدر أن يشتري لها أية ثياب صيفية؛ ثم إنها ستذهب في الصيف. وقال راينهولد متقدماً عياباً إنّ فرينسي تبدو الآن أقرب إلى أن تكون مهلهلة الثياب، وأنها ليست ثياباً شتوية مناسبة تلك التي ترتديها، إنها أكثر ما تكون ثياباً صيفية شتوية، وهي الآن ليست مناسبة أبداً لدرجة الحرارة. وعلى هذا حصل حديث طويل عن درجة الحرارة ومقياس الضغط الجوي وعن تنبؤات الطقس، وقرؤوا في الجرائد. وبقي فرانس على رأيه أنّ الطقس لا يمكن معرفته أبداً على نحو صحيح كما هو، أما راينهولد فقد تنبأ بصقيع شديد. عندها لاحظ فرانس أول ما لاحظ أنّ راينهولد أراد أن يتخلص أيضاً من سيللي التي كانت تلبس فرو أرنب غير طبيعي. فقد تكلم بصورة دائمة عن فراء الأرنب غير الطبيعي الجميل» مالي ولحم الأرنب المشوي، قال فرانس في ذات نفسه، «يلح الرجل على شخص ما» «يا رجل، أنت غبي، ليس في وسعي أن أتحمّل

عبء اثنتين على حين كان عليّ أن أترك واحدة، والشغل لا يزدهر أيضاً مثل الليلك. من أين الأخذ ولا سرقة» «لست في حاجة إلى اثنتين. أين قلت، اثنتين. سأطلب من إنسان بطريقة جائرة أن يتحمل عبء امرأتين. لست تركيا» «لقد قلت لك» «حسناً، وأنا لا أقول أيضاً على الإطلاق. إذا قلت لك إنّ عليك أن تتحمل عبء اثنتين. ولم لا يكن ثلاثاً. لا، فلتطرد أنت هذه - أم أنّ عندك شخصاً ما؟» «وأي شخص هو هذا؟» أي شيء يقصد هذا من جديد، وهذا الشاب عنده دائماً مسّ من الجنون. «أستطيع شخص آخر أن يأخذ منك هذه، أي فرينسي» كان صاحبنا فرانس غاية في السعادة ويضرب هذا على ذراعه: «يا ولد، أنت إنسان مسير مدفوع، لكنك التحقت بالمدرسة العليا، يا سلام، وها أنا أقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل. وها نحن نزاول تجارة نصف جملة، ماذا، كما في التضخم النقدي؟» «ولم لا، فالنساء موجودات بكثرة على كل حال».

«بكثرة شديدة. يا سلام يا راينهولد، أنت تحفة وغريب الأطوار، ما زلت غير قادر على التنفس» «على رسلك، وماذا بعد؟» «هيا بنا، فالصفقة سليمة. سأبحث عن شخص. وسأجد واحداً. أخالني غيباً أمامك! فأنا أشمّ الهواء على الوجه الصحيح».

نظر راينهولد إلى هذا. كان في هذا شيء من الجنون. وهذا هو في الحقيقة مغفل كبير، فرانس بييركوبف. أحقيقة أنّ الرجل فكّر بأن يتحمل عبء امرأتين دفعة واحدة.

وفرانس كان متحمساً جداً للصفقة بحيث إنه اتخذ طريقه لتوه وقصد إيدي القصير ذا العاهة في بيته: ترى هل يرغب في أن يحصل منه على فتاة، فهو عنده فتاة أخرى ويرغب في أن يتخلص من هذه.

وهذا بالذات ناسب هذا، فقد أراد هذا أن يعطل عمله، ثم حصل على إعانة مرض، واستطاع أن يعتني بنفسه قليلاً، وهذه يمكنها أن تتابع له عندئذ حاجياته، وتذهب إلى صندوق التأمين. أما أن تستقر عندي، هذا ما قاله على فوره، فهذا غير وارد عندي.

وفي ظهيرة اليوم التالي مباشرة وقبل أن يعود إلى الشارع أقام فرانس الدنيا وأقعدها ضحيجاً وعجيجاً على زوجة الحوذي من أجل لا شيء ولا شيء من جديد. ورفعت هذه صوتها عليه. وتعالى صراخه مبتهجاً. وبعد ساعة عاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي: ساعدها الأحذب في حزم متاعها، وجرف الغضب فرانس، واتخذت زوجة الحوذي مسكناً لها عند الأحذب لأنها لم تدر إلى أين تذهب. ومضى الأحذب إلى طبيبه وبلغ أنه مريض، وفي المساء صب كلاهما الشتائم معاً على فرانس بيبركوبف.

أما سيللي فقد حضرت إلى عند فرانس. ماذا تريد يا صغيرتي؟ أعندك وجع، أين يكون الوخز واللسع، بحق السماء.

«كان عليّ أن أسلمك ياقة من الفرو» أمسك فرانس الياقة المصنوعة من الفرو بيده مستحسناً. شيء حلو وجميل. من أين يحصل هذا الولد على الأشياء الجميلة. المرة الماضية كان حذاء فقط. سيللي، التي لا تعرف شيئاً تدمرت على نياتها: «أنت وصاحبي راينهولد تربطكما صداقة قوية؟» «أي والله»، ضحك فرانس، «إنه يرسل لي من وقت إلى آخر مواداً غذائية وقطع ثياب، وعنده من هذا الكثير الكثير. وآخر مرة أرسل إليّ زوجاً من الأحذية. حذاء لا غير. مهلاً، يمكنك أن تعطي رأيك فيه أيضاً.» ليت فرينسي، الحقيرة، الغبية، لم تجره معها؛ أين هو، أخ، كان سيكون هنا.

«انظري، يا آنسة سيللي، هذا ما أرسله إليّ في المرة الأخيرة. فما رأيك في ماسورتي المدفع هاتين؟ يمكن أن يدخل فيهما ثلاثة رجال. ادخلي ساقيك فيهما» وحين تشارك في ذلك تكرر، إنها تلبس لباساً مناسباً، يا للمخلوقة، أي شيء تقول، حلوة جذابة، تبدو لطيفة جداً في معطف أسود له ياقة من الفرو، ويا لمخ راينهولد السميك أن يتخلص من هذه، وأين يصطاد هو دائماً الفتيات الحلوات. ها إنها هي تقف في ماسورتي المدفع. ويفكر فرانس بالموقف السابق، أنا مشترك في النساء كما في غرفة ملابس شهرية، ويدسّ رجلاً، الحذاء مقلوب، خلفها في الحذاء. سيللي تصرخ، لكنّ ساقه تدخل، تريد أن تولّي مسرعة، إلاّ أنهما كليهما يججلان، وعليها أن تأخذه معها. ثم يغوص هو عند الطاولة بالقدم الأخرى في ماسورة المدفع. ويختل توازنهما. ويسقطان، ويحدث صراخ وزعيق، يا آنسة، اكبحي جماح مخيلتك، دعيهما كليهما تحتك، فها تان عندهما الآن أوقات مقابلة خصوصية، وبالنسبة إلى أعضاء شركة التأمين فيما بعد من الخامسة حتى السابعة.

«أنت، يا فرانس، راينهولد ينتظرنني، أنت لن تقول له أي شيء، رجاء، رجاء.» وهل سأفعل هذا يا صغيرتي الحلوة.» ثم رآها كلياً في المساء، هذه الصغيرة الكثيرة البكاء والنحيب. في المساء يسببن ويشتمن دائماً بشدة، كما أنها هي أيضاً شخص لطيف جداً، ثيابها جميلة، المعطف الذي يكاد يكون جديداً، وزوج من أحذية حفلات الرقص، وهذا كله تجلبه معها، يا أنت، هذا كله أهداك إياه راينهولد، هذا ما يشتريه هو على مرحلة.

بإعجاب وابتهاج قابل فرانس الآن راينهولد بصورة دائمة. وعمل فرانس ليس سهلاً، إنه يحلم مشغول البال بنهاية الشهر، إذ إنّ راينهولد

الصموت والقليل الكلام جداً سيبدأ بالكلام ثانية. وها إن رايנהولد يقف ذات مساء بجانبه عند مترو ساحة ألكسندر أمام شارع لانديسبيرغ ويسأله عما إذا كان مرتبطاً بأي موعد هذا المساء. ما هذا، فالشهر لم ينته بعد، ما الأمر، كما أن سيللي تنتظر في الواقع فرانس - لكن لتذهب مع رايנהولد، وطبعي مع أكبر سيارات الشحن.

وهاهما يتجولان الهويني على الأقدام - ماذا تقصد، إلى أين -، يتجولان نزولاً إلى شارع ألكسندر. ويلح فرانس دائماً إلى أن يتوصل إلى أين يريد رايנהولد. «هل نريد الذهاب إلى صالة رقص فالتريشين ونرقص؟» يقصد جيش الإنقاذ والذهاب إلى شارع درسدن! يريد أن يستمع إلى هذا. يا خبر. هذا يدل على رايנהولد على الوجه الصحيح. يا لهذه الأفكار التي يمتلكها. وأنداك شهد فرانس لأول مرة أسمية عند جنود الإنقاذ. كان مضحكاً جداً، ودهش من هذا أيها دهشة.

في التاسعة والنصف وحين بدأت النداءات إلى كبش الفداء صار رايנהولد في الصالة غريباً كل الغرابة، اندفع كما لو أن شخصاً ما يطارده، دائماً إلى الخارج، يا رجل، ماذا حدث. وعلى السلم سبّ وشتم صوب فرانس: «عليك أن تأخذ حذرِك من الفتيان. فهم يظنون يلحون عليك إلى أن تنقطع أنفاسك فتوافق على كل شيء» «ما هذا، ما هذا، ليس معي أنا أبداً، في هذه الحال عليهم أن يبكروا إذا ما أرادوا خداعي» ظل رايנהولد يسب ويشتم طالعاً نازلاً في شارع البرينس، وتتابع الأمر على هذه الحال دون توقف وتمخض شيء ما. «أريد أن أتخلص من النساء يا فرانس، لم تعد بي رغبة» «يا إلهي، وكنت سررت بالمرأة التالية» «أتظن أنه يلذّي أن أعود إليك في الأسبوع القادم، ويكون عليك أن تأخذ مني ترودي الشقراء؟ لا، على الأساس...» «الأمر لا يتوقف عليّ يا رايנהولد، ولم؟ يمكنك

الاعتماد عليّ. فمن جهتي أنا في إمكان عشر نساء أن يأتين إليّ، وأناويهن كلهن يا راينهولد» دعني أقرّ عيناً وأنعم بالاً بالنساء. أما إذا انتفت عندي الرغبة فماذا يا فرانس؟» في هذه الحال سيجد المرء طريقه ويتضايق. «لا، إذا لم تكن تريد النساء، فالمسألة في غاية البساطة، في هذه الحل تركهن. ونحن نرضيهن دائماً. فأحدهن التي هي عندك آخذها أنا منك، وتتخلى في هذه الحال عن هذه» ٢×٢ يعطي أربعة إذا كان في وسعك أن تحسب، هل تفهمني، وليس هناك ما يدعو إلى النظر نظرات خبيثة متربصة، وينظر هذا إلى أحدهم نظرات خبيثة متربصة. وإذا شئت، تستطيع أن تحتفظ بالأخيرة أيضاً. وماذا الآن، الرجل مضحك، يجلب الآن قهوته وعصير ليمون، فلا يستطيع أن يتحمل أي عرق، يترنح، عندئذ لم ينس راينهولد بنت شفة لوهلة من الزمن، ولم يعد إلى نبش ما عنده إلا بعد أن أفرغ في جوفه ثلاثة فناجين من القهوة الخفيفة الرديئة.

حقيقة مسلم بها لا مجال للجدال فيها أنّ الحليب مادة غذائية عالية القيمة للأطفال، ولا سيما الأطفال الصغار والرضع، وفضلاً عن ذلك ينصح بها للتقوية بالنسبة إلى المرضى، ولا سيما حين يؤخذ إلى جانب هذا طعام آخر يحتوي على مادة غذائية. لكن مما يؤسف له أنّ لحم الضأن هو على سبيل المثال طعام مريض معترف به عموماً من قبل مراجع طبية، لكن وللأسف لم يقدر هذا الطعام حق قدره. إذن لا اعتراض على الحليب إطلاقاً. إلا أنه لا يجوز بطبيعة الحال أن تأخذ هذه الدعاية أشكالاً ضخمة غير معقولة. على أية حال، يخطر ببال فرانس: إني لأؤثر البيرة إذا ما أحسن تخزينها، فلا تعليق على البيرة.

إذا ما صوّب راينهولد عينيه نحو فرانس، - بدا الولد منهوك القوى لو لم ينفجر في العياط: «كنت هنا موجوداً مرتين يا فرانس، في جيش الإنقاذ. وقد

تكلت مع أحدهم أيضاً. وأقول لهذا «موافق»، أمالء وأؤيد، وبعدئذ أسقط. «ماذا يكون؟» «إنك لتعرف أنني سرعان ما أمل من النساء. وها أنت ترى هذا يا رجل. بعد أربعة أسابيع، ثم تكون النهاية. لماذا، لا أدري. لم أعد أصبو إليهن. وقبل ذلك أريد واحدة حتى الممات، وما عليك إلا أن تراني، مهوساً بهن كل الهوس، يجب سجنني مباشرة في زنزانة مطاطية، مجنون إلى هذا الحد. وبعدها لا شيء، يجب أن تخرج، لا تستطيع أن ترى، سيكون في الإمكان أن ترمي المال أيضاً وراءها لو أني لا أراها» دهش فرانس: «إلى هذا الحد يا رجل، ربما كنت فعلاً مهوساً. رويدك...» «ثم كنت في جيش الإنقاذ، قلت لك، ثم صليت مع أحدهم...» بهت فرانس واندesh:

«أصليت؟» «يا رجل، إذا لم تجد في نفسك رغبة وضائق بك السبل» يا لطيف، يا لطيف. يا له من ولد، والله في خلقه شؤون. أجدى هذا نفعاً أيضاً، أسابيع ستة، ثمانية، ويفكر المرء بشيء آخر، تجلّد وتماسك، الشيء مقبول، الشيء ممكن» «أنت يا راينهولد، ربما ذهبت ذات مرة إلى مستشفى الشاريتيه. أو لربما أنه ما كان عليك أن تفرّ الآن راكضاً فوق في الصالة. كان يمكن أن تجلس في صدر المكان من غير حرج على المقعد الخشبي. فليس هناك من داع لأن تجل مني». «لا، لم أعد أرغب، وهذا لم يعد يجدي نفعاً، وهذا كله عبث في عبث. علام أزحف أنا هناك في الأمام وأصلي، ومع ذلك فأنا لا أو من» «أجل، أستطيع أن أفهم هذا. إن لم تؤمن فلا جدوى من هذا» وراقب فرانس صديقه الذي راح ينظر متضيقاً في فنجانه الفارغ. «ترى هل أستطيع أن أساعدك يا راينهولد، أنا، - لست أدري. علي أن أفكر في الموضوع. المفروض أن يسد المرء نفسه عن النساء إلى غير رجعة أو شيء

من هذا القبيل» «في وسعي أن أتقياً الآن من ترودي الشقراء. لكن غداً أو بعد غد، عندئذٍ ستراني حين تصل نيللي أو غوستي أو أية واحدة كان اسمها، وما عليك إلا أن ترى راينهولد عندئذٍ. بأذنيه الحمراءوين. ولا شيء عنده إلا هذه. ولو أنه كان عليك أن ترمي بنقودك كلها فلا بد أن يكون عندك هذه» «وماذا تحب بصورة خاصة؟» «أنت تقصد بما تصل يدها إلي؟ أجل، عليّ أن أقول. بلا شيء. هذا بالذات هو الموضوع. إحداهن - وأعرف هذا - ذات شعر مقصوص مثل الغلمان أو أنها تنكّت. لماذا أحبها، يا فرانس، لا أدري. النساء، أسألهن، إنهنّ سيندهشن أيضاً حين أحلق فجأة مثل ثور وأبقى متمسراً في مكاني. اسأل سيللي. لكنني لا أستطيع أن أتخلص من هذا ولا أستطيع فكاً منه».

ما زال فرانس يراقب راينهولد هذا.

إنه حصاد اسمه الموت، أوتي القوة من الرب العظيم. اليوم يشحد منجله، إنه يقطع على نحو أفضل بكثير، سيحصد به عما قريب، وعلينا أن نكابد هذا.

صبيّ غريب عجيب. وبيتسم فرانس. ولا يبتسم راينهولد على الإطلاق.

إنه حصاد اسمه الموت أوتي القوة من الرب العظيم. وسيحصد بمنجله عما قريب.

ويفكر فرانس: سنهزك قليلاً، يا رجل. سننزل القبة في قفاك ١٠

سيتيمترات زيادة. «حسن، سنتدبر الأمر يا راينهولد. سأسأل سيللي هذه».

فرانس يفكر بالنخاسة وفجأة لم يعد يرغب، إنه يريد شيئاً آخر
«سيللي، لا تجلسي في حجري. لا تتصرفي هكذا. أنت حلوتي الصغيرة.
والآن احذري مع من كنت» .

«لا أريد أن أعرف» «يا مبوّزة، يا مدغدغة، إذن مع من؟ مع - راينهولد»
عندئذ استحالت الصغيرة إلى شخص ماكر خداع، لماذا فقط: «راينهولد،
هكذا، وماذا حكى؟»

«حكى كثيراً» «هكذا. وتترك المجال لأن يحكي لك هذا كله وتصدّق
أيضاً، ما الأمر؟».

«لا شيء بتاتاً يا سيللي الصغير.» إذن، فلأنصرف أنا. ثم أنتظرك ثلاث
ساعات بالتمام والكمال، وبعدها تريد أن تهذي في حديثك وتحكي لي «لا أبداً،
يا بنت الناس [عند هذه مس]، عليك أن تحكي لي شيئاً ما. أمّا هو فلا» «ما
الأمر؟ أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق: ثم بدأت الأمور. سيللي، المخلوقة
الصغيرة المشاكسة هاجت وماجت، وصعب عليها أحياناً أن تتابع الحديث لأنها
بدت في أثناء ذلك حلوة كل الحلاوة، وكانت على أهبة الانطلاق، وضمها
فرانس هذا بعشق في أثناء الحديث، لأنها بدت في أثناء ذلك جميلة وحلوة، فيا لها
من طائر بهيج كرزي اللون، وراحت تبكي الآن حين خطر ببالها كل شيء».

«إذن، الرجل، راينهولد، إنه ليس بعشيق وليس بقواد، إنه ليس برجل على
الإطلاق، مجرد أفاق متشرد. يتفتل هنا وهناك مثل الطائر الدوري في الشارع.
وينقر ثم ينقر، ويلتقط الفتيات. والعشرات يستطعن أن يحكين لك عنه بحكم
التجربة، لا يخطرنّ ببالك أنني كنت الأولى عنده أو الثامنة؟ ربما كان رقمي المئة.
وإذا سألته أنت فهو بالذات لا يعرف كم واحدة كانت عنده. لكن كما في كل

مرة. إذن يا فرانس، إذا بلّغت عن المجرم سيكون لك مني، لا، ليس عندي أي شيء، لكن في هذه الحال سيكون في إمكانك أن تذهب إلى الإدارة العامة للشرطة فتحصل على مكافأة. فهذا لا يبدو عليه أي شيء حين يجلس هكذا ويشغل فكره ويشرب هندباءه، ودائماً قهوة خفيفة، قهوة خفيفة. ثم يلقي بشصّه على إحدى الفتيات» «هل حكى هذا للكل» «أول ما يخطر ببالك ماذا يريد هذا الولد، عليه أن يمعن في الإغاطة، وحرّي به أن يشبع من النوم. ثم يأتيك ثانية هذا الولد الأنيق الجسور، غندور معجب بنفسه، أقول لك يا فرانس، هذا شيء لا يصدق بالنسبة إليك، فما الذي حدث لهذا، هل استرجع شبابه أمس؟ إذن بدأ في الكلام ويستطيع هو الرقص...» «ماذا، رقص، راينهولد يرقص؟» «لا، ليس بهذه الطريقة. لكن أين تعرفت عليه؟ في صالة الرقص، شارع تشاوس زي» «في إمكان هذا أن يجهد نفسه. إنه يأتي بك، يا فرانس، حيثما تكون. وحتى لو أنّ إحداهن كانت متزوجة، فإنه لا يني حتى يحصل عليها. غندور معجب بنفسه.» وضحك فرانس واسترسل في الضحك. لا تتعهد لي بالوفاء. لا تقسم لي، إذ إنّ ما هو جديد يغري ويستثير كل إنسان مع الزمن. فالقلوب النارية الملتهبة لا تهب الراحة أبداً، وتبحث دائماً عن دافع جديد. لا تتعهد لي بالوفاء لأنني أتسلى وأتسرّي، مثلك أنت تماماً.

«ها إنك ما زلت تضحك، يا رجل، يا سلام على واحد مثلك؟» «لكن لا، يا صغيرتي سيللي، الرجل لا يبعث على الضحك الشديد. هو يعود ليندب أمامي أنه لا يستطيع أن يتخلص من النساء» لا يتخلى، لا يتخلى، وأنا لا أستطيع أن أتخلى عنك. خلع فرانس سترته. «عنده الآن ترودي، الشقراء، وربما، ماذا يقصد، هل ينبغي أن أخلّصه منها» وتصرخ المرأة! تستطيع المرأة أن تصرخ! وتصرخ سيللي مثل نمر متوحش. وتتزع السترة من فرانس، وترمي

بها على الأرض، هذه لم اشترها بشرط القطيعة، وفي القريب العاجل ستقطعها، وتستطيع هي ذلك. «فرانس، يا رجل، لقد سكبوا الشوكلاته عليك. ما الأمر، ما خطب ترودي، بالله قل. وتصيح هذه مثل نمر متوحش. فإذا ظلت تصيح وتصرخ بهذه الطريقة أخذتها الشرطة وظنت أنني سأفتح صنبور الغاز عليها؟ دم بارد، يا فرانس» سيللي، كل شيء إلا أن ترمي بقطع الثياب، هذه أشياء لها قيمة وليس من السهل الحصول عليها في مثل هذه الأيام. إذن أعطني إياها. لم أعصك حتى الآن» «لا، لكنك على شيء من البساطة بما فيه الكفاية يا فرانس» «حسن، يجب أن أكون بسيطاً. أما إذا كان صديقي، راينهولد هذا، وهو معذور وفي عسر، لا بل يجر جر خطاه في شارع درسدن صوب جيش الإنقاذ ويريد أن يصلي، تصوّري، في مثل هذه الحال لا بد أن نجاريه إذا ما كنت صديقه. ألا ينبغي أن أخلصه من ترودي؟» «وماذا عني؟» «معك أنت، معك أنت أريد أن اذهب إلى صيد السمك» «يا سلام، علينا إذن أن نتحدث عن ذلك. أين الحذاء تماماً، العالي؟ ابحثي عنه» دعني وشأني يا رجل».

«أريد أن أريك الحذاء، ليس غير، يا سيللي. فهذا جاءني منه أيضاً. أنت، وتعرفين، جلبت لي آنذاك ربطة عنق. وأكثر من هذا. فقبل ذلك جلبت لي إحداهن الحذاء من عنده» القول بهدوء، ولم لا، ليس من خلف السور، بصراحة يصبح كل شيء أحسن.

تجلس هذه على مقعد بلا مسند وتنظر إليه. ثم تنفجر في البكاء، ولا تقول شيئاً. «هكذا هي الحال. وهكذا هو الرجل. لقد ساعدته. إنه صديقي. وهنا لا أريد أن أخادعك» كيف يمكن لهذه أن تنظر إلى الناحية الأخرى. يا له من غضب. يا لك من شخص خبيث، شخص لئيم. هل تعلم إذا كان راينهولد وغداً سافلاً فإنك لأسوأ - أسوأ من أدهى دهاة القوادين وتجار الأعراض» «لا،

أنا لست هكذا» «لو كنت رجلاً...» «من حسن الحظ أنك لست رجلاً. لكن ليس من داع لأن ثورتي وتهاجي هيجاناً اصطناعياً يا صغيرتي سيللي. ما كان قلته. وحين أنظر إليك أفكر في كل شيء. لن آخذ منه ترودي، أما أنت فتبقين هنا»، وينهض فرانس ويأخذ الحذاء ويرميه على الصوان. الموضوع غير مقبول. لن أشارك، هذا يدمر بشراً، لن أشارك. يجب أن يحدث شيء ما. «سيللي، اليوم تبقين أنت هنا، وفي الصباح الباكر وحين ينصرف راينهولد، تذهبين إلى ترودي وتتكلمين معها. سأقف إلى جانبها، وفي وسعها أن تعتمد علي. قولي لها، انتظري، يجب أن تصعد هي إلى هنا ونتكلم نحن معها».

وحين تجلس ترودي الشقراء ظهراً عند فرانس وسيللي يكون وجهها شديد الصفرة وتبدو حزينة، وتصارحها سيللي، راينهولد يغضبها ولا يهتم بها. هذا كله صحيح. وتنفجر ترودي في البكاء، إذ إنها لا تعرف ماذا يريدان هذان منها، ويشرح لها فرانس: «إن الرجل ليس وغداً. إنه صديقي، ولا أسمح لأحد بأن يتناوله بشيء. إلا أن ما يقوم به هو تعذيب حيوانات. إنه عنت وإزهاق نفوس» وعليها إلا تتركه يخيفها ويلقي في نفسها الملح، وهو، أي فرانس، ما عدا هذا سوف... صبراً حتى يأتينا اليقين.

في المساء يمر راينهولد على فرانس ويصطحبه من كشكه، إنه برد قارص، ويقبل فرانس بأن يدعوه إلى كأس من مشروب الروم الساخن، ومقدمات راينهولد يتحملها بهدوء، ثم سارع راينهولد إلى الدخول في موضوع ترودي، فهو ملّ وسئم من هذه، ويريد أن يتخلص منها اليوم.

«أنت يا راينهولد، هل صار عندك واحدة أخرى جديدة؟» وكان لهذا واحدة أيضاً ويقول هذا. ثم يقول فرانس إنه لن يتخلص من سيللي، فهي

تأقلمت عنده جيداً وهي امرأة مهذبة وعلى خلق حسن، وهو، أي راينهولد، ينبغي أن يخفف بعض الشيء كما هو خليف بإنسان مستقيم، ولا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو. لا يفهم راينهولد، يريد أن يعرف ما إذا كان هذا بسبب الياقة، ياقة الفرو. ترودي ستجلب له، ماذا، ساعة جيب فضية أو قبعة فراء ذات غطاءين للأذن، وربما كان فرانس في حاجة كبيرة إلى ذلك. لا، مستحيل، ليس إلا الإمساك عن هذا الكلام الفارغ السخيف. أنا وحدي سأشتري هذا كله. وها هو فرانس يرغب في أن يتحدث إلى راينهولد بطريقة ودية حديث الصديق إلى الصديق. ثم يقول ما كان سيفكر فيه، اليوم أم أمس. وما على راينهولد إلا أن يستبقي ترودي عنده حتى لو أطبقت السماء على الأرض. وعليه أن يعتاد، وستسير الأمور. الإنسان إنسان، والمرأة أيضاً. وإلا لكان في وسعه أن يقتني عاهرة لقاء ثلاثة ماركات، وستكون هذه سعيدة إذا ما استطاعت أن تواصل المشي خبياً. أما أن تغش امرأة في البداية بمعسول الحب والمشاعر ثم تترك الواحدة تمضي تلو الأخرى، فلا، فهذا غير وارد.

وينصت راينهولد إلى هذا على طريقته. ويشرب قهوته ببطء، ويشرد ذهنه. ويقول في هدوء، إذا رفض فرانس بأن يخلصه من ترودي فليكن ذلك. وبدونه سارت الأمور من قبل. ثم ينصرف، فليس عنده وقت.

في الليل يستيقظ فرانس ولا ينام حتى الفجر. الطقس شديد البرودة في المبنى. سيللي نائمة وتشخر بجانبه. لماذا لا يوافيني النوم؟ الآن تسير سيارات الخضار إلى السوق المسقوفة. لا أريد أن أكون حصاناً، أجري ليلاً في البرد. في الإصطبل نعم، فالمكان دافئ. امرأة كهذه تستطيع النوم. وهذه تستطيع أن تنام. أما أنا فلا. أصابع قدمي تجمدت، إنها تحكّني وبشري تاكلني من الحك، شيء

ما في داخله، إنه القلب، الرئتان، التنفس، الإحساس الداخلي، إنه موجود، سيضغط عليه ويزاح، ومن؟ لا يعرف هذا الشيء، ممن. ليس في وسعه إلا القول إنه سهاد وأرق.

يحط طائر على شجرته، وفي النوم تنسل أفعى جنبه، ويستيقظ الطائر من الخشخشة، وهاهو الطائر يحط بريش منفوش، لم يشعر بأية أفعى. هاه، تنفس بلا انقطاع واستنشاق هواء باطمئنان. ويرتمي فرانس. كراهية راينهولد تجثم على صدره وتتشاجر معه. وهذه الكراهية تخترق الباب الخشبي وتوقظه. كما أن راينهولد يضطجع أيضاً. إنه يضطجع بجانب ترودي. إنه ينام نوماً عميقاً، في الحلم يقتل هو، في الحلم يهبي جواً.

★ أنباء محلية ★

كان هذا في برلين في الأسبوع الثاني من نيسان حين كان الطقس في بعض الأحيان أشبه بطقس ربيعي وكما أجمعت الصحافة، أغرى طقس عيد فصح رائع الناس إلى العراء. وفي برلين أطلق آنذاك طالب اسمه أليكس فرينكيل النار على صديقه الصانعة الفنية فيرا كامينسكايا ابنة الثانية والعشرين في البنسيون. والمربية تاتيانا زانفتليين في نفس السن التي كانت قد انضمت إلى الخطة لتودعا الحياة معاً خافت في اللحظة الأخيرة من قرارها وفرت هاربة حين رأت صديقتها ميتة. التقت دورية شرطة، وحكت لهم عن الحوادث الرهيبة للأشهر الأخيرة وقادت الموظفين إلى المكان الذي كان كل من فيرا وأليكس مطروحاً فيه وهما مصابان بجروح مميتة. وأنذرت الشرطة الجنائية، وأرسلت هيئة التحقيق في جرائم القتل موظفين إلى موقع الحادث، فقد أراد أليكس وفيرا أن يتزوجا، لكن الظروف الاقتصادية حالت دون هذا القران.

فضلاً عن ذلك لم تنته بعد التحقيقات في قضية المسؤولية عن كارثة الحافلة الكهربائية في شارع هير. فاستجابات الأشخاص المشاركين والسائق ريدليش سيتم التحقق منها من بعد. وتقارير الخبراء الفنيين لم ترد بعد. وبعد ورودها سيكون في الإمكان القيام بالتحقيق فيما إذا كان السائق مذنباً نتيجة فرملة متأخرة أو أن سبب هذه الكارثة هو تضافر مصادفات مشؤومة.

في بورصة الأوراق المالية سادت صفقات أسهم غير رسمية هادئة؛ وأسعار الأسهم غير المسجلة في سوق البورصة كانت أكثر ثباتاً بالنظر إلى بيان مصرف الرايخ الذي انتهى إلى إصداره للتو، البيان الذي كان يجب أن يظهر صورة مناسبة جداً عند نقص التداول بالأوراق المالية بـ ٤٠٠ مليون وعند نقص حوالات قابلة للقبض بـ ٣٥٠ مليون. وتناهى إلى الأسماك في الثامن عشر من نيسان نحو الساعة الحادية عشرة شركة إي.جي. ٢٦٠ ونصف حتى ٢٦٧، سيمنس وهالسكي ٢٩٧ ونصف حتى ٢٩٩؛ غاز ديساو ٢٠٢ حتى ٢٠٣، سيللوز فالدهوف ٢٩٥. وكان هناك بعض الاهتمام بالبترول الألماني بحدود ١٣٤ ونصف.

وللتطرق مرة أخرى إلى فاجعة الحافلة الكهربائية في شارع هير فإن الأشخاص الجرحى المصابين في الحادث إصابات خطيرة هم في طريق التحسّن. في الحادي عشر من نيسان أطلق سراح المحرر براون بقوة السلاح من سجن موييت. كان مشهداً من أفلام الغرب المتوحش، فقد بدأت المطاردة، وعلى الفور بلغ نائب رئيس محكمة الجنايات الجهة القضائية العليا البلاغ المناسب. ولا تزال تستمر حالياً استجابات شهود العيان والموظفين المشاركين.

وفي هذا الوقت قلّ كثيراً انشغال الملاء البرليني برغبة أكبر وأهم شركات سيارات أمريكية لتحصل على عروض لشركات ألمانية قوية

برأسها من أجل وكالة مطلقة لسيارات لا نظير لها من ست إلى ثمانى أسطوانات من أجل شمال ألمانيا.

في النهاية يفيد هذا التوجيه، وعندها سألجأ أنا بصورة خاصة إلى جيران دائرة الهاتف شتاين بلاتس: في شارع هاردينبيرغ يتم في مسرح الرينسانس عرض مسرحية «صبي الكوبة» وسط احتفال يوييلي حافل، هذه الكوميديا الطريفة اللطيفة التي تجمع بين فكاهة لطيفة ومعنى أكثر عمقاً للمرة المئة: فمن خلال الإعلانات يطلب من البرلنيين أن يصلوا بهذه المسرحية إلى أعلى تكريم للذكرى السنوية. وفي هذه الحال لا بد من النظر في أمور شتى بعين الاعتبار: صحيح أن البرلنيين يمكن دعوتهم بصفة عامة، إلا أن شتى أنواع الظروف تحول بينهم وبين تلبية النداء. ومن الممكن أن يكونوا في بادئ الأمر مسافرين ولا علم لهم بوجود هذه المسرحية. ويمكن أن يكونوا أيضاً في برلين، لكن ليس لديهم فرصة ليروا الإعلان على عمود الإعلانات، ربما لأنهم مرضى وهم طريحو الفراش. وإن هذا في مدينة عدد سكانها أربعة ملايين لجمع كبير لا يستهان به. وعلى كل حال سيكون في الإمكان إعلامهم عن طريق الإذاعة، في الساعة السادسة مساءً مع أخبار الدعايات أن «صبي الكوبة»، هذه المسرحية الهزلية الباريسية الطريفة التي تجمع بين الفكاهة اللطيفة والمعنى الأكثر عمقاً، يتم عرضها للمرة المائة في مسرح الرينسانس. على أن الخبر قد يتنزع منهم أسفاً على أقصى تقدير أنهم غير قادرين على الذهاب إلى شارع هاردينبيرغ، إذ إن السفر إلى هناك غير ممكن على الإطلاق في حال أنهم كانوا يلازمون الفراش. وفي مسرح الرينسانس ووفق معلومات وثيقة ليس هناك أية تدابير لإدخال أسرة مرضى توضع هنا مؤقتاً من قبل سيارات الإسعاف على سبيل المثال.

فضلاً عن ذلك لا يجوز إغفال الملاحظة: قد يكون هناك ناس في برلين، ومما لا شك فيه أيضاً أنّ هناك من يقرأ إعلان مسرح الرينيسانس، إلاّ أنّه يشكك في حقيقته، لا في حقيقة وجود الإعلان، بل في الحقيقة، وأيضاً أهمية فحواه المنقول بنماذج طباعة. ومن الجائز أنهم قرؤوا هناك بانزعاج وسوء إحساس وامتعاض، وربما في غضب البيان أنّ المسرحية الهزلية «صبي الكوبّة» تمثيلية ظريفة حلوة، فمن تجذب هي وبماذا تجذب هي، وكيف يتأتى للمرء أن يجذبني، فلست في حاجة إلى أن أنجذب. فمن الممكن أن يشتد تضيق الشفاه عندهم بأنّ هذه المسرحية تجمع بين فكاهة ظريفة مليحة ومعنى أعمق. فهم لا يرغبون في الفكاهة الظريفة. إنّ نظام حياتهم شديد، ونفسهم محزونة، إنّما وقورة، فقد وقعت بعض الوفيات في قرابتهم. كما أنهم لا يسمحون بأن يستغفلوهم أيضاً بالملاحظة أنّ معنى أعمق مرتبط ويا للأسف بفكاهة ظريفة. إذ إنه بحسب رأيهم لا يمكن أن يحدث إبطال تأثير الفكاهة الظريفة المليحة وتحييدها على الإطلاق. فالمعنى الأعمق، يجب أن يكون وحده دائماً. والفكاهة الظريفة يجب إزالتها كما أزيلت قرطاجة على أيدي الرومان أو مدن أخرى بطريقة أخرى لم يعودوا يتذكرونها. إنّ بعض الناس لا يؤمنون إطلاقاً بالمعنى الأعمق الذي يكمن في مسرحية «صبي الكوبّة» والذي تمجّده أعمدة الإعلانات. معنى أعمق: لماذا أعمق وليس عميقاً؟ أينبغي أن يكون أعمق أعمق من عميق؟ وهكذا يتشاجر هؤلاء.

إنه لغني عن البيان أنّ مدينة كبيرة مثل برلين يشكّ فيها ناس كثيرون ويتقدون ويذمون كثيراً وكذلك أيضاً كلمة كلمة في الإعلان المثبت من قبل المدير. فهم لا يريدون أن يعرفوا أيّ شيء عن المسرح. وحتى لو أنهم لا يأخذونه مأخذ الانتقاد وحتى لو أنهم لا يحبون المسرح، ولا سيّما مسرح الرينيسانس في

شارع هاردينبيرغ وحتى لو أنهم اعترفوا أنه حدث في هذه المسرحية اتحاد بين فكاهة ظريفة ومعنى أعمق فإنهم لا يريدون أن يشاركوا في ذلك، إذ إنهم اليوم مساء مرتبطون بشيء ما. وبهذا سيتناقض عدد الناس الذين سيتدفقون إلى شارع هاردينبيرغ تناقصاً شديداً، وسيكون في الإمكان الحصول بالقوة على عروض تفرعية لمسرحية «صبي الكوبّة» على سبيل المثال في صالات مجاورة.

ونعود أدراجنا بعد هذا الاستطراد الذي يوسّع نطاق الخبرة حول أحداث عامة وخاصة في برلين عام ١٩٢٨، إلى فرانس بيبركوبف وراينهولد ومتاعبه التي مصدرها البنات. ويحتمل أنه لا يوجد لهذه الأخبار أيضاً إلاّ وسط صغير من المهتمين. لا نريد أن نناقش أسباب ذلك. على أنّ هذا يجب أن إلاّ يمنعني أنا من جهتي من أن أتبع بهدوء آثار إنساني الأدمي الصغير في برلين، المركز والشرق، فكلّ يقوم لتوّه بما يعده ضرورياً.

فرانس يتخذ أسوأ قرار. إنه لا يلاحظ أنّ الأشواك تحيط به وأنه يجرّ على نفسه وبالاً

لم تسر الأمور مع راينهولد على ما يرام بعد الحديث مع فرانس بيبركوبف. فراينهولد لم يكن لديه استعداد، على الأقل حتى الآن، لأن يكون فظاً تجاه النساء مثل فرانس. فكان لا بدّ لأحدهم أن يساعده في مثل هذه الحال وها هو الآن خلو الجيب. فالنساء كنّ يطاردنه، ترودي التي كانت لا تزال عنده، والأخيرة سيللي وما قبل الأخيرة التي نسي اسمها. كلهن تجسسن من حوله، تارة متخوفات قلقات [آخر طقم]، وتارة ناقمات حاقدات [ما قبل آخر طقم]، وتارة متعطشات إلى حبّ جديد [طقم قبل الأخير باثنين]. وآخر واحدة التي كانت في الأفق، واحدة اسمها نيللي من السوق المركزية المسقوفة، أرملة، وكانت قد

وقعت وخرّت، حين ظهر بالتتابع كل من ترودي وسيللي، وأخيراً رجل بصفة شاهد قسم، واحد اسمه فرانس بيركوبف، صديق بالذات لراينهولد، حضر عندها وحذّرها. أجل، هذا ما فعله فرانس بيركوبف. «أيتها السيدة لابشينسكي - كان هذا اسم نيللي بطبيعة الحال -، أنا لا أفعل هذا بأن آتي إليك لكي أقلل من قدر صديقي أو أي كان. حقاً هذا أمر لا أفعله، فأنا لا أتدخل في شؤون الناس الآخرين، ما هذا، لكن ما هو صحيح يجب أن يبقى صحيحاً. أن تلتقي امرأة تلو الأخرى في الشارع، هذا أمر لا أتحمّل مسؤوليته. وهذا أيضاً ليس الحب الحقيقي».

تركت السيدة لابشينسكي صدرها يعلو وينخفض احتقاراً. راينهولد هذا يجب ألا يدوس بسببها على بدلة السهرة الرسمية. فهي في النهاية ليست حديثة العهد بالرجال. وتابع فرانس: «إني لأسمع هذا بسرور، هذا يكفيني. ثم إنك لتعرفين أيضاً. إذ إنك تفعلين خيراً، وهذا ما يهمني بالذات. ويرثي المرء لحال النساء اللواتي هن بشر مثلنا، ثم راينهولد نفسه. إنهن يحطمنه. ولهذا لا يشرب لم يعد يشرب البيرة ولا العرق، إنما القهوة الخفيفة فقط، إنه لا يتحمل قطرة واحدة. وما عليه إلا أن يتمالك نفسه. فهذا يحمل قلباً طيباً».

«يحمل هو. يحمل»، بكت السيدة لابشينسكي. وأوماً فرانس جاداً: «وهذا يهمني، فقد كابد كثيراً، لكن لن تستمر الحال على هذا النحو، وعلينا في هذه الحال أن نعطي الفم باليد».

صافحت السيدة لابشينسكي السيد بيركوبف عند الوداع بيدها الكبيرة القوية: «أنا أعتمد عليك يا سيد بيركوبف» كان في إمكانها أن تعتمد عليه. لم ينتقل راينهولد. كان إنساناً مستقراً، إلا أنه لم يكشف سرّه لأحد. فقد التقى

ترودي بعد الموعد بثلاثة أسابيع، وكانت المرأة تتصل يومياً مع فرانس من أجل المعاشرة والألفة. هلّل فرانس: قريباً ستزلق التالية. يجب الانتباه. صحيح: ذات ظهر يوم أخبرته ترودي مرتعشة أنّ راينهولد خرج في البدلة الرسمية الأنيقة أمسيّتين. وفي ظهر اليوم التالي عرفت من كانت هي: واحدة اسمها روزا، خياطة عرا، في بداية الثلاثين، والكنية لم تعرفها بعد، أما العنوان فتعرفه. إذن، كل شيء في هذه الحال على ما يرام، ضحك فرانس.

أمّا مع قوى القضاء والقدر فلا سبيل إلى عقد عهد أولي. والأقدار تخطو مسرعة. البس حذاء لايزر، إن كنت معوقاً عن الخطو. إنّ لايزر هو أكبر محل أحذية في الساحة. وإذا ما كنت لا ترغب في المشي فسافر: شركة ن س أو (NSU) تدعوك إلى سفرة اختبار في سيارة محركها سداسي الأسطوانات. وفي يوم الخميس هذا بالذات عاود فرانس ببيركوبف السير وحيداً في شارع برينسلاو لأنه خطر بباله أن يبحث عن صديقه ميك الذي لم يره منذ زمن طويل، هذا بصورة عامة، ومن بعد ذلك أراد أن يحكي له عن راينهولد والنساء، وعلى ميك أن يرى ويعجب كيف يكبح هو، أي فرانس، جماح شخص مثل هذا وكيف يحوّل اتجاهه، وعليه أن يعتاد النظام ويعتاد هو هذا أيضاً.

وصحيح، فحين يدلف فرانس إلى الحانة ومعه صندوق جرائده، ترى من تشاهد مقلته؟ ميك. فهذا يجلس مع اثنين آخرين ويأكل هنيئاً مريئاً. ويجلس فرانس بجانبهم ويأكل هنيئاً مريئاً أيضاً، ويشربان حين ينصرف الآخران بدعوة من فرانس كأسين أو ثلاث كؤوس كبيرة من البيرة، ويحكي فرانس وهو يغرغر ويبلع، وميك يسمع وهو يغرغر ويبلع مندهشاً وبرضى وارتياح، أي بشرهم موجودون، ويؤيد ميك أن يحتفظ بهذا أيضاً لنفسه، إلا أنه شيء رائع. ويتألق فرانس ويحكي عما أنجزه في المسألة وكيف خلّص هو راينهولد من نيللي التي

كانت السيدة لابشينسكي، وكان عليه أن يبقى ثلاثة أسابيع أطول من الموعد مع تروودي، والآن هناك واحدة اسمها روزا، خياطة عرى، لكن هذه العروة نخطها نحن له. وهكذا يجلس فرانس متخماً أمام كأسه، كأس البيرة، إنه موفور الرزق. اثني بفرح ومسرة أيتها الحناجر، أنت يا جوقات المغنين الفتية، أغنية جواله تطوف بطاولتنا، يا للنعيم، أغنية جواله تطوف بطاولتنا. ثلاثة بثلاثة تسعة، ونحن نشرب مثل الخنازير، ثلاثة بثلاثة تسعة وواحد يعطي عشرة، ونشرب واحداً مرة أخرى، اثنين، ثلاثة، أربعة، ستة، سبعة.

من يقف عند البوفيه، عند طاولة الشرب، طاولة الغناء، من يتسم في داخل حجرة الروائح النتنة الممتلئة بالدخان؟ أسمن الخنازير السمينة كلها، سيد من وإلى بومز. هذا يتسم، ما يسميه هو من قبيل الابتسام، لكن عينيه الصغيرتين، عيني خنزير تبحثان. المفروض أخذ مكنسة وإحداث ثقب في هذا الدخان إذا ما أراد أن يرى شيئاً. ها إن ثلاثة يشربون عليه. إنهم إذن الصبيان الذين يعملون معه دائماً صفقات شراكة، إخوة شطار، نفس الإخوة، نفس الطاقيات. أن تشنق وأنت شاب لخير من أن تبحث وأنت شيخ عن أعقاب سجائر. يحكون رؤوسهم رباع ويتذمرون معاً ويبحثون في الغرفة. عليهم أن يتناولوا مكنسة إذا ما أرادوا أن يبحثوا هنا عن شيء ما. مروحة تهوية تقوم بهذا أيضاً. ويلكز ميك فرانس: «إنهم ليسوا كاملين. ما زال هؤلاء بحاجة إلى ناس من أجل بضاعتهم، فالبلدين يود الاستزادة من الناس» «جرب هو عندي أيضاً. لكنني سأخالط هذا. هل سيمدني بالفاكهة؟ هل عند هذا بضائع وأية بضاعة هي عند هذا. فاكهة يقول هو. ينبغي ألا يسأل المرء كثيراً يا فرانس. إلا أنه ليس معيياً أن تعتمد على هذا، عندئذٍ سيتم الحصول دائماً على شيء ما. الشيخ، إنه لداهية، والآخرون أيضاً».

في الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والعشرين والثانية السابعة عشرة ينضم واحد آخر إلى البوفيه، طاولة الشرب، واحد- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، أمي، هذي تطهو اللفت - من سيكون؟ يقولون ملك إنكلترة. لا، ليس ملك إنكلترة وهو يسير إلى افتتاح البرلمان في موكب كبير، علامة لمفهوم استقلال الأمة الإنكليزية. هذا ليس هو. فمن هو إذن؟ هل هم مندوبو الشعوب الذين وقّعوا اتفاقية كيلوغ، محوطة بـ ٥٠ فقرة، والمحبرة المناسبة لم يكن في الإمكان الإتيان بها بسبب حجمها الكبير، وكان على المرء أن يكتفي بطقم سيفر (الحزف الفاخر من صنع مدينة سيفر)؟ كما أن هؤلاء أيضاً ليسوا ذلك، إنه ليس إلا جرجرة خطأ، جوارب الصوف الرمادية معلقة، يا راينهولد، بشكل وضع الملامح جداً، شاب جردوني اللون من الرأس حتى أخمص القدم. إنهم يحكّون رؤوسهم خماس، يبحثون في الحانة. عليهم أن يتناولوا مكنسة لكي يروا هنا شيئاً ما، مروحة تهوية كانت ستقوم بذلك أيضاً. ويراقب فرانس وميك باهتمام شديد من طاولتهما الإخوة الخمسة أي شيء سيفعلونه وكيف سيجلسون الآن معاً إلى طاولة واحدة.

بعد ربع ساعة سيجلب راينهولد فنجان قهوة وليموناة غازية وسينظر في أثناء ذلك بحدة في الحجرة. ومن سيضحك له في أثناء ذلك من الحائط ويوميء له؟ ولا بحال من الأحوال د. لوبي، محافظ نورينبيرغ، إذ إن عليه أن يلقي هذا اليوم قبل الظهر الكلمة الترحيبية بمناسبة يوم دورير، وبعده يخطب وزير داخلية الرايخ د. كويدل ووزير الثقافة البافاري د. غولدينبيرغ، كما أن هذين كليهما والحال كذلك لن يكونا حاضرين فحيل بينهما وبين الحضور. علكة رايجلي ب.ر. تحدث أسناناً سليمة ونفساً رطباً وهضماً أفضل. وما من أحد إلا فرانس بيبركوبف الذي يتسم ابتسامة عريضة تملأ شذقيه. وهو يتتهج

ابتهاجاً شديداً أنّ راينهولد يصل. فإنّ هذا موضوعه التربوي، إنه والحق يقال تلميذه الذي يستطيع أن يقدمه الآن لصديقه ميك. أبصر كيف يأتي هذا. فهذا زمامه بيدنا. ويقترّب راينهولد ومعه قهوته والليمونادة الغازية ويجلس إليهما، وينكمش بينه وبين نفسه ويتلعثم قليلاً. ويودّ فرانس أن يستدرجه في الكلام بمحبة وفضول، وعلى ميك أن يسمع ذلك: «كيف هي الحال عندك في البيت يا راينهولد، كل شيء سليم معافى؟» «بديهي، إنما ترودي موجودة، ويعتاد المرء» قال هذا بصوت خفيض، وينقط هذا مثل ماسورة ماء مسدودة. يا لله، فرانس سعيد. يكاد يطير من الفرح، هكذا كان منشرح الصدر. فقد حقق مبتغاه. ومن لهذا إلا أمثالي أنا. وينظر بعينين متألفتين إلى صديقه ميك الذي لم يضمنّ عليه بالإعجاب. «ماذا يا ميك، إننا نخلق نظاماً في العالم، نحن ندبّر الأمر، وليكن ما يكون» ويربت فرانس على كتف راينهولد الذي ذعر بشدة: «ها أنت ترى، يا ولد، على المرء أن يتمالك نفسه ويصبر، ثم تجري الأمور في الدنيا. أقول دائماً: تمالك نفسك واصبر، وليأت بعد ذلك من يأتي» فرانس لا يفرح براينهولد بما فيه الكفاية. إنّ آثماً تائباً لخير من ٩٩٩ عادلاً باراً.

«وماذا تقول ترودي، ألا يدهشها كيف يسير كلّ شيء في دعة وسلام؟ وأنت، يا رجل، أألست مبسوطاً أنك تخلّصت من كل هذا النكد مع النساء؟ أنت يا راينهولد، النساء طيبات وفي وسعهنّ أن يصنعن اللذة والمتعة. لكنك ترى حين تسألني كيف أرى أنا النساء، عندئذٍ أقول لك إنّ ظني بهنّ ليس بالقليل، كما أنه ليس بالكثير الكثير. فإذا كان ظني كبيراً جداً سيكون في هذه الحال خطيراً، فلننفض الأيدي من ذلك. وفي هذا الحال أستطيع أن أغني أغنية» أغنية عن إيذا، حدائق الجنة، تريبتوف، الحذاء الشراعي، ومن ثمّ تيجل. النصر، اضمحل هذا وغاب، هيا اشرب» أنا من سيساعدك يا راينهولد، بحيث إنّ هذا

سيكون ناجعاً مع النساء. وفي هذا الحال لن يكون هناك من داع لأن تذهب إلى جيش الإنقاذ، نحن نتولّى كل شيء على نحو أفضل. إذن، نخبك يا راينهولد، ستحمل كأس بيرة أخرى.» قرع هذا فنجان قهوته بهدوء:

«أي شيء تستطيع أن تتولاه أنت في هذه الحال، لماذا وكيف؟»

اللعنة، كنت على وشك أن أفصح نفسي سهواً. «لم يكن إلا اقتراحاً، في وسعك أن تعتمد عليّ، وعليك أن تعتاد كأساً من العرق، عرق كراويا خفيف» الآخر هادئاً: «أتريد أن تقوم بدور الطبيب معي؟» «ولم لا. فأنا ضليع في هذه الأمور. وأنت تعرف يا راينهولد أنني ساعدتك بشأن سيللي، وقبل ذلك. ألا تظن أنني قادر على أن أقف إلى جانبك الآن أيضاً؟ فرانس ما زال صديق البشرية. إنه يعرف إلى أين تؤدي الطريق.»

يرفع راينهولد نظره وينظر إليه بعينيه الحزبتين: «هكذا إذن، أنت تعرف هذا.» ويتحمّل فرانس نظرتة، ولا يسمح بأن تنغص عليه فرحته، وفي وسع هذا أن يلاحظ شيئاً ما بهدوء، ولا يمكنه أن يهنأ إلا حين يلاحظ. والآخرين لا يسمحون بان يجعلوهم متسطين» أجل، في هذا يستطيع ميك أن يصادق على كلامك أننا مررنا بتجارب وخبرات، وعلى هذه نبني. ثم بخصوص العرق، أنت يا راينهولد، إذا ما تحمّلت العرق أحياناً حفاً هنا، وعلى حسابي فأنا ادفع للسلطة كلها» ما زال راينهولد ينظر إلى فرانس الذي أبرز صدره، وإلى ميك القصير الذي يراقبه متسائلاً مستطلعاً. ويخفض راينهولد نظره ويبحث في فنجانه: «تريد أن تشفيني بناءً على الطلب لأكون مشوّه زواج؟» «نخبك يا راينهولد، فليعيش مشوّه الزواج، ثلاثة في ثلاثة تسعة، نحن نشرب كالحنازير، شارك في الغناء يا راينهولد، كل بداية صعبة، والخطوة الأولى هي الأ الصعب، لكن من دون هذه لن تكون نهاية.»

الجميع وقوفاً. انتظموا في صفوف. يمين در، إلى الأمام سر. راينهولد يغادر فنجان، فنجان القهوة. بومز ذو الوجه الدهني الأحمر يقف بجانبه، ويهمس له شيئاً ما، ويهز راينهولد منكبيه، ثم ينفخ بومز عبر الدخان الكثيف ويطلق صيحة الابتهاج: «سألتك ذات مرة يا بيبركوبف، كيف هي الحال معك، أما زلت ترغب في السير ببضاعتك الورقية؟ أي شيء يكسبه المرء من ذلك، القطعة لقاء بفينيكن، والساعة بخمسة بفينيكنات، أي شيء هو هذا» ثم دفعه جيئةً وذهاباً، فعلى فرانس أن يستلم عربة خضار وفواكه، وبومز يمدّه بالبضاعة، والكسب ممتاز. ويريد فرانس ولا يريد. فالإخوان الذين يعملون عند بومز لا يعجبونه، فهؤلاء يخدعونني بكل تأكيد. راينهولد التأتاء يصمت بعيداً عن الأنظار. وحين يسأله فرانس عما يراه يلاحظ أنه كان لا يزال ينظر إليه ولم ينظر ثانية في الفنجان إلا الآن» إذن ما رأيك يا راينهولد» ويتلثم هذا: «أجل، أنا سأشارك أيضاً» وحين يقول ميك، ولما لا يا فرانس، يريد فرانس أن يتروى في الأمر، فهو لا يريد أن يوافق ولا يريد أن يرفض، يريد أن يأتي غداً إلى هنا أو بعد غد ويناقد الموضوع مع بومز، بشأن البضاعة وإحضار البضاعة، ويحاسب عليها وأية ناحية هي الأفضل بالنسبة إليه.

غادر الجميع، وتكاد الحانة تكون خالية، راح بومز، وراح ميك وبيبركوبف، إلا على البوفيه كان لا يزال يقف مستخدم في شركة الحافلات الكهربائية ويتفاوض مع صاحب الحانة على الخصم من الأجر الذي هو عالٍ جداً. وها إن التأتاء راينهولد ما زال يلازم مقعده. ثلاث زجاجات من الليموناده الغازية الفارغة تنتصب أمامه، وكأس نصفها ملاءً وفنجان قهوة. إنه لا يذهب إلى البيت. في البيت تنام ترودي الشقراء. ويعمل ذهنه ويشغل فكره. فينهض ويجر جر خطاه عبر الحانة، جوربا الصوف يرميها في مهب الريح. بائساً

يبدو هذا المخلوق، مصفرّ الوجه، الخطوط العميقة حول الفم، والتجاعيد الأفقية الرهيبة فوق الجبين. ويجلب فنجاناً آخر من القهوة وعصير الليمون.

ملعون الرجل، يقول إرميا، الذي يتكل على الإنسان الذي يجعل البشر (الجسد) سنداً وامتكأً له وقلبه عن الرب يجيد. إنه يشبه شخصاً في البرية لا أنيس له ولا جليس ولا يرى إذا جاء الخير. فهو موجود في مكان جذب، في الصحراء على أرض سبخة غير مسكونة. مبارك، مبارك، مبارك الرجل الذي يتكل على الرب وكان الرب متكّله. إنه أشبه بشجرة غرست على الماء وجذورها تمتد إلى الجدول. ولا ترى حين يأتي الحر، بل إنّ أوراقها تبقى خضراء، وفي عام القحط لا تحمل همماً، فهي لا تكف قط عن أن تثمر. القلب خائن خداع في كل شيء وهو فاسد: ترى من ذا الذي يعرفه؟

ماء في الغابة السوداء الكثيفة، ماء أسود جداً، وانتم مستلقون صامتين في غاية الصمت، تستلقون في هدوء شديد. سطحكم لا يتحرك حين تثور الطبيعة حول الغابة، ويبدأ الصنوبر بالانحناء وتتمزق خيوط العنكبوت بين الأغصان ويبدأ التشطي. ثمّ إنكم منظر حون تحت في الوادي، أنت أيتها المياه السوداء، الأغصان تسقط.

الريح تشدّ على الغابة، وإليكم لا تنفذ العاصفة وأنتم في مكانكم في الأسفل. ليس عندكم تنانين على الأرض، زمن حيوانات الماموث ولّى، لا شيء هنا يمكن أن يخيف أحداً، النباتات تعفنت فيكم، أسماك وقواقع تتحرك. لا شيء غير هذا. ولكن مع أنّ هذا، ومع أنّك لست إلا ماء، فأنت مخيفة، أيتها المياه الرهيبة، مياه هادئة هدوءاً مخيفاً.

الأحد، الثامن من نيسان سنة ١٩٢٨

«هل يوجد ثلج، قد تتشج الدنيا مرة أخرى بالبياض في نيسان؟» جلس فرانس بيركوبف إلى نافذة غرفته الصغيرة وأسند ذراعه اليسرى إلى حافة النافذة، واستقر رأسه في راحة يده. كان الوقت عصراً، يوم أحد، الجو دافئ ومريح في الحجر. كانت سيللي قد دفأت الغرفة وقت الظهر، والآن نامت في الخلف في السرير مع قطتها الصغيرة. «هل هناك ثلج؟ الجو مكفهر غاية الاكفهرار. سيكون جميلاً».

وحين أغلق فرانس العينين سمع النواقيس تقرع. جلس دقائق هادئاً، فسمعها تقرع قرعاً: بوم، بيم بوم بوم بيم بام بوم بوم بيم. وإلى أن رفع رأسه من على راحة يده وسمع: كانا ناقوسين لهما رنين عال وواحد له رنين مجلجل. وتوقفوا.

لماذا تدق الآن، سأل نفسه. وإذا بها تبدأ مرة أخرى من جديد، أخذت تقرع قرعاً شديداً جداً، في نهم، قرعاً ترتج له الأرض. كانت ضجة رهيبية. ثم توقفت دفعة واحدة. وفجأة ساد هدوء.

رفع فرانس ذراعه عن حافة النافذة ودخل إلى الحجر. كانت سيللي جالسة على السرير ويدها مرآة صغيرة، كانت تضع مشابك جدائل بين شفثتها، ودندنت برقة حين دخل فرانس.

«ما الأمر اليوم يا سيللي. هل هو عيد؟» كانت مشغولة برأسها. «أجل، يوم الأحد» «لا، عيد؟» «ربها عيد كاثوليكي، لا أدري» «ذلك لأن النواقيس تقرع قرعاً يفوق كل وصف». هل سمعت شيئاً ما يا فرانس؟».

«أي والله. دوت الدنيا دوتياً، يا لها من ضجة» «لعلك كنت تحلم يا رجل» «يا خبر. لا، لم أحلم. كنت أجلس هنا» «لعلك غفوت» «لا» أصر، كان عنيداً

كل العناد، تحرك ببطء وجلس على مقعده إلى المنضدة. «كيف يحلم المرء بشيء مثل هذا. لكنني سمعت ذلك وحق الله» واجترع جرعة بيرة. ولم يذهب عنه الروع.

نظر صوب سيللي التي بدت متباكية للغاية: «من يدري يا سيللي أي شخص حدث له شيء ما للتو» سأل عن الجريدة. كان في إمكانها أن تضحك. «إنها ليست موجودة الآن، وما من مرة يوم الأحد، يا رجل».

بحث في جريدة الصباح وتطلع إلى العناوين: «ليست إلا تفاهات. هذا كله لا شيء». لم يحدث أي شيء» «إذا ما حدث قرع عندك يا فرانس فستذهب إلى الكنيسة» «بالله عليك دعيني من القساوسة. ليس في بالي شيء يجمعني بهم. إلا أن الأمر مضحك للغاية أن يسمع أحدنا شيئاً، وحين يدقق فلا شيء بعد ذلك» وأعمل ذهنه ووقفت بجانبه وداعبته. «سأنزل الآن إلى تحت وأشمّ الهواء يا سيللي. أقل من سويعة. أريد أن أسمع ما إذا حصل شيء ما. في المساء ستكون هناك جريدة «العالم» أو جريدة «صباح الاثنين»، وعلي أن أرى» «يا سلام، يا فرانس، أنت بأفكارك هذه. سيكون مكتوباً فيها: سيارة نقل الزبالة تعطلت عند بوابة برينتسلاو، والزبالة نزلت كلها على الأرض. أو، مهلاً: بائع جرائد كان عليه أن يصرف نقوداً وردّ سهواً بشكل صحيح».

ضحك فرانس: «ها أنا ذاهب الآن. إلى اللقاء، يا صغيرتي سيللي».

«إلى اللقاء يا عزيزي فرانس».

وعلى هذا نزل فرانس السلام الأربعة ولم ير سيللي بعد ذلك ثانية.

انتظرت في الحجرة حتى الخامسة. وحين لم يأت ذهبت هي إلى الشارع وسألت عنه في الحانات حتى ناصية شارع برينتسلاو. لم يكن هو هنا في أي مكان. على أنه أراد أن يقرأ في الجريدة عن قصته السخيفة، فكّرت في ذات

نفسها، بما حلم به. إنه قصد مكاناً ما. وعند ناصية شارع برينتسلاو قالت صاحبة الحانة: «لا، لم يكن هنا. لكن السيد بومز سأل عنه. ثم قلت له أين يسكن السيد بيبركوبف، وسيكون قد ذهب إلى هناك» «ما من أحد كان عندي» «لعله لم يجد أحداً» «أجل» أو أنه التقاه أمام الباب».

عندئذٍ جلست سيللي هناك حتى ساعة متأخرة من المساء. وامتألت الحانة. وكانت تنظر دائماً صوب الباب. وفي إحدى المرات ذهبت أيضاً إلى البيت ثم عادت أدراجها. ميك وحده جاء، وواساها ومازحها ربع ساعة. قال: «سيعود هذا الولد معتاد أكل الخبز. لا تقلقي يا سيللي» لكن على حين قال هو هذا خطر بباله حين كانت لنا تجلس بجانبه ذات مرة، وكانت هذه بحث أيضاً عن فرانس، آنذاك، حين تعلق الأمر بلودرز، بأربطة الأحذية. وكان هو نفسه سيذهب معها على الفور حين ذهبت سيللي مرة أخرى إلى الشارع المظلم الموحد؛ إلا أنه لم يرغب في أن يخيف هذه، فلربما كان كل شيء عبثاً في عبث.

فجأة بحثت سيللي في نوع من الغضب عن راينهولد؛ فلربما أقنع هذا فرانس من جديد بامرأة خبيثة، وفرانس هجرها ببساطة. حجرة راينهولد كانت مقفلة، وما من بشر كان هنا، حتى ولا ترودي.

سارت ببطء عائدة إلى الحانة، عند ناصية شارع برينتسلاو، المرة تلو المرة إلى الحانة. كانت السماء تثلج، لكن الثلج كان يذوب. في ميدان أليكس كان باعة الجرائد يصيحون قائلين «جريدة صباح الاثنين» جريدة «العالم يوم الاثنين»، واشترت من بائع غريب صحيفة ونظرت إليها. ترى هل حدث شيء ما، ترى هل كان هو على صواب اليوم بعد الظهر. ليكن، كارثة قطار في الولايات المتحدة في أوهايو، واصطدام شيوعيين مع حملة الصليب المعقوف، لا، هذا لن

يشارك به فرانس، حريق مدمر كبير في فيلمرزدورف. ما شأنى بهذا. سارت
متتدة الخطا مارة بالمحل التجاري المشع بالأنوار. وقطعت الدام (جسر السكة
الحديدية) إلى شارع برييتسلاو المظلم. سارت دون مظلة، وكانت قد تبللت.
وعند شارع برييتسلاو أمام محل الحلوى كانت تقف مجموعة من بائعات الهوى
تحت المظلات وسددن المدخل. وخلفها مباشرة خاطبها رجل بدين مكشوف
الرأس خرج من فناء بيت. مرّت مسرعة. إلا أن الرجل التالي ساقبل به، ماذا
يجول في ذهن الولد. شيء حقير كهذا لم يحدث لي بعد.

كان الوقت العاشرة إلا ربعاً. يوم أحد رهيب. في هذا الوقت كان
فرانس مطروحاً على الأرض في ناحية أخرى من المدينة، الرأس في البالوعة
والساقان على الرصيف.

ينزل فرانس السلم. درجة، درجة أخرى، درجة، درجة أخرى، درجة،
درجة، درجة. أربعة سلام، دائماً إلى تحت، إلى تحت، إلى تحت، إلى تحت أيضاً. ليس
المرء في تمام يقظته، الرأس منسدّ كل الانسداد. تطبخين الحساء، يا آنسة شتاين، -
عندك ملعقة، يا آنسة شتاين، عندك ملعقة يا آنسة، تطبخين الحساء، يا آنسة
شتاين. لا، بهذا أنا صعب المنال. عرقت عند هذه البغي. يجب الخروج إلى الهواء
الطلق. الدرابين، لا إضاءة محترمة هنا، ويمكن أن يقضم المرء ظفروه.

في الطابق الثاني يفتح الباب وينزل رجل مثاقلاً. لكن يجب أن يكون لهذا
بطن، ذلك أنه ينفخ على هذه الشاكلة، وعند النزول بالذات. تحت يقف فرانس
بيركوبف أمام الباب، الجو مكفهر ورقيق، ستلج السماء عما قريب. والرجل
من الدرج ينفخ بجانبه، رجل قصير ومترهل ذو وجه شاحب متنفخ؛ اعتمر
قبعة من لباد. «هل عندك ضيق تنفس أيها الجار؟» «أجل، إنها السمينة. وكثرة

صعود الدرج» ويمشيان معاً على طول الشارع. وينفخ الضيق النفس: «اليوم مشيت خمس مرات أربعة سلام. احسبها: عشرون سلماً، كل سلم بمعدل ثلاثين درجة، السلام الحلزونية أقصر، إلا أن هذه تسير على نحو أصعب. إذن ثلاثون درجة وخمسة سلام، مئة وخمسون درجة. هذه صعوداً. وهبوطاً» «في الواقع ثلاثمئة درجة. إذ إنك في النزول تتعب أيضاً. لاحظت ذلك» «صحيح. في النزول أيضاً» «لو كنت أنا مكانك لبحثت عن مهنة أخرى».

السماء تثلج نثفاً ثقيلة، تدور، وجميل هو المنظر. «أجل، أنا في طريقي إلى الإعلان، وعليّ أن أقوم بهذا الآن. ليس هناك يوم عمل ويوم أحد. لا بل يوم الأحد في معظم الأحيان. ويوم الأحد يرسل معظم الناس إعلانات. وفي هذه الحال يعقد أكثرهم الرجاء على ذلك» «أجل، لأن الناس لديهم الوقت ليقرؤوا الصحف. أفهم بدون نظارات. هذا من اختصاصي» «هل ترسل أنت أيضاً إعلانات؟» «لا، أنا لا أبيع إلا الصحف. الآن أريد أن اذهب لأقرأ صحيفة من الصحف» «أنا، والله، قرأتها كلها. يا لهذا الطقس. هل سبق أن شاهدت ذات مرة شيئاً من هذا القبيل» «نيسان، أمس كان الطقس لا يزال جميلاً. انتبه، غداً سيصحو الجو من جديد. أتراهن؟» ويستردّ هذا أنفاسه من جديد، فالمصاييح أضاءت، ويخرج عند أحد المصاييح مفكّرة بدون غلاف، ويبقيها بعيدة عنه ويقرأ فيها. يقول فرانس: «سيصيبك البلب» هذا لا يسمع ويدس الدفتر في جيبه من جديد، وينتهي الحديث، ويقول فرانس في ذات نفسه، سأستأذن في الانصراف. عندئذ ينظر إليه القصير من تحت قبعته الخضراء: «قل أيها الجار، ممّ تعيش في الواقع؟» «إلام ترمي؟ أنا بائع جرائد، بائع جرائد حرّ.» «هكذا. ومن هذا تكسب نقودك؟» «الحال مستورة» ماذا يريد ذلك الذي ليس إلا شخصاً مضحكاً. «أجل، يا أنت، أردت هذا دائماً، أن أكسب نقودي بهذه

الطريقة في مكان ما. لا بدّ أن يكون هذا جميلاً، فالمرء يعمل ما يشاء، وإذا ما كان المرء ماهراً شاطراً سارت الأمور» «في بعض الأحيان ليس الأمر هكذا أيضاً. لكنك تمشي أنت أيها السيد الجار بما فيه الكفاية. اليوم في يوم الأحد، في مثل هذا الطقس الذي لا يسير فيه كثيرون» «صحيح، صحيح. أمشي نصف اليوم. ولا دخل، ولا دخل. الناس مزنوقون بالمال في هذه الأيام» «ماذا تعمل لو سمحت، أيها الجار؟» «عندي معاشي التقاعدي الزهيد. أردت في يوم من الأيام أن أكون رجلاً حرّاً، أن أعمل وأكسب نقودي. والآن ومنذ ثلاث سنوات عندي معاشي التقاعدي؛ كنت موظفاً في البريد إلى زمن طويل، وها أنا الآن أمشي وأمشي. إذن: أقرأ في الجريدة، ثم أذهب وأرى ما يعلن عنه الناس» «ربما عن أثاث؟» «وما هو موجود، أثاث مكتب مستعمل، بيانو بيششتاين كبير، سجادات فارسية وأجهزة بيانو إلكترونية ومجموعات طوابع بريدية، نقود معدنية وغرفة ملابس مخلفات» «ناس كثيرون يموتون» كثيرون جداً. ومن ثم أصعد وأرى ثم اشتري أيضاً».

«ثمّ تبعها أنت بدورك، أفهم ذلك».

وعلى هذا يصمت المصاب بالربو، ويلتف بمعطفه، ويسيران الهوينى في الثلج الناعم. وعند الصباح التالي أخرج البدين المصاب بالربو حزمة بطاقات بريدية من جيبه، ونظر إلى فرانس مهموماً محزوناً، ودسّ في يده بطاقتين: «أقرأ أيها السيد الجار» كان مكتوباً على البطاقة: «ب.ب. تاريخ خاتم البطاقة. ولأسفي الشديد يجب أن أتخلل من الاتفاقية المبرمة أمس بسبب معاكسة الظروف. مع وافر الاحترام. بيرنهارد كاور» «اسمك كاور؟» «نعم، تمّ سحبها بألة نسخ. واشتريت هذه ذات مرة. هذا هو الشيء الوحيد الذي اشتريته. وفي هذه الحال أعمل أنا بنفسني النسخ بها. في الإمكان عمل خمسين نسخة في

الساعة» «يا لطيف. لا بأس» ليس الرجل بسليم العقل، كما أنه يفتح عينيه ويغمضهما بطريقة ما. «بالله عليك اقرأ. انسحاب بسبب معاكسة الظروف. فأنا اشترى ولا أستطيع أن أسدد. بدون تسديد لا يسلم الناس أي شيء، وهم لا يؤخذون على ذلك. وأواصل السير بصورة دائمة واشترى وأقرر بنفسى وأسّر أنا ويسرّ الناس لأنّ الشغل يسير سيراً حسناً، ويخطر ببالي أي حظ كان لي، هناك أشياء جميلة غاية الجمال. مجموعات نقدية رائعة، أستطيع أن أحكي لك، الناس الذين لم يكن عندهم ذات يوم مال، وها أنا ذا أتطرق إلى ذلك، وأرى بنفسى كل شيء، ويحكون لي على الفور عما يجري، وأي بؤس يعانيه الناس إذا ما صارت بضع بفينيكات تحت أيديهم، وعندكم في البيت اشترت شيئاً ما أيضاً، الناس في ميسس الحاجة ويسرّهم أن يتخلصوا من آلة عصر وبراد صغير. ثم أنزل إلى تحت، كما أنني أتمنى أن اشترى كل شيء، لكن تحت، هنا تأتيني الهموم الكبيرة: لا مال ولا مال» «وبالنسبة للبيع والتصريف فإنّ لديك شخصاً يأخذ منك هذه الأشياء» «خلّها على الله. وها أنا قد اشترت آلة النسخ، وها أنا أنسخ البطاقات البريدية. كل واحدة تكلف خمسة بفينيكات، وهذه مصاريف أيضاً. ومن ثم النهاية والخاتمة».

بهت فرانس دهشة: «ها إنّ جوربيّ يفتقان أيها السيد الجار. لا يمكنك أن تعني ما تقول».

«المصاريف، هذه - أقلها أحياناً، وفي هذه الحال أوفر خمسة بفينيكات وأضع على الفور عند الخروج بطاقتي في صندوق بريد الناس» «وتسعى بيديك ورجليك للحصول على شيء ما، ولم؟».

وصلا إلى ساحة ألكسندر.

كان هناك تجمّع، وتقدما. رفع القصير بصره إلى فرانس غاضباً: «وها أنت تعيش من خمسة وثمانين ماركاً في الشهر ولا تتقدم» «يا رجل، عليك أن تهتم بالبيع. وإذا شئت، فسأستفسر عند معارفي» «هراء، أنا لم أكلفك، فأنا وحدي أقوم بالصفقات ولا أعقد أية صفقات شراكة» صاروا في وسط التجمع، كانت صيحات سباب وشتائم عادية. وبحث فرانس عن الرجل القصير، كان قد راح، لقد اختفى. يتابع هذا تجواله هكذا، دهش فرانس، فأنا أمسح مثل سمكة من سمك الموسيقى. أين وقع سوء حظي؟ ودلف إلى حانة صغيرة وتناول كأس عرق كراويا وتصفح جريدة محلية اسمها إلى الأمام. الحق أنه لم يكن فيها أكثر مما في صحيفة مونتنيبوست، إذ إنَّ هناك سباقاً كبيراً في إنكلترا، وفي باريس أيضاً؛ وربما كان عليهم أن يدفعوا هنا دفعوعات. ولربما كان أيضاً حظّ كبير حين تظنّ هكذا في أذني شخص من الأشخاص.

كان على وشك أن يذهب إلى البيت وينقلب عائداً. في هذه الحال يجب عليه أن يعبر الدام (جسر السكة الحديدية)، ويرى ماذا كان يجري في الزحام. نقائق التيس الكبيرة مع السلاطة! هنا، أيها الشاب، نقائق التيس الكبيرة. صحيفة صباح الاثنين، العالم، العالم يوم الاثنين!

ماذا تقول لكليهما؛ كلاهما مرت عليهما نصف ساعة وهما يتضاربان، وما من سبب. يا رجل، سأبقى هنا حتى الصباح. أنت، يا أنت، لقد اشتركت هنا في مكان لواقف بحيث تفرض نفسك هكذا على المكان. لا، ما كان برغوثاً لا يقدر على أن يفرض نفسه على المكان. يا عجباً، ما قولك في هذا، عليك به، انهل عليه ضرباً.

وحين شقّ فرانس طريقه إلى الأمام ترى من يضرب من؟ صبيّان، وإنه ليعرفهما، إنهما من عند بومز. فماذا تقول. هوب، يمسك الطويل ذلك الذي هو في

قبضة الطوق، هوب، ويرميه في الوحل. يا ولد، أترك هذا يطرحك أرضاً؛ إنك لقاصر. أتم، ما هذا الحشد وهذه الزحمة. يا لطيف، الشرطة، الشرطة، الشرطة، الشرطة، هيا افرنقوا. المشالح المطوية على الأكتاف. ويدلف شرطيان خلال الجمع من الناس. هوب، ويتصب أحد المصارعين، في الزحام، ويسرع، والثاني الطويل لم ينهض على الفور، فقد تلقى ضربة على الأضلاع، إنما ضربة مرتبة. ثم يشقّ فرانس طريقه إلى الأمام. لن يترك الرجل مطروحاً، يا لها من رفقة، ما من أحدٍ يمدّ يده. ثم يضعه تحت إبطه وفي سبط الناس. وتبحث الشرطة.

«ما الأمر؟» «تضارب شخصان» هيا تفرّقوا، واصلوا السير» هؤلاء يصرخون ويأتون دائماً متأخرين يوم بريد. تابعوا السير، ها إننا نفعل، أيها السيد الرقيب، كل شيء إلا الانفعال الذي لا لزوم له.

يجلس فرانس مع الطويل في شارع برييتسلاو في ردهة البيت المضاعة إضاءة خافتة، وليس هناك إلا مسافة بيتين من هنا حيث سيخرج بعد أربع ساعات شخص بدين بلا قبعة ويخاطب سيللي مثرثراً؛ وتواصل سيرها، ومن المؤكد أنها ستأخذ الشخص التالي، يا له من وغد، فرانس هذا، خسة ووضاعة.

يجلس فرانس في الردهة ويميز إيميل الكسول: «هيا، يا رجل، بحيث نستطيع أن نذهب إلى الحانة. لا تتحرج فإنك ستتحمل ضغطاً. نظّف نفسك، فأنت تسحب معك كل الإسفلت» يقطعان الشارع. «سأحطّك الآن في أول أفضل حانة يا إيميل، يجب أن اذهب إلى البيت، صاحبتني تنتظر» يشدّ فرانس على يده، فيستدير الآخر مرة أخرى: «هل لك أن تسدي إليّ معروفاً يا فرانس. يجب عليّ أن أذهب وأحضر اليوم بضاعة مع بومز. هلاً مررت عليه اليوم، ليست إلا ثلاث خطوات، على الشارع. هلاً ذهبت» «ما المطلوب مني

يا رجل، لا وقت لديّ» طلب فقط. فاليوم لا أستطيع، وهذا يتتظر. ولا يستطيع أن يقوم بذلك في غير هذا الوقت».

الفرار يا فرانس، بدأت الأمور، طقس، اعمل دائماً يا رجل، أريد الذهاب إلى البيت، كما أني لا أستطيع أن أترك سيللي تنتظر أيضاً. يا لهذا القرد، الحق أني لم أسرق وقتي. يركض. عند أحد المصايح يقف رجل قصير ويقرأ في دفتر. ترى من هو هذا إني لأعرفه. عندئذ يرفع هذا بصره إلى فرانس على الفور: «يا لله، أنت أيها السيد الجار. أنت خرجت من البيت الذي كانت فيه آلة العصر والبراد. أجل. هنا تسلّم البطاقة، وبعدها، حين تذهب إلى البيت نوّفّر رسم البريد» يدس فرانس البطاقة في اليد، ونتيجة لمعاكسة الظروف انسحاب. وعلى هذا يواصل فرانس بييركوف تجواله بهدوء، البطاقة البريدية سيرها لسيللي، فالمسألة لا تستدعي مثل هذه السرعة. ويُسّر لهذا الشخص المجنون، تاجر البطاقات البريدية الصغير الذي يتجول دائماً هنا وهناك ويشترى ولا مال عنده، إلا أن فيه لوثة، وليست هي بلوثة عادية، إنه دجاجة اكتمل نموها ومنها يمكن أن تعيش أسرة.

«طاب نهارك يا بومز، طاب مساؤك. أتعجب أنني آت إليك. ماذا، أي شيء ينبغي أن أقوله لك. كنت سائراً على ساحة أليكس. وإذا في شارع لانديسبيرغ ضرب. ويخطر ببالي أن اذهب إلى هناك. ومن كان يتضارب هناك؟ ما رأيك؟ صاحبك إيميل، الطويل، مع واحد قصير، اسمه مثل اسمي فرانس، ستعرف هذا» ويرد السيد بومز على ذلك: إنه على أية حال فكّر بفرانس بييركوف، ولاحظ ظهر اليوم أن شيئاً ما بين الاثنين. «إذن، لن يأتي الطويل» «أنت تحلّ محلّه في هذه الحال يا بييركوف» «وماذا أفعل؟» «ننطلق في السادسة. وعلينا أن نذهب ونجلب البضاعة في التاسعة. يا بييركوف، اليوم

هو الأحد، ولا شاغل يشغلك على أية حال، وأنا أعوض لك نفقاتك، كما أنّ هناك علاوة على ذلك - لنقل خمسة ماركات في الساعة» ويساوره تردد: «خمس ماركات» «أنا في ضغط، وكلاهما يتخلى عني» «سيأتي القصير من بعد» «اتفقنا، خمسة ماركات، نفقاتك، لتكن خمسة وخمسين، لا أبخل عليك».

يضحك فرانس بينه وبين نفسه ضحكاً شديداً وهو ينزل الدرج وراء بومز. على أنّ هذا يوم أحد طيب. شيء كهذا لا يفلت من بين يديّ شخص ما، إذن إنه والحق يقال لصحيح أنّ النواقيس تعني شيئاً ما، والآن سأقبض، لنقل، يوم الأحد خمسة عشر ماركا أو عشرين، وأية نفقات عنده في حقيقة الأمر. ويسره أنّ البطاقة من تاجر البطاقات البريدية تحسّش في جيبه، وأمام الباب يريد أن يستأذن من بومز بالانصراف. وإذا بهذا يدهش: «ما هذا، أظن أنه تم الاتفاق يا سيد بيركوبف» «وهو كذلك، هو كذلك، يوثق بي. عليّ أن أتوجه إلى هناك، أنت تعرف، هيه هيه، عندي صديقتي، إنها سيللي، ربما تعرفها أنت من عند راينهولد، كانت عنده فيما مضى. لا أستطيع أن أترك هذه الفتاة وحدها يوم أحد بالتهام والكمال في الحجرة» «لا، يا بيركوبف، لا أستطيع أن أترك الآن تذهب، وبعد ذلك يفشل كل شيء، وأنا أقف هنا. لا، وبسبب أمور تتعلق بالنساء، شيء من هذا القبيل، يا بيركوبف، هذا لا يجوز، لن تفسد علينا الشغل بهذا. فهذه لن تفرّ منك» «أعرف هذا، أنت قلت كلمة حقّ، في إمكاني أن أطمئنّ إلى هذه. ولكن لهذا السبب بالذات. هنا لن أتخلى عنها، وهي لا تسمع ولا ترى ولا تعرف ما أقوم به» «والآن، سنرى ذلك فلا تستبق الأحداث».

«ماذا أفعل؟» «خطر ببال فرانس. سارا. ومن جديد ناصية شارع برييتسلاو. هنا وهناك كانت تقف بنات هوى، الفتيات أنفسهن اللواتي سترهن سيللي بعد بضع ساعات حين تبحث عن فرانس وتهيم على وجهها. الوقت يتأخر،

ويلتفون حول فرانس من كل الألوان والأصناف، سيقف قريباً على سيارة وسيمسكونه. الآن يفكر كيف يستطيع أن ينقل البطاقة البريدية من الرجل المجنون بسرعة، ويصعد إلى سيللي على وجه السرعة، فالفتاة تنتظر.

يصعد مع بومز في شارع شونهاوز القديم إلى الجناح الجانبي، فهناك مكتبه، يقول بومز. يوجد فوق إنارة أيضاً، وتبدو الحجرة حقاً مثل مكتب، فيها هاتف وآلات كاتبة. ثم إن امرأة متقدمة في السن بوجه صارم تكرر دخولها إلى الحجرة حيث يجلس فرانس مع بومز: «هذه زوجتي، السيد فرانس بيبركوبف يريد أن يشارك معنا اليوم» وتخرج هذه لكأنها لم تسمع شيئاً. يقرأ فرانس بينما يرتب بومز مكتبه ولا يريد إلا أن يتطلع إلى شيء ما، في جريدة برلينية موضوعة على الكرسي: ٣٠٠٠ ميلاً بحرياً في قشرة جوز لغونتر بلوشوف، عطلة، مجاري خطوط، كوميديا لانيا «الحالة الاقتصادية»، خشبة مسرح بيسكاتور، في مسرح ليسيغ، وبيسكاتور هو نفسه المخرج: ما هو بيسكاتور، وما لانيا؟ ما الغلاف وما المحتوى، إذن مسرحية؟ لا زيجات أطفال في الهند، مقبرة للمواشي المتوجة بجائزة، وتاريخ تافه: برونو فالتر يقود أوركسترا آخر حفلاته الموسيقية في هذا الموسم الأحد، الخامس عشر من نيسان في دار الأوبرا الوطنية. والبرنامج يقدم سيمفونية إس - دور لموتزارت، والريغ الصافي مخصص لصندوق تمثال غوستاف مالر في فيينا. سائق الباص متزوج، ٣٢ سنة، إجازة السوق ١٢، ٣ ب، يبحث عن وظيفة في محل خاص أو سيارة شاحنة.

يبحث السيد بومز على المنضدة عن أعواد ثقاب للفاثه الغليظة. عندئذ تفتح السيدة المتقدمة في السن باباً مبطناً بورق جدران، ويدخل ثلاثة رجال ببطء. ولا يرفع بومز نظره. هؤلاء هم كلهم جماعة بومز، ويصافحهم فرانس. وتريد المرأة أن تخرج ثانية، عندئذ يوميء بومز لفرانس: «أنت يا بيبركوبف،

أردت أن تؤمن رسالة؟ حسن، يا كلارا، تولّي ذلك» إن هذا لشيء جميل منك يا سيدة بومز، أتريدين حقاً أن تسدي إليّ هذا المعروف؟ إذن، ليس هو برسالة، بل بطاقة، ليس غير، ثمّ إلى صديقتي.» - ويذكر تماماً أين هي تسكن ويكتب هذا على ظرف تجاري من عند بومز، وعليهم أن يقولوا لسيللي بالألا تقلق، وسيعود في نحو العاشرة، ومن ثمّ أيضاً البطاقة.

هكذا، فكل شيء على ما يرام، وأحس بخلاص حقيقي. وتقرأ بنت الحرام الهزيلة الخبيثة هذا الغلاف في المطبخ وتدفع به في النار؛ وتدعك القصاصة وتكوّرها وترميها في سلة المهملات. ثم تنكمش وتقبع عند المطبخ وتتابع احتساء قهوتها ولا تفكر بأي شيء، تجلس وتشرب، الجو دافئ. إن سرور بيبركوبف طاغ حين تهادى لابساً قبعة مهريين وفي البدلة العسكرية السميقة الخضراء - من ذا؟ من ذا الذي عنده في الوجه مثل بئر المرحاض؟ من يجر خطاه كأنها يسحب دائماً ساقاً بعد أخرى من طين سميك؟ إنه راينهولد. وها إن فرانس يحسّ بأنه في بيته. إن هذا لرائع! معك أشارك يا راينهولد، وليكن ما يكون».

«ماذا، أنت تشارك؟» ويشمشم راينهولد ويجر خطاه هنا وهناك. «إنه لقرارك أولاً وأخيراً» ثم أخذ فرانس يحكي عن المهاوشة والضرب في ساحة أليكس وكيف آزر هو إيمل الطويل. وينصت هؤلاء في نهم، الأربعة، وبومز ما زال يكتب، ويقرعون الكؤوس، ثم يتهامسون مثنى مثنى. وأحدهم يشغل نفسه دائماً بفرانس.

في الثامنة يتدّى السير. تدثر الجميع في ثيابهم على نحو شديد، كما أن فرانس أيضاً يحصل على معطف. إنه يقول وتنهل أساريه، إنه يرغب في الاحتفاظ بهذا، وقبعة المهريين، يا لطيف. «لماذا لا، يقولون، يجب أن تكون من حقك».

وتبدأ العملية، الدنيا ظلام دامس في الخارج ووحل شديد. «ما الذي سنقوم به؟» يسأل فرانس حين صاروا في الشارع. ويقولون: «بادئ ذي بدء الحصول على سيارة أو سيارتين، ومن ثم البضاعة، تفاح وأي شيء آخر موجود، سنجلب هذه» ويتركون سيارات كثيرة تمر، وعند شارع ميتسر تقف سيارتان، فيأخذون هاتين ويصعدون إليهما وينطلقون. وتسير السيارتان بعضهما خلف بعض نحو نصف ساعة. في العتمة يجهل المرء الناحية، فقد تكون بحيرة فايسن أو فريدريشسفيلدي. ويقول الشاب: يريد المعلم أن يقوم بشيء ما بادئ ذي بدء. ثم يتوقفون أمام منزل، إنه شارع عريض تكتنفه الأشجار، ربما كان المكان أيضاً تيمبلهوف، ويقول الآخرون إنهم لا يعرفون هذا أيضاً، ويدخنون بشدة.

يجلس راينهولد في هذه السيارة بجانب بييركوبف. أي صوت هو هذا الذي عند راينهولد هذا الآن! إنه لا يتأتى، يتكلم بصوت عالٍ، ويستوي جالساً مثل ضابط نقيب، حتى إن الشاب يضحك، والآخرون في السيارة يستمعون إليه. إنه تحت سيطرة فرانس. «حسن، أيها الشاب، راينهولد [يهمس له في القفا من تحت القبعة]، ماذا تقول لي؟ ألم أحسن التدبير مع النساء؟ يا رجل، ماذا؟» «طبعاً، كل شيء على ما يرام، كل شيء تمام تمام» ويضرب راينهولد على ركبته، عند الشاب لكمة، ماذا يقولون، الشاب عنده قبضة! وينفخ فرانس: «هل ستقوم قيامتنا بسبب بنت. ماذا. فهذه يجب أن تولد أولاً، أليس كذلك؟»

الحياة في الصحراء كثيراً ما تتشكل بصعوبة.

الإبل تبحث وتبحث ولا تجد، وذات يوم سيعثر المرء على العظام التي ذهب لونها.

كلتا السيارتين تسير الآن دونما توقف عبر المدينة ما إن صعد بومز من جديد ومعه حقيبة. إنها الساعة التاسعة تماماً، عندئذ يتوقفون في ساحة بولوف، ويمشون الآن على الأقدام، منفصلين، دائماً مثني مثني. يمرون من تحت قوس المترو. يقول فرانس: «ها نحن نوشك أن نكون عند السوق المسقوفة».

«أجل؛ لكن بادئ ذي بدء الإحضار ثم الأخذ إلى الجانب الآخر».

وفجأة لم يعد الذين كانوا في الأمام مرئيين، المكان هو في شارع القيصر فيلهيلم على مقربة من المترو، ثم اختفى فرانس مع أحد المرافقين في فناء مكشوف مظلم. «ها هو المكان»، يقول الشخص الذي هو بجانب فرانس، «في إمكانك أن ترمي الآن السيجار» «ولماذا؟» ويضغط هذا على ذراعه ويتزعج السيجار من الفم: «لأنني أقول هذا» كان هذا قد غاب في الفناء المظلم قبل أن يتمكن فرانس من عمل أي شيء. هذا مفهوم، هذا مفهوم، إنهم يتركون شخصاً يقف في الظلمة، أين يختبئ هؤلاء؟ وحين يجذب فرانس فوق الفناء يومض مصباح جيب أمامه فيخطف بصر، إنه بومز. «أنت، يا أنت، ماذا تريد؟ ليس لك هنا شيء، يا بيركوبف، أنت تقف في الأمام وتتبه. ارجع» «ما هذا، أظن أن عليّ أن أروح وأجلب؟» «ما أسخف هذا، ارجع، ألم يقل لك أي أحد شيئاً ما؟».

ينطفئ الضوء، فرانس يجذب راجعاً شيئاً ما يرتعش فيه، ويزدرد ريقه: «أي شيء هو هذا هنا، في أي مكان ينزوي هؤلاء؟» ويقف عند باب البيت الأمامي، وإذا باثنين يأتيان من الخلف - نهب وقتل، إنهم يسرقون ويسطون، أريد أن أنصرف من هنا، أن ابتعد من هنا، سكة حديدية، مزلقة، الانصراف في قوس، على الماء حتى ساحة ألكسندر - ويوقفونه، أحدهم راينهولد، إن لهذا قبضة حديدية: «ألم يقولوا لك؟ هنا تقف وتتبه.» «من، من يقول هذا؟»

«يا رجل، لا تثرثر، نحن في زحمة من العمل. أليس عندك مخ. لا تسلّم نفسك. الآن تقف وتصفرّ حين يكون هناك شيء ما.» «أنا...» «أخرس يا رجل»، وتهوي ضربة على ذراع فرانس بحيث إنه تلوّى الماء.

يقف فرانس وحيداً في الدهليز المعتم. حقاً إنه يرتعش. لماذا أقف أنا هنا؟ إنهم خدعوني فعلاً. والكلب ضربني. إنهم يسرقون في الخلف، من يدري ماذا يسرقون، هؤلاء ليسوا بتجار فاكهة، إنهم لصوص. الشارع الطويل، جادة أشجار سوداء، البوابة الحديدية، بعد إغلاق الأبواب يجب على جميع السجناء أن يذهبوا إلى النوم، وفي الصيف يسمح لهم أن يسهروا حتى حلول الظلام.

هذا رتل، وبومز يأمر. هل ينبغي لي أن أنصرف، أم ليس لزاماً علي أن أنصرف، هل ينبغي لي، ماذا ينبغي علي. لقد استدرجوني إلى هذا المكان؛ يا لهم من أفاقين. عليّ أن أحرس.

وقف فرانس في مكانه وكان يرتجف وتحسس ذراعه الملكومة. على السجناء إلا يخفوا أمراضاً، وليس عليهم أن يختلقوا أيضاً؛ عقاب. البيت صامت صمت الأموات: من ناحية ساحة بولوف تزمير سيارات. وفي الخلف فوق الفناء كان كسر وتحطيم وضوضاء متزايدة، وبين الحين والحين كان يومض مصباح جيب ومضاً، وبسرعة دخل أحدهم إلى القبو بمصباح مبهر. لقد حبسوني هنا، خبز يابس وبطاطا مملحة أحبّ إليّ من الوقوف هنا من أجل هؤلاء الأفاقين المخادعين. وتومض عدة مصابيح جيب على الفناء، ويخطر الرجل ذو البطاقة البريدية ببال فرانس، رجل غريب عجيب، رجل غريب عجيب. وما تزحج من موضعه، كان في المكان مثل من كان على رأسه الطير؛ ومنذ أن ضربه راينهولد كان هذا، كان مسمّراً حيث هو. أراد، تمنى، علي أن

هذا لم يكن ممكناً، لم يتركوه. العالم من حديد، وليس هناك من حيلة، إنه يقبل عليه مثل مرداس، وفي هذه الحال ليس باليد حيلة، في هذه الحال يأتي، وها هو يسير وفيه يجلسون، إنه خزان كبير، الشيطان ذو قرون وعينين وهاجتين في داخله، إنهم ينهشون جسد أحدهم، إنهم يجلسون هنا، بسلاسلهم وأسنانهم يمزقون جسد أحدهم. وهذا يسير، وفي هذه الحال لا أحد يستطيع أن يتنحى عن الطريق. فهذا يومض ومضاً في الظلمة؛ وحين يكون ضوء سيرى المرء كل شيء، كيف هي الأمور وكيف كانت.

أرغب في أن أنصرف، أرغب في أن أمضي، الأفاقون الخداعون، الكلاب، لا أريد هذا على الإطلاق. ويشدّ على ساقيه، سيكون مدعاة للسخرية لو صعب عليّ الذهاب. تحرك. كأنما ألقى به في عجين ولا يستطيع خلاصاً من ذلك. لكنّ الأمور مشت، مشت الأمور. مشت بصعوبة، إلا أنها مشت. فأنا أمضي إلى الأمام، وما على هؤلاء إلا أن يسرقوا، فأنا سأنطلق هارباً. خلع المعطف، ورجع إلى الفناء ببطء، متخوفاً، إلا أنّ المعطف سيرمي به في وجوه هؤلاء، وفي الظلام رمى المعطف صوب البيت الخلفي. عندها جاءت أضواء من جديد، ومرّ به رجلان يركضان، معهما معاطف ورزم كاملة، محملة محمولة، وكانت كلتا السيارتين تقفان أمام طريق البوابة؛ وفي أثناء المرور به ضرب أحد الرجلين فرانس على الذراع ضربة حديدية: «كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟» كان هذا راينهولد. الآن كان يركض رجلان آخران مرّاً به ومعهما سلال ثمّ رجلان آخران، جيئةً وذهاباً، ودون ضوء مرّاً بفرانس الذي لم يحدث فيه أي شيء إلاّ العض على الأسنان وتطبيق اليد. فقد أحدثوا هرجاً ومرجاً مثل المتوحشين في الفناء وعلى الممر جيئةً وذهاباً في العتمة، وإلا كان فرانس خوِّفهم. إذ إنّ هذا لم يعد فرانس الذي كان يقف هناك. من دون

معطف ودون قبعة والعينان مدفوعتان إلى الأمام، اليدان في الجيب، متحفرتان ما إذا كان يتعرف على وجه، من هو هذا، من هذا، لا سكين هنا، انتظر، ربما في السترة، أيها الشباب، أنتم لا تعرفون فرانس بيبركوبف، سترون حين تمسكونه. عندها خرج الأربعة محمّلين راكضين بعضهم خلف بعض، واحد قصير ممتلئ الوجه يمسك فرانس من ذراعه: «تعال يا بيبركوبف، تحرك وسير، كل شيء على ما يرام».

وينحشر فرانس بين آخرين في سيارة كبيرة. راينهولد يجلس بجانبه، وهذا يضغط على فرانس بشدة إلى جانبه، إن هذا غير راينهولد. إنهم يسرون بدون نور. «أنت تضغط عليّ»، يهمس فرانس؛ لا سكين هنا.

«سدّ فاك، اخرس يا رجل، ما من أحد ينس بنت شفة» السيارة الأمامية تنهب الأرض نهباً؛ سائق السيارة الثانية ينظر يميناً إلى الورا، ويزيد السرعة ويصيح إلى الورا عبر النافذة المفتوحة: «شخص ما يتبعنا».

يمدّ راينهولد الرأس خارج النافذة: «بسرعة، بسرعة، حول ناصية الشارع.» السيارة لا تزال وراءهم. عندئذ يرى راينهولد في ضوء مصباح وجه فرانس: أسارير هذا تتهلل، إن لهذا وجهاً تكتنفه الغبطة. «أنت تضحك، أيها القرد، أنت مجنون» «في وسعي أن أضحك، هذا ليس شأنك» «أنت تضحك؟» «يا لكسول كهذا، مخبر ولوطي. وفجأة تلمع في رأس راينهولد الفكرة التي لم تكن قد خطرت بباله طوال السفرة كلها: إن هذا بيبركوبف الذي تخلّى عنه والذي يخلصه من النساء، والدليل قائم، هذا الخنزير الوقح السمين، وأنا حكيت لهذا أيضاً كل شيء عني. وفجأة لا يفكر راينهولد بالسفرة.

ماء في الغابة السوداء، أنتم مستلقون صامتون. أنتم تضطجعون في هدوء خفيف. سطحكم لا يتحرك حين تهب العاصفة في الغابة، ويبدأ شجر

البلوط بالانحناء، ويتمزق نسيج العنكبوت بين الأغصان، ويبدأ التشطي. ولا تنفذ العاصفة إليكم تحت.

هذا الولد، يخطر ببال راينهولد، لا يشغل باله شيء، ويظن أن السيارة خلفنا ستدركنا، وأنا أجلس هنا، وهو يلقي عليّ خطبه، عن النساء، وعليّ أن أضبط نفسي.

يواصل فرانس ضحكه بصمت، وينظر إلى الخلف من خلال نافذة السيارة الصغيرة إلى الشارع، أجل، السيارة تتعقبهم، فقد انكشفوا؛ انتظر، هذه هي عقوبتك، وإن ضعت أنا نفسي في أثناء ذلك، فليس على هؤلاء أن يسيئوا معاملي، الأوغاد، السفلة أو لاد الكلب القذرين، عصابة المجرمين.

ملعون الرجل، يقول إرميا، الذي يتكل على البشر. إنه يشبه شخصاً في البرية لا أنيس له ولا جليس. فهو موجود في مكان جذب، في الصحراء على أرض سبخة غير مسكونة. القلب خائن خداع وفساد: ترى من ذا الذي يعرفه؟

عندئذٍ أعطى راينهولد الرجل قبالته إشارة سرية، في السيارة إطفاء النور وإشعاله، ستكون مطاردة. خلصة يمدّ راينهولد يده إلى أكرة الباب لصق فرانس. وينطلقون كالرياح إلى شارع عريض تكتنفه الأشجار. ولا يزال فرانس ينظر إلى الوراء. وفجأة تمّ الإمساك به من الصدر وشده إلى الأمام. يريد أن ينهض، ويهوي على وجه راينهولد. إلا أنه قوي قوة فظيعة. وتعصف الرياح في السيارة، ويتطاير الثلج إلى الداخل. ويدفع بفرانس بالميل فوق اللفات الكبيرة إزاء الباب المفتوح، ويمدّ يده وهو يصرخ إلى عنق راينهولد. وإذا بضربة عصا تهوي من الجانب على ذراع فرانس. والرجل الثاني في السيارة يوجه إليه ضربة في الخاصرة اليسرى فتزحزحه. من لفات الأقمشة إلى تحت يتم دفع فرانس

وهو مستلقٍ من خلال الباب المفتوح؛ ويتشبث بالساقين بما يستطيع. ذراعه تحيطان برفرف السيارة.

عندئذٍ يتلقى ضربة بالعصا على مؤخرة الرأس. منحنيًا فوقه يرمي الجسم وهو واقف إلى الشارع. وينغلق الباب بعنف. وسيارة المطاردين تنطلق كالرياح فوق هذا الأدمي. وتستمر المطاردة في الثلج المتكاثف.

لنفرح حين تطلع الشمس ويأتي النور البهيم. فضوء الغاز يمكن أن ينطفئ، الضوء الكهربائي. الناس ينهضون حين يصرّ منبههم بصوت خفيض، فقد بدأ يوم جديد. وإذا ما كان قبل ذلك الحادي عشر من نيسان فإنه الآن الثاني عشر منه، إذا ما كان الأحد فإنه الآن الاثنين. فالسنة لم تتغير، والشهر أيضاً، إلا أن تغيراً طرأ. فالعالم واصل التقلّب. الشمس طلعت. ليس مؤكداً ما هي هذه الشمس. ويشغل الفلكيون أنفسهم كثيراً بهذا الجسم. إنه، يقولون، الجسم المركزي لنظام الكواكب السيارة، إذ إن أرضنا ليست إلا كوكباً سياراً صغيراً. وماذا نحن في حقيقة الأمر؟ إذا طلعت شمس هكذا وسرّ المرء كان على المرء أن يحزن في الواقع، إذ أيّ شيء هو المرء، فالشمس كبيرة كبر الأرض بـ ٣٠٠٠٠٠٠ مرة، ويا لكل ما هو موجود من أرقام وأصفار، ولها كلها إلا أن تقول: إننا صفر أو لا شيء، لا شيء بالتمام والكمال. في الواقع مدعاة للسخرية أن يسرّ المرء في هذه الحال.

والحق أن المرء ليفرح حين يكون النور البهيم موجوداً، أبيض وقويًا، ويعمّ الشوارع، وفي الحجرات تستيقظ كل الألوان، والوجوه تكون حاضرة، القسمات. إنه لمريح أن تتلمس أشكالاً باليدين، إلا أنها لسعادة أن ترى، أن ترى ألواناً وخطوطاً. ويسرّ المرء ويستطيع أن يري ما المرء، ماذا يفعل، ماذا يشهد.

ونحن ينشرح صدرنا في نيسان للدفء القليل، وكم تفرح الورود أنها تستطيع أن تنمو. لا بد أن يكون خطأً، غلطاً في الأعداد المخيفة بالأصفار الكثيرة.

ما عليك إلا أن تطلعي يا شمس، فأنت لا تخيفيننا. فالكيلومترات الكثيرة لا نعبأ بها، وقطر الدائرة، وحجمك. أيتها الشمس الدافئة، ما عليك إلى أن تطلع، أنت أيها النور البهي، اطلع. أنت لست كبيراً، أنت لست صغيراً، أنت البهجة والسرور.

الآن نزلت مسرورة لتوها من إكسبريس الشمال الباريسي، الشكل القصير الوديع في المعطف المبطن بالفرو، بعينها الواسعتين وبرفقة كلبها الصغيرين الأسود الباكنيزي والصيني بالذراع. مصورون وتطيل وتزمير. وبابتسامة خفيفة تتحمل راكيل كل شيء، وأكثر ما تفرح له هو باقة من ورود صفراء تعود إلى المستعمرة الإسبانية، إذ إنَّ العاج هو لونها المفضل. وبالعبارة: «أنا أتطلع بشكل غير معقول إلى برلين» تستقل السيدة المشهورة سيارتها، وتغيب عن أنظار الجمهور الذي كان يلوح في المدينة الصباحية.

الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة السنورية للكتاب

الكتاب السادس

الآن ترون فرانس بيبركوبف لا يشرب ويتوارى. الآن ترونه يضحك: على المرء أن يمدّ رجليه على قدر بساطه. إنه مغتاض أنهم أكرهوه أنه لم يعد لأحد أن يجبره، ولا الأقوى. ويرفع قبضته في وجه القوة المبهمة، ويجس بشيء يقف ضده، إلا أنه لا يستطيع أن يراه، لا بدّ أنه سيحدث من بعد بأن تنطلق المطرقة صوبه مسرعة كالريح.

ما من داعٍ إلى اليأس. وحين أتابع سرد هذه القصة، وأكون قد وصلت إلى نهايتها القاسية الرهيبة المرّة، إلا أنني سأظلّ أستخدم المرة تلو المرة العبارة: ليس من داعٍ إلى اليأس. إذ إنّ الرجل الذي أروي عنه، صحيح أنه لم يكن إنساناً عادياً، إلا أنه إلى حدّ ما إنسان عادي بالقدر الذي نفهمه فهماً دقيقاً ونقول أحياناً: كان يمكن أن نفعل الشيء نفسه خطوة خطوة مثله هو وأن نعيش الشيء نفسه مثلما عاشه هو، ومرّ به. وقد وعدت مع أنه ليس مألوفاً أن يكون هناك صمت على هذه القصة.

إنها الحقيقة الفظيعة ما أرويه عن فرانس بيبركوبف الذي خرج من البيت دون أن يساوره أي شيء وشارك على غير إرادته في اقتحام منزل، وألقي به أمام سيارة. ويرتمي تحت العجلات هو الذي بذل من غير ريب أصدق الجهود ليسير في طريقه القويم المتاح والمشروع. ولكن أليس هذا ما يدعو إلى اليأس، فأني معنى ينبغي أن يكون في هذا السخف الضعيف المقرف المكشوف، وأي معنى

كاذب يجب أن يلصق بذلك وأيّ مصير لفرانس بييركوف ينبغي أن يستخلص من ذلك؟

أقول: ليس من داعٍ إلى اليأس. أعرف بعض الأشياء، وربما يرى البعض الذين يقرؤون هذا بعض الأشياء. كشف بطيء يجري هنا، سيشهده المرء مثلما يشهده فرانس، ثم سيتضح كل شيء.

الحرام يثمر ثمراً وأيّ ثمر

ولأنّ أمور راينهولد كانت هكذا على قدم وساق فقد تابع على فوره. فلم يأت إلى البيت إلا يوم الاثنين ظهراً. فلنسط إخوتي الأكارم وأخواتي الكريهات وشاح الإيثار وحب الغير بمساحة ١٠ أمتار مربعة فوق الزمن الذي يتخلل ذلك. وفوق الزمن المتقدم السابق لم نستطع هذا للأسف. ونكتفي بأن نتأكد من أنه وبعد أن طلعت الشمس يوم الاثنين باكراً وفي الوقت المحدد ثم انطلق الزحام والضجيج المعهودان في برلين شيئاً فشيئاً - ودقت الساعة الواحدة ظهراً، إذن في الثالثة عشرة رمى راينهولد ترودي المتأخرة من غرفته، ترودي التي كانت مقيمة فيها وأبت. وكم تطيب نفسي في نهاية الأسبوع، يا سلام، يا سلام، حين يهرع التيس إلى المعزاة، يا سلام يا سلام. ومن المحتمل أنّ قاصاً آخر كان سيرتب الآن لراينهولد عقوبة، لكن لا أملك من الأمر شيئاً، فهذا لم يحدث. كان راينهولد منشراح الصدر، وللاستزادة من الانبساط وبغرض مسرته المتزايدة رمى بترودي خارجاً، ترودي التي كانت ذات طبيعة تحب الاستقرار، وبناء على ذلك رفضت. الحق أنه هو نفسه لم يرغب في ذلك أبداً. إلا أنّ الفعلة تمت نوعاً ما بصورة آلية رغم انعدام الرغبة، فقد تمت أساساً بمشاركة دماغه المتوسط: إذ إنّ الكحول كان يسيطر عليه سيطرة قوية. حتى إنّ القدر كان لا يزال يؤازر الرجل.

فالتشرب بالكحول هو من الأشياء التي تركناها الليلة الماضية، ولم يبق علينا إلا أن نسارع لكي نتقدم في أن نزيل بعض المتبقيات. راينهولد، هذا العاجز الضعيف الذي كان في نظر فرانس مدعاة للسخرية والذي لم يستطع أن يقول لأية امرأة كلمة قاسية أو حازمة استطاع الساعة الواحدة ظهراً أن يضرب ترودي ضرباً مبرحاً وأن يقتلع شعرها وأن يحطم مرآة عليها، استطاع كل شيء، وأن يدمي فمها في النهاية حين صرخت بحيث إنه تورّم تورّمًا شديداً حين قصدت الطبيب. في غضون ساعات قليلة كانت الفتاة قد فقدت كامل جمالها بسبب هجمات راينهولد العنيفة الذي أرادت أن تجعله أيضاً مسؤولاً عن التعويض نتيجة ذلك. وكان عليها أن تضع بشكل مؤقت مرهماً على الشفتين وأن تغلق فمها. وهذا كله كان راينهولد، كما ذكرنا، قادراً عليه، ذلك لأن بضعة كؤوس من العرق خدّرت مخه، ومن ثمّ كان مخه المتوسط حر التصرف، وهو الذي كان عنده على وجه الإجمال أمهر وأشطر.

هو نفسه، ولئن كان بعد العصر في حال سيئة، كان صاحبياً واستعاد رشده، فهو نفسه وجد في بيته وهو مدهوش بعض التغيرات التي تستحق الترحيب. الظاهر أنّ ترودي كانت قد ذهبت. وذلك إلى غير رجعة. إذ إنّ السلّة كانت قد ولّت أيضاً. وإلى ذلك كانت المرأة قد صارت حطاماً وشخص ما كان قد بصق على الأرض بطريقة حقيرة، وعلى وجه التحديد دماً. وتفحص راينهولد الضرر من حوله. كان فمه سليماً، ثمّ إنّ ترودي كانت قد بصقت، وكان هو قد حطّم لها فمها. أيّ شيء وضعه أمام نفسه في مثل هذا الشعور بالغبطة والاحترام بحيث إنه ضحك ضحكاً عالياً. وتناول بقية مرآة ورأى نفسه فيها: ماذا يا راينهولد، لقد أفلحت، وما كنت أظنّ هذا ممكناً! راينهولد، يا راينهولد. يا لمسرّة هذا. وضرب على خديه.

أنعم الفكر: ترى هل طردها شخص آخر، ربما فرانس هذا؟ الأمور من المساء ومن الليل لم تكن بعد واضحة له كلّ الوضوح. أحضر مؤجرته بحذر إلى الداخل، البائعة العجوز في السوق، ونقر عندها: «هل وقع عندي شجار عنيف اليوم، أليس كذلك؟» عندئذ انطلقت هذه قائلة: «إنه كان سيحسن الأمور مع ترودي على نحو سليم، فقد كانت هذه حيواناً جدّ كسول، حتى إنها ما كانت لتكوي تنورة وحدها، ماذا، هذه تلبس تنورات، ما كان ليحتمل هو هذا. هو نفسه كان ذلك إذن. كم كان راينهولد هذا سعيداً. فجأة خطرت بباله كل أمور المساء والليل. جولة حلوة قام بها، ورث الكثير، وفرانس ببيركوبف البدين تمّ الكيد له بمكيدة، وعسى أن يكونوا دهسوه وترودي تمّ طردها، يا رجل، عندنا رصيد!

أي شيء نعمله الآن؟ أولاً اللبس الأنيق للسهرة. عندها ينبغي أن يحثني أحدهم عن العرق. لم تكن بي رغبة في ذلك ولم أرغب في ذلك يا لسخف هذا. ما توفره القوة، يا لكل الأشياء التي أنجزناها الآن.

وما إن يغير ثيابه حتى يصعد إليه شخص مرسل من قبل بومز، يهمس ويتهامس ويتصرف تصرفاً متصنعاً للغاية ويغير وقفته من ساق إلى ساق وعلى راينهولد أن يأتي على الفور إلى الحانة في الجانب الآخر. إلا أن الوقت يستغرق ساعة كاملة حتى ينزل صاحبنا راينهولد. النساء هنّ اليوم القصد، واليوم ينبغي على بومز وحده أن يؤدي دور بومز. هناك في الحانة كان الجميع خائفين خوفاً شديداً. فراينهولد كان سيسبب لهم مكدرات ومنغصات مع ببيركوبف. إن لم يكن هذا الآن ميتاً فسيشي هذا بنا جميعاً، وإن كان ميتاً، يا آدمي، فأول شيء هو أننا كلنا سنكون غارقين في ذلك. عندها سيسألون عنده في البيت هنا وهناك وما سيتمخض عندئذ عن ذلك.

أما راينهولد فهو سعيد، والحظ يحالفه. ولا شيء يمكن تسويته معه. إنه أسعد الأيام منذ أن استطاع أن يتذكر. لديه الآن عرق ويستطيع أن يأتي بنساء وينحيهن جانباً بقدر ما يشاء. سيتخلص منهنّ كلهنّ من جديد، هذا هو أحدث شيء وأروع شيء. ويريد أن يقوم برحلة عما قريب، على أن الأخوة عند بومز لا يتركونه يمضي إلى أن يعد بأنه سيبقى عندهم في فايسينزي يومين أو ثلاثة أيام ويختبئ. يجب أن يروا ما كان من أمر فرانس في حقيقة الأمر وأي شيء سيجرّ عليهم هذا. إذن، هذا ما يعد به راينهولد.

وراينهولد له الحق. لا شيء يسمعه المرء عن فرانس بيركوبف. فلا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً عنه. فالرجل اختفى اختفاءً كلياً من الوجود. وعلينا أن نرتاح للأمر. فالجميع يتمشون من جديد، ويدخلون إلى منازلهم من جديد مبتهجين.

لكن في حجرة راينهولد فإنّ هناك واحدة اسمها كارلا تدخن، امرأة شقراء شقرة فاتحة، وتجلب له معها ثلاث زجاجات كبيرة من العرق. ويرشف منها دائماً شيئاً قليلاً، وهي أكثر مقابل ذلك، وأحياناً بشدة. ويخطر بباله: اشرب أنت، وأنا لا أشرب إلا حين يكون وقتي، ثمّ يعني هذا بالنسبة إليك: وداعاً يا أنت.

هناك البعض وسط القراء الذين هم مشفقون على سيللي. ما مصير هذه الفتاة المسكينة لو لم يكن هناك فرانس ولو لم يكن فرانس حياً وكان ميتاً، أو ببساطة لو لم يكن موجوداً؟ أي وحقّ الله، ستشق هذه طريقها فلا تعلق. ليس من داع إلى القلق عليها. هذا النوع سيقف دائماً وأبداً على قدميه. وسيللي على سبيل المثال لا مال عندها يكفي يومين وفي يوم الثلاثاء تضبط من بعد ذلك، وكما ظننت على فوري، راينهولد الذي كان يسير حرّاً طليقاً، أكثر الأشخاص تهنيداً ممن يتظاهرون بالنبل والوجاهة والشرف في برلين المركز لابساً قميصاً

حريراً مناسباً. وسيللي مشدوهة ولا تفهم نفسها حين تراه ما إذا كانت وقعت من جديد في هوى هذا الرجل أم ينبغي أن تقطع صلتها به نهائياً.

إنها تحمل في حرية بحسب شيللر الخنجر في الرداء. ولئن لم تكن إلا سكين مطبخ، إلا أنها تريد أن تطعن راينهولد طعنة واحدة لقطاراته ونذالاته؛ وسيان في أيّ موضع. وها هي تقف الآن عنده أمام باب البيت ويثرثر مجاملاً، وردتان وقبلة باردة. ويخطر ببالها: ثرثر حتى الصباح، وبعدها سأنهال طعناً. لكن في أي مكان؟ هذا ما يحيرها ويبلبل أفكارها. الحق أنه ليس في الإمكان الطعن في مثل هذا القماش الجميل، فالرجل يلبس بزّة رسمية غاية في الأناقة وتناسبه بشكل رائع. وتقول هي وتمشي بجانبه على طول الشارع، لا بدّ أنه نقر فرانس منه. إذن لماذا؟ فرانس لن يأتي إلى البيت. وحتى اليوم لم يأت. والمرور لن يضرّ بشيء، وفضلاً عن ذلك فإنّ ترودي رحلت عن راينهولد. إذن، إنه لمؤكّد كلّ التأكيد وفي هذه الحال لا يستطيع أن يقول أيّ شيء أنّ فرانس راح مع ترودي، وراينهولد أقنعه، وهذه هي إذن الذروة.

راينهولد يدهش، كيف عرفت هي هذا كلّه بمثل هذه السرعة. ها هي الآن عنده فوق وحكت له المؤجّرة عن الشجار مع ترودي. أنت أيها الوغد، تسبّ سيللي وتودّ أن تمتلك الشجاعة على سكين المطبخ، أنت عندك واحدة أخرى، وهذا ما يبدو عليك.

يلاحظ راينهولد على بعد ١٠ أمتار: ١- هذه لا مال عندها ٢- أنها غاضبة على فرانس و٣- أنها تحبني، تحب راينهولد الأنيق. وفي مثل هذا اللباس تحبه النساء ولا سيما حين يكون هذا تكراراً، أي ما يسمى إعادة عرض. في هذه الحال يعطيها على نقطة ١ عشرة ماركات. وعلى نقطة ٢ يشتم ويلعن هو فرانس

بيركوبف. ترى أين يختبئ ابن الكلب هذا، يود أن يعرف هو نفسه هذا. [تأنيب ضمير، أين هو تكيت الضمير، أوريست وكليمنسترا، راينهولد لا يعرف السيد والسيدة كليهما ولا بالاسم، إنه يتمنى ببساطة من قلبه وأعماقه أن يكون فرانس قتل قتلاً، ولا يمكن العثور عليه] على أن سيللي لا تعرف أيضاً أين هو فرانس، وتشير الدلائل، يحاجج راينهولد متأثراً، أن الرجل قد مات. وعلى هذا يعقب راينهولد على نقطة ٣ بلطف، بصدد المحبة في حالة التكرار: أنا الآن مشغول، لكن في أيار يمكن البدء من جديد. لك آراء عجيبة مضحكة، تسب وتشتم ومن الفرح لا تريد أن تصدق هذا. عندي كل شيء ممكن، تتهلل أساريه، ويستأذن منصرفاً ويتابع تجواله. راينهولد، أنت يا راينهولد الخاص بي، فأنا لا أحب إلا إياك.

يشكر خالقه أمام كل حانة أنه يوجد عرق. فحين تغلق كل الحانات أبوابها أو تمنع الخمر عن ألمانيا، ماذا أفعل عندئذ؟ لا بدّ عندئذ من أن يخزن المرء عنده في البيت في الوقت المناسب. هلاً حضرنا لهذا على فورنا. صبيّ مكار أنا، يخطر بباله ما إن يقف في الحانوت ويشترى مختلف الأصناف. يعرف أنه يمتلك مخه، وإذا دعت الحاجة فيكون مخه المتوسط.

وعلى هذا النحو، وإن كان على أية حال مؤقتاً، انتهت ليلة الأحد ليوم الاثنين عند راينهولد. ومن سيسأل من بعد إذا ما كانت هناك عدالة في العالم فإنه سيكتفي بالجواب: ليس مؤقتاً، وعلى أية حال ليس حتى يوم الجمعة هذا.

الأحد ليلاً، الاثنين التاسع من نيسان

السيارة الخاصة الكبيرة التي سيوضع فيها فرانس بيركوبف - فاقد الوعي، وقد أعطي كافوراً وهوسين (سكوبولامين)، تنهب الأرض نهباً لساعتين. ثم يجد المرء نفسه في ماجديبورغ. وبالقرب من إحدى الكنائس يتم

إنزاله، وفي المستشفى يرّ كلاً الرجلين الجرس بعنف. وفي الليلة نفسها يجري له العمل الجراحي. الذراع اليمنى بتر بالمنشار من عند مفصل الكتف، وتستأصل أجزاء من مفصل الكتف، والرضوض على القفص الصدري وعلى الفخذ الأيمن ليست بذات أهمية بقدر ما يستطيع المرء قوله في لحظتها. والجروح الداخلية ليست بمستعبدة، ربما تمزق كبد بسيط، لكن لا يمكن أن تكون كثيرة. لنتظر. هل نرف كثيراً؟ وأين وجدتماه؟ على شوشي (الطريق العام). كانت هناك دراجته، لا بدّ أنه صدم من الخلف. ألم تشاهدا السيارة: لا. حين عثرنا عليه كان ملقى هناك، وحين افترقنا كان قد سار يساراً. نعرف، ظلام دامس جداً. أجل هناك وقعت الواقعة. هل سيبقى السيدان هنا؟ أجل، بضعة أيام أخرى، إنه أخو زوجتي، وزوجته ستلحق به اليوم وغداً. سننزل على الجهة الأخرى إذا ما اضطررنا إلى ذلك. أمام باب غرفة العمليات يتكلم أحد الرجلين مرة أخرى إلى جماعة المستشفى. الحق أنّ الأمر مقيت، على أنه يهمننا إلا يصدر من جهتكم في كل الأحوال أيّ تبليغ عن الحادثة. نريد أن نتظر إلى أن يستعيد وعيه كيف يفكر هو نفسه بالموضوع. إنه ليس مغرمًا بالقضايا. هو - هو نفسه دهس أحدهم، أعصابه -، كما تشاء. اتركاه يشفّ.

في الحادية عشرة تبديل الضماد. إنه الاثنان قبل الظهر - مسببو المحنة يعربدون ويزعقون في هذه الساعة، بما فيهم راينهولد، مبتهجين وشديدي السكر عند من يتلقى السلع المسروقة - فرانس صاح كلياً، إنه يستلقي في سرير ناعم في غرفة ممتازة، الصدر يضيق عليه وقد لفّوه لفّاً شديداً، ويسأل الممرضة أين هو. وتقول هذه ما سمعته من الممرضة المناوبة وما التقطته هي قبل ذلك في أثناء الحديث. إنه صاح. يفهم كل شيء، ويتلمّس كتفه الأيمن. وتضع الممرضة اليد من جديد إلى الوراء: استلقِ بهدوء تام. هناك قد سال دم في ردغة الشارع

من كمه، كان قد شعر بذلك. ثم كان هناك ناس بجانبه، وفي لحظة حصل شيء ما فيه. أي شيء حصل لفرانس في لحظة؟ كان قد اتخذ قراراً. في أثناء لكلمات راينهولد الحديدية في الفناء في ميدان بولوف كان قد ارتجف والأرضية تحته ارتجت. ولم يفهم فرانس أي شيء.

حين سارت السيارة به كانت الأرضية لا تزال تهتز، وكبر على فرانس أن يلاحظ هذا، إلا أن هذا كان موجوداً.

وفيا كان هو ملقى في وحل الثلج، بفارق خمس دقائق، تحركت فيه الحياة. شيء ما تقطع، هوى متكسراً، دوى ودوى. فرانس متحجر جامد، إنه يحس، فأنا دهست، إنه بارد وهادئ. ويلاحظ فرانس، أنا أسير أمام الكلاب - وهو يصدر أوامر. قد أتخطم، لا ضير في ذلك، إلا أنني لن أتخطم. إلى الأمام. ويربطون له الذراع بحمالة سراويل. ومن ثم يريدون السير به إلى مستشفى بانكوف. على أنه متبه يقظ على كل حركة: لا، ليس إلى المستشفى، ويذكر عنواناً. أي عنوان؟ شارع إلزاس، هيربيرت فيشوف، زميله من سالف الأزمان، قبل تيجل! العنوان موجود في لحظةها. ويتحرك الشيء في داخله وهو ملقى في وحل الثلج، يتقطع، يتفجر، يدوي ويدوي. في لحظةها حدثت الهزة في داخله. ليس هناك من ريب أو حيرة.

ينبغي إلا يضبطوني. إنه واثق من أن هيربيرت لا يزال يسكن هناك وأنه الآن في البيت. الناس يندفعون راكضين عبر الحانة في شارع الإلزاس، إنهم يسألون عن شخص اسمه هيربيرت فيشوف. وإذا بشاب رفيع القوام ينهض إلى جانب امرأة جميلة سوداء، ما الأمر، ماذا، في الخارج في السيارة، ويندفع راكضاً معهم إلى السيارة، والفتاة خلفه. نصف الحانة معهم. ويعرف فرانس من يأتي الآن. إنه يأمر الزمن.

يتعرف كل من فرانس وهيربيرت إلى الآخر، ويهمس فرانس له بعشر عبارات. وتفسح هذه مكاناً في الخارج. ويوضع فرانس في الحانة في الخلف على سرير ويؤتى له بطيب، إيفا، السوداء الجميلة، تحضر النقود. ويلبسونه ثياباً أخرى. وبعد ساعة من الحادث يسافرون في سيارة خاصة من برلين إلى ماجديبورغ.

في الظهر يأتي هيربيرت إلى المستشفى، وفي وسعه أن يتفاهم مع فرانس. لن يبقى فرانس يوماً واحداً في المستشفى بغير موجب، وفي أسبوع واحد سيعود هيربيرت فيشوف. وتنزل إيفا في أثناء ذلك بمدينة ماجديبورغ.

فرانس يلزم الفراش هادئاً بلا حراك. إنه يضبط نفسه. ولا يعود بذاكرته إلى الورا قيد أنملة، اللهم إلا أنه في الساعة الثانية بعد عيادة المرضى يتم الإخبار عن حضور حضرة السيدة وتدخل إيفا ومعها الزنبق، ويسترسل هو في البكاء، يبكي وينشج متحجاً، وعلى إيفا أن تمسح وجهه بمنشفة. ويلحس شفثيه، ويقرص عينيه ويعض على أسنانه. على أن فكّه يرتعش، عليه أن يواصل الانتحاب بحيث إن الممرضة في الخارج تسمع شيئاً ما فتتقر وتطلب من إيفا بأن تذهب لهذا اليوم، وإلا فإن اللقاء يجهد المريض إجهاداً وأياً إجهاد.

في اليوم التالي يكون في كامل هدوئه ويتسم لإيفا. وبعد أربعة عشر يوماً يأتون ويأخذونه. إنه في برلين من جديد. ويتنفس برلين من جديد. وما إن يرى بيوت شارع الإلزاس حتى يتحرك فيه شيء ما، إلا أن هذا لم يصل إلى حد الانتحاب. إنه يذكر الأحد بعد الظهر مع سيللي وقرع النواقيس وهنا أنا في بيتي ويتظنني شيء ما، وعلى أن أنجز شيئاً ما. سيحصل شيء ما، ويعرف فرانس ببيركوبف هذا تمام المعرفة ولا يتحرك ويتركهم يحملونه بهدوء من السيارة.

عليّ القيام بشيء ما، سيحصل شيء ما، لن أهرب، فأنا فرانس بيركوف.
وعلى هذه الحال يحملونه إلى البيت، إلى منزل صديقه هيربيرت فيشوف الذي
يسمي نفسه الوكيل بالعمولة. إنه اليقين نفسه الذي لا ريب فيه والذي كان قد
ظهر في داخله إثر السقوط من السيارة.

عرض الماشية في المسلخ: خنازير ١١٥٤٣، بقر ٢٠١٦، عجول ٩٢٠،
خراف ١٤٤٥٠. صعق كهربائي، ويتتهي الأمر، فهي منظرحة.
الخنازير، البقر. العجول، ستدبح. ليس من داعٍ للاهتمام بذلك. أين
نحن؟ نحن؟

إيفا تجلس إلى سرير فرانس، وفيشوف يأتي ويعود: من كان هذا، يا
رجل، كيف وقع هذا؟ فرانس لا يفصح عن شيء. بنى حول نفسه صندوقاً
حديدياً، وها هو يجلس في داخله ولا يترك أحداً يقترب.

إيفا وهربيرت وصديقه إيميل يجلسون معاً. منذ أن وصل فرانس في المساء
مدهوساً صار الرجل غامضاً عليهم. فهذا لم تدهسه سيارة فحسب، بل إن وراء
الأكمة ما وراءها، فأى شيء حدا بهذا إلى أن يبحث في الساعة العاشرة في الشمال،
إذ إنه، والحق يقال، لا يبيع جرائد في الساعة العاشرة في المكان الذي لم يعد يطرقه
أي إنسان. هيربيرت يحتفظ بهذا لنفسه: أراد فرانس أن يعمل عملة، وفي أثناء
ذلك حدث له ما حدث، والآن ينجل لأنّ عملية الورق باءت بالفشل، ثم إنَّ
وراء العملية ناساً آخرين لا يريد أن يشي بهم. وتشاطره إيفا الرأي أنه أراد أن
يعمل عملة، لكن كيف حدث هذا، إنه الآن مشوّه ذو عاهة. سنكتشف السرّ.

يتبيّن حين يعطي فرانس إيفا عنوانه الأخير، وأنه ينبغي جلب سلته، إلا
أنه لم يقل إلى أين. وعلى هذا يتفاهم هيربيرت وإيميل، فمؤجرة البيت ترفض أن

تسلّم السلة، إلا أنها تقوم بهذا مقابل ٥ ماركات، وبعدها تتابع الشرقة على فورها: هنا يسألون كلهم عن فرانس كل عدة أيام، من بحق الله، من عند بومز وراينهولد وما إلى ذلك. إذن بومز. الآن يعرفون ذلك. جماعة بومز. وتثور ثائرة إيفا، وفيشوف غاضب أيضاً: إذا كان سيشارك من جديد فلماذا مع بومز؟ لكن طبيعي، فيما بعد، ومن ثمّ فإننا أحببناه، ويمشي هو مع هذا، وها هو الآن مشوّه ذو عاهة، نصف جثة، وفي ظروف أخرى كنت سأتكلم معه بطريقة أخرى.

لم تفرض إيفا إرادتها إلا بالقوة أنها كانت حاضرة حين حاسب هيريرت فيشوف فرانس، وإيميل كان أيضاً حاضراً. فالموضوع كلّفهم ورقة مالية من فئة الألف مارك.

«إذن يا فرانس»، بدأ هيريرت، «طال بك المقام، وفي إمكانك النهوض الآن - ثم ماذا ستعمل؟ هل فكّرت بذلك؟» ويدير فرانس له وجهه النابت الشعر غير الحليق. «دعني أقف على قدميّ أولاً» «مهلاً، مهلاً، فنحن لا نزاحم ولا نستعجل، فلا تظنّ الظنون. فأنت لا تزال عندي موضع الرعاية الجيدة. فلماذا لم تعد تأتي إلينا. مضت سنة على خروجك من تيجل».

«ليست هذه المدة بعد» «إذن نصف سنة. ألا تريد أن تعرف عنا شيئاً، ماذا؟». البيوت والسطوح المائلة، فناء عالٍ مظلم، ويهب نداء مثل هزيم الرعد، هو لا لالا، هكذا بدأت الأمور.

فرانس يستلقي على ظهره، ينظر إلى السقف: «كنت أبيع الصحف. أيّ شيء يمكنكم أن تفعلوه بي في هذه الحال».

يتدخل إيميل ويصرخ عالياً: «يا رجل، أنت لم تبع جرائد» يا سلام على هذا المخادع. إيفا تطيب خاطره؛ ويلاحظ فرانس أنّ شيئاً ما يجري، إنهم يعرفون شيئاً

ما. ماذا يعرفون. «كنت أبيع صحفاً. اسأل ميك» فيشوف: «ما يقوله ميك أستطيع أن أحمته. كنت تبيع الصحف. جماعة بومز يتاجرون أيضاً بالفاكهة، يا سلام. إنهم يسايرون أيضاً السمك المفلطح. أنت وحدك تعرف هذا» «أما أنا فلا. فأنا بعت صحفاً. كسبت نقودي. ثم اسأل سيللي التي كانت عندي اليوم كله عما فعلته أنا» «الماركان الاثنان طوال النهار، أم ثلاثة» «إنه لأكثر أيضاً. كفاني هذا يا هيربيرت».

هؤلاء الذين في الداخل غير واثقين. وتجلس إيفا إلى فرانس: «قل لي يا فرانس، أنت كنت تعرف بومز» «أجل» لم يعد يفكر فرانس، إنهم يسألونني، ويتذكر، إنه يحيا. «وبعد؟» وتد الله إيفا بالمسح. «قل بالله عليك ماذا كان من أمر بومز» عندئذ يتفوه هيربيرت بجانبها قائلاً: «هيا أفصح عما في داخلك يا رجل. أعرف حق المعرفة ما بال بومز. أين كنتم في الليل. أتظن أنني لا أعرف. أجل، أنت شاركت في ذلك. هذا أمر لا يهمني. هذا شأنك أنت. وإلى هؤلاء تذهب، أنت تعرفه، الوغد، القديم، وأنت أوحشتنا» ويصرخ إيميل عالياً: «أرأيت. لسنا بطيين إلا إذا -» ويعطيه هيربيرت إشارة. ويكي فرانس. ليست الحال بمثل هذا السوء في المستشفى، لكنها رهيبة أيضاً. ويتحب ويكي ويدير رأسه يمناً ويسرة. لقد تلقى ضربة على الرأس، وناولوه لكمة في الصدر، ثم ألقوه من الباب أمام سيارة. وهذه دهسته. فقد ذراعه. إنه مشوه ذو عاهة. ويخرج الرجلان من الغرفة. ويتابع هو نحيبه في هدوء وراحة. وتظل إيفا تمسح الوجه بالمنشفة. ثم يهدأ فرانس، ويغمض العينين. تراقبه وتفكر، إنه نائم. وإذا به يفتح عينيه فهو صاح، ويقول: «قولي لهيربيرت وإيميل بأن يدخل».

ويدخل هذان خافضي الرأس. ثم يسأل فرانس: «ماذا تعرفان عن بومز؟ هل تعرفان شيئاً ما عنه؟» ويتبادل الثلاثة الآخرون النظرات ولا يفهمون. وتربت

إيفا على ذراعه: «لكنك تعرفه أنت أيضاً يا فرانس» «أريد أن أعرف ما تعرفونه عنه» إيميل: «إنه خداع داهية وليس وراءه إلا خمس سنوات في زونينبورغ؛ مؤبد أو استحق خمس عشرة سنة. هذا بسياراته، سيارات الفاكةهة» فرانس: «هذا لا يعيش من سيارات الفاكةهة على الإطلاق» «لا، إنه يأكل أيضاً لحماً، لكنه يكثر من أكله.» هيريرت: «لكن أنت يا فرانس، لست ابن الأمس، أنت تعرف هذا وحدك، أنت تلاحظ هذا في هذا الرجل» فرانس: «ظننت أنه يعيش من تجارة الفاكةهة» «وماذا كان وراءك يوم الأحد حين ذهبت مع هذا الرجل» «كنا نريد أن نجلب فاكةهة للسوق المسقوفة» فرانس يستلقي في هدوء تام. وينحني هيريرت فوقه ليرى قسماته «وهل صدقت أنت ذلك؟».

يواصل فرانس البكاء، إنما الآن في هدوء تام، فقد أغلق الفم. نزل السلم، رجل ما بحث في مفكرته عن عناوين، ثم كان عند بومز في المنزل والسيدة بومز كان المفروض أن ترسل قصاصة إلى سيللي.

«طبيعي أنني صدقت ذلك. لكنني لاحظت أنهم استخدموني للحراسة ومن ثم.»

ردد الثلاثة النظر فيما بينهم. ما يقوله فرانس صحيح. لكن هذا لا يدخل المخ. وتمس إيفا ذراعه: «وبعد ماذا كان؟» فتح فرانس فمه، الآن قلها، الآن سيخرج ما في جعبته، سيتم النطق بها بعد قليل. ويقول: «ومن ثم لم تعد بي رغبة، ثم ألقوا بي من السيارة لأنّ سيارة ما كانت تتعقبنا.»

في هدوء، ولم يواصل قول أيّ شيء، ودّهست، كان يمكن أن أكون ميتاً أيضاً، أرادوا قتلي. لم ينشج منتحجاً، ويضبط نفسه ويعضّ على أسنانه، والساقان ممدوتان.

الثلاثة يسمعون هذا. قالها الآن. إنها الحقيقة بعينها. ويعرفها الثلاثة كلهم في هذه اللحظة. إنه حصاد اسمه الموت أوتي القوة من الرب العظيم.

هيريرت ما زال يسأل: «هلاً قلت لي يا فرانس: سنخرج بعد قليل: إلينا لم تأتِ لأنك أردت أن تبيع الجرائد؟».

لا يستطيع أن يتكلم، هو يفكر: أجل، أردت أن أبقى مستقيماً حتى النهاية. وليس عليكم أن تنزعجوا من أنني لم آت إليكم. فأنتم بقيتم أصدقائي، ولم أغدر بأي منكم. ويستلقي صامتاً، ويخرجون.

ومن بعد ذلك، وحين يتناول فرانس منومه، يجلس هؤلاء تحت في الحانة ولا ينطقون بكلمة. ولا ينظرون بعضهم إلى بعض. وترتجف إيفا ارتجافاً. هذه الفتاة أردت أن تحظى بفرانس حين كان يمشي مع إيذا، على أن هذا لم يتخل عن إيذا مع أن هذه كانت قد خرجت إلى شارع بريسلاو. إنها على ما يرام مع صاحبها هيريرت، فقد حصلت منه على كل شيء تريده - إلا أنها لا تزال متعلقة بفرانس.

فيشوف يتركهم يحضرون خمرًا ساخناً، ويصبونه ثلاثتهم بالتساوي. ويطلب فيشوف كأساً أخرى. وتبقى حلوقهم جافة. إيفا يداها وقدمها باردتان برودة الثلج، كل لحظة تسري قشعريرة في مؤخرة رأسها وقفهاها، حتى الفخذان يبردان، وتضع بعضهما فوق بعض. ويسند إيميل رأسه على ذراعيه، ويلوك ويمص إصبعه ويتلع اللعاب، ثم إن عليه أن يبصق على الأرض. هيريرت فيشوف، الشاب، يجلس على الكرسي مشدود الجسد، كما على صهوة حصان: فهو يبدو مثل ملازم أمام فرقته، الوجه جامد. الجميع لا يجلسون هنا في الحانة، ليسوا هم في أماكنهم، إيفا ليس اسمها إيفا، وفيشوف ليس اسمه فيشوف، وإيميل ليس بإيميل. فقد انهدم سور من حولهم، هواء آخر، ظلمة

تدفقت. إنهم ما زالوا يجلسون إلى سرير فرانس، وتنبعث رعشة منهم صوب سرير فرانس.

إنه حصاد اسمه الموت، أوتي القوة من الرب العظيم. اليوم يشحن السكين، إنها تقطع على نحو أفضل بكثير.

يستدير هيربيرت صوب المنضدة. إنه مبحوح الصوت: «من ذا الذي كان يا ترى؟» إيميل: «من يا ترى؟» هيربيرت: «من ألقاه من السيارة؟» إيفا: «أنت تعد وعداً يا هيربيرت، إذا ما أمسكت به» «ليس من داعٍ إلى أن تقولي لي. شيء مثل هذا يحدث في الدنيا، لكن، لكن» «يا رجل، يا هيربيرت، في إمكانك أن تتصور شيئاً مثل هذا».

عدم سماع أي شيء من هذا، وعدم التفكير بذلك. وترتعش ركبنا إيفا، هي تتوسل: «يا هيربيرت، قم بالله عليك بشيء ما، يا إيميل.» خارج هذا الجوّ. إنه حصاد اسمه الموت. وينتهي هيربيرت «ما العمل إن لم نكن نعرف ما الموضوع. أولاً نكتشف حقيقة ما كان. ربما، ربما جعلنا كل عصابة بومز السفلة الأوغاد يثور ثائرها» إيفا: «وفرانس يثور ثائره معهم؟» «ربما، أقول، لنقم نحن بهذا. لم يشارك فرانس في هذا، غير صحيح، ويرى الأعمى هذا ويصدق كل قاضٍ. في الإمكان إثبات ذلك: رموا به أمام السيارة. وإلا فإنهم ما كانوا سيقدمون على ذلك» ويتنفض، يا لهؤلاء الكلاب. أيمن تصوّر هذا. إيفا: «ربما قال لي من فعل هذا».

لكن من ذا الذي يستلقي كالميت ولا يمكن معرفة أي شيء منه، إنه فرانس، دعه يستريح، دعه يستريح. الذراع مبتور، ولن ينمو أبداً. لقد ألقوا بي من السيارة، وتركوا لي الرأس، علينا أن نسير قدماً، علينا أن نشقّ الدرب ونقوم المعوج. أولاً وقبل كل شيء التمكّن من الزحف.

سرعان ما يصبح نشطاً على حين فجأة في مثل هذه الأيام الدافئة. ليس عليه بعد أن ينهض، إلا أنه ينهض، وتمشي الحال. هيربيرت وإيميل اللذان هما دائماً موفورا المال ما ضننا عليه بما يريد وبما يراه الطبيب ضرورياً. ويريد فرانس أن يقف على قدميه، يأكل ويشرب ما تقع عليه يداه ولا يسأل من أين لهما هذا المال.

في أثناء ذلك تجري أحاديث بينه وبين الآخرين، ولكنها ليست بذات أهمية، وموضوع بومز لا يثيرونه أمامه. يتكلمون على تيجل والكثير على إيذا. ويتكلمون عن هذه بتقدير وحزن أن الأمور اتخذت معها مجرى مثل هذا المجرى، وكانت لا تزال شابة غاية في الشباب، على أن إيذا تقول أيضاً إن هذه الفتاة كانت على مستوى خفيض. كل شيء بينهما مثلما هو قبل تيجل، ولا أحد يعرف أو يتكلم أن البيوت تقلقت في تلك الأثناء والسطوح كانت ستزلق، وفرانس غنى في الفناء وأقسم بحياته واسمه فرانس بيركوبف: يريد أن يبقى مستقيماً، وأن الأمور من سابق الأزمان ولّت إلى غير رجعة.

يستلقي فرانس ويجلس هادئاً عندهم. ويأتي معارف قدامى من كل الألوان والأصناف مصطحين معهم صديقاتهم وزوجاتهم. ولا يذكرون أي شيء، يتحدثون مع فرانس وكأنها أفرج عنه لتوه من تيجل ووقع له حادث. وفي هذا الشأن، الصبيان لا يسألون. هؤلاء يعرفون ما هي إصابة العمل، وفي وسعهم أن يتصوروا هذا. ويجد المرء نفسه في موقف حرج، وهو يتلقى رصاصة في الذراع أو يكون قد كسر ساقه. إنما دائماً أفضل مما في زونينيرغ في أثناء تناول حساء الماء أو من أن ينفق بمرض السل. إن هذا الواضح.

في أثناء ذلك عرف أيضاً هؤلاء الذين عند بومز ما يدور في الخفاء وأين هو فرانس. إذن من ذا الذي جاء وأخذ سلّة فرانس؟ وسرعان ما تبينوا هذا،

وإنهم ليعرفونه. وقبل أن يلاحظ فيشوف شيئاً اكتشفوا أنّ فرانس بيبركوبف موجود عنده، وأنه أيضاً صديقه من أيام زمان ولم يفقد إلا ذراعاً في الحادثة، ويا لحسن حظّه، ولا شيء آخر، فالولد مازال واقفاً على قدميه، ومن يدري، وفي إمكانه أن يشي بشخص ما. وكانوا على وشك أن يشنّعوا على راينهولد أنّ هذا كان في غاية الغباء أن يزجّ في مجموعتهم رجلاً مثل فرانس بيبركوبف. لكن تجاه راينهولد يجب تحسين الأمور، لا في السابق ولا الآن على الإطلاق، حتى بومز القديم ليس ندّاً له. فالشاب ينظر إلى شخص ما بطريقة بحيث إنه يمكن أن يخاف، الوجه الأصفر والتجاعيد الأفقية المخيفة على الجبين. وهذا ليس بصحيح الجسم، وهذا لن يعمر ٥٠ سنة، شيء ما ينقصهما، إنهما الأكثر خطورة. وينظر إلى هذا أنه قادر على أن يدسّ يده في الجيب مبتسماً ابتسامة صفراء ويطلق النار.

المسألة مع فرانس هي أنه بقي حياً، إنما بقي خطيراً. راينهولد وحده يهزّ رأسه ويقول: كل شيء إلا الانفعال. فهذا سيصعب عليه أن يحاذر وأن يخبر. فإذا لم يكتفِ بذراع واحدة فإنه سيبلغ ويخبر. حسن، لا مانع عندنا. ولربما كان عليه أن يفقد رأسه أيضاً.

ليس من داع إلى أن تخافوا من فرانس. إيفا وإيميل ألتا ذات مرة على فرانس بأن يقول أين وقع الحادث ومن كان وراءه، وإذا ما صعب عليه أن يتصدّى وحده لهذا الشخص فإن آخرين سيؤازرونه، ومن أجل ذلك هناك ناس في برلين. على أنّ هذا يهدأ، وحين يواجهه المرء بذلك يشير بالنفي: دعوكم من هذا. ثمّ يشحب وجهه ويتنفس تنفساً شديداً حين لا يشرع في البكاء من جديد: لا جدوى من الحديث عن ذلك، ولماذا، وذراعي أيضاً لن ينمو من جراء ذلك، ولو كان في مقدوري لتركت برلين، لكن ماذا يفعل مشوّه ذو عاهة؟ إيفا: «ليس

هذا من أجل ذلك، يا فرانس، فأنت لست مشوّهاً ذا عاهة، لكن ليس في مقدور المرء أن يسمح بالكيفية التي أعدّوا لك بها هذا، من داخل السيارة إلى تحت»
«وبهذا لن ينمولي ذراع أيضاً» «لكن يجب أن يدفعوا الثمن» «ماذا؟».

إيميل يميل إلى الأمام: «إما أن نحطّم جمجمة الفاعل وإمّا جماجم من هم من جماعته إن كان موجوداً فيها، فكلهم يجب أن يدفعوا الثمن لما فعلوه بك. ستفق مع العصابة. إما أن يقف آخرون إلى جانبه مباشرة وإما أن بومز والعصابة قذفوا به خارج السيارة. وعلى هؤلاء أن يروا أين يجدون اتصالاً وكيف سيثور ثأرهم. عليهم أن يدفعوا للذراع. إنه الذراع اليمنى. وهؤلاء يجب أن يدفعوا لك معاشاً على هذا» فرانس يهزّ الرأس «ما معنى هز الرأس هنا. سنهشّم جمجمة من فعل هذا، وهذه جريمة، وإن لم يستطع المرء أن يبلغ القضاء عنها فعلينا أن نقوم نحن بذلك» إيفا: «لم يكن فرانس في أية عصابة يا إيميل. أنت سمعت أنه لم يكن يريد أن يشارك، ولهذا فعلوا به ما فعلوه» «هذا حقه المشروع. من يجبر شخصاً ما على ذلك؟ الحق أننا لسنا شعباً بدائياً متوحشاً. إذن ليس عليهم إلّا أن يذهبوا إلى الهنود الحمر».

فرانس يهزّ الرأس: «ما دفعتموه لي سيصلكم إلى آخر قرش» «لا نريد على الإطلاق، لسنا في حاجة إلى ذلك، نحن في غنى عن ذلك. إنما يجب تسوية الأمور، اللعنة. شيء من هذا القبيل يجب إلّا يترك على حاله ويتسى».

إيفا تقول أيضاً بحزم وعزم: «لا يا فرانس، لن يتسى هذا، فهؤلاء حطّموا أعصابك، ولهذا لا يمكنك أن توافق على ذلك. لكنك تستطيع أن تعتمد علينا. وبومز ألم يحطّم أعصابنا. ما عليك إلّا أن تسمع إلى ما يقوله هيربيرت: هذا يُحدّث حمّاماً من الدم في برلين بحيث إنّ الناس سيدهشون»
ويومىء إيميل موافقاً:

«بالتأكيد».

فرانس بيبركوف ينظر إلى الأمام ويفكر: «ما يقولونه لا يهمني بشيء. وإذا ما أقدم هؤلاء على شيء فإنّ هذا لن يهمني بشيء أيضاً. من هذا لن ينبت لي ذراع، وإنه لصحيح أنّ الذراع ولّى وراح، وكان لا بدّ من بتره، وليس هناك من داعٍ إلى النباح حيال ذلك. وليس هذا بعدُ آخر الأشياء.

ويدير في رأسه كيف كان كل شيء: راينهولد هذا كان يكرهه لأنه لم يأخذ منه المرأة، ولهذا يرمي به خارج السيارة. وها هو في المستشفى في ماجديبورغ. وأراد أن يبقى مستقيماً، ثمّ حصل الحادث الآن. ويتمدد في السرير، ويكوّر القبضة على غطاء السرير: هكذا حصل الحادث، تماماً هكذا. سنواصل النظر. ستابع.

فرانس لا يغدر بمن رمى به أمام السيارة. أصدقاؤه هادئون. ويفكرون أنه سيقول هو هذا ذات يوم؟

ليس فرانس بمغلوب على أمره، ولن ينالوا منه بالضربة القاضية

فرقة العمل الخاصة ببومز التي تسبح في المال اختفت من برلين. اثنان منها يتنزهان بقارب في أورانيان بورغ إلى مزرعتيها الحقيرة، وبومز يذهب إلى ألتهايدي إلى الحمام المعدني بسبب الربو، ويتركهم يزيّتون آله. راينهولد يشرب الخمر ببساطة، يومياً وبصورة دائمة بضعة أقداح من العرق، ويستمتع الرجل، إنه يعتاد هذا، ينبغي أن يكون للمرء شيء ما من حياته ويخال نفسه غيباً كان له وجوده من دون ذلك طوال هذه المدة، ليس إلا القهوة وعصير الليمون، وكان هذا أقرب إلى إلا يكون وجوداً. راينهولد هذا كان عنده بضع أوراق مالية من فئة الألف مارك، وما من أحد يعرف. وبهذا يريد أن يصنع شيئاً ما، إلا أنه لا يعرف في بادئ الأمر ما هو. كل شيء إلا على المزرعة الحقيرة مثل الآخرين. وإذا به يصطاد امرأة حلوة

شهدت أيضاً ذات مرة أياماً أفضل، ويستأجر لها بيتاً ظريفاً في شارع نورينبيرغ، وفي هذه الحال يستطيع أن يلوذ إليه حين يريد أن يلعب دور المتبجح أو ربما حين لا يكون الجو نقياً. وهكذا فإن كل شيء جميل وصافٍ، فله بيته الفخم في الغرب، وإلى جانب ذلك بطبيعة الحال الغرفة القديمة وفيها امرأة، وكل بضعة أيام واحدة أخرى، والمسرح لا يقدر الشاب أن يتركه.

حين يلتقي في نهاية أيار بضعة رجال من عصابة بومز في مدينة برلين يهذون بالسخافات أيضاً عن فرانس بيركوبف. وبسبب هذا سمعوا أن هناك قتيلاً وقالاً في العصابة. فهيربيرت فيشوف يؤلب الناس علينا أننا أولاد حرام وأن بيركوبف هذا لم يكن يرغب في أن يشارك معنا وفي هذه الحال كنا سنحاول هذا بالقوة ومن ثم رمينا به فضلاً عن ذلك خارج السيارة. لكننا تركناهم يقولون إنه أراد أن يشي بنا، وما من ذكر للعنف ما من أحد مسّه، على أنه بعد ذلك لم يبق لنا إلا أن نفعل ما فعلناه. إنهم يجلسون حيث هم ويهزون الرؤوس، لا أحد يرغب في شجار مع العصابة. وفي هذه الحال فإن يدي شخص ما مقيدتان، وإذا به ملقى في الشارع. وفي هذه الحال يرون: ينبغي للمرء أن يثبت حسن نيته، بالنسبة إلى فرانس لا بد من جمع التبرعات له لأنه أظهر في آخر المطاف استقامة، ولا بد من توفير نقاهة لهذا وتدير تكاليف المستشفى. سخاء لا ضنّة.

راينهولد يبقى على ما هو: يجب قتل الرجل ضرباً. ولا يعارض الآخرون، لا اعتراض في حقيقة الأمر، لكن ما من أحد جاهز من أجل ذلك، وفي النهاية يمكن ترك المسكين يتقل هنا وهناك بذراع واحدة. فلا أحد يعرف متى يبدأ المرء معه وكيف ستسير الأمور، فالرجل محظوظ جداً. فهاهم يجمعون نقوداً، بضع مئات من الماركات، إلا راينهولد فإنه لم يعط بفينيكاً واحداً، وكان لا بد من صعود أحدهم إلى بيركوبف، لكن عندما لا يكون هيربيرت فيشوف موجوداً.

يقرأ فرانس في دعة وسلام صحيفة موتين بوست ومن ثم صحيفة غروني بوست التي تعجبه إعجاباً كبيراً لأنه لا يرد فيها أي شيء سياسي. ويدرس العدد المؤرخ في السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٢٧، فقد مضى زمن بعيد وحتى قبل عيد الميلاد، إذ إن لنا البولونية كانت هنا، ترى ماذا تفعل؟ وفي الصحيفة جاء خبر عقد زواج أخي زوجة القيصر السابق، فالأميرة عمرها ٦١ سنة والشاب ٢٧ سنة. سيكلفهم هذا مبلغاً كبيراً من الذهب، إذ إنه لن يصير أميراً. صديرات مصفحة مقاومة للرصاصة من أجل الموظفين في الأمن الجنائي، ومن زمن طويل لا نصدق ذلك.

فجأة تتشاجر إيفا في الخارج مع شخص ما، شخص في هذه الناحية، ما هذا، الحق أني أعرف الصوت. إنها ترفض أن تتركه يدخل، وعليها أن ترى هي بنفسها. ويفتح فرانس، صحيفة غروني بوست في اليد. ها هو ذا شرايبر الذي كان معي عند بومز.

ما هذا، ماذا في الأمر؟ وتصيح إيفا في الحجرة: «فرانس، إن هذا يريد الصعود إلى فوق لأنه يعرف أن هيربيرت ليس هنا» «ماذا تريد مني يا شرايبر، ماذا تريد؟» «قلت لإيفا وهي لا تتركني أدخل. لماذا، هل أنت هنا سجين؟» «لا، لست بسجين» إيفا: «أنتم خائفون فقط من أن يشي بكم. لا تتركه يدخل يا فرانس» فرانس: «إذن ماذا تريد يا شرايبر؟ ادخلي يا إيفا معه ودعيه».

يجلسون في حجرة فرانس. صحيفة غروني بوست موضوعة على المنضدة، أخو زوجة القيصر السابق يعقد قرانه، رجلاان يمساكان بالتاج على الرأس من الخلف. صيد أسود، صيد أرانب. شرف الحقيقة. «لماذا تريدون أن تعطوني مالاً؟ فأنا لم أعاونكم على الإطلاق؟» «يا رجل، لقد قمت بالمراقبة».

«لا يا شرابير، أنا لم أقم بالمراقبة. لم يكن لي علم بأي شيء، فأنتم وضعتموني في المكان، ولا أدري ماذا كان عليّ أن أفعل» إنه ليسرني أنني هنا. فأنا لم أعد أقف في الفناء المظلم، وسأدفع له شيئاً ما أيضاً أنني لا أقف هناك. «لا، هذا كلام فارغ، وليس هناك من داعٍ ل تخافوا مني، لم أشِ طوال حياتي بأيّ بعد» وتلوح إيفا لشرابير بقبضتها: على أنه ما زال هناك آخرون يجترسون. يا رجل، أنت خاطرت بأنك صعدت إلى هنا. وفي هذه الحال يمكنك أن ترى شيئاً من هيربيرت.

فجأة يحدث شيء رهيب. رأت إيفا كيف يدخل شرابير يده في جيبه. الحق أنّ هذا يريد أن يخرج النقود من جيبه ويغري بها فرانس. على أنّ إيفا تسيء فهم الحركة. فهي تظنّ أنه سيسحب مسدساً، ويطلق عليه النار لكيلا يقول شيئاً، وينبغي لهذا أن يقتل فرانس، فتنهض هي من على الكرسي، شديدة الشحوب، والوجه متشقق تشققاً رهيباً، وتصرخ بعالي صوتها من غير انقطاع وتتعثر بساقها وتنهض من جديد، ويفزع فرانس، ويفزع شرابير، ما المسألة، ماذا أصابها، يا ناس، وتدور حول الطاولة ناحية فرانس، بسرعة، ماذا أفعل، سيطلق هذا النار، موت، إنها النهاية، كل شيء مضى وانتهى، قاتل، وتقوم الساعة، لا أريد أن أموت، لا تقطعوا الرأس، كل شيء مضى وانتهى.

تقف، تركض، تسقط، تقف أمام فرانس شديدة الشحوب، تصرخ وترتعش من رأسها حتى أخمص قدميها: «تقدم للمعونة، للمعونة، أيها القاتل، من خلف الخزانة المزخرفة» وتصرخ بعينين واسعتين:

«النجدة» وتدبّ الرعشة في أوصال الرجلين. فرانس لا يعرف ما الحكاية، فلا يرى إلا الحركة، أي شيء سيأتي بعد ذلك - عندئذ يفهم: شرابير يضع يده اليمنى في جيب السروال. ويرتعش فرانس. إنّ هذا لأشبه بما كان على الفناء في

أثناء المراقبة، فلتبدأ الأمور من جديد. لكنه لا يريد، أنا أقول لكم، هذا لا يريد، إنه لا يريد أن يرمى به تحت عجلات السيارة. يتنهد. يتحرر من إيفا. وعلى الأرض صحيفة غروني بوست، البلغاري يعقد قرانه على الأميرة. يجب أن أرى، بادئ ذي بدء يجب أن تكون الكرسي في اليد. ويتنهد تنهداً عالياً. وبما أنه لم ينظر إلا صوب شرايبر وليس صوب الكرسي، فإنه يقلب الكرسي. ينبغي أن نتناول الكرسي ونتوجه صوب هذا. يجب علينا - بالسيارة إلى ماجديبورغ ويدقون الجرس بعنف عند المستشفى. إيفا تصرخ باستمرار، ما هذا، إننا نقذف أنفسنا. نحن نتقدم، الجو يهدد بالخطر، سنصل، وينحني على الكرسي. عندئذ ينطلق شرايبر المرعوب مسرعاً كالريح إلى الخارج صوب الباب، مرعوباً، الجميع هنا، والحق يقال، مجانين. وعلى الممشى تفتح أبواب.

تحت في الحانة سمعوا الصراخ والخبط. ويصعد رجلان على الفور ويلتقيان شرايبر على السلم وهو يركض ماراً بهما. على أن هذا يترك الرأس فوق وينادي ويلوِّح: طيب بسرعة، سكتة. وراح، الكلب المكار.

فوق يستلقي فرانس خائر القوى في الحجرة بجانب الكرسي. إيفا تقرص جانباً بين النافذة والخزانة المزخرفة، تقرص وتصرخ كأنها رأت شبحاً. ويضعون فرانس برفق على السرير. وتعرف المؤجرة أحوال إيفا. فتسكب ماءً على رأسها. بعدئذ تقول إيفا بصوت خافت: «خبزة صغيرة» ويضحك الرجلان:

«إنها تريد خبزة صغيرة» ترفعها المؤجرة من كتفيها، ويجلسونها على كرسي: «هذا ما تقوله هي دائماً حين يحدث لها هذا. على أن هذا ليس بسكتة. إنها الأعصاب ليس غير، والمتاعب مع المريض. فقد ارتقى هذا عندها. ولماذا ينهض هذا أيضاً. يجب على هذا أن يقوم دائماً، عندئذ تفعل هي» «إيه، ماذا

يصرخ هذا: سكتة؟» من؟ «ولو، هذا الذي مرّ لتوه على السلم» «ذلك لأنه سكران. أنا أعرف إيّنا المقربة إليّ منذ خمس سنوات. هكذا هي أمّها أيضاً. وحين تصرخ هذه فلا ينفع إلاّ الماء أيضاً».

حين يأتي هيريرت في المساء إلى البيت يعطي إيّنا مسدساً، لكل الأحوال، وليس الانتظار أولاً حتى يطلق الآخر النار، عندها يكون الوقت قد فات، هو نفسه سيفرنقع بعد قليل، ويسأل عن شراير، طبعي أنه لا يمكن العثور عليه. فأتباع بومز كلهم في عطلة، ولا أحد يريد أن يزجّ نفسه في الموضوع. وشراير بطبيعة الحال قد هرب أيضاً. والنقود من أجل فرانس أودعها جيبه وذهب إلى أورانيان بورغ إلى مزرعته الحقيرة. وما زال يخدع راينهولد: بيركوف لم يأخذ أية نقود، أما إيّنا فمتساهلة وليّنة الجانب، فهذا دسّ النقود في جيبه، وهذه ستصرف، حسن إذن.

صار شهر حزيران في برلين رغم كلّ شيء. بقي الطقس دافئاً وماطرأً. أشياء كثيرة تحدث في العالم. المنطاد إيطاليا مع الجنرال نوبيلي سقط ووبرق أين هو، أي في شمال شرق جبال شبيتس، على حين إنه لصعب جداً الوصول إلى هناك. طائرة أخرى كان لها حظٌّ أوفر أنها طارت بدون توقف من فرانسيكو حتى أستراليا في ٧٧ ساعة وحطت بسهولة ويسر. ومن ثمّ ملك إسبانيا فإنه يتنازع مع ديكتاتوره بريمو، فلنأمل أن يتوقف هذا من جديد. أعجبته، وذلك من النظرة الأولى، خطوبة سويدية بادنية، ذاك أنّ أميرة من شترايخ هولتس لاند شغفت حباً بأمر من بادن. فإذا فكّر المرء كم من المسافات تفصل السويد عن بادن سيدهش كيف سيقطع صوت طلقة مثل هذه المسافة. أجل، النساء هنّ موطن ضعفي، هنّ الموضع الذي سيكون فيه مصيري إلى زوال، فإذا ما قبّلت

الأولى فكّرت في الثانية وأنظر خلسة إلى الثالثة. أجل أجل، النساء هنّ موطن ضعفي، ما عساي أن أفعل، لا حيلة لي في ذلك، وإذا ما أفلستني النساء ذات مرة، سأكتب على باب قلبي نفذ كل شيء.

ويضيف تشارلي أميرغ: سأقتلع هدبة وأقتلك بها ضرباً. ومن ثمّ سأخذ أحمر شفاه وأحمرك به. وإذا ما ظللت على استيائك ليس عندي إلا نصيحة واحدة: سأطلب بيضة مسلوقة وأطبخك بالسبانخ.

يبقى الجو إذن دافئاً وممطراً، ظهرأ حتى ٢٢ درجة مئوية. في هذا الطقس يمثل قاتل الفتيات روتوفسكي أيضاً في برلين أمام محكمة المحلّفين وعليه أن يبرئ نفسه. وبهذا يرتبط السؤال: هل إله أرندت المقتولة هي الزوجة الهاربة لمفتش معاهد؟ إذ إن هذا يرى عن طريق المراسلة ممكناً، وربما مستحباً أن تكون إله أرندت المغدور بها زوجته. وفي حال الإجابة بالإيجاب يريد أن يدلي بأقوال مهمة أمام القضاء. في الجوّ موضوعية، في الجوّ، في الجوّ، في الجوّ، في الجوّ. هناك في الجو شيء سخيّف، هناك في الجو شيء من التنويم المغناطيسي، في الجوّ، في الجوّ، ولم يعد يخرج من الجوّ.

لكن في يوم الاثنين التالي يتمّ افتتاح المترو الكهربائي. وهذا ما تتخذه إدارة السكك الحديدية الألمانية ذريعة للتنبيه من جديد على الأخطار، انتباه، احترس، لا تصعد، ممنوع الركوب. أنت تعرّض نفسك للعقوبة.

انفض أيها الروح الضعيف، وقف على قدميك

هناك حالات إغماء ليست شيئاً آخر إلا موتاً في جسد حيّ. ويوضع فرانس بيركوبف في السرير من جديد وهو مغمى عليه، إنه يستلقي، ويستلقي فيه في

الأيام الدافئة ويتبين له: إنني على قاب قوسين أو أدنى من الموت، أحسّ بهذا، بالنفوق الحقيقي. إن لم تفعل الآن أي شيء يا فرانس، لا شيء حقيقي، لا شيء نهائي، لا شيء عنيف شديد، إن لم تتناول هراوة باليد، سيفاً وتضرب من حولك، إن لم تشرع في الركض، يا فرانس، من المحتمل، يا فرانس الصغير، يا بيركوبف الصغير، يا قطعة أثاث قديمة، أن تكون النهاية عندئذٍ، تماماً! بعدئذٍ تستطيع أن تطلب مؤسسة دفن الموتى لأخذ المقاس.

تنهذه: لا أريد ولا أريد ولن أنفق. وينظر إلى الحجرة، ساعة الجدار تدق، لا أزال هنا، ما زلت أنا هنا، يريدون أن يضايقوني، وشرابير كاد يصرعني بالرصاص، لكنّ هذا يجب إلا يحدث. فرانس يرفع الذراع الواحدة الذي بقي له: هذا يجب إلا يحدث.

الخوف الحقيقي يشوّش عليه راحته. فلا يبقى مستلقياً. في حال نفوقه في الشارع عليه أن يغادر السرير، عليه الخروج. هيربيرت فيشوف سافر مع إيفا السوداء إلى تسابوت. عندها صاحب قادر على الدفع من المواليد الأكبر سنّاً، سمسار بورصة تستغله. هيربيرت فيشوف معها متنكراً باسم مستعار، فالفتاة تحسن العمل، ويريان بعضهما يومياً، يسيران معاً مجتمعين ويناومان منفصلين كلّ على حدة.

في هذا الوقت الصيفي الجميل يعاود فرانس بيركوبف السير في الشارع، وهو وحده من جديد، فرانس بيركوبف الوحيد، مترنحاً واهناً، أفعى الكوبرا، انظروا، إنها تزحف، تسير، أصابها ضرر. إنها مازالت الكوبرا القديمة ولو بهالات سوداء حول العينين، وهذا الحيوان السمين ضنى وهزيل.

اتضحّت بعض الأشياء للولد القديم الذي يجرجر نفسه الآن عبر الشوارع لكيلا ينفق في الحجرة، أشياء اتضحّت أكثر مما مضى للولد القديم

الذي يهرب من الموت. الحق أنّ الحياة أفادته شيئاً ما. والآن راح يشمشم في الهواء، ويتشمم الشوارع ما إذا كانت لا تزال تخصّه، لا تزال تريد أن تستقبله. ويجدّ النظر في أعمدة الإعلانات لكأنها هذه حادثة، أجل، يا بنيّ، إنك لا تسير الآن مفتوح الرجلين، الآن تشب أظفرك وتشبث، الآن تستجمع قدر ما عندك من أسنان وأصابع وتشبث لكيلا يرمى بك.

شيء جهنمي، لا، الحياة؟ هل عرفت ذات يوم، في حانة هينشكي، لماذا أرادوا أن يخرجوك بالعصاة (عصاة الصليب المعقوف) وهاجمك الرجل وما أسأت إليه بأية إساءة. وأنا حسبت العالم هادئ، وهناك نظام، وأنّ شيئاً ما في غير موضعه، فالناس هناك لهم مواقف رهيبة للغاية، كان هذا حالياً، تنبؤاً بالمستقبل.

والآن تعال إلى هنا، أنت، تعال، أريد أن أريك شيئاً ما. العاهرة الكبيرة، العاهرة بابل التي تجلس الآن على الماء. وأنت ترى امرأة اقتعدت حيواناً قرمزي اللون. وهذه المرأة تتوافر فيها أسماء التجديف ولها سبعة رؤوس وعشرة قرون. إنها مرتدية الأرجوان واللون القرمزي ومتحلّية بالذهب والأحجار الكريمة واللآلئ وفي يدها كأس ذهبية. وعلى جبينها كتب اسم، سرّ من الأسرار: بابل العظيمة، أمّ كلّ الولايات في العالم. وشربت المرأة من دم كل القديسين. والمرأة سكرى من دم القديسين.

على أنّ فرانس بيبركوبف يطوف في كل الشوارع، يهرول هرولته ولا يستسلم ولا شيء آخر يريده إلا أن يستعيد قواه وتقوى عضلاته. إنه طقس صيفي دافئ، وفرانس يتنقل من حانة إلى حانة.

إنه يتجنب الحرارة. وفي الحانة تمرّ من أمامه كؤوس البيرة الكبيرة.

تقول الكأس الأولى: إني آتية من القبو، من حشيشة الدينار والشعير

المنتش لصنع البيرة. أنا الآن باردة، فكيف طعمي؟

يقول فرانس: مرّ، طيّب، بارد.

أجل، إني أبرّدك، أنا أبرّد الرجال، ثمّ أدفئهم، ومن ثمّ أسلبهم أفكارهم الفائضة.

أفكار فائضة؟

جل، كل الأفكار بمعظمها هي فائضة يستغنى عنها. أليس كذلك؟ - بلى، يجب أن تكون على حق.

كأس صغيرة من العرق تتصب أمام فرانس صفراء فاقعة. من أين أتوا بك؟ - قطروني، يا رجل. - أنت تعض، يا رجل، لك مخالف. - ما هذا، نظير ذلك فأنا عرق. ألم تر كأس عرق منذ زمن طويل؟ - لا، كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، يا أيها العرق العزيز. أشرفت أنا على الموت. نقلت من دون تذكرة إياب - آه، هذا ما تريده. - هذا ما تريده، فلا تثرثر بحق الله. نريد أن نجرب مرة أخرى، هلاً دنوت. آه، فيك نار، إنّ فيك ناراً، يا رجل. - وينساب العرق في حلقومه: يا لنار كهذه.

الدخان من النار يتصاعد في فرانس، ويجعل حلقه جافاً، عليه أن يتناول كأساً كبيرة أخرى: أنت الكأس الكبيرة الثانية، فقد تناولت واحدة، ماذا تريدين أن تقولي لي؟ - أيها البدين، تذوّقني أولاً، ومن ثمّ يمكنك الكلام. - إذن. عندئذٍ قالت كأس البيرة الكبيرة: انتبه، يا أنت، إذا ما شربت كأساً أخرى من البيرة وكأساً من عرق الكراويا، ثم كأساً من الخمر الساخن فستنتفخ من بعد ذلك مثل البسلاً - هكذا؟ - أجل، ثم تسمن من جديد، كيف تبدو، يا رجل؟ هل تستطيع أن تسير وسط الناس؟ اجترع مرة أخرى.

ويمسك فرانس بالكأس الثالثة: ها أنذا اجترع. وتأتي الجرعة تلو الجرعة. حافظ على النظام دائماً وأبداً.

ويسأل الكأس الرابعة: ماذا تعرفين يا حبيبة القلب؟ - وهذه تغني في لذة بصوت نشاز. ويفرغها فرانس في جوفه: أنا أصدّق. كل ما تقولينه يا حبيبة القلب أصدّقه. أنت يا نعجتي الصغيرة، نحن ذاهبان معاً إلى المرعى.

فتح برلين الثالث

هكذا وللمرة الثالثة جاء فرانس بييركوبف إلى برلين. في المرة الأولى كانت ستنزلق السطوح، فجاء اليهود، وتم إنقاذه. وفي المرة الثانية خدعه لودرز فأغرق نفسه في الشرب. والآن، وفي المرة الثالثة، انتبر ذراعه، إلا أنه يقدم بجرأة على المدينة. فالرجل يمتلك الشجاعة، الشجاعة المضاعفة وعلى ثلاثة أضعاف.

هيريرت وإيفا تركا له وديعة مالية محترمة، وصاحب الحانة تحت احتفظ بها. أما فرانس فلا يأخذ إلا بضعة قروش، وإلى هذا يقرر: لن آخذ شيئاً من النقود، يجب أن أستقل بتجارتى. ويذهب إلى الرعاية الاجتماعية ويطلب معونة. «علينا بادئ ذي بدء أن نستعلم» «وماذا أعمل في أثناء ذلك؟» «عد إلينا في بضعة أيام» «في بضعة أيام يمكن أن يموت المرء جوعاً» «بمثل هذه السرعة لا يمكن أن يموت المرء جوعاً في برلين، الجميع يفضون إلينا بمثل ذلك. وفضلاً عن ذلك لا يوجد نقود، ماركات لا غير، والأجرة نحن ندفعها من هنا، والمسكن مضبوط بطبيعة الحال؟».

في هذه الحال ينزل فرانس من عند «الرعاية الاجتماعي»، وحين يصبح تحت تنقش عن عينيه غشاوة الجهل: استعلام، بالله قل، استعلام، ربما استعلموا

أيضاً عن ذراعي وكيف حصل هذا. ويقف أمام متجر سجائر ويمعن التفكير: سيسألون ماذا حصل لذراعي، من دفع وأين كنت مطروحاً. هذا ما يمكنهم أن يسألوا عنه. ومن ثم، من أين عشت أنا في الأشهر الأخيرة. فلتتظر.

يمعن التفكير ويواصل السير: ما العمل في هذه الحال؟ من ينبغي لي أن أسأل الآن، وكيف العمل، ومن ما لهم هذا لا أريد أن أعيش أيضاً.

عند ذلك أخذ يبحث هنا وهناك طوال يومين بين أليكس وميدان روزيتال عن ميك، فمع هذا يمكنه الحديث؛ وفي مساء اليوم الثاني يجده أيضاً في ميدان روزيتال. وينظر كل منهما إلى الآخر. ويريد فرانس أن يصافحه - كيف حياً بعضهما بعضاً آنذاك بعد قصة لودرز، السرور، والآن - ميك يصافحه متردداً ولا يشدّ على يده. ويريد فرانس أن يبدأ المصافحة من جديد باليد اليسرى، عندئذٍ ترسم على وجه ميك القصير ملامح الجد، ماذا أصاب الولد، هل أسأت إليه بأية إساءة؟ ويسيران في شارع روزيتال صعوداً ويسيران ويسيران، ثم يعودان من جديد إلى شارع روزيتال، وما زال فرانس ينتظر ما إذا كان ميك سيسأل عن الذراع. إلا أنه لم يسأل عن ذلك ولا مرة، فهذا كان يشيح النظر دائماً. ربما بدوت قدراً في نظر هذا. عندئذٍ بدأ فرانس مازحاً فيسأل عن سيللي وعمما تفعل هذه.

أي والله، أحوال هذه جيدة، ولم لا تكون أحوال هذه جيدة؟ ويطيل هذا الحديث عن هذه.

ويبذل فرانس جهده لكي يضحك. وما زال هذا يتجاهل السؤال عن الذراع، ثم فجأة تبرق بارقة في أعماق فرانس فيسأل: «أما زلت تتردد على الحانة في شارع برييتسلاو؟» ويحيب بازدراء: «أجل، في بعض الأحيان» عندئذٍ يعرف

ويمشي متباطئاً ويتخلف عن ميك: لقد حكى بومز لهذا أوربما راينهولد أو شرايبر، ويعدني هذا أيضاً لصاً. وفي حال أنني أردت الكلام الآن فسيكون عليّ أن أروي كل شيء، إلا أنه يستطيع أن ينتظر طويلاً، فهذا لن أفعله.

يدفع فرانس نفسه دفعة ويقف أمام ميك: «حسن يا غوتليب، لنودّع بعضنا بعضاً، عليّ أن اذهب إلى البيت. فعلى مشوّه ذو عاهة أن يأوي إلى الفراش باكراً» ويشمله ميك للمرة الأولى بنظرة، ويخرج الغليون من فمه، ويريد أن يسأله شيئاً، على أن فرانس يشير إليه بالنفي، لا شيء للسؤال ومدّ يده إليه وراح. ميك يحكّ رأسه ويفكر، لا بدّ لي من أن أحاسب على هذا ذات يوم حساباً عسيراً، ولم يكن راضياً عن نفسه.

يسير فرانس بيبركوبف على قدميه في ميدان روزيتال، يهشّ قلبه ويقول: ما فائدة كلّ هذا الهراء، يجب أن أكسب مالاً، ما شأن ميك بي، يجب أن أصل إلى المال.

كان ينبغي أن تروا فرانس بيبركوبف كيف راح يسعى في سبيل المال. كان شيئاً جديداً، شيئاً عنيفاً ورهيباً في داخله. إيفا وهيريرت كانا قد وضعا غرفتهما تحت تصرفه، إلا أن فرانس يرغب في أن تكون له غرفة خاصة به، وإلا فإنه لن يبدأ. وتأتي لحظة بغیضة ويصير لفرانس غرفته وتضع المؤجرة له الإخبار بالحضور على المنضدة. وهنا يجلس صاحبنا فرانس وعليه أن يمعن التفكير من جديد: في هذه الحال سأدوّن أن اسمي بيبركوبف وسرعان ما سينظر هؤلاء في صناديقهم البريدية، ثم يتصلون هاتفياً بالإدارة العامة للشرطة، ثم يعني هذا أنه يجب عليك المجيء إلى هنا، ولماذا لا تدعنا نراك أبداً، وماذا حصل لذراعك، وأين كنت ملقى، من دفع، في الأمر شيء ما.

ويثور ثأره من فوق المنضدة: الرعاية الاجتماعية، هل أنا في حاجة إلى الرعاية والضمان الاجتماعي، لا أريد هذا، هذا ليس خليقاً برجل حرّ، ويكتب وهو يمعن التفكير وغاضب، اسماً في استمارة التسجيل، أولاً فرانس، واضعاً أمامه في أثناء ذلك القسم والرعاية في شارع جرونر والسيارة التي رموه منها. ويتلمس في السترة جورب كتفه، سيسألون عن ذراعه، وإذا كان لا بدّ لهم من القيام بذلك، فلا يهمني هذا، اللعنة مرة أخرى، سأفعل ذلك.

بحروف غليظة كما بعضا ينقش اسمه على الورقة: لم يسبق أن كنت جباناً، وبخصوص اسمي فلن أسمح لأحد أن يسلبني إياه، هكذا أدعى، وهكذا ولدت، وهكذا أبقى: فرانس بيركوبف. حرف غليظ تلو الحرف، وسجن تيجل، الطريق العريض ذو الأشجار، الأشجار السوداء، السجناء يجلسون هناك، يلصقون وينجّرون ويرقّعون ويرمّون. مرة أخرى أغمس وأضع نقطة فوق حرف إي (i). لا أخاف من الشرطة ولا من موظفي الشرطة ذوي النمرة النحاسية. فأنا رجل حرّ أو لا رجل.

إنه حصّاد اسمه الموت.

استمارة التسجيل يعطيها للمؤجرة، هكذا، سيكون قد قضي الأمر. والآن نرفع سراويلنا، ونشد سيقاننا ونسير على الأقدام إلى برلين.

الثياب تصنع بشراً، وإنسان آخر يصبح له عينان غير عينيه

في شارع بروّنين حيث يحفرون المترو سقط حصان في النقب. ويلتفّ الناس حوله نصف ساعة، ويتقدّم رجال الإطفاء بعربة. ويضع هؤلاء حزاماً حول بطن الحصان. ولا يقف هذا إلا على أنابيب التوصيل وأنابيب الغاز،

ومن يدري ما إذا كانت كسرت ساقه، إنه يرتعش ويصهل، ولا يرى المرء من فوق إلا الرأس. ويرفعونه برافعة، ويحَبِّط الحيوان بقوة.

فرانس بيبركوبف وميك حاضران. فرانس يقفز إلى الحفرة صوب رجال الإطفاء، ويشارك في إزاحة الحصان إلى الأمام. ويدهش الجميع مما يستطيع فرانس أن يفعله بذراع واحدة. وفحصوا الحصان المبلل بالعرق الذي لم يصب بأيّ أذى.

«فرانس، ما يقوله الناس، أنت تملك الشجاعة، ومن أين لك هذه القوة بذراع واحدة؟» «لأنّ لي عضلات حين أريد، عندئذ أستطيع» ويسيران في شارع برونر نزولاً إلى تحت، وها هما قد التقيا الساعة لأول مرة. وارتمى ميك على فرانس. «أجل، يا غوتليب، مردّ هذا إلى الأكل اللذيذ والشرب.؟ أأحكي لك عما أفعله أيضاً؟» ساردّ هذا خائباً كل الخيبة، وميك هذا ليس عليه أن يضنني بثرثته مرة أخرى. فأنا أرفض مثل هؤلاء الأصدقاء. «إذن، اسمع، عندي الآن شيء رائع للقيام به، فأنا أقف في سيرك في حديقة الملاهي في شارع ألبيغ وأنادي حصان هزاز، تارة من حول السيدات والسادة خمسة عشر بفينيكاً، وفي شارع روميتين في الخلف، فأنا هناك الرجل الأقوى بذراع واحد، لكن بدءاً من أول أمس تستطيع أن تلاكمني» «يا رجل، الملاكمة بذراع واحدة» «تعال إلى هناك وسترى. فإذا لم أستطع أن أحتمي فوق استخدمت ساقي» فرانس يضحك على ذقن هذا ضحكاً وأيما ضحك، وميك يندهش.

يسيران سيرهما اليومي المعهود نزولاً إلى أليكس، ويسيران قليلاً في شارع جيس حيث قاده فرانس إلى دار الرقص القديمة: «هذه رمت، وهنا تستطيع أن تراني أرقص عند البار» ميك لا يدري ما سيحدث له. «ماذا دهاك، قل بالله» «صحيح، سأبدأ من جديد كما في سابق العهد. ولم لا. هل لديك اعتراض. هيا

ندخل، وانظر كيف أرقص بذراع واحدة» «لا لا، الأفضل في مطعم مونتهسوف»
«حسن أيضاً، هكذا كما نحن لن نسمحوا لنا بالدخول، لكن تعال يوم الخميس
أو يوم السبت. أنت تظن أنني أقوم بدور الخصي لأنهم أصابوا ذراعي» «من
أطلق؟» «حصل لي هنا إطلاق نار مع الشرطة. وفي الحقيقة لم يكن من أجل أي
شيء، كان هناك في الخلف في ميدان بولوف، هناك أرادت شرذمة أن تسرق،
شباب على خلق حسن، لكنهم لم يحصلوا على شيء ومن أين لهم أن يأخذوا.
أقول لك، بينما أنا أمشي على طول وإذا بي أرى ما يتم دفعه وتحريكه، وعند
ناصية الشارع اثنان مشتبه بهما ومعهما فرشاة حلاقة على القبعة. أقول لك:
سأدخل إلى البيت، يهمس بهذا للشاب الذي يراقب، إلا أنهما لا يريدان الذهاب
على الإطلاق بسبب شرطين. يا رجل، كانوا شباباً، وكان عليهم بادئ ذي بدء
أن ينقلوا البضاعة، ثم يصل رجال الشرطة من بعد ذلك ويريدون أن يتشمموا
البيت. عندئذ لا بد أن يكون أحدهم لاحظ شيئاً ما في البيت، بضاعة فراء،
للنسوة حين يقلّ الفحم. عندها نكمن نحن، وما إن يريد رجال الشرطة
الدخول، ماذا أقول، لا يتأتى لهم أن يفتحوا باب البيت، وطبعي أن الآخرين في
الخلف يخرجون. ومن بعد ذلك، وحين يجرب رجال الشرطة مع حداد شيئاً ما
أطلق أنا النار من خلال ثقب المفتاح. ما قولك في هذا يا ميك؟» «أين كان
هذا؟» «عقدت الدهشة لسانه. «في برلين عند ناصية الشارع، في شارع القيصر»
لا تهذ. دعك من هذاء الهراء» أطلقت النار على عمالي. إلا أن هذا كان على
الوجه الصحيح، من خلال الباب. لكنهم لم ينالوا مني. وإلى أن استطاعوا فتح
الباب كنا نحن ولينا الأدبار. إلا ذراعي. وها أنت ترى» ميك يزجر: «ماذا؟»
ويصافحه فرانس بطريقة رائعة: «إلى اللقاء يا ميك. وإذا ما احتجت إلى شيء ما
فأنا أسكن - سأقول لك فيما بعد. أتمنى لك أعمالاً رابحة».

خرج عبر شارع فاينهايستر. ميك انهارت أعصابه. إما أن هذا الرجل
يضحك على ذقني، وإما أنه ينبغي لي أن أسأل بومز. فهؤلاء حكوا لي أشياء
مختلفة كل الاختلاف.

وفرانس يطوف في الشوارع عائداً إلى أليكس.

كيف بدا ترس آخيل الذي تسلّح وتزيّن به وسار إلى القتال، لا أستطيع
أن أصف ذلك وصفاً دقيقاً، ولا أستطيع أن أتذكر إلا على نحوٍ غير واضح
جبائر الذراع وجبائر الساقين.

لكن كيف يبدو الآن فرانس الذي يزج نفسه في معركة جديدة، عليّ أن
أقول هذا. إذن فإن فرانس بيبركوبف يلبس أشياءه القديمة المعفّرة بالغبار والتي
لطحتها الخيول بالوسخ، قبعة بحار وعليها مرسة معقوفة وسترة وبنطلون من
أمتعة قديمة بالية بنية اللون.

يدخل مطعم مونتسهوف وبعد عشر دقائق يجترع كأس بيرة، ويخرج مع
واحدة تحلى عنها أحدهم ولا تزال في صحة وعافية لدرجة لا بأس بها، ومع
هذه يتمشى في شارع فاينهايستر وشارع روزيتال لأنّ الجو في الداخل كان
متعفنًا والجو في الخارج كان جميلاً جداً.

فرانس الذي ينشرح صدره، ويا لكثرة ما يراه من الاحتيال والخداع
حيثما نظر! شخص آخر، عيمان أخريان. لكأنه لم يمتلك عينين إلا الآن! الفتاة
وهو يقهقهان. يا لكل الأشياء التي يريانها! إنها الساعة السادسة، شيء ما في
الناحية الأخرى، السماء تمطر، السماء تمطر مطراً غزيراً. حمداً لله، هذه المخلوقة
الصغيرة معها مظلة.

لحانة، وينظران من خلال النافذة.

«ها إنَّ صاحب الحانة يبيع بيرته. انتبهي كيف يصبّ. رأيت، يا إيّمي.
أرأيت: رغبة حتى هنا».

«وماذا في ذلك؟» «رغبة حتى هنا؟ إنه غشّ! غشّ! غشّ! ومعه حق.
الصبي شاطر. أنا مسرور».

«إذن هو أفاق خدّاع!» «ماهر شاطر هذا الصبي!»

محلُّ لُعب:

«اللعة يا إيّمي، أتعرفين حين أقف أنا هنا وأرى هذه الأدوات والألعاب
الصغيرة، في هذه الحال لم يعد لديّ ما أقوله: فأنا مسرور. يا للعمل المعيب، وبيضه
الملوّن، على فكرة، فهذه كان علينا أن نلصقها مع أمي. ما دفعوه لقاء ذلك لا أريد
أن أقوله لك» «أرأيت» «إنهم خنازير. الأفضل تكسير ألواح الزجاج. سقط
رديء المتاع. استغلال ناس فقراء خسة ووضاعة».

معاطف نسائية. هنا يريد هو أن يمرّ بذلك مروراً، يهدّتها. «إذ إنه إذا ما
أردت أن تعرفي ففي مقدوري أن أغني من جديد أغنية عن ذلك. خياطة
معاطف نسائية. يا أنت. لسيدات من الطبقة الراقية. ماذا تظنين، كم يتلقى المرء
على هذا الشيء؟» «هيّا تعالي يا بنت، لا أريد أن أعرف على الإطلاق. في حال
أنك طلبت هذا» «الآن، الآن، هلاّ كتمت أنفاسك، ماذا تريد أن تفعل».

«كنت سأكون ثوراً لو أني تركتهم يقدمون لي بضعة بفينيكات. أنا وحدي
أريد أن ألبس معطفاً حريراً، هذا ما أقول» «لتقل أنت هذا» «سأعني بأن ألبس
معطفاً حريراً. وإلاّ فأنا ثور، وهو على حقّ بأن يدسّ في يدي بفينيكاته الثانية».

«إنه لهراء» «الآنني ألبس بنظراً قذراً؟ أتعرفين يا إيمّي، السبب في هذا حصان كان قد وقع في النقب، نقب المترو. لا، البفينيكات الثمانية لا تجدي معي نفعاً، ربما احتجت إلى ألف مارك!» «وهل ستحصل على هذه؟».

هذه تنصت مترقبة. «هذه ليست في حوزتي، أقول هذا مجرد كلام، لكنني - سأحصل عليها، لا ثمانية بفينيكات» وتتعلق بعنقه تعلقاً شديداً، تدهش وهي مغتبطة.

مؤسسة أمريكانية للكيّ السريع، واجهة عرض مفتوحة، لوحان للكيّ يتصاعد منها البخار، وفي الخلفية عدة رجال أقل أمريكانية، يجلسون ويدخنون، في الأمام الخياط الأسود في كمّي القميص. ويرسل فرانس نظره على ذلك. ويهتف هتاف الفرحة: «إيمّي، إيمّي الصغيرة، إنه لجميل غاية الجمال أنني وجدتك اليوم.» لم تفهم الرجل بعد، إلا أن هذا أَرْضَى غرورها جداً! أي والله في إمكان الآخر الذي تحلّى عنها أن يغضب. «إيمّي، إيمّي الحلوة، انظري فقط إلى الحانوت» «هذا لا يكسب كثيراً من الكي» «من؟» «الأسود القصير» «لا، ليس هذا، وإنما الآخرون» «هؤلاء هناك؟ هذا ما لا تستطيعين أن تعرفيه. لا أعرف هؤلاء.» فرانس يهلل فرحاً. «كما أنني لم أر هؤلاء بعد، إلا أنني أعرفهم. انظري إليهم. والسيد المالك، في الأمام يكوي هو، وفي الخلف - يقوم بشيء آخر» محلّ مشبوه السمعة؟ «ربما أيضاً، لا، إنهم كلهم أفاقون لصوص. لمن هذه البزات المعلقة هناك؟ أودّ أن أكون شرطياً عنده نمرة نحاسية وأسأل هذا، انتبه كيف يغدّ هؤلاء الخطأ.» «يا لطيف!» «أشياء مسروقة، مخطوطة فقط! مؤسسة كيّ سريع! شباب ممتازون، يا لطيف! كيف يدخنون. إنهم يجعلون عيشهم رغداً»

يتابعان التزّه. «كان عليك أن تفعلي مثل هؤلاء يا إيمّي. هذا هو الصحيح بمعنى الكلمة. إياك والعمل. ابعدي فكرة العمل عن ذهنك. فالعمل يسبب لك

كناً في اليد، لكن لا مال. وعلى أكثر تقدير ثقباً في الرأس. وما من أحد اغتنى بعد من العمل، أقول لك. من الغش ومن الاحتيال فقط. وها أنت ترين».

«وماذا ستعمل أنت؟» إنها ملؤها الأمل. «تقدمي، يا إيّمي، سأقول لك هذا» إنها من جديد في وسط زحمة شارع روزيتال ويدخلان عبر شارع صوفيا إلى شارع مونتس. فرانس يمشي. الأبواق تنفخ بجانبه مارشاً عسكرياً. وقعت المعركة في الميدان المكشوف، يا الله، يا الله، يا الله، كسبنا المدينة وحصلنا على الأموال الوفيرة الضخمة كلها وسرقناها، يا الله، يا الله، يا الله.

يضحكان معاً. البنت التي اصطادها لها طرزها. ولئن كانت تدعى إيّمي، إلا أنها مرت بالرعاية الاجتماعية والطلاق. هما كلاهما في حالة ممتازة. وتساءل إيّمي: «أين ذراعك الأخرى؟» «إنه في البيت عند مخطوبتي التي لم ترغب في أن تتركني، عندئذ كان عليّ أن أترك لها ذراعي رهينة» «أمل أن يكون هذا أيضاً مسلياً مثلك» «طبعاً. ألم تسمعي بعد: فتحت محلاً مع ذراعي. هنا يقف ذراعي على منضدة ويقسم طوال النهار اليمين: لا ينبغي أن يأكل إلا من يعمل. ومن لا يعمل عليه أن يعاني الجوع. وعلى هذا يقسم ذراعي اليوم كله. دخول قرش واحد، وتصل الطبقة العاملة وتسّر بذلك» وتموت على نفسها من الضحك، ويضحك هو أيضاً: أنت تنتزعين مني الذراع الأخرى، يا امرأة».

إنسان آخر يصير له أيضاً رأس غير رأسه
ها إنّ سيارة صغيرة غريبة وعجبية سارت في المدينة: مشلول على عجلات يدفع نفسه بالذراعين دفعاً. وعلى عربة صغيرة مجموعة بيارق ملوّنة، ويسير على طول شارع شوبنهاور ويتوقف عند ناصية كل شارع، ويتجمع الناس من حوله، ثمّ يبيع مساعده بطاقات بريدية بعشرة بفينيكات:

«رحالة حول العالم! يوهان كيرباخ، المولود بتاريخ العشرين من شباط سنة ١٨٤٧ في مونشيغلادباخ، حتى اندلاع الحرب العالمية صحيح الجسم ومغتبط بالعمل. وبسكّنة على الجهة اليمنى وضع هدف لسعبي الحافل بالعمل. على أنني استرددت قواي إلى حدّ بعيد بحيث إني استطعت أن أسير وحدي ساعات لكي أقوم بمهتي. وبذلك تمّت حماية أسرتي من العوز. وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢٤ هلّل كلّ السكان في منطقة الراين حين تحررت سكة الحديد الحكومية من وطأة الاحتلال البلجيكي. كثيرون من الإخوة الألمان كانوا انتشوا من الفرح، الأمر الذي كان وبالاً عليّ. في ذلك اليوم كنت في طريقي إلى البيت حين صرعتني على مسافة لا تبعد ٣٠٠م عن بيتي ثلّة من الرجال آتية من المطعم. كان الحادث مشؤوماً جداً بحيث إني صرت طوال حياتي مشوّهاً ذا عاهة، ولن أستطيع السير من بعد ذلك. فأنا لا أتلقّى أيّ معاش، أو أية معونة أخرى. يوهان كيرباخ».

في الحانة حيث يتلمّس فرانس بيركوبف الأخبار في هذه الأيام الجميلة، إذ إنه يبحث عن أية فرصة، فرصة جديدة ومحسوسة تنهض بشخص ما، وإذا بصبي غرّيرى السيارة مع المشلول على محطة القطار في شارع دانترغ. وبدأ الآن في الحانة ضجيج حول ذلك وما فعلوه أيضاً بأبيه. فقد تلقّى هذا رصاصة في الصدر، ولا يتنفس الآن إلا بصعوبة. لكنّ هذا ينبغي إلا يكون دفعة واحدة إلا مرضاً عصبياً، ومعاشه أنقصوه له، وعمّا قريب لن يحصل على أي معاش بعد ذلك.

هذا الهذي بالسخافات يسمعه صبي آخر يلبس قبعة سائس كبيرة يجلس على المقعد الخشبي نفسه مثله هو، إلا أنه لم يكن يضع أمامه أية بيرة. كان للصبي فكّ سفلي مثل ملاكم. ويقول هذا: «أفّ! المشوهون ذوو العاهات - المفروض إلا ينفق الناس لأجلهم قطعة واحدة من فئة الخمسة البفينيكات» «هكذا تبدو.

أولاً تخليصه من الحرب ومن ثمّ عدم الدفع..» «إنه لمن الذوق أن تفعل ذلك يا رجل. وحيثما تقدم على حماقة من هذا القبيل لن تقبض أيضاً أيّ شيء على ذلك. وحين يتعلق صبيّ بعربة ويسقط بعد ذلك أرضاً ويكسر ساقه فلن يحصل أيضاً على بفينيك واحد. ولماذا: الحق أنّ هذا وحده غاية في الغباء» «حين كانت الحرب، يا رجل، ما كنت عشت حياتك بعد، كنت لا تزال في الأقمطة».

«هراء، هراء، السخف في ألمانيا هو أنهم يدفعون معونة. وها إنّ آفاً يتجولون هنا وهناك ولا يعملون شيئاً، ومقابل ذلك ما برحوا يتلقّون مالاً».

يتدخل آخرون عند الطاولة: «ما هذا، عليك أن تتمالك نفسك يا فيلي. وماذا تعمل بحق الله؟».

«لا شيء. لا أعمل أي شيء أيضاً. وإذا ما أداموا الدفع لي فأنتي ما زلت لا أعمل منذ زمن غير يسير. ولهذا فإنها لتظل دائماً حماقة حين يعطونني شيئاً ما» ويضحك الآخرون: «إنّ هذا لمخرّف هاذٍ».

فرانس بيبركوبف يجلس معهم إلى الطاولة. الشاب في الناحية الأخرى اللابس قبعة السائس يضع يديه بلا حياء في جيبه وينظر إليه وهو يجلس في مكانه بذراع واحد. وتعانق إحدى الفتيات الشابات فرانس:

«يا أنت، ليس لك أيضاً إلا ذراع واحدة. قل بالله، ما مقدار المعاش الذي تحصل عليه» «من يريد أن يعرف هذا؟» وتغري الفتاة الشاب في الناحية الأخرى: «ذلك الذي هو هناك. هذا يهتم بذلك» «لا، أنا لست مهتماً بذلك على الإطلاق. أقول فقط: من هو الغبي مثل هذا الغباء ويذهب إلى الحرب - وكفى» وتقول الفتاة الشابة لفرانس: «الآن يخاف هو» «ليس مني. لا داعي إلى أن يخاف مني، إني لأقول أيضاً ولا أقول شيئاً آخر. أتعرفين أين ذراعي التي

هنا والتي بترت؟ تركت هذا في محلول مائي للكحول، والآن يتصبب عندي في البيت على خزانة صغيرة ويقول لي طوال النهار من فوق إلى تحت: طاب نهارك يا فرانس، أيها الثور ذو القرنين!». .

هاها. إنه لشخص مضحك، شخص رائع. شخص متقدم في السن اخرج من ورق جريدته سندويشات كبيرة، وأخذ يقطعها بسكينه ويدس القطع في فمه: «لم أكن في الحرب، سجنوني طوال الوقت في سيبيريا. حسن، فأنا الآن في البيت عند الأمهات، وهن تتنازعنني كثيراً. وإذا ما أراد هؤلاء المجيء وأخذ رسم الطابع مني، يا رجل، هل بوغتم كلّ المباغته؟» الشاب: «مّم حصل لك الروماتيزم؟ من التجارة في الشارع، أهذا صحيح؟ فإذا كانت لك عظام مريضة فلا تبع في الشارع» «ربما أصبحت عندئذ تاجر أعراض» ويضرب الشاب على المنضدة أمام ورقة السندويتش. «أجل. إذن هذا صحيح. وليس هناك ما يبعث على الضحك. عليك أن ترى من أخي زوجته، زوجة أخي، هما من الناس المحترمين، ويستطيعان أن يضارعا كل واحد، أتظنّ هما يخجلان وتركاهم يدفعونها القذارة، رسم الطابع؟ فهذا كان يطوف من مكان إلى مكان بحثاً عن عمل، وهي لم تعرف إلى أين ببضعة بفينيكات وبولدين صغيرين في البيت. هل تستطيع الزوجة أن تذهب للعمل. ثمّ تعرّفت على أحدهم ذات مرة، وربما تعرفت من بعد ذلك على شخص آخر أيضاً. إلى أن لاحظ شيئاً ما، أخي. عندئذ استدعاني وقال عليّ أن أجيء وأصغي إلى ما ينبغي الاتفاق عليه مع زوجته. إلاّ أنه وصل عندئذ إلى ما هو صحيح. حسن، كان ينبغي أن تسمعوا التمثيلية. فقد انسحب هذا مثل كلب أجعد الشعر مبلول. فقد ذكرته هي ببضع من صديقاته القذرات بحيث إنّ أخي هذا، الزوج السيد، تضعضع. فعلى هذا إلاّ يعاود الطلوع إلى فوق» «ألم يعد يطلع؟» «إنه يرغب في ذلك. لا، إنها لا تريد أن تكون

لها أية علاقة مع قواد كهذا، شخص يتقاضى إعانة بطالة ثم ما زال يفتح فمه على آخره حين يكسب شخص ما مالاً».

في هذه الحال يكون الجميع على رأي واحد تقريباً. فرانس بيبركوبف يجلس بجانب الشاب الذي يسمونه فيلي ويقارعه الكأس بالكأس: «هل تعلمون، أنتم لستم بأصغر منا إلا بعشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، إلا أنكم أشطر منا بمئة سنة. لو أني امتلكت الجرأة للحديث هكذا كما في العشرين. يا لطيف، يا ساتر، عندما يقول البروسيون: ضم الذراعين إلى الجانبين» «سنقوم بهذا أيضاً. لكن ليس على أنفسنا» قهقهات.

المكان ممتلئ؛ النادل يفتح باباً. غرفة خلفية ضيقة فارغة. هنا تنتحي الطاولة كلها جانباً تحت ضوء الغاز. الجو حار جداً، والحجرة مليئة بالذباب، وعلى الأرض مرتبة من القش تقلب عالياً على جانبها على بسطة الشباك بغية تهويتها. وتستمر الثرثرة. ويجلس فيلي هذا بين هذا وذاك ولا يستسلم.

عند ذاك اكتشف الشاب الغر الذي كان غادر معقله منذ لحظات ساعة يد على معصم فيلي، ويتعجب بلا انقطاع من أن هذه الساعة ذهبية: «كأنما اشتريت هذه بالرخص» «بثلاثة ماركات».

«سرقها أحدهم» «لا يهمني. أتريد واحدة أيضاً؟» «لا، شكراً. لئلا يضبطني أحدهم، ثم يقال: من أين لك هذه الساعة؟» يضحك فيلي فيما حوله: «يخاف هذا من السرقة» «إنته عن هذا يا أنت» فيلي يضع ذراعه على المنضدة. «هذا لم يرتح قلبه لساعتي. فهي بالنسبة إليّ ساعة تعمل وهي من ذهب».

«وثنمها ثلاثة ماركات» «في هذه الحال سأريك شيئاً آخر. أعطني كأس

بيرتك. قل لي ما هذا؟».

«كأس بيرة» «صحيح. كأس بيرة للشرب» «لن أقول لا» «وهذا هنا؟»
«هذه هي الساعة. يا رجل، أنت تمثل دور الغبي» «هذه ساعة. وهذه ليست كوزاً
في شكل حذاء وليست بعصفور كناري، لكن إذا شئت تستطيع أن تقول تعقياً
على ذلك أيضاً كوزاً في شكل حذاء، تستطيع أن تفعل ما تشاء، فالمسألة وقف
عليك» «لا أفهم. إلى أين تريد أن تصل؟» أما فيلي فيبدو أنه يعرف ما يريد،
يسحب ذراعه ويمسك فتاتاً ويقول: «أنت، هيا اذهبي» «ماذا؟ ماذا؟» «هيا اذهبي
هكذا بمجرد الذهاب على طول الجدار» وترفض. ويناديها الآخرون: «هلاً ذهبت،
يا امرأة، لا تتحرجي».

عندئذ تنهض وتنظر إلى فيلي وتذهب إلى الحائط. «هيه. أنت أيها الأسمر
الكريه» «امشي»، يصرخ فيلي. وتمدّ هذه لسانها له وتسير وهي تهز عجزها.
ويضحك الناس «والآن هيا عودي إلى هنا. إذن: ماذا فعلت هي؟» «مدت هذه
لك لسانها!» «وماذا أيضاً؟» «مشت؟» «حسن. مشت» وتتدخل الفتاة: «لا.
كان هذا رقصاً المتقدم في السن أمام سندويشاته: «لم يكن هذا برقص. منذ متى
يكون هذا رقصاً بهذه الطريقة إذا ما أبرز أحدهم عجزه» الفتاة: «إن أبرزت أنت
عجزك فلن يكون هذا رقصاً» وينادي اثنان: «مشت هي مشياً» ويضحك فيلي
ضحكة المتصر وينصت إلى ذلك: «حسن إذن، وأنا أقول سارت» الشاب الغر
غاضباً: «ما الحكاية إذن؟».

«ما من حكاية. ها أنت ترى، سارت، رقصت، مشت، كما تشاء. أنت ما
زلت لا تفهم، إذ إنني أريد أن أشرح لك بالتفصيل. كان قبل ذلك كأس بيرة،
لكن في إمكانك أن تضيف أيضاً قاتلاً بصاق، عندئذ ربما كان على الجميع أن
يعقبوا قائلين بصاق، إلا أنه سيتم الشرب من ذلك. وإذا ما سارت هذه فإنها
تكون سارت عندئذ أو مشت أو رقصت، أما ما كان فقد رأيته أنت نفسك. بأمّ

عينيك. كان هذا ما رأيته أنت. أما إذا أخذ شخص ما ساعة فليس هذا بسرقة على الإطلاق. أرايت، الآن تفهمني. الأخذ يكون من الجيب أو من شباك عرض، من حانوت، أما أن يكون مسروقاً؟ من قال هذا؟» يستوي فيلي في جلسته، ومن جديد يضع اليدين في جيب البنطال: «لست أنا بالذات» «وماذا تقول أنت؟» «اسمع. أنا أقول: تم أخذها. تغيّر مالكوها» يا له من منظر. أخفى فيلي ذقنه، ذقن الملاك، ولم يقل شيئاً. الآخرون يفكرون ملياً. شيء ما رهيب يخيف ظهر على اللوحة.

فجأةً يهاجم فيلي فرانس الأقطع بصوته الحاد. «ألزموك أنت بالبروسيين وكنت في الحرب. هذا يعني في نظري سلب الحرية. على أنّ هؤلاء كانت عندهم محاكم وشرطة خاصة بهم، وبما أنه كان عندهم هذه فقد كمموا لك فاك، ولا يعني هذا سلب الحرية، كما تعتقد أنت الثور الخصي، بل خدمة إجبارية. وكان لزاماً تأدية هذه الخدمة مثلها مثل الضرائب التي لا تعرف أنت أيضاً إلى أين تذهب.»

تتبكي الفتاة قائلة: «بحق الله، كل شيء إلا الخوض في السياسة. فهذا غير مناسب لهذا المساء» ويضحك الغرّ ضحكة بلهاء وينسحب من الموقف: «بمثل هذا الكلام الفارغ. ها إن الطقس بالنسبة إليّ جميل جداً» ويهيج فيلي مستفزاً: «إذن فلتذهب إلى الشارع. أنت تعتقد أنّ السياسة ليست إلا هنا في الحجرة، وأنا ربما أريك إياها. أنا في أشدّ الحاجة إلى مثل هذا. هذه تقية على رأسك. يا ولد، إلى أين أنت سائر. هذا يعني إذا احتملت هذا وقبلت به» ويصرخ أحدهم: «دعونا من هذا كله. أمسك لسانك.»

رائدان جديدان من رواد الحانة يأتيان. الفتاة تتأرجح تأرجحاً لطيفاً ظريفاً وتتلوى على طول الجدار وتهزّ عجيزتها وتشير إلى فيلي في الناحية الأخرى

إشارة لطيفة، ويتنفض واقفاً ويرقص معها رقصة هزّ لا حياء فيها، يعانقان، ويقبل بعضهما بعضاً، موقد لعشر دقائق، موطّداً في الأرض ينتصب الشكل من دقيق محروقا. ما من أحد ينظر إلى حيث هما. فرانس الأقطع راح يجترع كأسه الثالثة ويمسح على بقية ذراعه المبتورة. وتؤلم الجدعة، بقية ذراعه المبتورة، تؤلم وتؤلم. الشاب الملعون، فيلي هذا، شاب ملعون، شاب ملعون. ويجر الشباب الطاولة إلى الخارج ويرمون بمرتبة القش إلى النافذة. أحدهم ابتداءً بأكورديون، ويجلس هذا على مقعد بلا مسند عند الباب ويعزف عزفاً غير منتظم. يوحناي، آه هذا قادر على ذلك، يوحناي، هو نموذج وتحسيد للرجل.

هم يرقصون في مرح وسرور، خلعوا السترات، يشربون ويشربون ويتصببون عرقاً. فإذا لم يقدر على ذلك أحد قدر عليه زوجي يوهان. عندئذ ينهض فرانس بييركوبف، يدفع ويقول لنفسه: لم أعد شاباً بما فيه الكفاية لكي أرقص، كما أنه ليس بي رغبة في ذلك أيضاً، يجب أن أحصل على المال. سيان عندي من أين يأتي.

يعتمر القبعة ويخرج.

اثنان يجلسان ظهراً في شارع روزينثال، يأكلان بالملعقة حساء البازلاء، أحدهما يضحك وبجانبه الجريدة البرلينية: «مأساة عائلية رهيبة في ألمانيا الغربية» «لماذا، ما الذي يدفع إلى الضحك» «تابع الإصغاء. أب يرمي بأطفاله الثلاثة في الماء. الثلاثة دفعة واحدة. رجل وحش» «أين حدث هذا؟» «في هام. فيستفاليا. كل شيء دفعة واحدة. يا رجل، لا بد أن يكون حدث له حتى ذلك الحين ما حدث. إلا أنه يمكن الاعتماد على هذا. مهلاً، سنرى ماذا فعل هو بالزوجة. سيفعل بها أيضاً ما فعل - لا، هي انفردت بذلك، فعلت ذلك

بنفسها قبل الآن. ماذا تقول؟ أسرة مضحكة تبعث على السخرية، يا ماكس، هي تعرف كيف تعيش. رسالة من الزوجة: خدّاع! عنوان مع علامة تعجب، وعليه أن يسمع هذا. «بما أنني مللت من الاستمرار في الحياة فقد اتخذت قراراً أن أرمي نفسي في الترعة. خذ حبلاً واشتق نفسك. جوليا. انتهى» ضحك بروحه وجسمه: «ليس هناك أيّ وفاق في الأسرة. هي في الترعة وهو على الحبل. وتقول الزوجة: اشتق نفسك، ويرمي هو بالأطفال في الماء. لا يستطيع الزوج أن يسمع. وعن الزواج لم يسفر أيّ شيء».

إنهما شخصان تقدم بهما العمر، عاملاً بناءً من شارع روزيتال. يستنكر الآخر ما يتحدث به الأول. «إنها لحالة مفرجة حين ترى شيئاً من هذا القبيل على خشبة المسرح أو تقرؤه في الكتاب، عندئذ تبكي وتولول» «ربما أنت. لكن يا ماكسي، هل سيكي المرء على شيء كهذا، لماذا؟» «الزوجة، ثلاثة أطفال، بالله عليك كفّ عن هذا» «وكما أنا، فإنّ هذا يسرني، يعجبني الزوج، قد أرثي لحلمهم، لكن هكذا دفعة واحدة وعلى طاولة واحدة أن تقتل الأسرة كلها، فأنا أهاب هذا. ومن ثمّ - «وينفجر قائلاً من جديد: «ومن ثمّ أجد أنا هذا، تستطيع أن تدمّرني، وأجد هذا مضحكاً للغاية كيف ظلاً يتخاصمان حتى آخر لحظة. فالزوجة تقول، عليه أن يأخذ حبلاً، وهو يقول، ليس الساعة، يا جوليا، ويرمي بالأطفال في الماء».

وضع الآخر نظارته الحديدية، ويقرأ القصة مرة أخرى: «الزوج حيّ. وعليه قبضوا. حسناً. أنا لا أرغب في أن أكون مكانه؟» «من يدري. أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق» «لكنني أعرف هذا حق المعرفة» «تعرف. أستطيع أن أتصور هذا. فهو يقبع في زنزانة ويدخن تبغه هذا إذا حصل على تبغ ويقول: أتم

كلّكم تقوون عليّ، فلتشربوا البحر». «وبهذه الطريقة تعرف أنت شيئاً ما. تبكيت الضمير، يا عزيزي. هذا يولول في الزنانة أو لا يقول أيّ شيء على الإطلاق. ولا يستطيع هذا أن يغفو. يا رجل، إنك أقرب إلى أن تعرّض نفسك إلى خطيئة» «إنني أجادل في هذا بكل شدة. فهذا يستطيع أن ينام نوماً عميقاً. فإذا ما كان هذا إنساناً غاية في الوحشية، نام هذا نوماً جيداً أيضاً ولربما أكل وشرب أفضل مما في الخارج. وفي مثل هذه الأحوال أضمن أنا هذا» وينظر الآخر إليه نظرة جادة. «إذن هو ابن كلب متوحش. وحين يضربون عنقاً مثل هذا العنق عندها أوّمن أنا على ذلك» «أنت على حق، وأنا سأقول أيضاً إنك على حق» «والآن كفّ عن هذا الكلام الفارغ. سأطلب قطعة خيار لي» «إنّ جريدة مثل هذه لهي جريدة ممتعة حقاً. كلب متوحش، قد يرثي التاريخ لحاله، ربّ رجل يحمّل نفسه ما لا طاقة له به» «أنا سأكل خياراً ورأس خنزير» «وأنا أيضاً».

إنسان آخر يحتاج أيضاً إلى مهنة أخرى أو لا إلى أية مهنة على الإطلاق

حين تلاحظ الخرق الأول في الكم، عندئذٍ تعرف أنه آن الأوان لكي تهتم ببذلة جديدة. ومن ثمّ فإنّ عليك أن تتوجه فوراً إلى المحل المناسب الذي سيريك في مخازن يجيظ بها البصر وصلات جميلة مضاعة على طاولات عريضة كل قطع الملابس التي تحتاج إليها أشدّ الحاجة.

«لا حيلة لي، وتستطيع أن تقول، يا سيدة فيغرن، كما تشائين: إنّ رجلاً بذراع واحدة، وفوق ذلك الذراع اليمنى، هالك» «هذا ما لا أستطيع نكرانه، إنه لصعب يا سيد بيركوبف. ولهذا فإنه ليس من داع إلى اللهاث وإلى تكشير الوجه. يا رجل، إنّ المرء ليخافك خوفاً وأيّ خوف» «وما عساي أن أفعل بذراع واحدة؟» «تتقاضى إعانة البطالة أو تفتح كشكاً صغيراً» «أيّ كشك؟»

«جرائد أو أقمشة تباع بالتر أو تباع حمالات جوارب أو قلادات أمام تيتس أو في أي مكان آخر» «قبو جرائد» «أو فواكه، كل أنواع الفاكهة» «أنا كبرت جداً لمثل هذا العمل، في هذه الحال يجب أن يكون المرء أكثر شباباً».

هذا موضوع من أيام زمان، لن أخوض فيه، لم تعد بي رغبة في ذلك. خالصنا وانتهينا من ذلك.

«يجب أن تكون لك صديقة يا سيد بيبركوبف، ستقول لك هذه كل شيء وستؤازرك حين تدعو الحاجة إلى ذلك. وتستطيع هذه أن تشارك في سحب العربة أو أن تباع في الكشك إذا ما كان عليك أن تغيب.

يضع القبعة على الرأس وينزلها، كل شيء لغو وهراء، عما قريب سأربط حولي أرغناً واذهب متجولاً. أين فيللي؟

«طاب نهارك يا فيللي» بعد هذا يقول فيللي: «لا، لن تستطيع القيام بالكثير. أما إذا كنت ذكياً شاطراً ففي إمكانك القيام أيضاً بشيء ما. فإذا ما أعطيتك على سبيل المثال كل يوم شيئاً ما، شيئاً للبيع أو لتصريفه في الخفاء وأنت عندك رفاق وأصدقاء طيبون ويمكنك أن يساند بعضهم بعضاً، عندها تباع أنت هذا وتكسب بذلك كثيراً».

وهذا ما يريده فرانس. إنه عازم على ذلك. يريد أن يعتمد على نفسه. فما يجلب النقود بسرعة يريده هو. العمل، هراء. إنه يزدري الجرائد أشدّ الازدراء، يتتابه غضب حين يرى هؤلاء المغفلين، تجار الجرائد، وفي بعض الأحيان يدهش هو كيف يستطيع شخص ما يكون غيباً إلى هذا الحد، يجد ويكدّ، وآخرون لصقه يقودون سيارات. فليوافق الأمر هواي. كان هذا ذات مرة، يا بني. سجن تيجل، شارع الأشجار السوداء، البيوت تتقلقل، والسطوح آيلة إلى السقوط على رأس

أحدهم وأنا يجب أن أصبح مستقيماً! يا للسخرية، فرانس بيركوف هذا يجب أن يكون مستقيماً كل الاستقامة، ماذا تقول في ذلك، يا للعجب. غريب وعجيب، لا بد أن يكون عقلي اختلّ في السجن، مجنون مهوس (إعلانات شركة سجائر مانولي الضوئية تدور عكس اتجاه الساعة). أخرج النقود. كسب المال، المال يحتاج إليه الإنسان.

الآن ترون صاحبكم فرانس بيركوف معيناً للصوص والمجرمين، مجرماً، الإنسان الآخر عنده مهنة، وعماً قريب سيصبح أسوأ مما كان. إنها امرأة وقد ارتدت ثياباً أرجوانية وقرمزية وتحلّت بأحجار كريمة ولآلئ وفي اليد كأس ذهبية. إنها تضحك. على جبينها كتب اسمها، سرّ، بابل العظيمة، أمّ الفسق والدعارة وكلّ الويلات على وجه الأرض. شربت دم القديسين، ومن دم القديسين هي سكرى. العاهرة بابل تجلس هناك حيث هي، ودم القديسين شربت هي.

أية ملابس لبس فرانس بيركوف حين كان يسكن عند هيربيرت فيشوف؟

ماذا يلبس هو الآن؟ على الطاولة لقاء ٢٠ ماركا أشتري بدلة صيفية لا عيب فيها. ومن أجل احتفالات خاصة صليب حديدي على اليسار، وهذا يلبسه بصفة مستند لذراعه، ويحظى باحترام المارّة وتقديرهم وحقن الطبقة العاملة.

إنه يبدو مثل صاحب حانة أمين مستقيم أو معلم في الجزائر، كسرات الكي، قفاز وقبعة مستديرة صلبة. وللمفاجآت أوراق في حوزته، مزورة، باسم شخص يدعى فرانس ريكرو مات في عام ١٩٢٢ في أثناء الاضطرابات والذي ساعدت أوراقه ناساً كثيرين. فما هو موجود على الورق يعرفه فرانس كله على ظهر قلب، أين يسكن الوالدان، متى ولدا وكم من الأخوة والأخوات

عندك، ماذا تعمل أنت وأين عملت في آخر مرة، وأي شيء يمكن أن يسأله شرطي فجأة، وما تبقى سوف يستبين.

في حزيران حدث هذا. في شهر حزيران الجميل الرائع نشأت الفراشة بعد أن خرجت من شرنقتها. وفرانس يزدهر ازدهاراً لا بأس به حين يأتي هيربيرت فيشوف وإيفا من تسوبوت من المسبح. وفي المسبح كانت قد حدثت أشياء غير متوقعة، وفي الإمكان الحديث عن الكثير منها، ويستمتع فرانس بأن يعرف هذا. فسمسار البورصة، صاحب إيفا، حظه سيء. فالحظ حالفه في اللعب، لكن في اليوم الذي جلب فيه من المصرف مبلغ ١٠٠٠٠٠ مارك أشيع أنه تمت سرقة في غرفة الفندق بينما هو يتناول العشاء مع إيفا. كيف كان شيء كهذا ممكناً. الغرفة تم فتحها فتحاً جيداً بمفتاح مصطنع، والساعة الذهبية اختفت، وفضلاً عن ذلك ٥٠٠٠ مارك كان تركها في الكومودينة مفتوحة. لم يكن هذا إلا إهمالاً مميّزاً، لكن من ذا الذي يفكر بشيء من هذا القبيل. أن يتمكن لصوص من التسلل إلى داخل فندق كهذا من الدرجة الأولى وأين كانت عينا البواب، سأقاضيك، أليست هنا مراقبة، نحن لا نضمن أشياء ثمينة في الغرف. ويهدر الرجل غضباً مع إيفا لأنها استعجلته جداً إلى العشاء، ولماذا، لا شيء إلا لكي ترى السيد البارون، وأخيراً تقبل أنت يده هببة، وترسل إليه علبة من الشوكولاته الفاخرة، من جيبي. أنت الآن غير مؤدب، يا عزيزي إرنست. وال ٥٠٠٠٠ مارك؟ هل في إمكاني عمل شيء؟ واه، نريد العودة إلى البيت. عندئذ يقول المصرفي غاضباً: ليست بخاطرة رديئة، المهم الانصراف من هنا.

هكذا عاد هيربيرت ليسكن في شارع الإلزاس، وعلى إيفا أن تنتقل إلى غرفة ممتازة في الغرب، وليس هذا بشيء جديد بالنسبة إليها، فهي تعتقد أنه لن يمرّ إلا وقت قليل حتى يضيق بها ذرعاً، ثم يكون الانتقال إلى شارع الإلزاس.

في القطار حيث تجلس هي مع المصرفي وتتحمل مداعباته في المقصورة من الدرجة الأولى في ملال وسأم تحلم: ترى ماذا يفعل فرانس. وحين ينزل المصرفي قبل برلين وتجلس هي وحدها في المقصورة تحقق جوانحها وتقلق: راح فرانس من جديد. أي سرور وأية مفاجأة وأي فتح فم على آخره عند هيربيرت وإيفا وإيميل حين يدخل في الرابع من تموز [الأربعاء]، مَنْ، حسناً، في وسع المرء أن يَحْمَن. نظيف، مهندم، الصليب الحديدي ملصق على صدر البطل، العينان العسلتان المخلصتان إخلاص الحيوان دائماً على عهده: قبضة رجال دافئة ومصافحة شديدة: فرانس بيبركوبف. حافظ على القامة المنتصبة. ستفقد الآن توازنك. ويعرف إيميل التغيير، إنه يملأ ناظريه من منظر هيربيرت وإيفا. فرانس إنسان فاعل الفعل النبيل. «يا ولد، أنت تغسل ساقيك بالشمبانيا؟» هكذا ينشرح صدر هيربيرت. وإيفا تجلس ولا تفهم. الذراع اليمنى يحملها فرانس فارغاً في الجيب، والذراع على أية حال لم تنبت عنده من جديد. تعانقه وتقبله. «يا إلهي، يا فرانس، ها قد جلسنا الآن هنا وأجهدنا أنفسنا في التفكير. ماذا يفعل فرانس، خفنا، أنت لا تصدق» يدور فرانس ويقبل إيفا ويقبل هيربيرت وإيميل أيضاً: يا سلام على هذا الهراء أن تحافوا عليّ ويطرف بعينه في دهاء: «وكيف أعجبكم، محارباً بطلاً، بجاكيته شرطي؟» إيفا تهلل: «ترى ما الأمر، ترى ما المسألة، طابت نفسي هكذا كما تبدو» «وأنا أيضاً بالمثل» «و- مع من تخرج إذن، يا عزيزي فرانس؟» «أخرج؟ هكذا. لا لا. لا شيء من هذا. ليس عندي واحدة.» وينطلق في الحديث ويحكي ويعد هيربيرت بأن يردّ له كل المال، على آخر بفينيك. كل بفينيك، في بضعة أشهر سيكون كل شيء قد تمّ دفعه. عندئذٍ يضحك هيربيرت وإيفا. ورقة مالية سمراء من فئة الألف مارك يلوحها هيربيرت أمام عيني فرانس:

«أتريدها يا فرانس؟» إيفا تتوسل: «خذها يا فرانس» «أبدًا. لا حاجة لنا بها. اللهم إلا إذا احتفلنا بالألف مارك تحت بشرب الخمر، هذا ما نقدر عليه».

كما أنّ فتاة تظهر أيضاً، فرانس بيبير كوبف يكتمل من جديد

إنهم يوافقون فرانس على كل شيء يفعل. إيفا التي لا تزال تحبّ فرانس يطيب لها أن تساعد فرانس في الحصول على فتاة. ويمنع، أعرف الفتاة، لا، أنت لا تعرفها، كما أنّ هيربيرت لا يعرفها أيضاً، ومن أين لك أن تعرفها، لا، لم يمض عليها وقت طويل في برلين، إنها من بيرناو، وهي لم تأتِ دائماً إلا مساءً إلى محطة قطارات شتيتين، هناك التقيتها ذات مرة وقلت: ستدور الدائرة عليك، يا عزيزتي، إن لم تتركي هذا وظللت تسافرين إلى هناك، فهنا في برلين ما من أحد يستطيع أن يستمر هكذا. قالت وضحكت، إنها لا تريد إلا أن تستمتع. وهما أنت ترى يا فرانس - هيربيرت يعرف القصة، وإيميل أيضاً-، ذات مرة تجلس هي هنا في الساعة الثانية عشرة في المقهى. أقرب أنا منها وأساها: حسناً، لماذا تكشّرين هكذا يا بنت، ما من أحد هنا يموج ويهيج. عندها تولول أمامي بشيء، كان عليها أن تكون في قسم الشرطة، لم تكن تحمل أية أوراق، ولم تبلغ بعد سنّ الرشد، ولا تجرؤ على دخول البيت. وحيث هي في الوظيفة، فقد طردوها لأنّ الشرطة سألت، كما أنّ الأمّ رمت بها خارجاً. وتقول هي: لا شيء إلا لأنني استمتع قليلاً؟ ما جدوى البقاء في بيرناو مساءً؟

إيميل ينصت دائماً وكما هو معهود وهو متكئ على ذراعيه ويعقب قائلاً: «إنّ البنت هي حقاً على صواب في هذا. أعرف بيرناو أيضاً. وفي المساء لا حياة فيها».

إيفا: «حسناً، أنا أهتم الآن بعض الشيء بهذه الفتاة؛ ومن أجلي لم تعد تسمح لنفسها بالذهاب إلى محطة شتيتين».

هيريرت يدخن سيجارة غليظة مستوردة: «إذا ما كنت رجلاً يفهم شيئاً ما، يا فرانس، ففي استطاعتك، من يدري، أن تصنع شيئاً من هذه الفتاة. فأنا رأيتها. هي ذات معدن أصيل.

إيميل يرى: «شابة فتية بعض الشيء، إلا أنها ذات معدن أصيل. عظام صماء» ويواصلون شرب الكحول بكثرة.

هذه الفتاة التي سرعان ما طرقت بابه في ظهر اليوم التالي شغف بها فرانس من النظرة الأولى. فقد جعلته إيفا حلواً، وله أن يسرّ إيفا. أما هذه فهي في الحقيقة أنيقة، رائعة وممتازة جداً، ومثل هذا لم يتضمنه بعد كتاب الطبخ الخاص به. إنها مخلوقة قصيرة، وتبدو بثوبها القصير الأبيض بذراعيين عاريتين أشبه بتلميذة لها حركات بطيئة لطيفة وهي غير ملحوظة بجانبه مباشرة. ولم تكذب تمضي نصف ساعة على وجودها عنده حتى عزّ عليه أن يفكر بهذه البنية بأنها خارج غرفته. اسمها بالدقة إيميل بارسونكي، إلا أنها تفضل بأن ينادوها صوفيا، وهكذا كانت تناديا إيفا دائماً لأنه كان لها عظام وجنة روسية. «وإيفا»، تقول البنت متوسلة، «لا تدعى أيضاً إيفا، إنها تدعى إيميل أيضاً مثلي أنا. قالت هي لي ذلك بنفسها».

فرانس يهزهزها على حضنه ويتفرج على هذه العجيبة اللطيفة، إنها الحسنة الشكل ويأخذه العجب من أن الله ربنا قيض له ما قيض من غبطة وهناءة في بيته. في الحياة صعود وهبوط، رائع وبديع. الرجل الذي عمدته إيفا مثل هذا التعميد يعرفه هو، وكان هذا هو نفسه، كانت صاحبته قبل إيدا. وكان يفضل لو أنه بقي عند إيفا. حسناً، ها إن هذه هي عنده الآن.

على أن هذه لن تدعى صونيا إلا يوماً واحداً، ومن ثم سيطلب بإلحاح أنه لا يطبق الأسماء الأجنبية. فإذا ما كانت هي من بيرناو ففي إمكانها أن تسمى

باسم آخر. كانت ستكون عنده صاحبات كثيرات، وفي إمكانها أن تتصور هي هذا، لكن ما من واحدة بعد كانت تدعى ماريا. واحدة مثل هذه يرغب في أن تكون عنده. وها هو يسميها الآن «صاحبة ميتسي الصغيرة (ميتسيكين)».

لم يمض وقت طويل - كان هذا في تموز-، حتى شهد معها شيئاً جميلاً. لم يولد طفل. كما أنها لم تمرض هي أيضاً. إنه شيء آخر يفزع فرانس، إلا أنه لن يكون مروّعاً. آنذاك يسافر شتريسمان إلى باريس، أو أنه قد لا يسافر إلى هناك، وفي فيمار ينهار السقف من مديرية البرق والهاتف، وقد يسافر أيضاً شاب متعطل لا وظيفة له بزورق وراء صديقته التي سافرت مع آخر إلى غراتس، ومن ثمّ سيرميها الشاب كليهما بالرصاص ثم يقتل نفسه برصاصة في الرأس. مثل هذه الأمور تحدث في كل طقس، حتى موت الأسماك الكبير في نهر شبريه يدخل ضمن ذلك. حين يقرأ المرء شيئاً من هذا القبيل يدهش لذلك؛ فإذا شهد هو هذا فلن يبدو هذا في نظره شيئاً عظيماً؛ الحق يقال في كل بيت يحدث شيء ما.

كثيراً ما يقف فرانس أمام دائرة الرهانات بشارع شونهاوز القديم، في الداخل في حجرة الطعام يساوم مع هذا وذاك، الناس تعرف بعضها بعضاً، ويدرس فرانس عمود الجريدة: مشتريات، مبيعات؛ وفي الظهر يلتقي ميتسي. ويخطر بباله ذات مرة أن ميتسي تأتي إلى آيشينغر على ساحة أليكس مكدودة ومنهكة غاية الإنهاك حيث يتناولان الطعام. وتقول هي إن النوم أخرها. أما بالنسبة إليه فإنّ في الأمر شيئاً ما عند البنت. ثمّ ينسى الموضوع من جديد، فالبنت رقيقة جداً بحيث إنّ المرء لا يمكن أن يظنّ الظنون، وفي غرفتها كل شيء غاية في النظافة وغاية في الترتيب والأناقة مع الزهور والمسحات والأشرطة مثلما هي الحال عند بنت صغيرة. والهواء متجدد دائماً على أحسن وجه ومرشوش بكولونيا الخزامى بحيث إنّ صدره كان ينشرح غاية الانسراح

حين كانا يعودان معاً في المساء إلى البيت. وفي السرير، هي هنا رقيقة وناعمة مثل ريشة، في كل مرة هادئة هذا الهدوء ورقيقة تلك الرقة وسعيدة تلك السعادة كما في أول الأمر. وهي دائماً جادة بعض الشيء، وغامضة كل الغموض. ترى هل تفكر هي بشيء حين تجلس في مكانها ولا تفعل شيئاً. وإذا ما سأها قالت دائماً وهي تضحك إنها لا تفكر بشيء على الإطلاق. ليس في وسع المرء أن يفكر بشيء طوال النهار. وهذا ما يراه هو أيضاً.

على أنّ هناك على الباب في الخارج صندوق بريد وعليه اسم فرانس، الاسم المزور: فرانس ريكز، إذ إنه يذكر هذا دائماً للإعلانات والبريد. هنا تحكي له ميتسي ذات مرة: هي سمعت بوضوح كيف وضع ساعي البريد قبل الظهر شيئاً ما في صندوق البريد، وحين تذهب إلى هناك لا تجد أي شيء فيه. ويعجب فرانس ويسأل ما المقصود من ذلك. هنا ترى ميتسي أنّ شخصاً ما لا بد أن يكون أخرجها بالصنارة وهؤلاء هم الناس من الناحية الأخرى، فهؤلاء ينظرون دائماً من خلال العين السحرية، وسيكونون قد رأوا حين جاء ساعي البريد، ثم أتوا وأخذوا الرسالة. ويحتقن وجه فرانس وتثور ثائرتة ويفكر: ما هذا، هل من أحد يتعقبني. ويذهب في المساء إلى الناحية الأخرى. ويدق الباب، وإذا بامرأة في الباب تقول على فورها أنها ستأتي بزوجها. وهذا رجل مسنّ - الزوجة أصغر، إنه في الستين من العمر، والزوجة في الثلاثين. ويسأل فرانس هذا: «هل تمّ تسليم رسالة هنا، ربما بالخطأ، رسالة خاصة به. وينظر الزوج إلى زوجته:

«هل من رسالة تمّ تسليمها هنا؟ جئت أنا لتوي إلى البيت» «لا، لم يتم تسليم أية رسالة عندي» «متى كان هذا يا ميتسي؟» «في نحو الحادية عشرة، إنه يأتي دائماً في الحادية عشرة» وتقول الزوجة: «أجل، إنه يأتي دائماً في نحو الحادية

عشرة. لكنّ الأنسة تستلم البريد دائماً بنفسها إذا ما جاء أي بريد، وهو يرنّ الجرس دائماً» «وكيف تعرفين هذا تمام المعرفة. التقيته ذات مرة على السلم، ومن ثمّ أعطاني هو رسالة، وأنا رميتها أيضاً في صندوق البريد» «لا أعرف ما إذا كنت أنت أودعتها في صندوق البريد. رأيت أنا أنه أعطاك الرسالة ليس إلا. حسناً، وأين الضرر في ذلك؟» فرانس: «إذن، ليست لي هنا أية رسالة، ريكس اسمي، وهنا لم يتم تسليم أية رسالة؟» «أعوذ بالله، كيف لي أن أستلم رسالة لناس غرباء، وصندوق بريد ليس عندنا، انظر كم مرة يأتي الرجل إلينا» فرانس يخرج مستاءً مع ميتسي. يرفع القبعة: «المعذرة. عمتم مساءً، عمتم مساءً».

يتجاذب فرانس وميتسي أطراف الحديث عن الموضوع. وينعم فرانس التفكير في ما إذا كان الناس يراقبونه. ويريد أن يحكي لإيفا وهيربيرت عن ذلك. وينبه ميتسي أن تقول لساعي البريد إنّ عليه أن يرن الجرس. «سأفعل هذا يا فرانس، لكن في بعض الأحيان يأتي واحد جديد. نيابة عنه».

بعد بضعة أيام وحين يأتي فرانس عند الظهر إلى البيت، فجأة، وإذا بميتسي قد ذهبت إلى آيشينغر، وها إنّ فرانس يعرف الحل، شيء جديد كل الجدة - هذا بالذات هو الشيء الذي يفزعه، إنما لا يؤلمه ألماً شديداً. ويدخل إلى الحجر، وهذه بطبيعة الحال فارغة ونظيفة، إلا أنه كانت هناك علبة فيها سجائر فاخرة لأجله، وميتسي ألصقت عليها قصاصة ورق: «لأجل فرانسيكين (محبوبي فرانس)»، وزجاجتان من عرق الكراويا. فرانس سعيد ويدور في خلده كيف تقتصد هذه الفتاة بالمال، مثل هذه يجب أن يتزوج المرء، وتملؤه البهجة، وماذا تقول، إنها اشترت لي أيضاً طائراً صغيراً، وكان هذا في الحقيقة كما لو أنه كان عندي عيد ميلاد، الويل لك مني يا فأرقي الصغيرة، أريد أن أبادرك بالمثل أيضاً،

ويبحث في جيبه عن النقود، وإذا بالجرس يدق، أجل، إنه ساعي البريد، اللعنة جاء اليوم متأخراً، إنها الساعة الثانية عشرة، سأقول له أنا بنفسى.

ويذهب فرانس إلى الممشى ويفتح الباب، ويصيح السمع إلى داخل البيت، ما من ساعي بريد هنا. وينتظر ولا يأتي، حسناً، ربما جلس عند أحدهم. فرانس يخرج الرسالة ويدخل إلى الحجرة. ها إن رسالة مغلقة في داخل الغلاف المفتوح، ومعها قصاصة ورق، كتابة أفقية مموهة: «سلم بالخطأ، واسم غير مقروء. لقد جاء هذا إذن من الجهة الأخرى، على من يتجسسون هم. كانت الرسالة المغلقة معنونة باسم:

«سونيا بارسونكي عند السيد فرانس ريكز» أما هذا فإنه لغريب عجيب، ممن تستلم هي الرسائل، من برلين، إنه رجل. ويكتب أحدهم هنا، وتسري في فرانس برودة، مثل برودة الثلج: «كتزي المحبوب، إلى متى تتركين شخصاً يترقب رداً - لا يستطيع أن يتابع القراءة، يجلس - ها هي السجائر وقفص عصفور الكناري الصغير.

عندئذ ينزل فرانس، فهو لا يذهب إلى آيشينغر، إنه يذهب إلى هيريرت وهو شاحب كل الشحوب ويريه الرسالة. ويتهامس هذا في سرية مع إيفا. ثم تدخل إيفا أيضاً وتمنح هيريرت أيضاً قبلة وتحنه جانباً وتتعلق بعنق فرانس: «حسناً، يا فرانس. هل لي أيضاً بقبلة؟» ويحملك فيها: «بالله عليك اتركيني في ما أنا فيه» «فرانسيكين، قبلة واحدة. إننا لصديقان حميمان» «ماذا بك، يا بنت، كوني مؤدبة، أي شيء سيخطر ببال هيريرت» «لقد طردت هذا لتوي خارجاً، تعال وابحث عنه» وتأخذ فرانس وتسير به عبر الغرفة، هيريرت ذهب، والحق أن عليه أن يذهب. وتقفل إيفا الباب. «في إمكانك أن تمنحني قبلة» ثم تلتف حوله، فهي في هذه اللحظة في تهييج جامح.

«يا بنت، يا بنت»، يلهث فرانس «أنت مجنونة، ماذا تريدني مني؟» لكنها فقدت السيطرة على نفسها، ولا حيلة حيالها، يندهش ويدفعها. ثم يتحول شيء ما في داخله! لا يعرف ماذا أنتاب إيفا. إنه غضب وحيد وتوحش وحيد فيهما كليهما. بكدمات في الأذرع وعلى العنقين يستلقيان بعد ذلك جنباً إلى جنب، هي بالظهر عبر صدره.

فرانس ينخر: «أي أنت، أصحيح أن هيربيرت ليس هنا؟» «لا تصدق هذا» «إنها خنزرة مني تجاه صديقي» «إنك لرجل حلو كل الحلاوة. فأنا مغرمة بك يا فرانس» «يا بنت، سيكون عندك فوق على العنق بقع وليس غير البقع» «في وسعي أن ألتهمك، لكم أحبك. وحين وصلت منذ قليل ومعك الرسالة، يا رجل، كنت أوشك أن ألقى بنفسي عليك يا فرانس» «إيفا، ماذا ستقولين لهيربيرت حين يرى بعد ذلك البقع، ستصبح هذه خضراء وزرقاء» «إنه لا يعرف على الإطلاق سأذهب بعد ذلك إلى صاحبي المصري، ومن ثم أقول، هو من فعل هذا» «هذا جميل يا إيفا، حسناً، أنت في هذه الحال عزيزتي الطيبة إيفا. وإني لأمقت خنزرة أو قذارة كهذه. لكن ماذا سيقول المصري حين يرى هذا؟» «وأي شيء ستقوله العمدة أم الجدة، يا رجل، إنك لخواف، يا سلام».

بعد ذلك رتبت إيفا نفسها، أمسكت فرانس من رأسه، ضمته بعشق على نحو أشد، كما أنها وضعت وجنتيها الساختين على بقية ذراعه المبتورة، ثم تتناول الرسالة، ترتدي ثيابها وتعتمر قبعتها. «أنا ذاهبة الآن، هل تعرف ماذا أنا فاعلة، سأذهب إلى آيشينغر وأتكلم مع ميتسي» «لا يا إيفا، ولماذا؟»

«لأنني أريد. ابق هنا. سأعود على الفور. دعني أنفذ مشيئتي، يا رجل. سيكون في إمكاني أن أهتم بفتاة شابة كهذه ليست عندها خبرة وهنا في برلين.

إذن يا فرانس - وتقبّله مرة أخرى وكانت توشك أن تتهيج من جديد، إلا أنها تعادل وتولّي مسرعة، ولا يفهم فرانس شيئاً.

الساعة الواحدة والنصف؛ في الساعة الثانية والنصف تعود، وهي رزينة هادئة، لكنها مسرورة وفرانس الذي كان النوم غشيه تساعده في ثيابه وتمسح وجهه المعروق بعطرها. ثم تنطلق في حديث، تجلس على الكومودينة وتدخن سجائر: «إذن ميتسي هذه ضحكت يا فرانس، سأدافع عنها ولن أتركها تصاب بمكروه» عندئذ يدهش فرانس. «لا يا فرانس، سأستهين بالرسالة ولن أشغل بالي بها. كانت لا تزال تجلس عند آيشينغر وتنتظر. ثم أريتها الرسالة. ثم سألت عما إذا كنت لم تفرح بالعرق وطائر الكناري» «لكنه بديهي، «ولتسمع أنت الآن. أستطيع أن أقول لك إن هذه لم يرف لها جفن. وقد أعجبتني إعجاباً مثالياً. إنها فتاة طيبة سليمة الطوية. لم أخدعك بسقط المتاع» فرانس متجهماً ونافذ الصبر، أي شيء هو هذا في حقيقة الأمر. وتنطّ إيفا إلى تحت وترت على ركبته: «أنت حلوا يا فرانسيكين. ألا تدري. إن صاحبة ما تريد أن تصنع أيضاً شيئاً ما للرجل. أي نفع يعود عليها من ذلك حين تدور أنت وتلف هنا وهناك طوال النهار وتنجز أعمالاً وما شابه ذلك، وهي تطهو لك القهوة وترتب الحجرة ولا شيء غير هذا. وتريد أن تهديك شيئاً ما وتريد أن تحظى بشيء منك تسرّ به، ولهذا تقوم هي بذلك» «ألهذا؟ هذا ما يجعلك في حالة نفسية طيبة. ألهذا تخدعني هي؟» عندئذ تصبح إيفا جادة: «ليس الحديث عن الخداع. هذا ما قالته هي على فورها: هذا ليس في الحسبان. إذا ما كتب أحدهم لها هذا فلا ضرر في ذلك يا فرانس، وإنه ليحدث أن يبقى شخص متعلقاً ثم يكتب هذا، وهذا بالنسبة إليك ليس شيئاً جديداً، أما هو صحيح».

شيئاً فشيئاً يتضح الأمر لفرانس. واه، ها أنا ذا، هكذا تتطور المسألة. وتلاحظ أنه بدأ يفهم. «طبيعي. ماذا في الأمر. إنها تريد أن تكسب نقوداً. أليست على حق؟ وأنا أيضاً أكسب نقوداً. وهذا لا يليق بها أن تقوم أنت بأودها حيث إنك ما زلت بعد غير قادر على الوجه الصحيح بالذراع» «لا بأس» قالت لي على فورها ولم يرف لها جفن. أنت، إنها بنت رائعة، وفي إمكانك أن تعتمد عليها. عليك أن تترقب بنفسك، قالت، وقد مرّ عليك كل هذا في هذه السنة. وقبل ذلك، يا رجل، لم تكن أحوالك على خير ما يرام، في الخارج، تيجل، أنت تعرف. وأنها ستخجل من أن تتركك تجدد وتكدّ، وفي هذه الحال تعمل هي لأجلك. لكنها لا تجرؤ على أن تقول هذا».

«أهكذا»، يومئ فرانس بالإيجاب وأسقط رأسه على الصدر. «أنت لن تتصور على الإطلاق»، إيفا بقربه وتدلّك ظهره بحنوّ، لكم هي متعلقة بك هذه البنت. أنت لا ترغب بي. أم - أتريدني يا فرانس؟».

أمسكها من خصرها واستقرت برفق في حجره، إنه لا يستطيع أن يمسكها إلا بذراع واحدة، ويضغط برأسه على صدرها ويقول بصوت خافت: «أنت امرأة طيبة يا إيفا، إبقى مع هيريرت، فهذا يمكن أن يحتاج إليك، إنه شخص طيب» قبل إيذا كانت إيفا صديقه، لا تثر الموضوع، ولا تبدأ مرة أخرى، وتفهم إيفا. «وتذهب أنت من بعد ذلك إلى ميتسي يا فرانس. إنها ما زالت جالسة عند آيشينغر أو أنها أمام الباب. لن تعود إلى البيت حتى تردها أنت».

ودّع فرانس إيفا بهدوء شديد ورقة زائدة. أمام آيشينغر إلى الجانب أمام صندوق تصوير يرى ميتسي الصغيرة واقفة على ساحة اليكس. ويقف فرانس على الناحية الأخرى، أمام سياج خشبي خاص بالبناء، وينظر إليها طويلاً من

الخلف. وتذهب إلى ناصية الشارع، ويتابعها فرانس بنظرته. إنه قرار، إنه تحوّل. قدماء تتحركان. رأى جانب وجهها عند ناصية الشارع. ما أقصرها وأصغرهما. كانت تلبس حذاءً قصيراً بنياً. انتبهي، سيحدثها الآن شخص ما. الأنف الصغير الأفتس. إنها تبحث. أجل، من الجهة الأخرى جئت أنا، من تيتس إلى هنا، لكنها لم ترني. سيارة خبز من آيشينغر في الطريق. ويسير فرانس على طول سور البناء الخشبي حتى ناصية الشارع حيث كانت كومات الرمل؛ إنهم يهينون الإسمنت. الآن ستمكن من أن تراه، إلا أنها لم تره إلى هذا الجانب. سيد متقدّم في السن ينظر إليها باستمرار، لكنها تمرّ به، تتابع تنقلها صوب لوزر وفولف. ويقطع فرانس الدام (جسر السكة الحديدية). إنه دائماً خلفها على بعد عشرة أمتار، وسيحافظ على هذه المسافة. إنه يوم تموزي مشمس، وتعرض عليه سيدة باقة من الزهور، ويعطي ٢٠ بفينيكاً، ويحمل الزهور باليد، ولا يصبح بعد أكثر قرباً منها. ليس بعد. على أن الزهور تفوح رائحة طيبة، فهي وضعت له اليوم بعض الزهور في الحجرة وطائر كناري وعرقاً.

وإذا بها تلتفت. رأته على فورها، في يده زهور، وقد جاء. وتطير نحوه، وجهها يتوهج، يتوهج لحظة ويتقد حين ترى الزهور في يده اليسرى. ثم يصفر، وتبقى بقع حمراء.

في صدره يضرب القلب في فرح ومرح. تمسكه من تحت الذراع، ويسيران فوق الرصيف إلى الناحية الأخرى من شارع لانديسبيرغ من دون أن ينسا بنت شفة. وتنظر المرة تلو المرة بطرف عينها إلى الزهور الحقلية التي يمسكها بيده، على أن فرانس يمشي معها باستقامة. الحافلة ١٩ تمرّ بهما مدوية كرعد قاصف، صفراء، ذات طابقين، تغصّ بالركاب من فوق إلى تحت، وإلى اليمين على سور

البناء الخشبي ألصق إعلان قديم. حزب الرايخ للحرفيين والتجار، ولا يعبر الناس الدام (جسر السكة الحديدية)، السيارات من الإدارة العامة للشرطة إلى هنا لديها في هذه اللحظة مرور. وفي الناحية الأخرى عند العمود الذي عليه دعاية «برسيل» يجد فرانس أن باقة الزهور ما زالت معه، ويريد أن يعطيها إياها. وبينما كانت عيناه تنظران إلى يده ظلّ يسأل نفسه وفي داخله تنهدة وهفة، لم يحسم الأمر بعد: أعطيتها الزهور أم لا أعطيتها إياها؟ إيذا، ما علاقة هذا بإيذا، تيجل، فقد أحببت البنت كل هذا الحب.

وعلى الجزيرة الصغيرة التي فيها عمود الدعاية لبرسيل يجب عليه أن يدسّ الزهور في يدها. وكثيراً ما تطلّعت إليه باستعطاف، لم يتكلم، الآن تطبق يدها على ساعده الأيسر، وترفع يده عالياً، وتضغطها على وجهها الذي يلتهب من جديد. الحرارة من وجهها تسري فيه. ثم تقف وحدها، تترك الذراع يسقط مترخياً، رأسها يستقر كما من تلقاء نفسه على الكتف الأيسر. وتهمس لفرانس الذي يمسك بردفها مذعوراً: «لا يا فرانس، دع هذا» ويسيران على الدام (جسر السكة الحديدية) حيث كانوا يهدمون المحل التجاري هان ويتابعان السير وتمشي ميتسي من جديد منتصبه القامة «ماذا بك يا ميتسي؟» وتضغط على ذراع فرانس:

«خفت خوفاً وأيّ خوف منذ قليل» وتدير الرأس جانباً، وتغرورق عينها بالدموع، لكنّ البنت تستطيع الضحك بسرعة كبيرة، قبل أن يلاحظ هو شيئاً ما، كانت ساعات رهيبية.

هما فوق في غرفته، الفتاة تجلس في ثوبها الأبيض أمامه على مقعد بلا مسند، والنوافذ فتحها، الجو أصبح شديد الحرارة، رطوبة كثيفة جداً، ويجلس هو في كمي القميص على الأريكة، يجلس ويديم النظر إلى الفتاة. كم هو مغرم

بها؛ فأنا في غاية البهجة أنها هنا، يا لهاتين اليدين الصغيرتين الجميلتين، أيتها البنت، سأشتري أيضاً زوجاً من النسيج اللماع، وانتبهي، يجب أن تحصلي من بعد ذلك على بلوزة، افعلي ما تشائين، إنه لجميل كل الجمال أنك هنا، فأنا في غاية البهجة أنك عدت إلى هنا يا بنت. ويفرك رأسه في حجرها. يجذبها إليه، ولا يشبع من النظر إليها ومن ضمها ولمس هذه الفتاة. الآن عدت إنساناً، الآن ارتددت إنساناً، لا، لن أتخلي عنك، لن أتركك، وليحدث ما يحدث. ويفتح فاه: «ميتسي يا صغيرتي، أيتها البنت، لك أن تفعلي ما تشائين، فأنا لن أتركك».

ما أسعدهما. ينظران، والكتفان مطوّقان، إلى طائر الكناري. ميتسي تبحث عن حقيبتها وتري فرانس الرسالة بتاريخ اليوم ظهراً: «ألهذا الهراء الذي كتبه ذاك هنا قامت قيامتك؟» وتدعكها وترميها إلى الخلف على الأرض. «يا رجل. من مثل هذا أستطيع أن أعطيك طرداً كاملاً».

حرب دفاعية على المجتمع المدني

وفي الأيام التالية يتنزّه فرانس ببيركوبف براحة كبيرة. لم يعد ذلك الهمجي المتوحش في متاجراته السوداء، وفي أثناء التهريب من شخص يتلقّى مسروقات إلى آخر. فإذا ما أخفق في أمر ما ازدراه. إنّ لدى فرانس الوقت والصبر والهدوء. فلو تحسّن الطقس لفعل ما تقوله له ميتسي وإيفا: أن يسافر إلى سفينيموندي، وأن يروّح عن نفسه؛ إلا أنه لم يطراً أيّ تغير على الطقس، السماء تمطر وينهمر المطر وتمطر السماء رذاذاً كل يوم، كما أنّ الطقس بارد أيضاً، وفي حديقة هوبّي قطعت أشجار قطعاً كاملاً، كيف ينبغي أن يكون الجو هناك وفي الخارج. فرانس وثيق الصلة بميتسي، هما خليلان يترددان على هيريرت وإيفا. وميتسي عندها أيضاً صاحب أوفر رزقاً يصحبها إلى اللهو والملاذات،

فرانس يعرفه، وفرانس يعتبر زوجها، ويطيب له أن يجتمع بين الحين والآخر بالسيد الزبون وبشخص آخر، فيأكلون ويشربون ثلاثتهم في ود واحترام.

على أيّ مستوى يقف الآن صاحبنا فرانس بيركوبف! كيف هي حاله وكيف تحوّل كل شيء! كان قاب قوسين أو أدنى من الموت، كيف علا! وأيّ كائن شعبان هو الآن لا ينقصه أي شيء، لا ينقصه طعام ولا شراب ولا ملبس. له عشيقة تسعده، ولديه نقود أكثر مما ينفق، فكل ما عليه من دين لهيربيرت سدده له، هيربيرت وإيميل وإيفا هم أصدقاؤه، إنهم يريدون مصلحته. ولأيام متتالية يجلس عند هيربيرت وإيفا منتظراً ميتسي، ويسافر إلى بحيرة موجل زي حيث يجدف مع اثنين آخرين: إذ إنّ فرانس يصبح يوماً بعد يوم أمهر وأقوى في الذراع اليسرى. وبين الحين والآخر يطوف متنصتاً في شارع مونتس وعند غرفة الرهونات.

أقسمت أنت، يا فرانس بيركوبف، أنّك تريد أن تبقى مستقيماً. أنت عشت حياة قدرة، وقد دارت الدائرة عليك ودهست، وأخيراً قتلت إيدا وسجنت بسبب ذلك، كان هذا رهيباً. والآن؟ أنت تجلس الآن في النقطة نفسها، إيدا اسمها ميتسي، وإحدى الذراعين انبرت، انتبه، وانجرفت فوق ذلك أيضاً إلى السكر، ومن ثمّ يبدأ كل شيء مرة أخرى، لكن على نحو أسوأ، ومن ثمّ ستكون النهاية.

- هراء، عليّ تقع المسؤولية، تدافعت إلى أن أكون قوّاداً: هراء، أقول أنا. فعلت ما في وسعي، بذلت كل ما في وسعي، وتركتهم يدهسون ذراعي، فليجرؤ أحدهم من بعد ذلك، لقد ضاق بي الضيق بكل بساطة. ألم أبع الصحف، ألم أتجوّل من الصباح حتى المساء؟ والآن نفذ

الصبر، لا، لست مستقيماً، إنني قواد. ولا أخجل من نفسي بسبب ذلك.
وما أنت بحق الله، وممّ تعيش، ربما من شيء آخر غير الناس الآخرين؟
هل أكثر السؤال على شخص ما؟

- ستتهي إلى السجن يا فرانس، وتلقى من شخص ما طعنة سكين في
البطن.

- ليقم هو بهذا. وقبل هذا جرّب هو هذا معي.

الرايخ الألماني هو جمهورية، ومن لا يصدّق هذا فليتلقّ ضربة في القفا. في
شارع كوبينيك عند شارع كنيسة ميكائيل يوجد تجمع، الصالة طويلة وضيقة،
عمال وشباب بياقات القمصان المفتوحة فوق ياقات الجاكتات وبياقات
خضراء، فتيات ونساء، باعة كراسات يدورون هنا وهناك. وعلى المنصة خلف
الطاولة بين اثنين آخرين يقف رجل بدين برأس شبه أصلع يحرض ويستدرج
ويضحك ويستفز.

في النهاية لسنا نحن هنا لكي نضيّع كلامنا، يمّنة ويسرة، هذا ما يستطيع
أن يفعله أولئك الذين هم في المجلس النيابي للرايخ. فإذا ما سألت شخص ما
أحداً من رفاقنا عما إذا لم يكن يريد أن يكون في المجلس النيابي للرايخ، بالقبة
الذهبية فوقه والمقاعد الوثيرة في داخله. قال هو: أنت تعرف يا رفيق، إذا ما
فعلت أنا هذا ودخلت إلى مجلس نواب الرايخ فما كان سيكون هناك أكثر من
إنسان سافل. وليس عندنا أي وقت للتحدث إلى المداهن، عندها سيذهب كل
شيء أدراج الرياح. وسيقول الشيوعيون من بعد ذلك بدون حيل والأعيب:
نريد أن نمارس سياسة كشف الأقنعة والفضح. فما يجيء النقاش به رأينا؛
الشيوعيون أنفسهم فاسدون مرتشون. فلا حاجة بنا لأن نضيّع كلمة على

سياسة كشف الأقنعة والفضح. هذا احتيال، وما هو هنا للفضح يراه في ألمانيا أعمى، ولا حاجة إلى أن يدخل المرء إلى برلمان الرايخ، ومن لا يرى هذا على هذا النحو، فلا يجدي معه أي شيء ولا ينفع معه أي شيء، لا برلمان الرايخ ولا بدون برلمان الرايخ. ثم إن غرفة الهراء والثرثرة لا تصلح لأي شيء إلا لخداع الشعب والضحك على ذقنه، وهذا ما تعرفه كل الأحزاب ما عدا من يسمونهم ممثلي الشعب العامل.

والاشتراكيون الأخيار عندنا. حسناً، يوجد فيهم الآن اشتراكيون متدينون، وهذا ما زال أمراً في منتهى الدقة: فعلى هؤلاء أن يكونوا متديّنين، وعليهم كلهم أن يمشوا إلى رجل الدين. إذ إنه سيان عندهم ما إذا كان الرجل الذي يسرعون إليه رجل دين أم حزبياً ضيق الأفق يستغل منصبه؛ المهم: أن يطاع. (نداء: وأن يُصدّق) هذا لا مفرّ منه. الاشتراكيون لا يريدون أي شيء ولا يعرفون شيئاً ولا يستطيعون شيئاً. وفي برلمان الرايخ يحصلون دائماً على معظم الأصوات، إلا أنهم لا يعرفون ما ينبغي لهم أن يفعلوا بذلك، أجل، أن يجلسوا على مقاعد وثيرة ويدخنوا اللقافات الغليظة ويصيروا وزراء. وإلى ذلك فإنّ العمال أعطوا من بعد ذلك أصواتهم وأخرجوا قروشهم في مساء الدفع: سيسمن خمسون أو مئة رجل من بعد على حساب العمال. الاشتراكيون لا يستولون على السلطة السياسية، بل إنّ السلطة السياسية استولت على الاشتراكيين. ويكبر المرء مثل بقرة وما زال يتعلم شيئاً إضافة إلى ذلك، على أنّ بقرة كهذه مثل العامل الألماني يجب أن تولد من بعد. المرة تلو المرة يتناول عمال ألمانيا ورقة التصويت بأيديهم ويذهبون إلى الحانة ويسلمونها ويظنون أنّ الأمر تمّ بذلك. يقولون: سنجعل صوتنا يدوي في برلمان الرايخ، حسناً، أولى بهم في هذه الحال أن يؤسسوا على الفور جمعية غناء.

يا رفاق ويا رفيقات، لن نتناول باليد أية ورقة تصويت، لن نصوّت. ففي يوم أحد كهذا فإنّ جولة في الريف لأصحّ لنا، لماذا؟ لأنّ الناخب يؤخذ ويتقيد بالقانونية. أما القانونية فهي السلطة العنيفة، عنف الحاكمين. ورجال دين الانتخاب يريدون أن يغروا بنا إلى أن نقبل بهذا، يريدون أن يخفوا، يريدون أن يحولوا دون أن نلاحظ ما هي القانونية وما هي الدولة، ونحن لا نستطيع الدخول إلى الدولة لا من خلال ثقب ولا من خلال أبواب، اللهم إلاّ بصفة مقاعد حكومية وعتالين. وهذا ما قصده رجال دين الانتخاب. يريدون أن يجرونا بطعم وأن يربّونا على أن نكون مقاعد حكومية. وانتهوا مع أكثرية اليد العاملة إلى برّ. وترينا في ألمانيا بروح القانونية وعقليتها. لكن يا رفاق، ليس في وسع المرء أن يجمع بين النار والماء، وهذا ما ينبغي أن يعرفه العامل.

أبناء الطبقة الوسطى والاشتراكيون والشيوعيون يصرخون في جوقة واحدة ويفرحون: كل البركات تأتي من عليّ. من الدولة ومن القانون ومن نظام الحكم الأعلى. إنها زهيد الثمن وضيع القيمة أيضاً. وبالنسبة للجميع الذين يعيشون في كنف الدولة فإنّ الحريات محدّدة ومقرّرة. والحرية التي نحن في حاجة إليها لا يمنحنا إياها أحدٌ، علينا نحن أن ننتزعها انتزاعاً. فهذا الدستور يريد أن يخرج الناس العقلاء عن طورهم، أما أنتم أيها الرفاق ماذا تصنعون بالحريات الموجودة على الورق، بالحريات المكتوبة؟ فإذا ما احتجتم في وقت من الأوقات إلى حرية ما جاء شرطيّ وضربكم على الرأس؛ وتصرخ أنت: ما المقصود بذلك، في الدستور كتب كذا وكذا، ويقول هو: لا تثرثر أيها المنفوش الشعر، وهو على صواب؛ فالرجل لا يعرف أي دستور، بل لوائحه، ولديه الهراوة أيضاً، وما عليك في هذه الحال إلاّ أن تسدّ فاك.

عمّا قريب لن تكون هناك أية إمكانية للإضرابات عند أهم الصناعيين.
حصلتم على مقصلة لجان التحكيم، وتحت هذه يمكنكم أن تتحركوا بحرية.

يا رفاق ويا رفيقات، سيتم الانتخاب وسيقال ثانية، هذه المرة سيكون أفضل، حاذروا، ما عليكم إلا أن تبذلوا كل طاقتكم، وروجوا الدعاية في البيت وفي المعمل، خمسة أصوات أخرى، عشرة أصوات أخرى، اثنا عشر صوتاً إلى ذلك، تمهّل. ومن ثمّ ينبغي أن ترى، وبعدها ستشهد شيئاً ما. أجل، في إمكانكم أن تشهدوا شيئاً ما. إنه ليس إلا دورة أبدية للعمى، والحق أنّ كل شيء بقي على ما هو عليه. النظام النيابي يطيل بؤس اليد العاملة. إنهم يتكلمون أيضاً عن أزمة القضاء. ولا بدّ من إصلاح القضاء، إصلاحه في الرأس والأعضاء. وينبغي تجديد الهيئة القضائية، يجب جعلها جمهورية، موالية للحكومة وعادلة. لا نريد قضاة جدداً. عوض من هذا القضاء لا نريد أي قضاء على الإطلاق. إننا نقوّض المؤسسات الحكومية كلها بالعمل المباشر. ولدينا الوسائل من أجل ذلك: رفض اليد العاملة. كل العجلات تتوقف. على أنّ هذا ليس موضوعاً للتكرار. نحن، يا رفاق ويا رفيقات، لا نسمح بأن يهدثونا بالبرلمانية والرعاية وكل الخداع السياسي الاجتماعي. لا نعرف إلاّ عداوتنا لانعدام الدولة والفوضى ومساعدة الذات».

يتنقل فرانس مع فيلي الحاذق في الصالة ويصغي ويقتني كراسات ويدسها في جيبيه. فهو لا يحب السياسة، وفيلي يلقّنه بجهد جهيد، ويصغي فرانس إليه على نحو ينمّ على حب استطلاع، فهو يلمس ذلك بأصابعه وهذا يؤثر فيه، ومن ثم لا يعود يؤثر فيه هذا. إلاّ أنه لا يترك فيلي.

- النظام الاجتماعي القائم ينهض على الاستبعاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للشعب الكادح. ويجد تعبيره في حق الملكية وفي احتكار الملكية

وفي الدولة واحتكار السلطة. ليس سدّ الحاجات الإنسانية الطبيعية، بل الأمل في الكسب هو أساس الإنتاج الحالي. وتقدّم التقنية يزيد غنى الطبقة المالكة غنى على غنى على العكس الفطري من بؤس قطاعات المجتمع العريضة. فالدولة موجودة من أجل حماية امتيازات الطبقة المالكة وقمع عامة الشعب، فهي تشتغل بكل وسائل الحيل والعنف لإبقاء الاحتكار والفوارق الطبقيّة. وبنشوء الدولة يبدأ عصر التنظيم الاصطناعي من فوق إلى تحت. والآن يتحول الفرد إلى دمية تحركها الأصابع، عجلة ميتة في آلية رهيبية. اصحوا! إننا لا نسعى مثل كل الآخرين إلى الاستيلاء على السلطة السياسية، بل إلى إزالتها التامة. لا تعاونوا في الهيئات المسماة التشريعية: ليس على العبد إلا أن يدعى في هذه الحال إلى أن يطع عبوديته الخاصة بطابع القانون. إننا نرفض كل الحدود القومية والسياسية الموضوعة بطريقة تعسفية. فالوطنية هي ديانة الدولة الحديثة. إننا نرفض كل وحدة وطنية: ففيها تتوارى سلطة الملاكين. اصحوا!.

فرانس بيبركوبف يزدرد ما يعطيه فيلي للازدرداد. ويكون هناك حوار بعد الاجتماع حيث يبقيان جالسين في الحانة ويشجر بينهما وبين عامل متقدم في السن خلاف. فيلي على معرفة بهذا، ويعتقد العامل أن فيلي زميل من المعمل نفسه، مثله هو، ويريد أن يحضه ليمارس مزيداً من التحريض وإثارة القلاقل. وفيلي الجسور لا يكفّ عن الضحك فوق ذلك ويضحك: «يا رجل، منذ متى أنا زميل لك. فأنا لا أعمل لأجل أصحاب المصانع» «حسناً، اعمل في هذه الحال شيئاً ما حيث تكون وحيث تشتغل» «لست في حاجة إلى أن أعمل. وحيث أعمل أنا يعرفون كلهم من زمن طويل ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا» فيلي يستلقي على قفاه من الضحك من فوق الطاولة. هراء، ويقرص هو فرانس في ساقه، في القريب العاجل سيتجول شخص ما بإناء الغراء ويلصق الإعلانات لهؤلاء. ويضحك

للعامل الذي له شعر أغبر وصدر مفتوح: «أنت تعرف، أنك تبيع الجرائد، مرآة رجال الدين، علم أسود، صحيفة الملحد؛ هل نظرت ذات مرة إلى ما هو موجود في داخلها؟» «اسمع يا رفيق، في إمكانك أن تفتح فاك ضعف مما هو عليه. أنا، أنا سأريك ما كتبه أنا بالذات..» «دع هذا. في هذه الحال يجب أن يهابك المرء بحق. لكن في القريب العاجل قد تقرأ أيضاً ما كتبه أنت وتلتزم ذلك. إذن كتب هنا: الحضارة والتقنية. انتبه: «عبيد مصريون عمروا قبر ملك بدون آلات طوال عقود من الزمن، عمال أوروبيون يكّدون ويكدحون بالآلات عقوداً من الزمن في أملاك خاصة. تقدّم؟ ربما. لكن لأجل من؟ حسناً. في القريب العاجل سأعمل أنا أيضاً لكي يكسب كروب في مدينة إسّين أو بورزيك ألف مارك زيادة في الشهر، يا له من ملك برليني. يا رجل، يا رفيق، إذا ما أحسنت التطلع فيك فكيف تبدو لي أصلاً؟ أنت تحتاج إلى أن تكون رجل الفعل المباشر. أين هذا عندك؟ لا أرى، هل ترى شيئاً يا فرانس؟» «هلا كفتت يا فيلي» «لا، بالله قل، يا رجل، ما إذا كنت ترى أين يكون الفرق بين الرفيق هنا ورفيق من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني».

يستقر العامل في كرسيه: «لا فرق في نظري، يا رفيق، في إمكاني أن أقول لك هذا. الفرق في الورقة فقط والجريدة. لا اعتراض، جميل، ليكن لكم ما يخطر ببالكم. لكن ماذا تفعلون بذلك، انظر، أنا أسأل عن ذلك. وإذا ما سألتني الآن ماذا تفعل قلت لك بدون لف أو دوران: مثل واحد من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. دقيق وملتقن هو الشيء نفسه؛ تقف على المخرطة، تحمل قطع النقود الست من فئة الثلاثة بفينيكات إلى البيت، وشركتك المساهمة توزع أرباح الأسهم، من عملك. عمال أوروبيون يكّدون ويكدحون بالآلات عقوداً من الزمن في الأملاك الخاصة. ربما كتبت وحدك هذا».

العامل الأغرير يرّد عينيه بين فيللي وفرانس، ويقلّب بصره ثانية فيما حوله، وفي الخلف عند البوفيه يقف بعضهم، ويقترّب العامل من الطاولة أكثر ويهمس: «حسنًا، ماذا تعملون أنتم؟» ويومئ فيللي بعينه إلى فرانس: «قل أنت» على أن فرانس لا يريد أولًا، ويقول، لا تهمة الأحاديث السياسية. أما الفوضوي الأغرير فيؤيّد: «إنّ هذا هنا ليس حديثًا سياسيًا، نحن نتحدث مجرد حديث عن أنفسنا. أي عمل تعمل أنت؟»

فرانس يتزحزح على كرسيه ويتناول كأس بيرته. ويركّز عينيه على الفوضوي. إنه حصاد، اسمه الموت، يجب أن أبكي على الجبال وأولول وأنوح عند القطعان في الصحراء، إذ إنّ كلّ أخضر ويابس عندها تمّ الإتيان عليه بحيث إنه ما من أحد يجول هنا، فكلّاهما، طيور السماء والماشية، كلّها قد راح وولّى.

«ماذا أعمل، أستطيع أن أقول لك، أيها الزميل، إذ إنني لست برفيق. فأنا أدور هنا وهناك، أعمل قليلاً، أما أن أشتغل فلا، فأنا أترك الآخرين يشتغلون عني.»

بأي شيء يهذي هذا، يريدان هذان أن يسخراني. «إذن أنت صاحب مصنع وعندك موظفون، كم عندك بالله؟ وماذا تريد في هذه الحال عندنا إذا ما كنت رأسمالياً؟» أريد أن أحول القدس إلى كومة من الحجارة وإلى مسكن لبنات آوى، وأريد أن أجعل مدن يهوذا قاعاً صنفصفاً بحيث لا ينبغي لأحد أن يسكن فيها.

«يا رجل، ألا ترى أنه ليس لي إلا ذراع. الذراع الأخرى بُترت. ودفعت الثمن أنني لا أشتغل. ولهذا لم أعد أرغب في أن أعرف شيئاً عن العمل النزيه، هل تفهم؟» تفهم هذا، تفهم هذا، لديك عينان لترى، عليّ أن اشتري لك

نظارات، لا تحمق بي هكذا» لا، ما زلت لا أفهم هذا، يا زميل، أي عمل تعمله. إن لم يكن هذا عملاً نزيهاً فإنه في هذه الحال عمل غير نزيه».

يضرب فرانس على الطاولة، يشير بالإصبع إلى الفوضوي. ويتقدم برأسه صوبه: «أنت ترى، لقد فهم. هذا هو بذاته. عمل غير نزيه. عملك النزيه عبودية، أنت نفسك قلت هذا، وهذا هو العمل النزيه. هذا ما وعته ذاكرتي وحفظته» تم حفظه أيضاً بدونك، ومن أجل ذلك لا حاجة بي إليك، أنت أيها اللين العود، يا كاتب الجرائد المأجور، يا مهذار.

للفوضوي يدان ناصعتان مدببتان، إنه ميكانيكي صناعات دقيقة، ينظر إلى أنامله ويخطر بباله. إنه لجميل أن يكشف المرء القناع عن مثل هؤلاء الأوغاد، فاضحاً أحدهم، سأتى بشخص آخر لكي يسمع هذا. ينهض واقفاً، ويستوقفه فيللي: «إلى أين أيها الزميل؟ هل انتهينا؟ اتفق أولاً مع الزميل هنا، لن تتملص».

«أنا ذاهب فقط لأحضر شخصاً آخر ينبغي له أن ينصت - فأنتما اثنان ضد واحد» «ماذا، إلى هنا تريد أن تحضر شخصاً، أنا لا أرغب في أن يكون هنا أي إنسان. بالله قل، أي شيء تردّ به على الزميل فرانس؟» يجلس الفوضوي ثانية، بعدئذ سنتدبر الأمر وحدنا: «إذن ليس هذا برفيق، كما أنه ليس بزميل أيضاً. إذ إنه لا يعمل. كما أنه يبدو أنه لا يتقاضى إعانة أيضاً».

يتحجر وجه فرانس، عيناه ترسلان نظرات خاطفة: «لا، هو لا يفعل هذا.» «في هذه الحال ليس هو برفيقي ولا بزميلي، كما أنه ليس متعطلاً بلا كسب. ومن ثم أسأل أنا مجرد سؤال وأي شيء آخر لا يهمني: عمّ يبحث هو هنا؟» إن لفرانس وجهه الأشدّ حزماً: «ترقبت هذا، ليس غير، أنت تقول وتساءل: ماذا تريد أنت هنا. هنا تبيع بطاقات وجرائد وكراسات، وحين

أسألك أنا عن ذلك، ماذا عن ذلك، وما هو مكتوب فيها، عندئذٍ ستقول من أين لك الوقت لتسأل؟ عمّ تبحث هنا؟ ألم تكتب وتحكي بنفسك عن عبودية الأجور الملعونة وأنا منبوذون، ولا نستطيع أن نحرك ساكناً؟» استيقظوا، يا ملعوني هذه الأرض الذين ما زال المرء يجبركم على الجوع» هكذا، إذاً فإنك لم تتابع الإنصات. ذلك أنني تكلمت عن رفض العمل. لهذا يجب أن يعمل المرء أولاً» «هذا ما أرفضه» «هذا لا ينفعنا. هنا تستطيع أن تستلقي في الفراش. وعن الإضراب تكلمت. إضراب شامل، إضراب عام».

يرفع فرانس ذراعه ويضحك، إنه غضبان. «وما تفعله أنت تسميه فعلاً مباشراً: دوران هنا وهناك، إصاق إعلانات؟ وفي أثناء ذلك تذهب أنت إلى هناك وتجعل الرأسماليين أقوى. أنت يا رفيق، أيها الغبي، أنت تخرط من أجل قنابل المدفعية التي بها سيردونك قتيلاً، أبهذا تريد أن تعطني؟ فيللي، ماذا تقول الآن. يا للعجب» «أسألك مرة أخرى ماذا تشتغل أنت؟» «في مثل هذا الأحوال سأقول لك مرة أخرى: لا شيء! قذارة! لا شيء على الإطلاق! سأقول لكم شيئاً! لا يحق لي. بحسب نظريتك. فأنا لا أجعل رأسمالياً أقوى. وأنا لا أعبأ بكل هذا التذمر ولا بإضراباتك ولا برجالك الصغار الضعاف البنية الذين ينبغي لهم أن يأتوا. هو هو الرجل. أنا أعمل بنفسني الشيء الذي أحتاج إليه. أنا من يرعى شؤون بيته بنفسه! ما هذا!».

يجترع العامل من عصيره الغازي، يومئ: «حسناً، فليحاول المرء في هذه الحال وحده.» فرانس يضحك ويضحك. العامل: «وأنا قلت لك هذا عشرات المرات: وحدك لا تستطيع أن تفعل شيئاً. نحن في حاجة إلى منظمة كفاح. وعلينا أن نكنّ تفهماً لهذا في السواد الأعظم، لحكم الدولة الغاشم وللاحتكار الاقتصادي.» يضحك فرانس ويستغرق في الضحك. لن ينقذنا

كائن أعلى، ولا إله، ولا قيصر ولا مفوض شعب، ولنخلص أنفسنا من البؤس والشقاء فنحن أنفسنا قادرون وحدنا على أن نفعل ذلك.

يجلسون بعضهم تجاه بعضٍ صامتين. العامل المسن ذو الياقة الخضراء يثبّت نظره في فرانس الذي راح ينظر في عينيه بعين الشدة والصرامة، إلى ماذا تنظر، يا ولد، هل أنا غامض، ماذا. يفتح العامل فاه:

«أقول لك، ها أنا أرى: فيك ومعك، أيها الرفيق، كل كلمة ضائعة. أنت ضيق الأفق وثقيل الفهم. ستنطح الجدار فتهشم رأسك. أنت لا تعرف الشيء الأساسي عند الطبقة العاملة: التضامن. وأنت لا تعرف هذا».

«حسناً، أنت تعرف، أيها الزميل، الآن نتناول قبعتنا على الفور ونصرف، ليس كذلك يا فيلي. كفى. أنت تقول وتردد دائماً الشيء نفسه.» «أجل، هذا ما أفعله أيضاً. في إمكانكم أن تذهبوا إلى القبو وتدفنوا أنفسكم. أما الاجتماعات فلا يجوز لكم أن تذهبوا إليها» «المعذرة أيها المعلم. كان عندنا من الوقت نصف ساعة بالضبط. والآن نشكركم الشكر الجزيل. الحساب يا صاحب الحانة. حاذر، الآن ادفع أنا: ثلاث كؤوس بيرة، اثنتان عرقاً، مارك وعشرة بفينيكات، خذ، أنا أدفع، عمل مباشر».

«ماذا أنت في الحقيقة، يا زميل؟» يتمسك هذا برأيه. فرانس يأخذ المبلغ المتبقي: «أنا؟ قواد. ألا ترى هذا عليّ؟» «حسناً، أنت بعيد عن هذا بعداً شاسعاً» «أنا قواد، هل تفهم. قلت هذا أم لا؟ إذن. أنت يا فيلي، قل أنت ما أنت» «هذا لا يهمه» أعوذ بالله، هذان وغدان سافلان، والحق يقال. قد يكون هذا صحيحاً. هكذا قدّرت. فالوغدان السافلان سخرا مني، ولدا الحرام، أرادا أن يحتكا بي. «أنتم حثالة من مستنقع الرأسمالية. فلتغربا عن الوجه ليس إلا. حتى إنكما لستما

بعد بروليتاريين. أمثالكم يسميهم الناس أوغاداً». نهض فرانس واقفاً: «لكننا لن نذهب إلى الملجأ. طاب نهارك، يا سيد عمل مباشر. لا تسمّن إلا الرأسالين أحسن سمانة. الاصطفاف الساعة السابعة صباحاً، إلى مطحنة العظام، خمسة قروش في ظرف الأجر للصواميل» «لا تدعانا نراكما ثانية» لا، يا عمل السخف المباشر. نحن لا نخالط عبيد رأسالين».

تمشياً بهدوء إلى الخارج. وفي الشارع الترب سارا كلاهما ذراعاً بذراع. ويتنفس فيلي تنفساً عميقاً:

«أبعدت هذا بطريقة ظريفة، يا فرانس» ويعجب أن فرانس قليل الكلام. فرانس مكشّر، غريب وعجيب، فرانس غادر الصالة حاقداً غاضباً، هو في حالة غليان، هو لا يعرف لماذا.

يلتقيان ميتسي في مقهى موكا- فيكس في شارع مونتنس حيث يكون الازدحام الشديد وصخب الحياة. وعلى فرانس أن يذهب مع ميتسي إلى البيت، عليه أن يتكلم معها ويجالسها. ويحكى لها عن محادثته مع العامل الأغبر. ميتسي في غاية من الرقة تجاهه، إلا أنه يريد أن يعرف منها ما إذا كان أحسن الكلام. تبسم، لا تفهم، تدلك يده بحنو، الطائر استيقظ، ويتنهد فرانس، لا تستطيع أن تهدئه.

مؤامرة سيدات، سيداتنا العزيزات لهنّ الكلمة، قلب أوروبا لا يشيخ وما هو سياسي لا يتوقف عند فرانس. [لماذا؟ ما الذي يعذبك؟ عمّ تدافع عن نفسك؟] هو يرى هنا شيئاً ما، يرى شيئاً ما، يريد أن يهوي بقبضته على وجوه هؤلاء، إنهم يستفزونهم دائماً وأبداً، يقرأ في مجلة «الراية الحمراء» وفي «العاطل عن

العمل». وكثيراً ما يأتي هو مع فيلي إلى عند هيربيرت وإيفا. إلا أنّ هذين لا يطيقان هذا الرجل. كما أنّ فرانس لا يطيقه أيضاً كثيراً، إلا أنه يمكن الحديث مع الشاب، إذ إنه يتفوق عليهم كلهم في السياسة. حين تتوسل إيفا إلى فرانس بأن عليه أن يترك هذا الرجل، فيلي، الذي لا غاية له معه إلا أخذ المال منه وليس هو إلا نشالاً، لا شيء آخر، فإنه يوافقها كل الموافقة؛ والحق أنّ فرانس لا شأن له بالسياسة، فهذه كانت فوق طاقته طوال حياته. أما اليوم فإنه يعد بأن يتخلى عن فيلي، ثم لا يلبث أن يتمشى في الغد ثانية مع الولد ويصطحبه إلى التجديف.

تقول إيفا لهيربيرت: «لو لم يكن فرانس ولو لم يكن في ورطة بخصوص الذراع لعرفت كيف أداوي هذا» «وماذا بعد؟» «أستطيع أن أعدك بهذا أنه لن يمضي أكثر من أسبوعين على مرافقة ذلك الشاب الغرّ الذي ليس له إلا أن يفصل عنده الجيد عن الرديء. ومن ذا الذي يرافق هذا. أولاً، لو أنّي محل ميتسي كنت سأقدر وأترك هذا يقبض عليه» «من، فيلي هذا؟» «فيلي هذا أو فرانس أيضاً. وما كان هذا ليهمني. لكن عليهم أن يتبهاوا إلى ذلك. حين يُسجن امرؤ ما، عندها سيدير الأمر في ذهنه من كان على صواب» «أما أنت، يا إيفا، فغاضبة غضباً شديداً على فرانس» «حسناً، لهذا ساعدته أنا في الحصول على ميتسي، وهي تكّد وتتعب مع الرجلين كليهما اللذين هما لديها لكي يعمل فرانس أشياءه. لا، يجب على فرانس أن يصغي أيضاً بعض الشيء. فليس له الآن إلا ذراع واحدة. فإلى أين بهذا؟ ويريد أن يمارس سياسة ويزعج البنت» «أجل، إنّ هذه لتمتعض جداً. كما أنها التقنتي أمس. تجلس هنا وتنتظر، عليه أن يأتي. وفي النهاية، أي شيء جتته فتاة كهذه من حياتها» إيفا تقبله: «هذا ما يحدث لي تماماً، حسناً، عليك، أن تتغيب بهذه الطريقة وتتكلم تفاهات، وتهرول إلى الاجتماعات! يا هيربيرت!» «وماذا كان سيحدث، يا فآرتي الصغيرة؟».

«أولاً أفقاً عينيك، وبعدها تستطيع أن تزورني في ضوء القمر» «يطيب لي أن أفعل هذا يا فأرتي الصغيرة.» وتضربه ضربة خفيفة على فمه وتضحك، ثم تهز هيريرت هذا: «أقول لك، لن أترك هذه الفتاة صونيا تودي بي هكذا، فهي لهذا غاية في الطيبة. لكأنّ الإنسان لم يضرّ إلا نفسه بما فيه الكفاية ولا خمسة بفينيكات يجرّ عليها هذا» «اعملي هكذا مع صاحبنا فرانس. طوال معرفتي بالشاب كان طيباً ولطيفاً، لكنك تستطيعين أن تلحّي على هذا بالقول كما على حائط، فلا يسمع» وتذكر إيفا كيف خطبت ودّه حين جاءت إيدا، وحين حدّرتة فيما بعد وما عانت من الرجل، هي الآن ليست بسعيدة.

«بالنسبة إلي فإنه غير واضح فقط»، قالت وهي تقف في وسط الغرفة، «في ذلك الوقت كان للرجل قصته مع بومز، وكان هؤلاء مجرمين، وهو لا يحركّ عندك ساكناً. حالته الآن جيدة، أما الذراع فهي في النهاية ذراع» «وهذا ما أراه أنا أيضاً» «لا يريد الحديث عن ذلك، هذا في حكم المؤكد. أريد الآن أن أقول لك شيئاً يا هيريرت. ميتسي تعرف بطبيعة الحال موضوع الذراع. إلا المكان الذي كان فيه فهي لا تعرفه أيضاً. سألتها. وهي لا تعرف ولا تحب أن تذكر هذا أيضاً. ميتسي هذه لينة العود بعض الشيء. حسناً، ربما لا تفكر الآن بذلك، حين تجلس هكذا وحدها وتنتظر، وصاحبنا فرانس، أين هو هذا، وطبيعي أنه يمكن أن ينخدع في أي شيء كهذا. وميتسي هذه، إنها تبكي بما فيه الكفاية، طبعاً ليس أمامه. فالرجل يلقي بنفسه إلى التهلكة. وعلى هذا أن يهتم بشؤونه. وعلى ميتسي أن تحرّضه على متابعة قضية بومز» «يا ويلاه» «هذا أفضل. أقول لك هذا. هذا خليك بفرانس. وإذا ما تناول سكيناً أو مسدساً، أليس هو محق في ذلك؟» «لا مانع لدي على الإطلاق. أنا بالذات تحريت بما فيه الكفاية. جماعة بومز يتكتمون على الموضوع كلّ التكتّم؛ وفي هذه الحال لن

يعرف أحد شيئاً» «سيكون هناك من يعرف شيئاً ما» «حسناً، وماذا تريد أنت إذن؟» «على فرانس أن يهتم بذلك، لا بفيللي، ولا بالفوضويين والشيوعيين وكل هذه القذارات التي لا تجلب مالا» «لا تعرّضي نفسك للضرر، يا إيفا».

علاقة إيفا تتجه نحو بروكسل، في هذه الحال تستطيع أن تدعو ميتسي إليها وترىها كل شيء وكيف تكون الأمور عند ناس ذوات؛ إذ إن ميتسي لا تعرف بعد شيئاً كهذا. فالرجل مغرم بإيفا جداً بحيث إنه أعد لها حجرة أطفال صغيرة حيث يسكن قردان صغيران. «أظنين يا صونيا أن هذه للقردين؟ أجل، الكاتو. أنزلت هذين فيها لا لشيء إلا لأنها حجرة صغيرة جميلة، لا، والقردان، فأمام ذلك يسبح هيربيرت هذا بخياله، وهذا يسره دائماً سروراً وأي سرور حين يأتي هكذا إلى هنا» «ماذا، أتأتين به إلى هنا يا امرأة؟» «وأي ضرر في هذا؟ صاحبي يعرفه، إنه غيور غيرة شديدة، وهذا جميل في حد ذاته. تظن أنه لو لم يكن هذا غيوراً لكان شغلني منذ زمن طويل. فالرجل يريد مني طفلاً، تصوّر، من أجل ذلك كانت هذه الحجرة الصغيرة!» يضحكان، إنها حجرة صغيرة مريحة ملوّنة بالألوان ومزودة بالأشرطة وفيها سرير أطفال واطيء. وعلى أعمدة السرير يتسلق القردان صعوداً ونزولاً. وتضع إيفا أحد القردين على الصدر وتتطلع بعينين ناعستين: «ليتني أسديت له معروفاً بخصوص الطفل، لكنني لا أرغب بطفل منه. لا، ليس منه» «حسناً، وهيربيرت لا يريد طفلاً» «لا، أنا أرغب بطفل من هيربيرت. أو من فرانس. هل اغتظت يا صونيا؟».

على أن صونيا تعمل شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عما تظنه إيفا. صونيا تصرخ بوجه اتسعت أساريه، فتنحّي القرد الصغير عن إيفا جانباً وتضم إيفا بحرارة وسعادة وغبطة وبهجة، ولا تفهم إيفا وتدير وجهها جانباً، إذ إن صونيا تريد أن تقبلها باستمرار. «تعالى، يا إيفا، تعالى. أنا لست بمغتظة،

إني مسرورة أنك تحيينه. بالله قولي كم تحيينه؟ وترغين بطفل منه، حسناً. هلاً قلت له ذلك» إيفا تستطيع أن تدفع عنها البنت. «أنت مجنونة يا امرأة. هلاً قلت لي يا صونيا ما بك؟ قولي بصراحة: أتريدين أن تساعديني في الحصول عليه؟» «لا، ولماذا، أرغب في الاحتفاظ به، إنه فرانس خاصتي. لكن أنت إيفا لي» «ما أنا؟» «إيفالي، إيفالي».

لا تستطيع إيفا أن تدافع عن نفسها، صونيا تقبلها على الفم والأنف والأذنين والعنق؛ إيفا لم تحرك ساكناً، ومن ثم، وحين تحشر صونيا وجهها في صدر إيفا وتفركه ترفع إيفا رأس صونيا بقوة: «يا امرأة، أنت سحاقيّة» «لا على الإطلاق»، تتلعثم هذه وتسحب رأسها ثانية من بين يدي إيفا وتضعه على وجه إيفا: «إني لأحبك. لم أعرف هذا قط. قبل ذلك وحين قلت إنك تريدين طفلاً منه» «حسناً، وماذا بعد يا امرأة؟ هل صرت في هذه الحال مأكرة مخادعة؟» «لا، يا إيفا. فأنا لا أعرف» وكان لصونيا وجه متوهج حمرةً وتنظر إلى إيفا من تحت: «أترغين حقاً في طفل منه؟» «لا، قلت هذا مجرد قول» «أجل، أنت تريدين واحداً، أنت قلت هذا هكذا، ليس إلا، أنت تريدين، أنت تريدين» ومن جديد تحشر صونيا وجهها في صدر إيفا وتضمها إلى صدرها وتترنم مغتبطة بصوت هامس: «إنه لجميل جداً أنك تريدين طفلاً منه، جميل هذا، وأنا سعيدة غاية السعادة، آه، أنا سعيدة».

عندئذٍ تقود إيفا صونيا إلى الغرفة المجاورة وتضعها على الأريكة بلا مسند خلفي: «أنت سحاقيّة، أيتها المخلوقة» «لا، لست بسحاقيّة، لم يسبق لي أن مسست امرأة» «أما أنا فترغين بأن تمسيني» «أجل، لأنني أحبك حباً جماً ولأنك تريدين طفلاً منه. وهذا الطفل ينبغي أن تحصلي عليه منه» «أنت مجنونة، يا بنت» .

هذه متحمسة جداً وتتشبث بيدي إيفا التي تريد النهوض. «بالله عليك، لا تقولي لا، أنت تريدين طفلاً منه، يجب أن تعديني. أنت تعديني بذلك. ستحصلين على طفل منه» يجب على إيفا أن تتخلص بالقوة من صونيا التي تستلقي متراخية خاملة، وتبقي عينيها مغلقتين وتلمظ بالشفقتين.

تنهض صونيا بعدئذٍ وتجلس بجانب إيفا على الأريكة حيث تقدم لهما الخادمة الفطور مع النيذ. وتجلب لصونيا قهوة وسجائر، ولا تزال صونيا تحلم وهي مجذوبة ومشوشة بينها وبين نفسها. فهي تلبس كما هو معهود ثوباً أبيض بسيطاً؛ وتمشي إيفا بفستان ياباني فضفاض من الحرير الأسود. «حسناً، يا بنت، يا صونيا: هل في الإمكان الحديث معك عن شيء يقبله العقل؟» «في الإمكان دائماً وأبداً!» «وكيف تعجبك الحال عندي؟» «يعني كيف» «أرأيت. وتحبين أنت فرانس؟» «أجل» «قصدي أنا، إذا ما كنت تحبين فرانس هذا فعليك أن تنتبهي على الولد. فهذا يتجول هنا وهناك وفي أمكنة غير مناسبة، ودائماً مع فيلي العفريت» «أجل، يعجبه هذا» وأنت «أنا؟ وأنا أيضاً يعجبني. إذا ما أعجب فرانس أعجبني أنا أيضاً».

«هكذا أنت يا بنت، ليس لك عينان، وما زلت صبية غرّة جداً. والرفقة لا تناسب فرانس، أقول لك، وهيربيرت يقول هذا. فذاك ولد عفريت. إنه يضل فرانس. ألا يكفي هذا ما حلّ بذراعه؟».

يشحب وجه صونيا الآن، تترك السيجارة في زاوية الفم تنزل، تضعها وتساءل في هدوء: «ما الأمر؟ يارباه» «من يدري ما الأمر. فأنا لا أجري وراء فرانس، أنت أيضاً لا تجرين وراءه. وأنا أعرف أنه لا وقت عندك أيضاً. لكن دعيني أحكي لك إلى أين يذهب، وماذا يحكي هو؟» «يا ربي، كل شيء إلا

السياسة، هذا شيء لا أفهمه» «ها أنت ترين، هذا ما يفعله هو، السياسة، وليس غير السياسة عند الشيوعيين والفوضويين وأمثال سفلة القوم هؤلاء الذين ليس عندهم بنطال سليم على إستمهم. مع أمثال هؤلاء يمشي فرانس. وهذا يعجبك، يا بنت الناس، ولأجل هذا تعملين؟» «لا أستطيع أن أقول لفرانس: اذهب إلى هناك واذهب في هذا الاتجاه؛ يا إيفا، هذا شيء لا يستطيعه المرء» «لو لم تكوني صغيرة ولم تبلغني بعد العشرين، لكنت تلقيت صفقة. فجأة لا شيء عندك لتقوليه له. أينيغي أن تدور الدائرة عليه مرة أخرى؟» «لن تدور الدائرة عليه، يا إيفا. سأحترس» غريب عجيب، صونيا الصغيرة تغرورق عيناها بالدموع وتسند رأسها، وتنظر إيفا إلى البنت، إنها غامضة عليها؛ أتعبه هي حباً شديداً؟» هاك نيذاً أحمر يا صونيا، صاحبي يشرب دائماً نيذاً أحمر، تعالي.»

تصبّ للصغيرة نصف كأس، دمعة من دموع الصغيرة تدرجت على الوجنة، ويبقى وجه هذه دائماً حزيناً. «جرعة أخرى، يا صونيا» تضع صونيا الكأس وتدلّك وجنتها وتفكر، هذه ستصبح سريعة الغضب من جديد. إلا أنها ما زالت تحدق بينها وبين نفسها، تنهض وتقف أمام النافذة وتنظر إلى الخارج. تقف إيفا بجانب صونيا، لا يمكن لأحد أن يفهم هذه البنت. «عليك إلا تقيمي وزناً لما قلناه عن فرانس، يا صونيا الصغيرة، فما قلته لم أعن به شيئاً. لكن عليك إلا تتركه يمشي مع فيليي الغبي المغفل، فرانس شخص مسكين، طيب القلب، وكما ترين، فحريّ به أن يهتمّ بيومز وبمن دهس ذراعه ويتصرف بشيء ما في هذه الحال» «سأنتبه» تقول صونيا الصغيرة بصوت خافت، ومن دون أن ترفع رأسها تضع ذراعها حول إيفا، وتقفان حيث هما قرابة خمس دقائق. ويخطر ببال إيفا: هذه لن أبخل عليها بفرانس، وفيما عدا ذلك لا واحدة غيرها.

بعد ذلك تصخبان في الغرفة مع القردين الصغيرين، إيفا تعرض كل شيء،
وتنظر صونيا مدهوشة إلى ما هو موجود: خوان زينة إيفا، الأثاث، الأسرة
والسجاجيد. هل تحلمين باللحظة الجميلة التي ستتوجين فيها ملكة البيكسافون؟
هل يسمح بالتدخين هنا؟ بلى. ما يدهشني كيف تقدرين على الإتيان بمثل هذه
السجائر الجيدة الصنف إلى السوق بمثل هذا السعر التقريبي لسنوات طويلة؛ ومما
يسرني أنه لا بد لي من أن أعترف لك. يا أنت، أما هذه فلها رائحة طيبة! الرائحة
الطيبة الرائعة، رائحة الورد الأبيض، هادئة، مثلما تطلبها المرأة الألمانية المتمدنة،
وقوية بما فيه الكفاية لكي تظهر الوفرة كلها. آه، حياة الممثلة الأمريكية المشهورة
والمحتفى بها هي في الحقيقة شيء يختلف في جوهره عن الأساطير التي تحيط بها
وجعل الناس يَحْمَنون ويظنون. وتأتي القهوة وتغني صونيا أغنية:

عند أبرودباننا عاثت فساداً شرذمة متوحشة من قطاع الطرق، على أن
رئيسهم غوتيو كان رقيق الطبع ونبيلاً في التفكير. ذات يوم لقي في الغابة المظلمة
ابنة فون مارشان، بعد قليل دوى صوت عبر الغابة: إلى الأبد، إلى الأبد أنا لك!

لكن سرعان ما تم اكتشافهما، جماعة صيادين كبيرة تقترب. وبفضاعة تم
إيقاظهما من الغبطة، السبل ضاقت بهما والحيل؛ والأب يلعن المسكينة.
ورئيسهم أيضاً يتهدد. أبت، تتوسل، رحماك، وإلى الموت أمضي معه. وبعيد
ذلك يعاني غوتيو في البرج المظلم ويجوع ويعطش، يا للهول! إزاييلا تسعى
لتحرير المعشوق، وعسى أن تفلح في هذا، ما لبث أن صار بمكان آمن؛ كاد
ينجو من حبل المشنقة، يمكنه الحيلولة دون القتل.

وإلى القصر يهرع هو ثانية مع المرأة التي يجررها، لكن إزاييلا تجثو، أمام
المحراب، مستعدة، مكرهة بالقوة لتقول «نعم لزواج» هو إليها مكروه وبغيض،
وإذا بالجرم يعلنه غوتيو بصوت خافت.

غيبوبة موت تطرح إزاييلاً شاحبة اللون. آه، لا قبلة توقظ بعد الآن!
وبروح الفخر والنبل تكلم هو إلى الأب: لست أنا السبب في موتها، أنت حطّمت
لها القلب وأزلت لون الحمرة عن الوجنتين.

حين يراها رئيس العصابة ثانية على النعش الصامت، ينحني فوق الوجه،
هل ستلاحظ هنا حياة من بعد. ما هاله إلا أن يسرع في المضيّ بالمحبوبة إلى حيث
ينبغي إيقاظها، الآن هو حاميتها وحصنها.

لكن لا بدّ لهما من الهرب الآن، لم يعد لهما من راحة في أي مكان؛ المحكمة
تلاحقهما بعنف، يتعاهدان: نحن أنفسنا ننوي الآن أن نسلّم أنفسنا. حين يفرغ
كأس السم، الرب سيصدر الحكم فينا. وفوق سينعم علينا بالسعادة الروحية.

صونيا وإيفا تعرفان أنها أغنية عادية من السوق التي تقام أسبوعياً، وأمام
لوحة صور تتم الدندنة بها؛ لكن عليهما أن تبكيا حين تنتهي، ويصعب عليهما
أن تشعلا السيجارتين على فورهما مرةً ثانية.

على السياسة العفاء، أما حياة البطالة والكسل الأبدية فإنها أكثر خطورة

وفرانس ببيركوبف مازال غائصاً في مستنقع السياسة. وفيللي الجريء
ليس معه مال كثير، إنه ذكيّ لبيب، أما في وسط النشالين فهو مبتدئ، ولهذا فهو
يحرر فرانس من أشياء لا حاجة له بها. كان ذات مرّة ربيب الرعاية الاجتماعية،
وهنا حدّثه أحدهم شيئاً عن الشيوعية أنّ هذه ليست بشيء، وأنّ إنساناً عاقلاً لا
يؤمن إلاّ بنيتشه وشتيرنر ويفعل ما يسره ويروقه، وكل شيء عدا ذلك كلام
فارغ. هنا رأى الشاب الساخر الشاطر الآن هو كبيراً في أن يذهب إلى اجتماعات
سياسية وأن يخلق من داخل الصالة معارضة يريد أن يبرم معها صفقات أو لا
يقصد إلاّ أن يستغلها.

فرانس لا يمشي مع هذا إلا قليلاً. ثم ينتهي هذا، وتنتهي السياسة
عموماً، من غير ميتسي وأيفا أيضاً.

يجلس هو هنا ذات مساء متأخر إلى الطاولة مع نجار متقدم في السن
تعرفاً عليه في أحد الاجتماعات؛ في أثناء ذلك يقف فيلي عند البار وكان أمامه
شخص آخر. فرانس أسند الذراع على الطاولة، الرأس في اليد اليسرى منصتاً
إلى ما يقوله النجار الذي يقول: «هل تعرف أيها الزميل، جئت إلى الاجتماع لا
لشيء إلا لأن زوجتي مريضة، وفي المساء ليست هي في حاجة إليّ في البيت،
هي في حاجة إلى الراحة، ففي الساعة الثامنة تتناول قرصها المنوم والشاي،
ومن ثم عليّ أن أعبس، ماذا أفعل أنا فوق. في هذه الحال يستطيع المرء أن ينتقل
إلى حياة الحانات إذا ما كانت عنده زوجة مريضة».

«انقلها إلى المستشفى، يا رجل. فلا شيء في البيت».

«كانت في المستشفى. وأخرجتها ثانية. فالطعام هناك لم يطب لها، ولم
تتحسن حالها أيضاً».

«هل هي مريضة جداً، زوجتك؟»

«الرحم ملتصق بالمستقيم وشيء من هذا القبيل. ثم أجري لها العمل
الجراحي، لكن من غير فائدة. في البطن. والطبيب يقول، إنها مجرد عصبية، ولم
تعد تتلقى شيئاً. إلا أنها تتألم وتبكي طوال النهار».

«هكذا الأمور».

«لن يعطيها هذا عما قريب إجازة مرضية، فليأخذ المرء حذره على كل
حال. مرتين كان عليها أن تقصد طبيباً موظفاً في شركة تأمين، وكما تعرف، لا

تستطيع الذهاب إلى هناك. سيكتبها هذا أيضاً سليمة معافاة. وحين يكون لأحدهم أعصاب مريضة، فهذا إنه صحيح الجسم».

فرانس يستمع إلى هذا، هو أيضاً كان مريضاً، ودهس ذراعه، ولزم المستشفى في ماجديبورغ. فهو لا يحتاج إلى هذا كله، هذا عالم آخر. «أتريد كأس بيرة أخرى؟» «هاك هو» «كأس بيرة» ينظر النجار إلى فرانس. «أنت لا تنتمي إلى الحزب، أيها الزميل؟»

«فيما مضى ذات مرة. أما الآن فلا. لا فائدة ترجى».

صاحب الحانة يجلس إلى طاولتهم، يحيي النجار: «مساء الخير يا إدي»، ويسأل عن الأطفال، ومن ثم يهمس: «يا رجل، لعلك لا تريد أن تصبح سياسياً من جديد».

«ها نحن نتكلم عن ذلك. لا تفكر بذلك» «حسناً، هذا شيء جميل منك، أقول، يا إدي، وابني يقول الشيء نفسه مثلي أنا: بالسياسة لا نكسب قرشاً واحداً، فهي لا ترفعنا إلى أعلى، ترفع آخرين غيرنا فقط».

عندئذ ينظر النجار إليه بعينين مزورتين: «هكذا، وهذا ما يقوله أوغست الصغير أيضاً».

«الصبي طيب، أقول لك، ولا تنظلي على هذا حيلة، في هذه الحال ما على أحدهم إلا أن يأتي أولاً. نريد أن نكسب. وتسير الأمور سيراً حسناً. إياك والغمغمة متدمراً».

«كأسك يا فرانس. أنا أجود عليك بكل شيء».

«أنا لا أعبأ بالماركسية كلها، ولا بلينين ولا ستالين ولا بالإخوان كلهم. ترى هل يقدم لي أحدهم قرضاً ونقوداً وإلى متى وكم - أنت ترى، حول هذا يدور العالم».

«ها أنت قد توصلت إلى هذا» وعلى هذا يجلس فرانس والنجار صامتين. وصاحب الحانة ما زال يهذي بالسخافات، أما النجار فيزجر غاضباً: «أنا لا أفهم من الماركسية شيئاً. لكن انتبه يا فريتس، بمثل هذه البساطة كما تتخيل هذا في علبة دماغك. ما حاجتي أنا إلى الماركسية وما يقوله الآخرون، الروس، أو فيلي هذا مع شتيرنر. يمكن أن يكون خطأ. ما أنا في حاجة إليه لا يكاد يتجاوز كل يوم أصابع اليد الواحدة. إلا أنني سأفهم حين يشعني أحدهم ضرباً على الظهر ما معنى هذا. أو إذا ما كنت اليوم في غرفتي وغداً أطر منها ولا طلبيات هناك، ويبقى المعلم، والسيد المدير بطبيعة الحال أيضاً، أنا ينبغي لي أن أخرج إلى الشارع، ولي أن أتقاضى إعانة البطالة. وحين يكون لديّ ثلاثة أطفال، وهؤلاء يذهبون إلى مدرسة البلدية، الكبرى لها ساقان تقوستا من الكساح، ولا أستطيع إرسالها، ربما وصلت هي إلى المدرسة. ربما استطاعت زوجتي أيضاً أن تسير إلى مركز رعاية الشباب أو من يدري، فالزوجة سيكون عندها ما يشغلها، إنها الآن مريضة، وإلا فهي ماهرة شاطرة، تقف بانحناءات، ويتعلم الأطفال أيضاً الكثير مثلنا نحن، في إمكانك أن تتصور هذا. وأنا لا أستطيع أن أفهم هذا أيضاً حين يعلم الناس الآخرون أطفالهم لغات أجنبية، وفي الصيف يذهبون إلى المسبح، وليس معنا بعد القروش بحيث إنهم يستطيعون الخروج قليلاً إلى تيجل. والأطفال الناعمون لن يصابوا بتقوس الساقين، ليس في القريب العاجل على الإطلاق. وحين أضطر للذهاب إلى الطبيب وعندي آلام روماتزمية عندها نجلس معاً ثلاثين ثلاثين بعضنا لصق بعض في غرفة الانتظار، وبعدها يسألني:

هذا الروماتزم ستكون أصبت به من قبل أيضاً، وكم صار لك هنا في العمل، وهل حصلت على أوراقك، أوراق إثبات الشخصية؟ فهو لا يصدّقني بعد على الإطلاق، ومن ثمّ يتمّ التوجه إلى الطبيب في شركة التأمين، وحين أريد أن يسفروني في مرة من المرات عن طريق التأمين الإقليمي فإنهم لقاء هذا يستقطعون من الشخص دائماً وأبداً استقطاعات، عندها سيكون عليك أن تدعن لهم وتطأطي رأسك إلى أن يسفروك. فيا فريتس، أنا أفهم هذا وحدي من دون نظارات. في مثل هذه الأحوال لا بدّ لشخص ما من أن يكون جملاً من أجل حديقة الحيوانات إن لم يفهم هو هذا. ولهذا الأمر فإنه ما من إنسان يحتاج إلى كارل ماركس. بلي يا فريتس، بلي بلي: إن هذا الصحيح».

ويرفع النجار رأسه الأشيب وينظر إلى صاحب الحانة في دهشة. ويضع غليونه ثانية في الفم، يدخن وينتظر ما سيردّ شخص آخر. يدمدم صاحب الحانة ويضم شفثيه ويبدو غير راضٍ: «يا رجل، معك حق. ابنتي الصغرى عندها أيضاً تقووس في الساقين وليس معي أيضاً نقود للبلد. لكن في النهاية: فقراء وأغنياء كان لهم وجودهم دائماً. ونحن كلانا لا نغيّر هذا».

يدخن النجار بلا مبالاة: «فقط: فليبق فقيراً من كانت لديه الرغبة في ذلك. أجل، ينبغي أن يكون الآخرون فقراء أمامي. فليست بي رغبة الآن إلى هذا. سيملّ المرء هذا على مرّ الأيام».

يتكلمان بهدوء تام، ويجترعان ببطء بيرتهما. فرانس ما زال ينصت. وفيللي يأتي من صوب البوفيه إلى هذا الجانب. على فرانس أن ينهض ويتناول قبعته ويمشي: «لا، يا فيللي، أريد أن أوي اليوم مبكراً إلى الفراش. أنت تعرف هذا من البارحة».

وفرانس يسير وحده على طول الشارع المترب الحار، يا الله يا الله يا الله
هياً هياً هياً. انتظر، انتظر برهة من الزمن فقط، عما قريب سيأتي هارمان^(١)
إليك، وبالبلطة الصغيرة يصنع سجع الكبد منك، انتظر، انتظر لحظة ليس
غير، عما قريب يأتي هارمان إليك أيضاً. اللعنة، إلى أين أسير أنا على طول،
اللعنة، إلى أين أسير أنا على طول. ويقف ولا يستطيع أن يجتاز الدام (جسر)
السكة الحديدية)، وبعدها ينقلب عائداً ويعود ماشياً في الشارع الحار ماراً
بالحانة، إذ لا يزال النجار عند بيرته. لن أدخل إلى هذا البيت. النجار نطق
بالحقيقة. هكذا هي الحقيقة. ما شأنني أنا بالسياسة، بالقدارة كلها. لا تجديني
نفعاً، لا تجديني نفعاً.

ويسير فرانس ثانية على طول الشارع المترب الصاخب. آب. على ساحة
روزيتال يكتظ المكان، أحدهم يقف هناك ومعه جرائد، جريدة العمال
البرلينية، محاكم سرية ماركسية، يهودي تشيكي بصفة شاذ جنسياً يشتهي
الغلمان، وأغرى ٢٠ صبياً، ومع ذلك لم يُلَقَّ القبض عليه، أنا تاجرت أيضاً.
حرارة شديدة اليوم. ويقف فرانس ويشترى الجريدة من الرجل، الصليب
المعقوف الأخضر في الأعلى، ذو العاهة الأعور من مرقص «العالم الجديد»،
اشرب، اشرب، يا أخياه اشرب، دع الهموم في البيت، اشرب، اشرب، يا أخياه
اشرب، دع الهموم في البيت، تجنّب الهم والغم، وتجنّب الكرب، فالحياة من بعد
ذلك فكاهة، تجنّب الهم والغم، وتجنّب الكرب، فالحياة من بعد ذلك فكاهة.

ويواصل سيره حول الساحة داخلاً في شارع الإلزاس، أربطة الأحذية،
لودرز، تجنّب الهم والغم وتجنّب الكرب فالحياة فكاهة، تجنّب الهم والغم وتجنّب

(١) هارمان هو فريتس هارمان الجزار القاتل بالجملة. أعدم سنة ١٩٢٥.

الكرب فالحياة فكاهة. إنّ العهد لبعيد، هنا وقفت عند فايش، مناداة، أية فضلات رخيصة وأمتعة قديمة هي هذه، أشياء من أجل ربطات العنق وحمالات ربطات العنق، ولينا، لينا، البولونية، البدينة، مرت عليّ واصطحبتي.

ويمشي فرانس، لا يدري ماذا يريد، عائداً إلى ميدان روزينتال ويقف أمام فايش عند محطة الحافلة الكهربائية مقابل آيشينغر. ينتظر. أجل هذا ما يريده هو! يقف هنا و ينتظر ويحس مثل إبرة مغناطيسية - صوب الشمال! صوب تيجل، السجن، أسوار السجن! إلى هناك يريد الذهاب. عليه أن يذهب إلى هناك ومن بعد ذلك يحدث أنّ الحافلة رقم ٤١ تأتي وتتوقف، ويصعد فرانس. يحسّ أنّ هذا عين الصواب. تحرّك، ويركب الحافلة، والحافلة تسير به إلى تيجل، وتسير الأمور على خير ما يرام. هذا رائع. إنه مبسوط فرح! إنها حقيقة أنه سائر إلى هناك. شارع برونين، شارع أوفر (الشط)، شوارع تحيط بها الأشجار، راينيكيندورف، هذا صحيح، هذه كلها موجودة، وها هو يدخلها مسافراً، إنها ماثلة هنا. وهنا يصح الأمر! وحين يجلس هو هنا يزداد الأمر حقيقة على حقيقة ويزداد قسوة وشدّة. عميق هو الرضا والسرور الباطني الذي يشعر به، قوية جداً وقاهرة جداً هي النعمة أنّ فرانس يجلس ويغمض العينين ويغشاه نوم شديد.

الحافلة الكهربائية اجتازت في الظلمة دار البلدية، شارع برلين، راينيكيندورف غرب، تيجل، آخر موقف. الجابي يوقظه ويساعده في النهوض: «هذا آخر موقف. إلى أين أردت الذهاب؟» فرانس يترنح وهو يخرج: «تيجل» «إذن أنت وصلت.» أما هذا فهو سكران، هكذا ينفق ذوو العاهات معاشهم في السكر.

الرغبة الجامحة في النوم تملك فرانس أيما تملك بحيث إنه طار في الساحة التي يمرّ بها إلى أول مقعد خلف المصباح. وتوقظه دورية شرطة، الساعة

الثالثة، فلا تتعرض له بأيّ سوء، فالرجل يبدو مستقيماً، وهو جدّ ثمل، أما هؤلاء فمن الممكن أن يسلبوه «لا يحقّ لك أن تنام هنا، أين تسكن؟».

ثمّ إنّ فرانس لا يطمع في مزيد. إنه يتشاءب. يريد أن يأوي إلى السرير. نعم، هذا هو تيجل، أيّ شيء أردته هنا، هل أردت شيئاً ما هنا، أفكاره مشوشة، يجب أن آوي إلى السرير ولا شيء غير هذا. حزيناً يغفو: أجل، أجل، هذا هو تيجل، لا يدري ما الغاية من ذلك، حقاً إنه سجن هنا فيما مضى. سيارة. وماذا كان أيضاً، ماذا أردت أنا في تيجل. إنهم يوقظونني حين أخلد إلى النوم.

ويعاوده النوم الشديد، ويفتح له العينين، ويعرف فرانس كل شيء.

ها إنّ هناك جبلاً والرجل الشيخ ينهض واقفاً ويقول لابنه: تعال معي. تعال معي يقول الرجل الشيخ لابنه ويمشي والابن يسير معه، يسير في أعقابه إلى الجبال، صعوداً وهبوطاً، جبال وأودية. إلى متى السير يا أبتاه؟ لا أدري، نصعد إلى الجبال وننحدر من الجبال، ما عليك إلا المجيء. هل أنت متعب، يا ولدي، ألا تحب المجيء معي؟ أنا لست متعباً؛ إذا ما شئت أن آتي أنا معك جئت أنا معك. أجل، ما عليك إلا أن تأتي. صعوداً، نزولاً، وديان، إنه طريق طويل، والوقت ظهراً، ها نحن هنا. انظر حولك يا بني، هناك محراب. أنا خائف يا أبت، ولم تخاف يا ولدي؟ أيقظتني في وقت مبكر وخرجنا، نسينا الكبش الذي أردنا ذبحه. أجل، نسينا هذا. صعوداً، نزولاً، الأودية الطويلة، هذا ما نسينا، الكبش لم يرافقتنا، هاك هو المحراب، إني خائف. عليّ أن اخلع المعطف، هل أنت خائف، يا بني؟ أجل، أنا خائف، يا أبتاه. أنا خائف أيضاً، يا ولدي، اقترب مني أكثر، لا تخف، علينا أن ننجز العمل. أي شيء ينبغي أن ننجزه؟ صعوداً، نزولاً، الوديان الطويلة، نهضت أنا في وقت مبكر جداً. لا تخف، يا بني، قم بذلك بطيبة خاطر، اقترب مني أكثر،

لقد خلعت المعطف، صار في وسعي إلا ألوث كمي بالدم بعد ذلك. الحق أني خائف لأن السكين معك. أجل، السكين معي، وعليّ أن أذبحك، عليّ أن أضحي بك، الرب يأمرني بذلك، ويطيب لي أن أفعل هذا، يا ولدي.

لا، لا أستطيع القيام بذلك، أنا أصرخ، لا تمسكني، لا أريد أن أذبح. الآن تجثو على ركبتك، لكن لا تصرخ يا ولدي. أجل، أنا أصرخ. لا تصرخ؛ إن كنت لا تريد فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك، لكن أرد أنت هذا. صعوداً، نزولاً، لماذا لم يعد ينبغي عليّ الذهاب إلى البيت. ماذا تريد في البيت، الرب هو أكثر مما في البيت. لا أستطيع، لكنني أستطيع، لا، لا أستطيع. اقترب أكثر، انظر، ها إن السكين معي، أنظر إليها، إنها حادة جداً، يجب أن توضع على عنقك. أينبغي أن تقطع بلعومي؟ أجل. ثم يتدفق الدم؟ أجل. الرب يأمر بذلك. أتريد هذا؟ ليس في استطاعتي بعد، يا أبتاه. بالله عليك تعال على الفور، ليس لي أن أقتلك؛ فإذا ما فعلت يجب أن يكون وكأنك أنت نفسك من فعل هذا. أفعل هذا بنفسني؟ واه. أجل، ولا تخف. واه. ولا تحب الحياة، حياتك، إذ إنك تحسبها عند الله. اقترب أكثر. الرب إلهنا يريد هذا؟ صعوداً، نزولاً، لقد نهضت في وقت مبكر جداً. ليس في نيتك أن تكون جباناً؟ أعرف، أعرف، أعرف! ماذا تعرف، يا ولدي؟ ضع السكين على عنقي، انتظر، أريد أن أردّ الياقة، فالعنق يجب أن يكون مكشوفاً تماماً. يبدو أنك تعرف شيئاً. ما عليك إلا أن تشاء وترغب، وأنا عليّ أن أنوي، ونحن كلانا سنؤدي هذا، ومن ثم سينادي الرب، وسنسمعه ينادي: توقفاً. أجل؛ تعال إليّ، مدّ لي عنقك. هاكه. لست خائفاً، يطيب لي أن أفعل هذا. صعوداً، نزولاً، الأودية الطويلة، ها هي السكين على العنق، اقطع، فلن أصرخ.

ويميل الابن بعنقه إلى الورا، ويتقدم الأب من ورائه، ويضغط على
جبينه، وباليد اليمنى يستلّ سكين الذبح. الابن يريد هذا. وينادي الرب. ليرتم
كلاكما على الوجه.

كيف ينادي صوت الرب؟ هاللويا. عبر الجبال، عبر الوديان. أنتما كتما
مطيعين لي، هاللويا. لكما أن تعيشا. هاللويا. توقف، إلقِ بالسكين في القاع.
هاللويا. أنا الرب الذي تطيعانه والذي يجب عليكما أن تطيعاه دائماً وتنفردا
بطاعته. هاللويا. هاللويا. هاللويا. هاللويا. هاللويا. هاللويا. هاللويا.
لويا، لويا، هاللويا، لويا. هاللويا.

«ميتسي، يا قطيطي، يا قطيطي الصغيرة، هيا آئبيني تائبياً شديداً.»
ويريد فرانس أن يجذب ميتسي إلى حضنه. «هالا قلت شيئاً. ماذا فعلت، الأني
تأخرت مساء أمس؟» «يا رجل، أنت، يا فرانس، أنت ما زلت تنكّد عيشك
بمن تخالطه.» «ولم؟» «على السائق أن يصعد بك السلم. وأنا أقول لك شيئاً،
لكن لا كلمة، وها أنت تستلقي وتنام» «أقول لك نعم، كنت في تيجل، أجل،
وحدي، وحدي، ولا أحد معي» «قل يا فرانس، أهذا حقيقة؟» «وحدي، ولا
أحد معي. كان لا بد لي من أن أنهي هناك بضع سنوات» «أما زال هناك شيء ما
بعد؟» «لا، كل شيء انتهى، إلا اليوم الأخير. أردت أن أرى هذا مرة أخرى،
ولهذا لا داعي لأن تمتعني مني، يا قطتي الصغيرة.»

تجلس بجانبه وتنظر إليه بشوق وحنو كعهدها؛ أنت، بالله عليك، لا
تشتغل بالسياسة» «أنا لا أشتغل بالسياسة» «لا تذهب أيضاً إلى الاجتماعات»
«أظنني لن اذهب أيضاً إلى هناك» «بعد ذلك تقول لي؟».

«أجل.»

ثمّ تضع ميتسي ذراعها حول كتف فرانس، وكان رأسها لصق رأسه،
ولا يقولان شيئاً.

ومن جديد ليس هناك من شيء أكثر قناعة ورضا من صاحبنا فرانس
بيركوبف الذي لفظ السياسة لفظ النواة. سيتهشم رأسه حين يناطحها. وها هو
يجلس في الحانات، يغني ويلعب الورق، وميتسي قد تعرفت إلى سيّد يكاد يكون
غنياً غنى صاحب إيفا، فهو يعدّها لها شقة ممتازة مؤلفة من غرفتين غير مفروشتين.
والشيء الذي تريده ميتسي لا يهرب من فرانس أيضاً. ذات يوم تفاجئه
إيفا في غرفته، ولم لا إذا ما شاءت ميتسي نفسها هذا، لكن يا إيفا، حين تحصلين
أنت فعلاً على شيء صغير، يا امرأة، حين أحصل أنا على شيء ما، فعجوزي
هذا يبني لي عشرة قصور، كان سيفآخر هذا.

الذبابة تدب عالياً، الرمل يسقط منها، عما قريب ستظنّ من جديد

الحق أنه ليس هناك الكثير للحديث عن فرانس بيركوبف، فالناس
يعرفونه. فما ستفعله خنزيرة حين تأتي إلى حظيرة الخنازير يستطيع المرء أن
يتصوره. إلا أنّ خنزيرة كهذه هي أحسن حالاً من الإنسان، ذلك لأنّ هذه
ليست إلاّ قطعة من اللحم ومن الشحم. وما يمكن أن يحصل لهذه أيضاً، ليس
بكثير، يقدمون لها العلف، وغاية ما ينتظرون منها أن تلد مرة أخرى، وفي نهاية
حياتها هناك السكين، وهذا ليس في النهاية بالأمر الفظيع والمثير أيضاً: فقبل أن
تلاحظ شيئاً - وأي شيء يلاحظه حيوان أعجم كهذه - يكون قد قضي عليها.
أما الإنسان فإنّ له بالنسبة إليكم عينين ينطوي فيهما الكثير وكل شيء فيهما
مبعثر؛ والشيطان قادر على أن يتصور هذا، وعليه أن يتصور [فله عقل رهيب]،
ما سيحدث له.

هكذا يعيش صاحبنا فرانس بيركوبف المدلل الأقطع البدين جداً والعزيز جداً روتينه اليومي المعهود في شهر آب الذي مازالت درجة حرارته معتدلة بين بين. وفرانس هذا يستطيع أن يجدّف بالذراع اليسرى أيها تجديف، ومن الشرطة لا يسمع أي شيء مع أنه لم يعد يخبر الشرطة بحضوره، فهؤلاء في القسم يصيّفون أيضاً، أي والله. ففي النهاية ليس لهذا الموظف أيضاً إلا ساقان، ولقاء بضع قطع من النقود يتقاضونها لن ينهكوا أنفسهم أيضاً، ولماذا ينبغي لأحدهم أن يطوف هنا وهناك ويبحث: ماذا عن فرانس بيركوبف، ما بيركوبف، بيركوبف بالذات، ولماذا ليس له إلا ذراع، قبل ذلك كان له ذراعان، فلنتركه يتعفن في الملفات، فالناس لهم هموم أخرى أيضاً.

الشوارع وحدها لها وجودها، وهنا يسمع المرء ويرى كل الألوان والأصناف، كل ما هبّ ودبّ، ويخطر ببال أحدهم شيء من ماضي الأزمان لا يرغب فيه، ثم تمرّ الحياة، يوماً بعد يوم، واليوم يأتي شيء ما، ثم يضيّعه المرء، وغداً يأتي شيء ما من جديد، وينساه المرء ثانية، ثم يحصل معه شيء ما على الدوام. فالحياة ستتحسن، يحلم هو، يغفو هو. عند ذلك يستطيع المرء أن يمسك في يوم دافئ من النافذة ذبابة ويجلس في أصيص وينفخ الرمل فوقها: فإذا ما كانت ذبابة حقيقية سليمة خرجت تدبّ ثانية، ولا يهمها شيئاً نفخ الرمل كلّها فوقها. هذا ما يفكر به فرانس بين الحين والحين، كيف يرى هو هذا وما يراه مغايراً، صحتي جيدة، لا شأن لي في هذا، والسياسة لا تهمني بشيء، وإذا ما كان الناس أغبياء إلى حدّ أنهم يسمحون باستغلالهم، فليس لي ذنب في ذلك ولا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك. من ذا الذي يجب أن يجهد فكره من أجل كل الناس.

عن الشرب لا عن غيره يجب أن تمنعه ميتسي بشدة، هذا هو موطن العلة عند فرانس. فهذا عنده حاجة متأصلة إلى الشرب، إنها مغروسة فيه وتظهر دائماً وأبداً. فهو يقول: بعد ذلك يزداد المرء شحماً ولحماً ولا يفكر كثيراً. أما هيربيرت فيقول لفرانس: «يا رجل، لا تفرط في الشرب. أنت محظوظ. انظر، ماذا كنت؟ بائع جرائد. الآن، ليس لك ذراع، والآن عندك ميتسي، رزقك ومعاشك، فلا تعود إلى الشرب ثانية كما في السابق عند إيدا» «هذا مستحيل، يا هيربيرت. حين أشرب، فإنه الفراغ، ليس غير. أنت تجلس، وماذا تفعل: تشرب، ثم تشرب كأساً أخرى ثم كأساً أخرى. وفضلاً عن ذلك، انظر إليّ، أنا أتحمّل هذا» «يا رجل، تقول إنك تتحمل هذا. لا بأس، لكنك ازددت بدانة، انظر إلى نفسك في المرأة، أية عينين لك؟» «أية عينين؟» «هلا لمست وتحسست، كيسين مثل رجل عجوز، كم عمرك بالله عليك، أنت تكبر نفسك بالشرب، من الشرب يشيخ الإنسان».

«دعنا من هذا. ما الجديد عندكم؟ ماذا تعمل، يا هيربيرت؟» «في القريب

العاجل يبدأ العمل من جديد، لدينا صبيان جديان، إنها يتأنقان في ملبسهما. هل تعرف كنوب الذي يستطيع أن يبتلع النار؟ أتدري، هو من أحضر الصبيين. يقول لهما: ماذا، أتريدان أن تشتركا معي؟ عليكما أن تظهرا ما لديكما من إمكانيات. هما في سن الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. إذن يقف كنوب في الجانب الآخر على ناصية دانتيغ ويراقب ما لدى هذين من إمكانيات. إنها يراقبان امرأة مسنة بعين الريية، فقد راقباها كيف راحت وأحضرت النقود من المصرف. كان هذان يجريان دائماً وراءها. ويخطر ببال كنوب، هذان يعطيانها في مكان ما دفعة خفيفة ومن ثم قبضة وعليها السلام. لا، هذان يترصدان بفارغ الصبر، ثم يمشيان في ركبها إلى حيث تسكن، ثم يقفان حيث تتمشى، المرأة العجوز، وينظران في وجهها. هل أنت مدام موللر، الحقّ أنّها تدعى هكذا، ومن ثمّ

يثرثران معها شيئاً ما إلى إن تصل الحافلة الكهربائية في الجانب الآخر، ومن ثمّ بهار في الوجه، وتطير الحقيبة، ويصفق الباب، وفي الجهة الأخرى من فوق الدام (جسر السكة الحديدية) يسبّ كنوب ويقول، كان هذا زائداً عن اللزوم بأن يكون على هذين أن يصعدا إلى الحافلة الكهربائية؛ قبل أن تفتح هذه باب البيت وقبل أن يعرف أحد هناك من كان الفاعل كان في وسعها الجلوس بهدوء في الحانة. فالمشي يجعلها مثاراً للشكوك» «هل نطاً وقفزا ولو على الأقل بعد قليل؟» «أجل. ومن ثمّ عمل كلاهما شيئاً آخر بينما كان كنوب هذا يعيّب هكذا: فقد أخذها معها كنوب ومن بعد ذلك حجرة حائط غير محروقة في الساعة التاسعة مساءً ووضعها في شارع روميتين قرصاً في متجر ساعات، باليد في الداخل وبدأ الجد. لم يحصل على شيء. الصبيان وقحان وقاحة خاصة، بقيا بعد ذلك في وسط الزحام واقفين. أجل، يمكن أن نحتاج إليهما» ويخفض فرانس رأسه: «صبيان جسوران» «ألا تحتاج إلى هذا» «لا - لا أحتاج إلى هذا. ولوقت لاحق لن أجهد نفسي في التفكير» «ما عليك إلا أن تترك الشرب، يا فرانس».

يرتعش وجه فرانس: «لماذا الإقلاع عن الشرب يا هيربيرت، ماذا تريدون كلكم مني. الحق أني لا أستطيع، أنا لا أستطيع، فأنا مشوّه ذو عاهة مئة في المئة» ينظر في عيني هيربيرت. كانت زاويتا فمه مشدودتين إلى تحت: «أنت تعرف، الجميع يعيبون عليّ، أحدهم يقول: ينبغي إلا أشرب، والآخر يقول، لا تذهب مع فيلي، وثالثهم يقول: يا رجل، ما عليك إلا أن تترك السياسة، ليس إلا» «السياسة، لا اعتراض لي على ذلك، أنت تستطيع هذا».

وعند ذلك يتكئ فرانس بظهره على الكرسي ثمّ أخذ ينظر المرة تلو المرة إلى صديقه هيربيرت ويخطر ببال هذا: تبدلت سحنة هذا، وتباعدت خطوط وجهه وهذا شخص خطير، وعهدنا بصاحبنا فرانس أنه طيب القلب. يهمس

فرانس ويدفعه بذراعه الممدودة: «جعلوا مني مشوّهاً ذا عاهة يا هيربيرت، وها أنت تراني لا أصلح لشيء» «كن راضياً وقنوعاً. قل هذا لإيفا أو ميتسي» «لملازمة السرير، أجل، أعرف هذا. أما أنت، فإنك لتساوي شيئاً، في حين تصنع أنت شيئاً ما والصبيان» «وأنت، إذا شئت استطعت أن تقوم بالتجارة وتبيع أيضاً وأنت أقطع» «لم يتركوا لي مجالاً. كما أنّ ميتسي كرهت أيضاً ذلك. فرضت رأيها عليّ» «إذن تصرّف. هيا ابدأ من جديد» «أجل، يجب البدء. توقّف وابدأ. لكأني كلب صغير: اقفز إلى فوق الطاولة، نطّ من على الطاولة، اقفز إلى فوق الطاولة».

هيربيرت يصبّ كأس كونيكا؛ يجب أن أُنّبّه ميتسي إلى شيء ما، فالولد مشكوك في أمره، وعليها أن تأخذ حذرهما منه، فقد يعود إليه غضبه مرة أخرى ويحصل ما حصل مع إيدا. ويلقي فرانس بكأسه على الطاولة: «إنني مشوّه ذو عاهة يا هيربيرت؛ انظر إلى الكم، لا شيء فيه. ما أدراك كم تؤلّمني الكتف في الليل، فلا أستطيع أن أنام» «اذهب في هذه الحال إلى الطبيب» «لا أريد، لا أريد، لا أريد أن أعرف شيئاً عن أي طبيب، ما زال عندي الكفاية من ماجديبورغ» «إذن سأقول لميتسي بأنّ عليها أن ترحل معك فتخرج في هذه الحال من برلين ويكون لك جوّ آخر» «دعني أشرب يا هيربيرت» هيربيرت يهمس في أذنه: «ستفعل بميتسي ما فعلته بإيدا!» وينصت فرانس: «ماذا؟» «أجل» «أبصر، انظر إليّ الآن، انظر إليّ الآن. ألم تستمد بعد ما في الكفاية من سنواتك الأربع. فرانس يكور قبضته أمام أنف هيربيرت. «يا رجل، أنت على مايرام؟» «لا، لست أنا، بل أنت!»

كانت إيفا تتنصت على الباب، تريد الانصراف، وتدخل بطقم بني فاتح

أنيق، وتلكم هيربيرت لكمة:

«دعه يشرب، يا رجل، أنت مجنون» «يا امرأة، ألا ترين، أينبغي أن تصل الأمور إلى ما كانت عليه في السابق؟» «أنت وقعت تحت سيارة، سدّ فاك».

فرانس ينظر صوب إيڤا محملاً.

بعد نصف ساعة يسأل هو ميتسي في حجرته: «ماذا تقولين، هل أستطيع أن أشرب؟» «أجل، لكن بدون إفراط في الشرب. بلا إفراط» «ربما تريدان أن تسكري معي أيضاً؟» «أجل، معك» ويهلل فرانس:

«أنت يا ميتسي تريدان أن تسكري معي، لم يسبق لك أن سكرت؟» «أجل. تعال، نريد أن نسكر. على الفور».

ها إنه صار واجماً محزوناً، الآن يرى فرانس كيف تتوهج، وهذا هو الشيء نفسه كما كان حديثاً حين بدأت مع إيڤا والطفل. وها هو فرانس يقف بجانبها، يا لها من فتاة حلوة، يا لها من فتاة طيبة، قصيرة هذا القصر بجانبه، في وسعه أن يجنّبها في سترته، وتطوّقه، ويحيط خصرها بذراعه اليسرى، وهنا - وهنا -.

وها هو فرانس قد راح، لثانية واحدة فقط. ذراعه يطوّق خصرها ويجمد تماماً. لكن كان عليه وهو مشغول الفكر أن يقوم بحركة ما بالذراع. وجهه في أثناء ذلك متحجر. قبض وهو شارد الذهن - على أداة خشبية صغيرة ومن فوق - وجه ضربة صوب ميتسي، تجاه قفص صدرها، مرة، مرتين. وكسر لها الأضلاع. المستشفى، المقبرة، مقبرة بريسلو.

فرانس يترك ميتسي، ولا تدري مابه، تستلقي بجانبه على الأرض، ويغمغم متدمراً ويهذي ويولول ويقبلها ويبكي، وتبكي هي معه ولا تدري لماذا. ومن ثم تأتي بكأس عرق. وما زال يقول: «لا، لا»، على أن هذا يسعد ويغبط، يا لله، يتسلى كلاهما، ويضحك هذان. ميتسي تأخرت عن الذهاب إلى

صاحبها المعجب بها، ما حيلة هذه البنت، إنها تبقى عند صاحبها فرانس، فهي لا تقدر على الوقوف فكيف بالسير. فهي ترتشف العرق من داخل فم فرانس، ويريد هو أن يسترجه، إلا أنه يسيل من أنفها. ثم يطلقان كركات ويشخر هو شخيراً عالياً في وضح النهار.

من أين تؤلني الكتف هذا الألم الشديد، فقد بتروالي ذراعي.

مّم تؤلني الكتف هذا الألم الشديد، تؤلني ألماً شديداً. إلى أين ذهبت ميتسي. تركتني هنا وحيداً كما أنا. بتروالي الذراع، عليه السلام، الكتف تؤلم، الكتف. كلاب ملاعين، بتروا ذراعي، فعلوها هؤلاء، الكلاب، كانوا هم الفاعلين، الكلاب، الذراع انبرت ولم يعبئوا بي. الكتف، الكتف تؤلني، وتركوا لي هذا عليه، لو استطاعوا القطعوا لي الكتف أيضاً، لو أنهم قطعوا لي الكتف أيضاً لما آلتني هذه، اللعنة. لم يقتلوني، هؤلاء الكلاب، لقد أخفقوا في هذا، لم يواتهم الحظ عندي في هذا، أولاد الحمير هؤلاء، أما الآن فالحال ليست على ما يرام، الآن يمكنكني أن أستلقي، وما من إنسان هنا، ومن ذا الذي يجب أن يسمع عجيجي المستمر: الذراع يؤلني ألماً شديداً، الكتف، كان من الأحكم لو أنّ هؤلاء الكلاب أكملوا عليّ دهساً. فأنا الآن نصف إنسان. كتفي، كتفي، لم أعد أحتمل، لعنهم الله، أبناء الجحاش هؤلاء، أبناء الجحاش، لقد دمروني، ما العمل، أين ميتسي، هنا أهملوني ولم يكثر ثوالي، آه يا ويلاه، آه وآه.

الذباة تدبّ تدبّ، إنها في الأبيص، الرمل يتساقط منها، لا يهتمها هذا، تنفضه عنها، تمدّ رأسها الأسود، تدبّ إلى الخارج.

في مكان على الماء تستقرّ بابل العظيمة، أم البغاء وكل الولايات في الدنيا؛ إنه لبادٍ للعيان كيف تستوي هي على ظهر حيوان قرمزي اللون ولها سبعة

رؤوس وعشرة قرون، وعليك أن ترى هذا. كل خطوة تخطوها أنت تسرها. نشوى هي من دماء القديسين الذين تنهش أجسادهم. هذه هي القرون التي تطعن بها، جاءت من القاع وتقود إلى الهلاك الروحي الأبدي، هاك انظر إليها، اللآلىء، اللون القرمزي، الأرجوان، الأسنان. كيف تكشّر عن أنيابها، الشفتان المكتنزان الغليظتان اللتان سال عنهما الدم، بهما شربت هي. العاهرة بابل! عينان سامتان صفراوان صفرة الذهب، عنق متدلّ! وكيف تضحك لك.

إلى الأمام. واثق الخطوة، قرع طبول وكتائب

انتبه. يا آدمي، حين تنزل القنابل يوجد قذارة، إلى الأمام، ارفع الساقين، بلا تردد على طول، يجب أن اخرج، إلى الأمام، أكثر من العظام لا يمكن أن يتكسّر عندي، هيا هيا هيا، واثق الخطوة، واحد، اثنان، واحد، اثنان، شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين.

ها إن فرانس بيبركوبف يسير على قدميه في الشوارع واثق الخطوة، شمالاً يميناً، شمالاً يميناً، لا يتذرع بأي تعب، لا حانة، لا شرب أيّ شيء، نريد أن نرى، رصاصة طارت في الاتجاه، نريد أن نرى هذا، هل تصيبي. هل أستلقي، شمال يمين، شمال يمين. قرع طبول وكتائب. أخيراً يتنفس الصعداء.

في برلين حركة. حين يسير الجنود في برلين على الأقدام، فليكن ما يكون، لا لشيء إلا بسبب كذا وكذا، لا لشيء إلا بسبب كذا وكذا.

في جحره الرطب القدر. جحر قدر، يا سلام لماذا، يا سلام لهذا، جحر رطب، يا سلام لماذا، يا سلام لهذا، يا سلام لا لشيء إلا بسبب كذا وكذا. يجلس راينهولد، الزبون من جماعة بومز، حين يسير الجنود في المدينة على الأقدام تطلّ الفتيات من النوافذ والأبواب، يقرأ الجريدة، شمال يمين، شمال يمين، هل هي لي

أم هي لك، يقرأ عن الألعاب الأولمبية، واحد اثنان، وأن لبّ القرع دواء للدودة الوحيدة. يقرأ هذا ببطء شديد، بصوت عالٍ مستهيناً بتلعثمه. حين ينفرد بنفسه تسير الأمور سيراً حسناً. فهو يقص لنفسه هذا الذي له علاقة بالقرع، حين يسير الجنود على الأقدام في المدينة، إذ إنه كان يعاني ذات مرة الدودة الوحيدة، وأغلب الظن أنه ما زالت عنده واحدة، وربما هي نفسها، وربما هي واحدة جديدة، فالدودة القديمة ولدت، يجب أن يجرب المرء لبّ القرع، ويجب أن تؤكل القشور مع اللب من دون كشط، والريح تهبّ إلى حيثما شاءت. مؤتمر لعبة ورق السكات في ألتنيرغ. لن أعب. رحلة حول العالم، المصاريف كلها ٣٠ بفينيكاً فقط كل أسبوع، الآن من جديد يا له من خداع مكشوف. حين يسير الجنود على الأقدام في المدينة تطلّ الفتيات من النوافذ والأبواب، أي لماذا أي لهذا، أي لا شيء إلا بسبب كذا وكذا وهلمّ جرا. يقرع الباب، ادخل.

انتفض واقفاً، سرّ، سرّ. راينهولد، اليد حالياً في الجيب، مسدس. رصاصة طارت في اتجاهنا، هل تستهدفني أم تستهدفك. لقد أطاحت به، إنه مطروح عند قدميِّ لكأنه قطعة مني. ها هو يقف: فرانس بيبركوبف، انبرت ذراعه، ذو عاهة، الرجل سكران، أم لا. إنه يتحرك، سأرميه بالرصاص.

«من سمح لك بالدخول إلى هنا؟» «مؤجرتك»، هجوم، هجوم. «هذه هذه الحمارة، هل هي مجنونة؟» راينهولد على الباب. «سيدة تيتش! سيدة تيتش! ما هذا؟ هل أنا في البيت أم إنني لست في الباب؟ حين أقول أنا لست في البيت، فأنا الساعة لست في البيت» «المعذرة، يا سيد راينهولد، ما من أحد قال لي شيئاً» «إذن أنا لست في البيت، يا لها من مصيبة. عندئذٍ يمكنك أن تقولي لي لا أعرف من أسمح له بالدخول».

«ومن ثمّ قلت أنت هذا لابتتي؛ فهي تمشي تحت ولا تقول شيئاً».

يقفل الباب، المسدس ثابت. الجنود. «ماذا جاء بك إليّ؟ ماذا أضع كلّ منا عند الآخر؟» يتلعثم. أيّ فرانس هو هذا؟ ستعرف هذا على الفور. فالرجل دهس ذراعه قبل مدة من الزمن، وكان هذا فيما مضى رجلاً مستقيماً، ويمكن إثبات هذا بشهادة، وهو الآن قواد، نريد أن نناقش هذا من بعد، من المعلوم. قرع طبول، كتائب، هيا بنا، والآن يقف هو هنا. «يا رجل، يا راينهولد، إنّ لديك مسدساً» «وبعد؟» «ماذا تريد أن تفعل بذلك؟ ماذا تنوي؟» «أنا. لا شيء!» «حسناً. في هذه الحال تستطيع أن تضعه جانباً» يضع راينهولد المسدس أمامه على المنضدة. «لمّ جئت أنت إليّ؟» ها هو يقف، ها هو ذا، لطمني هذا في الردهة، قذف بي إلى الخارج من السيارة، قبل ذلك لم يكن هو أيّ شيء على الإطلاق، كانت تسيللي لا تزال هنا، نزلت أنا السلم. يطلع هذا. القمر فوق الماء، قمر ساطع باهر في المساء، قرع نواقيس. الآن في حوزته مسدس.

«هلاً جلست يا فرانس، قل بالله عليك، هل شربت؟» وبما أنّ هذا يحملق هكذا حلقة فلا بدّ أن يكون ثملاً، فلا يستطيع هذا أن يتخلّى عن الشرب، سيكون هو هكذا، فهذا سكران، أما المسدس فهو معي. لا لشيء إلا بسبب كذا وكذا وهلمّ جرا. ها إنّ فرانس يجلس. ويجلس. القمر الساطع، الماء كلّه يتلألأ. الآن يجلس عند راينهولد. هذا هو الرجل الذي ساعده في الصديقات العشيقات، خلّصه وأراحه منهنّ الواحدة تلو الأخرى، ثمّ أراد أن يراقب له، على أنه لم يقل شيئاً، والآن أنا قواد، ومن يدري كيف ستسير الأمور مع ميتسي، هذا هو الواقع. على أنّ هذا كلّه محسوب حسابه. وخطر كل شيء على البال. شيء واحد فقط يحدث: راينهولد، راينهولد يجلس هنا.

«أردت أن أراك فقط يا راينهولد!» هذا ما أردته؛ أن أرى هذا، الرؤية تكفي، وها نحن نجلس. «هل تنوي أن تضغط عليّ، ماذا، أن تبتزني بالتهديد،

بسبب ما كان آنذاك؟ أليس كذلك؟» لم يحرك ساكناً، لم يطفرف ولم يرتعش. يا ولد، تمّ المشي على طول، ما هذا، يا لها من بضع قنابل. «ابتزاز، أليس كذلك؟ كم تريد؟ نحن مسلحون. وأنت قواد، نعرف هذا أيضاً» «هذا هو أنا. ما العمل بذراع واحدة؟» «إذن ماذا تريد؟».

«لا شيء، لا شيء على الإطلاق» ليس إلا الجلوس جلوساً صحيحاً، ليس غير، التمسك، هذا هو راينهولد، هكذا يسترق الخطأ ويتسلل تسلاً، إياك أن تتركه يهوي بك.

على أنّ رعدة سرت في أوصل فرانس. كان هناك ثلاثة ملوك، ساروا من المشرق، وكان معهم بخور، ولوحوأ به، ولوحوأ به على الدوام. إنهم يلقون أحداً ما بالبخور. ويسائل راينهولد نفسه: إما أن يكون الرجل ثملاً، في هذه الحال لا يلبث أن ينصرف، لا شيء غير هذا، وإما أنه يريد شيئاً ما، لا، هذا يريد شيئاً ما، لكن ماذا، إنه لا يريد أن يبتز، لكن ماذا؟ ويأتي راينهولد بقدرح من العرق ويخطر بباله، هكذا سأستدرج صاحبي فرانس، المهم إلا يكون هيربيرت أرسله إلى هنا ليستطلع ومن ثمّ يضيّعنا. وفي اللحظة التي يضع فيها كلا القدحين الأزرقين يرى هذا أنّ فرانس يرتعش. القمر، القمر الناصع البياض، إنه ارتفع ساطعاً فوق الماء، ثمّ ما من أحد يستطيع أن يرنو إليه، أنا أعمى، ماذا بي. انظر، هو منهك القوى.

هذا يبقى شجاعاً، لكنه خائر القوى ولم تعد لديه القدرة. في هذه الحال يتهج راينهولد ويتناول المسدس ببطء من على الطاولة ويدسه في جيبه ويصبّ ويرى ثانية: كفاً هذا ترتجفان، عنده ارتعاش، هو إنسان خامد مسلوب الإرادة، متبجح يخاف من المسدس أو مني أنا، وأنا لن أصيبه بأذى. وراينهولد هادئ

جداً جداً، لطيف، أجل. إنه لبهجة واغتياب حين يرى هذا يرتعش، لا، إن هذا ثمل، فرانس هذا، إنه خائف، قواه خائرة، وسيبرز على نفسه من بعد، أراد أن يقدم على التبجح أمامي.

وراح راينهولد يحكي عن سيللي لكأننا رأينا بعضنا بعضاً أمس، فهذه مرّت عليّ مرة أخرى، قبل بضعة أسابيع. أجل، يوجد شيء من هذا، حين لا أرى إحداهن مرة كل بضعة أشهر، فإنه سيكون في وسعي أن أحظى بها ثانية، إعادة عرض، إنه لأمر عجيب مضحك. ثمّ يذهب ويحضر سجاثر ومجموعة من اللوحات القبيحة، ومن بعد ذلك صوراً، سيللي فيها أيضاً، مع راينهولد.

ليس في مقدور فرانس أن يقول شيئاً، إنه يقصر نظره على يديّ راينهولد، على ذراعيه، فهو ليس عنده إلا ذراع واحدة، وبكلتا يديه ألقى به راينهولد تحت السيارة، ولماذا، آه لهذا، أما كان ينبغي أن أردى الرجل قتيلاً، يا ويلتاه، بسبب كذا وكذا فقط. هيربيرت يرى وأنا لا أرى هذا كلّ، ترى أي شيء أراه أنا، لا قدرة لي على أيّ شيء، لا قدرة لي على أي شيء إطلاقاً. الحق يجب عليّ، أردت أن أعمل شيئاً ما، لكن يا أسفاه، بسبب كذا وكذا فقط - لست برجل على الإطلاق، مصعة دجاج. يتراخي جسده ثمّ يرتجف من جديد، يبتلع كأس كونيك، وبعدها كأساً أخرى، هذا كلّ لا يجدي نفعاً، ومن ثمّ يقول راينهولد بصوت خفيض جداً جداً: «أنا، أنا، أودّ، يا فرانس، أريد أن أرى جرحك» يا إلهي بسبب كذا وكذا فقط. وإذا بفرانس يفتح سترته - هاك هو، ويريه الجدعة مع كمّ القميص، ويقلّص راينهولد وجهه اشمزازاً: يبدو مقرّفاً، فرانس يغلق السترة: «فيما مضى كان هذا أسوأ» ثمّ يتابع راينهولد النظر إلى صاحبه فرانس الذي لم يقل شيئاً ولا يستطيع شيئاً وهو بدين بدانة خنزير، ولا يستطيع أن يفتح فاه، وراينهولد يجب أن يتابع الابتسام لفرانس بشماتة ولا يتوقف.

«أنت، هل تحمل الكم دائماً هكذا في الجيب؟ هل تدسّه دائماً على هذا النحو أم إنّ هذا مخبوط؟» «لا، هذا، هذا أدسّه دائماً في الداخل» «باليدي الأخرى؟ لا، حقاً. هذا إن لم تكن ارتديت ملابسك بعد؟» «لا، تارة هكذا، وتارة أخرى هكذا؛ إذا ما كنت مرتدياً السترة لا تسير الأمور سيراً حسناً» راينهولد يقف بجانب فرانس، يشدّ بالكم. «لكن يجب عليك أن تحترس على الدوام بحيث لا تدسّه وتحشره في الجيب الأيمن. بعد ذلك يمكن لأيّ شخص أن يسرق شيئاً ما» «ليس مني» راينهولد لا يزال يمعن التفكير: «قل بالله، كيف تتصرف في حال المعطف، لا بد أن يكون هذا مزعجاً، كما أن فارغان» «إنه الصيف. وهذا لا يكون إلّا في الشتاء» «ستلاحظ من بعد، لن يكون جميلاً. ألا تستطيع أن تشتري ذراعاً اصطناعية، فحين تقطع ساق شخص من الأشخاص فإنه يركب أيضاً ساقاً اصطناعية» «ذلك لأنه لا يقدر على السير بغير ذلك.» «وإذا ما كان في إمكان المرء أن يربط ذراعاً اصطناعية بدا هذا أفضل» «لا، لا، يضغظ فقط.» «لو كنت مكانك لا شترت ذراعاً، أو لربما حشوت الكم. هلا جئت، ولنجرّب» «ولماذا، لا أريد، يا رجل.» «لا تمش هنا وهناك بمثل هذا الكم المتهدّل، سيبدو مقبولاً جداً، ولا داع لأن يلاحظ أحد» «مالي وذلك. أنا لا أريد» «هيا بنا، الخشب مستعار. انتبه، زوج من الجوارب أو قمصان في الداخل، انتبه.»

راينهولد يشترك، يخلع الكم الفارغ، يدخل يده فيه وهو عند كومودينته وبدأ يحشو فيه، جوارب ومناديل جيب. فرانس يدافع عن نفسه. «لماذا يا رجل، ليس هناك من متكأ. إنّه لسيان عندي. هلا تركتني» «لا. أستطيع أن أقول لك إنّ عليك أن تترك خياطاً يسوّي هذا، يجب شدّ هذا من قبل شخص، وتبدو مرة أخرى في مظهر حسن، فلا تمشي هنا وهناك بعاهة، وليس لك إلّا اليد في الجيب» وتسقط الجوارب مرة أخرى: «أجل، إنّ هذا عمل الخياطين. لا

أستطيع أن أحمّل ذوي العاهات، ذو العاهة إنسان لا يصلح لشيء. حين أرى شخصاً به عاهة أقول: الأفضل التخلص منه بالمرّة».

فرانس يسمع ويسمع، ليس كثيراً. الارتعاش يجتاحه من دون أن يريد هذا. إنه في مكان ما على الأليكس عند اقتحام المحل، كل شيء راح منه، ولهذا علاقته بالحادثة، إنها الأعصاب، هنا سنرى. على أنّ الأعصاب تستمر في التمزّق ويستمر الرجفان. قم بنا، هلمّ بنا، إلى تحت، وداعاً يا راينهولد، يجب أن أفرّ، واثق الخطوة، يمين، شمال، يمين، شمال، هالو مالا.

ثمّ يصل فرانس بييركوبف البدين إلى البيت وكان عند راينهولد، يده والذراع يرتعشان وما زال بدنه يقشعر، وتسقط السيارة من فمه عند مجيئه إلى البيت. ها هي ميتسي تجلس فوق عنده مع صاحبها المعجب بها وكانت تنتظر فرانس لأنها تريد أن تغيب مع صاحبها مدة يومين.

يسحبها جانباً. «أيّ نفع لي فيك؟» «ما حيلتي يا فرانس؟ يا إلهي يا فرانس، ما بك؟» «لا شيء». تخلّصي «سأعود مساء اليوم» «تخلّصي» أوشك أن يصرخ عالياً. عندئذٍ تنظر صوب العشيق، وتمنح فرانس قبلة عجل في مؤخر عنقه وتخرج. وتحت ترن الجرس على إيّفا: «إذا ما كان عندك وقت فتعالى بالله عليك إلى عند فرانس. ما به؟ لا أدري. هلاًّ جئت». لكن فيما بعد لا تستطيع إيّفا. هيربيرت يسبّ ويلعن معها طوال النهار ولا تقدر على المغادرة.

في أثناء ذلك يجلس صاحبنا فرانس بييركوبف، أفعى الكوبرا، المصارع الحديدي، وحيداً، وحيداً على انفراد. إلّا أنه يجلس إلى نافذته ويخربش بيده على حافة النافذة ويمعن التفكير فيما إذا لم يكن عبثاً في عبث وخطأً فاحشاً بغضاً أنه ذهب إلى غرفة راينهولد، فليذهب هذا إلى الجحيم، وإنه لعبث في عبث حين يسير

الجنود عبر المدينة، عبث هو، عناد، وفي هذه الحال عليّ أن اخرج، وعليّ أن أعمل شيئاً آخر. وفي أثناء ذلك يخطر ببالي، إني لأفعل هذا، عليّ أن اذهب إلى هناك، لن يتتابع الأمر على هذه الحال، فقد جعل هذا مني أضحوكة، فحشالي السترة، لا أستطيع أن أقول هذا لأيّ إنسان، وأن شيئاً من هذا القبيل قد حدث.

ويثبّت فرانس رأسه على حافة النافذة ويندفن وينجمل خجلاً شديداً: هذا ما أفعله، سكتّ عن هذا ويالي من غبي، يجب أن أرتعش أمام الرجل. كثر الزبد وتعاضم. فرانس يصرّ على أسنانه، كان سيقدر على تمزيق نفسه، وما أردت ذلك، والحق أني لست بجبان حتى لو أنّه لم يكن لي إلا ذراع.

عليّ أن اذهب إلى هذا. وبذل كل جهده. إنه المساء، وحيث إن فرانس بعيد غاية البعد وينهض من على الكرسي. وينظر حواليه في الغرفة، ها إن هناك عرقاً وضعتّه ميتسي، لن أشرب. يجب ألا أخجل من نفسي. فليمرّ عيني فرانس. أنا - سأذهب إليه. طق، طق، مدفع، بوق. إلى الأمام، إلى تحت، السترة مفتوحة، أراد أن يحشوها لي، وأنا جالس أمامه، عندئذ تبقى تعابير وجهي هادئة أيضاً.

برلين! برلين! برلين! مأساة في قاع البحر، غرقت غواصة. والبحارة اختنقوا. وحين يحتنقون يموتون، فلا يبالي بهم أحد، ويكون قد مضى الأمر وانتهى، وعليه العفاء، دعونا من هذا كلّه. مسير، مسير. طائرتان حريتان سقطتا. ثمّ صارتا تحت، ثمّ ماتوا، ما من داع لأن يبالي أحد بهذا، ما مات فات.

«مساء الخير يا راينهولد. أجل ها أنت ترى أي هنا من جديد» وينظر هذا إلى فرانس: «ومن سمح لك بالدخول هكذا ببساطة؟» «لي أنا؟ لا أحد. كان الباب مفتوحاً فدخلت ببساطة» «هكذا، ولا تستطيع أن تدق الجرس» «عندك لن أدق الجرس، فأنا لست ثملاً».

ومن ثمّ يجلس كلاهما وجهاً لوجه، يدخنان، ولا يرتعش فرانس بيبركوبف ويبقى صلباً ويسرّه أنه يعيش، وهذا هو أفضل يوم منذ أن وقع تحت السيارة، وكان هذا أفضل ما فعله منذ ذلك الحين: أن يجلس هنا، اللعنة، هذا جميل. وهذا أفضل من الاجتماعات وتقريباً أفضل - أفضل من ميتسي. أجل، هذا أجمل من كل شيء: هذا لن يصرعني.

ها إنّ الوقت هو الثامنة مساء حين يتفرس راينهولد في وجه فرانس: «فرانس، أنت تعرف حق المعرفة أنّ لكلّ منا بقية حديث مع الآخر وعلى ماذا اتفقنا. هيا قل ماذا تريد مني، ثمّ افصح عن ذلك».

«آية بقية حديث لي معك وعلام ينبغي أن أتفق معك؟» «بخصوص السيارة» «لا فائدة ولا عائدة من ذلك، ومن هذا لن ينمو لي ذراع من جديد. وبعديّ» «فرانس يضرب بالقبضة على المنضدة:» «ثمّ كانت الحال جيدة. لم يستمرّ الأمر معي على هذه الحال. كان لابدّ أن يحدث هذا» هيه هيه، قطعنا شوطاً لا بأس به، وكنا قد قطعنا شوطاً من زمن طويل. راينهولد يجسّ النبض: «أنت تقصد تجارة الشوارع» «أجل، وهذه أيضاً. كنت مجنوناً. حسناً، والآن عاد إليّ عقلي.» «والذراع تمّ بتره» «ما زال عندي ذراع، ثمّ ما زال عندي رأس وساقان أيضاً.» «ماذا تصنع؟ تدبّر وحدك الأمور أم مع هيربيرت؟» «بذراع واحدة لا أستطيع العمل.» «إنها أنت تعرف، أن تكون مجرد قواد، فهذا مملّ جداً».

ويفكر راينهولد وينظر إلى هذا كيف يجلس في مكانه بديناً كلّ هذه البدانة وقويّاً هذه القوة: أرغب في أن العب مع الولد. فهذا يتشبث بعناده ويقاوم. هذا يجب تحطيم عظامه. الذراع الواحدة لا تكفي عنده بعد.

وبدأ بالنساء ويحكي فرانس عن ميتسي التي كانت تدعى صونيا سابقاً، وهذه تكسب جيداً وهي بنت لطيفة. عندئذٍ يخطر ببال راينهولد: هذا جميل، سأخذ هذه منه ثم أرميه في الوحل كلياً.

إذ إنه وإن يأكل الدود التراب وي طرح هذا وراءه المرة تلو المرة فإنه يأكله من جديد المرة تلو المرة. وفي هذه الحال ليس في مقدور الحيوانات أن تعرف هواة ولا رحمة، وحين يملأ المرء جوفها اليوم وغداً لا بد أن تقوم بهذا ثانية وعليها أن تنهش. وهكذا هي الحال مع الإنسان ومع النار على حدٍ سواء. فحين تشتعل سيكون عليها أن تلتهم، وحين لا تستطيع أن تلتهم تنطفئ، يجب أن تنطفئ.

فرانس بيركوبف مبسوط من نفسه كيف استطاع أن يجلس هنا دونها ارتعاش وهدوء تام وفي سرور احتفالي كأنها ولد من جديد. وحين ينزل السلم مع راينهولد يجدها ثانية: حين يسير الجنود في المدينة، يمين، شمال فإنه لجميل أن تعيش، فهؤلاء كلهم أصدقائي، ما يجري هنا، هنا لا أحد يلقي بي أرضاً، وليحاول أحدهم. أيوه لماذا، أيوه لهذا، فالفتيات يطلن من النوافذ والأبواب.

«أنا ذاهب إلى الرقص»، يقول لراينهولد. ويسأل هذا: «هل ستأتي صاحبتك ميتسي معك؟» «لا، راحت مع ولي نعمتها لمدة يومين» حين تعود سأذهب معك» «حسناً، بسرور» «إيه، إيه؟» «حين أقول لك: هذه لا تقرصك».

فرانس مرح مغتبط جداً، فالمولود ولادة جديدة، السعيد، أمضى الليل كله بالرقص، أولاً في المرقص الحديد، ومن ثم في المرقص عند هيربيرت، وهؤلاء كلهم يفرحون ويبتهجون معه، أما هو فكان جلّ ابتهاجه مع نفسه، وأكثر ما يجب من أعمق أعماق قلبه وهو يرقص مع إيفا، يجب اثنين: أحدهما صاحبتة ميتسي التي كان يتمنى أن تكون معه هنا، والآخر هو - راينهولد. لكنه

لم يجزؤ على قول هذا. فالليلة الرائعة كلها حيث يرقص مع هذه وتلك، أحبّ هو هذين الشخصين اللذين لم يكونا حاضرين وهو سعيد معهما.

القبضة على المنضدة

هنا يرى كلّ من توسع في القراءة أيّ تحوّل طرأ: التحوّل إلى الورا، وانتهى هو عند فرانس. الحق أنّ فرانس بيبركوبف، القوي، أفعى الكوبرا، ظهر من جديد على المسرح. الأمر ليس سهلاً، لكنه هو هنا من جديد.

بدا هو أنه هنا حين صار قواد ميتسي وراح يتمشى هنا وهناك بحرية ومعه علبة سجائر ذهبية ومعمراً قبعة نادي مجدّفين. أما الآن فلم يكن هو حاضرًا كلّ الحضور إلّا عندما يهلل هكذا تهليلاً، ويتنفي عنده الإحساس بأيّ خوف. أما الآن فلم تعد تتمايل عنده أية سطوح، وذراعاه، حسناً هذا ما جرّ عليه ذلك. وقد تخلص بسلام من اللوثة العقلية. إنه الآن قواد وسيصبح من جديد مجرماً، لكنّ هذا لا يؤلمه، بل على العكس.

كلّ شيء هو كما في البداية. لكن سيتضح للناس أيضاً أنه ليس أفعى الكوبرا القديمة. إنه صاحبنا فرانس بيبركوبف المسن، ويرى المرء هذا، لا أكثر. في المرة الأولى يخدعه صديقه لودرز، وأسقط في يده. وفي المرة الثانية كان عليه أن يقوم بالمراقبة، لكنه رفض هذا، عندئذٍ رمى به راينهولد من السيارة ودّهب بساطة. والآن يكفي هذا فرانس، وكان سيكون هذا كافياً لكلّ إنسان بسيط. لن يصبح راهباً، لن يدمّر نفسه، سيحارب، لن يصبح قواداً ومجرماً فحسب، بل يعني الآن: السير قدماً. سترون الآن فرانس، لا كيف يرقص وحده ويشبع ويتهيج بحياته، بل في الرقص، في رقص الصلصلة مع شيء آخر. ويجب أن يبيّن هذا كم هو الأمر قويّ ومن هو أقوى، فرانس أم الشيء الآخر.

يميناً واحداً أقسمه فرانس بصوت عالٍ حين غادر تيجل واستطاع أن يضع قدميه ثانية: أريد أن أكون مستقيماً. لم يتركوه يفي بيمينه. الآن يريد أن يرى ما ينبغي عليه أن يقول ما بقي عنده من قول. يريد أن يسأل ما إذا ولماذا كان يجب أن يدهسوا له ذراعه. ربما، ومن يدري كيف تبدو الحال في الذهن عند شخص مثل هذا، ربما يريد فرانس أن يجلب ذراعه ثانية من عند راينهولد.



الهيئة العامة السورية للكتاب

الكتاب السابع

هنا تطير المطرقة، المطرقة صوب فرانس بيبركوبف.

بوسي أوول، المد العالي للأمريكان، هل يكتب اسم فيلما (Wilma) بالواو (W) أم بالفاء (V)؟

في ساحة ألكسندر يعملون ويواصلون العمل بطريقة غير متقنة. وفي شارع كونيك ناصية شارع فريدريش الجديد يريدون أن يهدموا البيت فوق متجر الأحذية سالاماندر، وفي الجوار يقوضون هم هذا. السير تحت قوس المترو أليكس يصبح صعباً على نحو هائل: إنه يتم تركيب أعمدة جديدة لجسر السكة الحديدية؛ وفي وسع المرء أن ينظر هنا تحت إلى نقب أحسن بناء جدرانه حيث تحط الأعمدة أقدامها.

من يريد الذهاب إلى محطة المدينة فعليه أن يصعد وينزل سلماً خشبياً صغيراً. الطقس في برلين أكثر برودة، وكثيراً ما تمطر السماء بغزارة، وتحت فإن للسيارات والدراجات النارية ما تكتوي بنيرانه، ففي كل يوم ينزلق بعضها، وفي أثناء ذلك تصادم، وهناك دعاوى تعويض عن الأضرار وغير ذلك، وكثيراً ما يقيء ناس مختلفون في أثناء ذلك، والسبب هو الطقس. هل تعرف المأساة المصرية، مأساة الطيار

بيزي - أرنيما؟ فقد استجوبته اليوم الشرطة الجنائية، إنه الفاعل الرئيسي في أثناء تبادل النيران في منزل العاهرة المسنة المستهلكة بوسي أوول، رحمها الله.

بيزي، إدمار، أطلق النار في شقة أوول في غير انتظام، فحالته، يقول الجنائيون، كانت دائماً غريبة جداً. ذات مرة في الحرب أسقطوه على الأرض من ارتفاع ١٧٠٠م، من هنا جاءت المأساة المصيرية للطيار بيبي - أرني، من ارتفاع ١٧٠٠م أسقطوه، خدعوه في إرثه، وباسم مستعار في السجن؛ والقضية الأخيرة تأتي من بعد. فحين أسقطوه يتوجه إلى البيت، وعندئذ يأخذ مدير تأمين منه ماله بالحيلة والخداع. أما الرجل فكان محتالاً، وهكذا انتقل المال بأبسط الطرق من الطيار إلى المحتال، وما عاد الطيار يملك مالاً. وبدءاً من هذه اللحظة يطلق بيبي على نفسه اسم بيبي أوكلير. فهو ينجل من عائلته لأنه ما زال غارقاً هكذا في الوحل. وهذا ما كشف عنه كلاً صباح اليوم رجال الشرطة في قيادة الشرطة ودونوه. ثم جاء أيضاً في هذا أنه سلك الآن سبيل الإجرام. ذات مرة حكموا عليه بالسجن مدة سنتين ونصف السنة، ولأنه سمى نفسه آنذاك كراخوفيل أبعد بعد ذلك إلى بولونيا. ومن ثم يبدو أن القصة البغيضة والغامضة بصورة خاصة مع بوسي أوول تطورت. هنا وفي ظل طقوس خاصة حري بنا أن نضرب عنها صفحاً فندعها جانباً عمّده بوسي، أوول هذه على اسم «فون آرني»، وما ارتكبه أيضاً ارتكبه على أنه فون آرني. في يوم الثلاثاء، الرابع عشر من آب سنة ١٩٢٨، زرع هكذا فون آرني رصاصة في جسد بوسي أوول، لماذا وكيف، فحثة القوم المنحطون تكتّموا فلم يفشوا الأمر، وهم لا يبوحدون بالسر ولو كانوا أمام الجلاد. إذ لماذا ينبغي عليهم أن يحكوا هذا للشرطة الذين هم أعداؤهم؟ المعروف عند الناس فقط هو أن الملاكم هاين له دوره في القصة، ومن يريد أن يكون خبيراً بالنفوس فقد خدع فظن: هذه كانت مأساة موضوعها الغيرة. أنا شخصياً على يقين من أنه لا مكان للغيرة في ذلك. أو إذا ما كانت غيرة، فالغيرة يكون أساسها المال، أما المال فهو الشيء الأساسي والأهم. بيبي،

تقول الجنائية، قد انهار كلياً؛ ومن يصدّق هذا يغبط ويسعد، فالشاب، في وسعكم أن تصدّقوني، هو، هذا إذا ما صدّقتموني، انهار هكذا على أكثر تقدير لأنّ رجال الشرطة ستتحري عنه الآن، وبصورة خاصة لأنه يفتاظ ويتضايق من أنه رمى أوول المسنة بالرصاص. إذ إنه من أين له أن يعيش الآن؛ ويخطر بباله: لو لم يسلبني الموت هذه المسكينة. وبهذا نعرف ما فيه الكفاية عن المأساة المصرية للطيار بيزي - آرنيم الذي سقط من علو ١٧٠٠ م، والذي خدعوه في إرثه وزجّ به في السجن تحت اسم مستعار.

المد العالي للأمريكان الذين يزورون برلين يتوقف. من بين الألوّف الكثيرة الذين يزورون العاصمة الألمانية يوجد أيضاً العديد من الشخصيات البارزة الذين قصدوا برلين لأسباب رسمية أو خاصة. وهكذا فإنّ سكرتير مدير البعثة الأمريكية لاتحاد أعضاء البرلمان الدولي د. كول من واشنطن يقيم هنا [فندق إسبيلينادي] والذي سيتبعه في أسبوع أيضاً عدد من الشيوخ الأمريكيين. وفضلاً عن ذلك سيصل في الأيام القادمة رئيس مصلحة الوزارة السابق لمكتب العمل في فندق إطفاء نيويورك، جون كايون، إلى برلين حيث سينزل مثل وكيل الوزارة السابق لمكتب العمل، دافيس، في فندق أدلون.

من لندن وصل كلود ج. مونتيفوري، رئيس الاتحاد العالمي لليهودية الدينية الذي سيعقد مؤتمره في برلين من ١٨ - ٢١ آب، وسينزل مع مساعدته المرافقة له السيدة ليلي هـ. مونتاغو في فندق إسبيلينادي.

بما أنّ الطقس سيّء للغاية فمن الأفضل أن نذهب إلى محلّ تجاري، إلى السوق المركزية المسقوفة، على أنّ هناك صخباً كبيراً، ويكاد المرء يداس من قبل عربات اليد، فأولاد الكلاب لا يصيحون بالمرّة. في هذه الحال فإنه لمن الأفضل

أن نتوجه إلى محكمة العمل في شارع تسيمر ونفطر هناك. فمن يهتم كثيراً
بكيانات صغيرة - وبعد فإنّ فرانس بييركوبف أيضاً ليس رجلاً مشهوراً -،
يطيب له أن يسافر أيضاً إلى الغرب، ويرى ماذا يوجد هناك.

الغرفة رقم ٦٠ محكمة العمل، مقصف؛ غرفة صغيرة نوعاً ما وفيها بار
وجهاز سريع لصنع القهوة؛ وعلى اللوحة كان مكتوباً «غداء: شوربة رز يتخللها
دقيق وبيض، لحم بقر ملفوف محمّر في الصلصة [ليس إلابنحو] مارك واحد.»
شاب بدين يضع نظارة عاجية يجلس على كرسي ويلتهم الغداء. ينظر المرء إليه
ويتبين له: لديه صحن يتصاعد منه البخار ويحتوي على لحم ملفوف محمّر في
الصلصة، صلصة وبطاطا أمامه وهو يهيمّ الآن في أن يلتهم كلّ شيء. عيناه
تنتقلان هنا وهناك فوق الصحن، وفي أثناء ذلك ما من أحد يأخذ منه شيئاً، لا
أحد يجلس في الجوار، هو وحده يجلس إلى الطاولة، لكن في قلق، يقطع ويضغط
على طعامه ويدسّه بسرعة في الفم، واحد، واحد، واحد، واحد، واحد، وبينما هو
يعمل، واحد إلى الداخل، واحد إلى الخارج، واحد إلى الداخل، واحد إلى الخارج، واحد إلى
الخارج، وبينما هو يقطع ويهرس ويلتهم في نهم ويشمشم، يتذوق ويبلع فإنّ
عينيه ترابان البقية التي تتناقص أكثر فأكثر في الصحن، تحرسانه من حوله مثل
كليين عضّاضين وتقدران حجمه. واحد آخر إلى الداخل، واحد آخر إلى
الخارج، نقطة، انتهى الآن، الآن ينهض، خاملاً وبديناً، فالرجل أتى على كلّ
شيء ببساطة، كما أنه يستطيع الآن أن يدفع أيضاً. ويدسّ يده في جيب السترة
العلوي ويتلمّظ: «يا أنسة، كم الحساب؟» ثم يخرج اليدين ويلهث ويشخر
ويرخي حزام البنطلون من الخلف لكي يأخذ البطن مكانه جيداً. فهذا يحشو في
بطنه كيلو ونصف على أقلّ تقدير، وليس هذا إلاّ مأكولات. الآن يتدبّر العمل
بذلك في بطنه، وعلى البطن أن يقوم بما ألقاه الرجل في جوفه، فالأمعاء تترجرج

وتتأرجح، وهذا يتلوّى ويلتهم مثل الدود، وتعمل الغدد ما تستطيع أن تقوم به من عمل، فهي قذفت بعصارتها في داخل هذا الشيء، تقذف مثل رجال الإطفاء، من فوق ينساب اللعاب، الرجل ييلع، ويصب هذا في الأمعاء، وعلى الكليتين يحدث الهجوم، كما في المتجر في أثناء أسبوع عيد الميلاد، رويداً، رويداً، عجباً، ها إن قطرات صغيرة تسقط في المثانة، قطرات صغيرة تتبعها قطرات. مهلاً، يا بني، مهلاً، عما قريب ستسلك السبيل نفسه، هنا رجوعاً إلى الباب حيث كتب عليه: للرجال. هذه هي الدنيا.

وراء الأبواب يتفاوضون. الخادمة فيلما، كيف اسمك، خطر ببالي. اسمك بحرف فاء، ها هو مكتوب هنا، حسناً، نريد أن نعمله هنا بحرف واو. صارت وقحة جداً، فقد أساءت الأدب، احزمني متاعك ثم هيا اخرجي؛ فهناك شهود على ذلك. لا تركب هي هذا، فعندها الكثير الكثير من الكرامة. حتى السادس، بما فيه ثلاثة أيام فرق، أنا على استعداد لأن ادفع عشرة ماركات، زوجتي طريجة الفراش في المستشفى. في إمكانك الادعاء، يا آنسة، هناك في الخصومة ٢٢ ماركا و ٧٥ بفينيكاً، على أنني أؤكد أنني لا أستطيع أن أحتمل هذا كله في النهاية» ابن حرام، حيوان حقير، في هذه الحال يمكن استدعاء زوجتي حين تستيقظ، فالمدعية نفسها صارت فظة غليظة. ويتصالح الطرفان الصلح التالي.

السائق بابكي وموزع الأفلام فيلهيلم توتسكي. أي شيء هو هذا، هو موضوع على المنضدة. إذن فلتكتب: موزع الأفلام فيلهيلم توتسكي شخصياً، لا، ليس معي إلا توكيل منه، حسن، وأنت عملت سائقاً، إذن لوقت قصير نسبياً، واصطدمت بالسيارة، اجلب لي المفاتيح، فقد سببت إذن حادثاً بالسيارة، ما قولك في ذلك؟ في الثامن والعشرين كان يوم الجمعة، وكان من المفروض إحصار الرئيسة من مسبح أدميرال، وكان هذا في شارع فيكتوريا، ويمكن أن

يشهدوا أنه كان ثملاً للغاية. وكان هو معروفاً في الناحية كلها أنه سكير عرييد. وبيرة رديئة لا أشربها أنا بكل الأحوال، فقد كانت سيارة ألمانية، والتصليح يكلف ٣٨٧,٢٠ ماركا. أي اصطدام كان هو؟ في لحظتها أنزلت أنا، وليس هناك كابح رباعي، بعجلتي الأمامية إلى عجلته الخلفية. كم شربت في اليوم، ستكون شربت على الفطور، جئت إلى المدير رئيس القسم، هنا أحصل أنا على طعام، فالمدير رئيس القسم يعني بأمر المستخدمين أيها عناية لأنه إنسان لطيف. كما أننا لن نجعل الرجل مسؤولاً أيضاً عن الضرر وملزماً بالتعويض عن الضرر، إنما الإخطار الفوري بدون إنذار؛ ارتكب هو مثل هذه الأخطاء نتيجة السكر؛ أحضر رديء متاعك؛ إنه ملقى في القذارة في شارع فيكتوريا. عندئذ قال المدير رئيس القسم عبر الهاتف: هذا قرد كبير، فقد حطم السيارة، لم تستطع أن تسمع هذا، أجل، جهازك يعلو الصوت فيه إلى تلك الدرجة، إن لم يكن عند الرجل ثقافة أخرى، وفضلاً عن ذلك اتصل هاتفياً، أنا سرقت العجلة الاحتياطية. رجائي أن تسمع أقوال الشهود. لا أفكر بذلك على الإطلاق أنكما كليكما في الذنب سواء، المدير رئيس القسم قال ثور أم قال قرد، بالاسم الشخصي، فلتصالح بـ ٣٥ ماركا، الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، ما زال هناك وقت، يمكنك الاتصال به، ويحتمل أن يأتي إلى هنا في الساعة الواحدة إلا ربعاً.

أمام الباب تحت في شارع تسيمر تقف فتاة، مرت هنا مجرد مرور، وترفع المظلة عالياً وتضع رسالة في صندوق البريد. جاء في الرسالة: عزيزي فرديناند، تلقيت رسالتك كليهما بامتنان. لكنّ ظني خاب فيك جداً، لم يخطر ببالي أنّ الأمر سيأخذ منحى مثل هذا معك. والآن، عليك أن تقول أنت بالذات، لكي نرتبط ارتباطاً وثيقاً فنحن كلانا ما زلنا شاينين بما فيه الكفاية على ذلك. وأعتقد أنّ عليك أن تدرك هذا في النهاية. ربما ظننتني فتاة مثل كل الفتيات، لكن هنا

خاب أملك يا عزيزي. أم إنك ربما ظننت أنني زيجة غنية؟ على أنك هنا أيضاً ضللت الطريق. فما أنا إلا ابنة عامل. أقول لك هذا لكي تستطيع أن تستهدي بذلك. ولو أنني عرفت ما سيتمخض عن هذا لما بدأت بالكتابة على الإطلاق. إذن الآن تعرف أنت رأيي، واستهد بذلك، وعليك أن تعرف كيف ستكون الحال عندك. مع التحيات أنا.

إحدى الفتيات تقعد في المبنى نفسه، مبنى متقاطع، في المطبخ؛ الأم ذهبت لتبتاع حوائجها، والفتاة تكتب خفية في دفتر يومياتها، هي في السادسة والعشرين من عمرها، عاطلة عن العمل. جاء في آخر ما دونته في العاشر من تموز: منذ أمس بعد الظهر تتحسن صحتي من جديد، أما الأيام الجميلة الطيبة فهي الآن أيام قلائل على الدوام. لا أستطيع أن أفضي ما في نفسي لأي إنسان على نحو ما أريد. لهذا قررت الآن أن أدون كل شيء. حين تحصل لي حالاتي فلا أكون قادرة على أي شيء، فأبسط الأمور وأتفه الأسباب تسبب لي صعوبات كبيرة. فكل شيء أراه بعد ذلك يبعث في داخلي دائماً أفكاراً جديدة، ولا أتخلص من هذه، ومن ثم أكون أيضاً منفعلة غاية الانفعال فلا أستطيع أن أجبر نفسي إلا بصعوبة للقيام بأي شيء. قلق داخلي عظيم يتخطفني، ومع هذا لا أنجز شيئاً. فعلى سبيل المثال: في الصباح الباكر حين أستيقظ لا أرغب في النهوض على الإطلاق، على أنني أجبر نفسي على ذلك وأشجع أنا نفسي بالذات. على أن ارتداء الملابس يكلفني مشقة بعد ذلك ويستغرق وقتاً طويلاً لأن تصورات كثيرة تجول في خاطري من جديد. وتعذبني الفكرة دائماً أن أكون فعلت شيئاً على غير وجهه وسببت بهذا ضرراً. وفي كثير من الأحيان حين أضع قطعة فحم في المدفأة، وتطلع شرارة في أثناء ذلك أرتعب أنا ويكون علي أن أفحص بعدئذ كل شيء في ما إذا كانت النار هبت أيضاً. وإني لأخشى أن أدمر نفسي بهذا، وأن ينشب في

غفلة مني هكذا حريق. وعلى هذا النحو تكون الحال طوال النهار؛ فكل ما ينبغي أن أقوم به يبدو لي صعباً جداً، وإذا ما أجبرت نفسي من بعد ذلك على القيام بذلك استغرق هذا وقتاً طويلاً رغم الجهد الذي أبدله. وعلى هذا النحو يمرّ اليوم، ولا أكون أنجزت شيئاً لأنّ عليّ أن أديم التفكير طويلاً في كل شغل. حين أتخبط بعد ذلك في الحياة رغم كل جهد، أياس عندئذٍ، وأبكي بكاءً حاراً بعد ذلك. حالاتي كانت دائماً على هذه الشاكلة، وظهرت أول ما ظهرت في الثانية عشرة من عمري. وعدّ أبواي كلّ شيء تصنعاً وتمثيلاً. وفي الرابعة والعشرين حاولت أن أنهى حياتي، بسبب هذه الحالات، إلا أنني أنقذت. آنذاك لم أكن مارست أية علاقة جنسية وعقدت رجائي على هذه، لكن للأسف من غير طائل. فلم تكن لي علاقة كبيرة بصورة خاصة وفي الفترة الأخيرة زهدت في ذلك لأنني أحس أنني جسدياً أيضاً ضعيفة جداً.

الرابع عشر من آب. منذ أسبوع ساءت حالتي جداً من جديد. لست أدري ما مصيري إذا ما بقيت على هذه الحال. أظنّ أنه لو لم يكن عندي أحد في الدنيا ما كنت سأرى حرجاً في أن أفتح صنوبر الغاز عليّ، لكنني لا أستطيع أن أوذي أُمّي بذلك. على أن أكثر ما أتمناه حقاً هو أن أصاب بمرض خطير أموت به عندئذٍ. كتبت كل شيء على نحو ما يبدو لي في حقيقة الأمر.

المبارزة تبدأ! إنه جوّ مطير

لكن لم وبأي وجه [أقبل أنا يدك، أيتها السيدة، أقبل أنا]، بأي وجه، تارة تفكّر، تفكّر، هيريرت بالقبقاب الخشبي يفكّر في حجرته، وردّت السماء وردّت، ليس في إمكان أحد أن ينزل، والسجائر خلصت، ولا نتفة سيجارة بقيت في البيت، ولم لا تمطر السماء إلا في آب، الشهر كلّه يولي الأديبار عن أحد

ما، وهو يمضي ممطراً مثل لا شيء، بأي وجه يذهب فرانس الآن إلى راينهولد ويهذي ويهذي بهذا؟ [أقبل أنا يدك، أيتها السيدة، وزيجريد أونيجين بعينها ولا أحد غيرها أبهجت بأغنيتها حتى تخلى عن الموضوع كلياً، وجازف بحياته فكسب حياته بذلك] سيعرف لماذا، لأي سبب، سيعرف هو، ثم تمطر السماء دونما توقف، في إمكانه أن يأتي إلى هنا أيضاً.

«يا رجل، أمن أجل هذا تشغل أنت فكرك، فلتنبسط ياهيربيرت أنه ترك السياسة القديمة - إذا كان هذا صديقه، ربما» «ما هذا، يا إيفا، صديقه، ضعي نقطة يا آنسة، فأنا أعرف أكثر. هذا يريد شيئاً من ذلك، يريد شيئاً - لكن لم وبأي وجه، فالبيع تسمح به الإدارة العامة بحيث إن السعر يجب اعتباره مناسباً».

«أن هذا ليريد شيئاً ما، وما يريده هذا ولماذا يدور ويلفّ هنا وهناك ويهذي ويثرثر دائماً بهذا: - فهذا يريد أن يحضر شخصاً من هناك! يريد أن ينجب طفلاً حلواً هناك، انتبهي يا إيفا، وحين يكون عالقاً يعمل هو «طنة ورنّة»، ما من أحد يعرف كيف كان هذا» «أعتقد هذا؟» «ليس على وجه التقريب يا امرأة» المسألة واضحة، أقبل أنا يدك، أيتها السيدة، يا لهذا المطر. «كلارا الصغيرة (كليرشين)، يا أنت، كلارا الذهبية الصغيرة (غولدكليرشين)» «هل تعتقد ياهيربيرت؟ كان هذا بالنسبة إليّ أيضاً رهيباً بعض الشيء أن يتركهم شخص ما يدهسون له ذراعه ومن ثم يذهب هو أيضاً إليهم» «كلارا الصغيرة (كليرشين)! حصل! أنا أقبل. أنت ياهيربيرت، أتعني هذا حقاً أنه لا ينبغي أن يذاع له من الأمر شيئاً، وأن تتظاهر وكأننا لم نلاحظ شيئاً وأنا عميان؟» «نحن غيبان، ما أسهل هضمنا» «أجل، ياهيربيرت. هذا هو الشيء المناسب معه، فلتصرف، يجب علينا. يا له من شخص غريب عجيب.» تم السماح بالبيع من قبل الإدارة

العامة بحيث يكون السعر المحقق، لكن لأي سبب، لأي سبب، إنعام الفكر،
إنعام الفكر، المطر.

«انتبهي، يا إيفاء، في إمكاننا إلا نبوح بالسرّ، لكن علينا أن نتتبه، لكن ماذا
تقصدين إذا ما أدرك الذين عند بومز ما يدور في الخفاء؟ حسن؟» «إني لأقول،
خطر ببالي اللحظة، يا إلهي، لماذا يذهب إلى هناك بذراع واحدة» «لأنّ هذا
جميل. الانتباه، ليس إلا، بكل الحواس، وميتسي أيضاً» «سأقول لها هذا. ماذا
نستطيع أن نفعل في مثل هذه الأحوال؟» «يجب إلا يغيب هذا عن ناظرنا،
فرانس هذا» ليت زبونها الشيخ يمنحها وقتاً «يجب أن تهجره» «إنه يتكلم على
الزواج» «هاها (شيء مضحك). في هذه الحال ما عليّ إلا أن أسترّد أنفاسي
للحظة. ماذا يريد هذا؟ وفرانس؟» «هذا هراء، فلتترك هي هذا الزبون الشيخ
يهذي، ولم لا» «الأحرى بها أن تتتبه على فرانس. فهذا سيتتقي خصمه عند
العصاة، انتبهي، ذات يوم سيأتي أحدهم ميتاً بالدهس» «يا لطيف يا ساتر،
يا هيربيرت، هلاً كفت» «يا أنت، يا إيفاء، ليس من داع إلى أن يكون فرانس.
إذن يجب على ميتسي أن تتتبه» «سأهتم أنا أيضاً بذلك. أنت تعرف أنّ هذا
لأسوأ من السياسة بكثير» «لا تفهمين يا إيفاء. هذا ما لا تفهمه امرأة، يا إيفاء،
أقول لك، إنها البداية مع فرانس. الآن يتنشط».

أقبل يدك، يا سيدتي، حصل على الحياة بالقوة، كسب الحياة بأن خاطر بها كل
المخاطرة، عندنا هذه السنة شهر هو آب، انظري، السماء تمطر بغزارة، تمطر بشدة.

«ما مطلبه عندنا؟ قلت إنه مجنون، إنه لمغفل، أجل قلت له، إن لم يكن
للمرء إلا ذراع واحدة، وأراد أن يلعب معنا. وهو» بومز: «حسن، ماذا قال
عندئذ؟» «ما يقوله هو: فهذا يضحك ويبتسم في استهزاء ابتسامه عريضة،

وهذا مغفل وأي مغفل، لا بد أن يكون عقله اختلّ من أيام زمان. أظن أنني لا أسمع جيداً. ماذا، أقول أنا، بذراع واحدة؟ ما هذا، ولم لا. بيتسم مستهزئاً ابتسامة عريضة، لديه من القوة ما فيه الكفاية في الذراع الأخرى، عليّ أن أرى، يستطيع أن يرفع، أن يطلق النار، لا بل أن يتسلّق إذا ما اقتضى الأمر.»

«هل هذا صحيح؟» «لا يهمني. إنه لا يعجبني. هل سنأخذ شخصاً مثل هذا؟ أنت على سبيل المثال، يا بومز. هل يمكننا أن نحتاج بعد إليه في أثناء العمل. وخاصة حين أرى هذا بوجهه، وجه ثور، لا، كُفّ.»

«حسن، إذا كان هذا رأيك. لا مانع. يجب الذهاب الآن يا راينهولد لجلب سلّم» «لكن سلّم متين، حديدي أو أي شيء من هذا القبيل. لمزاولة الأعمال القدرة أو الانتهاء بسلام. وليس في برلين» «أعرف.»

«والبكرة. هامبورغ أو لايبزيغ.» «سأستفسر» «وكيف تأتي بها إلى هنا؟» «دعني أقم أنا بهذا» «هذا لن آخذه، إذن، أي فرانس؟» «يا راينهولد، فيما يتعلق بفرانس، فأنا أعتقد أنّ هذا لن يكون إلّا عبئاً علينا، لكن في هذه الحال لن نهتم بهذا، اتفق أنت وحدك معه» «مهلاً، يا رجل، أيعجبك وجه هذا؟ تصوّر، أنا أرميه من السيّارة، ويصل هذا، هنا فوق، أظنّ: عندي في الرأس شيء غير سليم، هذا المخلوق يقف، تصوّر، هو ليس بغبّي ويرتعد فرقا، ولم يصعد هذا المغفل بادئ ذي بدء إلى فوق. وبعد ذلك بيتسم مستهزئاً ابتسامة عريضة، ويريد أن يشارك مهما كلف ذلك من ثمن» «والآن اتفق أنت معه كما تشاء. دعني اذهب» «ربما كان في نيته أن يشي بنا، أليس كذلك» «من المحتمل أن يكون ذلك أيضاً، يمكن أن يكون ذلك أيضاً. أنت تعرف، الأخرى أن تريحني من هذا الشخص. هذا هو الأفضل، عمت مساء» «هذا سيغدّر بنا، أو

عندما تظلم الدنيا يصرع أحدهم بالرصاص» «عمت مساءً، يا راينهولد، يجب أن أنصرف. السلم».

ثور ذو قرنين، بيبركوبف هذا، إلا أنه يريد شيئاً مني. ويمثل المنافق المرائي. يريد أن يتقرب مني أو شيء من هذا. إنما أنت ملفوف لفاً خاطئاً حين تظن أنني لا أعمل شيئاً. سأتركك تتعثر بكعب حذائي. عرق، عرق، عرق، عرق، أيدي ساخنة تصنع العرق، جميل. العمه باولا طريحة الفراش وتأكل البندورة. صديقة ناشدتها بإلحاح بأن تفعل ذلك. إذا ما اعتقد هذا أنّ عليّ أن أهتم به فحنح لسنا تأميناً ضدّ إصابات العمل. فليذهب وإن لم يكن له إلا ذراع واحدة، وعليه أن يلصق طوابع. (إنه يجر خطاه هنا وهناك في الحجرة وينظر إلى الزهور) ها إنّ هنا أصصاً والمرأة تتلقى ماركين علاوة في أول كل شهر، وتستطيع أن تسقي الزهور، كما سيبدو هذا ثانية، رمل ليس غير. يا لهذه البنت الغبية الساذجة، بليدة كسلانة، لا يسعها إلا أن تتلع المال ابتلاعاً. يجب أن أستدرجها لإفشاء السرّ. كأس عرق أخرى. تعلمت هذا منه. قد أصطحب أنا هذا القواد، مهلاً، في إمكان هذا أن ينتظر إذا ما شئت. أتظنّ أنني أخشاه. هكذا تبدو يا كارل الصغير. في إمكان هذا أن يأتي. لا يحتاج هذا إلى نقود، كارل هذا، لا تنطلي عليّ حيلة هذا، ها هي ميتسي، كما أنّ هذا العفريت ما زال هنا أيضاً، هيريرت المتبجح، التيس المسن، ها إنه يجلس بين ظهرانيهم، في حظيرة الخنازير. أين هو الحذاء، به سأحطّم له ساقيه. فلتقرب، من صدري، يا قلبي. دائماً صوبه، لصقه، يا ولد، قريباً من دكة الكفّارة، عندي دكة كفّارة، يمكنك أن تكفّر وتتوب.

ويجر خطاه في أرجاء غرفته وينقّط بإصبعه على أصص الزهور تنقيطاً خفيفاً، الكلفة ماركان وهذه لا تسقي. على دكة الكفّارة، يا ولدي، إنه لجميل

أن تأتي. بعد جيش الإنقاذ، في هذه الحال سأوصل هذا أيضاً، ولتوجه إلى شارع درسدن، وهناك يجب أن يوضع على دكة الكفارة، هذا الخنزير ذو العينين الزجاجتين، القواد، البهيمة، إنه لبهيمة، ها إنه يجلس في صدر المكان، الحيوان، ويصلي، وأقف موقف المتفرج، هذا مدعاة إلى الضحك الشديد.

ولماذا لا ينبغي وضعه على دكة الكفارة، فرانس بيركوبف هذا؟ أليست دكة الكفارة المكان الذي يناسبه؟ من يقول هذا؟

بأي شيء يعاب على جيش الإنقاذ، من أين لراينهولد، وراينهولد بالذات أن يتناول على جيش الإنقاذ، حيث كان كارل نفسه فيه، وأي شيء أقوله، في كثير من المرات، على الأقل خمس مرات سيراً إلى شارع درسدن، وفي أية حال، وساعده. إذن، عندها كان يلهث عطشاً، وهؤلاء أصلحوا من شأنه، وطبيعي لا لكي يكون وغداً سافلاً على هذه الصفة.

هَلُّويا، هَلُّويا، شهد فرانس هذا، النشيد، النداء. السكين وصلت إلى عنقه، فرانس، هَلُّويا. ويقدم عنقه، يريد أن يبحث عن حياته، عن دمه. دمي، باطني ودخيلة نفسي، هكذا بان الأمر أخيراً، كانت سفرة طويلة إلى أن حدث الشيء، يا إلهي، كان هذا صعباً، ها هو، إني أدركتك، لماذا لم أرغب في أن أكون على دكة الكفارة، لو أنني جئت في وقت مبكر، أه، ها إني قد وصلت.

لماذا لا ينبغي على فرانس أن يكون على دكة الكفارة، متى ستأتي اللحظة التي سيرتمي فيها أمام موته الرهيب ويفتح الفم ويحرق له بأن يغني مع آخرين كثيرين وراءه:

تعال، أيها الخاطيء، إلى المسيح، أوه، بالله عليك لا تتردد، استيقظ، أنت أيها المرتبط، استيقظ واقترب من الضوء، بخلاص تام يمكنك أن تحظى،

بنفس اليوم، هلاً آمنت، النور يغمر الصدر بعدئذٍ والسرور، الجوقة: إذ إنّ المسيح الظافر المنتصر بيده الجبارة يقود إلى النصر، يقود إلى النصر بيده الجبارة. موسيقاً! نفخ في البوق، دوى إلى ما لا نهاية. هذا يحطّم كل رباط ويقود إلى النصر بيد جبارة. ترارا، تراري، ترارا! إلى ما لا نهاية.

فرانس لا يستسلم، إنهم يضايقونه دائماً، وهذا يسأل عن الربّ لا الناس لكأنّ الإنسان سكران. ينسلّ إلى حجرة راينهولد مع إخوان بومز الآخرين الذين لم يرغبوا به. على أنّ فرانس يضرب من حوله ويلوّح لهم مهدداً بالقبضة التي بقيت له ويصرخ: «عندما لا تصدقونني وتعتبرونني مخادعاً خائناً وأريد أن أشي بكم فكفوا في هذه الحال عن فعل الشيء. هل أنا في حاجة إليكم حين أريد أن أفعل شيئاً؟ أستطيع أن اذهب أيضاً إلى هيريرت وإلى حيث أشاء» «عجل إذن» «سارع! هل هنالك من لزوم، أيها القرد، لتقول لي «عجل». انظر إلى ذراعي، أنت، وها قد رماني هذا، راينهولد، من داخل السيارة، لكن بدفعة واحدة. تحمّلت أنا هذا، وها أنا الآن هنا، ومن ثمّ فإنه ليس عليك أن تقول «هيا سارع إلى ذلك». عندما آتي إليكم وأقول: أنا سأشترك معكم سيكون عليكم أن تعرفوا من هو فرانس بيركوبف. فهو لم يخدع بعد أحداً، وفي إمكانك أن تتقصي حيث شئت. أنا لا أبالي بما كان، فالذراع انبرت، وأنا أعرفكم، هنا أفأنا، وهذا هو السبب، وربما تعرف أنت الآن» السمكري القصير لم يفهم بعد. «أتمنى أن أعرف فقط لماذا تريد الآن في نفس الوقت، وأنداك أخذت تتنقل بالجرائد هنا وهناك في ساحة أليكس، كان المفروض أن يأتي إليك أحدهم قائلاً: اشترك معنا».

يعتدل فرانس في جلسته في كرسيه ولا يقول شيئاً لوقت طويل، وهؤلاء أيضاً لا يقولون شيئاً. أقسم هو أن يكون مستقيماً، ورأيتم أنتم كيف كان

مستقيماً طوال أسابيع، على أن هذا لم يكن إلا إمهالاً قضائياً. سيتورط في جرائم، هو لا يريد هذا، يدافع عن نفسه ويقاوم، الأمر فوق طاقته، لا بد مما ليس منه بد. يجلسون طويلاً ولا يقولون شيئاً.

ثم يقول فرانس: «إذا أردت أن تستفسر من هو فرانس بييركوبف فما عليك إلا الذهاب إلى شارع لانديسبيرغ بعد كيرشهورف، فهناك ترقد واحدة. وبسبب هذه قضيت أربع سنوات. كان لا تزال لي ذراعي السليم الذي فعل ذلك. ومن ثمّ بعث الجرائد. ظننت أنني سأكون مستقيماً وعلى خلق حسن».

ويتنهد فرانس تنهدة خفيفة ويبلع ريقه: «درس لي وعبرة، أنت ترى هذا. وحين تفقد هذا تتوقف عن بيع الجرائد وعن أكثر من ذلك. لهذا جئت أنا إلى هنا» «علينا أن نعمل لك الذراع من جديد لأننا نحن حطمانا» «لن تقدرنا على ذلك. يا ماكسي، يكفيني أنني أجلس هنا ولا أتجول هنا وهناك في ساحة أليكس. أنا لا آخذ على راينهولد أي مأخذ، أسأله عما إذا كنت قلت شيئاً مرة واحدة. حين أجلس في السيارة، ويكون هناك مشتبه به أعرف أيضاً ماذا أفعل. والآن لا نريد أن نستزيد من الحديث عن حماقتي. فإذا ما ارتكبت أنت في مرة من المرات حماقة يا ماكس فأنا أتمنى لك أن تتعلم أيضاً شيئاً من ذلك»، وبهذا يتناول فرانس قبعته ويخرج من الغرفة. هكذا كان الأمر إذن.

في هذا يقول راينهولد ويصبّ لنفسه كأس عرق من كوز الجيب الخاص به: بالنسبة إليّ انتهى هذا الأمر إلى غير رجعة. فإذا ما قويت أنا على هذا أول مرة فسأقوى عليه أيضاً في مرات قادمة. في وسعكم القول إنها لمجازفة أن تبدأ هنا مع هذا. لكن أولاً هو غارق جداً في ذلك: «قواد هو، ويعترف هو نفسه بذلك، وأن يكون مستقيماً، فقد انتهى هذا عنده. يبقى السؤال: لماذا يذهب إلينا

وليس إلى هيربيرت الذي هو صديقه. لست أدري. أمور غريبة تخطر ببالي. على أية حال سنكون أغبياء إن لم ننته من سيد كهذا اسمه فرانس بيركوف. فليشترك براحة وهدوء عندنا. فإن كان غداراً خائناً تلقى ضربة على أم رأسه. ها أنا أقول الساعة: ليأت هو» وعلى هذا يأتي فرانس.

فرانس اللص، فرانس ليس ملقى تحت السيارة، إنه يجلس الآن فيها، في أعلى الأعالي، وصل إلى الهدف

في مطلع آب يستكين للراحة الذين يطلق عليه اسم السادة المجرمون ويكونون في وضع احتياطي مشغولين بالاستجمام والأعمال الصغيرة. وفي طقس جميل نوعاً ما فإن المرء لن يهّم بالسطو بصفة خبير واختصاصي أو أن يجهد نفسه على الإطلاق. فهذا يتولاه المرء في الشتاء، إذ إن المرء لا بد أن يخرج من جحره. فرانس كيرش على سبيل المثال، محطم خزانات المال المشهور، هرب قبل ثمانية أسابيع، في بداية تموز، مع آخرين من سجن زونيبورغ، والاسم لا يمكن أن يكون جميلاً إلى هذا الحد إلا أنه مناسب بعض الشيء لأغراض استجمام بالذات، وقد استجم هو في برلين، وأمضى ثمانية أسابيع هادئة لا بأس بها، وقد يفكر بعمل ما. وكان ثمة صعوبة، هكذا هي الحياة. يجب أن يقود المرء حافلة كهربائية. ويأتي رجال الشرطة الآن في نهاية آب إلى راينكيendorf الغربية وينزلون من الحافلة، وينتهي الاستجمام، ولا حيلة له ولا طول. على أن كثيرين كانوا في الخارج، وهؤلاء سيبتدون إذن ببطء.

لكن قبل هذا أقدم بسرعة حالة الطقس وفق تقارير المصلحة العامة للأرصاد الجوية لمدينة برلين. حالة الطقس العامة: منطقة الارتفاع الجوي الغربية بسطت تأثيرها حتى وسط ألمانيا وسببت تحسناً في الجو بصورة عامة.

والقسم الجنوبي من منطقة الارتفاع الجوي ستعود قوته إلى التناقص. لا بد لنا إذن من أن نحسب حساباً إلى أن تحسن الطقس الطارئ لن يستمر. في يوم السبت ستؤثر منطقة الارتفاع الجوي في طقسنا أيضاً، وسيسود طقس جميل نوعاً ما. على أن منطقة ضغط منخفض تنشأ الآن فوق إسبانيا ستؤثر على نحو حاسم في مجرى طقسنا.

برلين وضواحيها: غائم جزئياً وصحو جزئياً؛ حركة الهواء ضعيفة، درجات الحرارة ترتفع ببطء. في ألمانيا: في الغرب والجنوب غائم، في بقية ألمانيا غائم إلى صحو، في الشمال الشرقي رياح عاصفة بعض الشيء، عودة دفء تدريجية.

بهذا الطقس الشديد الاعتدال تتحرك عصابة بومز ببطء، وصاحبنا فرانس معها، وكذلك السيدات اللواتي انضمنا إلى المجموعة رأين من الخير أن يتمشى أصحابهن المعجبون، إذ إنهن في إمكانهن أن يمشين بعد ذلك في الشارع، وما من واحدة منهن تحب أن تفعل ذلك إذا لم يطلب منها في لحظتها أن تفعل ذلك. حسن، يجب قبل كل شيء دراسة السوق وإيجاد مشترٍ، إذا لم تمش حال الملابس الجاهزة فيجب التحول إلى الفراء، فالسيدات يظنن أنه صنع في لحظتها، وهؤلاء يفعلن دائماً الشيء نفسه، فمثل هذه الصنعة سرعان ما يتم تعلمها، لكن أن تهين نفسك للظروف حين تسوء الحالة الاقتصادية، فهؤلاء لا يكون عندهن أي تفهم أو حسن تقدير لذلك، وفي هذه الحال لا يستطعن أن يشاركن في الحديث.

تعرف بومز على سمكري له دراية بمنفاخ الأوكسجين الآلي، إذن هذا صار عندنا، ثم كان هناك تاجر فاشل ذو مظهر أنيق، إلا أن هذا التعيس عاطل عن العمل، ولهذا طردته أمه، أما الخداع والمكر فهو قادر على ذلك، وهذا يعرف متاجر، وفي الإمكان إرسال هذا إلى أي مكان، وفي وسعه أن يستطلع المكان

ويهيئ لزهة. يقول بومز لمحاربي مجموعته القدماء: «في الحقيقة لسنا في حاجة إلى أن نحسب حساباً للمنافسة، فهذا موجود بطبيعة الحال عندنا كما في كل مكان، فلا نزعج أو نضايق أنفسنا. لكن عندما لا نعبأ بالناس الطيبين الأخيار الذين يتقنون صنعتهم وأي جهاز هو هناك، عندها نخسر بطبيعة الحال. في مثل هذه الأحوال يمكن أن يلجأ المرء بكل بساطة إلى السرقة، ولهذا لا نحتاج إلى ستة رجال لنكون أقوياء، بل إلى ثمانية، ويستطيع كل واحد أن يعمل لنفسه».

بما أنهم لا يفكرون الآن إلا بالملابس الجاهزة والفراء فيجب أن يُحْتَمَى على العمل كل من له ساقان، وأن يجد متاجر كهذه حيث يمكن بيع هذه الأشياء بسهولة دون أن يتعرض المرء للأسئلة الكثيرة وحيث لا يتفقد الأمن الجنائي أيضاً على فوره. وإنه لفي الإمكان تغيير كل شيء، لا بل يمكن خياطته بطريقة مختلفة، وفي نهاية الأمر لن يكون هناك من سبيل أيضاً إلا وضعها موزعة. بادئ ذي بدء هو الإيجاد.

والحق أن بومز لن يقوى أبداً على صاحبه المستر على المجرم في فايسينزي. حين يعمل شخص ما كما يعمل هذا فلا يمكن أن يزاول المرء معه أية أعمال. عش ودع غيرك يعيش. حسن. لكن بما أنه يدعي أنه خسر في الشتاء الماضي - يقول هو - لأنه ادعى الخسارة، وكانت عليه ديون واستمتعنا في الصيف، لهذا السبب ولكي يطلب من أحدهم متأخراً مالاً ويولول أمام شخص ما بشيء ما: أنه خسر في المضاربة! ومن ثم فقد خسر في المضاربة، في هذه الحال هو إنسان غبي وجحش، تاجر رديء، لا دراية له بالتجارة، هذا الرجل، إذن فهو لا يصلح لنا. وما علينا إلا أن نبحث عن واحد آخر. وطبيعي أن القول أسهل من الفعل، لا بد من ذلك. ولا يهتم بمثل هذا في العصابة كلها

إلا صاحبنا بومز المسنّ. وإنه لغريب عجيب، وفي كلّ مكان حيث يسمع المرء يهتمّ الأولاد الآخرون أيضاً بذلك، بما ستصير إليه البضاعة، إذ إنه ما من أحد شبع بعد من السرقة وليس غير السرقة؛ يجب أن يستحيل هذا إلى نقود أيضاً، لكن، إذن، فإنهم كلّهم يتكاسلون عند بومز فقط ويقولون: «يا بومز، هذا هو هنا، هذا سيتصرف» إذا ما صار فعل أيضاً. لكن ماذا يجري إن لم يستطع بومز؟ هه! بصورة دائمة لا يستطيع بومز أيضاً. يمكن أن يحدث لبومز شيء ما في مرة من المرات. فهو ليس إلا إنساناً أيضاً ومن ثمّ يمكنكم أن تروا، أجل، إلى أين بهذا، يمكنكم أن تروا، لا السطو كله. في هذه الأيام لا تسير الأمور في العالم كلّها بالأزامل والمنفاخ الآلي، اليوم يجب أن يكون كل شيء تاجراً.

لهذا السبب لا يهتمّ بومز أيضاً بمنفاخ الأكسجين الآلي فحسب، كما قد حان الحين في مطلع الليل، بل بمن يشتري مني بضاعتي. وبهذا بدأ في آب. وإذا أردت أن تعرف من هو بومز: إنه الشريك الموصّي بخمسة محلات فراء صغيرة، حوانيت فرائين - أين، لا يهتمّ -، ومن ثمّ أعطى هو فوق البيعة نقوداً على بضع غرف كوي، أمريكانية، تحتوي على لوح في الواجهة يكوى عليه، وخياط بكمين يقف بجانبه، وهذا يطبق الألواح بصورة دائمة إلى فوق وإلى تحت، ويتصاعد البخار منه، أما في الخلف فالبدلات تكون معلقة، أجل، الأمر يتوقف على هذا بالذات، هذه هي البدلات وعليها يتوقف الأمر ومن أين يجيء المرء بهذه، حسن، ها إنّ هناك بدلات وعليها يتوقف الأمر ومن أين يأتون بها، حسن، ها إنهم يقولون: من الزبائن، فهؤلاء جاؤوا بها أمس من أجل الكي والتغيير، ها هي العناوين، فإذا ما دخل شرطي للتحقق فكلّ شيء سليم وصحيح. هكذا احتاط صاحبنا بومز الطيب البدين للشتاء، وفي هذه الحال ليس علينا إلا أن نقول الآن يمكن أن تبدأ الأمور. فإذا ما حدث شيء ما

فما من إنسان يمكن أن يحتاط لكلّ شيء؛ بدون قليل من الحظ لا يمكن شيء.
وفي هذا لن نجهد أنفسنا بالتفكير.

فلنواصل الآن. إذن إنه مطلع أيلول، وصاحبنا الصعلوك الأنيق الذي هو أيضاً مقلد لأصوات الطيور - لكننا لن نشهد هذا -، ويسمّي نفسه هذا الوغد فالديهار هيللر، وبالفعل لا يساوي هو مثقال ذرة، وقد استطلع في شارع كرونين وفي شارع فال الحديد عند كبار صناعة الملابس الجاهزة حيث يمكن الحصول على شيء ما. إنه يعرف المدخل والمخرج، الباب الأمامي والباب الخلفي، من يسكن فوق ومن يسكن تحت، من يغلق وأين تكون ساعات تحديد الوقت (دخول وخروج العاملين)، والنفقات يعوضها بومز. وذات مرة يجب على هيللر أن يأتي أيضاً مشترياً لشركة بوزين تأسست لتوها؛ أجل، يريد الناس أن يستفسروا قبل كلّ شيء عن الشركة البوزينية، حسن، في إمكانهم هذا، لم يكن في ودي إلا أن أعرف كم يبلغ ارتفاع السقف عندكم حين ينزل أحدٌ ما في المرة القادمة من فوق.

بهذه الجولة، عشية السبت ليوم الأحد يكون فرانس للمرة الأولى حاضراً. لقد فتح الله عليه. فرانس بيبركوبف، إنه يجلس في السيارة، كلهم يعرفون ما ينبغي عمله، له دوره مثلهم. فالأمور تسير تماماً كما يتطلب العمل: شخص آخر يجب أن يقوم بالمراقبة، هذا يعني: إنها ليست فعلاً مراقبة حقيقية، ثلاثة شبان تسللوا قبل ذلك في المساء في المطبعة إلى طابق أعلى وحملوا السلم والمنفاخ الآلي في صندوق إلى فوق من الوراء ووضعوهما وراء لفات ورق كبيرة، والسيارة تحرك بها أحدهم، وفي الساعة الحادية عشرة يفتحون للآخرين، ما من حمار يلاحظ شيئاً ما في البيت، إنها ليست إلا غرف مكاتب ومحلات. ثم يجلسون في سلام للعمل، أحدهم دائماً عند النافذة وينظر إلى الخارج، أحدهم

ينظر إلى الفناء ثم يتدثون بالمنفاخ على الأرضية على ارتفاع نصف متر في المربع الواحد، وهذا يؤديه السمكري بنظارة واقية. وحين يخترقون خشب السقف يقطعون، وتحت يحدثون ضجة، لكن ليس هذا بشيء، إنه فتات من زخارف جبسية سميكة سقطت أرضاً، والسقف يتصدع من الحرارة، يدخلون في الفتحة الأولى مظلة حريرية، ها إن الكتل تسقط فيها، هذا يعني، معظمها، ليس في وسع المرء أن يتلقفها كلها، تحت كل شيء شديد الظلام وهادئ.

في الثانية عشرة يتسلقون، أولاً فالديهار الأنيق لأنه يعرف المحل. ينزل من على السلم المصنوع من الحبال إلى تحت مثل قطة، ولأول مرة يقوم هذا الشخص بهذا، وليس عنده مثقال ذرة من الخوف، هؤلاء هم إذن ناس متهورون معدومو الضمير الذين هم أوفر الناس حظاً، وطبيعي إلى حين الإخفاق في الأمر. ومن ثم يجب أن ينزل أحدهم إلى تحت، السلم المصنوع من الحبال ارتفاعه ٢,٥٠م فقط ولا يصل إلى السقف، وتحت يسحبون الطاولات، وبعدها ينزلون السلم ببطء، وعلى أعلى طاولة يوضع، ها نحن قد وصلنا. فرانس يبقى فوق مستلقياً على البطن فوق الفتحة ويخطف بذراعه مثل صياد سمك لفات القماش الكبيرة التي يناولونها إلى فوق واضعاً إياها خلفه حيث يقف شخص آخر. فرانس قوي. راينهولد الموجود تحت مع السمكري يندهش لما يستطيعه فرانس. شيء مضحك. بذراع واحدة يدار شيء. فذراعه تمسك مثل رافعة، هذا قبلة رهيبة، قرمة خشب هائلة. وبعدها يجرون السلال إلى تحت. ومع أن أحدهم يراقب تحت عند مخرج البناء فإن راينهولد يشكل دورية. لمدة ساعتين، وبعدها يسير كل شيء سيراً حسناً، الحارس يطوف بالبيت، أي شيء، إلا أن تؤذي الرجل، فهذا لن يلاحظ أي شيء، سيكون من الغباء أن يتركهم يرمونه بالرصاص لقاء دربهات يحصل عليها، ها أنت ترى،

ها إنه ينسحب، إنه رجل مرتّب منظّم، سنبقى لهذا ورقة نقدية زرقاء عند ساعة تحديد الوقت (دخول وخروج العاملين) الخاصة به. ثمّ يكون الوقت الساعة الثانية، في الساعة الثانية والنصف تأتي السيارة. في أثناء ذلك يفطر الموجودون فوق أيما فطور، كل شيء إلا الإفراط في شرب العرق، بعد ذلك يحدث أحد ما فوضى، ثم تكون الساعة الثانية والنصف. رجلان ارتكبا اليوم مع العصابة أول جرم، أول عملية سطو، فرانس وفالديار الأنيق. بسرعة يرمي كلاهما قطعة معدنية ويربح فالديار، عليه أن يختم جولة اليوم، عليه إنزال السلم مرة أخرى إلى المستودع المظلم المنهوب، ها إنه يقرفص وينزل السروال ويطبّع على الأرضية بما هو موجود عنده في البطن.

وحين يفرغون السيارة في الثالثة والنصف يرتكبون على جناح السرعة جرماً آخر، فيعملون عملة سطو أخرى، إذ إننا لن نلتقي هكذا شاباً مرة أخرى، ومن يدري متى نلتقي على شاطئ نهر شبريه الأخضر. كل شيء يسير سيراً حسناً بسهولة ويسر. اللهم إلا في أثناء العودة فإنهم يدهسون كلباً، هذا بالذات يجب أن يقع لهم الأمر الذي ضايق بومز مضايقة جاوزت الحدود الطبيعية لأنه يجب الكلاب ويشتم هذا السمكري الذي يقوم بدور السائق، ففي وسعه أن يزمر، كلب كهذا طاردوه في الشارع لأنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب، ومن ثمّ تأتي أنت فتميته دهنساً. يضحك راينهولد وفرانس ضحكاً شديداً حين ينفعل الشيخ انفعالاً مفتعلاً على الكلب، الحق أنّ هذا ضعيف في عقله بعض الشيء. وهذا كان كلباً ثقيل السمع، لقد زمّرت، أجل، مرة، ومنذ متى يوجد كلاب سمعها ثقيل، ربما نعود أدراجنا وننقله إلى المستشفى، لا تهذ بالله عليك، حريّ بك أن تتبه، لا أستطيع أن أتحمّل هذا، فهذا يجلب الشؤم. وعلى هذا يكز فرانس السمكري في جنبه: هذا يقصد القطط. يضحج الجميع بالضحك.

ويمضي يومان ولا يحكي فرانس في البيت عما حدث وما كان. حين يرسل بومز إليه ورقتين من فئة المئة مارك وحين لا يكون في حاجة إليهما فإن في وسعه أن يعيدهما، عندها يضحك فرانس، إنه دائماً في حاجة إلى هذا، وإن كان عليّ أن أعطيها لهيريرت تعويضاً له عن ماجديبورغ. وإلى من سيذهب، من يرى أمامه في البيت، من إذن، من إذن، أجل، من بحق الله، من يا ترى سيكون؟ لمن، لمن حافظت أنا على نقاوة قلبي؟ لمن، لمن، لك وحدك، اليوم مساءً يواتيني، ولهذا أدعوك بجسارة، اليوم مساءً، أنا أناشدك بالله بأن يكون كلّ منا للآخر. ميتسي الصغيرة، صغيرتي ميتسي الذهبية، تبدو مثل عروس من الحلوى باللوز والسكر. والحذاء الصغير الذهبي، ها أنت تقفين وتنتظرين، أية متاعب يسببها صاحبك فرانس بالمحفظه. هذه يحشرها هو بين الركبة، ثم يسحب منها نقوداً، يضع أوراق مالية، ويناولها إياها، يضعها على المنضدة، ينظر إليها بعينين متألقتين وهو رقيق غاية الرقة معها بقدر ما يستطيع، الشاب الكبير، ويمسك أصابعها، يا للأصابع الصغيرة الرقيقة التي هي لها!

«وبعد، يا ميتسي، يا ميتسي الصغيرة؟» «ماذا يا فرانس؟» «لا شيء؛ أنا سعيد بك» «فرانس» تستطيع هذه أن تنظر، تستطيع هذه أن تلفظ اسماً. «أنا سعيد بك، لا شيء آخر. أنظري، يا ميتسي، إنّ الأمر لسخيف غاية السخافة في الحياة. الأمور معي تختلف عن الأمور مع الناس الآخرين. هؤلاء أمورهم جيدة، يسيرون هنا وهناك ويندفعون راكضين ويكسبون ويأخذون زيتهم. وأنا- أنا لا أستطيع أن أجاريهم. عليّ أن أنظر إلى جلدي. سترتي، كميّ، الذراع افتقدها» «فرانس، أنت يا عزيزي فرانس الطيب» «هلاً نظرت يا صغيرتي ميتسي، هكذا هي الحال الآن، لن أغيّر شيئاً، لا أحد قادر على أن يغيّر شيئاً، لكن إذا ما حملت هذا معك ومثل موضع مكشوف» «أي فرانس، أي شيء دهاك، أنا

ما زلت هنا، كل شيء ما زال على ما يرام. بالله عليك لا تبدأ بهذا مرة أخرى، «أنا لا أفعل ذلك. من أجل هذا بالذات، فأنا لا أفعل شيئاً» ويتسم لها من تحت في وجهها، وهذا الوجه الناعم الأملس المليح الذي كان لهذه الفتاة والعينان الجميلتان الذكيتان: «انظري ماذا على المنضدة، الأوراق المالية. كسبتها، يا ميتسي، - أنا أهبك إياها.» ماذا بك، لماذا انقلبت صورة وجهك، لماذا، انظري إلى النقود، إنها لا تعصّ، نقود حلوة وجميلة. «هل كسبتها؟» «أجل، انظري يا فتاة، توقفت. يجب أن أعمل وإلا ساءت أحوالي وأفلست. لا تحكي هذا لأحد، كان الأمر مع بومز وراينهولد، ليلة السبت. لا تقولي لهيربيرت ولا تقولي لإيفا أيضاً. يا أنت، لو سمع هذان، ففي نظرهما أنا ميت» «من أين لك هذا؟» «ارتكبنا جرماً، قمنا بسطو، يا صغيرتي، أقولها، مع بومز، أي شيء في هذا، يا ميتسي؟ وأنا أعطيك هذا. أأحظى بقبلة، ما قولك؟»

تضع الرأس على الصدر، ثم تضع خدّها على خدّه وتقبله، تمسك به ولا تقول شيئاً. لا تنظر إليه:

«أنت تهبني هذا؟» «أجل، يا امرأة، ومن غيرك إذن؟» هذه فتاة، إنها تمثل. «لماذا - تريد أن تعطيني مالاً؟»
«حسن، ألا تريدني أيّ مال؟» تحرك الشفتين وتترع نفسها من بين ذراعيه، الآن يرى فرانس: تبدو الآن كما كانت آنذاك في ساحة أليكس، حين جاء من آيشينغر، تشحب شحوباً شديداً، تهن قواها. عندئذ تجلس على الكرسي وتنظر إلى غطاء الطاولة الأزرق. ما المسألة الآن. النساء غامضات غير مفهومات. «أيتها البنت، ألا تريدني هذا، فقد سرني هذا، هيا انظري مرة أخرى، بهذا نستطيع أن نقوم برحلة، يا امرأة، إلى مكان ما» «هذا صحيح يا فرانس»

تضع الرأس على حافة المنضدة وتبكي هذه، هذه البنت تبكي، أي شيء طراً عليك؟ يمسح فرانس على عنقها بحنو وهو غاية في الطيبة الرقيقة تجاهها، غاية في طيبة القلب، لمن، لمن حافظت على نقاوة قلبي، لمن، لمن وحده. «يا فتاتي، يا عزيزتي ميتسي، إذا استطعنا أن نقوم برحلة ألا تريد، ألا ترغين في أن تسافري معي؟» «أجل»، ومن ثم ترفع رأسها، الوجه الأملس الحلو ومسحوق الزينة كله، صلصة مع الدموع وتمد ذراعها حول عنق فرانس وتضغط بوجهها الصغير على وجهه، ثم ترخي ذراعها بسرعة لكأن شيئاً ما عضها وتعاود البكاء فوق حافة المنضدة، على أن المرء لا يرى شيئاً من هذا، وتهدأ البنت هدوءاً تاماً، لا تظهر عليها أي شيء. أي خطأ أخطأته أنا من جديد، هذه لا تريدني أن أعمل. «تعال، ارفعي رأسك الصغير عالياً، هلاً جئت، يا سمكتي الصغيرة، لماذا تبكين؟» «أنت تريد، تريد،» وتميل عنه بسرعة، «تريد أن تتخلص مني، يا فرانس؟» «أعوذ بالله، يا بنت، ألا تريد يا فرانس؟» «لا، أعوذ بالله» «لماذا تلف وتدور إذن، ألا أكسب أنا لك بما فيه الكفاية» «ميتسي، ليس في ودي إلا أن أهديك شيئاً ما» «لا، لا أريد» ثم تضع الرأس ثانية على حافة المنضدة القاسية. «حسن يا ميتسي، ألا ينبغي لي أن أعمل شيئاً على الإطلاق؟ لا أستطيع أن أعيش هكذا» «أنا لا أقول هذا، أما إن كنت في حاجة إلى ذلك من أجل المال فقط. لا أريد هذا».

وتتصب ميتسي في جلستها وتضم صاحبها فرانس وتنظر في وجهه نظرات البهجة والغبطة وترسل القول كما تحب الذي هو مجرد هراء حلو وتتوسل وتتوسل: «لا أريد هذا، لا أريد هذا» ولماذا لم يقل أي شيء حين يريد شيئاً ما، لكن يا فتاتي، لدي نقود، لست في حاجة» ألا ينبغي أن أعمل شيئاً؟» «أنا أعمل، ولماذا أنا هنا موجودة يا فرانس» «لكن أنا - أنا...» وتعانقه. «آه، لا تتركني.» وتثرثر وتقبله وتستهويه:

«أهد هذا، أعط هيربيرت هذا يا فرانس» فرانس مغتبط غاية الغبطة عند الفتاة، يا لركة هذه وحساسيتها، في هذه الحال هو عاجز عن أن يقول شيئاً، كان هراء أنه قال لها شيئاً عن بومز. وبطبيعة الحال فهي لا تعرف شيئاً عن هذا. «أنت تعديني يا فرانس أنك لن تعود إلى هذا أبداً» «وأنا لا أفعل هذا أيضاً من أجل المال يا ميتسي» عندئذٍ يخطر ببالها ما قالتها لها إيفا، وأنّ عليها أن تتبته على فرانس. عندها اتضح لها الأمر أكثر وأكثر، ألا يفعل هذا حقاً من أجل المال وإلى أين بالذراع، عليه أن يفكر دائماً بذراعه. وصحيح ما يقوله عن المال، هذا لا يهيمه بشيء، فهذا يأتيه منها بقدر ما هو في حاجة إليه. وتفكر وتفكر وتحتضنه بذراعيها.

آلام الحب ولذة الحب

وفي الطريق إلى إيفا يقبلها فرانس. «جلب لي فرانس مئتي مارك. أتعرفين من أين؟ من هناك، أنت تعرفين حق المعرفة» «بومز؟» «أجل، قال لي ذلك بنفسه؛ ما عساي أن أفعل؟».

تستدعي إيفا هيربيرت إلى الداخل، كان فرانس مساء السبت مع بومز على الطريق. «هل قال أين؟» «لا، ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟» ويدهش هيربيرت: «عجباً، إنه يشارك معهم مباشرة.» إيفا: «هل تفهم هذا يا هيربيرت؟» «لا. عجباً» «ماذا نفعل الآن؟» «دعوه دائماً لما به. أنظنين أنّ المال يهمنّ هذا؟ في هذه الحال لك ما أقوله. إنه يقوم بالشيء بحدة وشدة، وعمّا قريب سنشهد شيئاً ما منه» تقف إيفا قبالة ميتسي المومس الصغيرة الشاحبة التي عثرت عليها في شارع الإنفاليدين، وهما كلتاهما تتذكر أين رأت كل منهما الأخرى في البداية؛ الحانة بالقرب من فندق بالتيكوم. إيفا تنزل فيه مع ريفي، لا تجد ضرورة في ذلك، إلاّ أنها تحبّ النزاهات الخاصة، ومن ثمّ فتيات كثيرات وثلاثة أو أربعة شبان. وفي

العاشرة تنطلق دورية شرطة جنائية المركز، والجميع إلى الجانب الآخر إلى قسم شرطة شتيتين، واحداً في إثر واحد إلى الجانب الآخر، سجائر في الفم، بلا حياء وبوقاحة لا مثيل لها. الشرطة تسير في الأمام وفي الخلف، وفاندا هوبريش الثملة، العجوز، طبيعي في المقدمة، ومن ثمّ الصخب والضجيج في الناحية الأخرى، وميتسي، صونيا تبكي عند إيّفا بكاءً حاراً لأنّ كل شيء ينكشف الآن في بيرناو، ثمّ يضرب أحد الشرطين السيجارة من يد فاندا السكرانة، وهذه تنسحب وحدها إلى زنزانة الحبس وتصفق الباب وتسبّ وتلعن في الداخل.

إيّفا وميتسي يتبادلان النظر، إيّفا تحثّ: «سيكون عليك أن تتبهي الآن يا ميتسي» تتوسل إليها ميتسي:

«ما عساي أن أفعل؟» «هذا شأنك، في هذه الحال يجب على المرء أن يعرف وحده ما ينبغي له أن يفعله.» «الحق أني لا أعرف» «كلّ شيء إلاّ البكاء والعويل، يا بنت» تتهلل أسارير هيريرت: «أقول لكم، الولد طيب، وما يسرني هو أنه باشر الآن، فهو لديه خطة. إنه مكار، غاية في المكر» «يا إلهي يا إيّفا» «لا تولولي، بلا ولولة وبلا عويل، يا بنت، أنا أنتبه أيضاً» أنت لا تستحقين فرانس فعلاً. لا، ليست هي هذه لكي تتصرف على هذا النحو. يا لهذه الطريقة السخيفة التي تولول بها هذه، الساذجة المغفلة. سأصنعها أيضاً صفة على وجهها.

أبواق! المعركة على قدم وساق، الكتائب تسير، الواحدة تلو الأخرى يا الله، يا الله، يا الله، المدفعية وسلاح الفرسان، سلاح الفرسان والمشاة، سلاح المشاة وسلاح الطيران، الواحد تلو الآخر يا الله، يا الله، يا الله، نحن ندخل بلداً معادياً. وعلى هذا قال نابليون: إلى الأمام، إلى الأمام، بلا توقّف، فوق جاف وتحت رطب. لكن إذا ما صار تحت جافاً استولينا نحن على ميلانو، ونلتم أنتم

وساماً، يا الله، يا الله، يا الله، ها نحن نرحف، وعمّا قريب سنكون هناك، يا لها من لذة أن تكون أنت جدياً.

ليس من داعٍ إلى أن تولول ميتسي طويلاً وتفكر بما ينبغي أن تقوم به. فالشيء يأتيها من تلقاء ذاته. ها إن رايهولد يجلس في حجرته مع صديقه الطريفة ويطوف بالمحلات التي رتبها بومز للبيع، وكان لا يزال عنده وقت ليفكر بشيء ما. يضيق الرجل بالملل بلا انقطاع، ولا يهتته هذا. حين يكون لديه مال فلا يهتته. كما أن السكر لا يهتته أيضاً، الأفضل لهذا أن يجر جر خطاه هنا وهناك في الحانة، ينصت ويعمل ويشرب القهوة. والآن يجلس حين يأتي إلى بومز أو حيث ينتهي به المطاف، دائماً وأبداً فرانس هذا حاضر مائل أمامه، هذا الغبي، الوقح ذو الذراع الواحدة، ويخرج الملعون البدين من الورطة بعد عناء ولما يكتف، ويقوم بدور المنافق لكأن الثور غير قادر على أن يمسّ ذبابة. وإنه لمؤكد مثلما أن ضرب اثنين باثنين يعطي أربعة فإن هذا يريد مني شيئاً ما. وهذا الوغد هو دائماً مبسوط، وحيثما أكون أنا وحيثما أعمل يكون هو أيضاً. حسن، في هذه الحال نريد أن نهيم لأنفسنا جوّاً. نريد أن نخلق جوّاً لأنفسنا.

لكن أيّ شيء يقوم به فرانس؟ هذا؟ حسن، ماذا سيعمل؟ يطوف في الأرجاء، هو في نظركم الراحة المطلقة والهدوء المطلق ما يمكن تصوّره. يمكنكم أن تفعلوا بالشباب ما تشاؤون، إنه يرتمي دائماً على ساقيه. هنالك مثل هؤلاء الناس، ليسوا بكثيرين، إنما موجودون.

في بوتسدام، هناك عند بوتسدام كان شخص ما، سموا هذا فيما بعد الجثة الحية. كان هو أيضاً مثل هذه النمرة. الرجل، شخص يدعى بورنيان، بلغ به أن راح يقضم سنوات سجنه الخمس عشرة، يفرّ، إذن يفر الرجل، وبالمناسبة لم يكن

عند بوتسدام، كان عند أنكلام، غوركي كان اسم المكان المقفر. هنا يعشرون على صاحبنا بورنيان في مشواره من نويغارد ميتاً يطفو على الماء، في نهر شبريه، ونويغارد، لا بورنيان من نويغارد يقول: «أنا في الحقيقة ميت»، ويتقدم ويدس أوراقه في جيب هذا، إنه الآن ميت. والسيدة بورنيان: «أي شيء ينبغي علي إذن؟ في هذه الحال ما من سبيل للقيام بشيء، فهذا ميت حتى لو أنه كان زوجي، الحمد لله أنه هو، لم نخسر مثل هذا الرجل، وأي نفع في هذا، نصف العمر يقبع شخص كهذا، فلتخلص من الأضرار، «صغيري أوتو، يا إلهي، إنه ليس بميت. إن هذا آتٍ إلى أنكلام، ولأنه انتبه لتوه أن الماء شيء جميل، ولأنه صار عنده الآن ميل إلى الماء صار تاجر أسماك، صار يتاجر بالسماك في أنكلام وصار اسمه فينكي. لم يعد هناك شخص اسمه بورنيان. إلا أنه تم القبض عليه رغم ذلك. ولماذا وكيف، هنا ينبغي لك أن تمسك نفسك على كرسيك.

لسوء الحظ فإن على ربيته أن تذهب إلى أنكلام في وظيفة، ولتصور المرء أين تكون الدنيا كبيرة بهذا الشكل وتنتقل هذه مباشرة إلى أنكلام، وتلتقي السمكة التي قامت من جديد، والتي كانت موجودة منذ ١٠٠٠ سنة، وخرجت من نويغارد، وفي أثناء ذلك كبرت فتاة كهذه وخرجت من بيتها، وطبيعي أنه لا يتعرف عليها على الإطلاق، أما هي فتعرفه. وتقول له: «على فكرة، أنت أبونا؟» ويقول هو: ويحك، ماذا دهاك؟» وحين لا تصدقه ينادي زوجته وأطفاله الخمسة بالتهام والكمال فهؤلاء يمكنهم أن يشهدوا على ذلك: «فينكي هو. تاجر أسماك.» أوتو فينكي، هذا ما يعرفه كل واحد في القرية. كل واحد يعرف هذا، السيد فينكي يدعى الرجل، الآخر الذي مات يدعى بورنيان.

أما هي، فلم يؤذها، وبهذا لم يثبت لها أي شيء. انصرفت الفتاة، أي شيء يعمل في دخيلة أنثى، الجنون يتملكها. فتكتب رسالة إلى برلين إلى الجنائية، القسم ٤أ: «اشترت من السيد فينكي عدة مرات، لكن بما أنني ربيته، فإنه لا يعتبر نفسه أبي ويخون أمي، إذ إن له خمسة أبناء من واحدة أخرى» فالأسماء الشخصية يحق للأطفال أن يحتفظوا بها في النهاية، أما من الخلف فهم مخدوعون. هوندت اسمهم، بإضافة دت، طبقاً لأهمهم، وكلهم معاً أطفال غير شرعيين تنطبق عليهم فقرة القانون المدني التي مفادها: إن طفلاً غير شرعي وأباه يعدان غير قريبين.

ومثلها هو فينكي هذا فإن فرانس بيروكوف هو في نظركم الراحة المطلقة والهدوء المطلق. فالرجل هاجمه وحش ذات مرة، وقضم له ذراعاً، لكن بعد ذلك أتبه أنه يدخن وينفخ ويدب خلفه. ما من أحد يذهب مع فرانس، إلا واحداً، انظر كيف، أتب الحيوان أنه يدب ويدخن وينفخ خلفه. فرانس يمشي على ساقين مشدودتين هكذا شداً، يحمل عقله المتحجر تماماً هكذا. ومع أنه لا يعمل أي شيء مثل الآخرين فإن له عينين وهاجتين ذلك الوهج. أما الواحد الذي ما ساء إليه بشيء فإنه يسأل: «ماذا يريد هذا؟ يريد شيئاً مني» ويرى هذا كل شيء لا يراه الآخرون ويفهم كل شيء. رقبة فرانس المفتولة العضلات كان المفروض إلا تهمة في الحقيقة بشيء، الساقان المشدودتان ونوم فرانس الهانئ. أما هم فإنهم ينزلون به شيئاً ما، ولا يستطيع أن يلزم الهدوء حيال ذلك. يجب أن يرد على ذلك. وكيف؟

كما تفتح بوابة بنسمة هواء وتندفع أعداد كثيرة من المواشي ومثلما تستشير ذبابة أسداً يضرب صوبها بمخالبه ويزار زيراً عالياً جداً.

مثلاً يتناول حارس مفتاحاً صغيراً ويحدث دفعة صغيرة على المزلاج، فتستطيع مجموعة من المجرمين أن تخرج، عندها يعمّ البلاد القتل والقتل العمد والسطو على البيوت والسرقة وجريمة السرقة مع القتل.

راينهولد يمشي جيئةً وذهاباً في حجرته، في الحانة عند بوابة برييتسلاو، يمعن التفكير ويقلب الأمور على جميع الأوجه. وذات يوم وحين يعرف أنّ فرانس يجتمع بالسمكري ويعطيان الرأي في فكرة جديدة، فأيّ شيء يمكن أن يتمخض عن ذلك، فإنه يصعد إلى ميتسي.

وهذه ترى هذا المخلوق أول مرة وجهاً لوجه. لا شيء يلفت النظر في هذا الشخص، معك حق يا ميتسي، لا يبدو الولد بمظهر سيء، حزين بعض الشيء، خامل، ومريض أيضاً بعض الشيء وغاية في الشحوب. لكن لا بأس به.

لكن انظري إليه ملياً وصافحيه أيضاً، تعمقي في وجهه، قومي بذلك. إنه وجه، يا ميتسي، هو بالنسبة إليك أهم من كل الوجوه الموجودة في غير هذا الوقت، أهم من وجه إيفا، لا بل أهم من وجه محبوبك فرانس. يصعد هذا الآن السلم، واليوم هو مثل كل الأيام، الخميس، الثالث من أيلول، انظري، أنت لا تحسّين بشيء على الإطلاق ولا تعرفين شيئاً على الإطلاق وليس لديك أي حسّ داخلي بمصيرك.

أي شيء هو مصيرك، أنت يا ميتسي الصغيرة من بيرناو. أنت صحيحة الجسم وتكسين مالاً وتحيين صديقك فرانس، ولهذا يصعد الآن السلم ويقف أمامك وترت يدك على مصير فرانس و- الآن - على مصيرك أنت أيضاً. لا داعي إلى أن تمعني النظر في وجهه، اليد فقط، إلى كلتي يديه غير الملفتتين للنظر بملاحظتهما الوضيعة في الجلد الرمادي.

راينهولد هذا بملابسه الخفيفة الناعمة، ولا تعرف ميتسي بادئ ذي بدء كيف تتصرف تجاهه وما إذا كان فرانس أرسله إليها أو ربما كان هذا فخاً من فرانس، لكنّ هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. عندها يقول هو أنه ينبغي إلاّ يعرف هو على الإطلاق أنه كان موجوداً فوق، فهذا حساس جداً. ولهذا السبب أراد أن يتحدث معها، فالأمور صعبة في الواقع مع فرانس حيث إنه أصيب بعاهة في إحدى ذراعيه وعمّا إذا كان هناك ما يستدعي لكي يعمل، ويهمهم كلّهم هذا. وبما أنّ ميتسي شاطرة جداً وتعرف ما قاله هيربيرت وما يريد فرانس في مثل هذه الأحوال فتقول: لا، الكسب، إذا كان هذا هو السبب، فلا حاجة ماسة له إلى ذلك، حيث إنّ هناك ناساً سيكونون له عوناً. لكن قد لا يكون هذا بكافٍ له، وإنّ رجلاً يريد أن يعمل أيضاً. يرى رينهولد: صحيح جداً، عليه أن يقوم بذلك أيضاً. إنّما صعب ما يقومون به، الحق أنه ليس بعمل عاديّ، فليس الجميع الذين لديهم ذراعان سليمتان بقادرين على أن ينجزوا هذا. إذن، تجاذبا أطراف الحديث، ولا تكاد ميتسي تعرف ماذا يريد هو، عندئذ يقول رينهولد ويطلب أن تصبّ له كأس كونياك: لم يكن يريد إلاّ أن يستفسر عن الأحوال المالية، وإذا ما كانت الحال على هذا النحو فإنهم كلّهم سيراعون خاطر الزميل، بالتأكيد. ثمّ يشرب كأساً أخرى من الكونياك، عندئذ يسأل: «هل تعرفيني يا آنسة؟ ألم يحك لك عني من بعد شيئاً؟» «لا»، قالت هذه، أيّ شيء يريد هذا، يا ليت إيّفا كانت هنا، فهذه تحسن مثل هذه الأحاديث أكثر مني أنا. «إننا نعرف بعضنا من زمن بعيد، فرانس وأنا، وأنداك ما كان التقاك وحظي بك، كانت هناك أخريات منهن سيللي» وعلى هذا ربما أراد أن يخرج ما عنده ويريد أن يحطّ من مكانته عندي، إنه واحد مكار. «ولم لا يكون عند هذا أخريات. كان لي أنا أيضاً شخص آخر، ولهذا فهو ما زال صاحبي».

يجلسان هادئين كلّ الهدوء أحدهما قبالة الآخر، ميتسي على الكرسي، وراينهولد على الأريكة، كلاهما تفسّح في جلسته: «حسن، إنه لمؤكد أنه صاحبك، لكن يا آنسة، لا تظني أنني أريد أن أغلق الباب دون من له الكلمة عليّ. كانت مجرد أمور سخيفة معه ومعني، ألم يحك لك عن ذلك؟» «أمور سخيفة، ما هي؟» «كانت أموراً سخيفة كلّ السخف، يا آنسة. عليّ أن أصارحك بشيء: إن فرانس هذا، حين يكون معنا في الطاقم فإنّ هذا يكون من أجلي أنا فقط، فقط من أجلي وبسبب الأحداث؛ إذ إنّنا كلينا كنا متلازمين دائماً أينما كنّا وأينما جرت الأمور. هنا سيكون في مقدوري أن أحكي لك عن أسخف الأمور» «هكذا إذن. لكن أليس عندك عمل بحيث تستطيع أن تجلس هنا وتحكي؟» «يا آنسة، حتى الرب الكريم يعطلّ أحياناً؛ في هذه الحال علينا نحن البشر أن نعطلّ يومين على الأقل» «أظنّ أنك تعطلّ ثلاثة» كلاهما يضحك. «في هذه الحال لن تكوني أنت مخطئة؛ إني أدخر قواي، فالكسل يطيل الحياة، ومن ثمّ وفي غير هذا المكان يبذل المرء من جديد طاقة تفوق الحد» عندئذٍ تبتسم هي له: «إذن ينبغي على المرء أن يقتصد» «أنت تعرفين يا آنسة. فأحدهم هو في هذا على هذه الشاكلة، والآخر على تلك الشاكلة. إذن أنت تعرفين، يا آنسة، فرانس وأنا كنا فيما بيننا نتبادل النساء دائماً، ماذا تقولين الآن؟» يميل الرأس جانباً، يرشف من كأسه ويتنظر ما ستقوله الصغيرة. إنها مخلوقة جميلة، هذه، هذه، سنحصل عليها عما قريب، كيف سأقرص أنا بادئ ذي بدء في الساق.

«عليك أن تحكي هذا لجدتك عن تبادل النساء. حدثني أحدهم ذات مرة أنّ الناس يفعلون هذا في روسيا، فأنت بلا شك من هناك، عندنا لا يوجد هذا» «لكن إذا ما قلت أنا هذا» «فإنّ هذا يظلّ دائماً هراءً بقذارة مائة» «فرانس يستطيع أن يحكي لك عن ذلك» «لا بدّ أنه كانت هناك نساء جميلات حقاً، لقاء

خمسين بفينيكاً، أليس كذلك، ومن الملجأ، أليس كذلك؟» «والآن كفي يا آنسة، لا نبدو نحن هكذا» «بالله قل، لماذا تهذي بمثل هذا الكلام أمامي؟ أية نوايا تتوخاها بهذا عندي؟» «فلينظر المرء إلى ضفدعة ضخمة. إنها هذه حلوة، وهذه متعلقة بهذا، رائع هو هذا» «لا، يا آنسة، أية نوايا. والأمر كذلك أريد الاستخبار بعض الشيء [ضفدعة ضخمة حلوة، بانكوف، بانكوف، تعالي، تعالي، هيا هيا]. بومز كلّفني بهذا مباشرة، إذن أستأذن أنا في الانصراف، ألن تأتي إلى نادينا ذات مرة؟» «إذا ما قصصت لي دائماً مثل هذه القصص» «لا عليك، يا آنسة، ظننت أنك تعرفين كلّ شيء. وشيء له علاقة بالعمل أيضاً. بومز قال إنني إذا ما جئت إليك وسألتك عن المال أو شيء من هذا القبيل تحسس منه فرانس بسبب ذراعه، ففي هذه الحال لا تنقلي له هذا. وليس من داع إلى أن يعرف فرانس هذا. وكنت سأتمكن من الاستفسار أيضاً عن هذا المنزل، فخطر ببالي لماذا هذه السرية. فأنت تجلسين فوق، إذن الأفضل أن أتوجه على المكشوف وبصورة مباشرة إليك وأسأل» «هل ينبغي لي إلا أقول له؟» «لا، الأفضل لا. هذا إذا شئت. ففي النهاية لا نستطيع أيّ شيء حيال ذلك. كما تشائين. إلى اللقاء» «لا، المخرج إلى اليمين.» امرأة رائعة، ستتدبر أمر هذه البنت، بالتوفيق إن شاء الله.

عندها لم ترّ ميتسي الصغيرة أيّ شيء في الغرفة على المنضدة ولم تلاحظ أيّ شيء وفكرت فقط وهي ترى كأس العرق في مكانها - نعم، بماذا تفكر هي، فكرت لتوها بشيء ما، الآن تنحّي الكأس جانباً، ولا تعرف أيّ شيء. إني مضطربة غاية الاضطراب، فالرجل أثار أعصابي جداً، كل شيء يرتعش فيّ. يحكي هذا قصة. أراد هذا لمجرد الرغبة، ماذا كانت غايته من ذلك. تنظر إلى الكأس التي تنتصب في الخزانة، الكأس الأخيرة إلى اليمين. كلّ شيء يرتعش

في داخلي، هيا اجلسي، لا، ليس على الأريكة، هناك جلس هو، على الكرسي. وتجلس هي على الكرسي، تنظر إلى الأريكة حيث جلس هو. مشوشة الفكر على نحو رهيب، أي شيء هو هذا، كلتا الذراعين وفي الصدر، كل شيء يرتعد فرقا في شخص ما. الحق أن فرانس ليس وغداً بحيث إنه يتبادل النساء. إن هذا لأصدق من ابن الكلب هذا، راينهولد، أما عن فرانس، - الذي جعلوه يقوم في كل مكان بدور الغبي إذا ما كان هذا صحيحاً.

وتقضم أظافرها. إذا كان هذا صحيحاً؛ لكن فرانس، إنه غبي بعض الشيء، فهو يترك المجال ليستخدموه لكل شيء، لهذا ألقوا به من السيارة. يا هؤلاء من أشقاء. وإلى مثل هذا النادي يذهب هو.

تقضم أظافرها وتقضم دونها توقف. أقول هذا لإيفا؟ لست أدري. لن أقوله لأحد. ما من أحد كان هنا.

تجمل من نفسها وتضع اليدين على المنضدة، تعض على إبهامها. لا جدوى، في الحلق حرقة. فيما بعد سيتصرفون معي على هذا النحو، وهؤلاء يبعونني أيضاً.

أرغن صغير متنقل يطلق عزفه في الفناء: أضعت قلبي في هايدلبيرغ. أنا أيضاً، أضعت قلبي، والآن قد ضاع، وتنفجر باكية فوق حجرها، لقد ضاع، لم يعد لي قلب، أستطيع أن أرى ما أفعل، فإذا ما مرغوني في التراب فلا أستطيع أن أفعل أيضاً أي شيء. أما فرانس الحبيب فلا يفعل ذلك، فهو ليس روسياً بحيث إنه يتبادل النساء مع الآخرين، هذا كله هراء في هراء.

تقف عند النافذة المفتوحة، ترتدي معطف نوم أزرق وتغني مع عازف الأرغن: أضعت قلبي في هايدلبيرغ [إن هذا المجتمع مزيف، وهذا على صواب

أنه يطهر هذا بحرق البخور] في ليلة من ليالي الصيف الدافئة [ترى متى يعود إلى المنزل، سأقابلة على السلم. [كنت غارقة في الحب] لن أقول له أية كلمة، بمثل هذا اللؤم وسوء الطوية لن أصل. ولا كلمة، ولا كلمة. أحبه غاية الحب. حسن، سأرتدي بلوزتي]. ومثل وردة صغيرة ضحك فمها. وحين ودعنا بعضنا بعضاً أمام البوابات، وعند القبلة الأخيرة، عندها تبين لي بوضوح [وهذا صحيح ما قاله هيربيرت وإيفا: هذان يلاحظان الآن شيئاً ما، وعندي يريدان أن يسمعا فقط ما إذا كان صحيحاً، في هذه الحال يستطيعان أن ينصتا طويلاً، عليهما أن يبحثا عن غيبة]، أنني أضعت قلبي في هايدلبيرغ، قلبي، إنه يضرب على شاطئ نهر النيكار.

فرص حصاد رائعة، إلا أن المرء يمكن أن يخطئ في الحساب أيضاً

يتم تناقله في العالم، دائماً يتم تناقله في العالم، دائماً يتم تناقله في العالم، لكم مطلق الراحة ومطلق الهدوء. يمكنكم أن تفعلوا بالشباب ما تشاءون. إنه يرتقي دائماً على ساقيه. يوجد مثل هؤلاء الناس. في بوتسدام كان هناك واحد، في غوركي بالقرب من أنكلام، هذا كان اسمه بورنيان، يفرّ إذاً من السجن، يأتي إلى نهر شبريه، يسبح من هناك في الماء.

- «هلاً انزلقنا معاً يا فرانس، كيف هي الحال بذلك، ماذا تدعى هذه في الواقع، عروسك؟» «ميتسي، أنت تعرف حق المعرفة يا راينهولد، كان اسمها سابقاً سونيا» «هكذا، هذه لا تعرضها. إنها غاية في الظرف بالنسبة إلينا» «ما هذا، ليس عندي والحق يقال معرض حيوانات بحيث ينبغي لي أن أعرضها. إنها تمشي في الشارع. عندها المحسنون إليها، وتكسب هي مالاً ضخماً» «إلا العرض فهذا لا تقوم به» «ماذا يعني هنا العرض يا راينهولد. البنت عندها ما يشغلها»

«يمكنك أن تجلبها معك، يقال عنها إنها جميلة» «يقال عنها جميلة» «أرغب أن أراها، لا تريد أنت؟» «أنت تعرف، يا راينهولد، قمنا، فيما مضى، بأعمال، وهذه، كما تعلم، كانت عن الحذاء وياقات الفرو» «يجب ألا يكون هذا بعد الآن» «لا، لن يكون لهذا عودة. وبسبب شغلة قدرة من هذا القبيل فأنا صعب المنال» حسن هذا، يا رجل، سألت مجرد سؤال» [الكلب، ما زالت شغلة قدرة، يتكلم دائماً عن القذارة والشغلة القذرة، انتظر فقط يا ولد].

ما إن يصل بورنيان إذاً إلى الماء حتى تطفو جثة طرية في الماء. في رأس بورنيان توهج هناك ضوء صغير. من الجيب اخرج كل أوراقه وأعطاه إياها وأعطاه إياها. ولئن سبق الحديث عن هذا، فإنه كسب للذاكرة الآن. وبعده ربط الجثة إلى شجرة، كانت ستتطلق سباحة، وكان سيصعب العثور عليها. هو نفسه سافر إثر ذلك رأساً إلى مدينة شتيتين بخط سكة حديد إقليمي، ويقطع تذكرة سفر، وحين يصل إلى برلين يتصل من إحدى الحانات بالأمر بورنيان بأن عليها أن تأتي على جناح السرعة، سيكون شخص ما هنا. جلبت له مالاً وثياباً، يهمس لها بشيء ما، ثم كان عليه أن يغادر، يا للأسف. وعدت أن تتعرف الجثة، سيرسل إليها نقوداً لو كان لديه مال، لكن فليكن عندك الكثير. ثم كان عليه أن ينتقل بسرعة، بسرعة، وإلا عثر شخص آخر على الجثة.

ما كان في ودي إلا أن أعرف، يا فرانس، ما إذا كنت تحبها كثيراً» «الآن كفّ عن الحديث عن البنات وعن اللتّ والعجن» «مجرد استفسار لا غير. لا يمكن أن يزعجك هذا» «لا، لا يزعجني. أما بالنسبة إليك يا راينهولد فقط، فأنت أفاق سافل» يضحك فرانس، كما يضحك الآخر. «وماذا من أمر صغيرتك يا فرانس. ألا يمكنك أن تريني إياها في مرة من المرات؟» يا لك من ماجن صغير، يا راينهولد،

رميتني من السيارة، لكن الآن يأتي دورك] «لا، ماذا تريد يا راينهولد؟» «لا أريد شيئاً. أريد أن أراها فقط.» «تريد أن ترى ما إذا كانت تحبني؟ أقول لك من رأسها حتى أخص قدميها قلب واحد، قلب لي، البنت. فهذه لا تعرف إلا الحب والمودة ولا شيء آخر. أنت تعرف، يا راينهولد، مدى جنونها، ليس في مقدورك أن تتصور هذا. أنت تعرف إيفا؟» «ولو يا رجل» «انظر، ومن هذه، تريد ميتسي... على رسلك، لن أقول لك.» «ماذا في الأمر، هلاً قلت.» «لا، هذا أمر لا يخطر في البال، إلا أنها هي هكذا، فهذه لم تسمع بعد يا راينهولد، أن هذا لم يحدث لي بعد في كل ما قمت به» «وما عسى أن يكون؟ مع إيفا؟» «أجل، إلا أنك ما أفشيت الأمر، إذاً هذه تريد، الفتاة، ميتسي هذه: إيفا تود أن يكون لها طفل مني.»

يا لطيف. يجلس كلاهما وينظر كل منهما إلى الآخر. فرانس يضرب على فخذه وينفجر ضاحكاً. راينهولد يتسّم، راح يتسّم، يثبت في مكانه.

إذن فالرجل يدعى فينكي ويذهب إلى غوركي ويصبح سمكاً. ذات يوم جميل تأتي ربيته وهي موظفة في أنكلام، وتريد أن تشتري سمكاً وتذهب بالشبكة في اليد إلى فينكي وتقول.

راينهولد يتسّم، راح يتسّم، يثبت في مكانه: «ربما كانت هذه سحاقية، «يواصل فرانس الضرب على ساقيه ويكركر ضاحكاً: «لا، إنها تحبني» «لا يمكنني أن أتصور هذا» [مثل هذا له وجوده، شيء لا يدخل في المنح، والمغفل عنده هذا، وما زال يضحك] «وماذا تقول إيفا في ذلك؟» «إنهما والحق يقال صديقتان، كلتاهما، إنها تعرفها، وأنا أعرف ميتسي عن طريق إيفا» «ها إنك قد شهيتني تماماً يا فرانس. قل لي ألا أستطيع أن أرى ميتسي ذات يوم، على بعد عشرين متراً، ولا أعترض بأن يكون من خلال القضبان إن كان هذا يخيفك»

«يا رجل، أنا لست بخائف. إنها وفية جداً وحلوة، لا يمكنك أن تتصور هذا. أنت تعرف أنني قلت لك آنذاك عليك أن تكفّ عن البنات الكثيرات، فهذا يدمر الصحة، فأحسن الأعصاب لا تتحمل هذا وتكون نتيجة ذلك سكتة دماغية. في هذه الحال عليك أن ترى كم أنا على صواب يا راينهولد. سأريك إياها ذات يوم» «لكن يجب إلّا تراني هي.» «ولم لا؟» «لا، لا أريد هذا. أنت تريني إياها هكذا» «اتفقنا يا رجل، يسرني هذا. سيرضيك هذا».

ثمّ كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، في الشارع يسير فرانس وراينهولد، لافتات مطلية بالميّنا من كل نوع، سلع مطلية بالميّنا، سجاد عجمي ألماني وسجاد عجمي خالص، على ١٢ قسطاً شهرياً، قماش للممشى، أغطية للطاولات والكنبة، ألحفة، ستائر، مخازن لايسنر وشركاؤه، اقرؤوا الموضحة من أجلكم، وإن لم يكن، اطلبوا بعودة البريد توصيلاً مجانياً. انتباه، خطر الموت، توتر عالٍ. يذهبان إلى بيت فرانس. الآن تدخل بيتي: صحي جيدة، لا شيء يستطيع أن ينال مني، عليك أن ترى كيف أقف أنا هنا، اسمي فرانس بيبركوبف.

«والآن امشِ بهدوء، سأفتح الباب، ترى هل هي هنا. لا. هنا أعيش أنا، إلّا أنها توشك أن تأتي. انتبه الآن كيف ستصرف، إنه مجرد مسرح، لا تتذمر» «سأحترس» «الأفضل: أن تضطجع في الفراش، يا راينهولد، فهذا لا يستخدم في النهار، وأنا سأنتبه بحيث لا تقترب هي منه، ومن ثمّ تنظر أنت من فوق من خلال الستر الشفاف. هيّا استلق في السرير، أتستطيع أن ترى؟» «هذا ما أستطيعه. لكن عليّ أن اخلع الحذاء.» «هذا أحسن. انتبه، سأضع لك الحذاء في الممشى، وبعدها وحين تذهب تأخذه وحلك» «فرانس، أنت يا رجل، إن لم ينجح هذا» «هل أنت خائف؟ أنت تعرف، أنا لست خائفاً، فإن لاحظت هي شيئاً ما، أنت، يجب أن تعرفها» «لا، يجب إلّا تشعر بي» «هيّا اضطجع. قد تأتي في كل لحظة».

لافتات مطلية بالمينا، سلع مطلية بالمينا من كل الأصناف، سجاد فارسي ألماني، وسجاد فارسي خالص بحق وحقيقة، إيرانيون وسجاد إيراني، اطلب توصيلاً مجانياً.

هنالك في شتيتين قال المأمور الجنائي بلوم: «من أين تعرف الرجل؟ وممّ عرفت هذا، كيف، لا بدّ أنك عرفت من شيء ما؟» «إنه في الحقيقة زوج أمي» «إذن فلنسافر إلى غوركي. وإذا صحّ هذا اصطحبناه معنا على الفور».

على باب المنزل يغلق شخص ما. وفرانس في الممشى: «ما بالك، أتفزعين، يا ميتسي؟ ما بالك، يا صغيرتي، ها أنا ذا. هيا ادخلي. على السرير لا يلقي المرء شيئاً. ها إنّ لك عندي مفاجأة فيه» «فلأنظر إذن على فوري» «توقفي، أولاً اقسمي يا ميتسي، ارفعي اليد واحلفي، الكل وقوفاً، عليك أن ترددي: أنا أقسم». «أنا أقسم» بالأقرب من السرير» «أنني لن أقرب من السرير» «إلى أن أقول» «إلى أن أجري أنا إلى هناك» «هنا امكثي. ومرة أخرى اقسمي» «إنني أقسم» «اقسم أنني لن أقرب من السرير» «إلى أن أضعك أنت بالذات فيه».

عندئذ تصبح جادة، تتعلق بعنقه وتبقى على هذه الحال طويلاً. يلاحظ أنّ بها شيئاً ما، تريد أن تخرج من الباب إلى الممشى؟ ليس الأمر مقبولاً اليوم. إلا أنها تبقى واقفة: «لن اذهب إلى السرير، اترك» «ماذا بك يا عزيزتي ميتسي، ميتسي، يا قطتي الصغيرة، أنت لي يا ميتسي».

تندفع إلى الأريكة، هنا يجلسان جنباً إلى جنب متعانقين، لا تقول شيئاً. ثمّ تتمتم تحت، تشدّ ربطة عنقه، ثمّ ينفجر الموقف: «فرانس، يا عزيزي، هل أستطيع أن أقول لك شيئاً» «طبعاً يا صغيرتي ميتسي».

«شيء له علاقة بأصحابي الشيوخ. كان هناك شيء ما» «ما هو يا حلوتي»
«هاك» «أي شيء، يا ملاكي» تشتغل بربطة عنقه، ما عند هذه البنت لا بد أن
يكون مطروحاً اليوم بالذات.

يقول مأمور الجنائية: «كيف سميت فينكي؟ هل لديك أوراق إثبات
شخصية؟» «إذن، في هذه الحال لا تحتاج إلا إلى الذهاب إلى أمانة السجل المدني»
«ما هو في الأحوال المدنية لا يهمننا» «معي أوراق إثبات شخصية» «حسن، وهذه
نأخذها معنا بادئ ذي بدء. في الخارج ما زال يقف هناك موظف من نويغارد،
فهذا كان عنده شخص يدعى بورنيان من نويغارد في جناحه، يريدون أن
يفسحوا لهذا الطريق إلى الداخل».

«يا عزيزي فرانس، كان زبوني المسن يجلب معه دائماً في المرات الأخيرة ابن
أخته، هذا يعني، لم يكن يدعوها أبداً، إلا أنه كان يأتي لمجرد المجيء» يغمغم
فرانس وتفتر مشاعره: «فهمت» وجهها لا ينكفي عن وجهه: «تعرفه،
يا فرانس؟» «من أين؟» «ظننت. فهذا كان دائماً هنا، ثم جاء معه مرة أخرى
أيضاً» يرتعش فرانس، الدنيا تسود أمام عينيه: «لماذا لم تقولي لي يا امرأة؟» «ظننت
أنني سأخلص منه. ولماذا إذا ما كان أحدهم يدور في الجوار» «والآن...»
ارتعاشة الفم تشتد على عنقه، ثم يتل شيء ما هناك، هي متشبثة بفرانس، البنت
تمسك بي، هذه طبيعتها العنيدة، فلا تقول، وما من حمار يفهمها، ولماذا تتحب
هي هذا النحيب، وذاك مستلق هناك، إنه لأحب إلي أن أتناول عصا وأهوي بها
على السرير بحيث إنه لا ينهض من بعد ذلك أبداً، عنزة ملعونة لكي يجعلني
أضحوكة. لكنه يرتعش. «ما الأمر؟» «لا شيء، يا فرانس، لا تقلق، لكن لا تنزل
بي أي أذى، ما من شيء كان هناك، ثم جاء معه مرة ثانية، وترقب طوال الصباح
إلى أن نزلت أنا من عند زبوني المسن، وإذا به يقف هناك، يجب علي أن أسافر معه

ويجب ويجب» «أنت بطبيعة الحال، أنت عليك أيضاً» «أنا، أنا يجب عليّ أيضاً، ما عساي أن أفعل، يا فرانس، إذا ما ألحّ شخص ما على شخص بهذه الطريقة. ويكون هكذا إنسان شاب. ومن بعد ذلك...».

«أين كنتما؟» «قبل ذلك دائماً عبر برلين وغرونيفالد، لا أعرف وحدي، ثمّ ذهبنا، وكنت أرجوه دائماً بأن ينصرف. ويبيكي ويتوسل مثل طفل ثمّ يرتمي أمامي على وجهه، يا له من فتى، إنه صانع أقفال» «ما شاء الله، من ثمّ كان عليه أن يعمل، الشاب الكسول، عوض من أن يلفّ ويدور هنا وهناك» «لا أدري. لا تغتظ يا فرانس» «ما زلت لا أعرف ما الموضوع. لماذا تبكين، يا امرأة؟» عندئذٍ لم تقل هي شيئاً، بل احتضنته إليها وراحت تشتغل بربطة عنقه» لا تغتظ يا فرانس» «هل أنت مغرمة بالشاب يا ميتسي؟» لم تقل شيئاً. يا لحوفه ويا للقشعريرة تجتاحه حتى أخمص قدميه. يهمس لها في الشعر، لم يعد يعرف شيئاً عن راينهولد: «هل أنت مغرمة به؟» «إنها تطوقه جسداً إلى جسد، إنه يحسّ بها كلّ الإحساس، عن فمها يصدر: «نعم» واه، واه، لقد سمعها، كلمة نعم. يريد أن يتركها، أينبغي لي أن أهوي ضرباً، يا إيذا، الرجل من بريسلاو، الآن ستقع الواقعة. سيصاب ذراعه بالشلل، إنه مشغول، إلّا أنها تثبته مثل حيوان، ماذا تريد هذه، لا تقول شيئاً، إنها تمسكه، تضع وجهها على عنقه، وينظر نظرات متحجرة من فوقها إلى النافذة.

يهزها فرانس ويصرخ بصوت عالٍ: «ماذا تعرفين؟ دعيني أخيراً» ما لي وهذا الكلب. «ها أنا ذا يا فرانس، لم أهرب منك، ما زلت هنا. «هلاً هربت، لا أريدك على الإطلاق.» «لا تصرخ عالياً، يا إلهي، ماذا فعلت.» «هيا اهربي إليه إن كنت تحبينه، أنت أيتها الحمارة» «لست بحمارة، كن طيباً يا فرانس، قلت له، هذا مستحيل، وأنا ملك لك» «أنا لا أريدك. لا أريد واحدة من أمثالك» «أنا

ملك لك، قلت له هذا، ثم غادرت، ويجب أن تواسيني» يا أنت، أنت مجنونة!
الآنك مغرمة بذاك ينبغي لي أن أواسيك».

«أجل، ينبغي لك، يا فرانس، فأنا فتاتك ميتسي، وأنت تحبني، إذن يمكنك
أن تواسيني، واه، الآن يلف ويدور ذاك، الشاب و...» «لا، توقفي يا ميتسي!
عليك أن تذهبي إليه وتأتي به إليك.» عندئذ تصرخ ميتسي ولا يستطيع هو الفكك
من ذلك. «أجل، اذهبي إلى هناك، ودعيني وشأني» «لا، لن أفعل هذا. إذن أنت لا
تحبني، أنت لا ترغب بي، ماذا فعلت أنا».

عند ذاك يتأني لفرانس أن يجرّ ذراعه ويتترع نفسه منها، تركض وراءه،
في لحظة يستدير فرانس، يهوي على وجهها ضرباً بحيث إنها تميل إلى الخلف،
ثم يصدّمها في كتفها فتسقط، هو فوقها ويضرب باليد الواحدة على غير هدى.
تبكي بكاءً حاراً، تتلوى، ويلاه، هذا يضرب، هذا يضرب، وهذه تقلبت على
البطن والوجه. حين يتوقف ويلتقط أنفاسه، تدور الغرفة من حوله، تقلب هي
من حوله، تستفيق: «لا عصا، يا فرانس العزيز، يكفي، لا عصا».

عندئذ تجلس بقميص ممزق، إحدى عينيها مغلقة، دم يسيل من الأنف
ويلوّث الخد الأيسر والذقن.

أما فرانس بيبركوبف هذا - بيبركوبف، ليبركوبف، تسيبركوبف، لا
اسم لهذا -، الغرفة تدور، الأسرة تنتصب حيث هي، بأحد الأسرة يمسك هو.
ها إن راينهولد مضطجع تحت، هذا الوغد، إنه مستلقٍ هناك بالحذاء ويوسخ
السريّر. أي شيء جاء به إلى هنا؟ إن له حجرته. سأخرج هذا من هنا، سنضع
هذا خارجاً، لنفعل، بلا إبطاء، ها هو فرانس بيبركوبف يبحر، تسيبركوبف،
نيبركوبف، فيديكوبف ينطّ على السريّر، يمسك هذا برأسه من خلال غطاء،
يتحرك هذا، ويرتفع الغطاء، ويقعد راينهولد في السريّر.

«هيا اخرج الآن، يا راينهولد، اخرج أنت، انظر إلى هذه، واخرج من بعد ذلك!».

فم ميتسي المفتوح، هزة أرضية، برق، رعد، القضبان انقطعت، انحنت، محطة القطار، كشك السكة الحديدية، انقلب رأساً على عقب، هدير، تدحرج، دخان كثيف، دخان، لا شيء مرئي، كل شيء ولى وراح، صار عصف الريح رأسياً وعرضاً.

«ما الأمر، ماذا انكسر وتحطم؟».

صراخ، صراخ لا يكفّ فمها عنه، صراخ أليم موجع تجاه هذا وراء الدخان على السرير، سور صراخ، حراب صراخ تجاه هذا هناك، إلى أعلى، حجارة صراخ.

«سدّي فمك، ماذا انكسر وتحطم، توقفي، سكان البيت يتجمعون».

صراخ مؤلم، كتل من الصراخ، تجاه هذا هناك، لا وقت، لا ساعة، لا عام.

ها قد فطن فرانس إلى موجة الصراخ. ثائر مجنون. يطوح بكرسي على السرير، تندفع هذه وتقطع من اليد. ومن ثمّ بشكل مائل من فوق ميتسي التي ما زالت قاعدة وتصرخ صراخاً يصمّ الأذان، تصرخ صراخاً حاداً وتزعق وتزعق، ويسدّ فمها بيده من الخلف ويلقيها على الظهر ويجثو فوقها ويرتمي على الصدر فوق وجهها. هذه - أقتل - ها - أنا.

يتوقف الصراخ، تتقلب وتتخبط إلى فوق بساقيها. راينهولد يسحب فرانس جانباً: «يا رجل، أنت تخنقها» «بسبيك أنت، يا رجل» «انهض. انهض» استطاع أن يتزع فرانس، وهذه تستلقي تحت على البطن وتقلب الرأس، تتحب، يخنق صوتها وتضرب بالذراعين. فرانس يتلعثم: «انظر بنفسك إلى اللئيمة،

اللئيمة. على من تريدين أن تهوي بالضرب، أنت أيتها الطائشة العديمة الضمير؟»
«أنت تخرج، يا فرانس، البس السترة ولا تطلع إلا حين تكون التقطت أنفاسك»
ميتسي تتشرف باكية تحت، تفتح عينيها؛ الجفن الأيمن أحمر، قد تورّم. «انسحب،
يا رجل، وإلا ضربتها حتى الموت. البس السترة. هاك إياها».

فرانس يلهث ويشخر، يلهث، يترك مجالاً ليساعده في ارتداء السترة.
عندها تعتدل ميتسي، تبصق بلغماً، تريد الكلام، تعتدل في جلستها،
تجلس وتتكلم بسرعة وجلبة:
«فرانس» هذا لبس سترته «هاك القبعة».

«فرانس...» هذه لم تعد تصرخ، هذه لها صوت، تبصق. «أنا- أنا- أنا
ذاهبة معك» لا، أنت تبقين، يا آنسة، سأساعدك فيما بعد» «فرانس العزيز، تعال،
أنا ذاهبة معك».

يقف هذا، يدير القبعة على الرأس، يتدوّق ويلهث، يبصق ويسير صوب
الباب، طقطقة، إغلاق.

ميتسي تنتهد، تقف على ساقها، وتبعد راينهولد من طريقها، ثم تتلمس
طريقها عبر الباب. عند الممشى لا تستطيع أن تتابع المشي، فرانس صار في
الخارج، وقد نزل السلم. راينهولد يحملها إلى الغرفة. حين يضعها على السرير
تلهث وتعتدل وحدها في جلستها، تنزل زحفاً، تبصق دماً، تندفع نحو الباب»
اخرج، اخرج» تبقى مصرّة: «اخرج، اخرج» إحدى عينيها تحدّق به دائماً. تترك
ساقها تتدليان إلى تحت. ثرثرة من الثرثرات. هذه الثرثرة تعافها نفسه، لن
أمكث هنا، بعد ذلك سيأتي ناس أيضاً، وأنا شوّهت خلقتها هكذا. ما شأنني
وهذه القذارة. غداً، يا آنسة، القبعة على الرأس، هيا اغرب.

تحت يمسح الدم عن يده اليسرى، ثمرات قديمة، يضحك بقهقهة: من أجل ذلك أخذني إلى فوق، يا لهذا المسرح، يا لهذا الغبي. من أجل ذلك وضعني في سريره بالحذاء. الآن ستثور نائرة الغبي. لقد تلقى هذا لكمة في الذقن، فأين يهيم هذا الآن على وجهه؟

يسير في غير هدف هنا وهناك. لافتات مطلية بالمينا، سلع مطلية بالمينا من كل الأصناف. كان هنا جميلاً فوق، كان جميلاً جداً. يا له من مغفل، أجدت، يا بني، شكراً جزيلاً، تابع هكذا على الدوام. أنا أضحك ضحكاً شديداً.

ثم صار بورنيان مرة أخرى نزيل سجن الشرطة في شتتين. يأتون بزوجته، السيدة الحقيقية. أيها السيد مفوض الشرطة، دعوا المرأة وشأنها، فقد أقسمت هذه على ما هو صحيح. سأمضي سنتين من بعد. هذا لا يهمني.

وإنها لأمسية في حجرة فرانس. يضحكان. يرتمي كل منهما في حضن الآخر، يقبل بعضهما بعضاً، ما أطيبهما. «كنت أوشك أن أقتلك، يا ميتسي، كيف طرحتك أرضاً، يا امرأة» «هذا لا يهم. المهم أنك عدت» «هل انصرف على فوره، راينهولد هذا؟» «أجل» «ألا تسأليني، يا ميتسي، لماذا كان هو هنا؟» «لا» «ألا تريد أن تعرفي؟» «لا» «لكن يا ميتسي» «لا. ليس هذا بصحيح» «ما هو غير صحيح؟».

«تريد أن تبيني له» «ماذا» «ليس هذا بصحيح» «لكن يا ميتسي العزيزة» «أعرف هذا، وإنه لجيد».

«إنه صديقي، يا ميتسي، إلا أنه رجل قذر وابن حرام، عنده صديقات. أردت أن أريه أية فتاة عفيفة أنت. كان يجب أن يرى هذا» «حسن» «أما زلت تحبيني أيضاً. أم هذا الرجل هناك؟» «إنني لك، يا فرانس».

الأربعاء، في التاسع والعشرين من آب

وتترك ولي نعمتها ينتظر يومين كاملين، ولا تستخدم هذين اليومين إلا لتكون عند محبوبها فرانس وتسافر معه إلى إركنر وبوتسدام، وتكون معه على أحسن حال. فلها هي الآن سرّها مع هذا، والآن أكثر من ذي قبل، الحيوان المزعج البغيض، كما أنها لا تخاف على الإطلاق مما يفعله هنا حبيبها فرانس عند عصابة بومز: هي ستقوم بشيء ما. ستستطلع هي وحدها هنا عمّن هو موجود في الواقع في حفلة الرقص أو حفل لعبة البولينغ (القناني الخشبية). وإلى هذين المكانين يصطحبها فرانس. هيربيرت يصطحب إيّفا أيضاً، أما فرانس فيقول: هذا لا يليق بك، لا أريدك أن تجتمعي بمثل هؤلاء الخنازير الكبيرة.

أما سونيا الصغيرة، ميتسي الصغيرة فإنها تريد أن تعمل شيئاً ما لفرانس. قطننا الصغيرة تريد أن تعمل شيئاً له، أجمل من كسب المال هو هذا. إنها تريد أن تكتشف كل شيء وأن تحميه.

وحين تكون حفلة الرقص التالية حيث تأتي جماعة بومز مع أصدقائها إلى رانزدورف، وهي ليلة خاصة، ستحضر واحدة لا أحد يعرفها، السمكريّ قديمها، إنها واحدة تضع قناعاً، لا بل إنها تراقص فرانس مرة، إنما لمرة واحدة فقط، وبعدها يشم هذا العطر. ويكون هذا في مطعم موغيلهورت، في المساء تأتي فوانيس من الورق الملون في الحديقة، باخرة تتحرك بهدف مشترك، ممتلئة امتلاء شديداً، الجوقة تنفخ في البوق سلام وداع مربعاً حين تنطلق، إلا أنهم يظلون يرقصون ويشربون فيها حتى الثالثة صباحاً.

وهنا تسبح ميتسي الصغيرة مع السمكري الذي يتفاخر أية عروس هي عروسه؛ وترى بومز ومصونته، وراينهولد، كيف يجلس مغموماً محزوناً - فهذا تتابه دائماً أمزجة -، والتاجر الأنيق. في الساعة الثانية تنطلق في السيارة مع

السمكري؛ في وسعه أن يقبلها في السيارة بحرقه وتشوق، ولم لا، فهي تعرف الآن المزيد، لن يصرعوها. ماذا تعرف ميتسي الحبابة؟ كيف يبدو البومزيون (جماعة بومز) كلهم، لهذا يستطيع هو أن يعانقها ويقبلها، فهي تظل صاحبة فرانس، يوغان في الليل، في مثل هذه الليلة ألقى الأوغاد بفرانس من السيارة، والآن يأتي هو بهذه، وسيعرف من هو، وهؤلاء سيخشونه كلهم، وإلا لماذا كان سيصعد راينهولد إلى فوق، وإنه لرجل وقح، صاحبي فرانس، شاب لطيف، يمكنني أن أميت السمكري تقبلاً، هكذا أحب فرانس، أجل، ضمنني بشدة وعانقني، ليس إلا، أنا أعضّ لسانك، يا رجل، هذا يسافر بعربته، إنه لا يزال يسير بنا إلى حفرة، مرحى، كان رائعاً هذه الليلة عندكم، أعليّ أن أسير الآن يميناً أم شمالاً، سر بالسيارة كما تشاء، غريبة الأطوار حلوة، يا ميتسي، حسن، أنا أتذوقك، يا كارل، خذني معك أيضاً عدة مرات، يا أنت، الغبي، هذا سكران، سيرمي بنا هذا من بعد في نهر شبريه.

هذا غير ممكن، في مثل هذه الأحوال سأغرق لا محالة، ما زال عليّ أن أقوم بأشياء كثيرة، عليّ أن أجاري حبيبي فرانس، لا أدري ماذا يريد أن يفعل، هو لا يعرف ما أريده أنا، ينبغي أن يبقى هذا فيما بيننا ما دام هو يريد وأنا أريد، كلانا يريد الشيء نفسه، الشيء نفسه يريده كلانا، آه، الجو حار، قبّلي أكثر، هاك، أمسكني، يا كارل، أنا أذوب حقاً، إني أذوب، يا رجل.

كارلاين، كارلاين، أنت، المفروض أن تكون الأجهل عندي، على الشارع العريض ذي الأشجار تخطى أشجار البلوط السوداء الهدف، ١٢٨ يوماً من أيام السنة أهبك إياها، كل يوم بصباح، بيوم ظهر، بمساء.

على أن شرطيين في لباس أزرق جاءا يمشيان على المقبرة هناك مشياً عسكرياً. أحسنا جلوسهما على بلاطة ضريح وسألا حيثما كانا يمران عن

شخص يدعى كاسيمير بودوفيتش عما إذا كانوا شاهدوه، فقد اقترف قبل ثلاثين عاما شيئاً، على أن الناس لا يعرفون تمام المعرفة ما هو هذا الشيء، وفي هذه الحال سيظل يحدث شيء ما، وليس هناك من شيء مضمون عند الإخوة، والآن نريد أن نأخذ له بصمة الإصبع ونحدد مقياس طولها، والأفضل القبض عليه قبل ذلك، وليقدموه لنا الآن، يا الله يا الله.

يرفع راينهولد سرواله، ويجر جر خطاه في جحره جيئةً وذهاباً، فهذا لا يحظى بالراحة ولا بالمال الكثير. آخر عروس له أبعدها، والناعمة الرقيقة لا يجيها الآن أيضاً.

ينبغي القيام بشيء آخر. إنه يرغب في أن يبدأ شيئاً ما مع فرانس. الآن يعود هذا الجمل إلى تجواله وتتهلل أساريه ويتباهى بعروسه؛ لكأن في الأمر شيئاً ما. قد أسرق منه هذه. كانت منذ وقت غير بعيد مقرفة بثررتها الفارغة.

السمكري، المدعو مآثر، والمعروف طبعاً عند الشرطة باسم أوسكار فيشر، ترتسم على وجهه علائم دهشة واستغراب حين يسأله راينهولد عن سونيا. بلا تردد يسأل هذا عن سونيا، وبدون تردد يعترف مآثر، حسن، إذا عرفت هذا، فأنت تعرف هذا الساعة. عندئذ يضع راينهولد ذراعه حول خصر مآثر ويسأل: ما إذا كان يريد أن يتخلى له عنها من أجل حفلة صغيرة. عندها يتبين أن سونيا تخصّ فرانس وليس مآثر. في هذه الأحوال يستطيع مآثر أن يحضر له هذه الفتاة ذات يوم لسفرة واحدة بالسيارة إلى فراينفالد.

«في مثل هذه الأحوال كان عليك أن تسأل فرانس لا أنا» «لا أستطيع أن أسأل فرانس، فأنا على خلاف معه من زمان، وهي لا تطيقني على ما أظن. هذا ما لاحظته» «أما أنا فلا أجد نفسي مستعداً لهذا. ربما حين أريد أنا أن انفرد بها لنفسي» «حسن، تستطيع هذا. لكن لسفرة واحدة» «لا اعتراض لي أنك تستطيع

أن تحظى بكل النساء، يا راينهولد، وبهذه أيضاً، لكن من أين الأخذ لا السرقة»
«لكن معك تمشي هي بالتأكيد. أنت، يا كارل، حين تحصل مني على خرقة بنية»
«أحضرها إليّ دائماً».

جلس شرطيان باللباس الأزرق على حجر، وسألا الجميع الذين كانوا يمرون، وأوقفوا السيارات كلها: ما إذا لم يروا شخصاً ذا وجه أصفر شاحب وشعر أسود. فهذا يبحثان عنه. ما فعله أو سيفعله، هذا ما عرفناه، هذا وارد في تقرير الشرطة. لكن ما من أحد رآه أو يدّعي أنه رآه. في هذه الحال ما على الشرطيين كليهما إلا أن يواصلوا السير على طول الشارع الذي على جانبيه أشجار، وينضم إليهما شرطيان.

في يوم الأربعاء، في التاسع والعشرين من آب سنة ١٩٢٨، بعد أن فقدت هذه السنة ٢٤٢ يوماً وما من داعٍ إلى أن تفقد الأكثر من ذلك - وهذه ولّت إلى غير رجعة برحلة إلى ماجديبورغ، باسترداد الصحة والشفاء، بتكيف راينهولد مع العرق، ظهور ميتسي، ويقومون بأول سطو لهم هذا العام، وفرانس هو من جديد السلام المشرق والهدوء المطلق -، وها إن السمكري ينطلق مع ميتسي الصغيرة إلى الطبيعة. فله قالت هي، أي لفرانس، إنها ستسافر مع ولي نعمتها. لماذا تسافر، هي لا تعرف. هي لا تريد إلا أن تساعد فرانس، لكن كيف، هي لا تعرف. حلمت في الليل؛ سريرها وسرير فرانس موضوعان في غرفة جلوس مؤجّريهما تحت المصباح، ثم تتحرك الستارة أمام الباب، وشيء رمادي، نوع من الشبح، يخرج شيئاً فشيئاً من ذلك، يدخل الغرفة. واه، تنهد هي، ومن ثم تقعد في السرير، وفرانس نائم بالجوار نوماً عميقاً. أنا أساعده، لن يحدث له شيء، ومن ثم استلقت من جديد، عجيب وغريب، كيف يتدحرج سريرانا إلى الأمام في غرفة الجلوس.

بسرعة فإذا هما في فراينفالدي، جميل في فراينفالدي، مصيف على شاطئ البحر، له حديقة استشفاء جميلة بها حصى أصفر، ناس كثيرون يسرون على هذا. من يا ترى يلتقون هنا، حين تغدوا لتوهم بجانب حديقة الاستشفاء على الشرفة الأرضية؟

زلزال، برق، برق، رعد، قضبان تقطعت، محطة القطارات انقلبت، تدحرج، دخان كثيف، دخان، كل شيء ضاع، أبخرة، لا شيء مرئي، أبخرة، صراخ متدفق... أنا لك، إني أنا لك.
أحضره، دعيه يجلس، أنا لا أخاف من هذا، من هذا بالذات لا، سأنظر في وجه هذا بهدوء.

«هذه هي الأنسة ميتسي، هل تعرفها يا راينهولد؟» «معرفة عابرة، يسرني هذا جداً يا آنسة».

وهكذا يجلسان في حديقة الاستشفاء، في فراينفالدي؛ أحدهم يعزف عزفاً جميلاً على البيانو في المطعم. ها أنذا أجلس في فراينفالدي، وهذا يجلس قبالي.

زلزال، برق، أبخرة، لقد ضاع كل شيء، إلا أنه لجميل أننا التقينا هنا، سأستخبر هذا، حول كل شيء كان مع بومز، وماذا يعمل فرانس، عند هذا يمكن بلوغ الشيء بالإغراء؛ بملاحظة، بعدها يأتي هذا، تحلم ميتسي كيف يرفق بها الحظ. عازف البيانو يغني: قولي نعم، يا صغيرتي، هذا بالفرنسية، قولي لي أجل، هذا بالصينية، كما تشائين، هذا لا يهم، الحق أن الحب أممي. قولي لي هذا عبر الزهرة، عبر الأنف، قولي لي هذا بصوت منخفض أو بنشوة وحماسة، قولي نعم، قولي أجل، قولي بلى، - وكل شيء آخر تريدينه هو موجود.

بضع كؤوس من العرق تجذب، كل واحد يوافق على جرعة. ميتسي تبوح بأنها كانت في حفلة الرقص، وعلى هذا يدور حوار رائع. السيد قائد الجوقة على البيانو يعزف بناءً على الرغبة العامة: في سويسرا وفي التيرول، الكلمات لفريتس رولر وأوتو شترانسكي، الموسيقى لأنطون بروفيس. في سويسرا وفي التيرول، أجل هنا تطيب الإقامة. إذ إنه يوجد في التيرول حليب ساخن من البقرة، وفي سويسرا هناك عذراء، يا لطيف! عندنا، ها إن هذا موجود - لنكن صادقين، مثل هذا لا أظن، ولهذا أجد أنا سويسرا رائعة غاية الروعة والتيرول أيضاً! يا لطيف يا ساتر! للاشتراك عن طريق محل بيع النوتات الموسيقية. يا لطيف يا ساتر. تضحك ميتسي، الآن يظن حبيبي فرانس أنني عند ولي نعمتي الشيخ، لكن - أنا عنده، ولا يلاحظ هذا.

ثم نريد أن نتزّه بعد ذلك في الناحية، بالسيارة. هذا ما يريده كارل، راينهولد وميتسي، في الخلف ميتسي، راينهولد و كارل، وراينهولد أيضاً، كارل، ميتسي، الجميع معاً يؤيدون هذا. ضروري أن يأتي اتصال هاتفي في هذا الوقت وينادي نادل: نعم السيد ماتر المتكلم، ألم تلاحظ قبل ذلك بأم عينيك، راينهولد، يا بني، يا الله، لن نقول شيئاً، ميتسي تبسم أيضاً. كلاهما لا اعتراض عنده، يبدو أنه سيكون هناك يوم عصر حافل بالطرب، ها قد عاد كارل الصغير، كارلاين (كارل الصغير) أيضاً، كارلاين، أنت، أنت ينبغي أن تكون الأجل، عندك ألم، لا، يجب أن أسافر على جناح السرعة إلى برلين، أنت تبقين يا ميتسي، يجب عليّ، لا أحد يمكن أن يعرف، ثم تعطي ميتسي قبلة أخرى ولا تبح، يا كارل، سأفعل، يا فأرتي الصغيرة، كل رجل إذا ما استطاع، يقوم برحلة خاصة، إلى اللقاء، يا راينهولد، عيد فصح مجيد، عيد عنصرة مجيد. يتم انتزاع القبعة من على الحامل، وينصرف هذا.

ها نحن نجلس . «ما رأيك الآن في هذا» «ماذا، يا آنسة، ما كان من داعٍ إلى أن تصرخي على ذلك النحو في آخر مرة» «لم يكن إلاّ الذعر» «لكن مني» يأنس المرء الناس «أهل للمجاملة» كيف تدير هذه المرأة الصغيرة المستهترّة الطائشة، حمارة حلوة ظريفة، رهان أنني سأحظى بها اليوم بالذات؛ في هذه الحال ما عليك إلا أن تنتظر، يا بني، أريد أن أماطلك فقط، وبعدها ليس لك إلا أن تحكي لي ما تعرفه وينظر هذا مدهوشاً. لقد التهم شجرة كاملة من الكرفس.

ومن ثمّ غنى عازف البيانو ما عنده من أغانيّ والمعزف متعب، يريد أن يذهب إلى النوم، عندئذٍ يصعد راينهولد وميتسي التلال ويتمشيان قليلاً في الغابة. ويتحدثان عن هذا وذاك ويسيران ذراعاً في ذراع، والشاب ليس بحقير على الإطلاق. وحين يعودان في الساعة السادسة إلى حديقة الاستشفاء يكون كارل في انتظارهما، فقد عاد بالسيارة. نريد العودة إلى البيت، في المساء يكون القمر كاملاً، نتمشى معاً في الغابة، إنه لجميل، هيّا نغم بهذا. في الثامنة يتمشى الثلاثة صاعدين إلى الغابة، يجب على كارل أن يتوجه بسرعة إلى الفندق، ويطلب الغرف ويتفقد السيارة. نلتقك بعد ذلك في حديقة الاستشفاء.

في هذه الغابة أشجار كثيرة، ناس كثيرون يدخلون إليها الذراع بالذراع، كما أنّ هناك دروباً موحشة. يسيران حاملين جنباً إلى جنب. تريد ميتسي أن تسأل دائماً شيئاً ما، لكنها لا تعرف ماذا، إنه لجميل هكذا الذراع بالذراع مع هذا الإنسان، آه، إني سأسأله مرة أخرى، إنه لمساء جميل. رباه، ما الذي سيظنه فرانس بي، أريد أن أخرج على فوري من الغابة. تجري الأمور هنا على نحو غاية في الجمال. راينهولد تأبط ذراعها، فهذا له ذراع أيمن، والرجل يمشي إلى اليسار، فرانس يمشي دائماً إلى اليمين، الحق يقال يجب أن يكون المشي هكذا، ذراع بمثل

هذه القوة، أيّ رجل هو هذا. يسيران بين الأشجار، الأرض طرية، فرانس عنده ذوق جيد، سأستميلها وأسلبه إياها، فهي لي لشهر واحد، وإذ ذاك يستطيع أن يفعل ما يشاء. إذا ما أراد هو شيئاً ما تلقى في الرحلة القادمة لكمة في الوجه بحيث إنه ينسى النهوض، امرأة جميلة، امرأة لطيفة جسورة، وهي مخصصة له.

يمشيان ويتحدثان عن هذا وذاك. يشتد الظلام. الأفضل هو الكلام؛ ميتسي تنتهد، إنه هكذا غاية في الخطورة أن تسير بدون كلام والإحساس بالآخر ليس غير. تنظر دائماً إلى الطريق وإلى أين تؤدي. لا أدري ماذا أريد أنا معه؛ يا إلهي، أيّ مطلب لي معه في واقع الأمر. يمشيان في دائرة. خفية يعود بميتسي إلى بحيرة تشاوس. افتحي عينيك، ها أنت هنا.

إنها الساعة الثامنة. يسحب مصباح الجيب، ذهاب إلى الفندق، الغابة وراءنا، العصافير، آه، العصافير، غنت جميعها غناء غاية في الروعة، رائعاً. يرتعش في داخله. كان طريقاً هادئاً غريباً. كانت له عينان متألقتان. إنه يمشي مسالماً بجانبها. السمكري ينتظر وحيداً على الشرفة الأرضية. «هل حجزت الغرف؟» يلتفت راينهولد إلى ميتسي؛ لقد راحت «أين السيدة؟» «راحت إلى غرفتها» يطرق الباب. «السيدة أبلغت، ذاهبة هي إلى النوم».

يرتعش في أعماقه. كان هذا جميلاً. الغابة المظلمة، الطيور. ماذا أريد أنا حقاً من البنت. يا لها من فتاة رقيقة حلوة تلك التي هي لفرانس؛ أرغب في امتلاكها. راينهولد يجلس مع كارل على الشرفة الأرضية؛ إنها يدخنان سيجاراً غليظاً. يتسم كلّ منهما للآخر: حقاً، علام نحن هنا؟ في وسعنا أن ننام أيضاً في البيت. - راينهولد ما زال يتنفس تنفساً عميقاً وبطيئاً ويأخذ نفساً بطيئاً من سيجاره الغليظ، الغابة المظلمة، نحن نسير في دائرة، ترجعني من جديد: «إن شئت، يا كارل. أبقى أنا هنا الليلة».

وبعد ذلك ظلّ كلاهما يمشي على حافة الغابة، ويجلسان هناك، ويتبعان السيارات نظرهما. في هذه الغابة أشجار كثيرة، ويسير المرء على أرض طرية، ناس كثيرون يسيرون هنا ذراعاً بذراع، يالي أنا من رجل حقير، كلب بن كلب.

السبت، الأول من أيلول

إنه يوم الأربعاء، التاسع والعشرون من آب سنة ١٩٢٨.

بعد ثلاثة أيام يتكرر كل شيء. السمكري يتحرك بسيارة، ميتسي - ميتسي وافقت على فورها حين سأل عما إذا كانت تريد الذهاب مرة أخرى إلى فراينفالدي، وأن راينهولد يرغب أيضاً في الذهاب. سأكون أقوى هذه المرة، قالت في ذات نفسها وهي تجلس في السيارة، لن أذهب معه إلى الغابة. وافقت على فورها، إذ إن فرانس كان غاية في الغمّ والهَمّ في اليوم الأخير، ولا يقول لماذا، ويجب أن أعرف هذا، وأن أدرك بواطن الأمور. إنه يتلقى مالاّ مني، ولديه كل شيء ولا ينقصه أيّ شيء يسبب للرجل غماً وهماً.

راينهولد يجلس في السيارة بجانبها، وعلى فوره يضع ذراعه حول خصرها. كلّ شيء مدبّر: اليوم ترحلين أنت لآخر مرة عن محبوبك فرانس، اليوم تبقين معي بقدر ما أشاء. أنت المرأة الخمسمئة أم الألف اللواتي أحظى بهنّ، كلّ شيء مرّ بسلام وعلى خير ما يرام حتى الآن، وستسير الأمور الآن على أحسن حال. تجلس هنا ولا تدري كيف تتابع الأمور، أنا أعرف هذا وهذا جميل.

السيارة يتركانها واقفة في فراينفالدي أمام المطعم، كارل ماتر يتنزّه وحده مع ميتسي عبر فراينفالدي، إنه السبت الأول من أيلول الساعة الرابعة. راينهولد يرغب في أن ينام ساعة أخرى في المطعم. بعد السادسة يتسلل راينهولد إلى الخارج، يعبث بالسيارة، ثم يشرب عرقاً وينسحب.

في الغابة، ميتسي سعيدة مغتبطة. كارل في غاية اللطف، وما أقدر هذا على الكلام عن كل شيء، فهذا لديه براءة اختراع، والشركة التي كان يعمل بها، حصلت عليها بالحيلة، وبهذه الطريقة لا يُخدع إلا المستخدمون، وقبل ذلك عليهم أن يعطوا هذا كتابياً، والشركة صارت من وراء ذلك من أصحاب الملايين، وهو لا يشارك عند بومز إلا هكذا لأنه يبيّن الآن نموذجاً جديداً، هذا يجعل كل شيء واهياً، ولا شيء ما سرقة الشركة. ومثل هذا النموذج يكلف مالا كثيراً، ولا يستطيع أن يبوح به لميتسي، إنه سرّ كبير، كل شيء في العالم سيتغيّر، الحافلات الكهربائية كلها، الإطفاء، نقل القمامة، كل شيء، ويصلح لكل شيء، لكل شيء على وجه العموم. يتحدثان عن رحلتها بالسيارة في حفلة الأفعنة، على الشارع العريض ذي الأشجار يخطئون الهدف على أشجار البلوط، ١٢٨ يوماً من السنة أهبك إياها، كل يوم بصباح، بظهر، بمساء.

«أوهو. أوهو»، يصرخ راينهولد عبر الغابة. هذا هو راينهولد، ويردان: «أوهو، أوهو» يخبئ كارل في مكان ما، أما ميتسي فتصبح أكثر جدية حين يصل راينهولد.

ها قد نهض الشرطيّان باللباس الأزرق من على الحجر. وقالوا، المراقبة كانت ستمرّ دون نجاح، وانسحبوا شيئاً فشيئاً على نحو غير ملحوظ، لا نستطيع القيام بأي شيء، هنا لا تحدث في الحقيقة إلا أشياء سخيفة، ليس في وسعنا أن نقدّم إلا تقارير كتابية إلى الجهات المسؤولة. وإذا كان سيحدث شيء ما سيرى المرء في هذه الحال، عندئذٍ سيخذ هذا مكانه على عمود الإعلانات.

أما في الغابة فقد مشى هناك ميتسي وراينهولد وهدما، بضعة عصافير صوتت وزقزقت زقزقات خفيفة. فوق بدأت الأشجار تغني.

غنت شجرة، ثم غنت أخرى، ثم غنتا معا، ثم توقفتا من جديد، ثم غنتا فوق رأسيهما كليهما.

إنه حصّاد، واسم هذا الموت، أوتي قوة من الرب العظيم. الآن يشحد السكين، الآن تقطع على نحو أفضل.

«آه، كم أنا في الواقع مسرورة، أنني الآن في فراينفالدي من جديد، ياراييهولد. أنت تعرف أول أمس أيضاً، كان جميلاً حقاً، ألم يكن هذا جميلاً؟» «إلا أنه كان قصيراً بعض الشيء، يا آنسة، كنت متعبة، ودققت الباب عليك، لم تفتحي» «الجو محرق والسفر بالسيارة وكل شيء» «ألم يكن جميلاً بعض الشيء؟» «طبعاً، ماذا تقصدين؟» «أعني حين يمشي المرء هكذا بصحبة آنسة جميلة مثل هذا الجمال».

«آنسة جميلة، لا تبالغ. فأنا لا أقول: سيد وسيم مليح» «وأنتك تمشين معي - «وماذا في ذلك؟» «أظن أنه لم يعد هناك الكثير لتعرفيه في. وأنتك تمشين معي، يا آنسة، لك أن تصدّقي أن هذا يسرني في حقيقة الأمر» شاب لطيف. «أليس عندك صاحبة؟» «صاحبة، أي شيء يطلق عليه اليوم اسمه صاحبة» «ما هذا؟» «أي وحقّ الله. هناك بنات من كل الألوان والأصناف. أنت لا تعرفين هذا يا آنسة. عندك أنت صاحب، وهذا مستقيم وموثوق به، وهذا يفعل لك شيئاً. أما البنت، فلا مطلب لها إلا أن تستمتع، القلب، شيء كهذا لا تمتلكه» «أما بخصوص هذا فحظك سيء» «أنت ترين، يا آنسة، من هنا جاءت المسألة - مسألة تبادل النساء. لكن هذا لا تودين سماعه» «ولو، ليس لك إلا أن تحكي. كيف كان هذا بالله عليك».

«أستطيع أن أقول لك بالتمام والكمال وستفهمين هذا الآن أيضاً. هل تستطيعين الاحتفاظ بامرأة أكثر من بضعة أشهر أو بضعة أسابيع إن لم يكن في

هذه شيء ما؟ على رسلك؟ قد تنتقل هنا وهناك، وليس فيها شيء، لا تفهم، تتدخل في كل شاردة وواردة أو ربما تشرب؟» «إنه لمقرف» «أرأيت، يا ميتسي، جرت الأمور معي على هذا النحو، وستجري مع شخص آخر على هذا النحو. سقط متاع، نفاية، ليس إلا. جيء بهذا من صندوق القمامة. أتريدين الزواج بمثل هذا؟ أنا ولا ساعة واحدة. في هذه الحال قد يتحمل المرء هذا بعض الشيء، ربما بضعة أسابيع وبعد ذلك يصبح هذا مستحيلاً، ومن ثم يجب عليها أن تمضي في حال سبيلها وأنا أجلس من جديد في المكان الذي أنا فيه. ليس هذا بجميل. أما هنا فإنه لجميل» «في هذا شيء من التغيير أيضاً؟» يضحك راينهولد: «ماذا تقصدين بذلك، يا ميتسي؟» «أجل، أجل. البعض يودّ هذا أيضاً؟» «ولم لا، ما هذا، فالجميع هم بشر».

يضحكان ويمشيان ذراعاً بذراع، الأول من أيلول. الأشجار لم تكفّ عن الغناء. إنه وعظ مستفيض.

كل شيء، كل شيء له زمنه، كلّ إجراء تحت السماء له ساعته، كل شيء له ساعته، كل شيء له سته، مولود وميت، غرس واستئصال، الشيء المغروس، كل شيء، كل شيء له وقته، خنق وشفاء، هدم وبناء، بحث وضياع، له زمنه، الاستبقاء والطرح جانباً له زمنه، تمزيق وتخييط، صمت وكلام. كلّ شيء له وقته. لهذا لاحظت أنه لا شيء أحسن من أن تكون منشراح الصدر. أفضل من انشراح الصدر. انشراح الصدر، لنكن منشرحي الصدر. لا شيء تحت الشمس أحسن من الضحك وانشراح الصدر.

راينهولد يمسك بيد ميتسي، يمشي على يمينها. يا للذراع القوية التي يمتلكها. «أتعرفين، يا ميتسي، الحقيقة أنه لم تكن لديّ الجرأة لكي أدعوك،

أنداك، تعرفين» ومن ثم نسير نصف ساعة، نتكلم قليلاً. إنه لخطر السير طويلاً وعدم الكلام. لكن المرء يحسّ بذراعه اليمنى.

تري أين أجلس أنا هذا الإنسان الغريب الأطوار الحلو، إنها إنسان مضحك بصورة خاصة، وقد أحتفظ بهذه البنت لنفسى أيضاً، يجب الاستمتاع، قد أسوقها قسراً إلى الفندق في الليل، في الليل حين يطلع ضوء القمر. «إن لك على اليد ندبات ليس إلا، أنت موشوم أيضاً، على الصدر أيضاً؟» «أجل، أتريدين أن تري هذا؟» «لماذا تشم نفسك؟» «بحسب الظروف، أين، يا آنسة» تضحك ميتسي ضحكة صبيانية وتتأرجح بذراعه. «أتصور هذا، كان لي صاحب، قبل فرانس، وكم زوّق هذا نفسه، ولا تعليق على هذا» «هذا مؤلم، لكنه جميل. أتريدين أن تري يا آنسة؟» عندئذٍ يترك ذراعها ويفكّ بسرعة الأزرار عن صدره ويكشف عن الصدر، هاك. إنه سندان، إكليل غار حوله. «هلاً تغطيت الآن، يا راينهولد» «هاك، انظري بهدوء» اللهب في داخله، الاشتهاء الأعمى، يمسك رأسها، يضغط به على صدره. «قبلي، أنت، هيا قبلي، عليك أن تقبلي» إنها لا تقبل، يبقى رأسها حيث هو مضغوطاً تحت يديه: «هياً اتركني» يتركها: «لا تتحرجي، يا امرأة» «أنا ذاهبة، سأصرف» «يا لها من حمارة، سأخنقك، وكيف تتكلم هذه معي. يزور القميص. سأحصل على هذه، إنها تتظاهر، رويداً رويداً، صبراً جميلاً يا ولد» أنا لم أوذك، زرري لي. هكذا. ستكونين قد شاهدت رجلاً».

أي شيء أريده أنا في الحقيقة عند هذا الرجل هنا. فقد نفس لي الشعر، إنه شخص فظّ مشاكس، أنا ذاهبة. كل شيء له أوانه. كل شيء، كل شيء.

«لا تكوني هكذا، يا آنسة، لم يكن هذا إلا للحظة واحدة، أنت تعرفين أن هناك في حياة البشر لحظات في بعض الأحيان» «ومن أجل ذلك لا داعي إلى

أن تمسك رأسي» «لا تشتمي يا ميتسي» سأمسك بعدها في موضع آخر. الحرارة الشديدة الطاغية من جديد. المهم أن أمسك هذه» ميتسي، هلاً حافظنا على السلم من جديد؟» «إذن، كن مؤدباً» «اتفقنا» ذراع بذراع. يتسم لها، يتسم هي تجاه العشب. «لم يكن الأمر فظيلاً إلى هذا الحد يا ميتسي، أليس كذلك؟ نحن لا ننبج إلا هكذا نباحاً، نحن لا نعص» «أفكر في الأمر لماذا عندك هناك سندان» «ماذا يخطر ببالك يا ميتسي؟» «لا شيء. أنا لا أعرف» «إنه شعاري» «سندان؟» «أجل. هنا ينبغي أحدهم أن يستلقي» يتسم لها ابتسامة الشئمة. «حقيقة إنك إنسان قذر. كان يجمل بك أن تضع سريراً على هذا» «لا، السندان أفضل. السندان أفضل» «هل أنت حداد؟» «شيء من هذا القبيل أيضاً. واحدنا كل شيء. إلا أنك لم تفهمي بعد هذا بخصوص السندان يا ميتسي. ليس مسموحاً لأحد أن يجرح مشاعري، يا آنسة، وإلا شت حريق على الفور. لكن ليس عليك أن تظني أنني سأعص على فوري، وعندك أبداً. الحق أننا نمشي نحن هنا على نحو غاية في الجمال، كما أن بي رغبة في أن أجلس أيضاً، في حفرة» «أنتم كلكم صبيان هنا عند بومز؟» «بحسب الظروف يا ميتسي. ليس من السهل التعامل معنا» «والله، وأي الأشياء كلها تقومون بها هنا؟» كيف أنال منك أولاً بأول في حفرة، وما من مخلوق يمشي هنا. «أي، ميتسي، الأفضل أن تسألني صاحبك فرانس عن هذا، فهو يعرف كل شيء معرفة جيدة مثلي أنا.» «لكن لا تقل لهذا» «حسن هذا. ذكي هو هذا. الأفضل عدم القول.» «لكن أنا» «ماذا تريدون أن تعرفني؟» «ماذا تفعلون؟» «هل أحظي منك بقبلة؟» «إذا ما قلت لي.»

عندئذٍ يحتويها بين ذراعيه. إن لهذا الولد ذراعين. وكم يستطيع الضم. لكل شيء زمنه، غرس واستئصال، بحث وضياع. انقطع النفس عني. هذا لا

يفلنتني. إن هذا حار. هلاً تركتني. إن فعل هو هذا عدة مرات بهذه الطريقة فأنا ميتة. يا ويحي، عليه أن يقول أولاً ما المسألة مع فرانس، ماذا يريد فرانس في الواقع وكل ما كان وماذا يفكر هؤلاء. «الآن تركني يا راينهولد» «فليكن» ويتركها، يقف، يرتمي أمامها على الأرض، يقبل حذاءها، إن هذا لمجنون، يتابع تقبيل جوربيها، يتابع إلى فوق، يقبل ثوبها، يديها، كل شيء له زمنه، إلى الأعلى حتى العنق. تضحك هي، تضرب من حولها: ابتعد، ابتعد، يا رجل، إنك لمجنون» كيف يحترق هذا، لا بد من وضعك تحت الدش. يتنفس ويلهث، يريد أن يتمرغ على عنقها، يتلعثم، على أن هذا غير مفهوم، يترك عنقها وحده، مثل هذا مثل ثور. ذراعه على ذراعها، يمشيان، الأشجار تغني «انظري، يا ميتسي، هاك حفرة جميلة، هذه بنيت من أجلنا - أنظري. إنها حفرة مخصصة لنهاية الأسبوع. هنا طبخ أحدهم فيها. هلاً جربناها. فيها يوسخ المرء بنطاله» علي أن أقعد، فقد يتكلم بعدها على نحو أفضل» لا مانع عندي. الأحسن وضع معطف تحت» «انتظري، سأخلع سترتي» «جميل منك».

هنا يستلقيان بالميل إلى أسفل في تجويف عشبي، تدفع بقدمها بعيداً عنها علبة طعام محفوظ، تتقلب على جسدها وتضع بلا حرج ذراعاً فوق صدره. ها نحن هنا. تبسم له. حين يزيح الصدرية عن صدره جانباً ويظهر السندان لا تزيح رأسها» الآن تحدثني عن شيء ما يا راينهولد» يضمها إلى صدره، ها نحن هنا، جميل، ها هي البنت، كل شيء على ما يرام، بنت رائعة، متأنقة، سأحتفظ بهذه طويلاً، في مقدور فرانس أن يصرخ بقدر ما يشاء. لن يحصل عليها، لن يحصل عليها عاجلاً. وينزلق راينهولد إلى أسفل ويسحب ميتسي فوقه ويضمها بين ذراعيه ويقبل فاهها. يمصمص، لا خاطر عنده، اللهم إلا اللذة والشهوة والوحشية، وها إن كل مصافحة تملئ والمرجو إلا يأتي أحد لكي يحول هنا دون

شيء ما. ثم يتفجر الموقف ويتشظى، وحيال ذلك لا تستطيع عاصفة هوجاء أو صخور متساقطة أي شيء، هذا طلقة من مدفع، لغم ينفجر. وما ينفجر تجاه ذلك يغلب عليه، يضغط جانباً، كمان، يتتابع الأمر ويتتابع.

«ليس بمثل هذه الشدة يا راينهولد» هذا يضعفني؛ إذا لم أتمالك نفسي امتلكني «ميتسي» يطرف بعينه إلى فوق، لا يتركها: «أي، ميتسي الصغيرة» «أي، راينهولد» «ماذا تدرسين علي؟» «أنت، إنه لأمر غاية في السوء ما تفعله أنت بي. منذ متى تعرف فرانس؟» «صاحبك فرانس؟» «نعم» «صاحبك فرانس، أيعقل أنه ما زال صاحبك؟ من صاحبتك؟ من أنا؟» «لماذا؟» تريد أن تخفي رأسها على صدره، إلا أنه يضغط على الرأس عالياً: «أي، من أنا؟» «لماذا؟» ترتمي عليه، تضغط على فمه، وتستعر النار فيه من جديد، إني أنا طيبة معه بعض الشيء أيضاً، كيف يتمطى هو وتستعر النار في داخله. ليس هناك كميات من الماء ولا خراطيم ماء ضخمة لرجال الإطفاء الذين يستطيعون إطفاء هذا، نار تندلع من المنزل ويندلع لسان اللهب من الداخل. «هكذا، والآن اتركني من جديد» «ماذا تريدين، يا بنت؟» «لا شيء. أن أكون عندك».

«إذن، أنا صاحبك أيضاً، أليس كذلك؟ هل دبّ الخلاف بينك وبينه، يا ميتسي؟» «لا، هلاً حدثني شيئاً عنه، أنت، تعرفه من زمن طويل» «لا أستطيع أن أحكي لك عن هذا» «أوخ» «لن أحكي يا ميتسي» يمسكها، ويطحها جانباً، تصارعه: «لا، لا أريد» «لا تكوني عنيدة يا بنت» «أريد الذهاب. هنا يتوسخ المرء كلياً».

«وإذا حدثت شيئاً ما؟» «أجل، هذا جميل» «أي شيء أحصل عليه يا ميتسي؟» «ما تريده أنت» «كل شيء؟» «سنرى» «كل شيء؟» وجههما كانا معاً،

يتوهجان؛ لا تقول شيئاً، أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل، من خلاله يكون إطلاق النار، أبعدى الأفكار، لا أفكار، فقدان وعي.

ينتصب واقفاً، دعك الوجه، يا سلام، الغابة، الحق أن المرء سيتسخ هنا. «سأحكي لك عن صاحبك فرانس. فأنا أعرف هذا من زمن طويل. أتعرفين، يا امرأة، إنه إنسان مضحك غريب. ومن الحانة أعرف هذا، شارع برييتسلاو. الشتاء الماضي. كان يبيع الصحف. وعرف هذا شخصاً هناك، هو ميك، تماماً. هناك تعرفت أنا عليه. ثم أكلنا معاً وعن النساء سبق أن حكيت لك» «أهذا حقيقي؟» «إنه لحقيقة. إنما هو مغفل، بيركوبف هذا، الرأس الغبي. بهذا لا يستطيع أن يتباهى، هذا مني أنا، هل تتصورين أن هذا ساعدني في الحصول على النساء؟ يا إلهي، نساؤه. لا، لو أني أخذت برأيه لكنا التحقنا بجيش الإنقاذ لكي تتحسن أحوالي» «لكنك لم تحسن أحوالك يا راينهولد» «لا، ها أنت ترين، ليس في الإمكان عمل أي شيء معي. ينبغي استخدامي كما أنا. هذا أشبه بترديد أمين في الكنيسة ولا سبيل إلى تغيير أي شيء في ذلك. أما هذا، يا ميتسي، ففي الإمكان تغيير شيء ما فيه. يا ميتسي، قوادك، إنك لفتاة حلوة. يا بنت، كيف لك أن تنبشي رجلاً مثل هذا، بذراع واحدة، فتاة بمثل هذا الحسن، وإنك ستحظين بعشرة على عدد أصابع اليد؟»

«لا تهذي يا رجل» «لكنه بديهي، فالحب أعمى في كلتا العينين، إنما لا يصدق. أتعلمين ماذا يريد هذا عندنا الآن، قوادك هذا؟ يريد الآن أن يلعب دور الخلل الوفي عندنا. عندنا بالذات. أولاً أراد أن يرسلني هذا إلى دكة الكفارة. جيش الإنقاذ، وتأتي له هذا إلى حين. والآن» «لا، ليس عليك أن تشتمه هكذا. لا أستطيع أن أسمع هذا» يا الله، يا الله، أعرف، أما زال صاحبك فرانس، صاحبك فرانس العزيز، دائماً وأبداً؟ «لم يمسك بسوء يا راينهولد».

كُلّ شيء له زمنه، كُلّ شيء، كُلّ شيء. الرجل الرهيب هذا، ينبغي أن يتركني، لا أريد أن أعرف عنه أي شيء، لا داعي إلى أن يحكي لي أي شيء. «لا، إنه لا يسيء إلينا بأية إساءة، يصعب عليه، يا ميتسي. لكن في هذه الحال وقعت على شخص طيب، يا ميتسي، ألم يحك لك عن ذراعه؟ ماذا؟ إنك أنت عروسته، أم إنك كنت! تعالي يا ميتسي، يا نور عيني، لا تتحرجي» ماذا أفعل، لا أريد هذا. الغرس له وقته والافتلاع، الخياطة والتزيق، البكاء والرقص، الشكوى والضحك. «هيا تعالي، يا ميتسي، أي شيء تريدينه عند مغترّ نفسه مثل هذا، أنت حلوتي، لا تسلّمي نفسك. وبها أنك عند هذا فأنت لست كونتيسة بعد. افرحي أنك تخلّصت منه» «افرّح أنت، لماذا ينبغي أن أفرح أنا» والآن يستطيع أن يولول، الآن لم تعد عنده ميتسي» «ضع نهاية الآن لهذا الكلام، لا تضغط عليّ بهذا الشكل يا رجل، فأنا لست من حديد».

«لا، من لحم، من لحم طيّب، أعطني فاك الصغير.» «ما هذا، يا رجل، لا يصحّ أن تضغط عليّ. لا تتوقع بأن تتحقق لك هذه الأمنية. أين أكون أنا صاحبتك ميتسي؟»

خروج من الحفرة. القبعة تمّ تركها تحت. سيهوي عليّ هذا ضرباً، أنا أركض. - لم ينهض هو بعد من الحفرة - حتى راحت تصرخ، تصيح صارخة «فرانس» وتركض. عندئذٍ يقوم هو ويركض وبقفزة قوية يسبقها، هو بلا سترة. كلاهما يستلقي عند شجرة. هي تتقلب وتتخبط، هو فوقها، يمسك فمها:

«أتصرخين يا حمارة، ها أنت تعاودين الصراخ، لماذا تصرخين، هل أوذيك بشيء، اهدهي، هيا؟ فهو أبقى لك منذ وقت قريب على العظام كلياً، انتبهي، الأمور تجري عندي على نحو آخر.» يسحب يده عن فمها.

«لن أصرخ»، «إذن، هذا جميل. والآن تنهضين، أنت، تعودين وتأتين بقبعتك، أنا لا أغتصب امرأة، طوال حياتي لم أفعل هذا. لكن ينبغي لك إلا تجعليني أسارع إلى ذلك وأكون لحوحاً. في هذه الحال يطول الأمر».

يسير وراءها.

«ما كان عليك أن تضايقي فرانس هذا، يا أنت، حتى لو كنت أنت عاهرتة أيضاً» «أنا ذاهبة الآن».

«ماذا يعني هنا ذاهبة. أنت هزمت هزيمة منكرة. أنت لا تعرفين مع من تتكلمين، بهذه الطريقة تستطيعين أن تتكلمي مع صاحبك المغتر بنفسه» «أنا- لا أعرف ماذا ينبغي لي» «أن تذهبي إلى الحفرة وتكوني لطيفة».

حين يريد المرء أن يذبح عجلاً صغيراً يربط حبلًا حول عنقه ويسير به إلى منصة الذبح والتقطيع. ثم يرفع العجل الصغير عاليًا، يضعه على منصة الذبح ويوثق ربطه.

يسيران إلى الحفرة. يقول: «استلقي» «أنا؟» «حذار أن تصرخي! يا بنت، أنا أحبك، وإلا ما كنت جئت إلى هنا، أقول لك: فيما لو كنت لا تزالين أيضاً عاهرتة فأنت لم تصبحي بعد كونتيسة. لا تصرخي، يا أنت، ولا عملي معي من الحبة قبة. تعرفين، ما من أحد بعد طاب له هذا. في هذه الحال لا يمكن أن يكون إلا رجلاً أو امرأة أو طفلاً، عندها أكون أنا حساساً، سريع التأثر بالدغدغة. في هذا الحال يمكنك أن تطرقي الباب عند قوادك. في وسع هذا أن يحكي لك شيئاً. في حال أنه لا ينجل، هذا. أما مني ففي وسعك أن تسمعي أيضاً. أستطيع أن أقول لك لكي تعرفي أي شخص هو هذا. وحيثما يكون دورك تبدئين عندئذ معي. لقد أراد هو ما كان هنا فوق في عقله. ربما يريد أن

يغدر بنا أيضاً. لقد حرس هذا مرة من المرات حيث اشتغلنا. يقول إنه لن يشارك، وإنه إنسان مستقيم. وهذا ليست عنده ثقب في جوربه ولا عيوب عنده. وها أنا أقول عليك أن تأتي أيضاً. وفي هذه الحال ينبغي أن يصعد إلى السيارة وأنا لا أعرف بعد ماذا اصنع بالرجل، فهو دائماً كثير الثثرة، مهلاً وإذا بسيارة آتية خلفنا ويخطر ببالي، عليك أن تحترس الآن، يا بني، أنت بمباهاتك بالاستقامة أمامنا فاخرج إذن من السيارة. والآن تعرفين أين فقد ذراعه».

يدان باردتان، قدمان باردتان، كان هو الفاعل.» تستلقين الآن هنا وأنت لطيفة كما تقضي اللياقة.» هذا قاتل مجرم. «أنت ابن كلب، أنت وغد» تتهلل أساريه. «أترين. الآن تصرخين من كل قلبك» الآن تستطيعين. تصرخ عالياً وتبكي: «أنت يا ابن الكلب، أردت أن تقتله، أنت من سبب له الشقاء والتعاسة، تريد أن تحطى بي الآن، أنت أيها الخنزير» «أجل، هذا ما أريده.» «أنت أيها الخنزير. أنا سأبصق عليك» يغطي فمها بيده: «قاتل، النجدة، فرانس، فرانس العزيز، تعال».

أوانه! أوانه! كل شيء له أوانه. خنق وشفاء، هدم وبناء، تمزيق وتخييط، له زمنه. تنطرح على الأرض لكي تفرّ. يتصارعان في الحفرة. النجدة يا فرانس. سنقترف جريمة، وصاحبك فرانس سننسطه، ها قد صار له ما يعود عليه بنفع طوال الأسبوع. «أريد الذهب» «ها إنها تريد الذهب. وكم من واحد أراد الذهب».

يجثو من فوق على الظهر، يدها تحيطان بعنقها، الإبهامان في القفا، جسدها يتقلص، يتقلص، جسدها يتقلص. له زمنه، يولد ويموت، يولد ويموت، كل شيء.

قاتل تقولين أنت، وإلى هنا تغرينني، ولربما تريدان أن تسخري مني
وتعملي بي مقلباً، أيتها المرأة، ها أنت تعرفين راينهولد معرفة جيدة.

عنف، عنف، إنه حصّاد، منحه الربّ المتعال السلطة والجبروت. اتركني.
ما زالت ترتمي، تتقلّب وتتخبّط، تلبط إلى الخلف. هذا الطفل سنهزهزه، عندئذٍ
يمكن أن تأتي الكلاب ويمكنها أن تلتهم ما تبقى منك.

جسدها يتقلص يتقلص، جسد ميتسي. قاتل تقول هي، فلتشهد هي هذا،
هذا ما كلّفك به، صاحبك فرانس اللطيف الرقيق.

على هذا يضربون بالهراوة الخشبية على عنق الحيوان ويفتحون بالسكين
الشرابين على كلا جانبي العنق. الدم يجمعونه في أحواض معدنية.

إنها الساعة الثامنة، الغابة مظلمة بعض الشيء. الأشجار تتمايل وتتأرجح.
كان عملاً صعباً. أتقول هذه شيئاً ما بعد؟ لم تعد تلهث، هذه البهيمة. هذا ما
يجنيه المرء عندما يقوم بنزهة مع حمارة من هذا النوع.

أدغال ألقيت فوقها، منديل على الشجرة التالية لكي يتم العثور عليها،
خلصت منها، أين كارل، يجب إحضاره إلى هنا. بعد ساعة من الزمن عودة مع
كارل، يا لهذا من رجل حامل، يرتعش كارل وترتخي ركبته، أينبغي العمل مع
مبتدئ كهذا. الدنيا أظلمت، يبحثان بمصباح جيب. ها هو منديل الجيب. يأتیان
برفش من السيارة. الجسد يدفن، رمل فوقه، أدغال فوق ذلك، كل شيء إلا آثار
أقدام، يا رجل، يجب إزالتها دائماً، تمالك نفسك، يا كارل، أنت تتصرّف لكأنها
الدور عليك.

«إذن، ها هو جواز سفري، جواز سفر صالح، يا كارل، ها هي النقود
وأنت تنسلّ وتتوارى عن الأنظار ما دام الموقف خطيراً، ومادام الجو ملبداً

بالغيوم. المال ستحصل عليه، لا تقلق. العنوان دائماً عنوان بومز. سأعود أدراجي. لا أحد رأي، وما من أحد يستطيع أن يسيء إليك، فأنت عندك إثبات بالغياب عن مكان الجريمة عند وقوعها. تمام، هيا.

الأشجار تميل ذات اليمين وذات اليسار. كل شيء، كل شيء.

إنه ظلام حالك. وجهها قتل ضرباً، أسنانها قتلت ضرباً، عيناها قتلتا ضرباً، فمها، شفتاها، لسانها، عنقها، جسدها، ساقاها، حجرها، أنا صديقتك المخلصة، ينبغي أن تواسيني، قسم شرطة سكة حديد شتيتين، آشينغر، نفسي غثيت، هلاً جئت، سنكون بعد قليل في البيت، أنا صديقتك المخلصة.

الأشجار تميل يمنة ويسرة. بدأت الريح تعزف. هو، هو، هو، هو، هو - أو - أو. الليل يستمر. جسدها قتل ضرباً، عيناها، لسانها، هلاً جئت، سنكون بعد قليل في البيت، أنا صديقتك المخلصة. شجرة تقطق، هذه تنتصب على الحافة. هو، هو، هو، هو، هو - أو - أو، إنها العاصفة، وتأتي هذه مع الطبول والنيايات، إنها تجثم في أعلى الغابة. الآن تتدلى، حين تصفر الريح تصير هي تحت. العويل يأتي من الأدغال. يبدو كأنها شيء تم حفره، إنه صفير مثل عواء كلب محبوس يصرصر ويعوي عواء يتخلله أنين، اسمع كيف يعوي هذا عواء ملؤه الأنين، لا بد أن أحدهم داس عليه، لكن بالكعب، والآن يسكن ثانية.

هو، هو، هو، هو - أو - أو، العاصفة تهب من جديد، إنه الليل، الغابة هامدة، شجرة بجانب شجرة. سمقت في هدوء، تجمعت مثل قطع، حين تتجمع بعضها لصق بعض، فلا يسهل على العاصفة أن تصل إليها، إلا التي هي في الخارج والتي هي ضعيفة فعليها أن تتحمل النتائج المحتملة. لكن لتتأسك، الآن جماعة - صفاً، الوقت ليل، الشمس غابت، هو، هو، هو، هو، هو، إنها تبدأ

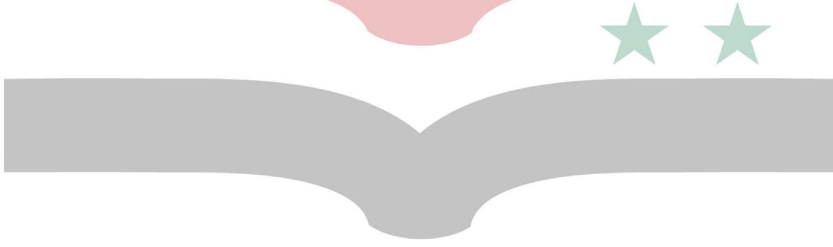
من جديد، ها هي هنا، إنها تحت وفوق ومن كل جهة. ضوء برتقالي في كبد السماء، ليل من جديد، ضوء برتقالي، ليل، ويشدّ العويل والصفير. وما هو موجود على الحافة يعرف ما ينتظره، فهذا يعول، والأعشاب، إلا أنّ هذه تستطيع أن تنحني، وتستطيع هذه أن تتموّج، لكن أيّ شيء تستطيع الأشجار الشخينة. وفجأة لم تعد الريح تهبّ، فقد تخلّت عن هذا، لم تعد تفعل ذلك، ما زالت الأشجار تصرّ منها، ماذا تنوي الريح أن تفعل الآن.

حين يريد المرء أن يقوِّض منزلاً فلا يستطيع أن يقوم بذلك باليد، على المرء أن يأخذ مدكاً أو أن يضع تحته متفجرات. الريح لا تقوم بأيّ شيء آخر إلا بأن توسّع صدرها قليلاً. حذار، إنها تتنفس الشهيق، ثمّ تزفر، هوّه، هوّا، أوّه - أوو - هوّه، ثمّ تشهق شهيقاً، ثمّ تزفر زفيراً، هوّه، هوّا، أوّه - أوو - هوّه، ويتدحرج الجبل نزولاً ويتدحرج رجوعاً، وتزفر، هوّه، هوّا، أوّه - أوو - هوّه. ذهاباً وإياباً. النَّفس ثقلٌ، مقذوف ناريّ يندفع ويرتطم بالغابة. وحين تكون الغابة على التلال مثل قطيع تدوس الريح القطيع وتمرق منه دون أن تتوقف.

الآن يعمل هذا: فوم - فوم (عزيف - عزيف)، بدون طبول وبدون نايات. الأشجار ترنح يمناً ويسرة. فوم - فوم (عزيف - عزيف). إلا أنها لا تستطيع أن تحافظ على الإيقاع. فإذا ما كانت الأشجار على الجهة اليسرى تماماً انتقل العزف إلى اليسار، تنشي منقصفة، تطقطق، وتخشخش، تتكسّر وتسقط مطلقاً وتهمد. العاصفة تحدث عزيفاً. عليك أن تلزم اليسار. هوّه هوّا، أوو، هوّه، إلى الوراء، قد مضى وانتهى هذا، راح، ما على المرء إلا أن يتحين اللحظة المناسبة. فوم (عزيف)، ها إنها تعود من جديد، انتباه، عزف وقصف، عزف وقصف، عزف وقصف، إنها قنابل، تريد العاصفة أن تجعل الغابة قاعاً صفصفاً، تريد أن تضغط عليها حتى الموت.

الأشجار تتحب وتأرجح، إنها تطلق، تنكسر، تنقص، فوم (عزيف)،
الحياة في خطر، فوم (عزيف)، فوم (عزيف)، الشمس غابت، أثقال تسقط، ليل،
فوم فوم (عزيف عزيف).

أنا لك، هلاً جئت، سنصل بعد قليل، أنا المخلصة لك. فوم فوم (عزيف
عزيف).



الهيئة العامة السورية للكتاب

الكتاب الثامن

لم يجد نفعاً. ما زال الأمر لا يجدي نفعاً. لقد تلقى فرانس بيركوبف ضربة المطرقة، هو يعرف أنه ضائع، هو لا يعرف بعد لماذا.

فرانس لا يلاحظ أي شيء والكون لا يتوقف

الثاني من أيلول. فرانس يدور كالمعتاد، يسافر مع التاجر الجسور إلى الحمام المكشوف فانزي. في الثالث، يوم الاثنين، يعجب من أن ميتسي غير موجودة، كما أنها لم تقل أي شيء، والمؤجرة لا تستطيع أن تتذكر أي شيء. فهي لم تتصل بالهاتف أيضاً. ترى هل قامت برحلة قصيرة مع صاحبها الكبير المقام وولي نعمتها، وقريباً سيحرر نفسه منها. لنتنظر بعد حتى المساء.

إنه وقت الظهر، فرانس يجلس في البيت، دق الجرس، يريد بالهواء المضغوط، من ولي نعمتها، إلى ميتسي. ما هذا، ما الأمر، أظن أنها هناك، ما الأمر. أنا سأفصّل الرسالة: «وأعجب أنا، يا صونيا أنك لم تتصلي مرة واحدة. أمس وأول أمس انتظرتك كما تواعدنا في المكتب.» ما هذا، أين توارت هذه.

ينهض فرانس، بحث عن القبعة، لا أفهم، فلأنزل إلى عند السيد، تاكسي. «ألم تكن هي عندك؟ متى كانت آخر مرة هنا؟ الجمعة؟ أهكذا؟» ينظر كل منهما إلى الآخر. «أنت عندك ابن أخ، ربما هو معها؟» يجنّ جنون السيد، ماذا، فليات هذا إليّ على فوره، ولتبق أنت هنا. يشربان ببطء نبيذاً أحمر. ويأتي ابن الأخ. هذا هو صاحب صونيا، هل تعرف أين هي؟ «أنا، ما الخطب؟» «متى رأيتها أنت آخر مرة؟»

«كان هذا منذ زمن، قبل نحو أسبوعين» «صحيح. هي حدثني بذلك. وبعد ذلك لم ترها؟» «لا» «ولم تسمع شيئاً؟» «لا على الإطلاق، لماذا، ما المسألة؟» «السيد هنا سيقول لك» «لقد راحت، منذ يوم السبت، ولم تقل حرفاً واحداً، كل شيء يلازم مكانه، ولا كلمة إلى أين» ولي النعمة: «أيحتمل أن تكون تعرّفت على أحدهم» «لا أظن» ويشربون ثلاثتهم نبيذاً أحمر. فرانس يجلس هادئاً: «أعتقد أنه يجب الانتظار قليلاً».

وجهها قتل ضرباً، أسنانها قتلت ضرباً، شفتاها، لسانها، عنقها، جسدها، ساقاها، حجرها قتل ضرباً.

في اليوم التالي ليست موجودة. هي غير موجودة. كل شيء يلازم مكانه كما تركته هي. هي ليست موجودة. ترى هل تعرف إيّفاً شيئاً ما. هل تشاجرت معها يا فرانس؟» «لا، قبل أسبوعين، لكن كل شيء تحسّن من جديد» «تعارف جديد؟» «لا، حدثني عن ابن أخ سيّدها، إلا أنه كان حاضراً ورأيت» «ربما، إنما ينبغي مراقبة هذا، ربما كانت عنده» «أتعتقدين؟» «ينبغي الانتباه. لا أحد يعلم ما عند ميتسي. فهذه لها مزاجها».

هي ليست موجودة. فرانس لم يعمل شيئاً طوال يومين، يخطر بباليه، لن أجري وراء هذه. ثم إنه لا يسمع أيّ شيء، ولا يسمع شيئاً ثم يعدو طوال النهار وراء ابن الأخ، وفي ظهر اليوم التالي وحين تخرج المؤجرة من عند ابن الأخ يدلف فرانس مع التاجر الجسور بسرعة إلى المنزل، ويسهل فتح الباب بكلاّب، ما من مخلوق في المنزل، في غرفته كتب وليس غير الكتب، لا شيء ينم عن صورة لامرأة، لوحات جميلة على الجدار، كتب، وهذه ليست هنا، إنني أعرف مسحوقها، فرائحته لا تفوح هكذا، هيا بنا نصرف، لا تأخذ معك أي شيء، دع المرأة الفقيرة، فهي تعيش من تأجير الغرفة.

ما الخطب. فرانس يجلس في غرفته. طوال ساعات. أين ميتسي. راحت هذه وانقطعت أخبارها. ماذا يقول الناس. كل شيء محبب وفوضي في الغرفة، السرير مفكك وأعيد جمعه. وتلك تتخلى عني. لا يجوز. لا يجوز. هي تتخلى عني. هل فعلت أنا شيئاً، وهل أسأت إليها بشيء. إن الذي بينها وبين ابن الأخ تجعلني لا أشعر به.

من القادم؟ إيفا. «أنت جالس في العتمة، يا فرانس، هلاً أشعلت الغاز؟» «ميتسي هجرتني. هل هذا ممكن؟» «دعك من هذا يا رجل. ستعود. إنها تحبك، لن تتركك، وأنا لي معرفة بالبشر» «أعرف كل شيء. أظنني أني أغتم لذلك؟ ستأتي هذه» «أرأيت. سيكون حدث للبت أمر ما، كأن تكون التقت أحدهم من أيام زمان وتقوم برحلة على جناح السرعة. أنا أعرف هذه من أيام زمان قبل معرفتك أنت بها، وهذا ما تقوم هي به، لديها خواطر» «إنه لمضحك. لست أدري» «إنها تحبك، يا رجل. هلاً نظرت، امسك بطني بيدك يا فرانس» «ما هذا؟» «منك، أنت تعرف، شيء صغير. هي أرادت هذا، ميتسي» «ماذا؟».

«أجل».

يضغط فرانس برأسه على بطن إيفا: «من ميتسي. دعيني في حالي. غير ممكن».

«انتبه يا فرانس، حين تعود هذه ستكون حردة» عندئذ تبكي إيفا بذاتها. «أرأيت يا إيفا. من المنفعل هنا؟ إنك أنت» «آه، إن هذا ليحطمني تحطياً. أنا لا أفهم هذه البنت» «الآن عليّ أن أواسيك يا امرأة».

«لا، إنها الأعصاب، ليس غير. ربما كان مصدره الصغير» «انتبه حين تعود هذه، ستقيم الدنيا وتقعدها بسبب ذلك» ولا تكف هذه عن البكاء: «ما

الذي ينبغي لنا أن نفعله يا فرانس، ليس هذا من طبعها على الإطلاق» «بادئ ذي بدء تقولين، هي تقدم على مثل ذلك، وتقوم برحلة قصيرة على جناح السرعة مع أحدهم، وبعد ذلك ليس هذا من طبعها» «لست أدري، يا فرانس».

تضع إيفا رأس فرانس على ذراعها. تنظر إلى رأس فرانس: المستشفى في ماجديبورغ، لقد دهسوا ذراع هذا، وإيدا قتلها بالضرب، يا إلهي، ما بال هذا الرجل. إنها لمصيبة على الرجل. ميتسي قد تكون في عداد الأموات. شيء ما يلاحق هذا! شيء ما حدث لميتسي. ترمي على كرسي. ترفع اليدين مذعورةً. فرانس يرتاع. تنشج وتتحب. إنها تعرف أن وراء هذا شيئاً ما، شيء ما حدث لميتسي.

يلحّ عليها، فلا تقول شيئاً. ثم تتمالك نفسها: «لن أتركهم يأخذون الطفل مني». وعندها يمكن لهيربيرت أن ينطح الحائط» «أيقول هو شيئاً ما؟» تخطئ ستة أميال من الأفكار. «لا، يظن أنه منه. إلا أنني سأستبقيه» «هذا شيء جميل، يا إيفا؛ سأكون العراب».

«ما شاء الله، يا فرانس، ولك مثل هذا المزاج الطيب.» «ذلك لأنه ما من أحدٍ سيكون ندائي في القريب العاجل. ولتمرحي يا إيفا؛ و، أنا سأعرف عزيزتي ميتسي؟ لم تسقط تحت عجلات حافلة، هذا سيتين».

«يصح أنك على صواب. إلى اللقاء يا عزيزي فرانس» «هاتي قبلة!».

«كم أنت مبتهج هكذا ابتهاج يا فرانس».

لنا سيقان، لنا أسنان، لنا عيون، لنا أذرع، وفي هذه الحال ينبغي أن يأتي أحدهم، وعلى هذا أن يعصنا، على هذا أن يعص فرانس، في هذه الحال ينبغي أن يأتي أحد ما. فهذا له ذراعان، هذا له ساقان، هذا له عضلات، هذا يقطع كل

شيء إلى قطع. ينبغي أن يعرف أحدهم فرانس، فهذا ليس بإنسان غبي. ما هو وراءنا، ما هو قدامنا، هنا ينبغي أن يصحبنا أحدٌ ما. عندئذٍ نشرب كأساً نخب ذلك، كأسين نخب ذلك، تسع كؤوس نخب ذلك.

ليس عندنا سيقان، آه ثم آه، ليس عندنا أسنان، ليس عندنا عيون، ليس عندنا أذرع، عندئذٍ يستطيع كل واحد أن يأتي، وهذا يستطيع أن يعصّ فرانس الذي هو إنسان غبي، آه ثم آه، فهذا لا يستطيع أن يذود عن نفسه، وهذا لا يستطيع إلا الشرب.

«سأفعل شيئاً ما يا هيربيرت، لا أستطيع أن أرى هذا» «ماذا تريدان أن تفعلين، يا بنت؟» «لا أستطيع أن أرى هذا، فالرجل لا يلاحظ أنه يقعد ويقول، ستأتي هذه، ستأتي، وأنا أتصفح كل يوم الصحف ولا شيء جاء فيها. هل بلغك شيء ما؟» «كلا» «أليس في إمكانك أن تتسقط الأخبار عما إذا كان أحدهم سمع شيئاً ما، سمع من أحدهم؟» «الحق أن كل شيء قطيعة، يا إيفا، ما تقولينه. ما هو غامض في القصة بالنسبة إليك، فهو في الواقع ليس غامضاً عليّ. لكن ما هو؟ البنت تركته. أي والله، في هذه الحال لا ينهك المرء نفسه في هذا أيضاً. إنه سيحظى بواحدة أخرى» «هل ستقول هذا أيضاً في مثل حالي؟» «لنضع علامة وقف (لنغلق الموضوع)، يا إيفا. أما إذا كانت على هذه الشاكلة» «ليست على هذه الشاكلة. فأنا أتيت بها إليه وأنا راجعت في معرض الجثث، كن متبهاً يا هيربيرت، لقد نزل بهذه مكروه. إنها لمصيبة على فرانس، يا رجل، إن وراء هذا شيئاً ما. ألم يبلغك خبر على الإطلاق، يا رجل؟» «أنا لا علم لي بشيء» «في بعض الأحيان يقول شخص ما شيئاً، في النادي. هل رأها أحد؟ لا يمكن أن تكون هذه اختفت من الدنيا. أنا - إن لم تكن موجودة في القريب العاجل سأذهب إلى هناك واذهب

إلى الإدارة العامة للشرطة. «أنت تفعلين ذلك! إلى هناك تذهين!» «لا تضحك، هذا ما سأفعله. عليّ أن آتي بهذه يا هيربيرت، شيء ما حدث هنا، وهذه لم تذهب من تلقاء نفسها، هي لن تفارقني هكذا، ولن تفارق فرانس أيضاً. وهولا يتبته إلى ذلك.» «ليس في وسعي أن أسمع هذا كله على الإطلاق، هذا كله قطيعة، فلنذهب الآن إلى السينما، يا إيفا.»

في السينما يشاهدان جزءاً.

في الفصل الثالث حين يردي أحد قطاعي الطرق الفارس النبيل ظاهراً قتيلاً تنتهد إيفا. وحين ينظر هيربيرت جانباً تنزلق هي مباشرة من على المقعد وتغيب عن وعيها. يسيران بعدها صامتين ذراعاً بذراع في الشوارع. هيربيرت يندهش: «إن صاحبك الشيخ سيجد مسرة فيك حين تكونين هكذا» «هذا رمى ذاك بالرصاص، أنت رأيت، يا هيربيرت؟» «لم يكن هذا إلا في الظاهر، لا شيء وراء ذلك، لم تنتهي. ومن بعد ذلك ما زلت ترتعشين» «عليك أن تعمل شيئاً ما، يا هيربيرت، فالأمر لا يتتابع على هذه الحال.»

«عليك أن تسافري، قولي لصاحبك الشيخ إنك مريضة» «لا، يجب القيام بشيء. هيا تصرّف، يا هيربيرت، فأنت ساعدت فرانس أيضاً حين حدث لذراعها ما حدث، هلاً فعلت هذا الآن أيضاً! أتوسّل إليك!» «لا أستطيع، يا إيفا. ما عساي أن أفعل؟» تبكي. عليه هو أن يجلسها في السيارة.

ليس فرانس في حاجة إلى أن يتسوّل، إيفا تدسّ له في الجيب شيئاً ما، ومن بومز يقبض، تواعدا من جديد على لقاء نهاية أيلول لأمر ما. وفي نهاية أيلول تقريباً يعود السمكري ماطر. كان في الخارج، في التركيب أو شيء من هذا القبيل. حين يرى هو فرانس ثانية يقول إنه كان في نقاهة، فالرئة تالفة. ويبدو عليلاً، كما

أنه لم يستردّ قواه أيضاً على الإطلاق. يقول فرانس إنّ ميتسي راحت، وقد عرف هو هذه؛ إلا أنه ينبغي له إلا يحكي لأحد أي شيء، إذ إنه ليس هناك إلاّ ناس يموتون من الضحك إذا ما هجرت إحداهنّ أحدهم» إذن عدم نقل هذا إلى راينهولد، فقد كانت لي مع هذا فيما مضى مغامرات نسائية، فهذا سيضحك ضحكاً شديداً حين يسمع هذا. ولا آخرين» بيتسم فرانس، «أخبرتهم بعد بذلك أيضاً، ولا أريد أن أخبر أحداً» يبدو فوق الجبين وحول الفم حزينا. إلا أنه يجني الرأس بقوة في العنق ويضغط الفم.

هناك حركة مرور شديدة في المدينة. طوني ظلّ بطلاً عالمياً، إلا أنّ الأمريكيين ليسوا في الحقيقة لاهين ضاحكين لذلك، فالرجل لا يعجبهم. فقد طرح أرضاً في الجولة السابعة حتى الرقم تسعة. ثمّ يترنح ديمبسي من الضربة. إنها آخر لكمة كبيرة لديمبسي. انتهت المسألة في الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والخمسين في الثالث والعشرين من أيلول سنة ١٩٢٨، في وسع المرء أن يسمع عن القصة وعن رقم الطيران القياسي للمسافة كولونيا - لايزيغ، ومن ثمّ يجب أن تكون هناك حرب اقتصادية بين البرتقال والموز. على أنه يتم الاستماع إلى هذا بعينين مزررتين من خلال الكوة.

كيف تحمي النبتة نفسها من البرد؟ نباتات كثيرة لا تستطيع أن تقاوم صقيعاً خفيفاً. نباتات أخرى قادرة على أن تشكل في خلاياها موادّ واقية من البرد هي ذات طبيعة كيميائية. وأهمّ وقاية هي تحوّل القوة الكامنة في الخلايا إلى سكر. إنّ إمكانية استعمال بعض النباتات الاقتصادية لا ترتفع في هذه الحالة ارتفاعاً شديداً من خلال تشكّل السكر هذا والتي تقدّم أفضل دليل عليها البطاطا التي صارت حلوة نتيجة التجمّد. على أنّ هناك حالات فيها محتوى سكر نبتة أو ثمرة سببه تأثير

الصقيع يجعل هذه النبتة والثمرة صالحة للاستعمال كما على سبيل المثال النباتات البرية. فإذا ما تركت هذه الثمار زمناً طويلاً على الشجيرة إلى أن يقع صقيع خفيف فإنها سرعان ما تشكل سكرًا كثيرًا جدًا بحيث إن طعمها يتغير أو يتحسن جدًا. والشيء نفسه ينطبق على ثمر الزعرور البري.

لا بأس أن غرق جدافان برلينيان في نهر الدانوب أو سقط نونجيسه Nungesser مع «طائرته الأبيض» بالقرب من إيرلنده. علام ينادي هؤلاء في الشارع، لقاء ١٠ بفينيكات يشتري المرء الشيء، يرمي به ويطره أرضاً، دعوه مطروحاً في مكان ما. رئيس مجلس الوزراء المجري أرادوا شنقه من دون محاكمة لأنه دهس بسيارته شاباً فلاحاً. لو أنهم شنقوه من دون محاكمة لجاء العنوان: «شنق رئيس الوزراء المجري دون محاكمة في مدينة كابوسفار»، وكان هذا سيزيد الضحيج، وكان المثقفون سيقروون تناول الغداء (Lunching) بدلاً من الشنق دون محاكمة (Lynching) وكانوا سيضحكون على ذلك، والآخرين بنسبة ٨٠% كانوا سيقولون: خسارة هكذا قليل، أو ولو، لا شيء يهمني، من المحقق أنه كان لابد من العمل هنا أيضاً.

يكثرون من الضحك في برلين. عند دوبرين، محل الحلويات والفطائر، عند ناصية شارع قيصر فيلهيلم، يجلس ثلاثة حول منضدة، رجل بدين، مزاح وصاحبه، واحدة لحيمة جسيمة إلى هذا الحد، ليتهى لا تصرخ دائماً هكذا صراخاً حين تضحك، ثم واحد آخر، إنه صديقه، وهذا لا يرجى منه خير، فالبدن يدفع له، يصغي مجرد إصغاء، وعليه أن يشارك في الضحك. ناس أفضل. فالعاهرة اللحيمة الجسيمة تعانق وتقبل رجلها الدعوي الميال إلى التبجح كل خمس دقائق على الفم وتصيح: «خواطر وأفكار عند الرجل!» ثم يمص عنقها ويستغرق هذا

دقيقتين على الأقل. وما يخطر ببال الآخر الذي يتفرّج لا يهمهما. ويحكي المتبجّح جداً: «عندئذٍ تقول هي له: ماذا فعلت بي الآن؟ تقول له: ماذا فعلت الآن؟ وإلى هذا وذاك سيكون في وسعي أن أحكي أيضاً: طقّ طقّ» يتسم المرافق ابتساماً عريضة: «إنك لدهاية دهياء» المتبجح جداً بسرور: «ليس هذا الخدق بمثل ما أنت عليه من غباء» يشربون حساء اللحم، وعلى البدين أن يتابع السرد.

«يأتي صياد سمك ومعه الصنارة إلى سدّ. تجلس هناك فتاة، يقول هو لها: «ما رأيك، يا آنسة فيشر، متى نذهب معاً لصيد السمك؟ تقول هي: «أنا ليس اسمي فيشر، أنا اسمي فوجل. أي والله، أحسن وأحسن» يضحج الثلاثة ضحكاً. يشرح البدين: «عندنا اليوم، والحق يقال، شوربة مخلّطة» العاهرة: «أفكار وخواطر عند الرجل!».

«اسمع، أنت تعرف هذا. تقول آنسة ما: «قل، ماذا يعني بالدقة: على فكرة؟» «على فكرة؟ من البداية!» «أرأيت، تقول هذه»، «خطر ببالي على الفور أن هذا شيء خارج عن الحشمة! كركرة!» «الجو مريح جداً وبهيج، على الآنسة أن تذهب ست مرات إلى المرحاض» ثم قالت الدجاجة للديك الصياح، دعني أفرق مرة. أيها النادل، الحساب، ثلاث كؤوس كونياك، سندويشتا لحم من فخذ الخنزير، ثلاث شوربات مرقة مع ثلاث صرمايات مطاطية» «صرمايات مطاطية، كان هذا خبزاً مقدّداً» «ها أنت تقول خبز مقدد - وأنا أقول صرمايات مطاطية. أليس عندكم أصغر؟ الحق أن عندنا في البيت صغيراً في الأرجوحة، وهذا أدسّ له دائماً قطعة نقود في الفم للمصّ. إذن. أنت يا فأرتي، تعالي. انتهت ساعة الضحك، إلى الصندوق، هيا إلى كاسل».

تمشي أيضاً بعض النساء والفتيات في شارع ألكسندر وعلى الساحة، وهؤلاء يحملن أجنّة في بطونهنّ، وهذا يحميه القانون. وعلى حين تثرثر النساء

والفتيات في الخارج في الحر يجلس الجنين هادئاً في عقر داره، عنده كل شيء
نظمت حرارته تنظيمًا سليماً، فهو يتنزه في ساحة ألكسندر، على أن بعض الأجنّة
ستسوء صحتهم بعد ذلك، لا يصح الاستعجال في الضحك.

ثم يسير ناس آخرون هنا وهناك، يسرقون حيثما يكون هناك شيء،
البعض امتلأت بطونهم، آخرون يفكرون كيف يملؤونها. متجر هان تقووض
بكامله، وفيما عدا ذلك فكل البيوت تداخلت فيها المحلات، على أنها لا تبدو
إلا كأنها هي محلات، والحق أنها ليست إلا صيحات، نداءات، زقزقات، كسر
وقصم. زقزقة بدون غابة.

والفتى ورأيت حيفاً على كل شيء، حدث هذا تحت الشمس، وأبصر
هناك، كانت دموع هؤلاء، فقد عانوا ظلماً وأي ظلم، ولم يكن لهم من
يواسيهم، والذين ظلموهم كانوا ذوي حول وطول. عندئذٍ مدحت أنا
الأموات الذين قد كانوا ماتوا.

الأموات مدحتها أنا. كل شيء له زمنه، تحييط وتمزيق، احتفاظ ونبذ.
الأموات مدحتها أنا أولئك الذين يستلقون تحت الأشجار والذين ينامون.

ومن جديد تتسلل إيفا: «أنت يا فرانس، ألا تريد أن تفعل شيئاً ما في
النهاية؟ مضت إلى الآن ثلاثة أسابيع، أنت تعرف، ولو كنت قريباً مني فأنت
تهتم اهتماماً قليلاً جداً» «لا أستطيع أن أقولها لأحد، يا إيفا، أنت تعرفين هذا
وهيربيرت ومن ثمّ السمكري أيضاً، وما عدا ذلك لا أحد. لا أستطيع أن
أقولها لأحد، فهم سيسخرون مني. وتبليغ الشرطة غير وارد في الحساب. فإذا
كنت لا تريدين أن تعطيني، يا إيفا، فدعي هذا. أنا - ذاهب - لأعمل أيضاً من
جديد» «إياك والحزن، لا دموع، يا رجل، أودّ لو أنني أهزك هزاً، على أي لا
أستطيع أن أعمل شيئاً» «أنا أيضاً».

تتحللح الأمور، فيتخاصم المجرمون

في مطلع تشرين الأول يقع الجدل الذي تخوّف منه بومز في وسط عصابته. كان موضوعه المال. ويعدّ بومز على عهده تسويق البضائع الشيء الأساسي عند عصابة ما، راينهولد وآخرون، ومعهم فرانس، يعتبرونه المكسب. فيما بعد وليس بعد التسويق يجب ترتيب التوزيع، ودائماً ينسبون إلى بومز زوراً إيرادات عالية جداً، والرجل يسيء استعمال احتكاره في علاقاته المستمرة على المجرمين، فالمسترون على المجرمين الذين ركن إليهم لا يريدون أن تكون لهم أية علاقة مع شخص آخر غير بومز. فالعصابة ترى، مع أن بومز يتهاون جداً ويسلّم بكل المراقبات الممكنة: يجب أن يحدث شيء ما. فهم يؤيدون المؤسسات التعاونية أكثر. هو يقول: هذا لكم. لكنهم لا يصدّقون هذا.

يحصل سطو على البيوت في شارع شتراالو. ومع أن بومز لم يعد قادراً على العمل بنشاط فإنّ الرجل يشارك في هذا. إنها بضع ضمادات في شارع شتراالو مبنى السراي. فقد تم الاستطلاع، هناك أموال في الخزنة الفولاذية، بمكتب خاص لأحد التجار. يجب أن يكون هذا ضربة لبومز: لا بضاعة بل مال. في أثناء توزيع النقود لن يكون هناك غشّ أو خداع. لهذا يتشبّث بومز نفسه أيضاً بذلك. فهم يرتقون مثنى مثنى سلّم النجاة، يفكّون بارتياح براغي القفل على الباب الأمامي للتاجر. ويشرع السمكري في العمل. كلّ خزانات المكتب يتمّ تكسيرها، ليس فيها إلا بضعة ماركات طابع، صهريجا بنزين في الممشى، يمكن الاستفادة من ذلك. ثمّ ينتظرون عمل كارل السمكري. ضروري أن يحدث لهذا أنه حرق يده بالمنفاخ الآلي عند الخزنة الفولاذية، لم يعد بقادر. يحاول راينهولد، لكن لا مران ولا خبرة عنده، فلا تتيسر الحال. الأمور تصبح حرجة. عليهم أن يتوقفوا، فالحارس لا بدّ أن يأتي عما قريب.

يتناولون غاضبين صهريجي البنزين، يصبون البنزين على كل الأثاث وعلى الخزانة الحديدية الملعونة أيضاً، يلقون بأعواد الثقاب في داخلها. بومز سيغبت ب نجاحه، أليس كذلك؟ على أنهم سيضنون عليه بهذا. لقد رموا بأعواد الثقاب في وقت سابق لأوانه بقليل، يصاب بومز بحروق سطحية بعض الشيء، إلا أنه سيتأتى لهم ذلك! الرجل لا مطلب له هنا على الإطلاق. ظهره كله سيحترق، على السلم يركضون ويلوحون: «الحارس»، يدخل بومز السيارة لتوه. استمد الولد درساً من الحادثة، فماذا كان مفادها. لكن من أين يأتي المال.

في إمكان بومز أن يضحك. سلع هي وتبقى أفضل. على المرء أن يكون اختصاصياً، القيام بشيء ما. سمعة بومز سيئة أنه مستغل، صاحب أعمال وأفاق. لكن ليس في إمكان المرء أن يعرف ما إذا كان يفرط معه في الأمر وما إذا كان هذا سيء استخدام علاقته ويشكل عصابة جديدة. في النادي الرياضي يوم الخميس سيوضح، أنا أفعل ما أستطيع، أنا قادر إذا أردتم، أن أقدم فواتير مكتوبة، إلا ذلك، فليس في الإمكان إثبات أي شيء على هذا، وإذا لم تكن بنا رغبة في المشاركة سيقولون في النادي إننا لا نستطيع فعل أي شيء حيال ذلك إن لم ترغبوا في المشاركة، فالرجل يفعل ما في وسعه، وإن استفاد قليلاً من هذا، لا تتحرجوا، فأنتم بالمقابل لكم صديقاتكم، وهؤلاء يكسبن، وهذا عنده زوجته وقذارته. إذن سيواصل المرء جرجرة جسده المتأفل، يامثل هذا المستغل وصاحب الأعمال الملعون.

على السمكري الذي أخفق في شارع شترالاو، وخسروا كلهم كل شيء، على هذا صبوا سخطهم كله. شخص كهذا أخرج يمكننا الاستغناء عنه. فهذا أحرق يده، ويقوم على معالجتها بطريقة غير متخصصة، وأحسن العمل دائماً، ولا يسمع الآن إلا الشتائم والمسبات.

في وسعهم أن يفعلوا بي، يخطر بباله، ويغضب. عملوا عملتهم فيّ، أثناء شغلي، حين تلقيت ضربة؛ أنا أشرب قليلاً، وإذا بزوجتي تصرخ عالياً، وحين يجلّ آخر يوم من أيام السنة وأعود إلى البيت، فمن يكون موجوداً؟ القوادة تصل أول ما تصل في الساعة السابعة، فقد نامت مع رجل آخر، ومن ثمّ خانتني. ومن ثمّ لم يعد لديّ شغل ولا زوجة. وماذا عن ميتسي الصغيرة، يا لهذا الكلب، راينهولد. كانت هذه لي، ولم تكن ترغب في الذهاب إليه. هي سارت معي إلى الحفل، على طول الشارع العريض ذي الأشجار، وتستطيع هذه أن تقبل، ثمّ أخذها مني لأنني مسكين. كلب مثل هذا، ثمّ قتلها هو، هذا القاتل، لأنها رفضته، وهو الآن يبرز ويؤكد المتبجح، وأنا أحرق يدي، وبقيت أساعده في الحمل. هذا واحد مجرم، قاتل حقيقي. وكان أحبّ إليه لو أنني تحمّلت الموضوع كلياً، من أجل وغد مثل هذا. ثور كهذا، مثلي أنا.

انتبهوا إلى كارل السمكري، شيء ما يعتمل في نفس الرجل

يبحث كارل السمكري عمن يستطيع الكلام معه. في حانة ألكسندر مقابل تيتس يجلس، بجانبه ريبان تحت الإشراف الحكومي ومن ثمّ واحد لا يعرف عنه ما مهنته، فهو يقول إنه يؤدي أعمالاً من شتى الألوان والأصناف، ما يتوافر في لحظتها. وما عدا ذلك فهو صانع عربات خشبية مدرّب. وهذا يستطيع أن يرسم رسماً جيداً، ويجلسون معاً إلى المنضدة ويأكلون السجق من لحم التيس، وصانع العربات الخشبية الشاب يرسم في مفكرته مجرد صور لا حياء فيها، نساء ورجال وشيء من هذا القبيل. ويفرح الريبان فرحاً طاغياً، وينظر كارل السمكري إلى الجانب الآخر ويقول في ذات نفسه هذا يستطيع أن يرسم بشكل رائع. الصبيان الثلاثة يضحكون بلا انقطاع، كلا الربيين بطر، إذ

إنهما كانا لتوهما في شارع روكير، وهناك كانت مداهمة، وهما ما زالوا ممسوحين من خلف مسحاً صحيحاً. ها إن كارل السمكري يتوجه إلى البار.

وها إن رجلين يسيران ببطء عبر الحانة ويتفحصان المكان يمناً ويسرة، يتكلمان مع شخص، يخرج هذا أوراق إثبات شخصيته وينظر هذان فيها، يتكلمان بضع كلمات، وإذا بكلا الرجلين يقف بالقرب من الطاولة عند الثلاثة، ويفزع هؤلاء، إلا أنهم ظلوا هادئين ولم يبدوا حراكاً، لم ينبسوا ببنت شفة. هيا تابعوا الكلام دائماً بهدوء، طبعي أنهما شرطيان، هذان هما من حانة روكير، وهذان رأنا. وعندئذ يتابع صانع العربات الخشبية رسم أشياءه القذرة وكأن شيئاً لم يكن، ويهمس له أحد الشرطيين: «شرطة جنائية»، يفتح له سترته، نمره صفيحية على الصدرية. بالجوار يفعل الآخر مع كلا الآخرين الشيء نفسه أيضاً. فهذان ليس معهما أوراق إثبات شخصية. صانع العربات الخشبية معه شهادة طيبة ثم رسالة من فتاة، وعلى الثلاثة الذهاب معهما إلى القسم في شارع فيلهيلم، والشبان يقولون فوق على فورهم ما قصتهم، إلا أن الثلاثة يحملون مندهشين حين يقول لهما الشرطيان إنهما لم يروهم على الإطلاق في شارع روكير، إنما كان مجرد مصادفة أنهما لقياهم هناك في حانة ألكسندر. إذن في هذه الحال ما كنا قلنا أبداً أننا فارون، يضحك هؤلاء معاً. يربت الشرطي على كتفهم: «أما رب البيت فسيسر حين تعودون» «أي والله، إن هذا لفي إجازة» صانع العربات الخشبية يقف في مقرّ الدورية عند الشرطة، فهذا يستطيع التعلل على الوجه الصحيح، عنوانه صحيح، على أن له يدين طريتين غاية الطراوة بالنسبة لصانع عربات خشبية، وهذا لا يقنع أحد الشرطيين، وهذا لا ينفك يقلب يديه باستمرار، على أنني لم أعمل لمدة عام كامل، أينبغي أن أقول لك ما ظني بك، أظنك من اللوطيين، رجلاً شاذاً جنسياً، لا أدري ما هذا.

وبعد ساعة يدخل الحانة من جديد. كارل السمكري يتسكع عند الطاولة، صانع العربات الخشبية يرتمي عليه مباشرة.

«ممّ تعيش أنت؟» إنها الساعة الثانية عشرة حين يسأل كارل هذا. «مم. ماذا تعمل أنت إذن؟»

«للمرء أن يعمل ما تصل يده إليه». «ألا تجرؤ أنت على أن تقول لي شيئاً؟» «وأنت يا صانع العربات الخشبية، أأست كذلك؟» «على قدر ما أنت سمكري فأنا صانع عربات خشبية» «هذا لا يقوله الناس. انظر إلى يدي، أصيبت بحروق، حتى إني لأقوم بأعمال سمكرة أيضاً» «في هذه الحال ربما حرقت يدك في أثناء الشغل، أليس كذلك؟» «شغل! لا خير فيه» «مع من تشتغل؟» «أيها المزاح الصغير، تريد أن تتززع المعلومات مني» يسأل كارل صانع العربات الخشبية: «هل أنت في نادٍ؟» «حي شونهاوز» «هكذا، في نادي لعبة الأوتاد.» «أنت تعرفه أيضاً.» «أيعقل أني لا أعرف نادي لعبة الأوتاد. لك أن تسأل ما إذا كانوا لا يعرفونني، كارل السمكري. أما زال البناء باولي هناك؟» «ويلاه، ماذا تقول، وأنت تعرف هذا، إنه صديقي.» «كنا معاً ذات مرة في براندينبورغ» «صحيح. هكذا هكذا. اسمع، إذن. ربما كان في وسعك أن تعطيني ٥ ماركات، ليس معي قرش واحد، وإلا فإن مؤجرتي سترميني خارجاً، وإلى فندق أوغست الرخيص لن أذهب، دائماً جو خانق» «خمسة ماركات، يمكنك أن تحصل عليها. ما هذا على الله بكثير» «شكراً جزيلاً. هلاً تكلمنا أيضاً على شغل ما؟»

صانع العربات الخشبية إنسان طائش مستهتر، تارة له شأنه مع النساء وتارة مع الشبان. فإذا ما خنقه الدين اقترض أو سرق. هو، السمكري، وآخر

أيضاً من نادي شونهاوزة: يستقلان بتجارتهما ودونها تردد يشمرّان عن ساعد الجد ويعملان بسرعة بضع شغلات. وحيثما يكون في الإمكان جلب شيء ما فإنّ شخصاً ما يطردهما من النادي بسبب صانع العجلات الخشبية. بادئ ذي بدء يسرقان دراجات نارية، وبذلك تتاح لهما حرية التحرك ويستطيعان أن يشاهدا النواحي. ومن ثمّ فإنّ المرء لم يقتصر أيضاً على برلين إذا ما كان ينوي أن يفعل شيئاً ما، ووجد في الخارج بالمصادفة شيئاً ما لنفسه.

إنّ جرماً يرتكبانه لمضحك جداً. ففي شارع الإلزاس يوجد محلّ للملابس الجاهزة، وفي النادي يوجد بعض الخياطين. وفي وسع هؤلاء أن يضعوا أشياء في موضع حسن. وحين يقفون ثلاثتهم ذات يوم أمام المتجر في الساعة الثالثة ليلاً يقف الحارس أيضاً هناك ويشاهد منزله. ويسأله صانع العربات الخشبية عما يجري هناك، ويدخل الأخران معهما في الحديث، ويتطرق المرء إلى الحديث عن السرقات، وإنه الآن لزم من محفوف بالمخاطر، كثير من الزبائن يحملون مسدسات في الجيب، وحين يضبطهم المرء فأنهم يردونه قتيلاً. على مثل هذا، يقول الثلاثة الآخرون، لن يقدموا؛ أوجد هناك فوق في حجرة الملابس الجاهزة شيء للأخذ؟ ما هذا، يوجد هناك كل شيء مليء بالأشياء، ثياب رجالية، معاطف وأي شيء تريده. في هذه الحال سيكون ضرورياً الصعود إلى هناك ولبس ثياب جديدة» أنتم جنتم، أنتم لن تسببوا للرجل أية مشاكل» «مشاكل ومتاعب، من يقول مشاكل ومتاعب. الجار السيد هو في النهاية إنسان، وهو لم يسأم أيضاً من ذلك، كم يدفعون لك لقاء الحراسة هنا يا زميل؟» «هؤلاء، أنت تعرف، في هذه الحال ينبغي إلاّ تسأل على الإطلاق. حين يكون المرء في الستين ويتقاضى بضعة بفينيكات معاشاً تقاعدياً ولم يعد يستطيع القيام بأي شيء عندها يستطيعون أن يفعلوا بالشخص الشيء الذي يريدونه» «وأنا أقول هذا، هل يقف الرجل الشيخ هنا في

الليل، ويصاب بالروماتيزم، وفي الحرب كنت أنت أيضاً؟» «في الحرس الوطني، في بولونيا، إلا أنه لم يتم جري بالرفش، ليس عليك أن تصدق أيضاً أنه كان علينا أن نلازم الخنادق» «ليس من داع إلى أن تقول لي ذلك. هكذا كانت الحال عندنا أيضاً، ودائماً في الخنادق، هذا إذا لم ينج المرء بعد برأسه، ومقابل ذلك تقف أنت هنا أيضاً، يا زميل، وتحرس بحيث ما من أحد يسرق شيئاً من السيد الأرسقراطي هناك فوق. ما رأيك، أيها الجار، نريد أن نقوم بشيء ما هنا؟ أين تجلس، أيها الجار؟» «لا، لا، أنت تعلم، أنا متخوف جداً من هذا، في الجوار منزل السيد، وحين يسمع شيئاً ما فنومه خفيف» «نحن، أقول لك، هادئون كل الهدوء. هيا تعال، لنشرب فنجان قهوة معك، أنت عندك سخان، ولتحدث عن شيء ما. ليس من داع لأن تتكفل بهذا، بمثل هذا الخنزير السمين».

يجلسون أربعتهم بعد ذلك فوق عند الحارس جلسة المحبور، في مكتب التاجر، يشربون القهوة، صانع العربات الخشبية هو الأشطر والأدهى، فهو يحكي للحارس شيئاً ما بصوت خفيض، وفي أثناء ذلك يتسلل الآخران إلى مكان ما ويجلبان معاً شيئاً ما. ويريد الحارس أن ينهض دائماً، فعليه أن يقوم بجولة، وهذا لا يريد أن يعرف أي شيء عن الشغل كله، وأخيراً يرى صانع العجلات الخشبية: اترك كلا الرجلين لعملهما، وحين لا تلاحظ شيئاً فلن يأتي أحد إليك» «ماذا يعني: لا تلاحظ شيئاً!» «أنت تعرف ما نقوم به نحن: سأشدد وثاقتك، فأنت بوغت مباغته، أنت شيخ، فكيف يمكنك الدفاع عن نفسك إذا ما وضعت أنا الآن قطعة قماش فوق جسدك قبل أن يسترعي انتباهك أي شيء وفمك مسدود بمنديل والساقان مربوطتان» «ما هذا» «أجل، لا داعي للتعب، أمن أجل واحد دعني كهذا، وخنزير قدر سمين تتركهم يثقون رأسك؟ تعال، لنفرغ القدر شرباً، ومن ثم، فإننا سنسوي الحساب بعد غد، أين تسكن، سجّل

هذا، موزّع بالذمة والصدق، قسماً بالله» «وكم سيدّر هذا؟» «بحسب الظروف، هذا وقف على ما سيجلبه هؤلاء، ١٠٠ مارك، سيكون لك هذا بكل تأكيد» «٢٠٠ مارك» «اتفقنا» ثمّ يدخنان ويفرغان القدر شرباً، ومن ثمّ جمعوا كلّ شيء، وبقي الآن أولاً سيارة آمنة؟ ويتصل السمكري هاتفياً، إنهم محظوظون، في نصف ساعة ستكون سيارة النقل للبضاعة المسروقة أمام الباب.

ثمّ يأتي العبث والمزاح: الحارس المسن يجلس في كرسيه ذي المسندين، يتناول صانع العربات الخشبية سلماً نحاسياً ويربط ساقه، إلا أنه ليس ربطاً وثيقاً جداً. فالرجل عنده دوالٍ، هناك تحت هو حساس. يلفّ ذراعه بسلك هاتف، ها قد بدؤوا ثلاثتهم يمزحون الآن مع الرجل المسن، كم يريد أن يأخذ، ربما ثلاثمئة مارك أم ٣٥٠ ماركاً. ثمّ يأتون ويحضرون سروالي صبيان ومعطفاً صيفياً خشناً. بالسروالين يربطون الحارس إلى الكرسي، ويقول هذا، إنّ هذا ليكفي الآن. إلا أنهم زادوا ضحكهم عليه، يقاوم، عندئذٍ يتلقى بضعة صفعات على الوجنة، وقبل أن يتمكن من الصراخ يكون المعطف على الرأس وتربط على سبيل الاحتياط منشفة أيضاً أمام الصدر. يجرّون البضاعة إلى السيارة. ويكتب صانع العربات الخشبية لافتتين من الورق المقوى: «حذار! مربوط حديثاً!» ويعلق هاتين اللافتتين على الحارس في الأمام وفي الخلف. وبعدها يمضون في حال سبيلهم. بمثل هذه الراحة لم نصل إلى المال منذ زمن طويل.

أما الحارس فإنه يخاف خوفاً شديداً، ويغلي غضباً وهو في أربطته. كيف أتخلص هنا من هذا، ثمّ إنّ هؤلاء تركوا الأبواب مفتوحة، قد يدخل آخرون ويسرقون. فهو لا يستطيع أن يحرر يديه، أما السلك على الساقين فينكّ، لو أنّ المرء استطاع أن يرى شيئاً. عندئذٍ يتلوّى الرجل المسنّ ويسير بخطا قصيرة، الكرسي تحته

على الظهر مثل حلزون مع قوقعته، يسير على غير هدى في مكتب التاجر، اليدان
مشتبان إلى الجسد ولا يستطيع تحريرهما، والمعطف السميك فوق الرأس لا يستطيع
نزعه. عندئذٍ راح يتلمّس دائماً بضربات رأس حتى الباب صوب الردهة، إلا أنه
لمحال المرور من الباب، والآن يثور به غضبٌ شديدٌ، يرجع إلى الوراء، ومن ثمّ
يضرب إلى الأمام وإلى الجانب بمقعده إزاء الباب. المقعد لا ينفصل، إلا أنّ الباب
يطلق، يحدث صوت في كلّ أرجاء المنزل الهادئ. المرة تلو المرة يتقدم الحارس
الأعمى ويعود القهقري، يحدث طقطقة وقرقعة إزاء الباب، يجب أن يأتي أحداً ما،
أريد أن أرى، على الكلاب أن تشهد هذا، يجب أن أرفع المعطف ويصرخ النجدة،
إلا أنّ المعطف يحجب الفم. لم يستغرق هذا سوى دقيقتين، وإذا بالمالك يستيقظ. كما
أنّ ناساً من الطابق الثاني يأتون. ثمّ إنّ الحارس المسن يجلس تماماً إلى الوراء على
مقعده المريح وتدلّى مائلاً، إنه خائر القوى. والصخب والضوضاء من بعد ذلك،
اقتحموا البيت، والرجل ربطوه، فلماذا يستخدمون أيضاً رجلاً مسناً مثل هذا،
يريدون التوفير، التوفير له دائماً نهايةً خاطئة.

التهليل عند العصابة الصغيرة.

يا رجل، نحن في حاجة إلى بومز وراينهولد وإلى الشجار كلّ.

على أنّه يتأتى النجاح وعلى وجه آخر تماماً كما يخطر ببالهم.

يتأتى النجاح، كارل السمكري يلقي القبض عليه ويحكي عن رضا

وبإسهاب

راينهولد يتجه في حانة برييتسلاو صوب السمكري ويطلب بأنّ على هذا

أن يأتي إليهم، فقد بحثوا عن حدّاد أفعال، لكنهم لم يجدوا واحداً، وعلى كارل أن

يأتي إليهم. يذهبان إلى الغرفة الخلفية، يقول راينهولد: «لماذا لا تريد أن تأتي إلينا؟ ماذا تعمل أصلاً؟ لقد سمعنا» «لأنني لا أريد أن أترككم تضايقوني» «عندك الآن شيء آخر.» «لا شأن لكم بما هو عندي» «أرى أنّ لديك مالاً، لكن قبل كل شيء أن تشارك عندنا فتكسب مالاً، ومن بعد ذلك وداعاً، لا خبر» «وهل يعني هنا، لا خبر! بادئ ذي بدء تصرخون عالياً، أنا عاجز، ثمّ يقال فجأة على كارل أن يأتي» «يجب أن يأتي أيضاً، فلا أحد عندنا، ومن ثمّ أنفق المال حيث شاركت فيما مضى. لسنا في حاجة إلى عامل بصورة متقطعة» «مني يجب أن تأخذ النقود يا راينهولد، وهي لم تعد لدي» «في مثل هذه الحال يجب أن تشارك» «لن أقوم بذلك، وقد قلت لك هذا» «أنت يا كارل، أنت تعرف حق المعرفة أننا نحطم لك عظامك، عظماً عظماً، ونتركك تموت جوعاً بجسد حي» «أضحكتني. أنت مخمور. تعتبرني خنزيراً صغيراً قديراً تستطيع أن تفعل به ما تشاء» «أهكذا، يا رجل. الآن انسحب سواء أكنت خنزيراً أم لا، فهذا سيان عندي. فكّر في الموضوع. سنتقابل مرة ثانية» «حسن» إنه حصّاد.

يفكّر راينهولد مع الآخرين بما ينبغي عمله. فهم من دون حدّاد أفعال يخسرون نفوذهم ويُقصون من الميدان، وفي أثناء هذا فإنّ الموسم مناسب، وعند راينهولد طليبتان من اثنين أخفيا مسروقات. فهذان قد نجح في إعادتهما عن بومز. فهم متفقون على أنّ كارل السمكري يجب أخذه إلى صندوق ضيق يجلس فيه، إنه خدّاع غشّاش، ومن الممكن أن يطرد من النادي.

يلاحظ السمكري أنّ في الأمر شيئاً ما ضده. يبحث لفرانس، وهذا يلازم غرفته كثيراً، ينبغي على فرانس أن يبوح له بشيء أو أن يناصره. يقول فرانس: «أولاً خدعتنا هناك فوق في شارع شترالاو، ثمّ تتخلى عنا، الآن توقف» «لأنني

لم أرغب في أن تكون لي صلة براينهولد. فهذا كلب، وأنت تعرف هذا» «هذا طيب» «أنت فدان، أنت لا علم لك بالدنيا والعالم، ليس لك عينان» «لا تملأ رأسي بالسخافات، يا كارل، لدي ما يكفي، نريد أن نعمل، وتتخلى أنت عنا. واحترس، أقول لك، أنت مصاب بالفشل» «من قبل راينهولد؟ انظر كيف أضحك أنا في هذه الحال! أنا افتح فمي إلى آخره. في هذه الحال يهتزّ بطني. فأنا قويّ أيضاً بمثل قوة هذا. وهذا يعتبرني خنزيراً صغيراً، لا عليه، فأنا لن أقول على الإطلاق. وعلى هذا أن يأتي.» «انصرف، إلا أنني أقول لك، حاذر».

وتشاء المصادفة أنّ السمكري عمل عملة مع كلا زميله في شارع فريدريش ويلقى القبض عليه. ويلقى القبض أيضاً على صانع العربات الخشبية، إلا الثالث الذي يراقب فهو في أمان. وسرعان ما اكتشفوا أيضاً في الإدارة العامة للشرطة أنّ كارل كان حاضراً في أثناء السطو في شارع الإلزاس، بصمات الأصابع موجودة على فناجين القهوة بما فيه الكفاية.

لكن لماذا ألقى القبض عليّ أنا، يخطر ببال كارل، كيف اكتشفت الشرطة هذا؟ لم يكن إلا الكلب، راينهولد هذا، فقد وجّه إليهم ضربة! بدافع الغضب! ذلك لأنني لم اشترك معه. فالكلب يريد أن يقصيني من الميدان، يا لهذا الوغد الأفاق، لقد أوقعنا في كمين، يا له من وغد سافل وابن كلب رهيب. لم يكن لهذا وجوده بعد. فهو يرسل لصانع العربات الخشبية رسالة سرية يتمّ تبادلها بين السجناء، راينهولد مذنب، لعب بأوراق لعب عليها علامات وأقول، كان حاضراً. صانع العربات الخشبية يومئ له برأسه في أثناء السير. يطلب كارل مقابلة قاضي التحقيق، ويقول وهو بعد في الإدارة العامة للشرطة: «راينهولد كان حاضراً وفرّ قبل ذلك».

سرعان ما أمسكوا براينهولد بعد الظهر. ينكر كل شيء، في وسعه أن يثبت عدم الحضور في مكان الجريمة، إنه مصفرّ الوجه من الغضب حين يرى عند قاضي التحقيق كلا الآخرين ويقف أمامهما، وأدلى الكلبان بأقوالهما إنه كان موجوداً أيضاً في أثناء السطو على محل الألبسة الجاهزة. ويستمع القاضي إلى هذه الأقوال، ينظر في الوجوه، إنّ في الأمر شيئاً، فهم مغتاطون بعضهم من بعضٍ. صحيح، بعد يومين يستبين أنّ الإثبات بالغياب عن مكان الجريمة عند رينهولد صحيح، إنه قوّاد، إلا أنه لا علاقة له بالموضوع. إنه مطلع تشرين الأول.

في ذلك الوقت أفرج عن رينهولد من جديد، الشرطة تعرف أنه ليس طاهر الذيل، وسيضعفون المراقبة عليه. كلاهما، صانع العربات الخشبية وكارل، أغلظ لهما قاضي التحقيق القول أنه لا ينبغي لهما أن يدبرا هنا أكاذيب وحيلاً، رينهولد عنده الإثبات بالغياب عن مكان الجريمة. وعلى هذا يصمت كلاهما.

كارل يجلس في زنزانته ويغلي غلياناً. أخو زوجته المطلقة الذي كان على علاقة طيبة به يزوره. وعن طريقه يجد محامياً، وهو يصرّ بأن يكون له محام، محام ماهر في قضايا جنائية. ويسأل هو هذا حين استعلم منه قليلاً عما إذا كان هو يفهم شيئاً ما ويسأله كيف تكون الأمور إذا ما ساعد المرء في دفن ميت. «كيف؟ ولماذا؟».

«حين يعثرون على شخص ما هو ميت، ويدفنونه؟» «ربما شخصاً تريدون إخفاءه، رمته الشرطة بالرصاص أو شيء من هذا؟» «لكنه بديهي، على أية حال، إذا لم يقتلوه هم أنفسهم ولا يرغبون في أن يُعثر عليه. هل يمكن أن يحدث شيء ما للشخص في هذه الحال؟» «هل عرفت الميت، هل لك منفعة في ذلك حين

يدفونونه؟» «لا منفعة ولا مغنم على الإطلاق، بدافع الصداقة، مساعدة ليس غير، إنه ملقى حيث هو، هو ميت، ولا يرغب المرء في أن يُعثر عليه» «العثور عليه من قبل الشرطة؟ في الواقع ليس إلا اختلاس مفقودات. أما كيف لقي حتفه؟» «لست أدري. لم أكن حاضراً. أجلب أنا للآخرين فقط أشياءهم. كما أنني لم أساعدهم أيضاً. ولم يكن لي علم بذلك أيضاً، على الإطلاق. مطروح هناك وميت. والآن يقال، هيا شارك في المسك باليد، نريد دفنه» «من يقول لك هذا؟» «الدفن؟ كائن من كان. أريد أن أعرف فقط أي شيء سيحلّ بي؟ هل أنا مذنب حين أساعد في الدفن؟» «اعلم، اعلم. هكذا وكما تصوّر أنت الأمور، في الواقع لا، أو ليس كثيراً. إن لم تكن مشاركاً على الإطلاق، ولم تكن لك أيضاً أية مصلحة في ذلك. لكن لماذا ساعدت أنت؟» «ساعدت في المسك باليد، أقول نعم، بدافع الصداقة، لكن هذا سيان، على أية حال لم أكن مشاركاً على الإطلاق، كما أنه ليست لي أيضاً أية مصلحة في ذلك بأن يُعثر عليه أو لا يتم العثور عليه» «هل كان بين ظهرايكم من العصابة مثل هذا النوع من القتل السياسي السري؟» «فليكن» «يا رجل، يا رجل، انفض يديك من الموضوع. ما زلت لا أعرف ما طلبك».

«حسن، أيها السيد المحامي، ما أردت أنا معرفته أعرفه أنا» «ألا تريد أن تحكي لي القصة على نحو أدق؟»

«أريد أن أؤجل الموضوع إلى ليلة أخرى.»

ثم إنَّ كارل السمكري يستلقي على سريره ويريد أن ينام وينام فلا يستطيع النوم وتثور ثأرتة:

الآن أنا أكبر غبي في الدنيا، فأنا أردت الآن أن أعذر براينهود، ومن المؤكد أنه لاحظ الآن شيئاً ما، ولم يعد هذا هنا، فقد أطلق ساقه للريح. غبيّ

هو أنا. ابن كلب قدر كهذا، وغد كهذا يجعلني أضيع، إلا أنني سأقولها،
سأسوي الأمر.

ثم إنَّ الليل يأبى أن يمضي على كارل، متى تحدث لأول مرة فرقة، سيان
عندي، لمجرد المساعدة والدفن لن يترتب شيء، وإن حدث فلن تكون إلا بضعة
أشهر، وهذا سيحكم عليه بالسجن المؤبد، ولن يخرج من السجن بعد ذلك، هذا
إذا لم يقطعوا الرأس بالفأس. متى يأتي قاضي التحقيق، كم ستكون الساعة. في
أثناء ذلك سيكون راينهولد جالساً في القطار ويويّ هارباً. وغد سافل مثل هذا لم
تعرف سابقة له، وفي هذا فإنَّ بيبركوبف صديقه، ومما ينبغي لهذا أن يعيش،
بذراع واحد، فمشوهو الحرب يسيؤون معاملتهم أيضاً كهذه إساءة.

ثم تدبّ الحياة في مبنى يمكن اشتعال داخله بنظرة واحدة، ويعلق كارل
على فوره عصا إشارته، في الساعة ١١ سيكون عند القاضي، يا سلام، هذا يبدو
متجهماً الوجه. «الحق أنك تواق إلى هذا. وهذا تبلغ الشرطة عنه، لحسن الحظ،
للمرة الثانية. هذا إذا لم تتورط أنت، يا رجل» على أن كارل يعطي من بعد ذلك
بيانات غاية في الدقة بحيث إنهم يستقلون سيارة، وقاضي التحقيق نفسه يصعد
إليها، وينضم اثنان قويان آخران من الشرطة الجنائية، يتوسطها كارل وهو
مغلول اليدين، وجهة السفر فراينفالدي.

ها هم يسافرون على الطريق القديمة. جميل السفر. اللعنة، لو أن المرء
عرف كيف يخرج من السيارة. الكلاب قيدوا واحداً، ولا شيء يمكن عمله. كما
أنَّ لديهم مسدسات أيضاً. ما باليد حيلة. ركوب، ركوب، الطريق العريض ذو
الأشجار يضلّ الهدف. ١٨٠ يوماً أهديك إياها، يا ميتسي، على حجري، فتاة
لطيفة، وغد سافل هو، راينهولد هذا، إنه لا يكثرث لشيء ولا يرحم، الويل لك

مني، يا ولد. فلتتذكر ميتسي مرة أخرى، أنا أعصّ لسانك ثانية، تستطيع هذه أن تعانق وتقبّل، إلى أين ننوي السفر على طول، يميناً إلى هذا الجانب أم شمالاً، سيّان عندي، يا لها من فتاة حلوة.

يتخطّون التلة، يدخلون الغابة.

جميل هو في فراينفالدي، مصيف على شاطئ البحر، مكان للاستجمام صغير. وحديقة زوار الحمامات أعادوا فرشها فرشاً نظيفاً بحصى صفراء، وهناك في الخلف المطعم مع الشرفة الأرضية، وهناك كان يجلس ثلاثة. في سويسرة وفي التيرول، أجل هنا تطيب نفس المرء، إذ إنه هنا في التيرول يوجد حليب ساخن من البقرة وفي سويسرة يوجد عذراء، يا سلام. ومن ثمّ انطلق هذا معها مسرعاً، ولقاء بضع أوراق مالية تمّ التخلّص مني، بعث هذه الفتاة المسكينة لمثل هذا الوغد ابن الكلب القذر، ومن أجله هو الآن في السجن.

هذه هي الغابة، هذه خريفية، الجو مشمس، قمم الأشجار لا تتحرك. «يجب أن نسير هنا على طول، كان معه مصباح جيب، ليس سهلاً العثور، لكن حين أرى الموقع سأعرفه ثانية، كان مكشوفاً تماماً، وكانت تنتصب هناك شجرة تنوب مائلة كل الميل ثمّ حفرة» «الحفر موجودة بكثرة» «مهلاً أيها السيد المأمور الجنائي. لقد سرنا مسافة بعيدة جداً، من المطعم كان أقلّ من ٢٠ دقيقة أو خمس وعشرين. لم تكن المسافة بعيدة مثل هذا البعد» «أنت تقول إنك ركضت» «لكن في الغابة فقط، وطبيعي ليس في الشارع، وإلا كنت سألفت الانتباه». ثمّ كان هناك الموقع المكشوف، وشجرة التنوب المائلة منتصبه هناك، كلّ شيء في مكانه كما كان. أنا حبيبتك، قلبها قتل ضرباً، عيناها قتلتا ضرباً، فمها قتل ضرباً. هل لنا أن نمشي مسافة أيضاً، لا تضغط هكذا بشدة. «هذه هي شجرة التنوب السوداء، تماماً».

جاء رجال راكبون عبر البلاد، امتطوا أحصنة صغيرة بنية، جاؤوا إلى هنا من مكان بعيد. سألو دائماً أين ستكون الطريق، إلى أن وصلوا إلى الماء، إلى بحيرة كبيرة، فترجلوا عن جيادهم. الخيول ربطوها إلى شجرة بلوط، صلّوا عند الماء، ارتموا على الأرض، ثم استقلّوا قارباً وعبروا الماء. غنوا للبحيرة، وخاطبوا البحيرة، لم يكن مرادهم البحث عن أي كنز في البحيرة، ما كان في نيتهم إلا أن يبجّلوا البحيرة الكبيرة، فأحدر رؤساء قبيلتهم كان ملقى تحت. لهذا، لهذا هؤلاء الرجال.

كان مع الشرطيين رفش، وكان كارل السمكري يدور فيما حوله وأشار إلى الموقع. وغرزا الرفش في الأرض، وحين غرزاه كانت الأرض رخوة، ثم حفرا على نحو أكثر عمقاً وألقيا بالتراب إلى فوق، الأرض كانت مقلوبة، وكان هناك في الأعماق أكواز صنوبر، كارل السمكري يقف وينظر وينظر ويتنظر. كان هنا، هنا كان، هنا دفنوا البنت» «لكن إلى أي عمق كان هذا؟» «ثلاثة أرباع المتر، لا أكثر» «المفروض أن تكون تحت أيدينا» «ألا إن الأمر كان هكذا، هيا تابعا الحفر» «احفرا، احفرا، لكن إذا لم يكن هناك شيء!» «الأرض مقلوبة قلباً، حشيشاً أخضر يرفشان من القعر، هنا حفر بعضهم بالأمس القريب أو اليوم. الآن ينبغي أن تظهر، ويبقى فمه دائماً مسدوداً، بالكم، لا بدّ أن يكون هذا تحلل كلياً. فكم شهراً مضى على هذا، والسماء أمطرت أيضاً. أحد اللذين كانا يحفران يسأل إثر ذلك: «ما الثوب الذي كانت ترتديه؟» «تنورة سوداء وبلوزة وردية» «من الحرير؟» «ربما من الحرير، إلا أنّ اللون ورديّ فاتح.» «ربما هكذا؟» وإذا بأحد الرجلين يمسك بيده حافة دانتيل، عليها تراب، والقطعة قدرة، إلا أنها وردية اللون. يريها القاضي: «ربما من الكم» وهذان يتابعان الحفر. إنه: هنا كانت ملقاة. أمس أو ربما اليوم حفروا هنا. كارل يقف حيث هو؛ إذن هذا صحيح، أدرك هذا ما يدور في الخفاء وأحس بالخطر، نبش هذه، ولربما ألقى بها في مكان

ما في الماء، إنه ابن حرام. يتكلم القاضي مع المأمور الجنائي على انفراد، ويستغرق الحديث وقتاً طويلاً، يدون المأمور الجنائي ملاحظات. ومن ثم يعودون ثلاثتهم إلى السيارة. أحد الرجلين يبقى في الموقع.

يسأل القاضي كارل وهما ماشيان: «إذن حين جئت كانت الفتاة ميتة؟»
«أجل» «كيف تريد أن تثبت ذلك؟».

«لماذا؟» «حسن، إذا ما قال صاحبك راينهولد أنك أنت قتلتها، أو ساعدت؟»
«ساعدت في الحمل. ولماذا أقتل أنا هذه الفتاة؟» «بالدافع نفسه الذي قتلها هو به، أو يقال أنه قتلها» «أنا لم أكن معها على الإطلاق في المساء».

«لكن بعد الظهر» «لكن ليس بعد ذلك. في ذلك الوقت كانت لا تزال على قيد الحياة» «سيكون هذا إثبات صعب بالغياب عن مكان الجريمة عند وقوعها».

في السيارة يسأل القاضي كارل: «أين كنت في المساء أو في الليل بعد الحادثة مع راينهولد؟» اللعنة. ها أنا ذا أقول: «كنت مسافراً، هو أعطاني جواز سفره، سافرت، بهذا، وحين ينكشف الأمر، فأنا أستطيع أن أقدم الإثبات بالغياب عن مكان الجريمة عند وقوعها» «غريب وعجيب. ولماذا تفعل ذلك. هذا رائع كل الروعة. هل كنتم صديقين غاية في الصداقة؟» «أيضاً. أنا شخص مسكين أيضاً وهذا أعطاني نقوداً» «والآن لم يعد هو صديقك، أم إنه لم يعد لديه مال؟» «هذا صديقي؟ لا، أيها السيد القاضي. أنت تعرف حق المعرفة لماذا أنا في السجن، بسبب الحارس وما شابه ذلك. فهذا غدر بي».

القاضي والمأمور الجنائي يتبادلان النظر، السيارة تنطلق، تغوص في حفر الطريق العام، تنطّ نطاً. الطريق العريض ذو الأشجار يضلّ الهدف، هنا سرت أنا معها، ١٨٠ يوماً أهيك إياها. «في هذه الحال سيكون حدث بينكما شيء ما،

تقطّعت عرى الصداقة؟» «أجل، وكما هي الحال هكذا [يريد هذا أن يجسّ نبضي، لا، ليس من السهل خداعنا، توقفوا، أنا أعرف]. الحق أنّ المسألة كانت على هذا النحو، أيها السيد القاضي. راينهولد هذا وحش وأيّ وحش، أراد أن ينحّيني جانباً» «وهل أقدم على شيء ضدك؟» «لا، إلاّ أنه أبدى ملاحظات أو شيء من هذا» «لا شيء آخر؟» «لا» «سنرى».

عُثر على جثة ميتسي بعد يومين على بعد نحو كيلومتر من الحفرة، في الغابة نفسها. ومثلما تحكي الصحف عن الحادثة فإنّ مساعدين بستانيين يبلّغان أنّهما شاهدا رجلاً واحداً يسير عبر الغابة في المنطقة ومعه حقيبة ثقيلة جداً. كلاهما تحدث عما كان يجرّ هناك، وبعدها تمشى الرجل في الهواء الطلق وجلس في الحفرة. حين عادا بعد نصف ساعة كان لا يزال هو جالساً أيضاً في مكانه، في كمّي القميص. الحقيبة لم يشاهدها هناك، وهذا كان يقف تحت. ويصفان الرجل وصفاً لا بأس به، الطول نحو ١,٧٥، عريض المنكبين، قبة صلبة سوداء، معطف صيفي رمادي فاتح، السترة رصاصية، يجرّ الساقين وكأنه ليس في صحة تامة، له جبين عالٍ جداً بتجاعيد أفقية. وفي المنطقة التي ذكرها كلا المساعدين البستانيين يوجد حفر كثيرة، فلا تتوصل كلاب الشرطة إلى شيء. عندئذٍ تحفر الحفر التي تدخل في الحسبان. وفي إحداها يتم العثور بعد بضع رفشات بالرفش على علبة كرتون بنية كبيرة كانت محزومة بخيوط قنب. حين يفتحها المأمورون الجنائيون يكون فيها قطع ملابس نسائية، قميص ممزق، جوربان طويلان بلون فاتح وثوب من الصوف بنيّ عتيق ومناديل قدرة وفرشاة أسنان. ولئن كانت علبة الكرتون رطبة، لم تكن مرتخية، كلّ شيء يظهر أنه لم يمض عليها هنا وقت طويل. غامض. فالمليّة كانت تلبس بلوزة وردية اللون.

وبعيد ذلك يجدون في حفرة أخرى الحقيبة، الجثة في داخلها، في وضعية القرفصة. فهي محزومة حزمًا وثيقاً بأربطة حصيرة النافذة. في المساء تتناقل كل أقسام الشرطة ببلاغات، في أقسام الشرطة الخارجية، أوصاف المجرم المفروض أن يكون هو، وهلمَّ جرًا.

راينهولد هذا يعرف آنذاك مباشرة كيف كان استجوب في مركز الشرطة وماذا دقَّ الناقدوس. إنه سيزجَّ الآن بفرانس أيضاً في الموضوع. فلم لا يكون هو الفاعل. ماذا يستطيع كارل السمكري أن يثبت. إنه لمدعاة للشك في أن يكون رأني أحد في فراينفالدي. ربما رأني أحدهم، في المطعم، على الطريق، لا ضرر في أن يحاول المرء، يجب التخلص من فرانس، يبدو وكأنه متورط في ذلك.

في العصر مباشرة وحين يخرج راينهولد من الإدارة العامة للشرطة يكون هو موجوداً فوق عند فرانس، كارل السمكري يغدر بنا، فلتنسلَّ. فرانس يللمم ثيابه في ربع ساعة، يساعده راينهولد، يسبان ويلعنان معاً كارل، بعد ذلك تؤوي إيفا فرانس عند طوني، صديقة قديمة في فيلمرزدورف، يشتريان معاً حقيبة كبيرة، بادئ ذي بدء يريد حقيبة كالحزانة، ثم الأفضل حقيبة خشبية، الحقيبة الأكبر التي يستطيع أن يحملها، فأنا لا أعتد على حمّالين يراقبون شخصاً ما، ستحصل على عنواني، يا فرانس، سلّم على إيفا.

كارثة براغ الرهيبة، ٢١ قتيلاً انتشلوا، ١٥٠ شخصاً طمروا. هذه الكومة من الأنقاض كانت لا تزال قبل دقائق مبنى جديداً مؤلفاً من سبعة طوابق، والآن ما زال تحتها كثيرون من الموتى وذوي إصابات خطيرة. مبنى السكة الحديدية بأكمله بوزن ٨٠٠٠٠٠٠ كغ انهار في الطابقين تحت الأرض. والحارس المناوب في الشارع أندر المشاة حين سمع طقطقة البناء. فقد ركب وهو حاضر الذهن إحدى

عربات الحافلة الكهربائية وهي سائرة وسحب الكوابح بنفسه. وفوق الأطلسي
تثور عواصف شديدة. وعلى المحيط فإنّ الموقف حالياً هو أنّ منخفضاً جويّاً
عاصفاً يقترب واحداً بعد الآخر من أمريكا الشمالية باتجاه الشرق، بينما الارتفاعان
الجويان كلاهما اللذان يستقران في أمريكا الوسطى وبين غرينلندة وإيرلندة، يتمّ
تسجيلهما. تأتي الصحف الآن بمقالات بصفحات تلو الصفحات عن «الغراف
تسييلين» وعن طيرانه المرتقب. وتتم مناقشة كل تفصيل من تفاصيل تصميم
المنطاد وشخصية القائد وفرص نجاح المشروع بإسهاب بالغ ويخصص للكفاءة
الألمانية ولإنجازات مناطيد تسييلين أيضاً افتتاحيات مفعمة بالحماسة. ورغم كل
الدعايات التي تروّج للطائرات فإنه لمن المحتمل أن يمثل المنطاد وسيلة
مواصلات جوية من وسائل المستقبل. على أنّ تسييلين لا يقلع. إكّينير لا يريد أن
يعرّضه للخطر من غير ذي نفع.

تفتح الحقيبة التي كانت ميتسي فيها. كانت ابنة أحد الجبابرة في حافلة
كهربائية من بيرناو. كانوا ثلاثة أطفال في البيت، الأم نشزت عن الزوج وتركت
البيت، لماذا، لا أحد يعرف. وقبعت ميتسي وحيدة وكان عليها أن تعمل كل
شيء. في المساء، كانت تسافر أحياناً إلى برلين وتؤمّ المراقص. مرقص ليستمان
والمواجه له، وفي بعض المرات كان يصطحبها أحدهم إلى الفندق، ثمّ فات
الأوان، بعد ذلك لم تجرؤ على الذهاب إلى البيت، فبقيت عندئذٍ في برلين، ثمّ
التقت إيفا واستمرت الحال. كانوا في القسم في السكة الحديدية. حياة لطيفة
صافية بدأت بالنسبة لميتسي التي سمّت نفسها قبل ذلك صونيا. كان لها معارف
كثير وبعض الأصدقاء، إلا أنها ظلّت بعد ذلك مرتبطة على الدوام بشخص
واحد، وكان هذا رجلاً أقطع أحبته ميتسي من أول نظرة وظلّت مخلصه له حتى
آخر حياتها. نهاية مروّعة، نهاية مفعجة تلك التي منيت بها ميتسي في النهاية. لماذا،

لماذا، ماذا اقترفت، جاءت من بيرناو إلى خضمّ برلين، لم تكن بريئة، حتماً لا، لكن من حبّ عميق له لا تمحوه الأيام، لمن كان زوجها الذي اعتنت به مثل طفل. حطّموها لأنها وقفت، وقفت مصادفة إلى جانب الرجل، وهذه هي الحياة، ومن الصعب التصرّو. سافرت إلى فراينفالد لحي تحمي صديقها، في هذا تمّ خنقها. خنقت. قد ماتت، قضي عليها، وهذه هي الحياة.

ومن ثمّ يأخذون أثراً من عنقها ووجهها. وهي ليست إلا حالة جنائية، عملية تقنية كما يضع المرء سلك هاتف، وهكذا فقد ماتت. ويصنعون لها نموذجاً شمعيّاً، يلوّنون كلّ شيء بألوان طبيعية مماثل من الناحية العملية ومتعذر تمييزه، نوع من السليلويد. ها هي ميتسي تقف، وجهها وعنقها في خزانة ملفات، هلاًّ جئت، هلاًّ جئت، نحن على وشك أن نكون في البيت، آشينغر، ينبغي أن تواسيني، أنا ملك لك. تقف وراء زجاج، وجهها قتل ضرباً، قلبها قتل ضرباً، حجرها قتل ضرباً، ابتسامتها قتلت ضرباً، عليك أن تواسيني، هلاًّ جئت.

ولففت ودرت ورأيت ظلماً على كلّ شيء، حدث هذا تحت الشمس

فرانس، لماذا تتنهد، يا عزيزي فرانس، لماذا ينبغي لإيفا أن تتسلل دائماً وتساءلك عما يخطر ببالك ولا تتلقى جواباً ويكون عليها أن تنصرف من دون جواب، لماذا أنت ضيق الصدر خائف، تنكمش وتتوارى خشية أن يراك أحد، انكمش، انكمش، ركن صغير، ستارة صغيرة، وأنت لا تخطو إلا خطوات متقاربة قصيرة؟ أنت تعرف الحياة، أنت لم تهبط أمس على الأرض، عندك حاسة شمّ للأشياء وأنت تلاحظ شيئاً ما. أنت لا ترى أي شيء، لا تسمع أي شيء، لكنك تحسّ به إحساساً داخلياً. أنت لا تملك الجرأة على أن تسلط

عينيك على ذلك، أنت تنظر بطرف عينيك جانباً، إلا أنك لا تهرب، فأنت لهذا الأمر عازم عزمًا شديدًا، كنت شجاعاً، لست جانباً، إلا أنك لا تعرف ما يمكن أن يحدث وما إذا كان في مقدورك أن تتحمّله، منكباك قويان بما يكفي لأن تنهض بأعبائه.

كم عانى أيوب، هذا الرجل من أرض عوص، عانى إلى أن عرف كل شيء، حتى لم يعد هناك ما يمكن أن يحلّ به. ومن سباً أغار أعداء وقتلوا رعاته، ونار الله سقطت من السماء، فأحرقت الغنم والغلمان الرعاة، الكلدانيون قتلوا جماله وحداتها، أبنائه وبناته كانوا يجلسون في بيت أكبر إخوتهم، وإذا بريح تهبّ من الصحراء وتقوّض أركان البيت الأربعة ويُقتل الأبناء.

كان هذا كثيراً، إلا أنه لم يكن هذا كافياً بعد، فأيوب مزّق ثوبه، واليدان أشبعهما عضاً، وشعر الرأس نتفه نتفاً، كوّم التراب فوق نفسه. على أن هذا لم يكن كافياً بعد. وضرب أيوب بقرح، من باطن قدمه حتى الفخذين حمل قروحاً، جلس في الرمل، القيح سال منه، فأخذ شقفةً من الشقف وراح يحكّ نفسه.

وصل الأصدقاء ورأوه، أليفاز التيباني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني. جاؤوا من بعيد لكي يواسوه، صرخوا وبكوا بكاءً شديداً، وأيوب لم يعرفه، فقد كان ابتلي أيوب أشدّ الابتلاء، أيوب الذي كان له سبعة أبناء وثلاث بنات و٧٠٠٠ رأس من الغنم و٣٠٠٠ جمل و٥٠٠ فدان بقر و٥٠٠ أتان وخدم كثيرون جداً.

أنت لم تخسر بقدر ما خسر أيوب من عوص، يا فرانس بيبركوبف، كما أنّ النوازل تنزل بك أيضاً ببطء. أنت تمرّن نفسك تدريجياً على ما حلّ بك، ألف عبارة جميلة تجود بها على نفسك، أنت تتملق نفسك، إذ إنك تريد أن تُقدم

على الأمر، فأنت مزعم على أن تُقيل، مصمم إلى أقصى ما يمكن التصميم عليه، لكن آه ثم آه آه، وإلى أقصى الأقصى أيضاً؟ ليس هذا، وا أسفاه، ليس هذا. أنت تواسي نفسك بالكلام، أنت تحب نفسك: أوه، تعال، لا شيء يحدث، إلا أنه لا مفرّ لنا. لكن في داخلك مشيئة ورفض، إقدام وإحجام. أنت تنتهد: من أين لي الحماية، المصيبة تنزل عليّ، بما أستطيع أن أمسك. إنه يقترب! وأنت تقترب منه، مثل حلزون، أنت لست جباناً، ليس لك عضلات قوية فحسب، أنت فرانس بيركوبف، أنت أفعى الكوبرا. انظر، كيف تتلوى، سينتيمتر سينتيمتر نحو الغول الذي يقف ويريد أن يمدّ اليد.

لن تخسر أموالاً، يا فرانس، ستحترق في أعماق أعماق روحك! انظر، كيف تفرح وتمرح العاهرة! عاهرة بابل! ثم جاء أحد الملائكة السبعة الذين يمسكون بالصحاف السبعة وتكلموا: تعال، أريد أن أريك بابل العظيمة التي تربعت على مياه كثيرة. ها إنّ المرأة تقتعد حيواناً قرمزيّ اللون وباليد كأس ذهبية، على جبينها كتب اسم، سرّ. المرأة سكرى من دم القديسين.

أنت تعرفها الآن ظناً، أنت تحسّها. ترى هل ستكون قوياً، ترى ألن تضيع.

في الحجرة الجميلة المضاعة في مطعم شارع فيلمرزدورف يجلس فرانس بيركوبف ويتنظر.

أفعى الكوبرا تتكور، منطرحة في الشمس، تندفأ. كلّ شيء مملّ، وهو قوي، ويرغب في أن يعمل شيئاً ما. الناس هنا وهناك، لم يتواعدوا بعد أين يريدون أن يلتقوا، طوني البدينة جلبت له نظارة عاج سوداء، عليّ أن اشترى بزّة جديدة كلّ الجدّة، وربما أعمل ندبة على الخد، ها إنّ شخصاً يركض تحت على الفناء. كأنّ هذا على عجلة من أمره. عندي لم يتأخر الوقت. لو أنّ الناس

لا يستعجلون بهذه الطريقة لعاشوا مرة أخرى طويلاً وتوصلوا إلى ثلاثة
أضعاف ما توصلوا إليه. وفي الركض ستة أيام يكون الأمر هو نفسه، هؤلاء
يتقدمون ويتقدمون، ودائماً في هدوء، فالناس عندهم صبر، والحليب لن يفور،
والجمهور يستطيع الصغير، ماذا يفهم هؤلاء من ذلك.

هناك طرق في المشي. ما هذا، لماذا لا يدق هؤلاء الجرس. اللعنة، سأخرج
من الغرفة، وهذه ليس لها إلا مخرج واحد، فلنصخ السمع.

تدريجياً تمرن وتتعلم، ألف عبارة جميلة تجود بها على نفسك، أنت تتملق
نفسك، تغري نفسك، أنت لست متأهباً للأعظم، آه، لا لما هو أعظم.

لنصخ السمع. ما هذا. إني أعرف هذه. إني لأعرف الصوت. صراخ.
بكاء. بكاء. فلنر. ذعر، ذعري أنا، بم تفكر أنت؟ بما يفكر الناس جميعاً. إني
لأعرف هذه. إيفا.

ينفتح الباب. في الخارج تقف إيفا، طوني البدينة تحيط هذه بالذراعين.
نحيب، نواح وولولة. ماذا حلّ بالفتاة. بما يفكر الناس جميعاً، ماذا حدث، ميتسي
تولول، راينهولد مستلق في الفراش. «نهارك سعيد يا إيفا، أي إيفا، يا بنت. ما
الأمر، ماذا وراءك، هل حدث شيء ما، إن شاء الله ليس بالأمر الفظيع»
«اتركني» كيف تنعز هذه، فقد ضربت، أوسعت ضرباً، مهلاً. هذه قالت شيئاً
ما لهيربيرت، هيربيرت هذا يعرف عن البنت. «هل ضربك، هيربيرت هذا؟»
«دعني، لا تمسني يا رجل» يا للنظرات التي ترسلها هذه. الآن تعرض عني،
أرادت هي نفسها ذلك. ترى ماذا حدث، ترى ماذا بها، يأتي ناس بعد،
فلنوصد الباب. طوني هذه تقف، شغلها الشاغل مع إيفا:

«من فضلك يا إيفا، من فضلك. هلاً تصرفت، قولي ما الأمر، ادخلي،
أين هيربيرت؟» «لن أدخل، لن أدخل».

«بالله تعالي، نجلس، وأنا أهيبّ القهوة. اخرج يا فرانس» ولماذا ينبغي لي أن اخرج، لم أعمل شيئاً».

عندئذٍ تحمق إيفا مندهشة، بنظرات خيفة لكأنها تريد أن تفترس أحداً ما، ثم تصرخ وتمسك فرانس من صدريته: «على هذا أن يأتي معي، على هذا أن يدخل معي، وليأت هذا معي إلى هنا، أنت تأتي معي إلى الداخل!» «ماذا دهى هذه، هذه المرأة مجنونة، هل حكى لها أحدهم شيئاً ما. ثم ترتعش إيفا على الأريكة بجانب طوني البدينة. وتبدو البنت منتفخة وتطير، مرد هذا إلى الحالة، وفي هذا أخذت هي هذا مني ولن أعمل لها أيّ شيء. عندئذٍ تحيط إيفا طوني البدينة بذراعيها وتهمس لها في أذنها بشيء ما، لا تستطيع أن تتكلم في أول الأمر، ثم تنطلق في الكلام. والآن يصيب شيء ما عقل طوني. فتضرب هذه كفّاً بكفّ وإيفا ترتعش وتخرج من الجيب ورقة مدعوكة، هؤلاء بوغتوا أشدّ مباغته، يقيمون الدنيا ويقعدونها معي أم لا، أي شيء يوجد في الجريدة، ربما عن قصتنا في شارع شترالاو، ينهض فرانس واقفاً، يصرخ، هاتان هما إمرأتان غيبتان. «قردتان أنتما، لا تقيما الدنيا وتقعداها معي، تظنانني قردكما» «يا سلام، يا سلام»، تجلس، إيفا لا تزال ترتعش بينها وبين نفسها ولا تقول شيئاً وتتحب وترتجف. عندئذٍ يتزع فرانس من فوق الطاولة الجريدة من البدينة.

ها إنّ هناك صورتين بعضهما بجانب بعض، ماذا، ماذا، ذعر رهيب، ذعر رهيب فظيع، هذا أنا- أنا أجل، هذا هو أنا، فلماذا، بسبب شارع شترالاو، لماذا، ذعر فظيع، هذا هو أنا بحق وحقيقة أم هو راينهولد، العنوان: قتل، قتل عاهرة عند فراينفالدي، إيميلي بارسونكي من بيرناو. ميتسي! ما هذا. أنا. خلف الموقد تجلس فأرة، على هذه أن تخرج.

يده تطبق بإحكام على الصحيفة. يهوي ببطء على المقعد المريح، يجلس منكمشاً على نفسه كل الانكماش. أي شيء كتب في الصحيفة. خلف الموقد تجلس فأرة.

ها إن المرأتين تحدّقان، إنهما تبكيان، إنهما تحملقان إلى الناحية الأخرى، الاثنتان، ما المسألة، قتل، كيف يكون ذلك، يا ميتسي، أنا مجنون، كيف يكون هذا، ما معنى هذا. ترتفع يده من جديد فوق المنضدة، ها إنه مكتوب في الجريدة، فلنقرأ: صورتي، أنا، وراينهولد، قتل، إيميلي بارسونكي من بيرناو، في فراينفالدي، كيف جاءت هذه، إلى فراينفالدي. أية صحيفة هي هذه، صحيفة مورغين بوست. اليد تطلع بالصحيفة، اليد تنزل بالصحيفة. إيفا، ماذا تفعل إيفا، هذه غيرت نظرتها، هذه تسافر إليه، لم تعد تبكي وتولول: «ماذا، يا فرانس؟» صوت، شخص ما يتكلم، يجب أن أقول شيئاً، امرأتان، قتل، ما القتل، في فراينفالدي، أنا قتلتها في فراينفالدي، لم أكن قطّ في فراينفالدي، وأين هي هذه أصلاً؟» الآن قل يا فرانس، ماذا تقول؟».

ينظر فرانس إليها، عيناه الواسعتان تنظران إليها، يضع الصحيفة على راحة كفه، رأسه يرتعش، يقرأ ويتكلم، على دفعات، إنها تخشخش وتطقطق، قتل عند فراينفالدي، إيميلي بارسونكي من بيرناو، المولودة بتاريخ الثاني عشر من حزيران سنة ١٩٠٨. إنها ميتسي، يا إيفا. يحكّ وجنته، ينظر إلى إيفا، نظرتة الواسعة الفارغة الخاوية، ليس في وسع المرء أن ينظر إلى داخلها. هل هذه ميتسي، يا إيفا. أجل. ماذا - تقولين، يا إيفا. هذه ماتت. ولهذا لم نعر عليها» «وأنت موجود فيها، يا فرانس» «أنا؟».

يرفع الصحيفة مرة أخرى وينظر إلى ما فيها. إنها صورتي.

نصفه الأعلى يهتز. «يا سلام، يا سلام، يا إيفا» قلقها يشتدّ ويزيد، دفعت بكرسي إلى جانب مقعده الكبير المريح. ما زال يهزّ نصفه الأعلى. «العياذ بالله، يا إيفا، العياذ بالله، العياذ بالله» ولا يمسك عن الهزّ بالطريقة نفسها. الآن أخذ يتنفس تنفساً شديداً وينفخ. الآن صار له وجه لكأن هناك ما يبعثه على الضحك. «بحقّ الله، ما المطلوب منا أن نفعله، يا إيفا، ما المطلوب منا أن نفعله».

«ولماذا أنزلوا صورتك هنا؟» «أين؟» «هنا.» «لا أدري. يا ربي، أيّ شيء هو هذا، كيف حصل هذا، ها ها، أمر عجيب.» والآن ينظر إليها وهو يرتعش عاجزاً ويسرّها هي أنّ هذه النظرة هي أيضاً نظرة إنسانية، من جديد تغرورق العيون بالدموع، المدينة أيضاً أخذت تتشّف باكية أيضاً، ثمّ يستقرّ ذراعه على ظهرها، يده تستقرّ على كتفها، وجهه مضغوط على عنقها، فرانس يتشّف باكية: «ما هذا، يا إيفا، ماذا أصاب عزيزتنا ميتسي، ماذا حدث لها، هي ميتة، حصل لها شيء ما، اتضح الأمر، هي لم تتركني، شخص ما قتلها، يا إيفا، عزيزتنا ميتسي قتلها شخص ما، غاليتي ميتسي، ماذا حدث، هل هذا حقيقة، قولي، ليس هذا بحقيقة».

ويفكر بميتسي، وإذا بشيء ما ينشأ، خوف ينشأ، رعب يلوح إلى هذا الجانب، إنه هنا، هو حصّاد، اسمه الموت. جاء ماشياً ومعه فؤوس وعيدان، يعزف على مزمار صغير، ثمّ يمزق الفكوك، بعدئذ يتناول البوق، سينفخ في البوق وسيضرب على الطبل، سيأتي تيس الهجوم الأسود الرهيب، خبطاً، دائماً بهدوء، ضرباً.

إيفا ترى الصرير البطيء، طحن فكيه. إيفا تمسك بفرانس، رأسه يرتعش، صوته يأتي، الصوت الأول يصرّ صريراً، ثمّ يصبح أكثر انخفاضاً. لم يسفر عن أية كلمة.

تحت السيارة انطرح هو، كان هذا مثلما هو الآن، ها إنها طاحونة، إنه مقلع،
وينهار هذا دائماً فوقى، أتمالك نفسي وأستطيع أن أستمر في المقاومة، كما أشاء، لا
جدوى، يريد أن يحطمني، وإن كنت دعامة من حديد فإن هذا ينوي أن يحطمني.

فرانس يصّر صريراً ويغمغم. «سيحدث شيء ما» «ماذا سيحدث؟» يا لهذه
من طاحونة، العجلات تدور، طاحونة هوائية، طاحونة مائية. «احترس، يا فرانس،
إنهم يبحثون عنك» ويقولون إنني قتلتها، أنا، ويرتعش ثانية، وجهه هناك ما بيعته
على الضحك من جديد، ضربتها ذات مرة، هؤلاء يظنون لأنني قتلت إيدا. «ابقَ
في مكانك يا فرانس، لا تنزل إلى تحت، إلى أن تريد الذهاب. إنهم يبحثون عنك،
يعرفونك من الذراع» «لن ينالوا مني، يا إيفا، إن لم أشأ أنا، لن ينالوا مني، يمكنك أن
تطمئني إلى ذلك. يجب أن أنزل، إلى عمود الإعلانات. يجب أن أرى هذا. يجب أن
أقرأ هذا في الأخبار المحلية، في الصحف، ماذا تكتب هذه، كيف كان هذا» ثم يقف
أمام إيفا، يحدّق فيها ولا ينبس ببنت شفة، المهم إلا يضحك الآن: انظري إليّ يا إيفا،
هل ينمّ مظهري على شيء ما، يجب أن ينمّ منظري على شيء ما».

لا، لا، تصرخ هي وتولول، ويتجه هو صوب الباب، يتسمم، يتناول
قبعته من على الكومودينة ويخرج.

ويا عجباً، كانت دموع أولئك الذين عانوا الظلم ولم يكن لهم من مواسٍ
فرانس لديه ذراع اصطناعية، وقلما حملها في ظروف أخرى، يمشي به
الآن في الشارع، اليد غير الطبيعية في جيب المعطف، السيجارة الغليظة في اليد
اليسرى، جاء متثاقلاً من المنزل. صرخت إيفا عالياً ورمت بنفسها أمامه على
باب الممشى، وعدها بالألا ينطلق هارباً وأن يحترس، قال: «سأصعد ثانية لتناول
القهوة»، ومن ثم نزل.

لم يضبطوا فرانس بييركوف ما دام هو لم يرغب في أن يضبطوه. كان يمشي بجانبه دائماً ملاكاً على اليمين وعلى الشمال، وهذان حولاً الأنظار عنه.

بعد الظهر كان في الساعة الرابعة فوق لتناول القهوة. هيربيرت كان أيضاً موجوداً. هنا يسمعان فرانس أول مرة يتكلم. قرأ في الصحيفة تحت، ومن صديقه أيضاً، كارل السمكري، قرأ أنّ هذا غدر بها. إنه لا يعرف لماذا فعل هو هذا. كارل السمكري كان أيضاً موجوداً في فراينفالدي في المكان الذي جرّوا إليه ميتسي. راينهولد فعل هذا بعنف. فقد استقلّ سيارة صغيرة. ولربما ساق مع ميتسي مسافة ما وبعدها صعد كارل وأمسكها بها معاً وجراها إلى فراينفالدي، وربما ليلاً. ولربما قتلاها في الطريق. «ولماذا فعل راينهولد هذا؟» «لقد رماني هذا تحت السيارة، والآن يمكنكم أن تعرفوا أنه هو كان الفاعل، لكن هذا لا يهم، فأنا لست ساخطاً عليه بسبب ذلك، على الإنسان أن يتعلم شيئاً، وحين لا يتعلّم أيّ شيء فإنه لا يعرف أيّ شيء. في هذه الحال يسير المرء هنا وهناك شأنه شأن مغفل لا يعرف أيّ شيء عن الدنيا، إني عاذره، لا، لا. الآن أراد هو أن يهزمني، ظنّ أنّه يضعني في جيبه، وهذا لم يكن، أحسّ هو بهذا، ولهذا سرق مني ميتسي وفعل فعلته بهذه. لكن أيّ شيء تستطيع هذه أمام ذلك» لهذا. والله لماذا، والله لهذا. خبط طبول، مسير، مسير، حين يسير الجنود عبر المدينة سيراً عسكرياً، والله لماذا، والله لهذا، والله ليس إلا بسبب كذا وكذا وما إلى ذلك.

هكذا دخلت إلى عنده، وهكذا ردّ هو، وكان مزعجاً وبغيضاً جداً وكان خطأً وغير مناسب أنني سرت.

كان خطأً أنني سرت، خطأً، خطأً.

لكنّ هذا لا يهمّ، لم يعد يهمّ هذا الآن.

يفتح هيربيرت عينيه، إيفا ينعقد لسانها. هيربيرت: «لماذا لم تقل ميتسي أيّ شيء من هذا؟» «لا ذنب لي في ذلك، ليس في إمكان المرء أن يقاوم هذا، كان يمكن أن يرديني قتيلاً وأنا في غرفته. أقول لكم هذا، لا شيء يمنع».

سبعة رؤوس وعشرة قرون، في اليد كأس مليئة بالويلات. هؤلاء سيضبطونني، هذا لا يردّ ولم تعد تجدي معه المقاومة!

«لو أنك تفوّهت بكلمة، يا رجل، أقول لك، ميتسي هذه كانت لا تزال اليوم على قيد الحياة، اللهمّ إلا شخصاً آخر كان ركب رأسه» «ليس الذنب ذنبي في ذلك. ما يفعله شخص مثل هذا لا تستطيع أن تعرفه أبداً. كما أنك لا تستطيع أن تعرف ما يفعله هو الآن، لا يستين لك» «لي أنا يستين هذا» إيفا تتوسل: «لا تهاجم هذا، يا هيربيرت، إني خائفة أيضاً» «نحن نحترس. بادئ ذي بدء نتحرّى أين يجتبي، وبعد نصف ساعة من ذلك سيكون في قبضة الشرطة» يومئ فرانس: «انفض يدك من هذا، يا هيربيرت، فهذا ليس لك. أتضع يدك في يدي مؤكداً وعدك؟» إيفا: «مدّها له، يا هيربيرت. وماذا تنوي أن تفعل يا فرانس؟» «ما هو شأنني. في وسعكم أن تلقوا به فوق المزابل».

ثمّ يتوجه بسرعة إلى ركن الغرفة. يقف وظهره إزاءه. يسمعان نحيباً، نحيباً، نههة، يبكي على نفسه وعلى ميتسي، إنهما يسمعان هذه، إيفا تبكي وتولول من فوق المنضدة، الصحيفة التي فيها «قتل» لا تزال على المنضدة، ميتسي قتلت، ما من أحد عمل شيئاً، هذا نزل عليها.

ها أنا قد أثنت على الأموات الذين كانوا ماتوا

عند المساء كان فرانس بيبركوف في طريق العودة. خمسة عصافير دوري تطير على الساحة البافارية فوقه. إنهم خمسة أوغاد خائرو القوى كثيراً ما لقيهم فرانس. إنهم يتفكرون في ما ينبغي أن يفعلوه معه، في ما ينبغي أن يقرروه في شأنه، كيف ينبغي أن يخيفوه ويربكوه وبأية عارضة خشبية يريدون أن يجعلوه يتعثر. يزعم أحدهم: ها هو ماشٍ، انظروا، له ذراع مستعار، إنه لا يسلم بعد بأنه خسر اللعبة، لا يريد أن يتعرّف عليه أحد.

يزعم الثاني: يا لكل الأشياء التي ارتكبتها المحترم. إنه مجرم خطير، كان ينبغي لهم أن يسجنوه، يستحقّ السجن المؤبد. قتل امرأة، سرقة، سطو، وامرأة أخرى، في هذا هو مذنب أيضاً. ماذا يريد هو الآن أيضاً.

يزعم الثالث: هذا يتكبر. يقوم بدور البريء. يمثل دور النزيه الشريف، انظروا إلى هذه الرقبة. حين يأتي شرطي نريد أن نطرح له القبعة أرضاً.

العصفور الأول ثانية: ما الداعي إلى أن يعيش مثل هذا الشخص زمناً أطول. نفقت أنا في السجن بعد تسع سنوات. كنت بعد أصغر سنّاً من هذا، وها قد متّ، عندئذٍ لم يعد في إمكاني أن أزقزق. أرفع القبعة، أيها القرد، ارفع النظارة السخيفة فأنت لست رئيس تحرير مجلة، أنت أيها الثور المخصي، حتى إنك لا تعرف جدول الضرب، ومن ثمّ تضع نظارة عاج مثل عالم علامة، احترس من أن تقع في قبضتهم.

العصفور الرابع: لا تزعقوا هكذا. ماذا تنوون أن تفعلوا به. هلاً نظرتم إلى هذا، له رأس ويمشي على ساقين، نحن العصافير الصغيرة في إمكاننا أن نزرق على قبعته.

العصفور الخامس: هلاً زجرتموه. إنه واهم، عنده خلل في عقله. ويتنزه هذا مع ملاكين، كنزه هو تبصيمه في الإدارة العامة للشرطة، هلاً عملتم شيئاً ما مع هذا. هلاً صرحتم وزعقتم. وإذا بهم يرفون ويزعقون فوق رأسه. ويرفع فرانس رأسه وهو مشئت الأفكار، العصافير تواصل الزجر والشتيمة.

الطقس خريفي، في سينما تاوينتسين بالاست يعرضون فيلم «آخر أيام فرانسيسكو»، خمسون فاتنة رقص في كازينو بيغر، لقاء باقة ليلك لك أن تقبلني. وإذا بفرانس يجد: حياتي انتهت، قضي عليّ، لديّ ما يكفي.

الحافلات الكهربائية تسير على طول الشوارع، تسير كلّها إلى مكان ما ينبغي لي أن أسير أنا إليه. الحافلة رقم ٥١ نورد إند، شارع شيللر، بانكوف، شارع برايتي، محطة قطارات شارع شونهاوز، محطة قطارات شتيتين، محطة قطارات بوتسدام، ساحة نوليندورف، الساحة البافارية، شارع أولاند، محطة قطارات شارجيندورف، غرونيفالد، فلندخل إليها مرة. نهاركم سعيد، ها أنا أجلس، في إمكان هذه أن تسير بي إلى حيث تشاء. وراح فرانس يشاهد المدينة، مثل كلب أضع أثر الأقدام. أية مدينة هي هذه، يا للمدينة الضخمة، ويا للحياة، يا لحياة عاشها هو فيها. في محطة شتيتين ينزل، ثم يسير على طول شارع الإنفاليدين، ها إنّ هناك بوابة روزيتال، فاييش لصناعة الملابس الجاهزة. هنا وقفت أنا، صحت، حامل ربطات عتق في عيد الميلاد الماضي. إلى تيجل يسافر بالحافلة رقم ٤١. وما إن تلوح الأسوار الحمراء، إلى اليسار الأسوار الحمراء والأبواب الحديدية الضخمة حتى يهدأ فرانس أكثر. هذا من حياتي، وعليّ أن أنظر إليه، أن أنظر إليه.

الأسوار تتصب حمراء، والشارع العريض بين صفين من الشجر يمتدّ أمام ذلك، الحافلة رقم ٤١ تمرّ به، شارع جنرال ويب. راينغيندورف غرب، تيجل،

بورزيك يطرق طرقاتاً. وفرانس بيبركوبف يقف أمام الأسوار الحمراء، يذهب إلى الجانب الآخر حيث الحانة. والبيوت الحمراء خلف الأسوار بدأت تهتز وتسير وتنفخ ملء فيها. في كل النوافذ يقف سجناء ويصدمون رؤوسهم بالقضبان، والشعر جزّوه لهم بطول نصف ميليمتر، يبدون بؤساء سقاماً، فقد نقص وزنهم، الوجوه كلّها مرّبة مهملة، يقلبون العيون ويشكون ويولولون. هناك القتل، السطو والسرقة، التزوير والاعتصاب، المواد القانونية كلّها، يشكون ويولولون بوجوه مرّبة، ها هم يجلسون، مرّبو الوجوه، الآن دقوا عنق ميتسي.

وفرانس بيبركوبف يسير حائراً حول السجن الضخم الذي لا يزال يرتج ويثور ويغلي ويطلبه، من فوق الحقول وعبر الغابة، مبتعداً من جديد إلى الشارع مع الأشجار.

ثمّ يكون هو على الشارع مع الأشجار. لم أقتل ميتسي. لم أرتكب هذا. لا مطلب لي هنا. قد مضى هذا وانتهى. لا شأن لي بتيجل، لست أدري كيف حدث هذا كلّ.

إنها الساعة السادسة مساءً، عندئذ يقول فرانس بينه وبين نفسه أريد الذهاب إلى ميتسي، يجب أن أمضي إلى مقبرة، هناك دفنوها. المجرمون الخمسة، عسافير الدوري، هي عنده من جديد، تحطّ فوق على عمود التلفون وتزعق إلى تحت. اذهب إليها، أيها الصعلوك، ألدريك الشجاعة، ألا تحجل من أن تذهب إليها؟ نادتك كي تأتي وهي ممددة في الحفرة. شاهدها بنفسك في المقبرة.

من أجل راحة موتانا. في برلين مات في سنة ١٩٢٧ من دون المولودين أمواتاً ٤٨٧٤٢ نسمة.

٤٥٧ شخصاً بمرض السل، ٦٤٤٣ بالسرطان. ٥٦٥٦ بمرض القلب،
٤٨١٨ بمرض الأوعية، ٥١٤٠ بالسكتة الدماغية، ٢٤١٩ بالالتهاب الرئوي،
٩٦١ بالسعال الديكي، ٥٦٢ طفلاً ماتوا بالحنق الدفترائي، ١٢٣ بالحمى
القرمزية، ٩٣ بالحصبة، ومات ٣٦٤٠ رضيعاً. وولد ٤٢٦٩٦ نسمة.
الأموات يرقدون في المقبرة في حدائقهم، الحارس يمشي بعصاه، يشكّ
قصاصات الورق.

الساعة السادسة والنصف، ما زال هناك ضوء، ها إن امرأة في ريعان
شبابها تلبس معطف فرو وبدون قبعة تجلس على قبرها أمام شجرة الزان، تخفض
الرأس ولا تتكلم. ترتدي منسوجاً حريراً لهماً. في اليد قصاصة. إنه غلاف
صغير، فرانس يقرأ: «لم أعد أستطيع العيش. سلّموا لي على والديّ مرة أخرى
وظفلي الحلو. استحالت حياتي إلى عذاب. ذنب موتي في رقبة بيريجر فقط. من
شأنه أن يحسن التسلية. وأنا لم أستخدمني إلا لعبة في يده وأخذني لحماً وتركني
عظاماً. وغد زنيم. لم آتي إلى برلين إلا من أجله، هو وحده جعلني تعيسة، صرت
إنساناً محطماً».

فرانس يعيد إليها ظرف الرسالة. «ويلاه، يا ويلاه: هل ميتسي هنا؟» لا
تخزن، لا تخزن. إنه بيكي: الويل لي، الويل لي، أين صغيرتي ميتسي؟».
ها هو قبر مثل كنبه كبيرة وثيرة، وعليها يستلقي أستاذ علامة يتسم له:
«أيّ شيء يشغل بالك، يا بني؟».

«أردت أن أرى ميتسي. جئت إلى هنا مباشرة» «انظر، أنا ميتت، يجب ألا
نأسى كثيراً ونحمل الهمّ، همّ الحياة وهمّ الموت أيضاً. في وسع المرء أن يريح نفسه
من كلّ شيء. حين لم أطمع في مزيد ومرضت، ماذا فعلت؟ هل تعتقد أنني

سأنتظر إلى أن أصاب بقروح الفراش؟ ولماذا؟ تركتهم يضعون زجاجة المورفين بجانبني، ثم قلت ينبغي عزف موسيقا وعزف على البيانو، موسيقا الجاز، أحدث الطقطوقات. تركتهم يقرؤون لي من مؤلفات أفلاطون، المأدبة الكبرى، هذا حوار جميل، وجلسة حقنت نفسي في أثناء ذلك تحت غطاء السرير حقنة تلو الحقنة، عدتها، ثلاثة أضعاف الكمية المعينة القاتلة. وظللت أسمع الضرب على البيانو خبط عشواء، مضحك، والقارئ لي تكلم على سقراط الشيخ. أجل، هناك ناس حكماء وناس أقل حكمة».

قراءة، مورفين؟ ترى أين هي ميتسي؟»

رهيب، تحت شجرة يتدلى رجل، زوجته تقف إلى جانبه، تنوح حين يأتي فرانس: «تعال بسرعة بالله عليك، اقطع الحبل، إنه لا يريد البقاء في قبره، إنه لا ينفك يطلع على الأشجار المرة تلو المرة، ويتدلى بشكل مائل».

«يا إلهي، يا إلهي، لماذا؟» «زوجي إرنست كان مريضاً طوال هذا الوقت، وما من أحد استطاع أن يساعده، كما أنهم لم يرغبوا في أن يرحلوه، قالوا دائماً وأبداً إنه يمثل تمثيلاً. عند ذلك نزل إلى القبو مصطحباً معه مساراً ومطرقة. بقيت أسمع وهو يطرق بالمطرقة، ويخطر ببالي، ماذا يفعل، جميل أن يعمل هو شيئاً ولا يقعد دائماً هكذا بلا عمل، لعله يبني زريبة للأرانب. ثم إنه لم يصعد في المساء إلى فوق، عندئذ خفت، وخطر ببالي أين هو، هل ما زالت مفاتيح القبو فوق، هي ليست بعد فوق. بعد ذلك نزل الجيران إلى تحت، ثم استدعوا الشرطة. قد كان دق مساراً غليظاً في السقف، وكان هذا غاية في النحول، إلا أنه أراد أن يتحقق من الأمر. ما الذي جاء بك، أيها الشاب؟ لماذا تبكي بكاءً حاراً؟ أتريد أن تقتل نفسك؟».

«لا، عروسي قتلوها، إلا أنني لا أعرف ما إذا كانت ترقد هنا؟» «هيا ابحث هناك في الخلف، هناك الجدد الموارون حديثاً».

بعد ذلك يضطجع فرانس على الطريق بجانب قبر فارغ، لا يستطيع أن يصرخ عالياً، إنه يعض الأرض: ميتسي، ماذا فعلنا نحن، لماذا فعلوا هذا بك، أنت لم تفعلي شيئاً، يا ميتسي الصغيرة. ما حيلتي، لماذا لا يلقون بي أيضاً في مثل هذا القبر، إلام تستمر الحال بي هكذا؟
ثم ينهض، إنه لا يقوى على السير، يستجمع قواه، يتمايل خارجاً من بين صفوف القبور.

ها إن فرانس ببيركوبف، السيد ذو الذراع المتصلبة، يصعد في الخارج في سيارة، وهذه تقله إلى الساحة البافارية. إيها لها معه شأن كبير، كبير، كبير. إيها لها معه شأن في أيام متوالية، في ليالٍ متوالية. هو ليس بحَيٍّ وهو ليس بميت. وقلما يحضر هيربيرت.

وتأتي بضعة أيام أخرى لمطاردة راينهولد من قبل فرانس وهيربيرت. إنه هيربيرت الذي تسلح بسلاح ثقيل ويسترق السمع هنا وهناك ويريد أن يلقي القبض على راينهولد. فرانس يرفض في بادئ الأمر، ثم يقع في الفخ، إنه آخر دواء له في هذا العالم.

الحصن محاصر كل المحاصرة، الهجوم الأخير للحامية المحاصرة يتم القيام به، إلا أنه ليس إلا مناورة شكلية زائفة

الوقت هو تشرين الثاني. مضى على انتهاء الصيف وقت غير يسير. المطر دخل في الخريف. بعيدة بعيدة هي الأسابيع حيث غمرت الحرارة اللذيذة

الشوارع، فمشى الناس بثياب خفيفة، النساء سرن كما في قمصان؛ ميتسي، صاحبة فرانس، لبست ثوباً أبيض واعتمرت طاقةً محبوكة، ميتسي التي سافرت ذات مرة إلى فراينفالد، ثم لم تعد ثانيةً، كان هذا في الصيف. المحكمة تحاكم بيرغمان الذي كان طفلياً على الحياة الاقتصادية، وكان خطراً على الأمن العام ومعدوم الضمير. الكونت تسييلين يصل عن طريق برلين في طقس سديمي، صافية هي السماء حين يغادر في الساعة ١٧، ٢ مدينة فريدرشسهافين. ولتفادي هذا الطقس الذي أذيع عنه في وسط ألمانيا فإن منطاد تسييلين يتخذ طريقه ماراً بشتوتغارت، بدارم شتاو وفرنكفورت على نهر الماين وغيسين وكاسل وراتينوف. وفي الساعة ٨، ٣٥ يكون فوق ناوين. وفي الساعة ٤٥، ٨ فوق ستاين. وقيل الساعة التاسعة يظهر تسييلين فوق المدينة، ورغم الطقس الماطر كانت السطوح تغص بالفضوليين الذين استقبلوا المنطاد بالتهليل وقد تابع لفاته فوق شرق المدينة وشمالها. وفي الساعة ٤٥، ٩ سقط في ستاين أول حبل هبوط.

فرانس وهيريرت يجوبان برلين؛ وفي معظم الأحيان يكونان خارج البيت. فرانس في نزل لجيش الإنقاذ، في بيوت خاصة بالرجال، يراقب ويتجول عبر نزل أوغست في شارع أوغست. يجلس في شارع درسدن، عند جيش الإنقاذ حيث كان هو مع راينهولد. إنهم ينشدون في كتاب الأناشيد رقم ٦٦: قل، لماذا تنتظر بعد، يا أخي؟ انهض وسارع إلى الانضمام، مخلصك يناديك طوال الوقت، ويطيب له أن يهبك السلام والسكينة. الجوقة، لماذا؟ لماذا لا تنضم؟ لماذا لا تريد السلام والسكينة؟ ألا تحس في قلبك، يا أخي، بالنفس الحي للروح؟ ألا تريد الخلاص من الخطيئة؟ هيا سارع دونما إبطاء إلى المسيح! قل، لماذا الانتظار بعد، يا أخي؟ بسرعة يقرب الموت منك ويوم الدين! هيا تعال لأن البوابة لا تزال مفتوحة ودم المسيح يشفع الآن لك!

فرانس يذهب شطر شارع فرويل إلى مأوى المشردين لعلّه يجد راينهولد. يستلقي على هيكل السرير، اليوم في هذا وغداً في ذاك، قصّ الشعر بـ ١٠ بفينيكات، حلاقة خمسة، ها هم يجلسون، يرتبون أوراقهم، أوراق إثبات الشخصية، التجارة بالأحذية والقمصان، يا أنت، أنت هنا لأول مرة، الانتقال غير وارد، إذ إنك تستطيع أن تبحث في الصباح الباكر عن الشيء الذي ما زال لديك، الحذاء، انظر، كلّ فردة حذاء يجب أن توضع على حدة في قائمة السرير، وإلا سرقوا منك كلّ شيء، حتى طقم الأسنان. أتريد أن تتركهم يشمونك وشماً؟ ليل. وهدوء، ليل، هدوء حالك، شخير كما في منشرة، لم أره. هدوء، طِنْ طِنْ طِنْ، ما الأمر، سجن، ظننت أنني موجود في تيجل. استيقاظ. ها إنهم يضربون بعضهم بعضاً. ومن جديد خروج إلى الشارع، الساعة ٦، ها إنّ النساء يقفن ويبتظرن أعزّ الناس ويذهبن معه إلى حانة مريية، ويخسرن في القمار نقودهن من الشحاذة.

راينهولد ليس هنا، هذا عبث في عبث أنني أبحث عنه، فهو من جديد يطارد النساء، ألفريدي، إيميلي، كاروليني، ليلي، شعر بني، شعر أشقر.

وإيفا ترى في المساء وجه فرانس الجامد، وهذا لا يعرف الملاطفة ولا المداعبة، ولا كلمة طيبة، فهذا يأكل ويتكلم قليلاً ويسكب العرق والقهوة في جوفه. إنه يستلقي عندها على الأريكة ويكي ويولول. «لن ننال منه».

«يا رجل، هلاً تركته» «لن ننال منه. ماذا نستطيع أن نفعل، يا إيفا؟» «يا رجل، يجب أن تكفّ عن هذا، لا معنى لهذا، أنت تدمّر نفسك بهذا» «أنت لا تعرفين ما تقوم به ونفعله - هذا - لم تعانیه يا إيفا، هذا لا تفهمينه. هيريرت يفهمه بعض الشيء. ماذا ينبغي لنا أن نفعل. أتمنى أن يكون بين يديّ، أود أن أذهب إلى الكنيسة وأصليّ راکعاً حين يقع في قبضتي».

لكن هذا كله ليس صحيحاً. وليس كل شيء صحيح؛ مطاردة راينهولد كلها ليست بصحيحة، وهذا هو تنهّد وخوف رهيب. الساعة سيتقرر مصيره. هو يعرف كيف سيتم ذلك. سيكون لكل شيء معناه، معنى مخيف غير متوقع. لعبة الغمّيسة والاختباء لم يبق لها إلا القليل من الوقت، يا حبيبي.

إنه يراقب مختبئاً منزل راينهولد، ليست عيناه لأي شيء آخر هنا، يتابع النظر ولا يحس بأي شيء. كثيرون يمرون بالبيت، يدخل بعضهم، هو نفسه دخله، والله بسبب كذا وكذا وهلمّ جرّاً.

البيت يطلق قهقهة حين يراه واقفاً. يودّ أن يتحرك لكي يجمع جيرانه والأجنحة الجانبية والعرضية المقاطعة لكي يشاهدوا هذا. ها إنّ شخصاً يقف بشعر مستعار وذراع اصطناعية، رجل منفعل مهتاج، مترع بالعرق، يقف ويغمغم بينه وبين نفسه بشيء ما.

«نهارك سعيد يا عزيزي بيبركوبف. اليوم هو الثاني والعشرون من تشرين الثاني. مازال الجو مطراً. هل تريد أن تصاب بالزكام. ألا ترغب في أن تذهب إلى حانتك المفضّلة وتشرب كأس كونياك؟».

«أعطِ الباقي!»

«ناول!»

«ردّ الباقي لراينهولد!»

«أذهب إلى مصح فولغارتن لمرضى الصرع، عندك صدمة عصبية.»

«أعطِ الباقي!»

ثمّ يشتغل فرانس بيبركوبف ذات مساء في البيت، يجيئ إبريق نפט وزجاجة.

«اخرج، أنت تختبئ، يا ابن الحرام الخبيث، أيها الكلب المسعور. لا تملك الشجاعة لكي تخرج!»

البيت: «من تنادي أنت إن لم يكن هو هنا أصلاً. هلاً دخلت، في وسعك أن تقلّب نظرك فيما حولك».

«لا أستطيع أن أنظر في كل الثقوب والحفر»

«ليس هذا هنا، لن يكون بمثل هذا الجنون ليكون هنا».

«سلمني إياه. ستسوء حالك».

«أنا أسمع دائماً وأبداً: تسوء الحال. يا رجل، اذهب إلى البيت وخذ

كفايتك من النوم، أنت خمور، ومرّد هذا إلى أنك لا تأكل».

في صبيحة اليوم التالي وعقب مجيء بائعة الجرائد يحضر هو.

المصايح تراه يسير، تهتز: «أي والله، هناك نار».

دخان كثيف، هبات من اللهب من كوّات أرضية، في الساعة السابعة

يحضر رجال الإطفاء، فرانس يجلس عند هيريرت ويكوّر قبضتيه: «أنا لا أعرف

وأنت لا تعرف، لست في حاجة إلى أن تقول لي، ليس له الآن أيّ مأوى، يمكنه

الآن أن يبحث. أجل، أضرمت النار».

«يا رجل، لم يعد يسكن هنا، هذا سيأخذ حذره».

«كان هذا جحره، وهذا يعرف، وإذا ما احترق كنت أنا الفاعل. نحن

طردنا هذا بالتعريض للدخان، انتبه، كيف سيصل الآن».

«لست أدري، يا عزيزي فرانس».

أما راينهولد فلم يخرج، برلين تجعجع وتهدر وتواصل الصخب والعجيج، وفي الصحف لم يكتبوا أنهم قبضوا عليه، فقد هرب، وذهب خارج البلاد، وهذا لن يقبضوا عليه أبداً.

فرانس يقف أمام إيفا وينتحب وينحني. «ليس في وسعي أن أعمل شيئاً، وعليّ أن أتحمّل هذا، في إمكان هذا أن يدمّرني، والبنت قتلها، وها أنا ذا أقف مثل إنسان ضعيف غبي. يا للظلم. يا للظلم.

«فرانس، هذا هو وليس باليد شيء آخر» «لا أستطيع أن أفعل شيئاً. أنا محطّم»
«لماذا أنت محطّم يا عزيزي فرانس؟» «عملت ما في وسعي. يا للظلم، يا للظلم.»

ها إنّ كلا الملاكين يسيران بجانبه، اسمهما ساروج وتيرا، وهما يتحدثان معاً، فرانس يقف في الزحام، يغيب في الزحام، إنه صامت، إلا أنّها يسمعانه بيكي وينتحب، رجال شرطة يمرون في دورية. إنهم لا يتعرفون عليه. ملاكان يسيران إلى جانبه.

لماذا يسير ملاكان إلى جانب فرانس، وأية لعبة أطفال هي هذه حيث تسير الملائكة إلى جانب إنسان، ملاكان في ساحة ألكسندر في برلين سنة ١٩٢٨ بجانب قاتل ولص وقواد في الوقت الحالي. أجل، قصة فرانس بيبركوبف هذه عن وجوده الصعب الحقيقي الموضح تقدّمت الآن إلى هذا الحد. على نحو أوضح، على نحو أوضح، كلما قاوم فرانس بيبركوبف وأرغى وأزيد صار كل شيء. وتدنو النقطة إليّ سيتضح عندها كلّ شيء.

الملاكان يتكلمان بجانبه، اسمهما ساروج وتيرا، وحديثهما هذا نصّه، بينما يشاهد فرانس نوافذ العرض عند تيتس:

«ما رأيك يا تيرا، أيّ شيء كان سيحدث لو تركوا هذا الإنسان وشأنه، لو تركوه يقف وتم القبض عليه؟» ساروج: «الحق أنّ هذا لن يهّم كثيراً، أعتقد أنهم سيقبضون عليه في كل الأحوال، الأمر آتٍ لا محالة، فقد شاهد البناء الأحمر في الجانب الآخر، إنه على حق، في بضعة أسابيع سيكون نزيلاً فيه» تيرا: «بعد ذلك تريد أن تقول أنه لا حاجة إلينا بصفة خاصة؟» ساروج: «أعني هذا نوعاً، - إن لم يكن مسموحاً لنا بأن نزيحه هنا من موضعه كلّ الإزاحة» تيرا: «ما زلت طفلاً، يا ساروج. أنت لا ترى هذا هنا إلا في بضع آلاف سنة، وإذا أخذنا الإنسان من هنا ونقلناه إلى مكان ما، إلى وجود آخر فعل هو ما استطاع أن يفعله هنا؟ على ١٠٠٠ مخلوق، يجب أن تعلم، يأتي ٧٠٠، لا ٩٠٠ منع وحيلولة» «ولأيّ سبب ينبغي، يا تيرا، حماية هذا بالذات، إنه إنسان غير عاديّ، وأنا لا أرى لماذا نحن نحّميه» «عادي، غير عادي، ما هذا؟ هل متسوّل عاديّ وغنيّ غير عاديّ؟ فالغني يكون غداً متسوّلاً والمتسوّل يكون غداً غنياً. هذا الرجل هنا على وشك أن يصبح بصيراً، إلى حد هنا جاء ناس كثيرون. على أن دوره جاء أيضاً، أسمع، إنه على وشك أن يصبح عطوفاً حنوناً. أبصر، يا ساروج، من شهد كثيراً، من عرف كثيراً سهل على طبيعته أن تتجه إلى المعرفة وليس غير المعرفة ومن ثمّ - أن يفرّ، أن يموت. لم يعد يرغب من بعد ذلك، مسار ما لاقاه ومرّ به قاسه قياساً تاماً، في أثناء ذلك تعب، جسده وروحه أضناهما التعب من هذا. هل تفهم هذا؟» «أجل».

«لكن بعد أن شهد المرء الكثير وعرف الكثير لكي يظلّ مواظباً، لا لكي يهبط إلى الأعماق، لا لكي يموت، بل لكي يتمطى ولكي يتمدد ويحسّ، لا لكي يتنحى عن الطريق، بل ليقف بروحه ويصمد، إنّ هذا لشيء. أنت لا تعرف، يا ساروج، كيف صرت، ما أنت، ما كنت وكيف تأتي لك أن تذهب معي إلى

هنا وأن تحمي كائنات أخرى» «هذا صحيح، يا تيرا، هذا لا أعرفه، سُلبت مني ذاكرتي كلياً» «ستعود إليك شيئاً فشيئاً. ليس المرء قوياً دائماً بذاته، بذاته وحده، فالمرء مرّ به شيء ما. فالقوة تقضي بأن يتم اكتسابها، وأنت لا تعرف كيف اكتسبتها، وهكذا تقف أنت الآن، وأشياء لم تعد تشكّل عليك أية أخطار تقتل آخرين» «لكنه لا يريدنا، بيبركوبف هذا، أنت نفسك تقول، إنه يريد أن يتخلّص منا» «إنّ لديه الرغبة في أن يموت، يا ساروج. ما من أحد خطا بعد خطوة كبيرة جداً، أقدم على هذه الخطوة الرهيبة من دون أن يتمنى أن يموت. وأنت على حقّ، هنا أيضاً تستسلم الأكثرية» «وعند هذا هنا لديك أمل؟» «أجل، لأنه قوي ولم ينهدّ حيله، ولأنه صمد مرتين. من أجل ذلك نريد أن نبقي عنده، يا تيرا، أنا نفسي أود أن أطلب منك هذا» «أجل».

طبيب شاب، شخص رائع جداً، يجلس قبالة فرانس: «نهارك سعيد، يا سيد كليمينز. سافر أنت، بعد حالات موت كثيراً ما يحدث هذا. يجب على المرء أن يؤمّ نواحي أخرى، برلين برمتها ستثقل عليك الآن، أنت في حاجة إلى مناخ جديد. ألا تريد أن تسري عن نفسك بعض الشيء؟ أنت أخت زوجته، أعنده أحد ما للمرافقة؟».

«أستطيع أن أسافر أيضاً هكذا إذا ما لزم الأمر.» «لزم؛ أقول لك، يا سيد كليمينز، الشيء الوحيد الذي ينبغي القيام به هنا هو: الهدوء والراحة وقليل من اللهو والتسلية؛ هو وتسلية، لكن ليس أكثر مما ينبغي. هذا لا يلبث أن ينقلب إلى ضدّه. دائماً باعتدال. الآن ما زال هناك في كل مكان أفضل موسم، إلى أين تريد الذهاب؟» إيفا: «أدوية مقوية، أليست هذه أيضاً جيّدة، ليتسيتين. ومن ثمّ نوم أفضل؟» «سأكتب لك كلّ شيء، انتظري، أدالين».

«أدلين أعطيتك إياه» [لا حاجة بي إلى هذه المادة السامة] «في هذه الحال تناولين فانودورم، في المساء حبة مع شاي النعناع؛ الشاي جيدة، بعدها يتم تناول الدواء على نحو أسرع. ومن ثمّ تذهبين معه إلى حديقة حيوانات».

«لا، لست من محبّي الحيوانات» «إذن إلى حديقة النباتات، شيء من التسلية واللهو، لكن ليس أكثر مما ينبغي».

«اكتب له أيضاً دواء للأعصاب، للتقوية» «في الإمكان إعطاؤه قليلاً من الأفيون للانبساط والسلطنة» «أنا أشرب، أيها السيد الدكتور» «لا. ما عليك من ذلك، الأفيون شيء آخر، إلّا أنني سأعطيك هنا ليتسيتين، مستحضر آخر، طريقة الاستعمال مكتوبة. ومن ثمّ حمامات، حمامات مهدئة، عندكم بالتأكيد حمام سباحة، أيتها السيدة الفاضلة؟» «كل شيء موجود، طبعاً، أيها السيد الدكتور» «إذن، أنظري، هذا ميزة للمساكن الجديدة. إنّ الناس يقولون بطبيعة الحال. عندي لم يكن هذا طبعاً على تلك الحال. تركتهم يركبون لي كلّ شيء، كلّ ما لا كثيراً، والغرفة أيضاً بالرسوم والتصاوير، ستدهشين حين تشاهدين هذا، وهذا ليس عندكم. إذن ليتسيتين وحمامات، حمام كل ثاني ضحاً، وبعد ذلك تدليك أيضاً، تدليك العضلات كلها بعناية بحيث إنّ الإنسان يتحرك تحركاً صحيحاً» إيفا: «أجل، هذا صحيح» «التدليك تدليلاً صحيحاً، انتبه، بعد ذلك ستتاح لك حرية أكثر، يا سيد كليمينز. انتبه، ستستردّ عافيتك. وبعدها سفر» «ليس سهلاً معه، أيها السيد الدكتور» «لا يهيم. ستسير الحال على خير ما يرام. إذن، أيها السيد كليمينز، كيف هي الحال؟» «ما الأمر؟» «خلّ رأسك مرفوعاً، تناول الدواء دائماً بانتظام، والمنوم والتدليك» «سيكون ذلك، أيها الدكتور؛ إلى اللقاء، وشكراً أيضاً مؤقتاً».

«الآن حققت مشيئتك يا إيفا» «سأتيك بالحمامات ودواء الأعصاب»
«أجل، اجليها» «وأنت تبقى فوق إلى ما شاء الله» «حسناً، حسناً، يا إيفا».

ثم ترتدي إيفا المعطف وتنزل. بعد ربع ساعة يذهب فرانس أيضاً.

المعركة تنشب. نحن سائرون إلى الجحيم بالطبول والأبواق

ميدان القتال يغري، ميدان القتال!

نحن سائرون إلى الجحيم بالطبول والأبواق، من أجل هذا العالم لم يتبق
عندنا شيء، لا نريد أن نعرف عنه أي شيء، عن كل ما عليه وما تحته وفوقه. مع
كل ناسه، من رجال ونساء، كل الغوغاء السفلة الجهنميين، فما من أحد يمكن
الاعتماد عليه. لو كنت طائراً صغيراً لأخذت كومة من القاذورات، فأرمي بها
بكلتا الرجلين ورائي وأطير بعيداً. لو كنت حصاناً، كلباً، قطّة، ما كان لأحدهم أن
يفعل شيئاً أفضل من إلقاء زبالته على الأرض ويتوارى مسرعاً بقدر الإمكان.

لا شيء يحدث في هذا العالم، ليست بي رغبة لأن أعاقر الخمرة من جديد،
هذا ما كنت سأقدر عليه، معاقره الخمرة، معاقره الخمرة ومعاقره الخمرة، ومن بعد
ذلك تبدأ الزبالة الجهنمية من أول. الرب الكريم خلق الأرض، ليقل لي هذا رجل
دين، ولماذا؟ إلا أنه سواها أيضاً على نحو أفضل مما يعرفه رجال الدين، سمح لنا أن
نبول على السحر كله وأعطانا يدين وحبلاً بالإضافة إلى ذلك، فلتخلص في هذه
الحال من الزبالة والقذارة، نستطيع هذا، عهد القذارة الجهنمية ولي، أتمنى لكم وقتاً
ممتعاً، بركتي، نحن سائرون إلى الجحيم بالطبول والأبواق (الزمور).

لو أنني تمكنت من القبض على راينهولد لذهب عني الغيظ والغضب. في
هذه الحال كان يمكن أن أمسكه برقبته وأدق له عنقه، وكان يمكن أن إلّا أتركه

ليعيش، وكانت حالي ستتحسن بعدئذٍ، ولكنك شبت، ولكن كان هذا هو المطلوب ولكنك نعمت بالراحة. لكن الكلب الذي آذاني كثيراً وجعل مني مجرماً من جديد وهشم لي ذراعي يسخر مني في مكان ما في سويسرا. في حال تدعو إلى الشفقة مثل كلب وضيع أتجول هنا وهناك، يستطيع أن يفعل بي ما يشاء، ما من أحد يقف إلى جانبي، حتى ولا الشرطة الجنائية، فهذه لا تزال تريد أن تقبض عليّ لكأني أنا الذي قتل ميتسي، وهذا ما فعله الوغد أيضاً أنه كاد لي هنا مكيدة. ما كل مرة تسلم الجرّة. تحمّلت و عملت بما فيه الكفاية، لم أعد أستطيع. ما من أحد يستطيع أن ينكر عليّ أنني لم أدافع عن نفسي. لكن صبري نفذ، ولكل شيء حدّ. وبما أنني لا أستطيع أن أقتل راينهولد فأنا أقتل نفسي بنفسي. أنا أسير إلى جهنم بطبول وأبواق.

من هو هذا الذي يقف في شارع ألكسندر ويحرك ببطء شديد ساقاً بعد ساق؟ اسمه فرانس بييركوبف، فما قام به وزاوله تعرفونه. إنه قوّاد، قاتل خطير، شخص بائس، رجل مهزوم، الآن دوره. سحقاً للقبضات التي هزمتها! قبضات رهيبة تلك التي تمكّنت منه! القبضات الأخرى لكمّت وكفّت عنه، كان هناك جرح، لم يكن إلا هو، كان في الإمكان أن يشفى هذا، بقي فرانس كما كان واستطاع أن يواصل الجري. الآن لا تكفّ القبضة عنه، القبضة ضخمة أعظم الضخامة، إنها تهدده جسداً وروحاً، فرانس يمشي بخطوات متقاربة ويعرف: حياتي لم تعد ملكاً لي. لست أدري ما ينبغي لي أن أفعله الآن، أما فرانس بييركوبف فقد قضى عليه وانتهى.

إنه تشرين الثاني، في آخر المساء في نحو الساعة التاسعة يتسكع الإخوة في شارع مونتس، وإنه لشديد هو الضجيج من الحافلة الكهربائية والسيارات

الكبيرة ومن المنادين على الجرائد، ورجال الشرطة ينصرفون من الشكنة ومعهم نبايتهم المطاطية.

في شارع لاندسبيرغ يسير موكب يحمل أعلاماً حمراء: استيقظوا أيها الملعونون على هذه الأرض.

«قهوة قوية جاهزة»، شارع ألكسندر، سجائر غليظة جيدة فريدة من نوعها، بيرة معتنى بها في أباريق شفافة، كل ألعاب الورق ممنوعة منعاً باتاً، نرجو الضيوف الكرام أن يتبهوا بأنفسهم إلى المشجب لأنني أنا لا أتكفل بشيء. صاحب المطعم. الفطور من الساعة السادسة من طلوع الفجر حتى الواحدة ظهراً بـ ٧٥ بفينيك، فنجان قهوة، بيضتان مسلوقتان وشريحة بالزبدة.

في المقهى الشعبي في شارع برينتسلاو يجلس فرانس، يهللون له: «أيها السيد البارون!» ينزعون عنه الشعر المستعار، يفكّ هو الذراع المستعار، يطلب بيرة، والمعطف يضعه على ركبته.

ثلاثة رجال موجودون، بوجوه رمادية، وصحيح، هم مساجين، فارون، يهدون بلا انقطاع، يهدون بالسخافات.

أنا إذن ظمآن وأقول لنفسي، لماذا الغلو إلى هذا الحد، ها إن هناك قبواً ويقطن فيه بولونيون، أريهم نقانقي وسجائري، وهؤلاء لا يسألون أيضاً من أين لي هذا، يشتررون ويعطونني العرق، أترك كل شيء في مكانه. وفي الصباح أراقب كيف هم يغادرون، أنا إلى القبو، معي كلاب، كل شيء مازال في مكانه، نقانقي والسجائر، ولأخرج بذلك، صفقة ممتازة، أليس كذلك؟

كلاب بوليسية، أي شيء تستطيعه هذه. خمسة رجال خرجوا من عندنا عبر السور. كيف أستطيع أن أقول لك هذا بدقة. على كلا الجانبين الجدران

مصفحة بالصفحة، صفيح جديد، حسن ثمانية ميليمترات. أما هذه فتخترق الأرضية، ما هذا، أرضية إسمنتية، حفروا حفرة، دائماً في المساء، ومن هنا تحت الأسوار. ومن ثم يأتي رجال الشرطة ويقولون: كان من المفروض أن نسمع هذا. فقد نمنا. هل سنسمع شيئاً كهذا، لماذا نحن بالذات؟

ضحك، مرح، أنت أيتها البهجة، أنت أيتها البهجة الطروبة، أنت أيتها البهجة المغبوبة، أغنية دوارة تدور عند طاولتنا، يا سلام.

ثم إن أحدهم يصل طبعاً بعد ذلك، السيد المساعد في الشرطة شفاف، يريد أن يبالغ في التباهي ويقول: لقد سمع هو هذا كله أول أمس، إلا أنه كان في سفرة رسمية، كان على سفر في مهمة رسمية. حين يحدث شيء ما فهم دائماً في سفرة رسمية، على سفر في مهمة رسمية. كأس بيرة، وأنا أيضاً، ثلاث سجائر.

فتاة شابة تمسح الشعر لرجل أشقر طويل عند الطاولة، يقول هو: «يا زونينبورغ، يا زونينبورغ.» وحين تكون استراحة يندفع قائلاً، عليه أن يغني شيئاً ما عن الشمس: «يا زونينبورغ، يا زونينبورغ. كم هي خضراء أوراقك. كنت في الصيف عام ثمانية وعشرين، لم أجلس في برلين ودانترغ، لم أجلس أيضاً في كونيغزبيرغ، أين جلست بحق الله؟ يا رجل، ألا تعرف: في زونينبورغ، زونينبورغ. يا زونينبورغ، كم هي خضراء أوراقك. أنت سجن أولاً وأخيراً، هنا تسود مبكراً أو متأخراً، إنسانية. هنا لا يضرب الناس ولا يعذبون ولا يسيؤون المعاملة، لا يسومون سوء العذاب، لدى الناس هنا ما يستفيد الإنسان منه، حين يشرب وحين يأكل وحين يدخن.

نوابض لا بأس بها في الأسرة، كونياك، بيرة وسجائر، يا رجل، عندنا هنا الحياة ميسرة، رقابتنا هنا استسلمت لنا قلباً ويداً، نريد أن نعطي الموظفين أحذية

عسكرية، وعليكم أنتم أن تعطونا سجائر، قلباً ويداً، نريد أن تتركونا نشرب، قلباً ويداً، نريد أن تتركهم يبيعونكم أحمية عسكرية ويزات عسكرية هي بعد من زمن الحرب، وهذه لن نغيرها، وفي إمكانكم أن تشتروا هذه على الفور، المال الذي مصدره هذا يمكن أن نحتاج إليه لأننا نحن سجناء مساكين.

يوجد بضعة زملاء أباة يريدون أن يشوا بنا عند الشرطة، ونحن نريد أن نحطم عظام هؤلاء، وعلى هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم فإما أن يكون عليهم أن يستمتعوا معنا، وإما أننا ننوي أن نصقلهم ويكون عليهم أن يجربوا شيئاً من عندنا لا بأس به.

السيد المدير وحده ليس صالحاً كل الصلاح، لماذا، فهذا لا يلاحظ أبداً. منذ عهد غير بعيد وصل أحدهم، أراد هذا أن يراجع أولاً وأخيراً سجن زوينبورغ، لم يحتمل. كيف لم يحتمل، كيف لم يحتمل، عليكم أن تتلقوا هذا الآن. نحن معاً في الحانة، موظفان يارسان عندنا وظيفة مستشار، وما إن كنا في وسط سهرة الشرب، من جاء، أجل ترى من جاء إلى هناك، ترى من ذا الذي جاء إلى هناك.

إنه فلان من الناس، إنه فلان من الناس، إنه السيد المراجع. أي شيء تقولونه الآن هنا؟ في صحتك نقول. فلتعش، ليعش مراجعنا العزيز، ولتلتصق أنت بالسقف، ولتتناول أنت كأس كونياك، اجلس إليّ بجانب.

أي شيء يقوله المراجع؟ أنا السيد المراجع، أي شيء يقف هنا، أنا السيد المراجع، أي شيء هو يقف، سأطلب حبسكم كلكم، مساجين وموظفين، ليس لديكم الآن ما يضحكم، توقعتم شيئاً ما، أي شيء هو يقف، أي شيء هو يقف، أي شيء.

أنت يا زونينبورغ، أنت يا زونينبورغ، كم هي خضراء أوراقك، أغضبناه بشدة، ها قد توجه إلى زوجته وصب جام غضبه؛ أي أي ها هو يقف، أي أي ها هو يقف، أي أي السيد المراجع. يارجل، أنت خسرت الآن، لا تؤاخذني.

بنطال بني وسترة قماشية سوداء! شخص ما يسحب من طرد سترة سجن بنية اللون. البيع بالمزاد العلني بأعلى عرض، أسعار منخفضة من غير هواده، أسبوع داكن اللون، سترة تقتنى بثمن رخيص، كلفتها كأس كونيكا. من يحتاج إليها الساعة؟ مرح، فرح، أنت أيتها البهجة، أنت أيتها الغبطة، يا أخي، أعز ما عندك يعني فلنشرب كأساً أخرى. ومن ثم بضعة أحذية من قماش الشراع، على علم بالظروف المحلية في السجون، عليها نعال من القش، مناسبة للفرار، ثم غطاء. يارجل، أما هذه فقد كان عليك تسليمها لرب البيت.

المؤجرة تتسلل إلى الداخل، تغلق الباب بهدوء: بلا صوت عالٍ، هناك ضيوف في صدر المكان. أحدهم ينظر صوب النافذة. جاره يضحك. النوافذ مغلقة. حين يكون الجو ملبداً بالغيوم، انظر - ويمسك من تحت الطاولة، يرفع من على الأرض غطاء: القبو وبعد ذلك الأفضل مباشرة على عرصة الجيران، ليس من داع إلى التسلق، كل شيء بسهولة ويسر. إبقاء القبعة فقط على الرأس، وإلا لفت أنت الأنظار.

شيخ يدمدم: كانت الأغنية التي غنيتها جميلة. على أن هناك أيضاً أغاني أخرى. هي أيضاً ليست زائفة. أتعرف هذا هنا؟» يتزع ورقة، ورقة كتابة، ممزقة شرمزق، مكتوب عليها كتابة غامضة.

«السجين الميت» «لكن ليس بمأساوي إلى الحد الكبير!» «ماذا يعني

مأساوي. صحيح ويصح صحة ما عندك.»

«إنها لا بكاء، إنها لا بكاء، في الأنبوب كُتب، ولهذا لا بكاء».

«السجين الميت. صحيح هو فقير، إلا أن لديه مرح الشباب، سلك فيما مضى درب الحق، مقدساً كان في نظره كل ما هو نبيل، والخسة والخبث لم يعرفهما. على أن أرواح سوء الحظ الشريرة كانت تقف له عند منعطف الحياة. وقع في أيدي محضرين مطاردين بتهمة فعلة شنعاء. [المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة، طاردتني الكلاب الملعونة، وكيف طاردتني، كادت تقتلني. وهذا لا يتوقف على الدوام. والمرء لا يعرف كيف ينجو بنفسه، ودائماً بلا توقف، دائماً بلا توقف، والمرء لا يدري، فلا يستطيع أن يندفع راكضاً بمثل هذه السرعة، المرء يركض على قدر استطاعته، وفي النهاية فإنه سيصل. الآن عندكم فرانس، الآن ألقى بنفسي أرضاً، أنا الآن على استعداد، حسن، وقع المحذور، في صحة وعافية].

صراخه كله وتأكيده، غضبه كله لم يستطع أن ينقذه. كانت هناك شهادة ضده ووثيقة، ضمنت له الأغلال. صحيح أخطأ القضاة الحكماء [المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة]، حين نطقوا بالحكم عليه [كيف طاردتني الكلاب الملعونة]، لكن ماذا نفعته براءته حين تحطم مجن شرفه. إنسانية، إنسانية، يصيح باكياً بكاءً مختنقاً، لماذا أردتم أن تدوسوني، ما ظلمت إنساناً قط. [الشيء مقبول، فالمرء لا يعرف كيف ينجو بنفسه. والحبل على الجرار، المرء يندفع راكضاً، لن يستطيع الركض بهذه السرعة ويعمل ما في وسعه].

حين غادر من جديد أسوار السجن إنساناً غريباً لم يعد العالم هو نفسه، هو بالذات كان إنساناً آخر. هام على وجهه على شاطئ النهر، على أن الجسر كان محطماً، مريضاً بالقلب، ملؤه السخط رده إلى الليل. ما من أحد أراد أن يعطيه خبزاً، [المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة]، عندئذٍ نفذ صبره، أعان نفسه بنفسه وأقبل على الحياة. هذه المرة كان حقاً مذنباً.

[مذنب، مذنب، مذنب، وا، هذا هو، يجب أن يصير المرء. كان يجب أن يصير المرء، المفروض أن يصير المرء أكثر من ألف مرة أخرى!] على مثل هذه الفعلة يشدد المرء العقوبة أكثر فأكثر، هكذا تقتضي الأخلاق ويقتضي العرف. بعد زلزلة السجن يعود من جديد شاكياً. [فرانس، هاللويا، أنت تسمع هذا، ألف مرة تصبح أكثر ذنباً، ألف مرة تصبح أكثر ذنباً] أجل، قفزة أخرى في الخلاء، سلب، قتل، حسن تصيد، والإنسانية، هذا الإنسان المتوحش، فليصرع أرضاً بلا رحمة أو شفقة. راح، لكن سرعان ما عاد، وقد أثقل كاهله. وعلى وجه السرعة كان مصير السكرة الأخيرة إلى زوال والخطيئة والعقوبة مؤبداً. [المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة، كان على حق، فقد أحسن صنعاً].

أما الآن فلا يعرف الشكوى، يتركهم يقرعون، يسمح بأن يدوسوه، يجني ظهره في صمت تحت النير، يتعلم المرء، يتعلم الصلاة. يقوم بعمله في ملل، يوماً بعد يوم، الشيء نفسه دائماً. من زمان كان ذهنه محطماً قبل أن يكون هو نفسه جثة. [المطاردة، المطاردة، المطاردة الملعونة، هؤلاء طاردوني دائماً، وعملت أنا دائماً ما في وسعي، غصت أنا الآن في الوحل وأسأت التصرف ولا ذنب لي في ذلك، ما عساي أن أفعل. اسمي بيبركوبف، وأنا ما زلت هذا دائماً، حذار].

اليوم أتم سباق العدو، في ضوء الربيع الساطع ينزلونه في القبر، أحسن الزنانات للسجين. وناقوس السجن يدق له تحية الوداع الأخيرة، له، ذلك الذي يجب أن يموت من أجل العالم مفقوداً في السجن. [حذار، أيها السادة المحترمون، فرانس بيبركوبف لا يعرفكم بعد، فهذا لا يبيع نفسه بقروش، فإذا ما كان لا بدّ لهذا من المضي إلى قبره، فإنّ له على كلّ إصبع واحداً من واجبه أن يبلغ عنه عند الرب الكريم ويقول له في ذلك: الأولوية لنا نحن وبعدها فرانس. في وسعك إلا تعجب، أيها الرب الكريم أنّ هذا يأتي على متن ضامرٍ

كبير، فهذا طاردوه هم أنفسهم هكذا، الآن يأتي في عربة كبيرة أنيقة، فقد كان صغيراً حقيراً في الدنيا، وعليه الآن أن يظهر في السماء ما هو عليه].

ما زال هؤلاء يغنون ويتجادبون أطراف الحديث على الطاولة، فرانس بيركوبف أغفى حتى الآن، الآن هو صباح ونشيط. يتهياً من جديد، يربط ذراعه، هذا فقدناه في الحرب، دائماً يكون الذهاب إلى الحرب. الحرب لا تتوقف ما دام الناس يعيشون، المهم أن يقف المرء على قدميه.

بعد ذلك يقف فرانس على سلم باب المقهى الحديدي، في الشارع. وفي الخارج تندف السماء بندف الثلج الصغيرة، تمطر مطراً خفيفاً وينهمر المطر، أدغشت الدنيا ومثل هذه الحركة في شارع برييتسلاو. وها إن هناك تجمعاً في شارع ألكسندر في الجانب الآخر، رجال شرطة حاضرون. وعندئذ يلف فرانس، ويتجه ببطء إلى هناك.

في ساحة ألكسندر تنتصب الإدارة العامة للشرطة

إنها الساعة التاسعة والعشرون دقيقة. في صحن الإدارة العامة يقف بضعة أشخاص ويتكلمون، يحك بعضهم لبعض النكات ويتمشون قليلاً. مأمور جنائي شاب يأتي ويحيي. «الساعة الآن التاسعة وعشر دقائق، يا سيد بيلتس، نبّهت حقاً إلى أننا في حاجة إلى السيارة في الساعة التاسعة» «ها إن زميلاً آخر فوق ويتصل هاتفياً بثكنة ألكسندر؛ بلّغنا أمس قبل الظهر عن السيارة» يأتي واحد آخر: «أجل، يقولون أرسلت السيارة، في التاسعة إلا خمس دقائق، فإن ضلّت الطريق، فإنهم يرسلون واحدة أخرى» «يا سلام، تضلّ الطريق، وفي إمكاننا أن ننتظر» «وبعد، سأسأل أين بقيت السيارة إذن، يقول هذا: من يتكلم أصلاً، أقول أمين السر بيلتس، يقول هو، هنا الملازم الثاني

فلان الفلاني. أقول أنا: المفروض إذن أن أستفسر، أيها السيد الملازم الثاني، بالنيابة عن السيد المأمور الجنائي، فقد سجّلنا أمس من القسم سيارة للمداهمة في الساعة التاسعة، وتمّ الإخبار كتابياً، وكان يفترض أن أطلب التأكد مما إذا كان الإخبار بالحضور تحت اليد. في هذه الحال يجب أن تسمع كيف صار لتوه ظريفاً، السيد الملازم الثاني، إذن بطبيعة الحال كلّ شيء على الطريق، وها إنه كان أمراً مزعجاً وما إلى ذلك.

السيارات تدخل المحطة. وإلى إحدى السيارات يصعد سادة وسيدات، موظفون في الشرطة الجنائية، مأمورو جنائية وموظفات. هذه هي السيارة التي سينقل بها فرانس بيبركوبف فيما بعد ضمن ٥٠ رجلاً وامرأة، سيكون المملكان قد تخلّيا عنه، نظرته ستكون غير التي غادر بها باب المقهى، أما المملكان فسيرقصان، أنتم أيها السادة وأيتها السيدات، سواء أكنتم مؤمنين أم غير مؤمنين سيقضي الله بما هو قاضٍ.

السيارة التي تقلّ المدنيين ذكوراً وإناثاً هي في طريقها، ليست بسيارة حرية، إنها سيارة القتال والمحكمة، سيارة شاحنة، وعلى مقاعد يجلس البشر، وعلى ساحة ألكسندر تسير بين سيارات تجارية وسيارات أجرة، الناس في السيارات الحربية يبدون كلّهم هادئين، إنها حرب غير معلنة، يسرون وهم يؤدون عملهم، بعضهم يدخن الغليون بهدوء، وبعضهم السيجار، وتساءل السيدات: هذا السيد هناك في الأمام هو من الصحافة، في هذه الحال سيكون كلّ شيء مكتوباً غداً في الصحيفة. وهكذا يسرون مسرورين صعدوا إلى اليمين من شارع لاندسبيرغ، ويسرون في الخلف هنا وهناك إلى أهدافهم أو أنّ المحلات ستعرف قبل ذلك ما ينتظرهم. أما الناس الذين يمشون تحت فيرون السيارة جيداً. لا يديمون النظر، هذا شيء وخيم ومخيف، وسرعان ما يمضي،

يريدون أن يلقوا القبض على مجرمين، فظيع أن شيئاً مثل هذا موجود، نريد الذهاب إلى السينما.

عند شارع روّكّر ينزلون. العربّة تبقى واقفة، يسيرون في الشارع مشياً على الأقدام. الشارع الصغير خالٍ من السابلة، الفرقة تتجول على الرصيف، ها هي حانة روّكّر.

الباب الخارجي مشغول، أمام المدخل حراس، قبالة ذلك حراس، الآخرون كلهم يدخلون إلى الحانة. مساء الخير، بيتسم النادل. نعرف نحن. هل يشرب السادة شيئاً ما؟ شكراً، لا وقت؛ دفع الحساب، مداهمة، الجميع معي إلى الإدارة العامة للشرطة. ضحك، احتجاج، يا خبر، لا تتحرّجوا، شتم وسباب وضحك، دائماً في تودة، في حوزتي أوراق إثبات الشخصية، فلتطب نفساً في هذه الحال، في نصف ساعة ستكونون هنا من جديد. ماذا يجدينا هذا، لديّ عمل، هوّن عليك ولا تنفعل، يا أوتو، تفتيش حر من قبل الإدارة العامة للشرطة مع إضاءة ليلية. دائماً إلى داخل الصالون. السيارة ممتلئة على آخرها، أحدهم يغني: ترى من ذا الذي دحرج الجبنة إلى المحطة، إنها لوقاحة، كيف يجوز للناس أن يفعلوا مثل هذا، إذ إنّ جمركتها ما كانت قد تمّت بعد؛ الشرطة تدخلت في ذلك، هي الآن مستاءة جداً وتحقّق لأنهم دحرجوا الجبنة إلى المحطة.

السيارة تتحرك، الجميع يلوّحون: ترى من دحرج الجبنة إلى المحطة. رأيتم، سارت الأمور على خير ما يرام. نحن نسير على أقدامنا. سيد أنيق على الدام (جسر السكة الحديدية) جيّبي. نقيب من قسم الشرطة، السيد المفتش؟ يدخلون إلى ردهة، الآخرون يتوزعون، الملتقى شارع برييتسلاو، ناصية شارع مونتس.

حانة ألكسندر مكتظة، إنه يوم الجمعة، من يتلقى أجراً يشرب كأس عرق، موسيقا، راديو، رجال الشرطة يتزاحمون وهم مارون بالحانة، مأمور الجنائية الشاب يتكلم مع سيد، الجوقة تتوقف: مدهمة، الشرطة الجنائية، فليات الجميع معي إلى الإدارة العامة للشرطة، يتحلقون حول الطاولة، يضحكون، ولا يعطلون أنفسهم، يواصلون الثرثرة، ويواصل النادل خدمة الزبائن. فتاة تصرخ وتبكي بين اثنين آخرين في الممشى: ألا إنه أبلغ عن مغادرتي المكان هنا وهذه لم تبلغ عني بعد، إذن ابق هنا ليلة، وماذا في ذلك، لن أصحبك، لن أترك شرطياً يمسكني. كل شيء إلا نوبة غضب، أنت، ما من أحد بعد صار سليماً معافى من ذلك. هلاً تركتني اخرج، ماذا يعني هنا خروج، حين يجيء دورك تستطيع الخروج، ها إن السيارة راحت لتوها، في هذه الحال يمكنكم أن تضعوا في الكاراج مزيداً من السيارات، لكن لا تجهدوا رؤوسنا بالتفكير. أيها النادل. زجاجة شمبانيا لغسل السيقان. يا أنت، يجب أن اذهب إلى العمل، لدي هنا شغل عند لاو، من يدفع لي أجر الساعة، مهلاً، معي في كل الأحوال، عليك الآن أن تأتي معي في كل الأحوال، يجب أن اذهب إلى مكان البناء الخاص بي، هذا سلب للحرية، على الجميع هنا أن يأتوا معي، وأنت تصحبنا، يا رجل، لا تفعل، على الناس أن يقوموا الساعة بمداهمة، وإلا فإنهم لا يعرفون لماذا هم هنا.

يخرجون على دفعات، السيارات تسير دائماً إلى الإدارة العامة للشرطة جيئةً وذهاباً، رجال الشرطة رائحون غادون، في مرحاض السيدات صراخ، شابة مطروحة أرضاً، وصاحبها المعجب بها يقف إلى جانبها، ترى ماذا يفعل الصاحب المعجب بها في مرحاض السيدات. الفتاة تعاني تشنجات، هلاً نظرت؛ رجال الشرطة يتسمون، هل معك أوراق إثبات الشخصية، تماماً، إذن ابق

عندها هنا. ها هي تواصل الصراخ، انتبه، إذا ما فرغ كل شيء نهضت هي وكلاهما يرقص التانغو. أقول أنا، من سيمسكني سيتلقى لكمة في الذقن، والثانية سيكون انتهاك حرمة الموتى. الحانة أشبه بأن تكون فارغة. على الباب يقف رجل، وهذا أمسك به شرطيان، إنه يجأر: كنت في مانشستر وفي لندن وفي نيويورك، مثل هذا لا يحدث في أية مدينة كبيرة، شيء من هذا القبيل لا وجود له في مانشستر ولا في لندن. هم يحثونه على العمل. دائماً مبتعداً على الدام (جسر السكة الحديدية)، كيف هي الحال، شكراً، سلّم على كلبك الريبب المرحوم.

في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، حين نجح الإخلاء إلى حد بعيد، وفي الخلف فقط إلى حيث يؤدي السلم وعلى الجانب في الركن كانت بضع طاولات مشغولة، يدخل أحدهم مع أنه لم يكن لأحد أن يدخل إلى هنا لوقت طويل. رجال الشرطة حازمون، لا يسمحون لأحد بالمرور، لكن بين الحين والآخر تنظر فتاة من خلال النافذة: إن لديّ موعداً، لا يا آنسة، في هذه الحال عليك أن تعودي في الثانية عشرة، ما دام نور عينيك في الإدارة العامة للشرطة: أما السيد الشيخ فقد شارك في الخارج في مشاهدة آخر دفعة، وفي النهاية أعمل رجال الشرطة هراواتهم أيضاً في المدخل لأنّ الذين أرادوا الخروج كانوا أكثر ممن صعدوا إلى السيارة، والآن تحركت السيارة، الدنيا انقشعت قليلاً. وهدوء يمرّ الرجل عبر الباب بكلا الشرطيين اللذين يرياهما كلّ واحد في الجهة الأخرى ذلك لأنّ بعضهم أراد الدخول من جديد إلى الحانة، ويتسابقون مع الشرطة. ومن الثكنة يأتي موكب من الشرطة على الفور أيضاً وسط ترحيب كبير للناحية الأخرى من الشارع، الناس يوثقون شدّ الأحزمة في السير. ها هو الرجل الأشيب يجتاز الحانة، ويطلب بيرة عند البار ويصعد بها السلم إلى حيث كانت

المرأة لا تزال تصرخ في مرحاض السيدات، والآخرون، القلائل، هؤلاء يضحكون ويثرثرون لكأنّ القصة كلّها لا تعني لهم شيئاً.

يجلس الرجل على كرسي، وحيداً على طاولة، يتجرّع بيرته، ينظر في الحانة من فوق إلى تحت، وإذا بقدمه تصطدم بشيء ما كان ملقى بجانب الجدار على الأرض، ماذا يرى، يمد يده إلى تحت، إنه مسدس، شخص ما وضعه جانباً، لا بأس به، عندي الآن اثنان. على كل إصبع واحد، وإذا ما سأل الرب الكريم لماذا، فقل عندئذٍ: أنا آتٍ بعربة خاصة كبيرة، فما لم يحصل عليه المرء تحت يستطيع أن يحصل عليه فوق. هؤلاء يدهمون هنا، ما يقوم به هؤلاء سليم بهذا الشكل. بما أن أحدهم تناول فطوراً دسماً في الإدارة العامة للشرطة يقول هو علينا أن نقوم بمداهمة كبيرة، يجب أن يحدث شيء ما من جديد يكتبونه فيما بعد في الصحف، كما أنّ هؤلاء فوق يجب أن يلاحظوا أيضاً في النهاية أننا نعمل، وربما أراد أحدهم أن يترفع إلى درجة مالية أعلى وزوجته تحتاج إلى فرو، ولهذا يقبضون على الناس ويوم الجمعة بالذات حين يتلقون ظرف الأجر.

أبقى الرجل القبعة على الرأس، اليد اليمنى في الجيب، كما أنّ اليد اليسرى كانت أيضاً في الجيب هذا إذا لم يكن يمدّ يده لحظة ذلك إلى البيرة. شرطي معه الفرشاة الخشنة على قبعة الصياد الصغيرة يجتاز الحانة يقظان نشطاً. في كلّ مكان طاولات فارغة وعلب سجائر على الأرض، ورق جرائد، ورق شوكلاته: أنجز كل شيء، الأخير آت على الفور. يسأل السيد المسن: «هل دفعت؟» هذا يدمدم وينظر إلى الأمام: «لم أدخل إلا لتوي» «ما كنت ستحتاج إلى هذا، لكن عليك أن تأتي معي أيضاً» «اترك لي وحدي هذه المهمة» الشرطي، رجل قوي عريض المنكبين، ينظر إليه من فوق، كيف ينظر الرجل إلى الدنيا،

يريد هذا أن يعارض ويخلق متاعب. لا يقول أي شيء، ينزل السلم ببطء عبر الحانة وإذا بنظرة الشيخ المتوهجة تقع عليه، يا رجل، يا للعينين اللتين يتمتع بهما، شيء ما عنده على غير وجهه. يتوجه صوب الباب حيث يقف الآخرون، يتهامسون ويخرجون معاً. في بضع دقائق يفتح الباب من جديد. رجال الشرطة يعودون: الآن البقية، هيا، الكل معي. يضحك النادل: «في المرة القادمة خذوني أنا أيضاً معكم، أودّ أن أشاهد مرة من المرات الغش والخداع فوق عندكم» «أوه، في غضون ساعة عندك شغل من جديد، انتبه، في الخارج يقف بعضهم من أول نقلة ويريدون الدخول».

«هلمّ، أيها السيد، عليك أن تكون معهم أيضاً» هذا يقصدني. إن كانت لك يوماً من الأيام عروس ووثقت بها من صميم قلبك فأنت لا تسأل عن المكان والزمان حين يتاح لك أن تقبل التقبيل اللائق.

السيد لا يحرك ساكناً «أنت، أنت ثقيل السمع، عليك أن تنهض، أقول لك» من الربيع تم إرسالك إليّ، إذ إنني قبل أن أعرفك بددت فني. أولاً ينبغي أن يأتي المزيد. مع الشخص الواحد لا يجديني نفعاً، عربتي ذات خمسة أحصنة.

ها إن ثلاثة رجال شرطة يقفون عند السلم، أولهم يصعد السلم، الشرطة تجوب أرجاء الحانة. المفتش الشاب الطويل على رأسهم، هؤلاء على عجلة من أمرهم. هم طاردوني بما فيه الكفاية، عملت ما كان في وسعي، أنا إنسان أم إنني لست بإنسان.

ها إنه يخرج يده اليسرى من الجيب ولا ينهض ويطلق النار وهو جالس على أول شرطي ينقض عليه غاضباً. فرقة. هكذا أتمنا كل شيء في هذه الحياة، وهكذا نسير إلى الجحيم بالأبواق، بالطبول والأبواق.

الرجل يترنح جانبا، فرانس ينهض، يريد أن يتوجه صوب الحائط، هم يركضون زرافات من الباب إلى الحانة. إن هذا الجميل، الجميع في الداخل. يرفع الذراع، ها إن شخصا ما وراءه، فرانس يطوح به بالكتف جانبا، وإذا بضربة تهوي على يده، ضربة على الوجه، ضربة على القبعة، ضربة على الذراع. ذراعي، ذراعي، لي ذراع واحدة فقط، إنهم يحطمون ذراعي، ماذا أفعل. إنهم قتلوني ضربا، أولاً ميتسي ومن ثم أنا. كل شيء بلا فائدة وبلا عائدة، كل شيء بلا فائدة وبلا عائدة، كل شيء بلا فائدة وبلا عائدة.

ويسير مترنحا بجانب الدرايزين.

وقبل أن يتمكن من الاستمرار في إطلاق النار، بجانب الدرايزين ترنح فرانس بيبركوف على وجهه، لعن الوجود، ألقى السلاح. إنه مستلق.

رجال الشرطة والأمن يدفعون الطاولة والكراسي جانبا، يجثون بجانبه ويديرونه على ظهره، الرجل له ذراع مستعار، معه مسدسان، أين أوراق إثبات الشخصية، تمهل قليلا، وهذا يضع شعرا مستعارا. ويفتح فرانس بيبركوف عينيه حين يجذبونه من الشعر. عندئذ يهزونه ويشدونه من الكتفين ويوقفونه على الساقين، يستطيع الوقوف، عليه أن يقف، والقبعة يلبسونه إياها. الجميع في الخارج يجلسون في السيارة، وهاهم يخرجون فرانس بيبركوف عبر الباب والقيد على الذراع اليسرى. صخب وضوضاء في شارع موثنس، حشد من الناس، فيه دوي إطلاق نار، حذار، الآن يأتي، كان هو الفاعل. الشرطي الجريح نقل قبل ذلك بالسيارة.

هذه هي إذن السيارة التي انطلق بها قبل ذلك في التاسعة والنصف المفتشون وموظفو الجنائية والموظفات من الإدارة العامة للشرطة، هم يتحركون،

فرانس بيبركوف يجلس فيها، الملاك كان تحليا عنه، كما سبق أن رويت. في صحن مبنى الإدارة العامة للشرطة تمّ إنزال الدفعات، وعلى سلم صغير يؤدي هذا في الخلف إلى ممشى طويل كبير، تدخل النساء غرفة خاصة بهن، ومن كان يفرج عنه وكانت ثبوتياته مضبوطة كان عليه أن يخرج عبر حاجز بين رجال الشرطة الذين كانوا يفتشون أيضاً كل واحد عند الصدر والبنطال من فوق إلى تحت إلى عند الحذاء، الرجال يضحكون، إنه شتم وسباب وتزاحم في الممشى، المفتش الشاب والموظفون يسرون جيئة وذهاباً ويهدئون، وعليهم أن يتحلوا بالصبر. رجال الشرطة يحتلون الأبواب، وإلى دورات المياه لا أحد يذهب بدون مرافقة.

في الداخل على الطاولات يجلس موظفون مدنيون، يسألون الناس، يراجعون أوراق إثبات الشخصية، وإذا ما كان مع أحدهم أوراق ثبوتيات الشخصية كتبوا على ورقة كبيرة: مكان الحادث، دائرة اختصاص المحكمة الابتدائية، مكان إلقاء القبض، قسم الشرطة الجنائية ٤. إذن ما اسمك، بلاغ التسليم، متى كان الاعتقال في آخر مرة، بالله عليك خذ وأعطِ معي أولاً، يجب أن اذهب إلى العمل، قائد الشرطة، القسم ٤، جرى التسليم قبل الظهر، بعد الظهر، في المساء، الاسم والكنية، الحالة العائلية والمهنة، تاريخ الولادة، الشهر، اليوم، محل الولادة، بلا منزل، لم يكن قادراً على أن يذكر المسكن، وأُثبتت معلومات السكن عن طريق تحرّ محليّ أنها غير صحيحة. عليهم أن ينتظروا إلى أن يردّ قسمهم، ولن يحدث هذا بمثل هذه السرعة، فهؤلاء ليس لهم إلا يدان، وما عدا ذلك فعندهم هناك ناس ذكروا عنواناً كان صحيحاً أيضاً، وأنّ أحدهم يسكن هنا أيضاً له اسم مثل اسمهم - اللهم إلا إذا توجه أحدهم إلى هناك عندئذ يكون هناك شخص آخر لم يكن معه سوى أوراقه الثبوتية وقد سرقها منه، أو كان صديقه أو خدعة ليس غير. استفسار لدى سجل لوحة البحث عن

مجرم، أخذ البطاقة الرمادية، البطاقة الرمادية غير موجودة. مستندات تبقى مع الملفات، وأشياء لها علاقتها بهذا الجرم أو بجرم آخر، أشياء يمكن أن يكون المقبوض عليه آذى بها نفسه أو آخرين، أشياء لها علاقتها بالشخص، عصا، مظلة، سكين، مسدس، خاتم حديدي للضرب.

محضرون فرانس بيبركوبف. لم يعد هناك من أمل لفرانس بيبركوبف. قبضوا عليه. أخذوه مقيداً، الرأس تدلى على الصدر. يريدون أن يستجوبوه تحت، في الطابق الأرضي، في الغرفة، من قبل المفتش المناوب. على أن الرجل لا يتكلم، إنه جامد متحجر، وكثيراً ما يمدّ يده إلى وجهه، عينه اليمنى تورمت من ضربة بالمراوة المطاوية. كما أنه يترك الذراع أيضاً يسقط بسرعة، في هذه الحال تصدّى أيضاً لعدة ضربات.

أن يتجول الذين تمّ الإفراج عنهم تحت فوق الفناء المظلم صوب الشارع، هؤلاء يسيرون على مهل مع الفتيات ذراعاً بذراع في صحن مبنى الإدارة العامة للشرطة. إذا كانت عندك ذات مرة عروس وثقت بها ثقة عمياء، وهكذا نتقل نحن، نتقل نحن، نتقل والغناء يرافقنا من مطعم إلى مطعم. أقرّ وأعترف بصحة الجدول أعلاه، التوقيع، ألقى القبض، الاسم ورقم الخدمة للموظف الذي حزم الأشياء. إلى المحكمة البدائية، قسم ١٥١، السيد قاضي التحقيق.

أخيراً يتمّ تقديم فرانس بيبركوبف واستبقاؤه. هذا الرجل أطلق النار في أثناء المداهمة في حانة ألكسندر، إلا أنه أخلّ أيضاً بقانون العقوبات. وجدوا الرجل منطرحاً في حانة ألكسندر وفي نصف ساعة كشف النقاب أن الشرطة تمّ لها صيد جيد بصورة خاصة إلى جانب ثمانية آخرين يجري البحث عنهم وتلاميذ التربية تحت الإشراف الحكومي الذين لا يمكن تجنبهم. إذ إن الرجل الذي كان

سقط هنا بعد إطلاق النار كان له ذراع مستعارة وشعر مستعار. وعلى هذا واستناداً إلى صورة كانت في حوزتهم سرعان ما اكتشفوا أنه يتوارى وراء هذا رجل كان متورطاً في قضية قتل العاهرة إيميلي بارسونكي في فراينفالدي ودخل في الحسبان شريكاً في الجريمة، فرانس بيبركوف الذي كان من أصحاب السوابق بسبب القتل والاتجار بالأعضاء.

قد كان تهرب لزمناً أطول من التسجيل الإجباري، الآن صار هو بأيدينا وسرعان ما سيكون الآخر في قبضتنا.



الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة السورية للكتاب

الكتاب التاسع

والآن وصلت طريق فرانس بيبركوبف الأرضية إلى نهايتها. آن الأوان الآن أن يتحطم. إنه يقع في قبضة القوة المبهمة التي تدعى الموت والتي تبدو له مناسبة بصفة مكان إقامة. إلا أنه يعلم ما هو رأيها فيه بطريقة لم يتوقعها والتي تفوق كل شيء ألمّ به حتى الآن.

إنها تتكلم معه بلغة مكسرة. تطلعه على أخطائه وتكبره وجهله. وبهذا ينهار فرانس بيبركوبف المسن، سيرة حياته انتهت.

الرجل محطّم. سيعرض من بعد بيبركوبف آخر لا يناوله القديم الماء، وسيكون متوقّعا منه أنه ينجز الأمر على نحو أفضل.

يوم الأربعاء أسود لراينهولد، إلا أن هذا الفصل يمكن حذفه

وكما يخيّن رجال الشرطة: «الآن صار هذا في أيدينا، وسرعان ما سيكون الآخر أيضاً في قبضتنا»، هكذا تكون الحال. لكن ليس بشكل تام كما يتصورون. يظنون، هذا سنقبض عليه في القريب العاجل. لكن - هو في قبضتهم، مرّ عبر الإدارة العامة للشرطة الحمراء نفسها، اجتاز غرفاً أخرى وأيد، إنه نزيل سجن موييت.

إذ إن كلّ شيء يسير عند راينهولد بسرعة، وهذا وضع نهاية بإيجاز. فالشباب لا يجب المماطلة الطويلة. ما زلنا نعرف نحن كيف فعل هو آنذاك بفرانس؛ لبضعة أيام يعرف راينهولد ماذا يلعب هذا معه ويطره أرضاً.

راينهولد هذا يذهب ذات مساء إلى شارع موتس، وبعدئذ يقول إن إعلانات القتل مع الجائزة ملصقة على عمود الإعلانات، عليّ أن أنجز شيئاً ما بحذق ومهارة وأنفصح بأوراق مزوّرة، سرقة حقائب يد أو شيء من هذا القبيل. السجن هو الأضمن في جوّ متوتر. ومهما نجح كل شيء، إلا أن يصفع هو السيدة المحترمة صفعاً شديداً. لكن لا يهم، يخطر ببال رينهولد، الاختفاء فقط فجأة. وفي الإدارة العامة للشرطة ينتزعون منه الأوراق المزورة، موروسكيفيتش نشال بولوني، فليرحلوا هذا إلى سجن موييت، وهؤلاء في الإدارة العامة للشرطة لا يتنبهون إلى من هو في قبضتهم، فالولد لم يسجن قط، ومن ذا الذي يتذكر جميع الأوصاف. بهدوء تام تجري محاكمته أيضاً، خفية، بهدوء، وقد استرق الخطأ عبر الإدارة العامة للشرطة. ولأنه نشال مطلوب من بولونيا، فإنّ صعلوكاً مثل هذا يسير في الشارع في ناحية محترمة ويطر حني أرضاً، أنا، لا أنت ولا الناس ويخطف حقيبة اليد من سيدة، هذا أمر إذ لم يسمع بمثله من قبل، فنحن لا نعيش في بولونيا الروس، أيّ شيء خطر ببالكم في أثناء ذلك، على ذلك تستحق عقوبة رادعة، وينال أربع سنوات سجن وخمس سنوات فقدان حقوق مدنية، الوضع تحت رقابة الشرطة وما إلى غير ذلك، والخاتم الحديدي للضرب تتم مصادرتة. المدعى عليه يتحمل نفقات القضية، نحن نعمل استراحة لمدة عشر دقائق، الحجرة دافئة أكثر من اللازم، الرجاء فتح النوافذ في أثناء ذلك، هل عندك شيء آخر لتقوله؟

طبعي أنّ رينهولد ليس عنده أيّ شيء ليقوله، إنه يحتفظ بالطعن في الحكم، هو مبسوط أنهم يتكلمون معه بهذه الطريقة، فهنا لا يمكن أن يقع لإنسان ما أي سوء أو مكروه. وبعد يومين انفرج كل شيء، كل شيء، ومن جديد تغلبنا على الصعوبات. سحناً للعمل المعيب مع ميتسي هذه. وهذا الفدان، بيركوبف، لكننا انتهينا مؤقتاً مما أردناه، هللويبا، هللويبا.

إلى هذا الحد حصل الآن كل شيء، وحين يقبضون على فرانس ويسيروا به إلى الإدارة العامة للشرطة فإذا بالقاتل الحقيقي نزيل السجن كذلك، راينهولد هذا، وفي براندينبورغ، وما من أحد يفكر به، وهذا ذاهل ومنسي، وكان يمكن أن تقوم الساعة، فما من أحد كان سيتحرى عنه بمثل هذه السهولة. وهذا لا تعذبه وخزات ضمير، ولو أن الأمر سار على النحو كما يتصوره هو فإنه كان سيظل اليوم نزيل هذا المكان أو فر عند الترحيل.

إلا أنه تمّ تدبير الأمر في الدنيا بحيث إن أسخف الأقوال المأثورة يكون لها الحق، وحين يظن إنسان ما أن هذا خير فهو ليس بخير على الإطلاق. الإنسان في التفكير والله في التدبير، وما كل مرة تسلم الجرة. كيف ضبطوا راينهولد أيضاً وكيف ينبغي له أن يسير في القريب العاجل في طريقه الصعب، سأحكي على فوري. لكن من لا يهّمه هذا فليحذف الصفحات التالية. الأمور في هذا الكتاب ساحة ألكسندر عن مصير فرانس بيبركوبف هي صحيحة، والناس سيقرونها مرتين وثلاث مرات ويطبعونها في ذاكرتهم، فلها حقيقتها الواضحة الجلية. أما راينهولد هذا فقد أفرغ كل ما في جعبته. لا لسبب إلا لأنه القوة الباردة التي لا يتغير بها أي شيء في هذا الوجود أريد أن أظهرها أيضاً في صراعها القاسي الأخير. سترونه حتى النهاية قاسياً متحجراً، على نحو جامد تسير هذه الحياة، - إذ ينحني بيبركوبف وفي النهاية مثل عنصر أصابته أشعة معينة، ويتحول إلى عنصر آخر. آه، إنه لسهل القول: نحن كلنا بشر. إذا كان هناك إله، - لسنا مختلفين نحن أمامه بسبب خبثنا أو طيبتنا فحسب، إن لنا كلنا طبيعة مختلفة وحياة مختلفة، في النوع والأصل والفصل نحن مختلفون. الآن اسمعوا آخر شيء من راينهولد أيضاً.

في ذلك الوقت يجب على راينهولد أن يتعاون في براندينبورغ في السجن في منسج الحصائر مع شخص هو بولوني أيضاً، إلا أنه في الحقيقة، وهذا هو في الحقيقة أيضاً نشال، نشال غاية في المكر يعرف مورو سكيفيتش. حين يسمع هذا: مورو سكيفيتش، وهذا أعرفه أنا، أين هو يا ترى، يرى هو راينهولد ويقول: ما هذا، لقد تغير هذا هكذا، وكيف يمكن أن يكون هذا. ثم يتظاهر كأنه لا يعرف شيئاً ولا يعرفه على الإطلاق، ثم يتقرب من راينهولد في المرحاض حيث يدخنان، ويعطي هو هذا نصف سيجارة ويتحدث معه، وإذا بهذا لا يعرف البولونية إطلاقاً على الوجه الصحيح. أما راينهولد فلا يروق له الحديث البولوني على الإطلاق، فينسلّ خلسة ويهدوء من منسج الحصائر، ورئيس الورشة، لأنه يتظاهر أحياناً بالضعف، يأخذه معه نقلاً إلى جناح الزنانات، فهناك يقاربه الآخرون على نحو أقل. أما دلوجا، البولوني، فلا يزال على أشده. راينهولد يصرخ: الشغل الخالص إلى الخارج! من زنانة إلى زنانة. وحين يكونون مع رئيس العمال المشرف عند زنانة البولوني دلوجا، ويعدّ المشرف الحصائر يهمس البولوني دلوجا لراينهولد إنه يعرف شخصاً يدعى مورو سكيفيتش من وارصو، نشال أيضاً، فهل هو من أقربائك؟ ويفزع راينهولد، يدفع للبولوني بعلبة تبغ ويواصل: الشغل الخالص، إلينا به.

فرح البولوني بتبعه، إن في الأمر شيئاً ما، وراح يبتز راينهولد، إذ إن هذا عنده شيء من المال على نحو خفي وغير مشروع. والموضوع كان يمكن أن يصبح خطيراً للغاية، لكن هذه المرة كان هو بعد مخطوفاً. يردّ الضربة. يشيع: إن دلوجا هذا، المنحدر من نفس البلد، ينوي أن يصنع مصابيح، هذا يعرف شيئاً عنه. وفي منتصف ساعة الفراغ حدث ضرب عنيف، كما أنّ راينهولد ينهال أيضاً بالضرب العنيف على البولوني.

ومن أجل ذلك يجسونه أسبوعاً، في زنزانة عارية، في اليوم الثالث فقط،
بباضات سرير وطعام ساخن. ثم يخرج ويجد كل شيء هادئاً وأليفاً.

ومن بعد ذلك يخدع صاحبنا راينهولد نفسه بنفسه. فالنساء جلبن له
طوال حياته سوء الحظ، والحبّ يخرب بيته الآن أيضاً. الحادثة مع دلوجا تثيره
جداً وتغضبه كثيراً أنه يجب أن يقعد هنا إلى ما لانهاية، وأنّ عليه أن يسام سوء
العذاب من قبل شخص مثل هذا، ولا يسرّ المرء، وهو وحيد إلى هذا الحد، وهذا
ينطبع في أعماقه أكثر وأكثر من أسبوع إلى أسبوع. ولما المقام طال به لم يكن أحبّ
إليه من أن يقتل دلوجا هذا ضرباً، وهاهو يتعلق بشاب لص، هو في براندينبورغ
لأول مرة وكان من المقرر أن يفرج عنه في آذار. بادئ ذي بدء جمعتها كليهما
تجارة التبغ والسبب على دلوجا، ثم يصبحان حميمين وصديقين صدوقين لم
يسبق لراينهولد قط أن يكون له هذا، وإن لم يكن هذا أيضاً امرأة، إنها مجرد
شاب، فإنّ هذا الجميل، وطاب راينهولد نفساً في سجن براندينبورغ: هكذا
جلبت لي المسألة اللعينة مع دلوجا شيئاً جميلاً أيضاً. إنها هو خسارة أنّ الشاب
عليه أن يغادر في القريب العاجل.

«عليّ أن ألبس القبعة القماشية السوداء زمناً طويلاً أيضاً والسترة البنية،
وحين أكون أنا نزيل السجن أنا هنا فأين ستكون أنت من بعد ذلك، يا عزيزي
كونراد الصغير؟» كان اسم الشاب كونراد أم هو يسمي نفسه هكذا، وهو من
ميكلينبورغ وعنده استعداد أن يصبح مجرماً خطيراً. أحد الرجلين اللذين سطا
معهما على البيوت في بومرن يسجن هنا لمدة عشر سنوات. وحين يجتمع كلاهما
في يوم الأربعاء أسود، في المساء قبل الإفراج عن كونراد، مرة أخرى في عنبر النوم
وراينهولد يكاد أن يقتل نفسه أنه سيعود هنا وحيداً كلّ الوحدة وما من أحد

عنده - لكن سيكون هناك أحدهم، وانتبه، يا راينهولد، في القريب العاجل ستأتي أيضاً بناء على أمر خارجي إلى مدينة فيردر أو إلى أي مكان آخر -، عندئذ لن يتمكن راينهولد من تهدئة نفسه، وهذا لا يسلم به أنه أخفق في هذا الأمر أيها إخفاق، هذه العنزة الغبية ميتسي وهذا المغفل فرانس بيبركوف، ماذا يهمني من هذين الغبيين، مثل هذين الجميلين، وكنت سأتمكن من أن أكون الآن في الخارج الرجل المحترم، وهنا لا يسجن في الواقع إلا ناس بؤساء لا يقدرّون على أكثر من ذلك. عندئذ كان راينهولد أقرب إلى أن يصاب بمسّ ويتحب ويولول ويتوسل إلى كونراد، بالله خذني معك، بالله عليك خذني معك. ويواسيه هذا بقدر ما هو ممكن، لكنه غير ممكن، وإنه لمحال هنا أن ينصح المرء أحداً كي يفترّ.

حصلوا على زجاجة صغيرة من الكحول من المنشرة، من عند رئيس عمال البنائين والنجارين، ويعطي كونراد راينهولد الزجاجة، وهذا يشرب، ويشرب كونراد أيضاً. ليس في الإمكان أن تفرّ، ها إن اثنين لم يفراً إلا الآن، أو أرادا على الأقل أن يفراً، لكن حينئذ لم يصل إلا واحداً منهما حتى شارع نويدورف وأراد أن يستقلّ سيارة نقل، عندئذ أمسكت به الدورية، الرجل نرف دمه أيضاً نرفاً شديداً من جراء قطع الزجاج المكسور التي أحدثها فوق على الأسوار، وكان عليهم أن يضعوا هذا في المستشفى العسكري، من يدري ما إذا كانت يدا هذا ستعودان إلى ما كانتا عليه. والآخر، أجل، كان هذا أشطر، فهذا مجرد أنه رأى قطع الزجاج المكسور نطّ ثانية إلى تحت إلى داخل الفناء.

«لا، ما من سبيل إلى الفرار يا راينهولد» عندئذ انكسرت نفس راينهولد من الأساس وصار ليّن الجانب، وعليه أن يقضي هنا في السجن أربع سنوات أخرى، وكل شيء بسبب غباوة كهذه في شارع موتس وبسبب خنزيرة كهذه، ميتسي،

وبسبب الفدان، فرانس. ويجترع من اسيرتو النجار، ففتحسن حاله، الأشياء قد حُضروها، السكين فوق الصرّة، الصفقة طويت صفحتها، مرتين تقريباً، الباب أقفل، الأسرّة مرتبة. هما يتهامسان معاً على سرير كونراد، إنها ساعة الاكتئاب عند راينهولد: «يا رجل، أقول لك، إلى أين تذهب في برلين. حين تخرج تذهب إلى صاحبتى، من يدري، صاحبة من هي الآن، سأخبرك بعنوانها، وأنت ستعلمني أنك على دراية. ومن ثمّ استعلم أنت عما صارت إليه قصتي، وأنت تعرف حق المعرفة أنّ دلوجا هذا لاحظ شيئاً ما. ثمّ إني تعرفت في برلين إلى شخص مثل هذا، شخص غاية في الغباء يدعى بيبركوبف، فرانس بيبركوبف».

ويهمس ويحكى ويمسك بكونراد الذي ينصت ويحجب دائماً بالإيجاب وسرعان ما عرف الآن كل شيء. يجب أن يساعد راينهولد في السرير، ومن ثمّ يبكي هذا من السخط والوحشة والغضب على مصيره وانه لا يستطيع أن يصنع شيئاً ويقع في الفخ. في هذه الحال ما من شيء يجدي نفعاً أن يقول كونراد ما هي أربع سنوات؛ راينهولد لا يريد ولا يريد، ولا يستطيع أن يتحمل هذا، ولا يستطيع أن يعيش هكذا، إنها فرقة السجن المناسبة.

إنه يوم الأربعاء الأسود. في يوم الجمعة يكون كونراد عند صاحبة راينهولد في برلين ويتم استقباله بحفاوة وفي وسعه أن يحكي أياماً وأياماً ويتلقى أيضاً مالأً منها. إنه يوم الجمعة، وفي يوم الاثنين مضى كل شيء وانتهى في نظر راينهولد. ها هو كونراد يلتقي في شارع البحيرة (زي شتراسي) صديقاً كان معه فيما مضى في الرعاية الاجتماعية، هذا هو الآن عاطل عن العمل. وهذا راح كونراد يتبجح أمامه كيف هي حاله ويدفع عنه في الحانة، ثمّ يسيران مع فتاتين إلى السينما. كونراد يروي قصصاً غريبة عجيبة عن براندينبورغ. وحين يتخلصان من الفتاتين يجلسان حتى

متتصف الليل في غرفة الصديق، وإنها ليلة الثلاثاء حيث يقول كونراد من هو راينهولد، ويسمي نفسه موروسكييفيتش، ليس إلا، وإنه لولد ظريف، ومن أمثاله قل أن يجد المرء هناك في الخارج، وهو مطلوب بسبب أمور خطيرة، من يدري. كم هي الجائزة مقابل رأسه، وما كاد يقول هذا حتى عرف هو أنه كان غباء، لكن الصديق يأخذ عليه عهداً وقسماً ألا يبوح بشيء، لكن يا رجل، نحن لا نبوح بأي شيء، لا بل إنه يتلقى من كونراد أيضاً عشرة ماركات أخرى.

ثم يأتي الثلاثاء، ها إن هذا الصديق يقف في الإدارة العامة للشرطة، في المبنى الأرضي وينظر في الإعلانات ما إذا كان هذا صحيحاً ومن هو المطلوب وما إذا كان هو راينهولد، هكذا كان يدعى هذا، وما إذا كان اشترك هذا حقاً في ذلك، وما إذا كانت هناك جائزة على رأسه، أو ما إذا لم يكن تفاخر كونراد وتبجح.

وأخذ منه العجب كل مأخذ ولا يصدق في أول الأمر حين يقرأ الاسم، يا سلام، قتل عاهرة اسمها بارسونكي في فراينفالد، ها إن الاسم موجود في حقيقة الأمر، ترى هل هو هذا، يا سلام، ١٠٠٠ الجائزة، ١٠٠٠ مارك. هذا أفزعه كل الفزع، ١٠٠٠ مارك، بحيث إنه سرعان ما ينطلق ويعود بعد الظهر مع صديقه التي تقول إنها قابلت كونراد، وهذا سأل عنه، أجل، إن هذا لتملؤه الوسوس، ما العمل، ما العمل، يا رجل، كيف يمكنك أن تفكر بأن هذا قاتل، ما يهملك هذا، وكونراد، لا تشغل بالك بكونراد، فهذا لن يتكرر لقاءك به في القريب العاجل، لماذا، ومن أين له أن يعرف أنك كنت الفاعل، والنقود، لا تنس، ١٠٠٠ مارك، وتتقاضى إعانة البطالة وتفكر بمسألة ١٠٠٠ مارك. «ترى هل هو هذا أيضاً؟» «هيا بنا، نحن ندخل».

في الداخل يذكر كونراد للمفتش المناوب بصريح العبارة ما يعرفه، موروسكييفيتش، راينهولد، براندينبورغ، - ومن أين يعرف هذا هو لا يقول.

وبما انه ليس معه أوراق إثبات شخصية فعليه وعلى صديقه أن يبقيا هنا إلى حين. ومن ثم - فكل شيء على ما يرام.

حين يسافر كونراد في يوم سبت إلى براندينبورغ ليزور راينهولد ومعه للحمل من عند صاحبة راينهولد ومن عند بومز من كل الألوان والأصناف، وإذا بجريدة موضوعة في المقصورة، إنها جريدة قديمة، من مساء الخميس، ها هو مكتوب على الصفحات الأولى: القبض على القاتل من فراينفالد. تحت اسم مستعار في السجن» القطار يجمع تحت كونراد، القبضان تهتر، القطار يجمع. من أي وقت هي الجريدة، وأية جريدة هي، جريدة محلية، من مساء الخميس. هو في قبضتهم. قادوه سجيناً إلى برلين. هذا ما قمت به أنا.

النساء والحب جلبا لهذا، لراينهولد، طوال حياته سوء حظ وحظاً، كذلك أيضاً جرّاً عليه أخيراً الوبال وأوديا به. إلى برلين نقلوه، تصرّف تصرّف المسعور، وكانوا يوشكون أن يأتوا به إلى نفس المصح الذي كان ينزل فيه صديقه الأسبق بيبركوبف. لذا ينتظر هو كيف هدأ هو نفسه في موبيت ، كيف ستسير قضيته وما سيأتي من الجانب الآخر، من عند فرانس بيبركوبف الذي هو شريكه في الجريمة أو المحرّض، على أنه ليس معروفاً بعد إلى أيّ شيء سيؤول إليه هذا.

مستشفى المجاذيب بوخ، بيت دائم

في سجن الشرطة، في مبنى يمكن اشتغال داخله بنظرة واحدة تابع للإدارة العامة للشرطة يَحْمَنون على وجه التحديد بادئ ذي بدء أنّ فرانس بيبركوبف يدفع الكرة، يمثل دور المجنون لأنه يعرف أنّ المسألة هي مسألة رأس، لكن من بعد ذلك يرى الطبيب السجين، ويأتون به إلى المستشفى العسكري إلى موبيت،

وهنا أيضاً لم يكن في الإمكان أيضاً انتزاع كلمة واحدة منه، الظاهر أن الرجل مجنون فعلاً، فهو يستلقي متحجراً جداً، لا يطفء بعينه إلا قليلاً. حين يمتنع عن الطعام لمدة يومين يخرجونه إلى بوخ، إلى مستشفى المجاذيب، البيت الدائم. على أية حال فإن هذا عين الصواب، إذ إن المخلوق يجب مراقبته على أية حال.

زجوا بفرانس بادى ذي بدء في غرفة في العناية المشددة تحت المراقبة، لأنه استلقى دائماً عارياً ولم يتغطّ، حتى إنه خلع القميص، فكان هذا العلامة الوحيدة على الحياة التي بدرت من فرانس بيبركوف لعدة أسابيع. العينان أبقاهما دائماً مطبقتين إطباقاً محكماً، تمدد جامداً بلا حراك، كل طعام رفضه بحيث إنهم اضطروا إلى أن يطعموه بواسطة مسبار بلعوم، طوال أسابيع، حليياً فقط وبيضة وشيئاً من الكونياك في أثناء ذلك. وبهذا ذاب الرجل القوي وضعف جداً، ممرض وحيد استطاع أن يحمله بسهولة إلى ماء الاستحمام، وهذا ما قبله فرانس برحابة صدر، لا بل إنه اعتاد أن يتفوه في ماء الاستحمام ببضع عبارات، وأن يفتح العينين أيضاً، وأن يتنهد ويتأوه، على أن كل هذه الأصوات لم يكن ليستدلّ منها على أي شيء.

يقع مصح بوخ على مسافة خلف القرية، والبيت الدائم يقع خارج بيوت الآخرين الذين ليسوا إلا مرضى ولم يرتكبوا أي شيء. البيت الدائم يقع في أرض فضاء، في أرض مكشوفة، مستوية كل الاستواء، الريح، المطر، الثلج، البرد، النهار والليل، تستطيع هذه أن تلتف بالبيت بكل القوة وبكل الجبروت. لا شوارع تعطل العناصر وتوقفها، ليس هناك إلا قليل من الأشجار والشجيرات، ومن ثم تتصب أيضاً بضعة أعمدة تلفون، وماعدا ذلك، النهار والليل. فليس هناك إلا المطر والثلج، الريح والبرد.

عزف رياح، عزف رياح، الريح توسّع صدرها، إنها تتنفس الشهيق، ثم تفر مثل برميل (مثل إنسان ضخم بدين)، كلّ نفس ثقيل ثقيل جبل، الجبل يصل، طقطقة، يتدحرج صوب البيت؛ يدوي الصوت العميق الخفيض. حفيف، حفيف، الأشجار تترنح، لا تستطيع أن تضبط إيقاعها، الوجهة هي اليمين، هي لا تزال تقف إلى اليسار، الآن يقطقتها، أثقال تهوي، هواء يطرق طرقاتاً، طقطقة، خشخشة، فرقعات وأصوات عظيمة، عزف رياح، عزف رياح، أنا لك، هيا تعال، سنكون هنا بعد قليل، عزف رياح. ليل، ليل.

فرانس يسمع النداء. عزيف رياح، عزيف رياح، لا يتوقف، قد يتوقف. الممرّض يجلس إلى طاولته ويقرأ، أستطيع أن أراه، فهو لا ينزعج من العويل. أنا طريح الفراش أيضاً من زمن طويل. المطاردة، المطاردة الملعونة والجري، هؤلاء طاردوني ضاحجين صاخبين، أنا محطّم مهيض الجناح، انهارت قواي وانكسر ظهري. عويل، عويل، في إمكان هذا أن ينشج، وأنا طريح الفراش من زمن طويل، فأنا لا انهض، فرانس يبركوبف لم يعد ينهض. وإذا ما نفخوا في الصور يوم القيامة فلن ينهض يبركوبف. في هذه الحال يستطيع هؤلاء أن يصرخوا بقدر ما يشاؤون ومعهم المسبار، وفي إمكانهم أن يدخلوا المسبار في أنفي لأنني لا أريد أن افتح فمي، إلا أنني سأجوع حتماً ذات مرة، فما عساهم أن يفعلوا هؤلاء بدوائهم، في وسعهم أن يفعلوا ما يشاؤون. شيء زفت، سحقاً له، هذا ما مررت به أنا الآن. الآن يحتسي الممرّض بيرته، هذا ما مررت به أنا أيضاً.

عويل ضربة، عويل خبطة، عويل كبش، عويل ضربة مرمي. في الوزن الثقيل والركض، في الطقطقة والترنح يجتمع جبابرة العاصفة ويتشاورون، إنه الليل، كيف يتم التصرف بحيث يستفيق فرانس لا أن تتحطم أعضاؤه، أما البيت فهو غاية في السهولة وهو لا يسمع ما ينادون به، ولو أنه كان أكثر قرباً منهم

في الخارج لأحسّ بهم ولمسمع ميتسي تصرخ. ومن ثمّ كان سينشرح صدره وكان سيتنبّه ضميره، وكان سينهض، وكان سيكون جميلاً، والآن لا يعرف المرء ماذا يصنع. إذا ما كان لدى المرء فأس، وهوى ضرباً في خشب قاسٍ طفقت أكبر شجرة سنّاً تصرخ أيضاً. لكن هذا الاضطجاع المتحجر، الامتناع، التشبث والإصرار في التعس والنحس، هذا هو الأسوأ في الدنيا. لا يجوز أن نتراخي، إمّا أن نهدم البيت الدائم بكبش، نحطّم النوافذ، وإمّا أن نرفع الكوى؛ حين يشعر بنا، حين يسمع الصراخ، صراخ ميتسي، هذا نجلبه معنا، عندئذٍ يجيا هو ويعرف خير المعرفة ما يكون. علينا أن نخيفه ونفزع، ينبغي ألا يعرف الراحة في فراشه، كيف أرفع عنه الغطاء، وكيف أعصف به أرضاً، كيف أعصف بكتاب الممرض وأعصف بالبيرة من على الطاولة، ووه ووه، صوت الريح صوت الريح، كيف أقلب له المصباح، المصباح الكهربائي ألقى به أرضاً، قد يحدث بعد ذلك تماس كهربائي في البيت، قد تندلع نار من بعد ذلك، صوت الريح صوت الريح، نار في مستشفى المجاذيب، نار في المركز الدائم.

فرانس يسدّ أذنيه، يتخشّب. حول البيت الدائم يتعاقب نهار وليل، طقس صباح، مطر.

عند السور تقف فتاة شابة من القرية، تتحدث مع ممرض: «هل يبدو عليّ أنني بكيت؟» «لا، ما عدا الوجنة فهي متورمة» «الرأس كله ومؤخر الجمجمة، كل شيء. أجل» تبكي، تخرج لنفسها مندبلاً من الحقيبة الصغيرة، الوجه يتجهّم. «لم أعمل أيّ شيء في أثناء ذلك. كان عليّ أن أذهب إلى الخباز وأحضر شيئاً، أعرف الأنسة وأسألها عما تفعل، تقول لي، هي ستذهب اليوم إلى حفلة رقص الخبازين. في وسع المرء أن يقبع دائماً في البيت في الطقس الرديء. وكان معها أيضاً تذكرة دخول وتريد أن تأخذني معها. لا يكلف هذا بفينيكاً واحداً.

إنه للطف من الأنسة، أليس كذلك؟» أجل» لكن في هذه الحال عليك أن تسمعي الوالدين، أمي. ليس عليّ أن أذهب. ولم لا، إنها حفلة راقصة محترمة، كما أنّ المرء يرغب في أن يتسلّى، فأبني شيء يجنيه المرء من الحياة. لا، لن تغادري المكان، الطقس رديء، والأب مريض. إلا أنني سأذهب. عندها ضربت هذا الضرب كلّه، أهذا جميل؟» تبكي وتحّدق بعينين نصف مغمضتين. «مؤخرة الرأس كلها تؤلم شخصاً ما. الآن ستسدين لنا إذن معروفاً، تقول الأم، وتبقين هنا. هذا أمرٌ عظيم. لماذا ينبغي لي ألا أذهب، فأنا في العشرين من عمري، يوم السبت ويوم الأحد أروح، تقول أمي، أي والله، إذا كان يوم الخميس وكانت البطاقة مع الأنسة» «إن شئت أعطيتك منديل جيب على طول» «أي والله، بلل بكائي الحار ستة مناديل جيب، وعندني زكام أيضاً، بكاء طوال النهار، وماذا أقول للأنسة، لا أستطيع أن اذهب إلى الحانوت بالوجنة المتورمة. ما كان في وديّ إل أن أروح، وأود أن تكون لي أفكار أخرى، مع سيب الآن، صديقك. الآن كتبت له، قضي علينا، إنه لا يردّ عليّ، انتهى كلّ شيء».

«فلتتركي هذا. في إمكانك رؤيته كل يوم أربعاء مع أخرى» «أحبه كثيراً، ولهذا أردت أن أذهب».

على سرير فرانس يجلس رجل مسنّ له أنف مورّد من شرب الكحول. «يا رجل، هلاً فتحت عينيك، إنك تستطيع أن تسمعي. أنا ادفع أيضاً كرة كهذه. وطن، وطن حلو، أنت تعرف، مسكن حلو، هذا بالنسبة إليّ تحت الأرض. إن لم أكن في البيت ففي ودي أن أكون تحت الأرض. صغار الرؤوس يريدون أن يجعلوا مني كائناً جهنمياً، في هذا الجحيم ينبغي أن أسكن. وأنت تعرف حقّ المعرفة ما هو الكائن الجهنمي، هذا هو نحن، استيقظوا، يا ملعوني هذه الأرض الذين يرغمهم دائماً وأبداً أحدٌ ما على الجوع، وأنتم سقطتم ضحايا في المعركة، في

حبّ مقدس للشعب، وأنتم بذلتهم كل ما عندكم من أجل الشعب والحياة والسعادة والحرية. هذا نحن، يا رجل. في أماكن فخمة يأكل المستبد هنيئاً مريئاً، ناسياً قلقه واضطرابه في الخمر، على أنّ علامات وعيد تكتبها يد من زمن في اللوح الفخم. أنا عصامي، ما تعلمته، هو من ذاتي، كلّ شيء من السجن، حبس في القلعة، الآن يجسونني هنا، إنهم يحجرون على الشعب، أنا أشكل خطراً كبيراً على أمنهم العام. أجل، هذا هو أنا. أنا من أحرار الفكر، أستطيع أن أقول لك ذلك، وأنت تراني سجيناً هنا، فأنا أهدأ رجال العالم، إلا إذا استفزوني. سيأتي زمن، ويستفيق الشعب، هذا الجبار القوي الحر، لذا استريحوا، أنتم، يا إخوتي، فقد ضحيتهم بأنفسكم من أجلنا بنبل وعظمة.

تعلم، أنت، يا زميل، افتح عينيك لكي أفهم أنك تصغي إليّ - حسن هكذا، لست في حاجة إلى أكثر من ذلك، لن أشي بك -، ماذا فعلت أنت، قتلت أحد الطغاة، الموت لكم، أيها الجلادون، أيها المستبدون، غنوا أغنية. أنت تعلم، أنت طريح الفراش وتلازم الفراش، وأنا لا أستطيع النوم طوال الليل، ففي الخارج عزف ربح، أنت تسمعها أيضاً، ستجعل الغرفة كلها في القريب العاجل عاليها سافلها. هؤلاء على صواب، اليوم في الليل حسبت، طوال الليل، كم تهديداً يصدر عن الأرض في ثانية واحدة حول الشمس، وأحسب وأحسب، وأظنّ أنّ العدد يصل إلى ٢٨، ثمّ يخطر ببالي أنّ امرأتي تنام بجانبي، عندئذٍ أوقظها، وتقول: يا زوجي العزيز، هوّن عليك، لم يكن هذا إلا أضغاث أحلام. هم سجنوني لأنني أعاقر الخمر، لكن حين أشرب أغضب وأغضب، لكن من نفسي فقط، ومن ثمّ لا أجد مناصاً من أن أحطّم كلّ شيء يعترض سبيلي ذلك لأنني في لحظتها أفقد السيطرة على نفسي. وأتوجه إلى الدائرة من أجل معاشي التقاعدي، ويجلس الأفظاظ الغلاظ القلوب في الحجر، يمصّون

مسكة ريشتهم المعدنية ويخالون أنفسهم أسياداً عظاماً. أنا وقد فتحت الأبواب وقلت فإذا بهم يقولون: ما مطلبك، من أنت هنا أصلاً؟ عندئذٍ اضرب على الطاولة: أنتم لا رغبة بي إلى أن أحاطبكم، مع من لي الشرف، أنا شوغل، من فضلك دليل الهاتف، أريد الاتصال بالمحافظ. وإذا بي أقيم الدنيا وأقعداها في الغرفة، واثنان من الأفظاظ الغلاظ القلوب ما زالوا يصدّقان ذلك».

صوت ضربة، صوت خبطة، صوت كبشٍ لدكّ الأسوار، صوت ضربة مرمى. رفع بجهد جهيد ودكّ، طقطقة وترنّح. ترى من هو هذا الشخص الكاذب، فرانس بييركوبف، هدهد، مأفون ناقص عقل، يريد أن

ينتظر إلى أن يسقط ثلج، ومن ثمّ، يعني هو، نمضي نحن ولا نعود. أيّ شيء يخطر ببال هذا، شخص مثله لا يمكنه أن يفكر، لا مخّ له في رأسه، يريد هذا أن يلازم الفراش هنا ويريد أن يعاند. إلّا أننا سنفسد له تديره، عندنا عظام من حديد، طقطقة، ثغرة في الباب، شقّ في الباب، انتبه، لا باب، ثغرة فارغة، فجوة. يا باب، انتبه، طقطق يا باب، صوت رياح صوت رياح، انتبه، صوت رياح صوت رياح.

طقطقة، تحدث طقطقة في العاصفة، في الهبوب والعصف يعلو صوت الطقطقة، أنشى تدير عنقها على حيوان قرمزي اللون. لها سبعة رؤوس وعشرة قرون. تثرثر بلا توقف وفي اليد كأس، تسخر وتستهزئ، تترصد فرانس وتشرب نخب الأقوياء الهوج: صرّ صريراً، صرّ صريراً، هدّثوا من روعكم، يا سادتي، الرجل لا يستحقّ كثيراً، لا يرجي منه خير، لم يبق له إلّا ذراع واحدة، واللحم والشحم ليس فيه منها ما يعجب الناس، فهو ميّت عما قريب، هم يضعون له أباريق ماء ساخن في السرير، وأنا دمه صار معي أيضاً، وهو نفسه لم

يعد معه إلا القليل منه، وبذلك لم يعد قادراً على أن يدعي الأهمية. أبداً! كلاً، أقول، هدتوا من روعكم، يا سادتي.

أمام عينيّ فرانس يحدث هذا. العاهرة تحرك رؤوسها السبعة، لا تكف عن الثرثرة وتومئ. يضع الحيوان تحتها قوائمها، يرجح الرأس.

سكر عنب وحقنات كافور، لكن في النهاية يتدخل آخر

فرانس يتصارع مع الأطباء. لا يستطيع أن يتتزع منهم الأنبوب المطاطي، لا يستطيع أن يسحبه من أنفه، يصبون زيتاً على المطاط، والمسبار ينزلق منه في البلعوم والحلق، وينساب الحليب والبيض إلى معدته. لكن إذا ما انتهت التغذية أخذ فرانس يغصّ ويتقيأ. هذا شاق ومؤلم، إنَّها مقبول، وحتى لو أنّ المرء قيّد يدي شخص ما، واستطاع أن يدسّ الإصبع في الحلق. سرعان ما يستطيع المرء أن يتقيأ كل شيء يريده، وسنرى من ذا الذي يحتفظ بإرادته، هم أم أنا، وما إذا كان أحدهم سيجبرني أيضاً في هذا العالم المجنون. أنا لست هنا بالنسبة للأطباء تجارهم، وما بي لا يعرفون عنه شيئاً.

ها إنّ فرانس يحقق مبتغاه ويهن أكثر وأكثر. إنهم يجربون معه على كل الوجوه. يواسونه، يجسون نبضه ويرفعونه ويرقدونه، يعملون له حقن كوفايين وكافور ويحقنونه في الأوردة بسكر العنب وملح الطعام، ويتم تبادل الآراء عند سريره حول ما ينتظره من حقنات الأمعاء، ولربما اقتضى الأمر أن يجعلوه يستنشق أكسجيناً خاصاً، فالقناع لا يستطيع نزعها. يخطر بباله ما للسادة الأطباء الكبار يهتمون بي. ها إنّ ١٠٠ شخص يموتون في برلين كلّ يوم، وإذا ما مرض شخص ما فما من طبيب يريد أن يأتي إليه إذا لم يكن عنده المال الكثير. الآن يأتون كلّهم مهرولين، إلا أنهم لا يصلون على الإطلاق لأنهم يريدون مساعدتي. فأنا

لا أعنيهم البتة كما لم أهتمهم أنا أمس، ربما كنت في نظرهم مثيراً للاهتمام، ولهذا يمتعضون مني أنهم لا يقوون عليّ ولا قبل لهم بي. وهذا لا يريدون أن يسكتوا عنه وأن يحتملوه، ولا بحال من الأحوال، الموت يخالف التعليمات المنزلية هنا، ونظام المستشفى. حين أنفق أنا فلربما يكون عندهم شخص سبب مضايقات، وفضلاً عن ذلك يريدون أن يقدموني فيما بعد للمحاكمة بسبب ميتسي وشيء آخر، ولهذا بقي عليّ أن أقف على قدمي، هؤلاء هم في نظري عبيد الجلادين الحقيقيين، حتى ولا جلادون، عبيد جلاد، سواقون، ومن ثم يسيرون أيضاً هنا وهناك في معاطف أطباء ولا ينجلون من أنفسهم.

إنه لتهامس تهكمي في وسط السجناء في القسم حين كانت تتكرر زيارة الطبيب للمرضى وفرانس طريح الفراش كما كان من قبل، وهؤلاء أرهقوا أنفسهم معه، دائماً حقن جديدة، ويوقفونه من بعد ذلك أيضاً على الرأس، والآن يريدون أن يقوموا بنقل الدم إلى هذا، لكن من أين بالدم. ما من أحد هنا غيبي إلى هذا الحد بحيث إنه يتركهم يفضدون الدم منه، فليتركوا هذا المسكين وشأنه. إرادة الإنسان هي مملكته السماوية، وما يريده شخص فليكن له ما يشاء. البيت كله لا يسأل إلا عن أية حقنة ستعطى اليوم لصاحبنا فرانس، وضحكوا خفية في شماتة من وراء الأطباء، إذ إنه لا فائدة ترجى من هذا، وفي هذه الحال لا يفلحون، إن هذا ولد صلب هو من أصلبهم وأقواهم شكيمة، هذا يعرف كيف يريهم، هذا يعرف ما يريد.

السادة الأطباء يرتدون في غرفة المعالجة الطبية معاطف بيضاء، إنهم السيد كبير الأطباء، الطبيب المساعد، الطبيب المتطوع تحت التمرين، الطبيب تحت التمرين، كلهم يقولون: هي حالة ذهول. السادة الأصغر سنّاً عندهم رأي خاص في هذه الحالة: يميلون إلى اعتبار أنّ مرض فرانس بيبركوف ذو منشأ

نفساني، إذن فإنَّ تيّسه مؤداه من النفس: إنها حالة مرضية من رادع وتقيّد كان سيوضحها تحليل، ربما أنه هبوط إلى أقدم المراحل النفسية لو -، لو الكبيرة هذه، لو المحزنة جداً، أسفاً، لو هذه تزعج أيما إزعاج - لو تكلم فرانس بييركوبف ولو جلس معهم إلى طاولة الاجتماعات لكي يشترك معهم في تصفية النزاع. السادة الأصغر سنّاً يضعون نصب أعينهم مدينة لوكارنو (مدينة الاستشفاء). من هؤلاء السادة الأصغر سنّاً، كلا المتطوعين والطبيب تحت التمرين، يأتي كل واحد منهم بعد زيارة الطبيب للمرضى قبل الظهر وبعد الظهر إلى غرفة الإنعاش الصغيرة المزوّدة بقضبان إلى فرانس، ويحاول أن يجري بكل ما لديه من طاقات حديثاً معه. فهم يتتهجون على سبيل المثال طريقة التجاهل: فهم يتكلمون إليه بالحسنى وكأنه يسمع كل شيء، وهذا هو أيضاً عين الصواب، ولكأنما كان يمكن إغراؤه لكي يخرج هكذا من عزلته ويكسر الحاجز.

ولما لم يصحّ هذا توصل طبيبٌ تحت التمرين يتوصل بعد التغلب على العوائق إلى أن يجلبوا من المستشفى آلة استاتية كهربائية، وأن يعالجوا فرانس بييركوبف بالتيار الكهربائي المستحث بغرض شفائه، وذلك على النصف الأعلى من الجسم، وأن يوضع التيار المستحث في النهاية بصورة خاصة على منطقة الفك، على العنق وعلى قعر الفم. المتبع أن يثار الجزء بصورة خاصة الآن ويهيج.

الأطباء الأكبر سنّاً هم ناس نشطاء، لديهم خبرة بالدنيا وشؤونها، يطيب لهم أن يسيروا على أقدامهم لكي يتمشوا إلى البيت الدائم، يسمحون بكل شيء. السيد كبير الأطباء يجلس في غرفة المعالجة الطبية إلى الطاولة أمام الملفات. كبير المرضين يناوله إياها من على اليسار، كلا السيدين الشابين، الحرس الشاب، الطبيب المساعد والطبيب المتمرن، يقفان عند النافذة ذات الشبك الحديدي ويتجاذبان أطراف الحديث. لائحة العلاج المنوم تمت مراجعتها، الممرض

الجديد قدّم نفسه ويخرج مع كبير المرضين، السادة خلا لهم الجو وكانوا مع نظرائهم، يقلّبون صفحات المحضر من المؤتمر السابق في مدينة بادن بادن. كبير الأطباء: «في القريب العاجل كونوا على يقين أنّ الشلل مشروط نفسياً، وأنّ المتلويات هي قمل عرضي في الدماغ. النفس، النفس، يا صندوق المشاعر الحديث! الطب على أجنحة الشيد».

يصمت كلا السيدين ويتسمان في سرهما. الجيل القديم يكثر الكلام، بدءاً من عمر معين يرسب كلس في الدماغ ولا يزداد المرء علماً في أي شيء. كبير الأطباء يدخن، يستمر في التوقيع ويواصل الكلام:

«انظروا، الكهرباء جيدة، أفضل من اللتّ، من الكلام الكثير الذي لا طائل فيه. أمّا أن تأخذوا تياراً ضعيفاً، فهذا لا يجدي نفعاً. وخذوا تياراً قوياً يمكنكم أن تروا شيئاً ما. يعرف المرء من الحرب، المعالجة بالتيار القوي، يا لطيف، يا ساتر يا رب. هذا غير جائز وغير مشروع، تعذيب حديث» عندئذ يتشجع السيدان الشابان ويسألان، أي شيء ينبغي القيام به في حالة بيبركوبف؟» أولاً يُشخّص المرض، وإن أمكن التشخيص الصحيح. ما عدا النفس التي لا ينزاع فيها منازع - فإننا نعرف غوته وكاميزو أيضاً، وإن كان هذا من زمن بعيد بعض الشيء -، ما عدا هذا فهناك أيضاً رعاف، مسامير وسيقان مكسورة. هذه يجب معالجتها، كما تقتضي ساق مكسورة كسراً لا يستهان به أو يتطلبه مسمار من طبيب ما. بساق مكسورة تستطيع أن تفعل ما تشاء، فهذه لا تشفى بالنصح والنصيحة، وفي هذه الحال يمكنك أن تعزف أيضاً على البيانو، فهذا لا يشفي. هذا يقتضي، وعلى المرء أن يعمل جيّرة ويجبر العظم تجبيراً سليماً، ومن ثمّ فسرعان ما يتحسن الوضع. وفي حال المسمار لا يختلف الأمر. هذا يتطلب إما أن يضع المرء الدواء عليه بفرشاة صغيرة أو أن يشتري المرء حذاءً أصلح. وثانيهما

أغلى، لكنه عمليّ على نحو أكثر. حكمة استحقاقات المعاش، المستوى المعاشي الفكري صفر» إذن أيّ شيء ينبغي عمله في حالة بيركوبف هذه، ما رأيك، أيها السيد كبير الأطباء؟» «التشخيص تشخيصاً صحيحاً. هذا يعني هنا، وفق علم تشخيص المرض الخاص بي الذي طال بقاءه بطبيعة الحال، ذهول جامودي. بالمناسبة، هذا إذا لم يكن وراء ذلك تشخيص لمرض عضوي كبير، شيء في الدماغ، ورم، شيء في الدماغ المتوسط، وأنت تعرف ما تعلمناه نحن في حالة ما يسمى أنفلونزا الرأس، على الأقل نحن الأكبر سنّاً. ربما نشهد حادثة مثيرة أيضاً في صالة تشريح الجثة، ولو لم يكن للمرة الأولى» «ذهول جامودي؟» كان ينبغي أن يشتري حذاءً جديداً» أجل، ما استلقى هكذا متيبساً، تصبّيات العرق هذه، ومن ثمّ يغمز هذا بعينه بين الحين والحين ويراقبنا مراقبة شديدة، لكنه لا يفعل شيئاً. كما أنه لا يأكل شيئاً، ويبدو لنا هذا وكأنها هو جامود (إغماء تخشبي). السيد متمارض أو نفساني المنشأ أسقط في يده أخيراً. الموت جوعاً، إلى هذا الحد تمدى هذا.» «وأيّ شيء يتحسّن عند الرجل بهذا التشخيص، أيها السيد كبير الأطباء، كما أنّ هذا لن يجديه نفعاً؟» هو عندنا الآن في صندوق التعرّق في وضع حسن. كبير الأطباء يضحك في غير ما تحفّظ ضحكاً شديداً، ينهض؛ كبير الأطباء يدنو من النافذة وينقر على كتف الطبيب المساعد:

«أولاً، كلاهما سيرحمه، أيها الزميل العزيز. إذ إنه يستطيع أن ينام على الأقل بهدوء. ففي ذلك نفع لهذا وفائدة. ألا تعتقد أنّ هذا يسبب الملل في النهاية في نفس هذا، ما تشرحه أنت والزميل الآخر بالتفصيل؟ وهل تعلم على فكرة بما سأدعم أنا تشخيصي في ثبات؟ انظر، الآن فهمت. فهذا كان سيمدّ يده من زمن طويل، يا آدمي، لو كانت المسألة عند هذا مسألة ما يسمى بالنفس. فحين يرى سجين حاذق مثل هذا، عندئذٍ يصل أسياذ شباب إلى هذا الحد يعرفون طبعاً شيئاً قدرّاً

عني - معذرة، هذا فيما بيننا، - هؤلاء يريدون أن يشفوني من المرض بالصلوات والأدعية، وبالنسبة لشاب مثل هذا فهم لقمة سائغة. وقد يحتاج إلى هذا. وماذا يفعل من بعد ذلك، وماذا سيكون فعل لوقت طويل؟ تبصّر، أيها الزميل، لو كان للشاب عقل وتقدير - «الآن يظنّ هذا الأبله الأعمى أنه عثر على حبة، فلربّ رمية من غير رام؟ وكيف يقرق ويقيق. «إنه يعاني روادع، أيها السيد كبير الأطباء، وفي رأينا إنه أيضاً لحرمان، إنما مشروط بلحظات نفسية، - فقدان الاتصال بالواقع، إثر خيبات أمل وإخفاقات، ومن ثمّ مطالب غريزية طفولية موجهة إلى الواقع، محاولات غير مجدية لإعادة الاتصال» «هراء، لحظات نفسية. ومن بعد ذلك سيكون له لحظات نفسية أخرى. وبعدها سينتهي من الحصار والرادع، وهذان يهديهما إليكما كليكما هدية عيد الميلاد. وفي أسبوع ينهض بفضل مساعدتكم، يا إلهي، يا لك أنت من شافٍ عظيم بالصلوات والأدعية، ممجدة هي المعالجة الجديدة، أنت ترسل برقية مبايعة لفرويد إلى فيينا، وبعد ذلك بأسبوع ينتزّه الشاب بفضل مساعدتكم في الممشى، معجزة، معجزة، هللوا للرب؛ أسبوع آخر ثمّ يعرف فسحة البيت، وبعدها وبمضي أسبوع آخر سيكون قد ذهب وفرّ هارباً، هللوا للرب» «لا أفهم، لا بدّ من المحاولة، لا أظنّ، أيها السيد كبير الأطباء.

(أعرف كلّ شيء، أنت لا تعرف شيئاً، لتّ وعجن، نحن نعرف كلّ شيء) «أما أنا. ستتعلم من بعد. لا بدّ أن تكون عشت أنت هذا ومررت به. حسن. لا تعذب هذا، صدّقني، لا فائدة ترجى من ذلك» (سأتوجّه إلى المنزل رقم ٩، هؤلاء الأغرار، من ذا الذي يراعي الله، كم الساعة تماماً).

فاقد الوعي وشارد الذهن هو فرانس بييركوبف، شديد الشحوب ومائل إلى الاصفرار، مع تورمات مائية على الكعبين، خبز جوع، يشتمّ منه

جوع، الخلّون المائل إلى الحلاوة، من يدخل الغرفة يلاحظ على الفور، هنا يجري شيء ما له خصوصيته.

مرحلة عميقة وصلت إليها روح فرانس، ليس عنده حضور وعي، إلا في بعض الأحيان، عندئذٍ تفهمه الفئران الرمادية التي تسكن فوق في المخزن، والسناجب وأرانب الحقل التي تنفر في الخارج هنا وهناك، الفئران تلازم أبحارها، بين المنزل الدائم ومركز بوخ الكبير. هنا يجري شيء ما في نفس فرانس ويهيم حائراً ويبحث ويوسوس ويسأل ويعمى ويعود إلى القوقعة التي لا تزال تستلقي خلف السور في السرير وتتنفس.

الفئران تدعو فرانس لكي يأكل معها ولا يحزن. أي شيء يكدره. ها إنه يتبين أنه ليس بالأمر السهل أن يتكلم. وتلجّ عليه بأن يقتل نفسه، فالإنسان حيوان كريبه بشع، عدو لكل الأعداء، أكره المخلوقات الموجودة على سطح الأرض، لا بل إنه أسوأ من القطط.

يقول هو: ليس جميلاً أن تعيش في جسد بشري، وإني لأفضّل أن أقرص تحت الأرض، وأسير على الحقول، وأكل ما أجده، والريح تهبّ والمطر ينهمر والبرد يأتي ويزول، على أن أعيش في جسد بشري. الفئران تركض، فرانس فأر برّي ويشارك في الحفر.

في البيت الدائم يلازم الفراش، الأطباء يأتون ويبقون على جسده قوياً، وفي أثناء ذلك اشتدّ انطفاء سناه. هم أنفسهم يقولون، لم يعد في الإمكان منعه. فما كان فيه حيواناً صار يجري في الحقل.

الآن ينسلّ شيء ما منه ويتلمّس ويبحث ويتحرر، شيء لم يحسّ به في داخله في ظروف أخرى على نحو واضح إلا فيما ندر ويجرف هذا أبحار الفئران، يبحث

حول الأعشاب ويتلمّس في التربة أين تضرب النباتات جذورها وتخبيء بذورها. عندئذ يتكلم شيء ما معها، يمكنها أن تفهم، إنه هبوب جيئة وذهاباً، طرق، إنه كما لو أنّ بذوراً تسقط على الأرض، روح فرانس تُرجع بذورها النباتية. إلا أنه زمن رديء، بارد ومتجمّد، من يدري كم سيمكن احتمالها، لكن على الحقول متسع، بذور كثيرة يحمل فرانس في داخله، كلّ يوم يهبّ هو من البيت ويفرغ بذوراً جديدة.

الموت يغني أغنيته البطيئة، البطيئة

الأشداء شدة الإعصار هادئون الآن، لقد بدأت أغنية أخرى، الأغنية يعرفها الجميع ويعرفون من يغنيها. حين يرفع صوته فإنهم يكونون دائماً هادئين، حتى الذين لم تتم مهاجمتهم أشدّ مهاجمة على وجه الأرض.

بدأ الموت أغنيته البطيئة، البطيئة. يغني مثل متلعثم، كلّ كلمة يكررها؛ فإذا ما غنى بيتاً كرّر الأول، وبدأ مرة أخرى. هو يغني مثلما يصرف منشار. ببطء تام يتحرك، ثم ينغرز بعمق في اللحم، ويصرخ بصوت أكثر دويماً وجلجلة وأعلى، وبنغمة واحدة يتلاشى ويحمد. ثم يرتد من جديد بطيئاً بطيئاً ويزعق، ويرتفع صوته أكثر ويصبح أكثر ثباتاً ويزعق، وفي اللحم ينغرس. ببطء يغني الموت.

«آن الأوان لي أن أظهر عندك ذلك لأنّ البذور تطير من النافذة وأنت تنفض ملاءتك لكأنك لم تعد تضطجع. أنا لست مجرد حصّاد، أنا لست مجرد منشار، عليّ أن أكون هنا، لأنه يسري عليّ ألا أنسى. أجل! أجل! أجل!»

أجل، هذا ما يغنيه الموت في نهاية كل مقطع شعري. وحين يحدث حركة قوية يغني هو أيضاً بكلّ تأكيد، لأنّ هذا يبعث السرور في نفسه. أما الذين يسمعون هذا فإنهم يغلقون العيون، إنه شيء لا يطاق.

ببطء، ببطء يعني الموت، بابل الشريرة تصغي إليه، الأشداء شدة الإعصار
يصغون إليه.

«أنا أقف هنا وعليّ أن أسجّل: الذي يستلقي هنا ويفرط بحياته وجسده هو
فرانس بييركوبف. وحيثما يكون هو أيضاً يعرف هو إلى أين يذهب وماذا يريد».
الحق أنّ هذه أغنية جميلة، لكن هل يسمع فرانس هذه، وما معنى هذا: هذا
يعنيه الموت؟ مطبوع هكذا في الكتاب أو مقروء بصوت عالٍ شيء أشبه بالشعر،
شويرت لحن أغاني شبيهة بذلك، الموت والفتاة، لكن ما فائدة هذا هنا؟»
على أنني لا أربح إلا أن أقول الحقيقة بعينها، لا شيء إلا الحقيقة، وهذه
الحقيقة هي: فرانس بييركوبف يسمع الموت، هذا الموت، ويسمعه يعني، هذا
الذي يعني ببطء مثل متلعم، دائماً يكرّر ويكرّر، ومثل منشار ينفذ في الخشب.

«عليّ أن أسجّل هنا، أنت يا فرانس بييركوبف، أنت تستلقي وتريد أن تأتي
إليّ. أجل، كنت على حق، يا فرانس، أنك جئت إليّ. أنّي لإنسان أن يفلح إن لم
يبحث عن الموت؟ الموت الحق الصادق. لقد صنت نفسك طوال حياتك. حفظ
وصون، حفظ وصون، ذلك هو المطلب المتخوف للبشر، هكذا تكون الحال في
موضع ما، ولن يستمرّ الأمر على هذا النحو.

حين خدعك لودرز تكلمت أنا معك أول مرّة، سكرت ونفسك -
صتها! تهشمت الذراع، حياتك كانت في خطر، يا فرانس، اعترف بهذا، لم تفكر
لحظة واحدة بالموت، قيّضت أنا لك كل شيء، إلا أنك لم تعرفني، وحين
اكتشفتني بالحدس ازددت وحشية وذعراً - أمامي وليت هارباً. لم يخطر ببالك
قطّ أن تعوجّ وتتطرح ما بدأته. تقبّضت وتقلّصت في القوة، والتشجّع لم يتبخّر
بعد وما زال على ما هو، إنه لا يجدي نفعاً، أنت نفسك شعرت بهذا، أنه لا يجدي

نفعاً، ستأتي اللحظة، عندها لن ينفع شيء، الموت لا يغني لك أغنية رقيقة ولا يطوّق عنقك بطوق خائق. فأنا الحياة والقوة الحقيقية، وأنت لم تعد ترغب في النهاية، في النهاية في أن تصون نفسك».

«ماذا؟ كلا! ما رأيك بي؟ ماذا تريد أن تفعل بي؟»

«أنا الحياة والقوة بكل ما فيها من حقيقة، قوتي تغلب على أضخم المدافع، أنت لا تريد أن تسكن في مكان ما مرتاحاً مني. تريد أن تعرف باطن نفسك، تريد أن تختبر نفسك، فالحياة لا نفع لها من دوني. تعال، اقترب مني لكي تراني، يا فرانس، انظر كيف تستلقي تحت في هاوية، أريد أن أريك سلماً، هنا تهتدي إلى نظرة جديدة. سترتقي الآن إليّ، سأمدّ يدي به إليك، صحيح أنه ليس لك إلا ذراع، لكن مدّ يدك، ساقاك تدوسان بخطا ثابتة، مدّ يدك، طأ واقرب».

«لا أستطيع أن أرى أيّ سلّم في الظلام. أين وضعته، أنا لا أستطيع أن أتسلّق أيضاً بذراعي الوحيدة».

«أنت لن تتسلّق بالذراع، ستسلّق بالساقين».

«لن أستطيع أن أمسك، لا معنى لما تطلبه».

«أنت لا تريد أن تقترب مني. في هذه الحال أريد أن أنور عليك، في هذه الحال ستجد طريقك إلى هناك».

عندئذٍ يتناول الموت الذراع اليمنى من وراء الظهر، ويظهر لماذا يجبّته هو وراء الظهر.

«إن لم تملك الشجاعة لكي تأتي في الظلمة أنرت لك في هذه الحال، اقترب زاحفاً».

وإذا ببلطة تلمع عبر الهواء، تلمع وتنطفئ.

«اقترب أكثر زاحفاً. اقترب أكثر زاحفاً!»

وحين يطوّح هو بالبلطة في الهواء، من علّ خلف رأسه ويواصل تطويحها إلى الأمام في قوس، في دائرة تصنعها الذراع، تبدو البلطة أنها تنطلق مسرعة عنه. على أن يده ترتفع من خلف رأسه وتلوّح من جديد ببلطة. تلمع وتسقط، تقصل في نصف قوس إلى الأمام عبر الهواء، تضرب، تضرب، واحدة جديدة تنطلق كالريح، بلطة جديدة تنطلق كالريح، واحدة جديدة تنطلق كالريح.

طوّح عالياً، اهوى، اضرب وشقّ بعنف مرات ومرات، طوّح عالياً، اصرع أرضاً بالضرب، اضرب وشقّ بعنف مرات ومرات، طوّح. قع، افرم، طوّح قع افرم، طوّح افرم، طوّح افرم.

وفي لمع الضوء وبينما تلوّح الدنيا وتطوّح وتبرق وتفرم، يزحف فرانس ويتلمّس السلم، يصرخ ويصرخ، يصرخ فرانس. ولا يتراجع زاحفاً. يصرخ فرانس. الموت حاضر.

فرانس يصرخ.

إن فرانس ليصرخ، يدبّ ويصرخ.

يصرخ طوال الليل. جاء سيراً على الأقدام، فرانس.

يصرخ حتى حلول النهار.

يصرخ في ضحى النهار.

لوّح طوّح اهوى قطع.

يصرخ حتى حلول الظهر.

يصرخ حتى حلول العصر.

لَوْحٌ طَوْحٌ إِهْوِ قَطْعٌ.

لَوْحٌ طَوْحٌ، قَطْعٌ، قَطْعٌ، لَوْحٌ طَوْحٌ قَطْعٌ، قَطْعٌ، قَطْعٌ.

لَوْحٌ طَوْحٌ، قَطْعٌ.

يصرخ في المساء، في قلب المساء. الليل يحلّ.

يصرخ في قلب الليل، فرانس في قلب الليل.

جسده يواصل تقدمه. ستتقطع على الوضم من جسده القطعة تلو القطعة.

جسده يتقدم ألياً، عليه أن يتقدم، لا بدّ له من ذلك. البلطة تدور في الهواء. تبرق

وتهوي. يتم تقطيعه سيستيمتراً سيستيمتراً، وما وراء، ما وراء السيستيمترات، هاهنا لا

يكون الجسد ميتاً، ها إنه يتقدم، ببطءٍ يواصل تقدمه. لا شيء يسقط، كل شيء

يواصل الحياة.

هؤلاء الذين في الخارج يمرون بسريره، عند سريره يقفون ويرفعون

أجفانه ما إذا كانت الأفعال المنعكسة لا تزال باقية، هؤلاء الذين يجسّون له

النبض الذي هو أشبه بخيط، لا يسمعون شيئاً من جراء الصراخ، لا يرون إلا:

فرانس وهو فاغر فاه، ويظنون أنه عطشان، ثم يسقونه في حذر بضع قطرات

ماء، المهم إلا يتقيّوها، وإنه لجميل أنه لم يعصّ على أسنانه. ترى كيف يمكن أن

يعيش إنسان طوال هذا الوقت.

«أنا أعاني، أنا أعاني».

«إنه لجميل أنك تعاني. ما من شيء أفضل من أن تعاني».

«آه، لا تتركني أعاني. هلاً وضعت نهاية».

«لا جدوى من أن تكون نهاية. انتهى الأمر الآن»

«هلا وضعت نهاية. إن هذا في يدك»

«ليس معي في اليد إلا بلطة. وكل ما عدا ذلك هو في يدك»

«أي شيء معي في اليد؟ هلا وضعت نهاية»

الآن يهدر الصوت وتغير تغيراً كلياً.

السخط الأعمى، السخط الجامح، السخط الهائل الأعمى، السخط

المتوالي غير المعقول.

«إلى هذا الحد وصل الأمر بأن أقف هنا وأتكلم معك بهذه الطريقة. أن

أقف مثل معذب أو جلاد، وعليّ أن أخنق فيك مثلما أخنق بحيوان سام ينهش

نهشاً، وأنا ناديتك المرة تلو المرة، وتعتبرني جهاز أسطوانات، جهاز فونوغراف

(حاكي) يدوره الناس حين يطيب لهم هذا، ومن ثم ينبغي لي أن أهتف منادياً،

وحين تكتفي تغلقني. هذا ما تعتبرني، أو أمام ذلك تضعني. لا تضعني إلا أمام

ذلك، لكن الآن ترى أنّ الشيء مختلف».

«ماذا فعلت أنا، لم أعدّب نفسي بما فيه الكفاية. لا أعرف إنساناً حدث له

ما حدث لي، على نحوٍ يرثى له غاية الرثاء وبحالة تدعو إلى الشفقة».

«لم تكن هنا قطّ، أنت أيها القدر. لم أر طوال حياتي واحداً اسمه فرانس

بيركوبف. حين أرسلت إليك لودرز لم تفتح عينيك، كنت خائر القوى مثل

مطواة، وبعدها شربت، عرقاً ثم عرقاً ولا شيء إلا معاقرة الخمر».

«أردت أن أكون مستقيماً، وخذعني هذا».

«أقول، لم تفتح عينيك، أنت أيها الكلب الذليل! تسب أنت الأفاقين والمكر والخديعة ولا تنظر إلى البشر ولا تسأل لماذا وكيف. أي قاضي أنت على البشر وليس لك عينان. أعمى كنت ووقحاً فوق ذلك، متكبراً، السيد بييركوبف من الحي الراقي، والدنيا يجب أن تكون كما يشاء هو، تغيرت الدنيا، يا بني، وها أنت ترى الآن. أنت لا تهتم بنفسك. حين أمسك بك راينهولد وألقى بك تحت عجلات السيارة، دهس ذراعك، حتى إن قوى صاحبنا فرانس بييركوبف ما خارت. وحتى حين كان لا يزال مطروحاً تحت العجلات يقسم هذا: أريد أن أكون قوياً. لا تقولوا: تارة التروي والتدبر، وتارة جمع شتات الفكر، - لا يقول هو هذا: أريد أن أكون قوياً. ولا تريد أن تلقي بالاً أنني أتكلم إليك. أما الآن فأنت تسمعني».

«لا ألاحظ أي شيء، لماذا؟ ما الأمر؟»

«في النهاية ميتسي، - يا فرانس، عار، عار، قل: عار، اصرخ عار!»

«لا أستطيع. لا أعرف لماذا؟»

اصرخ عار. جاءت إليك، كانت لطيفة حلوة، حمتك، سرت بك، وأنت؟ ماذا كان يعني لك إنسان ما، إنسان مثل زهرة، وتذهب إلى المكان وتباهي بها أمام راينهولد. أمامك قمة الشاعر كلها. ما أردت أنت إلا أن تكون قوياً. سعيد أنت أنك تستطيع أن تبارز راينهولد وأنت متفوق عليه وتخرج وتستثيره بها. راجع نفسك ما إذا كنت أنت نفسك مذنباً حين لا تعيش هي. ولم تذرف دمعة واحدة عليها هي التي ماتت من أجلك، لا من أجل أحدٍ سواك.

ليس إلا تجاذب أطراف الحديث بغير ما كلفة: «أنا» و«أنا» و«الظلم الذي أعانيه»، وكم أنا نبيل وكم أنا طيب وعلى خلق حسن، والناس لا يتركونني أثبت أي رجل هو أنا. قل عار. اصرخ عار!

«الحق أني لا أعرف.»

«الحرب الآن خسرتها أنت، يا فتاي. يا ولدي، قضي عليك. يمكنك أن تشمّع الخيط. دعهم يستبعدونك أخبرت بخروجك. في هذه الأحوال يمكنك أن تولول وتنوح بقدر ما تشاء. يا لهذا الصعلوك. له قلب ورأس وعينان وأذنان، ويفكر، جميل إذا ما كان مستقيماً، ما يسميه هو استقامة، ولا يرى هو شيئاً ولا يسمع شيئاً ويجيا فوق ذلك حياة مستهتره، فلا يلحظ شيئاً، في وسع المرء أن يفعل ما يشاء.»

«ماذا، ما عساه أن يفعل؟»

زجرمة الموت: «لا شيء أقول لك، لا تهذ معي. ليس لك مخ، وليس لك عينان. أنت لم تولد، يا رجل، أنت لم تأتِ إلى الدنيا قط. أنت سقط ذو هوس مرضي. ذو أفكار لا حياء فيها، أيها البابا ببيركوبف، كان لابد أن يولد هذا لكي ندرك كيف يكون كل شيء. العالم في حاجة إلى رجال آخرين غيرك، أكثر صفاء، وأولئك الذين هم أقل صفاقة منك يرون كيف يكون كل شيء، ليسوا من سكر، إنما مزيج من سكر وقذارة، وكل شيء فوضى. أنت، يا رجل، هات قلبك لكي تكون نهايتك. لكي ألقى به في القاذورات حيث يكون مكانه. ولسانك تستطيع أن تحتفظ به عندك.»

«هلاً تركتني أيضاً لما بي. دعني أفكر. بعض الشيء أيضاً. بعض الشيء.»

«اخرج قلبك، يا رجل».

«بعض الشيء»

«سأجلبه بنفسِي، يا أنت».

«بعض الشيء».

والآن يسمع فرانس أغنية الموت البطيئة

برقُ برقُ برقُ، البرقُ برقُ يتوقف. فرمٌ سقوط فرم، الفرم السقوط الفرم يتوقف. إنها الليلة الثانية التي صرخ فيها فرانس. سقوط فرم يتوقف. لم يعد يصرخ. البرق يتوقف. عيناه ترمشان. يستلقي جامداً. هذا مكان، صالة، بشر يمشون. عليك إلا تضيق فمك. يصبون له شيئاً ساخناً في الفم. لا برق. لا فرم. جدران. قليل، قليل، ما الأمر. إنه يغلق العينين.

وحين يغلق فرانس العينين يبدأ بالقيام بشيء ما. أنتم لا ترون ماذا يفعل، أنتم تفكرون فقط، هنا يستلقي وربما يقضي عما قريب، إنه لا يحرك إصبعاً. ينادي ويسير ويتمشى. يجمع كل شيء يخصه. يمر من خلال النوافذ إلى الحقول، ويهزّ العشب بيده، ويزحف إلى أبحار الفئران: اخرجي، اخرجي، ما الأمر هنا، أهنا شيء ما مني؟ ويهزّ العشب باليد: اخرجي من سلاطة البطاطا. ما لهذا الهراء كله، لا معنى لكل شيء، أنا في حاجة إليكم، لا أستطيع أن أعطي أحداً إجازة، لدي ما ينبغي عمله، مرة من المرات مرّح وفرّح، أنا في حاجة إلى الجميع. ويسكبون له حساء بالبيض، يبلع ولا يتقيأ. يرفض، لا يريد أن يتقيأ.

كلمة الموت في فم فرانس، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منه، ويدورها في الفم، وإنها حجر، حجر أصمّ، وما من غذاء ينبثق من ذلك. في هذا الوضع

مات ناس لا حصر لهم. لم يكن لهم هنا أي استمرار. لم يعرفوا أنه كان عليهم أن يسبوا لأنفسهم الألم الوحيد لأن يتقدموا، وأنه لم تكن إلا خطوة واحدة صغيرة ضرورية لكي يتقدموا، على أنهم لم يستطيعوا القيام بالخطوة. لم يعرفوا هذا. لم يعرفوا الأمر بسهولة ويسر. لم يحدث الأمر بسرعة، ليس بالسرعة الكافية، كان ضعفاً، تشنّجاً لدقائق، لثوانٍ، وإذا بهم قد مضوا إلى حيث لم يعد اسمهم كارل، فيلهيلم، مينا، فرانسيسكا - في سأم، في سأم أسود، متوهجين في غضب وتيسس القنوط رقدوا في الجهة الأخرى. لم يعرفوا ولم يكونوا في حاجة إلا لكي يبيضوا، بعد ذلك كانوا سيصبحون ليبي الجانب، وكل شيء كان سيكون جديداً.

ليكن ترقّب - الليل - وفي إمكانه أن يكون ليلاً حالك السواد بمثل هذه الحلقة ومثل اللاشيء. ترقّب الليل الحالك، الحقول والمزارع التي يغطيها الصقيع الجامد، الطرق العمومية المتجمدة. ترقّب البيوت القرميدية المهجورة التي ينبعث منها الضوء الضارب إلى الحمرة، ترقّب الجوّالة الذين يرتعشون برداً والحوذية على عربات الخضراوات الذين يريدون الدخول إلى المدينة، والأحصنة الصغيرة أمامها. السهول الكبيرة المنبسطة الصامتة التي تسير عليها قطارات الضواحي والقطارات السريعة وتلقي في الظلام ضوءاً أبيض على كلا الجانبين. ترقّب البشر على المحطة ووداع الفتاة الصغيرة من والديها، إنها تسافر مع شخصين من معارفها أكبر سنّاً، فوق الماء العظيم تسير هي، لدينا بطاقات، لكن يا إلهي فتاة صغيرة كهذه، حسن ستأقلم في الجانب الآخر، وعليها أن تبقى طيبة حسنة السلوك، وفي هذه الحال ستسير الأمور سيراً حسناً. ترقّب المدن واستقبالها، تلك التي تقع على طريق واحد، بريسلاو، ليغنيتس، زومرفيلد، غوبين، فرنكفورت على الأودر، برلين، القطار يمرّ بها من محطة إلى محطة، المدن تظهر في محطات القطارات، المدن بشوارعها الكبيرة والصغيرة، مدينة بريسلاو بشوارع شفايدنيتس، بدائر الناحية

الكبير لشارع القيصر فيلهيلم، شارع كورفورستين، وفي كل مكان مساكن يدفع فيها الناس بعضهم بعضاً، ويتبادلون نظرات الحب، ويجلسون جنباً إلى جنب في برود، أكشاك قدرة وحنات يعزف فيها أحدهم على البيانو، حلوة ومليحة، طقطوقة قديمة مثل هذه لكأنه ليس هناك في عام ١٩٢٨ شيء جديد، وعلى سبيل المثال «مادونا-، أنت أجمل» أو «رامونا».

ترقب - السيارات، عربات الأجرة، أنت تعرف، في كم واحدة جلست، لقد ارتجت، كنت وحدك، أم أن شخصاً ما جلس بجانبك أو شخصان، سيارة رقم ٢٠١٤٧.

قطعة خبز توضع في الفرن.

الفرن يتصبب في العراء عند بيت أحد الفلاحين، في الخلف يوجد حقل، هذا الشيء يبدو مثل كومة قرميد صغيرة. النسوة نشرن كمية من الحطب بالمنشار وحملن أغصاناً يابسة، وهذه ملقاة الآن بجانب الموقد، ويدفعن بها إلى داخل الموقد. والآن تأتي واحدة كبيرة على الفناء ومعها الأشكال الكبيرة، العجين فوق ذلك. صبي يفتح باب الفرن على مصراعيه، يتوهج في الداخل، يتوهج، يتوهج، بشكل كبير، حرارة، يدفعن بالصاجات إلى الداخل بأعواد، سيفتح العجين في الداخل وسيبخر الماء، وسيسمّر العجين.

فرانس يقعد نصف قعدة. لقد بلع، هو ينتظر، يكاد أن يكون عنده كلّ شيء من جديد، كان قد تجوّل في الخارج. هو يرتعش، ماذا قال الموت. يجب أن يعرف ما قاله الموت. يفتح الباب على مصراعيه. الآن ستقع الواقعة. المسرح، إنه يبدأ. أعرف أنا هذا. لودرز، أنا انتظرت هذا.

ويدخلون. تمّ انتظارهم بارتعاش. ما بال لودرز. أعطى فرانس إشارة. ظنّ المرء أنّ صدره ضاق من الاستلقاء أفقياً، على أنه لا يريد إلا أن يستلقي على نحو أعلى ويتصب أكثر. إذ إنّ هؤلاء يأتون الآن. الآن يستلقي هو استلقاء عالياً. هيا يا رجل.

ويأتون فرادى. لودرز، شخص زري، يا له من رجيل قميء. يريد المرء أن يرى ما بال هذا. ويصعد السلم ومعه أربطة الأحذية. أجل، عملنا نحن هذا. المرء ينحطّ في ثيابه الخلقعة، ما زالت الهوة من زمن الحرب، أربطة أحذية، يا سيدتي، وددت أن أسأل مجرد سؤال، ألا يمكنك أن تقدمي لي فنجان قهوة، ماذا عن زوجك. سقط في ساح الحرب؛ يعتمر القبعة: إذن، فليخرج المرء كل ما في جعبته من نقود صغيرة. هذا هو لودرز، كان هذا معي. المرأة لها وجه متوهّج، إحدى وجنتيها ناصعة البياض، إنها تنبش في كيس النقود، هي تنعب وتخرّ. هو ينكش في الصندوق: أداة صفيح عتيقة، يجب أن أندفع راكضاً، وإلا صرخت هذه، على المشى، الباب مضغوط عليه، نزول على السلم. أجل، لقد فعلها. اسرقوا، اسرقوا كثيراً. يعطونني الرسالة، إنها منها، ماذا بي الآن، قطعت ساقاي ذات مرة، قطعت ساقاي، فلماذا، لا أستطيع الوقوف. هل ترغب في كأس كونياك، يا بيبركوبف، إنه لمصاب أليم، لماذا لهذا، لماذا بترت ساقاي، لست أدري. لا بدّ من سؤاله، يجب مبادرته بالكلام. اسمع يا لودرز، صباح الخير، يا لودرز، كيف حالك، ليست على ما يرام، تعال إلى هنا، هيا اجلس على الكرسي، لا تذهب بالله عليك، بأي شيء تبجّحت عليك، بالله عليك لا تذهب الآن.

ترقّب. ترقّب الليل البهيم والسيارات والطرق العامة المتجمدة، وداع الفتاة الصغيرة من والديها، تسافر مع رجل وامرأة وستأقلم هناك، وعليها أن تبقى مصنونة حسنة السلوك، ومن ثمّ سيكون كلّ شيء على ما يرام. ترقّبوا.

راينهولد! آه! رايهولد، يا للشيطان! الخبيث اللئيم، ها أنت إذن، ماذا تريد، أتريد أن تتبجح أمامي، ما من مطرٍ سينظفك وينقيك، أنت، أيها الصعلوك، أنت أيها القاتل، أنت أيها المجرم الرهيب، انزع الغليون من فمك حين تتكلم معي. حسن أنك جئت، لقد افتقدتك، تعال، أنت أيها القدر، لم يقبضوا عليك بعد، ومعك معطف أزرق؟ حاذر فأنت مفقود في هذا. «ما بالك، يا فرانس؟» أنا، أيها الصعلوك؟ لست بقاتل، أنت تعرف من قتلت أنت؟ ومن أراني الفتاة، ومن هو الذي استهان بالفتاة، وعليّ أن أختبئ تحت اللحاف. أنت أيها المتبجح، من كان هذا؟ ومن أجل ذلك ما كان هناك من داعٍ إلى قتلها. «وما الضرر؟ أما كدت تشبعها أنت ضرباً، أنت؟ ومن ثمّ ينبغي أن تكون هناك أيضاً واحدة مؤكدة تضطجع في شارع لاندسبيرغ ما جاءت من تلقاء نفسها إلى المدفن. وماذا الآن؟ الآن لا تقول شيئاً! ماذا يقول الآن السيد فرانس بيبركوف، المهنة مهذار ثرثار؟» ألقيت بي تحت السيارة، وتركت ذراعي يندهس. «هاها، في إمكانك أن تربط ذراعاً من الورق المقوى. حين تكون ثوراً بهذا الشكل وتختلط بي ثور؟» ألا تلاحظ أنك ثور. الآن أنت في بوخ وتلعب دور الرجل المتوحش وصحتي جيدة، فمن هو الآن إذن فدّان؟».

وهاهو يسير، والنار الجهنمية شررها يتطاير من عينيه وينمو له في رأسه قرنان ويصرخ هذا:

«هلا لاكمتني، تعال، أرني ما أنت، يا فرانس، يا فرانس بيبركوف، يا بيبركوف الصغير، ها!» ويطبق فرانس الأجنان. ما كان يجب عليّ أن أفعل شيئاً معه، ما كان ينبغي أن أتقاتل مع هذا. لماذا تمسكت بهذا.

هياً تعال، يا عزيزي فرانس، هياً أظهر من أنت، ألدريك قوة؟»

ما كان ينبغي أن أقاتل. إنه يضايقني ويغضبني، ما زال يستثيرني، ياربي، إنه واحد ملعون، ما كان يصح أن أفعل هذا. لست نداءً لهذا. ما كان ينبغي لي أن أفعل هذا.

«كان يجب أن تتمتع بالقوة يا فرانس؟»

«كان ينبغي إلا أتمتع بأية قوة، ليس تجاه هذا. إني لأرى أن هذا كان خطأً. يا لكل الأشياء التي قمت بها. لبيتعد، فليبتعد هذا عني. إنه لا يذهب.

فليبتعد. أبعادوا -

فرانس يصرخ بصوت عالٍ، يفرك اليدين يائساً. يجب أن أرى شخصاً آخر، لا يأتي شخص آخر، لماذا يبقى هذا واقفاً؟

«أعرف هذا، أنت لا تطيقني، لا أروق لك. ها إن شخصاً آخر قادم على

فوره!»

ترقب، ترقب. السهول الواسعة المنبسطة الصامتة، البيوت المقرمدة المهجورة التي ينبعث منها ضوء ضارب إلى الحمرة. المدن التي تقع على خط حديدي، فرنكفورت على نهر الأودر، جوبين، سومرفيلد، ليكنيتس، بريسلو، المدن تظهر على محطات القطارات، المدن بشوارعها الكبيرة والصغيرة. ترقب عربات الأجرة التي تسير، السيارة الصغيرة المنطلقة المنزقة.

ويذهب راينهولد، ثم يتوقف من جديد وينظر إلى فرانس بعينين يتطاير

الشرر منها: «هيه، من ذا الذي يقدر الآن على شيء ما، من انتصر، يا فرانس؟»

ويرتعش فرانس: لم أنتصر، أعرف هذا.

ترقّب.

يأتي آخر على الفور.

ويجلس فرانس على نحو أعلى، كور القبضة.

قطعة خبز توضع في الفرن. موقد كبير. الحرارة هائلة والفرن يقطع.

يا إيدا! الآن راح هو. حمداً لله، يا إيدا، أنك جئت. أمّا هذا فقد كان أكبر وغد على وجه الأرض. إيدا، إنه لجميل أن تأتي، فقد ضايقتني وأغضبتني هذا واستثارني، ما قولك في هذا، أحوالي ساءت، وأنا قاعد هنا، أنت تعرفين أين هو هذا، بوخ، مستشفى المجاذيب، للمراقبة أو أنني مجنون. تعالي، يا إيدا، لا تديري لي الظهر. ماذا تراها فاعلة؟ إنها تقف في المطبخ. أجل، في المطبخ تقف البنت وهي منصرفة إلى أمور صغيرة، إنها تمسح أطباقاً. لكن لماذا تشني هذه هي هكذا بصورة دائمة، إنها تشني دائماً في الجنب، لكأنها تعاني آلاماً في القطن. لكأن شخصاً ما يضربها ضرباً، على الجنب. بالله عليك لا تضرب، يا رجل، هذا لا إنساني، لا، يا رجل، دع البنت وشأنها، اضرب ما تشاء، أجل، من ذا الذي يضرب هذه، فهذه لا تقدر على الوقوف، استقيمي في وقوفك يا بنت، استديري، انظري إليّ، من ذا الذي يضربك هذا الضرب الشديد.

«أنت، يا فرانس، أنت أمتني ضرباً»

لا لا، لم أفعل هذا، ثبت هذا قضائياً، لم أقم إلا بالضرب والجرح، لم أكن أنا المتسبب في ذلك، لا تقولي هذا، يا إيدا.

«أجل، أنت أمتني ضرباً.»

فرانس يصرخ، لا لا، يحكم الضغط بيده، يضرب بذراعه أمام العينين،

إنه ليرى هذا.

ترقّب، ترقّب الجوّالة الأغرّاب، إنهم يحملون أكياس البطاطا على ظهورهم، شاب يقود عربة يد خلفهم، أذناه بردتا، درجة الحرارة ١٠ تحت الصفر. مدينة بريسلو بشارع شفايدنيتس وشارع القيصر فيلهيلم وشارع كورفورست.

ويتنهد فرانس: في هذه الحال إنه لمن الأفضل أن تكون ميتاً، من ذا الذي يستطيع تحمّل هذا، في هذه الحال ينبغي أن يأتي أحدهم ويقتلني ضرباً، لم أقم أنا بذلك، لم يكن لي علم بهذا. إنه ينحب، يتكلم كلاماً غير واضح، لا يستطيع الكلام. يفهم الممرض أنه يريد شيئاً. يسأل. يقدّم له الممرض جرعة من النيذ الأحمرا الساخن، كلا المريضين الآخرين اللذان كانا في الصالة يصران على أن عليه أن يسخن النيذ الأحمر.

إيدا تواصل الاثشاء. بالله عليك لا تواصلني الاثشاء يا إيدا، كنت أنا، والحق يقال، في تيجل من أجل ذلك، أنهيت عقوبتي. عندئذ لم تعد تشني، عندئذ جلست، عندئذ أخذت تضغط برأسها إلى تحت، وتصبح أكثر ضالة وأكثر سواداً. ها هي تستلقي - في النعش و - لا تتحرك.

التأوه، تأوه فرانس. عيناه. الممرض يجلس إليه ويمسك بيده. على أحدهم إبعاد هذا، النعش ينبغي تنحيته جانباً، لا أستطيع النهوض، ليس في وسعي ذلك.

ويحرّك اليد. أما النعش فلا يتحرّك، يده لا تطاله. عندئذ يبكي فرانس يائساً. ويحملك ويحملك يائساً في ذلك. وفي دموعه وفي يأسه يخنفي النعش. على أن فرانس ظلّ يواصل البكاء.

لكن علام، يا سيداتي ويا سادتي، الذين تقرأون هذا، يبكي فرانس؟ يبكي على أنه يعاني وعلى ما يعانیه وعلى نفسه أيضاً. أنه فعل هذا كله وكان الأمر على هذا النحو، على هذا يبكي فرانس بييركوبف. الآن يبكي فرانس بييركوبف على نفسه.

إنه الظهر الوضاح، في الدار يوزع الطعام، عربة الأكل تتحرك تحت عائدة إلى المصح، المشرفون على المطبخ ومريضان مرضاً خفيفاً من البيت الريفى يدفعونها.

حينئذٍ، وفي الظهر، تكون ميتسي عند فرانس. لها وجه رقيق وهادئ كل الهدوء. تسير في فستان الخروج وتعمتر قلنسوة ضيقة نازلة على الأذنين، وتنظر إلى فرانس ملياً نظرة هادئة رقيقة ومن القلب، كعهده بها حين كان يقابلها في الشارع أو في الحانة. وحين يطلب منها بأن تقترب تقترب هي. ويود أن تعطيه يديها. وتضع يديها كليهما في يديه. كانت تلبس قفازاً جلدياً. هلا خلعت القفازين. تخلعهما، تسلّمه يديها. تعالي يا ميتسي، لا تكوني غريبة هكذا وامنحيني قبلة. عندئذٍ تقترب منه في هدوء اقتراباً وثيقاً وترمقه بنظرات هادئة نابعة من القلب وتقبّله. ابقني هنا، يقول لها، أنا في حاجة إليك. عليك أن تساعدني. لا أستطيع، يا فرانس، فأنا ميتة، وأنت تعرف هذا» هلاً بقيت هنا. «كم كنت أتمنى ذلك، إنما لا أستطيع.» وتقبله ثانيةً. «أنت تعرف، يا فرانس، عن فراينفالدي. أنت لست غاضباً عليّ. ماذا؟».

راحت هي. فرانس يتلوّى. يفتح العينين. لا يستطيع أن يراها. ماذا فعلت أنا. لماذا لم تعد معي. لو أني لم أعرضها على راينهولد، لو أني لم أخالطه. ماذا فعلت. والآن.

وجهه المتقلص تقلصاً مخيفاً يفصح عن لجلجة: عليها أن تعود ثانية. لم يفهم الممرض إلا «ثانية» ويسكب له نبيذاً أيضاً في فمه الجاف المفتوح. يجب أن يشرب فرانس، ماذا تبقى له.

في الحرارة يوضع العجين، العجين يتخمّر، الخميرة تحرّضه، تتشكل فقاعات، الخبز يرتفع، إنه يسمّر.

صوت الموت، صوت الموت، صوت الموت:

ما نفع القوة كلها، ما نفع الاستقامة، أجل، أجل، انظر إليها، أدرك، اندم. ما عند فرانس ينطرح على الأرض.

هنا ينبغي وصف ماهية الألم

هنا ينبغي وصف ماهية الألم. كيف يحرق الألم ويمزق. إذ إن الألم هو الذي قدم ووصل. كثيرون وصفوا الألم في قصائدهم. كل الأيام تشهد المقابر الألم.

هنا ينبغي وصف ما يصنع الألم بفرانس ببيركوف. فرانس لا يحتمل، يستسلم، يرتمي ضحيةً على الألم. في اللهب اللافح ينطرح لكي يتم قتله وتدميره وتحويله إلى رماد. ينبغي الاحتفال بما يصنعه الألم بفرانس. هنا ينبغي الحديث عن التدمير الذي يحققه الألم. كسر، قطع، الطرح أرضاً، تفتيت، هذا ما يفعله.

كل شيء له وقته: خنق وشفاء، تحطم وبناء، بكاء وضحك، شكوى ورقص، بحث وضياع، تمزيق ورفو. آن الأوان للخنق والتمزيق، للشكوى، للبحث والتمزيق.

فرانس يصارع ويتنظر الموت، الموت الرحيم.

هو يفكر، الموت، الرحيم الذي يحسم، يقترب الآن. هو يرتجف حين يعتدل في جلسته عند المساء لكي يستقبله.

للمرة الثانية يصلون إلى هنا هؤلاء الذين طرحوه أرضاً وقت الظهر. يقول فرانس: يجب أن يحدث كل شيء، ها أنا ذا، ماضٍ معكم فرانس بييركوبف، خذوني معكم.

بارتجاف عميق يستقبل صورة لودرز البائس التعيس. راينهولد الخبيث يجرجر خطاه صوبه. بارتجاف عميق يستقبل عبارات إيدا، وجه ميتسي، إنها هي، الآن كل شيء محقق. فرانس بيكي وبيكي، أنا مذنب، لست إنساناً، أنا بهيمة، غول.

مات في هذه الساعة المسائية فرانس بييركوبف، فيما مضى عامل النقل، لصّ يقتحم البيوت، قواد، شخص يقتل ضرباً. شخص آخر مستلقٍ في السرير. الشخص الآخر معه الأوراق الثبوتية نفسها مثل فرانس، مظهره مثل مظهر فرانس، إلا أنه يحمل في عالمٍ آخر اسماً جديداً.

كان هذا إذن تدمير فرانس بييركوبف الذي أردت أن أصفه من خروج فرانس من السجن حتى انتهائه في مستشفى المجاذيب بوخ في شتاء ١٩٢٨-١٩٢٩. الآن أضيف تقريراً أيضاً عن الساعات والأيام الأولى لإنسان جديد يحمل الأوراق الثبوتية نفسها مثله هو.

خروج العاهرة الشريرة، ظفر المضحّي الكبير، الطبال والملوّح بالبلطات

في أرض فضاء جرداء، أمام أسوار المستشفى الحمراء يغطي الثلج الحقول. ها إن الطبول تقرع والقرع يتواصل. خسرت العاهرة بابل، الموت هو الفائز المنتصر وتطبّل هي بذلك.

العاهرة تسب وتشتم وتضح وتصخب ويسيل لعابها وتصرخ: ما بال هذا، أي نفع يعود عليك من هذا الشخص، فرانس بيبركوبف، أرح نفسك منه. صديقك غوتليب شولتسه».

الموت يقرع طبوله: «لا أستطيع أن أرى ما في كأسك، أنت أيها الضبع. الرجل فرانس بيبركوبف هو هنا، وأنا حطّمته تحطيماً كاملاً. لكن بما أنه قوي وطيب فعليه أن يحتمل حياة جديدة، تنحّ عن الطريق، فنحن كلانا لم يعد لدينا هنا أي شيء لنقله».

وبينما هي تعاند وتظلّ ترغى وتزبد يتحرّك الموت ويسير، معطفه الرمادي الضخم يتطاير في الهواء، عندئذٍ تلوح صور ومناظر طبيعية تسبح من حوله وتلفّه من أخمص القدمين حتى الصدر. وصرخات، طلقات، صخب. نصر وتهليل يحفّ بالموت. نصر وتهليل. الحيوان الذي تمطيه المرأة يجفل، يجبّط من حوله.

النهر، البيريزينا، كتائب زاحفة.

سير عسكري على البيريزينا، البرد القارس، الريح الباردة، جاؤوا من فرنسا إلى هذه الناحية، نابليون العظيم يقودهم. الريح تعصف، الثلج يلفّ ويدور، الطلقات تنز. يقتتلون على الجليد، يتدافعون، يسقطون. ودائماً الصيحات: فليعيش القيصر، ليعش القيصر! الضحية، الضحية، هذا هو الموت!

وهدير سكك حديدية، مدافع تدوي، انفجار قنابل يدوية، ستار نارِي، شيمين دي دام ولا نغيارك، أيها الوطن الحبيب، لك أن تطمئن، أيها الوطن الحبيب، لك أن تطمئن. المخابئ ردمت. الجنود خرّوا صرعى. الموت يطوي معطفه، يغني: بلي، بلي.

زحف، زحف. نحن نسير إلى الحرب بخطا ثابتة، يرافقتنا ١٠٠ موسيقار عسكري، حمرة الفجر، شفق، أنت تضيء لنا السبيل إلى الموت المبكر، ١٠٠ موسيقار عسكري يطبلون ويزمرون، خبط وطرق، خبط وطرق، منهم من حالته جيدة، ومنهم من حالته سيئة، منهم من يبقى واقفاً، ومنهم من يخر أرضاً، منهم من يتابع الركض، ومنهم من ينطرح بلا حراك، خبط وطرق، خبط وطرق. الموت يلفّ المعطف ويعني: أجل، أجل.

موقد تتأجج ناره، موقد تتأجج ناره، أمام الموقد تقف أمّ ومعه سبعة أبناء، تأوه الشعب وأنيته من ورائهم، عليهم أن يجحدوا إله شعبهم ويكفروا به. إنهم يتألقون ويقفون حيث هم في سلام. أتريدون أن تجحدوا وتستسلموا؟ الأول يقول لا ويعاني الآلام، الثاني يقول لا ويعاني الآلام، الثالث يقول لا ويعاني الآلام، الرابع يقول لا ويعاني الآلام، الخامس يقول لا ويعاني الآلام، السادس يقول لا ويعاني الآلام، السابع يقول لا ويعاني الآلام. الأم تقف حيث هي وتشجع الأبناء. وأخيراً تقول لا وتعاني الآلام. الموت يلفّ المعطف ويعني: أجل، أجل.

المرأة ذات الرؤوس السبعة تشدّ الحيوان بقوة، الحيوان لا ينهض. زحف، زحف. نحن نسير إلى الحرب بخطى ثابتة، يرافقتنا ١٠٠ موسيقار عسكري يطبلون ويزمرون، خبط وطرق، خبط وطرق، بعضهم حاله تستقيم، وبعضهم حاله في عوج، بعضهم يظلّ واقفاً، وبعضهم يخرّ، بعضهم يواصل الركض، وبعضهم ينطرح بلا حراك، خبط وطرق، خبط وطرق.

تهليل وصراخ، السير سداس سداس ومثنى مثنى وثلاث ثلاث، الثورة الفرنسية تزحف، الثورة الروسية تزحف، الحروب الأهلية تزحف، القائلون

بإعادة التعميد، هم كلهم يسيرون وراء الموت، في أثره تهليل، إنه سير إلى الحرية، إلى داخل الحرية، العالم القديم يجب أن ينهار، استيقظ أنت يا نسيم الصباح، خبط وطرق، خبط وطرق، سداس سداس، مثنى مثنى، ثلاث ثلاث، أيها الإخوة، هيا إلى الشمس، إلى الحرية، أيها الإخوة، إلى أعلى صوب النور، من الماضي المظلم ينبج نور المستقبل أماننا ساطعاً، بخطا ثابتة وإلى اليمين واليسار واليسار واليمين، خبط طرق، خبط طرق.

الموت يطوي المعطف ويضحك ويتألق ويغني: أجل، أجل.

بابل العظيمة تستطيع أن تشد حيوانها أخيراً إلى فوق، ويأتي سائراً بخطا متثاقلة، ينطلق مسرعاً فوق الحقول، يغوص في الثلج. تستدير وتولول صوب الموت المتألق. في خضم الهدير يتراخي جسده ويحز، المرأة تترنح فوق عنق الحيوان. يزرر الموت معطفه. يغني وتهلل أساريه: أجل، أجل. الحقل يهس: أجل، أجل.

كلّ بداية صعبة وأول الرقص حنجلة

في بوخ انهال موظفو الجنائية والأطباء بالأستلة على الرجل الطريح الفراش. شاحب شحوب الموتى ذلك الذي كان يدعى ذات يوم فرانس بييركوبف، حين أخذ يتكلم ويتطلع، فموظفو الجنائية لكي يستدرجوه إلى البوح بكل ما أذنب، والأطباء بسبب التشخيص. ومن موظفي الجنائية سمع هذا الرجل أن لديهم واحداً اسمه راينهولد كان له فيما مضى دور في حياته، في حياته السابقة. إنهم يحكون أيضاً عن براندينبورغ وعمّا إذا كان هو يعرف شخصاً يدعى موروسكيفيتش وأين يقيم هو. تركهم يحكون له هذا عدة مرات وهو هادئ كل الهدوء في أثناء ذلك. تركوه يوماً واحداً هادئاً كل الهدوء.

إنه حصّاد يدعى الموت. الآن يشحذ السكين، إنها تقطع الآن على نحو أفضل.
احترسي، أيتها الزهرة الزرقاء الصغيرة.

أمام المأمور الجنائي أدلى في اليوم التالي بأقواله، لا علاقة له بالقضية القديمة في فراينفالددي. فإن قال راينهولد هذا شيئاً آخر - أخطأ هو. على الرجل الشاحب المتلاشي أن يجمع إثبات عدم وجوده في مكان الجريمة. المسألة تستغرق أياماً حتى يتأتى هذا. كل شيء يأبى في الرجل أن يرجع من هذه الطريق. كأن هذه مسدودة. ويفصح متنهداً عن بعض الأحداث. يتنهّد، عليهم أن يتركوه. وينظر أمامه متخوفاً مثل كلب. بيبركوبف القديم انتهى، بيبركوبف الجديد ينام وما زال نائماً. فهو لا يجرم راينهولد بكلمة واحدة. نحن كلنا نزرع تحت رحمة فأس واحدة. نحن كلنا نزرع تحت رحمة فأس واحدة.

المعلومات تصدق، تتطابق مع أقوال ولي نعمة ميتسي وابن أخته. ويزداد الأطباء تفههماً. فالتشخيص جامود (إغماء تخشبي) يفقد معناه. كانت صدمة نفسية، وفيما بعد نوعاً من شبه الوعي، فالرجل من الناحية العائلية ليس نظيفاً ويظهر عليه أنه على علاقة حميمة بالكحول ليكون الخطاب بالكاف. وأخيراً فإنه لسيان الجدال كله حول التشخيص، وبالتأكيد لم يمارض الرجل، فقد اختلّ عقله، ولم يكن مردّ هذا إلى أبوين سيئين، وهذا هو المهم. إذن إنها الآن النهاية، الخاتمة، وتسري عليه بخصوص إطلاق النار في حانة ألكسندر الفقرة ٥١. في حب استطلاع ما إذا كنا نحن سنسترجع هذا.

الرجل المترعزع المسمّى على اسم المتوفى بيبركوبف لا يعرف كيف يلفّ ويدور في المنزل هنا وهناك، يتولى بعض الشيء مهمة حامل طعام وما عادوا يسألونه، لم يعرف أنه ما زال يشاع خلفه أمر عظيم. وموظفو الجنائية ما زال يشغل

بالهم ما كان من أمر ذراعاه، أين فقدته وأين كان في المعالجة. ويستفسرون في مستشفى ماجديبورغ، إنها في الحقيقة أحاديث مكررة قديمة، على أن رجال الشرطة تهمهم قصص قديمة مكررة حتى لو أنه مضى عليها عشرون سنة. على أنهم لا يتوصلون إلى أي شيء، نحن والحق يقال في النهاية البهيجة، فهيربيرت هو أيضاً قواد، الشباب كلهم عندهم صديقات حلوات ظريفات يحملوهن كل شيء، ومن هنا يريدون أن يجيئهم المال كله. وبهذا لا يصدّق هذا أي من رجال الشرطة، ولربما كان لهؤلاء المال من الفتيات العشيقات بين الحين والآخر، لكنهم كانوا يستقلّون بين وقت وآخر في عملهم. وبالنسبة لذلك كان الإخوة يلتزمون الصمت.

العاصفة المصحوبة بالرعد والبرق والمطر، العاصفة أيضاً تمرّ بالرجل، ينبغي أن يغفر له هذه المرة كل شيء. فقد حصلت أنت هذه المرة على تذكرة عودة، يا ولدي.

هذا هو اليوم الذي سيغادر فيه المستشفى ويخلون فيه سبيله. الشرطة لا تتركه في ريبة، ستراقبه أيضاً في الخارج. ويؤتى من الحجرة بما كان ملكاً لفرانس الشيخ، ويستلم باليد كل شيء، يرتدي الأشياء ثانية، مازال هناك دم على السترة، آنذاك ضربه شرطيّ بالهراوة على الرأس، الذراع المستعار لا يريده، الشعر المستعار هو لك أيضاً، في إمكانك أن تحتفظ به لنفسك حين تمثل هنا ذات يوم، يوجد عندنا مسرح على مدار الأيام، إلا أننا لا نضع عندئذ شعراً مستعاراً، لديك تصريح إخلاء سبيل، وداعاً، أيها السيد كبير المرضين، زرنا في يوم من الأيام حين يكون في بوخ طقس جميل، إن شاء الله، شكراً جزيلاً، سأفتح أنا لك.

هذا، وأخيراً فرغنا من هذا أيضاً.

وطني العزيز، لك أن تطمئن، عيناى مفتوحتان ولن أقع فى الأحبولة

للمرة الثانية يغادر الآن بيبركوبف منزلاً كان قد سجن فيه، نحن فى نهاية طريقنا الطويل، ونخطو معاً مع فرانس خطوة وحيدة صغيرة.

المنزل الأول الذى غادره كان السجن فى تيجل. خائفاً وجلاً وقف عند السور الأحمر، وحين انتزع نفسه منه وأقبلت الحافلة رقم ٤١ وسارت به إلى برلين، عندئذ لم تتصب البيوت هادئة، كانت السطوح تستقط فوق فرانس، كان عليه أن يمشي طويلاً ويجلس حتى صار كل شيء حوله هادئاً وكان هو قوياً بما فيه الكفاية لبقى هنا ويبدأ من جديد.

الآن هو واهن ضعيف. البيت الدائم لم يعد يستطيع أن يراه. لكن أبصر كيف ينزل عند محطة شتتين، محطة قطار الضواحي، وأمامه يقع فندق بالتكوم الكبير، يتحرك - لا شيء. البيوت لم تحرك ساكناً، السطوح ثابتة، فى إمكانه أن يتحرك تحتها باطمئنان، وليس من داع إلى أن يتسلل إلى أفنية مظلمة. أجل، هذا الرجل - نريد أن نسميه كارل بيبركوبف لكي نميزه عن الأول. فرانس حمل عند التعميد الاسم الثانى أيضاً، على اسم جدّه لأمه -، هذا الرجل يطلع الآن ببطء فى شارع الإنفاليدين (شارع المصابين فى الحرب)، ماراً بشارع أكبر باتجاه شارع بروين، عبر السوق المسقوفة الصفراء ويشاهد فى هدوء الحوانيت والبيوت وكيف يتجول الناس هنا وهناك جرياً، ولزمن طويل لم أر هذا كله، وهأنا الآن عدت. صاحبكم بيبركوبف عاد.

فلتقرب، فلتقرب السهول الواسعة والبيوت القرميدية الحمراء التى يشعل فيها ضوء. فليقترب الجواله الذين يحسون بالبرد ويحملون الأكياس على الظهر. إنه لقاء، ليس أكثر من لقاء.

يجلس في شارع برونين، في حانة ويتناول جريدة. ترى أين كتب اسمه أو اسم ميتسي أو هيريرت أو راينهولد؟ لا شيء. إلى أين ينبغي أن اذهب، إلى أين سأمضي؟ إيفا، أريد أن أرى إيفا.

لم تعد تسكن عند هيريرت. المؤجرة تفتح. هيريرت ضاع، الشرطة فتشت كل أغراضه، لم يعد، الأغراض فوق على الأرض، يجب بيعها، سأسأل. فرانس كارل يلتقي إيفا في الغرب في منزل ولي نعمتها. تستقبله. إنها تستقبل فرانس كارل بيبركوبف عن طيبة خاطر.

«أجل، هيريرت ضاع، فقد حكم عليه بالسجن ستين، سأبذل لأجله ما في وسعي، وعنك سألوا أيضاً كثيراً، أولاً في تيجل، وماذا تعمل، يا فرانس؟» «أحوالي على خير ما يرام، غادرت مستشفى بوخ، وأعطوني رخصة الصيد» «قرأت هذا حديثاً في الصحيفة» «يا لكل الأشياء التي يجب أن يكتبها هؤلاء. لكنني ضعيف، يا إيفا. أكل المستشفى هو أكل مستشفى».

إيفا ترى نظرتة، نظرة هادئة، قائمة، باحثة لم يسبق لها أن رأتها عند فرانس. لم تقل أي شيء عن نفسها، فقد حدث لها شيء ما يهّمه هو، إلا أنه مشلول جداً، وتبحث له عن غرفة، هي تساعد، يجب ألا يفعل شيئاً. هو نفسه يقول كيف يجلس هو في الغرفة وهي تريد الذهاب. لا، الآن لا أستطيع أن أفعل أنا شيئاً.

وماذا يفعل هو فيما بعد؟ بدأ رويداً رويداً يخرج إلى الشارع، إنه يتجول في برلين.

برلين، ٥٢ درجة عرض شمالي، ١٣ درجة طول شرقي، ٢٠ محطة قطار سريع بدرجة أولى فقط. ١٢١ قطار ضواحي، ٢٧ سكة حديدية دائرية،

١٤ مترو، ٧ محطات مناورة، حافلات كهربائية، حافلات كهربائية سريعة، أوتوبيسات (سيارات كبيرة)، لا مدينة إلا مدينة قيصر، لا مدينة إلا مدينة فيينا. اشتياق النساء في ثلاث عبارات، ثلاث عبارات تتضمن كل اشتياق النساء. تصوّروا أن شركة نيويورك تعلن عن مستحضر تجميل يمنح شبكية مائلة إلى الصفرة، ذلك اللون النضر المائل إلى الزرقة الذي لا يتمتع به إلا الشباب. إنَّ أجمل حدقة من الأزرق العميق إلى البني المخملي يمكن الحصول عليها من أنابيب. ما الداعي إلى إنفاق الكثير من المال على تنظيف الفرو.

يتمشى في المدينة. ها إنَّ أشياء كثيرة يمكن أن تجعل شخصاً ما صحيح الجسم إن كان هناك القلب السليم.

بادئ ذي بدء ساحة أليكس. هذه مازالت موجودة. لا شيء فيها يستحق النظر، كان والحق يقال برد شديد طوال الشتاء، في ذلك الوقت لم يعملوا شيئاً وتركوا كل شيء على ما هو؟ المدك الكبير يقف الآن في ميدان كنيسة جورج، هناك يحفرون الركاب من المتجر الكبير هان، قضبان كثيرة تمّ قرنها هناك، ربما ستكون هناك محطة قطارات. وما عدا ذلك فإنَّ ساحة أليكس حيّة فيها الكثير الكثير، أما الشيء الأساسي فهو: أنها موجودة. وها إنهم ما زالوا يسرون إلى هذه الناحية، وإنها لقدارة رهيبه، إذ إنَّ رئيس بلدية برلين نبيل غاية النبل وإنساني، فيترك الثلج كله يذوب من تلقاء نفسه تدريجياً بحيث إنه ما من أحد يلمس ذلك. حين تسير السيارات يمكنك أن تقفز إلى الدهليز التالي، وإلا تلقّيت مجاناً كمية من الزباله تجاه القبة الأسطوانية الرسمية وعرضت نفسك أيضاً لشكوى بسبب اصطحاب ملكية عامة. مقهانا القديم «موكا فيكس» مغلق، وعند الناصية حانوت جديد اسمه «مكسيكو»، حدث مثير عالمي: رئيس الطهاة عند المشواة في النافذة، منزل هنود حمر من الجذوع، وحول ثكنة ألكسندر أقاموا سوراً، من يدري ماذا يجري هنا، هاهم

يقوّضون حوانيت. والحافلات الكهربائية مكتظة بالبشر، فهؤلاء جميعاً لديهم ما يعملونه، وتذكرة الركوب لا تزال تكلف ٢٠ بفينيكاً، خمس مارك الرايخ نقداً؛ وإذا ما شاء المرء فإنّ في مقدوره أن يدفع أيضاً ٣٠ بفينيكاً أو أن يشتري سيارة فورد. السكة الحديدية المعلقة تسير أيضاً، هنا لا يوجد درجة أولى ولا درجة ثانية، درجة الثالثة فقط، هنا يجلس الجميع جلوساً مريحاً على مقاعد منجّدة مريحة، هذا إذا لم يكونوا وقوفاً، وهذا أمر يحدث. نزول تحكّمي على الخط الحديدي ممنوع، الغرامة ١٥٠ ماركاً؛ وإذا لم يخطر بباله أن ينزل عرض نفسه لصدمة كهربائية. يستشير الإعجاب حذاء عني به بصورة دائمة بهادة إيجو لتنظيف الأحذية. الرجاء الصعود والنزول بسرعة، عند الازدحام، التقدم إلى الممر الأوسط.

هذه كلها أشياء جميلة يمكنها أن تبقى شخصاً ما واقفاً على قدميه، حتى لو أنه كان ضعيفاً بعض الشيء، في حال أنّ القلب وحده سليم. ليس الوقوف في المكان عند الباب. وإنه لفي صحة فرانس كارل بيبركوبف، ليت الجميع كانوا على شاكلته في الثبات والكياسة والذوق. وما كان الأمر جديراً أيضاً على الإطلاق بأن تروى عن رجل قصة طويلة هذا الطول لو لم يقف ذات مرة على قدميه وقفة ثبات. وبصفة بائع كتب متجول وقف ذات يوم في طقس ماطر رهيب وأبرق وأرعد على إيراداته السيئة، يتقدم قيصر فلايشلين من عربات يد الكتب. استمع في هدوء إلى العاصفة الرعدية، ومن ثمّ نقر على كلا كتفي الرجل المبتلّين وقال: «دع عنك العاصفة الرعدية، ولتكن عندك شمس في القلب»، وبذلك واساه واختفى. كان هذا دافعاً إلى قصيدة الشمس المشهورة. مثل هذه الشمس، وطبعاً شمس أخرى، كانت أيضاً في أعماق بيبركوبف، وكأس صغيرة من العرق إضافة إلى ذلك وكثير من خلاصة الشعير المنقوع يقلّب في الحساء، فهذا يوصله ببطء إلى الدام (جسر السكة الحديدية). بهذه الأسطر أسمح لنفسي

أيضاً بأن أقدم لكم نصيباً من مقياس حجم الخمر لعام ١٩٢٥ من حديقة التوابل التابينية بسعر سخّي قدره ١ مارك و ٩٠ لكل ٥٠ زجاجة بما فيها اللف والصر من هنا، أو ١,٦٠ مارك لكل زجاجة دون كأس وصندوق أقبل إرجاعهما بالسعر المحسوب. دواء ديجودول في حال تصلب الشرايين. لم يكن بيركوبف يعاني تصلب الشرايين، لم يكن يحسّ إلا بالضعف، وقد أفرط في الصوم في بوخ، فقد قارب هذا حد الموت جوعاً، وفي هذه الحال تأخذ المسألة وقتاً حتى يملأ المرء بطنه. ولهذا فهو لا يحتاج إلى أن يبحث أيضاً عن معالج اختصاصي بالمغناطيس إلى حيث تريد إيصاله لأنه ساعدها ذات مرة.

و حين تذهب إيضا معه ذات مرة بعد أسبوع إلى قبر ميتسي تصير لديها على الفور مادة للاستغراب، وتلاحظ كيف تتحسن حاله. لا شيء من البكاء، باقة من زهور السوسن المعتم فقط يضعها ويدلك على الصليب، ويتأبط ذراع إيضا ويمضي معها.

قبالتها يجلس هو في محل فطائري وحلواني، يأكل فطيرة بالقشدة ومكسرات اللوز، إجلالاً لميتسي لأنها لم تستطع أن تأخذ كفايتها من هذا، والحق أنها شهية، إلا أنه لم تكن لها الشهرة الزائدة. حسبنا أننا كنا عند عزيزتنا ميتسي الصغيرة، والمفروض إلا يحدث في المقابر أكثر مما ينبغي، في هذه الحال يصاب المرء بالزكام، وربما نعيد الكرّة في العام القادم حين يكون عيد ميلادها. أنت ترين يا إيضا، أنا في حاجة إلى ذلك، في إمكانك أن تصدقيني، في حاجة إلى أن أسير إلى ميتسي، وبالنسبة إلي هي موجودة دون مقبرة، وراينهولد أيضاً، أجل رايينهولد، فهذا لن أنساه، وإن نمت لي ذراعاً أيضاً من جديد، فهذا لن أنساه. هناك أشياء، عندها ينبغي أن يكون المرء كومة من سقط المتاع، لا إنساناً إن نسي المرء هذه. على هذا النحو يتحدّث بيركوبف ويأكل فطيرته.

أرادت إيفا فيما مضى أن تصبح صديقتها، أما الآن، الآن فهي لم تعد ترغب في ذلك. قضية ميتسي، ومن ثمّ مستشفى المجاذيب، كان هذا كثيراً عليها، والطفل الذي كانت انتظرته، لم يأتِ أيضاً، أسقطت، كان سيكون جميلاً غاية الجمال، ما كان ينبغي أن يكون، لكن في النهاية إنه أيضاً الأفضل وبصورة خاصة حيث لا يكون هيربيرت موجوداً، وإنه لأفضل أيضاً بعشر مرات بالنسبة إلى زبونها الدائم إلاّ تنجب طفلاً، إذ إنه اتضح للرجل الطيب في النهاية أن الطفل يمكن أن يكون من شخص آخر، وهو معذور في ذلك.

على هذه الحال يجلسان في هدوء جنباً إلى جنب ويتذكران الماضي ويفكران بالمستقبل، يأكلان فطيرة بالقشدة ومكسّرات اللوز وبسكويتاً مدهوناً بالشوكولاته والقشدة.

ثابت الخطوة وإلى اليمين واليسار وإلى اليمين واليسار

لا تزال نرى الرجل في القضية ضد راينهولد والسمكري ماتر، أو أوسكار فيشر بسبب القتل العمد والمساعدة على إخفاء جريمة قتل إيميلي بارسونكي من مدينة بيرناو في الأول من أيلول سنة ١٩٥٨ في فراينفالد بالقرى من برلين. بيركوبف ليس متهماً. الرجل الأقطع يثير الاهتمام بصورة عامة، محط أنظار كبير، قتل معشوقته، الحياة الجنسية في عالم المجرمين، أصيب بعد موتها بمرض عقلي، حامت حوله شبهة الاشتراك في الجريمة، مصير مأساوي.

في المحاكمة يدلي الرجل الأقطع بأقواله، الرجل الذي، وكما تقول التقارير، استردّ صحته الآن تماماً، وصار في الإمكان سماع أقواله: الميتة، إنه يسميها ميتسي، لم تكن لها علاقة براينهولد، راينهولد وهو كانا صديقين حميمين، إلاّ الآن راينهولد كان عنده نزوع رهيب غير طبيعي إلى النساء، وهذا ما كان. ترى

هل كان راينهولد سادياً بالفطرة، هو لا يعرف. هو يفترض أن ميتسي ستكون قد قاومت راينهولد في فراينفالد، وهنا أقدم هو على ذلك في غضبه. هل تعرف أنت شيئاً عن شبابه؟ لا، آنذاك لم أكن قد عرفته. ألم يحك لك أيضاً أي شيء؟ هل كان يشرب؟ أجل، وبهذا كان الأمر على هذا النحو: في السابق لم يشرب، لكن أخيراً بدأ هو بذلك، كم، هو لا يعرف، فيما مضى كان يصعب عليه أن يتحمّل جرعة بيرة، اقتصر دائماً وأبداً على عصير الليمون والقهوة.

يستمرّ في عدم التفوه بكلمة واحدة عن راينهولد. لا شيء عن ذراعه، لا شيء عن خصومتها، عن نزاعهما، ما كان ينبغي لي هذا، ما كان ينبغي أن أخالط هذا. في صالة النظارة تجلس إيفا وعدد من عصابة بومز. راينهولد وبيركوف يشخص كلّ منهما إلى الآخر. لا شفقة ولا رأفة عند الأقطع على من هو في قفص الاتهام يتوسّط رقيبى الشرطة، فهذا حياته في خطر، تعلق غريب ليس إلا. كان عندي رفيق، لا وجود لمن هو أحسن منه. عليّ أن أنظر إليه، أن أديم النظر إليه، لا شيء أهمّ إليّ من النظر إليك. العالم مصنوع من سكر وقذارة، أستطيع أن أراك من دون أن تطرف عيناى، أنا أعرف من أنت، ألقاك هنا، يا عزيزى، في قفص الاتهام، في الخارج ألقاك آلاف المرات أيضاً، لكن من جراء ذلك لن يصير قلبي حجراً.

راينهولد ينوي إذا ما اعترض سبيله شيء ما في أثناء المحاكمة أن يفضح صناعة بومز كلها، يريد أن يكيد لهم كلّهم بمكيده إذا ما استثاروه، إنه يحتفظ بورقة لعب ليستخدمها في حال أن بييركوف أراد أن يتجح أمام القاضي، هذا الكلب. بسبب ما نزل به. لكن من بعد ذلك تجلس عصابة بومز في قاعة النظارة على المقاعد الخشبية، هذه هي إيفا، ها هم بعض الموظفين الجنائين. ورجال الشرطة نعرفهم. وإذا به يصبح أكثر هدوءاً، يتردد ويتروى. ليس

للمرء إلا أصدقاؤه، وفي يوم من الأيام سيخرج المرء من هنا، وهنا في الداخل يحتاج المرء إليهم أيضاً، ورجال الشرطة لا نبعث السرور في نفوسهم أبداً. ثم يتصرف ببيركوبف باستقامة تدعو إلى الاستغراب. يقال إن هذا أمضى عقوبة سجنه في بوخ. عجيب وغريب كيف تغير هذا المغفل، نظرة غريبة لكأنه لا يستطيع أن يقلب عينيه، يبدو أنهما فقدتا عنده في بوخ القدرة على الحركة، ويتباطأ هذا التباطؤ في الكلام، ما زال ينقصه شيء ما فوق. ببيركوبف يعرف، حين لا يؤدي راينهولد أقواله أنه لا يدين لهذا بأي شيء.

عشر سنوات سجن لراينهولد، قتل العمد بفعل الهيجان والكحول، طبع شهواني، شباب مشرد. ويقبل راينهولد العقوبة.

في غرفة النظارة يصرخ شخص ما عند إعلان الحكم ثم يبكي بكاء عالياً. إنه إيفا، تذكر ميتسي استحوذ عليها. ببيركوبف يستدير من على مقعد الشهود حين يسمعها. ثم ينهار في داخله أيضاً انهياراً شديداً، ويضع يده على جبينه. إنه حاصد يدعى الموت، أنا صديقتك، في لطف وحلاوة جاءت إليك، حمتك، وأنت، يا للعار، اصرخ يا للعار.

بعد القضية مباشرة يعرضون على ببيركوبف وظيفة مساعد بواب في شركة متوسطة الحجم. هو يقبل. ما من شيء هنا لمواصلة الحديث عن حياته.

نحن في نهاية هذه القصة. صارت طويلة، على أنه كان لا بد أن تطول وتزداد طولاً إلى أن بلغت تلك القمة، نقطة التحول التي يسقط منها أول ما يسقط ضوء على الكل.

مشينا في شارع عريض مظلم على جانبيه أشجار، ما من مصباح أضواء في بادئ الأمر، عرف الناس فقط، هنا يكون المشي على طول، وشيئاً فشيئاً تصبح

الدنيا أكثر ضياءً، ويتدلى أخيراً مصباحاً هناك، ثم يقرأ المرء في النهاية تحته لوحة الشارع. كانت عملية كشف وإمالة اللثام من نوع خاص. فرانس بيبركوبف لم يمش في الشارع مثلنا. انطلق راكضاً فيه، هذا الشارع المظلم، واصطدم بأشجار، وكلما جدّ في السير اصطدم بأشجار. كانت الدنيا قد أظلمت، وحين كان يصطدم بالأشجار كان يغمض العينين مرعوباً، وكلما ازداد اصطدامه بالأشجار ازداد رعباً عند إطباق عينيه. برأس خرّمته الثقوب، ولم يكن له من الوعي إلا القليل، وصل في نهاية المطاف. حين سقط أرضاً فتح عينيه. عندئذ كان نور المصباح يسطع فوقه، وكان في الإمكان قراءة اللافتة.

وقف في النهاية مساعد بواب في شركة متوسطة الحجم. لم يعد يقف وحيداً على ساحة ألكسندر. هناك من كان على يمينه وعلى يساره، ومنهم من كان يسير أمامه، ومنهم من كان يسير وراءه.

مصائب كثيرة تنجم عن ذلك حين يسير المرء وحيداً. وإذا ما كان غير واحد فإنه لأمر آخر. على المرء أن يعتاد أن يصغي إلى الآخرين، إذ إن الشيء الذي يقوله الآخرون يهمني أيضاً. عندها أدرك أنا من أنا وما أستطيع القيام به. في كل مكان من حولي تخاض معركتي، عليّ أن أحترس، قبل أن أنتبه يأتي دوري. إنه مساعد بواب في إحدى الشركات. أي شيء هو المصير؟ واحد هو أقوى مني. حين نكون اثنين فإنه لأصعب أن يكون أقوى مني. حين نكون عشرة، فإنه لأصعب بكثير. وحين نكون ألفاً أو مليوناً، عندها يكون صعباً كل الصعوبة.

على أنه سيكون أيضاً أجمل وأفضل أن تكون مع آخرين. في هذه الحال أحسّ وأعرف كل شيء مرة أخرى خير المعرفة. إن سفينة كبيرة قد لا ترتطم بالقاع بدون مرساة كبيرة. وإن إنساناً ما لا يمكنه أن يكون من دون ناسٍ

آخرين كثيرين. ما هو صحيح وغير صحيح سأعرفه الآن على نحو أفضل. انطلت علي كلمة ذات مرة، كان عليّ أن ادفع ثمنها غالياً، مرة أخرى لن يحدث هذا لبيركوبف. ها إن العبارات تتراكم على شخص ما، على المرء أن يحترس من الإلندهمس. إن لم تنتبه إلى الحافلة هرستك هرساً. فأنا لا أثق على فوري الثقة الشديدة بأي شيء في الدنيا. وطني الغالي، يمكنك أن تطمئن، عيناى مفتوحتان، ولن أنخدع بمثل هذه السرعة.

كثيراً ما يسرون مارين بنافذه بالرايات والموسيقا والأناشيد، بيبركوبف يرسل نظره ببرود صوب بابه إلى الخارج ويبقى في البيت وقتاً طويلاً هادئاً مطمئناً. سدّ فمك وثبّت خطاك، شارك في السير معنا نحن الآخرين. فإذا ما كان لزاماً عليّ أن أسير كان لا بدّ لي من ادفع رأسي بعد ذلك ثمناً لهذا الذي تصوّره الآخرون. لهذا أراجع الحساب بادئ ذي بدء لكلّ شيء، وإذا ما آن الأوان وناسبني ذلك، سأهتدي بذلك. فالإنسان منح العقل، والشيران تشكّل عوض ذلك نقابة.

يؤدي بيبركوبف عمله مساعد بواب، يستلم الأرقام ويراقب السيارات، يرى من يدخل ومن يخرج.

كن يقظاً، كن يقظاً، شيء ما يجري في العالم. الدنيا ليست مصنوعة من سكر. حين يرمون قنابل غازية لا بدّ أن أحتقن أنا، ولا يدري المرء لماذا رموا، لكن ليس هذا هو المهم، فالمرء لديه وقت لكي يهتمّ بذلك.

حين تنشب الحرب، ويستدعونني، ولست أدري لماذا، والحرب واقعة أيضاً من دوني، فسيكون الذنب ذنبي، وأنا أستحق ما نزل بي، اصحّ، اصحّ، ليس المرء وحيداً. قد يمطر الجو ثلجاً وقد تمطر السماء. وليس المرء بقادر على أن

يدافع عن نفسه، لكنه يستطيع أن يقاوم آخرين كثيرين. في هذه الحال لن أعاود الصراخ كما في السابق: المصير، المصير. ينبغي إلا يبجل المرء هذا على أنه مصير، يجب أن يراه المرء، أن يلمسه ويحطمه.

اصح، افتح العينين، تمّ الانتباه، ألف مرتبطون معاً ارتباطاً وثيقاً، فمن لا يصحو يصبح موضع السخرية أو يغلب على أمره وينهزم.

الطبل يحدث زوبعة وراءه. سير، سير. نحن نمضي إلى الحرب ثابتي الخطأ، يصحبنا مئات الموسيقيين العسكريين، حمرة الفجر، الشفق، أنتما تضيئان لنا السبيل إلى الموت المبكر.

بيركوبف عامل صغير. نحن نعرف ما نعرفه، كان علينا أن ندفع

الثلثن غالباً. ★ ★

إنه السير إلى الحرية، إلى داخل الحرية، يجب أن ينهار العالم القديم، اصح، نسيم الصباح.

قيام بالخطوة يميناً شمالاً، يميناً شمالاً، سير، سير، نحن ماضون إلى الحرب، يصحبنا مئات الموسيقيين العسكريين، يطبلون ويزمرون، فيديو (يا سلام يا سلام)، منهم من يسير قدماً، ومنهم من يسير في طريق أعوج، منهم من يبقى واقفاً ومنهم من يسقط، منهم من يتابع الركض ومنهم من يرقد في صمت، فيديو فيديو (يا سلام يا سلام).



الهيئة العامة السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

مقدمة ٥

الكتاب الأول

- في الحافلة الكهربائية ٤١ إلى المدينة ٧

- ليس من حضور بعد ١٢

- التعليم من خلال مثال تسانوفيتش ١٥

- اکتمال الحكاية بطريقة غير متوقعة وبذلك تحققت تقوية المفرج عنه ٢٢

- ميل بلا رغبة، فيما بعد هبوط شديد في الأسعار، هامبورغ مستاءة، لندن أضعف ... ٢٨

- انتصار على طول الخط! فرانس بيبركوبف يشتري شريحة لحم عجل ٣٦

- والآن يعاهد فرانس العالم كله ونفسه أن يبقى مستقيماً في برلين، بهال وبلا

مال. ٤٢

الكتاب الثاني

- فرانس بيبركوبف يدخل برلين ٤٨

- ساحة روزيتال تأخذ بأسباب الحديث ٥٠

- ٥٤ حانة صغيرة في ساحة روزيتال
- فرانس بييركوف يبدأ بحثه، على المرء أن يكسب مالاً، ومن دون مال لا يستطيع الإنسان أن يعيش. من سوق الفخار الفرنكفوري ٦٠
- ٧٥ لينا تقول رأيها للصبيان اللوطيين
- صالة الرقص هازينفايدي، عالم جديد، فإن لم يكن هذا، سيكون ذلك، وعلى المرء إلا يعقد الحياة أكثر مما هي عليه ٨٦
- فرانس رجل ذو شهامة إنه يعرف أي شيء هو مطالب به ١٠٠
- مقاسات فرانس بييركوف هذا. في إمكانه أن يكون نداءً لأبطال قدماء. ١١٤

الكتاب الثالث

- ١٢٣ في الأمس القريب مازالوا على أفراس شاحخة الرأس
- اليوم طلق ناري اخترق الصدر ١٢٩
- غداً إلى القبر البارد، لا، سنعرف كيف نتمالك أنفسنا. ١٣٥

الكتاب الرابع

- ١٤٣ حفنة من البشر حول أليكس
- بييركوف في غيبوبة المخدر، فرانس ينزوي، فرانس لا يريد أن يرى شيئاً ١٥٠

- فرانس يتراجع، فرانس يعزف لليهود مارش الوداع بالبوق ١٥٣
- إذ إنَّ ما يحدث للإنسان يحدث للبهيمة أيضاً، فكما تنفق هذه يموت هو أيضاً .. ١٦١
- حديث مع أيوب، الأمر وقفٌ عليك، يا أيوب، أنت لا تريد ١٧٠
- وإنَّ للجميع نفساً واحداً، والإنسان لم يعد له شيء اللهم إلا المواشي ١٧٦
- نافذة فرانس مفتوحة، كما أنَّ أموراً مضحكة تحدث أيضاً في الدنيا ١٧٨
- بسرعة بسرعة بسرعة، الجواد الصغير يعدو من جديد. ١٩١

الكتاب الخامس



- لقاء على ساحة أليكس، برد قارس. في السنة التالية، سنة ١٩٢٩ سيكون الطقس أشدَّ برودة ١٩٩
- فترة من الزمن لا شيء، استراحة، الناس يجنون ربحاً كثيراً ٢٠٨
- نخاسة مربحة ٢١٧
- فرانس يفكر بالنخاسة وفجأة لم يعد يرغب، إنه يريد شيئاً آخر ٢٢٧
- أنباء محلية ٢٣٢
- فرانس يتخذ أسوأ قرار. إنه لا يلاحظ أنَّ الأشواك تحيط به وأنه يجرّ على نفسه وبالاً ٢٣٦
- الأحد، الثامن من نيسان سنة ١٩٢٨. ٢٤٥

الكتاب السادس

- الحرام يثمر ثمراً وأي ثمر ٢٦٨
- الأحد ليلاً، الاثنين التاسع من نيسان ٢٧٣
- ليس فرانس بمغلوب على أمره، ولن ينالوا منه بالضربة القاضية ٢٨٦
- انهض أيها الروح الضعيف، وقف على قدميك ٢٩٢
- فتح برلين الثالث ٢٩٦
- الثياب تصنع بشراً، وإنسان آخر يصبح له عينان غير عينيه ٢٩٩
- إنسان آخر يصير له أيضاً رأس غير رأسه ٣٠٥
- إنسان آخر يحتاج أيضاً إلى مهنة أخرى أو لا إلى أية مهنة على الإطلاق ٣١٤
- كما أنّ فتاة تظهر أيضاً، فرانس بيبركوبف يكتمل من جديد ٣١٩
- حرب دفاعية على المجتمع المدني ٣٣٠
- مؤامرة سيدات، سيداتنا العزيزات لهنّ الكلمة، قلب أوروبا لا يشيخ ٣٤٢
- على السياسة العفاء، أما حياة البطالة والكسل الأبدية فإنها أكثر خطورة ٣٥٠
- الذبابة تدبّ عالياً، الرمل يسقط منها، عما قريب ستظنّ من جديد ٣٦٠
- إلى الأمام. واثق الخطوة، قرع طبول وكتائب ٣٦٧
- القبضة على المنضدة. ٣٧٧

الكتاب السابع

- المباراة تبدأ! إنه جو مطير ٣٨٦
- فرانس اللص، فرانس ليس ملقىً تحت السيارة، إنه يجلس الآن فيها، في أعلى الأعلى،
وصل إلى الهدف ٣٩٤
- آلام الحب ولذة الحب ٤٠٤
- فرص حصاد رائعة، إلا أن المرء يمكن أن يخطيء في الحساب أيضاً ٤١٤
- الأربعاء، في التاسع والعشرين من آب ٤٢٥
- السبت، الأول من أيلول. ٤٣٣

الكتاب الثامن

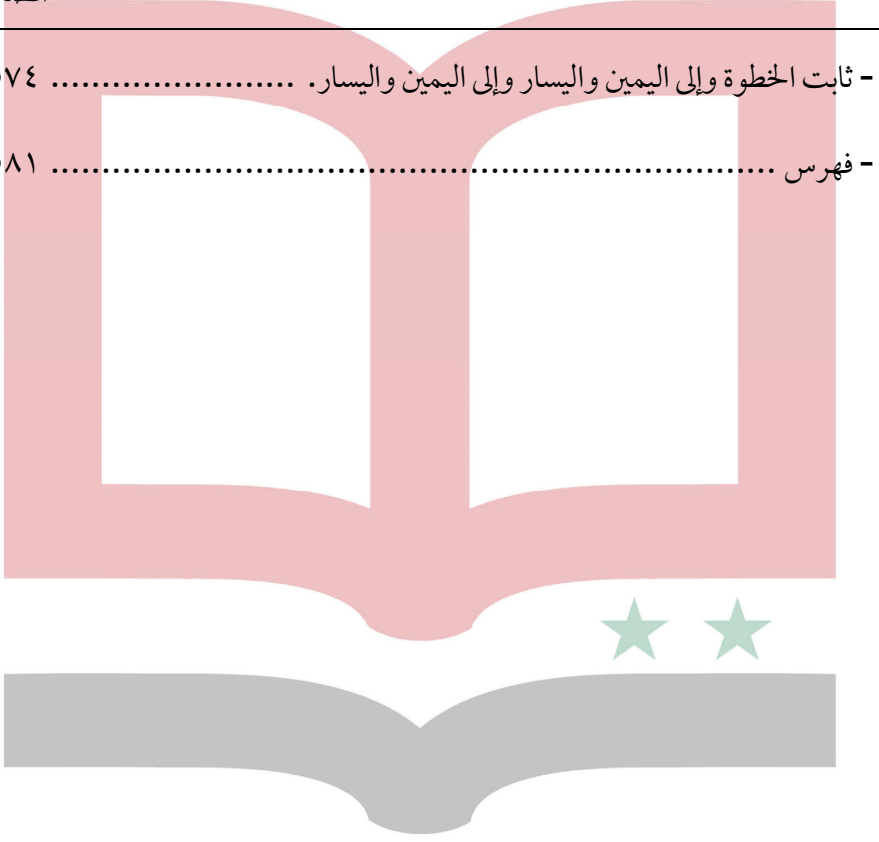
- فرانس لا يلاحظ أي شيء والكون لا يتوقف ٤٤٩
- تتحلل الأمور، فيتخاصم المجرمون ٤٥٩
- انتبهوا إلى كارل السمكري شيء، ما يعتمل في نفس الرجل ٤٦١
- يتأتى النجاح، كارل السمكري يلقي القبض عليه ويحكى عن رضا
وياسهاب ٤٦٧
- ولففت ودرت ورأيت ظلماً على كل شيء، حدث هذا تحت الشمس ٤٧٩
- ويا عجباً، كانت دموع أولئك الذين عانوا من الظلم ولم يكن لهم من مواسٍ ... ٤٨٦

- ها أنا قد أثبتت على الأموات الذين كانوا ماتوا ٤٨٩
- الحصن محاصر كل المحاصرة، الهجوم الأخير للحامية المحاصرة يتم القيام به، إلا أنه ليس إلا مناورة شكلية زائفة ٤٩٤
- المعركة تشب. نحن سائرون إلى الجحيم بالطبول والأبواق ٥٠٣
- في ساحة ألكسندر تتصب الإدارة العامة للشرطة. ٥١١

الكتاب التاسع

- يوم أربعاء أسود لراينهولد، إلا أن هذا الفصل يمكن حذفه ٥٢٣
- مستشفى المجاذيب بوخ، بيت دائم ٥٣١
- سكر عنب وحقنات كافور، لكن في النهاية يتدخل آخر ٥٣٨
- الموت يغني أغنيته البطيئة، البطيئة ٥٤٥
- الآن يسمع فرانس أغنية الموت البطيئة ٥٥٣
- هنا ينبغي وصف ماهية الألم ٥٦٢
- خروج العاهرة الشريرة ظفر المضحي الكبير، الطبال والملوَّح بالبلطات ٥٦٣
- كل بداية صعبة وأول الرقص حنجلة ٥٦٦
- وطني العزيز، لك أن تطمئن، عيناى مفتوحتان ولن أقع في الأحبولة ٥٦٩

- ثابت الخطوة وإلى اليمين واليسار وإلى اليمين واليسار. ٥٧٤
- فهرس ٥٨١



الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة السنورية للكتاب

ألفريد دوبلين

(١٨٧٨-١٩٥٧)

- كاتب ألماني ذائع الصيت.
- حاصل على درجة الطب في برلين وعشق الفلسفة والأدب.
- من رواد الحركة التعبيرية.
- شارك في تأسيس مجلة شتورم (العاصفة)، عام ١٩١٠.
- حصل على جائزة تيودور فونتانه على رواية «قفزات وانغ - لونغ الثلاث» نشوء رواية «فالينشتاين».

من أعماله المؤلفة:

- رحلة القدر تقرير واعتراف، ١٩٤٩.
- نوفمبر ١٩١٨. قصة ثورة ألمانية، ثلاثية (١٩٤٨-١٩٥٠).
- هاملت أو نهاية الليل الطويل، ١٩٥٦.

الهيئة العامة
السورية للكتاب



الهيئة العامة السنورية للكتاب

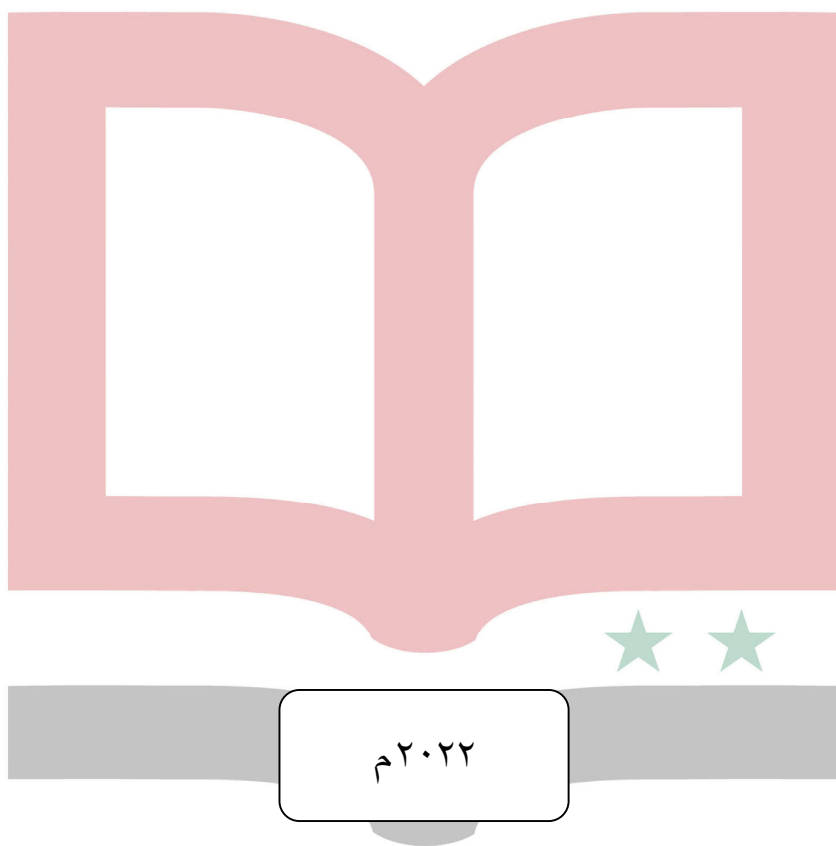
صلاح حاتم

- مترجم سوري.
- ماجستير في اللغة الألمانية وآدابها من جامعة لودفيغ ماكسيميليان - ميونيخ، عام ١٩٦٩.
- عمل في تدريس الأدب المقارن واللغة الألمانية بجامعة تشرين.
- له العديد من المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات العربية والأجنبية.

من أعماله المترجمة الأخيرة:

- أمينه سيفغي أوزدامار: الحياة خان. دار كنعان، دمشق ٢٠٠٩.
- فيرنر هايزينبيرغ: الفيزياء والفلسفة. دار الحوار، اللاذقية ٢٠١١.
- المراسلات: فرويد - يونغ. دار الحوار ٢٠٢٠.

الهيئة العامة
السورية للكتاب



الهيئة العامة السورية للكتاب